الجزء الثانى

من الفتوحات الاسلامية * بعد مضى الفتوحات النبوية * لمؤلفها فريد العصر والأوان * على الهمة عظيم الشان * شيخ الاسلام بالأقطار الحجازية * ومفتى السادة الشافعية بمكة المحمية * الاستاذ السيد أحمد ابن السيد زينى دحلان * أسكنه الله بحبوحة الجنان
آمين آمين
آمين

طبع على نفقة
* مصطفى فهمى الكتبى بمصر *

* بمطبعة السعاده بجوار محافظة مصر *
(سنة ١٣٣٠ هجريه)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ذكر تملك جنكزخان بخارى ﴾

ثم جاءهم جنكزخان بعد خمسة أشهر بجيوشه وحاصر مدينة بخارى و
خوارزم شاه واقتتلوا ثلاثة أيام متتابعة ولم يكن لعسكر خوارزم شاه قوة لقا
جنكزخان ففارق خوارزم شاه بعساكره بخارى وسار الى خراسان فأر
أهل بخارى الشيخ بدر الدين قاضي خان الى التتر ليطلب الامان للناس فأعطو
الأمان وكان قد بقي من عسكر خوارزم شاه طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابه
فاعتصموا بالقلعة فلما أجابهم جنكزخان الى الامان فتحت أبواب المدينة و
ذلك رابع ذي الحجة سنة ست عشرة وستمائة فدخل الكفار بخارى
يتعرضوا إلى أحد بل قالوا لهم كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغ
اخرجوه الينا وساعدونا على قتال من بالقلعة وأظهروا عندهم العدل وح
السيرة ودخل جنكزخان بنفسه وأحاط بالقلعة ونادى في البلد أن لا يتخلف أ
ومن تخلف قتل فحضروا جميعهم فأمرهم بطم الخندق فطموه بالاخشاب والت
حتى ان الكفار كانوا يأخذون المنابر وربعات القرآن ويلقونها في الخندق
لله وانا اليه راجعون ثم تابعوا الزحف الى القلعة وبها نحو أربعمائة من المس
فبذلوا جهدهم ومنعوا القلعة اثني عشر يوما يقاتلون جمع الكفار وأهل
ولم يزالوا كذلك حتى زحفوا اليهم ووصل النقابون الى سور القلعة فن
واشتد حينئذ القتال ومن بها من المسلمين يرمون بكل ما يجدون من حجارة
وسهام فغضب اللعين جنكزخان ورد أصحابه ذلك اليوم وباكرهم من الغد

فى القتال وقد تعب من فى القلعة وجاءهم مالا قبل لهم به فقهرهم الكفار ودخلوا القلعة وقاتلهم المسلمون الذين فيها حتى قتلوا عن آخرهم فلما فرغ من القلعة أمر أن يكتب له رؤساء البلد ففعلوا ذلك فلما عرضت أسماؤهم عليه أمر باحضارهم فحضروا فقال أريد منكم الأموال التى باعكم خوارزم شاه التى كانت مع التجار الذين قتلهم خوارزم شاه فى أول ابتداء الامر كما تقدم ذكرهم وقال لهم انها لى ومن أصحابى أخذت وهى عندكم فأحضر كل من كان عنده شئ منها بين يديه ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا من البلد مجردين من أموالهم ليس مع أحد منهم غير ثيابه التى عليه ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه وأحاط بالمسلمين الذين أخرجهم من البلد فأمر أصحابه أن يقتسموهم فاقتسموهم وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا أيدى سبا وتمزقوا كل ممزق واقتسموا النساء أيضا وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس وارتكبوا من النساء الامر العظيم والناس ينظرون ويبكون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيأ مما نزل بهم فنهم من لم يرض بذلك واختار الموت على ذلك فقاتل حتى قتل وممن فعل ذلك واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين الفقيه الامام ركن الدين امام زاده وولده فانهما لما رأيا ما يفعل بالحرم قاتلا حتى قتلا وكذلك فعل القاضى صدر الدين خان ومن استسلم أخذ أسيرا وألقوا النار فى البلد والمدارس والمساجد وعذبوا الناس بأنواع العذاب لطلب المال

﴿ ذكر مسير جنكزخان الى سمرقند ﴾

لما انقضى أمر بخارى ارتحل جنكزخان وجنوده نحو سمرقند وقد تحققوا عجز خوارزم شاه عن مقابلتهم وكان هو بمكان بين ترمذ وبلخ واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى أسارى فساروا بهم مشاة على أقبح صورة فكل من أعيا وعجز عن المشى قتل فلما قاربوا سمرقند قدموا الخيالة وتركوا الرجالة والأثقال ومع كل عشرة من الاسارى علم فظن أهل البلد أن الجميع عساكر مقاتلة وأحاطوا بسمرقند وفيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية وأما عامة أهل البلد

فلا يحصون كثرة فخرج اليهم شجعان أهله وأهل القوة والجلد رجالة ولم يخرج
معهم من العسكر الخوارزمي أحد لما في قلوبهم من خوف هؤلاء الملاعين فقاتلهم
الرجالة بظاهر البلد فلم يزل التتر يتأخرون وأهل البلد يتبعونهم ويطمعون فيهم
وكان الكفار قد كمنوا لهم كمينا فلما جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم
وبين البلد ورجع الباقون الذين أنشبوا القتال أولا فبقوا في الوسط وأخذهم
السيف من كل جانب فلم يسلم منهم أحد وقتلوا عن آخرهم شهداء رضي الله عنهم
وكانوا سبعين ألفا فلما رأى الباقون من الجند والعامة ذلك ضعفت نفوسهم
وأيقنوا بالهلاك فقال الجند وكانوا أتراكا نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا
فطلبوا الامان فأجابوهم الى ذلك ففتحوا أبواب البلد ولم تقدر العامة على منعهم
وخرجوا الى الكفار بأهلهم وأموالهم فقال لهم الكفار ادفعوا الينا سلاحكم
وأموالكم ودوابكم ونحن نسيركم الى مأمنكم ففعلوا ذلك فلما أخذوا أسلحتهم
ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم وأخذوا أموالهم ودوابهم
ونساءهم فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج أهله جميعهم ومن تأخر
قتلوه فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم
مع أهل بخارى من النهب والقتل والسبي والفساد ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه
وأحرقوا الجامع وتركوا باقي البلد على حاله وافتضوا الابكار وعذبوا الناس
بأنواع العذاب في طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبي وكان ذلك في المحرم سنة
سبع عشرة وستمائة وكان خوارزم شاه بمنزلته كلما اجتمع اليه عسكر سيره الى
سمرقند فيرجعون ولا يقدرون على الوصول اليها نعوذ بالله من الخذلان *
مرة عشرة آلاف فارس فعادوا وسير مرة عشرين ألفا فعادوا أيضا

﴿ ذكر سير التتر الى خوارزم شاه وانهزامه وموته ﴾

لما ملك الكفار سمرقند عمد جنكزخان لعنه الله وسير عشرين ألف فارس وق
لهم اطلبوا خوارزم شاه أين كان ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه وه
الطائفة تسميها التتر المغربة بتشديد الراء المكسورة لأنها سارت نحو غ

خراسان ليقع الفرق بينهم وبين غيرهم منهم لانهم هم الذين أوغلوا فى البلاد فلما أمرهم جنكزخان بالمسير ساروا وقصدوا موضعا يسمى بنجاب ومعناه خمس مياه منها نهر جيحون فوصلوا فلم يجدوا هناك سفينة فعملوا من الخشب مثل الاحواض الكبار وألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم وألقوا الخيل فى الماء وأمسكوا أذنابها وتلك الحياض التى من الخشب مشدودة اليهم فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره فعبروا كلهم دفعة واحدة فلم يشعر خوارزم شاه إلا وقد صاروا معه على أرض واحدة وكان المسلمون قد ملئوا خوفا ورعبا منهم وقد اختلفوا فيما بينهم فانهم كانوا قبل ذلك ثابتين متماسكين بسبب أن نهر جيحون بينهم فلما عبروه اليهم لم يقدروا على الثبات ولا على المسير مجتمعين بل تفرقوا أيدى سبا وطلب كل طائفة منهم جهة ورحل خوارزم شاه لا يلوى على شيء فى نفر من خاصته وقصدوا نيسابور فلما دخلها اجتمع اليه بعض العسكر فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر اليها وكانوا لم يتعرضوا فى مسيرهم لشيء لا بنهب ولا قتل بل يجدون السير فى طلبه لا يمهلونه حتى يجمع لهم جموعا فلما سمع بقربهم منه رحل الى مازندران وهى له أيضا فرحل التتر المغربون فى أثره ولم يعرجوا على نيسابور بل تبعوه فكان كلما رحل من منزلة نزلوها فوصل الى مرسى من بحر طبرستان تعرف باب سكون وله هناك قلعة فى البحر فلما نزل هو وأصحابه فى السفن وصلت التتر فلما رأوا خوارزم شاه وقد دخل البحر وقفوا على ساحل البحر فلما أيسوا من لحاق خوارزم شاه رجعوا فهم الذين قصدوا الرى ومابعد كما سنذكره وقيل إن خوارزم شاه سار من مازندران حتى وصل الى الرى ثم منها الى همذان والتتر فى أثره ففارق همذان فى نفر يسير جريدة ليستر نفسه ويكتم خبره وعاد الى مازندران وركب فى البحر الى هذه القلعة ثم لما وصل الى القلعة المذكورة قدر الله تعالى انقضاء أجله فتوفى بها وكان رحمه الله عالما فاضلا بالفقه والاصول وغيرهما مكرما للعلماء محبا لهم محسنا اليهم يكثر مجالستهم ويحب مناظرتهم بين يديه

وكان صبورا على التعب وادمان السير غير متنعم ولا مقبل على اللذات انما همه في الملك وتدبيره وحفظه وحفظ رعاياه وكان معظما لاهل الدين مقبلا عليهم تبركا بهم ومناقبه رحمه الله كثيرة وكان قد اتسعت ممالكه من جهة العراق الى تركستان وملك بلاد غزنة و بعض الهند

﴿ ذكر استيلاء التتر المغربة على مازندران ﴾

لما أيس التتر المغربة من ادراك خوارزم شاه عادوا فقصدوا بلاد مازندران فملكوها في أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول اليها وامتناع قلاعها فانها لم تزل ممتنعة في قديم الزمان وحديثه حتى ان المسلمين لما ملكوا بلاد الاكاسرة جميعها من العراق الى أقاصي خراسان بقيت أعمال مازندران يؤخذ منهم الخراج ولا يقدرون على دخول البلاد الى أن ملكت أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين وهؤلاء الملاعين ملكوها صفوا عفوا لامر يريده الله تعالى ولما ملكوا بلد مازندران قتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد ولما فرغوا من مازندران سلكوا نحو الرى فرأوا في الطريق والدة خوارزم شاه ونساءه وأموالهم وذخائرهم التي لم يسمع بمثلها من الاعلاق النفيسة وكان سبب ذلك أن والدة خوارزم شاه لما سمعت بما جرى على ولدها خافت ففارقت خوارزم وقصدت نحو الرى لتصل الى أصفهان وهمذان و بلاد الجبل تمتنع فيها فصادفوها في الطريق فأخذوها وما معها قبل وصولها الرى فكان فيما معها ما ملأ عيونهم وقلوبهم وما لم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع والنفيس من الجوهر وغير ذلك وسيروا الجميع الى جنكزخان بسمرقند

﴿ ذكر وصول التتر الى الرى وهمذان ﴾

في سنة سبع عشرة وستمائة وصل التتر لعنهم الله الى الرى في طلب خوارزم شاه محمد لأنهم بلغهم أنه مضى نحو الرى منهزما منهم فجدوا السير في أثره وقد انضاف اليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار وكذلك أيضا من المفسدين الذين يريدون النهب والشر فوصلوا الى الرى على حين غفلة من أهلها فلم يشعروا الا وقد وصلوا

اليها وملكوها ونهبوها وسبوا الحريم واسترقوا الاطفال وفعلوا الافعال التى لم يسمع بمثلها ولم يقيموا بل مضوا مسرعين فى طلب خوارزم شاه فنهبوا فى طريقهم كل مدينة وقرية مروا عليها وفعلوا فى الجميع أضعاف مافعلوا فى الرى وأحرقوا وخربوا ووضعوا السيف فى الرجال والنساء والاطفال فلم يبقوا على شئ وتموا على حالهم الى همذان فلما قاربوا همذان خرج رئيسها ومعه الجمل من الاموال والثياب والدواب وغير ذلك جعله هدية لهم ليطلب الامان لاهل البلد فأمنوهم ثم فارقوها وساروا الى زنجان ففعلوا أضعاف مافعلوا من قبل ثم وصلوا الى قزوين فاعتصم أهلها منهم بمدينتهم فقاتلوهم وجدوا فى قتالهم ودخلوها عنوة بالسيف فاقتتلوا هم وأهل البلد فى باطنه حتى صاروا يقتلون بالسكاكين فقتل من الفريقين مالا يحصى ثم فارقوا قزوين فعد القتلى من أهل قزوين فزادوا على أربعين ألف قتيل رحمهم الله تعالى

﴿ ذكر وصول التتر الى أذربيجان ﴾

لما هجم الشتاء على التتر فى همذان و بلد الجبل رأوا بردا شديدا وثلجا متراكما فساروا الى أذربيجان ففعلوا فى طريقهم بالقرى والمدن الصغار من القتل والنهب مثل ماتقدم منهم وخربوا وأحرقوا ووصلوا الى تبريز و بها صاحب أذربيجان أوزبك بن البهلوان فلم يخرج اليهم ولاحدث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من ادمان الشرب ليلا ونهارا لايفيق وانما أرسل اليهم وصالحهم على مال وثياب ودواب وحمل الجميع اليهم فساروا من عنده يريدون ساحل البحر لانه يكون قليل البرد ليشتوا عليه والمراعى به كثيرة لاجل دوابهم فوصلوا الى موقان وتطرفوا فى طريقهم الى بلاد الكرج فجاء اليهم من الكرج جمع كثير من العسكر نحو عشرة آلاف مقاتل فقاتلوا هم والكرج فانهزمت الكرج وقتل أكثرهم وأرسل الكرج الى أوزبك صاحب أذربيجان يطلبون منه الصلح وازالة ما كان بينهم وبينه وأن يتوافق معهم على دفع التتر فاصطلحوا على أنهم يجتمعون اذا انحسر الشتاء وكذلك أرسلوا الى الملك الاشرف ابن الملك

العادل صاحب خلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الموافقة عليهم وظنوا جميعهم ان التتر يصبرون من الشتاء الى الربيع فلم يفعلوا كذلك بل تحركوا وساروا نحو بلاد الكرج وانضاف اليهم مملوك تركي من مماليك أوزبك صاحب أذربيجان اسمه أقوش وجمع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والاكراد وغيرهم فاجتمع معه خلق كثير وأرسل التتر في الانضمام اليهم فأجابوه الى ذلك ومالوا اليه للجنسية فاجتمعوا وساروا في مقدمة التتر الى الكرج فملكوا حصنا من حصونهم وخربوه ونهبوا البلاد وخربوها وقتلوا أهلها ونهبوا أموالهم حتى وصلوا الى قريب تفليس فاجتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها اليهم فلقيهم أقوش أولا فيمن اجتمع اليه فاقتتلوا قتالا شديدا صبروا فيه كلهم فقتل من أصحاب أقوش خلق كثير وأدركهم التتر وقد تعب الكرج من القتال وقتل منهم أيضا كثير فلم يثبتوا للتتر وانهزموا أقبح هزيمة وركبهم السيف من كل جانب فقتل منهم مالا يحصى كثرة وكانت الوقعة في ذي القعدة من هذه السنة أعني سنة سبع عشرة وستمائة ونهبوا من البلاد ما كان سلم منهم ولقد جرى لهؤلاء التتر مالم يسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم الى بلاد أرمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همذان قال ابن الأثير في الكامل وكان هو موجودا في ذلك العصر مطلعا على تلك الاحوال قال وتالله لا أشك ان من يجيء بعدنا اذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها والحق بيده فمتى استبعد ذلك فلينظر أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ في زماننا هذا في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها يسر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم فلقد دفعوا من العدو الى أمر عظيم ومن الملوك المسلمين الى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه ولم ينل المسلمين أذى وشدة منذ جاء النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا الوقت مثل مادفعوا اليه الآن هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ماوراء النهر وخربوها وناهيك به سعة بلاد وتعدت طائفة منهم النهر

الى خراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك ثم الى الرى و بلاد الجبل وأذربيجان وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم والعدو الآخر الفرنج قد ظهروا من بلادهم فى أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا الى مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها ولم يقدر المسلمون على ازعاجهم عنها ولا اخراجهم منها وباقى ديار مصر على خطر فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ومن أعظم الامور على المسلمين أن سلطانهم خوارزم شاه محمد قد عدم ولم يعرفوا حقيقة خبره فتارة يقال مات عند همذان وأخفى موته وتارة يقال انه دخل أطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفى موته وهذا أمر عظيم حيث أصبح مثل خراسان وعراق العجم وغيرهما سائبا لا مانع له ولا سلطان يدفع عنه والعدو يجوس البلاد يأخذ ما أراد و يترك ما أراد على أنهم لم يبقوا على مدينة الا خربوها كلما مروا عليه نهبوه ومالا يصلح لهم أحرقوه فكانوا يجمعون الابريسم تلالا و يلقونه فى النار وكذلك غيره من الامتعة

﴿ ذكر تملك التتر مراغة ﴾

فى صفر سنة ثمان عشرة وستمائة تملك التتر مدينة مراغة من أذربيجان ٭ وسبب ذلك اننا ذكرنا سنة سبع عشرة وستمائة ما فعله التتر بالكرج وانقضت تلك السنة وهم فى بلاد الكرج فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة ساروا من ناحية الكرج لانهم رأوا ان بين أيديهم شوكة قوية ومضايق تحتاج الى قتال وصدام فعدلوا عنهم وهذه كانت عادتهم اذا قصدوا مدينة ورأوا عندها امتناعا عدلوا عنها فوصلوا الى تبريز وصانعهم صاحبها بمال وثياب ودواب فساروا عنه الى مدينة مراغة فحصروها وليس بها صاحب يمنعها لان صاحبها كانت امرأة وهى مقيمة بقلعة رويندز وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة فلما حصروها قاتلهم أهلها فنصبوا عليها المجانيق وزحفوا اليها فكانت عادتهم اذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون و يقاتلون فان عادوا قتلوا فكانوا يقاتلون من امامهم كرها فكانوا كما قيل

كالاشقر ان تقدم ينحر وان تأخر يعقر وكان التتر يقاتلون وراء المسلمين فيكون القتل أولا في المسلمين الأسارى وهم بنجوة منه فأقاموا على المدينة عدة أيام ثم ملكوها عنوة وقهرا رابع صفر ووضعوا السيف في أهلها فقتل منها ما يخرج عن الحد والاحصاء ونهبوا كل ما صلح لهم وما لا يصلح لهم أحرقوه واختفى بعض الناس عنهم وكانوا يأخذون الأسارى ويقولون لهم نادوا في الدروب ان التتر قد رحلوا فاذا نادى أولئك خرج من اختفى فيؤخذ ويقتل قال ابن الأثير وبلغني أن امرأة من التتر دخلت دارا وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونها رجلا فوضعت السلاح واذا هي امرأة فقتلها رجل أخذته أسيرا قال وسمعت من بعض أهل مراغة أن رجلا من التتر دخل دربا فيه مائة رجل فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم ولم يمد أحد منهم يده اليه بسوء ووضعت الذلة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلا ولا كثيرا نعوذ بالله من الخذلان ثم رحلوا من مراغة قاصدين نحو مدينة إربل قال ووصل الخبر الينا بذلك في الموصل فخفنا حتى ان بعض الناس هم بالجلاء خوفا من السيف وجاءت كتب مظفر الدين صاحب اربل الى بدر الدين صاحب الموصل يطلب منه نجدة من العساكر فسير جماعة من عسكره وأراد أن يمضي الى طرف بلاده من جهة التتر ويحفظ المضايق لئلا يجوزها أحد فانها جميعها جبال وعرة ومضايق لا يقدر أن يجوزها إلا الفارس بعد الفارس ويمنعهم من الجواز اليه ووصلت كتب الخليفة الناصر ورسله الى الموصل والى مظفر الدين يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا ليمنعوا التتر فانهم ربما عدلوا عن جبال اربل لصعوبتها الى هذه الناحية ويطرقون العراق فسار مظفر الدين من اربل في صفر وسار اليهم جمع من عسكر الموصل وتبعهم من المتطوعة كثير وأرسل الخليفة أيضا للملك الاشرف يأمره بالحضور بنفسه في عساكره ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم فاتفق أن الملك المعظم ابن الملك العادل وصل من دمشق الى أخيه الاشرف يستنجده على الفرنج الذين بمصر وطلب منه أن يحضر بنفسه ليسيروا كلهم الى مصر يستنقذوا دمياط من

الفرنج فاعتذر الملك الاشرف الى الخليفة بأخيه وقوة الفرنج وان لم يتداركها خرجت هى وغيرها وشرع يتجهز للسير الى الشام ليدخل مصر ففعل ذلك واستنقذوا دمياط كما ذكرناه فيما سبق فلما اجتمع مظفر الدين والعساكر بدقوقا سير الخليفة اليهم مملوكه قشتمر وهو أكبر أمير بالعراق ومعه غيره من الامراء فى نحو ثمانمائة فارس فاجتمعوا هنالك ليتصل بهم باقى عسكر الخليفة وكان المقدم على الجميع مظفر الدين فلما رأى قلة العسكر لم يقدم على قصد التتر وحكى مظفر الدين قال لما أرسل الى الخليفة فى معنى قصد التتر قلت له إن العدو قوى وليس لى من العسكر ما ألقاه به فان اجتمع معى عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد فأمرنى بالمسير ووعدنى بوصول العسكر فلما سرت لم يحضر عندى غير عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواش فأقمت وما رأيت المخاطرة بنفسى وبالمسلمين ولما سمع التتر باجتماع العساكر لهم رجعوا القهقرى ظنا منهم أن العسكر يتبعهم فلما لم يروا أحدا يطلبهم أقاموا وأقام العسكر الاسلامى عند دقوقا فلما لم يروا أن العدو يقصدهم ولا المدد يأتيهم تفرقوا وعادوا الى بلادهم

﴿ ذكر تملك التتر همذان وقتل أهلها ﴾

وهمذان بفتح الميم وبالذال المعجمة بعدها ألف ونون اسم مدينة بناها همذان بن الفلوج بن سام بن نوح وأما همدان بسكون الميم وبالدال المهملة بعدها ألف ونون فاسم قبيلة باليمن لما تفرق العسكر الاسلامى عاد التتر الى همذان فنزلوا بالقرب منها وكان لهم بها شحنة أى حاكم يحكم فيها فأرسلوا اليه يأمرونه ليطلب من أهلها مالا وثيابا وكانوا قد استنفدوا أموالهم فى طول المدة وكان رئيس همذان شريفا علويا وهو من بيت رياسة قديمة لهذه المدينة وهو الذى يسعى فى أمور أهل البلد من التتر ويوصل اليهم ما يجمعه من الأموال فلما طلبوا الآن منهم المال لم يجد أهل همذان ما يحملونه اليهم فحضروا عند الرئيس ومعه انسان فقيه قد قام فى اجتماع الكلمة على الكفار قياما مرضيا فقالوا لهما هؤلاء الكفار قد أفنوا أموالنا ولم يبق لنا ما نعطيهم وقد هلكنا من أخذهم أموالنا وما يفعله النائب عنهم بنا من الهوان

وكانوا قد جعلوا بهمذان شحنة لهم يحكم فى أهلها بما يختاره فقال الشريف اذا كنا نعجز عنهم فكيف الحيلة فليس لنا إلا مصانعتهم بالاموال فقالوا له أنت أشد علينا من الكفار وأغلظوا له فى القول فقال أنا واحد منكم فاصنعوا ما شئتم فأشار الفقيه باخراج شحنة التتر من البلد والامتناع فيه ومقاتلة التتر فوثب العامة على الشحنة فقتلوه وامتنعوا فى البلد فتقدم التتر اليهم وحصروهم وكانت الاقوات متعذرة فى تلك البلاد جميعها لخرابها وقتل أهلها وجلاء من سلم منهم فلا يقدر أحد على الطعام إلا قليلا وأما التتر فلا يبالون بعدم الاقوات لانهم لا يأكلون الا اللحم من أى حيوان كان ولو من الحشرات والوحوش وبنى آدم ولا تأكل دوابهم إلا نبات الارض حتى انها تحفر بحوافرها الارض عن عروق النبات فتأكلها فلما حصروا همذان قاتلهم أهلها والرئيس والفقيه فى أوائلهم فقتل من التتر خلق كثير وجرح الفقيه عدة جراحات وافترقوا ثم خرجوا من الغد فاقتتلوا أشد من القتال الاول وقتل أيضا من التتر أكثر من اليوم الاول وجرح الفقيه أيضا عدة جراحات وهو صابر وأرادوا أيضا الخروج فى اليوم الثالث فلم يطق الفقيه الركوب وطلب الناس الرئيس العلوى فلم يجدوه وكان قد هرب فى سرب صنعه الى ظاهر البلد هو وأهله الى قلعة هنالك على جبل عال فامتنع فيها فلما فقده الناس بقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون إلا أنهم اجتمعت كلمتهم على القتال الى أن يموتوا فأقاموا فى البلد ولم يخرجوا منه وكان التتر قد عزموا على الرحيل لكثرة من قتل منهم فلما لم يروا أحدا خرج اليهم من البلد طمعوا واستدلوا بذلك على ضعف أهله فقصدوهم وقاتلوهم وذلك فى رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة ودخلوا المدينة بالسيف وقاتلهم الناس فى الدروب فبطل السلاح للزحمة واقتتلوا بالسكاكين فقتل من الفريقين ما لا يحصيه إلا الله تعالى وقوى التتر على المسلمين فأفنوهم قتلا ولم يسلم إلا من كان عمل نفقا يختفى فيه وبقى القتل فى المسلمين عدة أيام ثم ألقوا النار فى البلد فأحرقوه ورحلوا عنها الى مدينة اردويل وكان السبب فى ملكها أعنى همذان ان أهل البلد لما شكوا الى الرئيس الشريف ما يفعل بهم

الكفار أشار عليهم بمكاتبة الخليفة لينفذ اليهم عسكرا مع أمير يجمع كلمتهم فاتفقوا على ذلك فكتب الى الخليفة ينهي اليه ما هم عليه من الخوف والذل وما يركبهم به العدو من الصغار والخزي ويطلب نجدة ولو ألف فارس مع أمير يقاتلون معه ويجتمعون عليه فلما سار القصاد بالكتب أرسل بعض من علم بالحال الى التتر يعلمهم ذلك فأرسلوا الى الطريق فأخذوهم وأخذوا الكتب منهم وأرسلوا الى الرئيس ينكرون عليه الحال فجحد فأرسلوا اليه كتبه وكتب الجماعة فسقط فى أيديهم وتقدم اليهم التتر حينئذ وقاتلوهم وجرى القتال كما ذكرنا الى أن ملكوهم

﴿ ذكر مسير التتر الى أذربيجان وملكهم أردويل وغيرها ﴾

لما فرغ التتر من همذان ساروا الى اذربيجان فوصلوا الى اردويل فملكوها وقتلوا فيها وأكثروا القتل وخربوا أكثرها وساروا منها الى تبريز وكان قد قام بأمرها شمس الدين الطغرائي وجمع كلمة أهلها وقد فارقها صاحبها أوزبك بن البهلوان وكان أميرا مخلفا لا يزال منهمكا فى الخمر ليلا ونهارا يبقى الشهر والشهرين لا يظهر وإذا سمع هيعة طار مجفلا ولهاوله جميع أذربيجان واران وهو أعجز خلق الله عن البلاد من عدو يريدها ويقصدها فلما سمع بمسير التتر من همذان فارق هو تبريز وقصد نقجوان وسير أهله ونساءه الى خوى ليبعد عنهم فقام هذا الطغرائي بأمر البلد وجمع الكلمة وقوى نفوس الناس على الامتناع وحذرهم عاقبة التخاذل والتوانى وحصن البلد بجهده وطاقته فلما قاربه التتر وسمعوا بما أهل البلد عليه من اجتماع الكلمة على قتالهم وانهم قد حصنوا المدينة وأصلحوا السور والخندق أرسلوا يطلبون منهم مالا وثيابا فاستقر الامر بينهم على قدر معلوم من ذلك فسيروه اليهم فأخذوه ورحلوا الى مدينة سراو فنهبوها وقتلوا كل من فيها ورحلوا منها الى بيلقان من بلاد اران فنهبوا كل ما مروا به من البلاد والقرى وخربوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها فلما وصلوا الى بيلقان حصروها فاستدعى أهلها منهم رسولا يقررون معه الصلح فأرسلوا اليهم رسولا من أكابرهم ومقدميهم فقتله أهل البلد فزحف التتر اليهم وقاتلوهم ثم انهم ملكوا

البلد عنوة فى شهر رمضان سنة ثمان عشرة و وضعوا السيف فلم يبقوا على صغير ولا كبير ولا امرأة حتى انهم يشقون بطون الحبالى و يقتلون الأجنة وكانوا يفجرون بالمرأة ثم يقتلونها وكان الانسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة فيقتلهم واحدا بعد واحد حتى يفرغ من الجميع لا يمد أحد منهم اليه يدا فلما فرغوا منها استقصوا ما حولها من النهب والتخريب وساروا الى مدينة كنجة وهى أم بلاد ايران فعلموا بكثرة أهلها وشجاعتهم لكثرة دربتهم بقتال الكرج وحصانتها فلم يقدموا عليها فأرسلوا الى أهلها يطلبون منهم المال والثياب فحملوا اليهم ما طلبوا فساروا عنهم

﴿ ذكر وصول التتر الى بلاد الكرج ﴾

لما فرغ التتر من بلاد المسلمين بأذربيجان وايران بعضه بالتملك و بعضه بالصلح ساروا الى بلاد الكرج من هذه الاعمال أيضا وكان الكرج قد أعدوا لهم واستعدوا وسيروا جيشا كبيرا الى طرف بلادهم ليمنعوا التتر عنها فوصل اليهم التتر فالتقوا فلم يثبت الكرج بل ولوا منهزمين فأخذهم السيف فلم يسلم منهم الا الشريد قال ابن الأثير ولقد بلغنى أنهم قتل منهم نحو ثلاثين ألفا ونهبوا ما وصلوا اليه من بلادهم وخربوها وفعلوا بها ما هو عادتهم فلما وصل المنهزمون الى تفليس و بها ملكهم جمع جموعا أخرى وسيرهم الى التتر أيضا ليمنعوهم من توسط بلادهم فرأوا التتر وقد دخلوا البلاد لم يمنعهم جبل ولا مضيق ولا غير ذلك فلما رأوا فعلهم عادوا الى تفليس فأخذوا البلاد ففعل التتر فيها ما أرادوا من النهب والقتل والتخريب ورأوا بلادا كثيرة المضايق والدربندات فلم يتجاسروا على الوغول فيها فعادوا منها وداخل الكرج منهم خوف عظيم قال ابن الاثير حتى سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قدم رسولا أنه قال من حدثكم ان التتر انهزموا أو أسروا فلا تصدقوه واذا حدثتم أنهم قتلوا فصدقوا فان القوم لا يفرون أبدا ولقد أخذنا أسيرا منهم فألقى نفسه من الدابة وضرب رأسه بالحجر الى أن مات ولم يسلم نفسه للاسر

﴿ ذكر وصولهم الى دربند شروان وما فعلوه ﴾

لما عاد التتر من بلاد الكرج قصدوا دربند شروان فحصروا مدينة شماخى

وقاتلوا أهلها فصبروا على الحصر ثم ان التتر صعدوا سورها بالسلاليم وقيل بل جمعوا كثيرا من الجمال والبقر والغنم وغير ذلك ومن قتل الناس منهم وممن قتل من غيرهم وألقوا بعضه فوق بعض فصار مثل التل وصعدوا عليه فأشرفوا على المدينة وقاتلوا أهلها فصبروا وتلك الليلة فأنتنت تلك الجيف وانهضمت فلم يبق للتتر على السور استعلاء ولا تسلط على الحرب فاعادوا الزحف وملازمة القتال فضجر أهلها ومسهم التعب والكلال والاعياء فضعفوا فملك التتر البلد وقتلوا فيه كثيرا ونهبوا الاموال واستباحوها فلما فرغوا منه أرادوا عبور الدربند فلم يقدروا على ذلك فأرسلوا رسولا الى شروان شاه ملك دربند شروان يقولون له ليرسل اليهم رسولا يسعى بينهم فى الصلح فأرسل عشرة رجال من أعيان أصحابه فأخذوا أحدهم فقتلوه ثم قالوا للباقين ان أنتم عرفتمونا طريقا نعبر فيه فلكم الامن وان لم تفعلوا قتلناكم كما قتلنا هذا فقالوا لهم ان هذا الدربند ليس فيه طريق البتة ولكن فيه موضع هو أسهل ما فيه من الطرق فساروا معهم الى ذلك الطريق فعبروا فيه وخلفوا الدربند وراء ظهورهم

﴿ ذكر ما فعلوه باللان وقفجاق ﴾

لما عبر التتر دربند شروان ساروا فى تلك الاعمال وفيها أمم كثيرة منهم اللان واللكز وطوائف من الترك فنهبوا وقتلوا من اللكز كثيرا وهم مسلمون وكفار وأوقعوا بمن عداهم من أهل تلك البلاد ووصلوا الى اللان وهم أمم كثيرة وقد بلغهم خبرهم فجدوا وجمعوا عندهم جمعا من قفجاق فقاتلوهم فلم تظفر احدى الطائفتين بالاخرى فأرسل التتر الى قفجاق يقولون نحن وأنتم جنس واحد وهؤلاء اللان ليسوا منكم حتى تنصروهم ولا دينكم مثل دينهم ونحن نعاهدكم أننا لا نتعرض اليكم ونحمل اليكم من الاموال والثياب ما شئتم وتتركوا بيننا وبينهم فاستقر الامر بينهم على مال حملوه وثياب وغير ذلك فحملوا اليهم ما استقر وفارقهم قفجاق فأوقع التتر باللان فقتلوا منهم وأكثروا ونهبوا وسبوا وساروا الى قفجاق وهم امنون متفرقون لما استقر بينهم من الصلح فلم يسمعوا بهم الا وقد

طرقوهم ودخلوا بلادهم فأوقعوا بهم الاول فالاول وأخذوا منهم أضعاف ما حملوا اليهم وسمع من كان بعيد الدار من قفجاق الخبر ففروا من غير قتال وأبعدوا فمنهم من اعتصم بالغياض ومنهم من اعتصم بالجبال ومنهم من لحق ببلاد الروس وأقام التتر في بلاد قفجاق وهي أرض كثيرة المراعي في الشتاء والصيف وفيها أماكن باردة في الصيف كثيرة المرعى وأماكن حارة في الشتاء كثيرة المرعى وهي غياض على ساحل البحر ووصلوا الى مدينة سوداق وهي مدينة قفجاق التي منها مادتهم فانها على بحر خزرية والمراكب تصل اليها وفيها الثياب فتشترى منهم وتبيع عليهم الجواري والمماليك والبرطاس والقندر والسنجاب وغير ذلك مما هو في بلادهم وبحر خزرية هذا متصل بخليج القسطنطينية ولما وصل التتر الى سوداق ملكوها وقتلوا أهلها وتفرق أهلها الذين سلموا من القتل فمنهم من صعد الجبال بأهله وماله ومنهم من ركب البحر وسار الى بلاد الروم التي بيد المسلمين من أولاد قلج ارسلان السلجوقي

﴿ ذكر ما فعله التتر بقفجاق والروس ﴾

لما استولى التتر على أرض قفجاق وتفرق أهل قفجاق كما ذكرنا سار طائفة كثيرة منهم الى بلاد الروس وهي بلاد كثيرة طويلة عريضة تجاورهم وأهلها يدينون بالنصرانية فلما وصلوا اليهم اجتمعوا كلهم واتفقت كلمتهم على قتال التتران قصدوهم وأقام التتر بمدينة قفجاق مدة ثم انهم ساروا سنة عشرين وستمائة الى بلاد الروس فسمع الروس بقفجاق وخبرهم وكانوا مستعدين لقتالهم فساروا الى طريق التتر ليلقوهم قبل أن يصلوا الى بلادهم ليمنعوهم عنها فبلغ مسيرهم التتر فعادوا على أعقابهم راجعين فطمع الروس وقفجاق فيهم وظنوا أنهم عادوا خوفا منهم وعجزوا عن قتالهم فجدوا في اتباعهم ولم يزل التتر راجعين وأولئك يقفون أثرهم اثنى عشر يوما ثم ان التتر عطفوا على الروس وقفجاق فلم يشعروا بهم الا وقد لقوهم على غرة منهم لانهم كانوا قد أمنوا التتر واستشعروا القدرة عليهم فلم يجمعوا للقتال الا وقد بلغ التتر منهم مبلغا عظيما فصبر الطائفتان صبرا لم يسمع بمثله ودام القتال بينهم عدة أيام ثم ان التتر ظفروا واستظهروا وانهزم قفجاق

والروس هزيمة عظيمة بعد أن أثخن فيهم التتر وكثر القتل فى المنهزمين فلم يسلم منهم الا القليل ونهب جميع ما معهم ومن سلم وصل الى البلاد على أقبح صورة لبعد الطريق والهزيمة وتبعهم كثير يقتلون وينهبون ويخربون البلاد حتى خلا أكثرها فاجتمع كثير من أعيان تجار الروس وأغنيائهم وحملوا مايعز عليهم وساروا يقطعون البحر الى بلاد الاسلام فى عدة مراكب فلما قاربوا المرسى الذى يريدونه انكسر مركب من مراكبهم فغرق الا أن الناس نجوا وكانت العادة جارية ان السلطان له المركب الذى ينكسر فأخذ من ذلك شيأ كثيرا وسلم باقى المراكب وأخبر من بها بهذه الحال

﴿ ذكر عود التتر من بلاد قفجاق والروس الى ملكهم ﴾

لما فعل التتر بالروس ماذكرناه ونهبوا بلادهم عادوا عنها وقصدوا بلغار أواخر سنة عشرين وستمائة فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم فى عدة مواضع وخرجوا اليهم فلقوهم واستجروهم الى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم وأخذهم السيف من كل ناحية فقتل أكثرهم ولم ينج منهم الا القليل فساروا الى سقسين عائدين الى ملكهم جنكزخان وخلت أرض قفجاق منهم فعاد من سلم من قفجاق الى بلادهم وكان الطريق منقطعا منذ دخلها التتر فلم يصل منهم شئ من البرطاس والسنجاب والقندر وغيرها مما يحمل الى تلك البلاد فلما فارقها التتر وعاد القفجاق اليها اتصل الطريق وحملت الامتعة كما كانت هذه أخبار التتر المغربة ذكرناها سياقة واحدة لئلا تنقطع

﴿ ذكر مافعله التتر بما وراء النهر بعد بخارى وسمرقند ﴾

قد ذكرنا مافعله التتر المغربة التى سيرها ملكهم جنكزخان لعنه الله الى خوارزم شاه وأما جنكزخان فانه بعد أن سير هذه الطائفة الى خوارزم شاه وبعد انهزام خوارزم شاه من خراسان قسم أصحابه عدة أقسام سير قسما منها الى بلاد فرغانة ليملكوها وسير قسما آخر الى ترمذ وسير قسما آخر منها الى كلانة وهى قلعة حصينة على جانب جيحون من أحصن القلاع وأمنع الحصون

فصارت كل طائفة الى الجهة التى أمرت بقصدها ونازلتها واستولت عليها وفعلت من القتل والاسر والسبي والنهب والتخريب وأنواع العذاب مثل مافعل أصحابهم فلما فرغوا من ذلك عادوا الى ملكهم جنكزخان وهو بسمرقند فجهز جيشا آخر فعبروا جيحون الى خراسان

﴿ ذكر تملك التتر خراسان ﴾

لما سار الجيش المنفذ الى خراسان عبروا جيحون وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الامان فأمنوهم فسلم البلد وكان ذلك سنة سبع عشرة وستمائة ولم يتعرضوا اليه بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة وساروا وقصدوا الزوزان وميمند واندخوى وقاريات فلكوا الجميع وجعلوا فيه ولاة ولم يتعرضوا الى أهلها بسوء ولا أذى سوى انهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم حتى وصلوا الى الطالقان وهى ولاية تشتمل على عدة بلاد وفيها قلعة حصينة يقال لها منصور كوه لاترام علوا وارتفاعا وبها رجال يقاتلون شجعان فحصروها مدة ستة أشهر يقاتلون أهلها الليل والنهار ولا يظفرون منها بشيء فأرسلوا الى جنكزخان يعرفونه عجزهم عن تملك هذه القلعة لكثرة مافيها من المقاتلة ولامتناعها بحصانتها فسار بنفسه وبمن عنده من جموعه اليهم وحصرها ومعه خلق كثير من المسلمين أسرى فأمرهم بمباشرة القتال والا قتلهم فقاتلوا معه وأقام عليها أربعة أشهر أخرى فقتل من التتر عليها خلق كثير فلما رأى ملكهم ذلك أمر أن يجمع له من الحطب والاخشاب ما أمكن جمعه ففعلوا ذلك وصاروا يعملون صفا من خشب وفوقه صفا من تراب فلم يزالوا كذلك حتى صار تلا عاليا يوازى القلعة فاجتمع من بها وفتحوا بابها وخرجوا منها وحملوا حملة رجل واحد فسلم الخيالة منهم ونجوا وسلكوا تلك الجبال والشعاب ونجوا وأما الرجالة فقتلوا ودخل التتر القلعة وسبوا النساء والاطفال ونهبوا الاموال والامتعة ثم ان جنكزخان جمع أهل البلاد الذين أعطاهم الامان ببلخ وغيرها وسيرهم مع بعض أولاده الى مدينة مرو فدخلوا اليها وقد اجتمع بها من الاعراب والاتراك وغيرهم ممن نجا من المسلمين مايزيد على مائتى ألف رجل وهم

معسكرون بظاهر مرو وهم عازمون على لقاء التتر ويحدثون نفوسهم بالغلبة لهم والاستيلاء عليهم فلما وصل التتر اليهم التقوا واقتتلوا وصبر المسلمون وأما التتر فلا يعرفون الهزيمة حتى ان بعضهم أسر فقال وهو عند المسلمين ان قيل ان التتر يقتلون فصدقوا وان قيل انهم ينهزمون فلا تصدقوا فلما رأى المسلمون صبر التتر واقدامهم ولوا منهزمين فقتل التتر منهم وأسروا الكثير ولم يسلم الا القليل ونهبت أموالهم وسلاحهم ودوابهم وأرسل التتر الى ما حولهم من البلاد يجمعون الرجال لحصار مرو فلما اجتمع لهم ما أرادوا تقدموا الى مرو وحصروها وجدوا فى حصرها ولازموا القتال وكان أهل البلد قد ضعفوا بانهزام ذلك العسكر وكثرة القتل والاسر فيهم فلما كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل التتر الى الامير الذى بها مقدما على من فيها يقولون له لا تهلك نفسك وأهل البلد واخرج الينا فنحن نجعلك أمير هذه البلد ونرحل عنك فارسل يطلب الامان لنفسه ولاهل البلد فأمنوهم فخرج اليهم فخلع عليه ابن جنكز خان واحترمه وقال له أريد أن تعرض على أصحابك حتى ننظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه وأعطيناه اقطاعا ويكون معنا فلما حضروا عنده وتمكن منهم قبضوا عليهم وعلى أميرهم وكتفوهم فلما فرغ منهم قال اكتبوا الى تجار البلد ورؤساءه وأرباب الاموال فى جريدة واكتبوا الى أرباب الصناعات والحرف فى نسخة أخرى واعرضوا ذلك علينا ففعلوا ما أمرهم فلما وقف على النسخ أمر أن يخرج أهل البلد منه بأهلهم فخرجوا كلهم ولم يبق فيه أحد فجلس على كرسى من ذهب وأمر أن يحضر أولئك الاجناد الذين قبض عليهم فأحضروا وضربت أعناقهم صبرا والناس ينظرون اليهم ويبكون وأما العامة فانهم قسموا الرجال والنساء والاطفال والاموال فكان يوما مشهودا من كثرة الصراخ والبكاء والعويل وأخذوا أرباب الاموال فضربوهم وعذبوهم بأنواع العقوبات فى طلب الاموال فربما مات أحدهم من شدة الضرب ولم يكن بقى له ما يفتدى به نفسه ثم انهم أحرقوا البلد وأحرقوا تربة السلطان سنجر السلجوقى ونبشوا القبور طلبا للمال فبقوا كذلك ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع أمر بقتل

أهل البلد كافة وقال هؤلاء عصوا علينا فقتلوهم أجمعين وأمر باحصاء القتلى فكانوا نحو سبعمائة ألف قتيل فيهم العلماء والصلحاء والزهاد والعباد كما كان مثل ذلك من التتر المغربة فيما أخذوه من البلاد كما تقدم فانا لله وانا اليه راجعون مما جرى على المسلمين وسبحان من بيده ملكه كيف يشاء ولا يسئل عما يفعل ثم ساروا الى نيسابور فحصروها خمسة أيام وبها جمع صالح من العسكر الاسلامي فلم يكن لهم بالتتر قوة فملكوا المدينة وأخرجوا أهلها الى الصحراء فقتلوهم وسبوا حريمهم وعاقبوا من اتهموه بمال كما فعلوا بمرو وأقاموا خمسة عشر يوما يخرجون ويفتشون المنازل على الأموال وكانوا لما قتلوا أهل مرو قيل لهم ان قتلاهم سلم منهم كثير لكونهم لم يتمموا قتلهم حتى تزهق أرواحهم وان كثيرا منهم نجوا الى بلاد الاسلام فأمروا بأهل نيسابور أن تقطع رؤسهم لئلا يسلم من القتل أحد ففعلوا ذلك فلما فرغوا من ذلك سيروا طائفة منهم الى طوس ففعلوا كذلك أيضا وخربوها وخربوا المشهد الذي فيه علي الرضا بن موسى الكاظم والذي فيه هارون الرشيد وجعلوا الجميع خرابا ثم ساروا الى هراة وهي من أحصن البلاد فحصروها عشرة أيام ثم ملكوها وأمنوا أهلها وقتلوا منهم البعض وجعلوا عند من سلم منهم شحنة وساروا الى غزنة فلقيهم جلال الدين بن خوارزم شاه لانه كان متملكا ذلك القطر فقاتلهم وهزمهم كما سنذكره فلما سمع بذلك أهل هراة وثبوا على الشحنة فقتلوه فلما عاد المنهزمون الى هراة وجدوا عسكرا جاءهم مددا من جنكزخان فانضموا اليهم ودخلوا هراة قهرا وعنوة وقتلوا كل من فيها ونهبوا الأموال وسبوا الحريم ونهبوا السواد وخربوا المدينة جميعها وأحرقوها وعادوا الى ملكهم جنكزخان وهو بالطالقان يرسل السرايا الى بلاد خراسان ففعلوا بخراسان مثل ما فعلوا في غيرها ولم يسلم من شرهم وفسادهم شيء من البلاد وكان جميع ما فعلوه بخراسان سنة سبع عشرة وستمائة

❊ ذكر تملكهم خوارزم وتخريبها ❊

وأما الطائفة من الجيش التي سيرها جنكزخان الى خوارزم فانها كانت أكثر

السرايا بجميعها العظم البلد فساروا حتى وصلوا الى خوارزم وفيها عسكر كبير من المسلمين وأهل البلد معروفون بالشجاعة والكثرة فقاتلوهم أشد القتال سمع به الناس ودام الحصر لهم خمسة أشهر فقتل من الفريقين خلق كثير الا أن القتلى من التتر كانوا أكثر لان المسلمين كان يحميهم السور فأرسل التتر الى ملكهم جنكزخان يطلبون المدد فأمدهم بخلق كثير فلما وصلوا الى البلد زحفوا زحفا متتابعا فملكوا طرفا منه فاجتمع أهل البلد وقاتلوهم فى طرف الموضع الذى ملكوه فلم يقدروا على اخراجهم ولم يزالوا يقاتلونهم والتتر يملكون منهم محلة بعد محلة وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون فى المحلة التى تليهم فكان الرجال والنساء والصبيان يقاتلون فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا البلد جميعه وقتلوا كل من فيه ثم انهم فتحوا السد الذى كان يمنع ماء جيحون عن البلد فدخل الماء فغرق البلد جميعه وتهدمت الابنية وبقى موضعه ماء كالبحر ولم يسلم من أهله أحد البتة فان غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله منهم من يختفى ومنهم من يهرب ومنهم من يخرج ثم يسلم ومنهم من يلقى نفسه بين القتلى فيظنون أنه مقتول فينجو وأما أهل خوارزم فمن اختفى منهم من التتر غرقه الماء أو قتله فأصبحت خرابا يبابا

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر

فانا لله وانا اليه راجعون قال ابن الاثير وهذا لم يسمع بمثله فى قديم الزمان وحديثه نعوذ بالله من الحور بعد الكور ومن الخذلان بعد النصر فلقد عمت هذه المصيبة الاسلام وأهله فكم من قتيل من أهل خراسان وغيرها لان القاصدين من التجار وغيرهم كانوا كثيرين ومضى الجميع تحت السيف ولما فرغوا من خراسان وخوارزم عادوا الى ملكهم بالطالقان

﴿ ذكر تجهيز جنكزخان الجيوش الى غزنة لقتال جلال الدين بن خوارزم شاه ﴾

لما فرغ التتر من خراسان وعادوا الى ملكهم جهز جيشا كثيفا وسيره الى غزنة وبها جلال الدين بن خوارزم شاه مالكا لها وقد اجتمع اليه من عسكر أبيه نحو

ستين ألفا وذلك غير من كانوا عنده من عسكر مملكته فلما وصل التتر الى أعمال غزنة خرج اليهم المسلمون مع جلال الدين بن خوارزم شاه فالتقوا فى موضع يقال له بلق فاقتتلوا هناك قتالا شديدا وبقوا كذلك ثلاثة أيام ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم التتر وقتلهم المسلمون كيف شاؤا ومن سلم منهم عاد الى ملكهم بالطالقان فلما سمع أهل هراة بذلك سار وا بالوالى الذى عندهم للتتر فقتلوه فسير اليهم جنكزخان عسكرا فاجتمعوا مع المنهزمين من غزنة ودخلوا هراة وملكوا البلد وقتلوا أهله وخربوه وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم ثم ان جلال الدين بن خوارزم شاه بعد أن هزم جيش جنكزخان أرسل رسولا الى جنكزخان يقول له أى موضع تريد يكون فيه الحرب حتى تأتى اليه فجهز جنكزخان عسكرا كثيرا أكثر من الاول مع بعض أولاده وسيره اليه فوصل الى كابل فتوجه العسكر الاسلامى اليهم وتصافوا هناك وجرى بينهم قتال عظيم فانهزم التتر ثانيا وقتل منهم كثير وغنم المسلمون ما معهم وكان عظيما وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير فاستنقذوهم وخلصوهم ثم ان المسلمين جرى بينهم فتنة مع بعضهم لاجل الغنيمة وسبب ذلك أن أميرا منهم يقال له سيف الدين بغراق أصله من الاتراك كان شجاعا مقداما ذارأى فى الحرب ومكيدة واصطلى الحرب مع التتر بنفسه وقال لعسكر جلال الدين تأخروا أنتم فقد ملئتم منهم رعبا وهو الذى كسر التتر على الحقيقة وكان من المسلمين أيضا أمير كبير يقال له ملك خان بينه وبين خوارزم شاه نسب وهو صاحب هراة فاختلف هذان الاميران فى الغنيمة فاقتتلوا فقتل بينهم أخ لبغراق فقال بغراق أنا أهزم الكفار ويقتل أخى لاجل هذا السحت فغضب وفارق العسكر وسار الى الهند فتبعه من العسكر ثلاثون ألفا كلهم يريدون أن يكونوا اتباعا له فاستعطفه جلال الدين بكل طريق وسار بنفسه اليه وذكره الجهاد وخوفه من الله تعالى وبكى بين يديه فلم يرجع وسار مفارقا فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا فبينما هم كذلك اذ ورد الخبر ان جنكزخان قد وصل فى جموعه وجيوشه فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين لاجل من فارقهم

من العسكر عزم على مفارقة غزنة ولم يقدر على المقام فسار نحو بلاد الهند فوصل الى ماء السند وهو نهر كبير فلم يجد من السفن ما يعبر فيه وكان جنكز خان يقص أثره مسرعا فلم يتمكن جلال الدين من العبور حتى أدركه جنكز خان بجيوشه فاضطر المسلمون حينئذ الى القتال والصبر لتعذر العبور عليهم وكانوا فى ذلك كالاشقر ان تأخر ينحر وان تقدم يعقر فتصافوا واقتتلوا أشد قتال اعترفوا كلهم أن ما مضى من الحروب كان لعبا بالنسبة الى هذا القتال وبقوا كذلك ثلاثة أيام فقتل الأمير ملك خان المقدم ذكره وخلق كثير وكان القتل فى الكفار أكثر والجراح أعظم فرجع الكفار عنهم فأبعدوا ونزلوا فلما رأى المسلمون أنهم لا مدد لهم وقد ازدادوا ضعفا بمن قتل منهم وجرح ولم يعلموا بما أصاب الكفار من ذلك فأرسلوا يطلبون السفن فوصلت وعبر المسلمون الى الهند ومعهم جلال الدين وقيل انهم عبروا بغير سفن وان جلال الدين اقتحم النهر العظيم هو وعساكره وما نجا منهم الا أربعة آلاف حفاة عراة ورمى الموج جلال الدين مع ثلاثة من خواصه الى موضع بعيد وفقده أصحابه ثلاثة أيام ثم وجدوه واعتدوا بمقدمه عيدا ثم جرى بين جلال الدين وبين أهل تلك البلاد وقائع انتصر فيها جلال الدين وملك الى لهاور من الهند وأما جنكز خان وعساكره فانهم عادوا الى غزنة وقد قويت نفوسهم بعبور المسلمين الى الهند وبعدهم عنهم فلما وصلوا غزنة ملكوها لخلوها من العساكر والمحامى فقتلوا أهلها ونهبوا الاموال وسبوا الحريم ولم يبقوا أحدا من العلماء والصلحاء وغيرهم وخربوها وأحرقوها وفعلوا بسوادها وما حولها من المدائن والقرى كذلك فأصبحت تلك الاعمال جميعها خالية من الانيس خاوية على عروشها كأن لم تغن بالامس ثم رجع جنكز خان بجيوشه الى بلاده وأما الممالك التى ملكها وخربها فترك الكثير منها ولم يجعل له عمالا فيها فرجع اليها أهلها وتملكها ملوكها الذين كانوا فيها (غريبة عجيبة) لما وصل جلال الدين الى حافة نهر السند ولم يجد من السفن ما يعبر فيه وجنكز خان خلفه يقص أثره ضاقت الارض بما رحبت على جلال الدين ومن

معه ورأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يبكين ويصحن يقلن له بالله عليك اقتلنا أو خلصنا من الاسر فأمر بهن فغرقن فى النهر وهذه من عجائب البلايا ونوادر المصائب والرزايا

﴿ ذكر عود التتر الى الرى وهمذان وغيرهما ﴾

فى سنة احدى وعشرين وصل طائفة من التتر من عند ملكهم جنكزخان وهؤلاء غير الطائفة الغربية التى ذكرنا أخبارها قبل وصول هؤلاء الرى وكان من سلم من أهل الرى قد عادوا اليها وعمروها فلم يشعروا بالتتر الا وقد وصلوا اليهم فلم يمتنعوا عنهم فوضعوا فى أهلها السيف وقتلوهم كيف شاؤا ونهبوا البلد وخربوه وساروا الى ساوه ففعلوا بها كذلك ثم الى قم وقاشان وكانتا قد سلمتا من التتر الاولين فانهم لم يقربوهما ولا أصيب أهلهما بأذى فأتاهما هؤلاء وملكوهما وقتلوا أهلهما وخربوهما وألحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب ثم ساروا فى البلاد يخربون ويقتلون وينهبون ثم قصدوا همذان وكان قد اجتمع بها كثير ممن سلم من أهلها فأبادوهم قتلا وأسرا ونهبا وخربوا البلد وكانوا لما وصلوا الى الرى رأوا بها عسكرا كثيرا من الخوارزمية فكبسوهم وقتلوا منهم وانهزم الباقون الى أذربيجان فنزلوا بأطرافها فلم يشعروا الا والتتر أيضا قد كبسوهم ووضعوا السيف فيهم فولوا منهزمين فوصل طائفة منهم الى تبريز وأرسلوا الى صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون له ان كنت موافقنا وعلى طاعتنا فلم الينا من عندك من الخوارزمية والا فعرفنا انك غير موافق لنا ولا فى طاعتنا فعمد ابن البهلوان الى من عنده من الخوارزمية فقبض عليهم ثم قتل بعضهم وجعل بعضا منهم أسرى وأرسل رؤس من قتلهم الى التتر وأرسل معها الاسرى وأنفذ مع الجميع من الاموال والثياب والدواب شيأ كثيرا فعادوا عن بلاده وساروا نحو خراسان وفعل التتر هذا كله فى هذه العودة وليسوا فى كثرة بل كانوا نحو ثلاثة آلاف وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ست آلاف فارس ولكن وقع الرعب فى قلوبهم من التتر وان كانوا قليلا وكان عسكر ابن البهلوان أكثر من ذلك كله

ومع هذا فلم يحدث نفسه ولا الخوارزمية بالامتناع منهم قال ابن الاثير فنسأل الله أن ييسر للاسلام والمسلمين من يقوم بنصرتهم فقد دفعوا الى أمر عظيم من قتل النفوس ونهب الاموال واسترقاق الاولاد وسبي الحريم وقتلهن وتخريب البلاد

﴿ ذكر وصول جلال الدين بن خوارزم شاه الى خوزستان والعراق ﴾

في أول سنة اثنتين وعشرين وصل جلال الدين بن خوارزم شاه الى بلاد خوزستان والعراق واستتاب نوابا في ممالك الهند واستولى على كرمان وأصفهان وباقي عراق العجم وفارس وقاربت جيوشه بغداد فخاف أهل بغداد منه ثم سار الى تبريز وأذربيجان وكثرت عساكره واستفحل أمره وصار ينتزع الممالك من يد الملوك الذين كانت الممالك بأيديهم والكلام على ذلك طويل وصار يفعل في كثير من البلاد التي يملكها من القتل والاسر والنهب مثل ما يفعل التتر * وفي هذه السنة توفي الخليفة الناصر لدين الله وكانت مدة خلافته قريبا من سبع وأربعين سنة قيل ان أصل قيام التتر كان بمكاتبته لهم يأمرهم بقتال خوارزم شاه ليشغلوه عن تطلبه ملك العراق والله أعلم بحقيقة الحال وولي الخلافة بعد الناصر ولده الظاهر بأمر الله ومكث تسعة أشهر وتوفي وولي ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور ثم المستعصم ختام خلفائهم كما سيأتي ولما قوي أمر جلال الدين بن خوارزم شاه واستفحل ملكه بلغه سنة أربع وعشرين وستمائة أن طائفة من التتر عظيمة قد بلغوا الى دامغان بالقرب من الري عازمين على بلاد الاسلام فسار اليهم وحاربهم واشتد القتال بينه وبينهم فانهزموا منه فأوسعهم قتلا وتبع المنهزمين مدة أيام يقتل ويأسر فبينما هو كذلك قد أقام بنواحي الري خوفا من جمع آخر للتتر اذ أتاه الخبر بأن كثيرا منهم واصلون اليه فأقام ينتظرهم فوصلوا اليه في سنة خمس وعشرين وجرى بينه وبينهم حروب كثيرة كان في أكثرها الظفر لهم عليه وفي الاخير كان الظفر له عليهم فهزمهم وهؤلاء التتر الذين جاؤه في هذه المرة كانوا قد سخط جنكزخان على مقدمهم وأبعده وأخرجه من بلاده فقصد خراسان هو وجيوشه فرآها خرابا فقصد الري ليتغلب

على تلك النواحي والبلاد فلقيه بها جلال الدين واقتتلوا أشد القتال الى ان كانت آخر هزيمة على التتر كاد كرناو جاءت مكاتبة من طولى بن جنكزخان لجلال الدين يقول له ان هؤلاء ليسوا من أصحابنا انما نحن أبعدناهم فلما آمن جانب ابن جنكزخان أمن وعاد الى أذربيجان وانما كانت المكاتبة مع ابن جنكزخان لان جنكزخان كان قد هلك سنة أربع وعشرين وستمائة وكانت مدة ملكه نحو ثلاث وعشرين سنة ولما أيس من الحياة جمع أولاده وقسم بينهم الممالك وجعل التخت للرئيس عليهم وهو ولده الصغير طولى خان ثم هلك عن قرب وتولى مكانه ولده هلاكو الذى كان على يده أخذ بغداد

﴿ ذكر خروج التتر الى أذربيجان وما كان منهم ﴾

أول سنة فى أثمان وعشرين وصل التتر من بلاد ما وراء النهر الى أذربيجان وكان جلال الدين قد ضعف ملكه لأنه كان سيء السيرة قبيح التدبير لم يترك أحدا من الملوك المجاورين له الاعاداه ونازعه الملك ووقع بينه وبينهم حروب وهزموه فى آخر الامر فى كثير منها فضعفت شوكته وكتب الى التتر بعض الملوك الذين كان يحاربهم يحثونهم على المجيء لاستئصال جلال الدين ويعرفونهم ضعفه عن لقائهم فهذا كان أيضا من أسباب مجيئهم فلما أقبل التتر فى هذه المرة ولم يقدم جلال الدين على لقائهم وقتالهم فدخلوا بلاده واستولوا على الرى وهمذان وما بينهما من البلاد ثم قصدوا أذربيجان فخربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به وجلال الدين لا يقدر على منعهم من البلاد قد ملىء رعبا وخوفا وانضاف الى ذلك ان عسكره اختلفوا عليه وخرج وزيره عن طاعته فى طائفة كثيرة من العسكر وكان السبب فى ذلك أن أمرا غريبا فعله جلال الدين أظهر من قلة عقله مالم يسمع بمثله وذلك أنه كان له خادم خصى وكان جلال الدين يهواه واسمه قلج فاتفق أن ذلك الخادم مات فأظهر من الهلع والجزع عليه مالم يسمع بمثله ولا لمجنون ليلى وأمر الجند والامراء أن يمشوا فى جنازته رجالة وكان موته بموضع بينه وبين تبريز عدة فراسخ فمشى الناس رجالة ومشى جلال الدين بعض الطريق راجلا فألزمه أمراؤه

ووزيره بالركوب فلما وصل الى تبريز أرسل الى أهل البلد فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقي تابوت الخادم ففعلوا فأنكر عليهم حيث لم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر مما فعلوا وأراد معاقبتهم فشفع فيهم أمراؤه فتركهم ثم لم يدفن ذلك الخصي وانما كان يستصحبه معه أين سار وهو يلطم ويبكي وامتنع من الأكل والشرب وكان اذا قدم له طعام يقول احملوا من هذا الى قلج ولا يتجاسر أحد ان يقول انه مات فانه قيل له مرة انه مات فقتل القائل له ذلك انما كانوا يحملون اليه الطعام ويعودون يقولون انه يقبل الارض ويقولون انى الآن أصلح مما كنت فلحق أمراءه من الغيظ والانفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز مع وزيره فبقي حيران لا يدري ما يصنع لاسيما لما خرج التتر هذه المرة فحينئذ دفن الغلام الخصي وأرسل الى الوزير واستماله الى أن حضر عنده فلما وصل اليه بقي أياما ثم قتله جلال الدين وهذه نوادر غريبة لم يسمع بمثلها تدل على الخذلان

﴿ ذكر وصول جلال الدين الى آمد وانهزامه عندها وما كان منه ﴾

في سنة ثمان وعشرين أيضا حصر التتر مراغة من أذربيجان ثم ملكوها بالامان وقتلوا في البلد الا أنهم لم يكثروا القتل واشتد خوف الناس منهم بأذربيجان فلما رأى جلال الدين ما يفعله التتر بأذربيجان ورأى ما هو عليه من الضعف والوهن فارق أذربيجان يريد الخليفة وملوك الاطراف ليعضدوه على التتر ويخوفهم عاقبة أمرهم فلم يشعر وهو بالقرب من آمد الا وقد كبس التتر ليلا وخالطوا مخيمه فهرب جلال الدين ثم لم يزل يتنقل في الهرب من موضع الى موضع وهو بغاية الذل بعد ذلك العز الى أن دخل قرية من قرى ميافارقين فلحقته التتر في تلك القرية فهرب الى جبل هناك فيه أكراد يتخطفون الناس فأخذوه وسلبوه وأرادوا قتله فقال جلال الدين لاحدهم انى أنا السلطان فاستبقني أجعلك ملكا فجعله الكردي عند امرأته ومضى الى الجبل فحضر كردي آخر معه حربة فقال للمرأة لم لا تقتلون هذا الخوارزمي فقالت المرأة قد أمنه زوجي فقال

الكردي انه السلطان وكان قد قتل كا خا بخلاط خيرا منه وضربه بالحربة فقتله وكان ذلك منتصف شوال سنة ثمان وعشرين وستمائة فسبحان من لا يزول ملكه وفي ذلك عبرة لأولي الأبصار * ومما ينبغي أن يذكر في هذه الاخبار العجيبة الدالة على كمال قدرة الله تعالى وأنه يتصرف في عباده كيف يشاء قصة الصناديق التي كانت لابيه محمد خوارزم شاه وذلك أن خوارزم شاه لما هرب من التتر كما تقدم تفصيل ذلك والتتر تتبعه نزل لما وصل عراق العجم عند بسطام وأحضر خوارزم شاه كاتبا كان معه عشرة صناديق ثم قال انها كلها جواهر لا نعلم قيمتها ثم أشار الى صندوقين منها وقال ان فيهما من الجواهر ما يساوي خراج الارض بجملتها ثم أمر بحمل العشرة الصناديق الى قلعة اردهن وهي من أحصن قلاع الارض وأخذ خط النائب بها بوصول الصناديق المذكورة مختومة فلما استولى جنكزخان على تلك البلاد حملت اليه الصناديق بختومها فأخذ جميع ما فيها ولم ينتفع خوارزم شاه الذي جمعها بشيء منها وقد تقدم أنه مات في مهر بدلك قال ابن الاثير فسبحان من بدل أمنهم خوفا وعزهم ذلا وكثرتهم قلة فتبارك الله رب العالمين الفعال لما يشاء لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ولما دخل التتر ديار بكر والجزيرة يطلبون جلال الدين وقع منهم من الفساد والنهب والقتل والتخريب شيء كثير ونهبوا سواد آمد وارزن وميافارقين وقصدوا مدينة اسعرد فقاتلهم أهلها فبذل لهم التتر الأمان فوثقوا منهم واستسلموا فلما تمكن التتر منهم بذلوا فيهم السيف وقتلوهم حتى كادوا يأتون عليهم فلم يسلم منهم الا من اختفى وقليل ماهم قال ابن الاثير وحكى لي بعض التجار وكان قد وصل من آمد أنهم حزروا القتلى فكانوا يزيدون على خمسة عشر ألف قتيل وكان مع هذا التاجر جارية من اسعرد فذكرت ان سيدها خرج ليقاتل وكان له أم فمنعته ولم يكن لها ولد سواه فلم يصغ الى قولها فمشت معه فقتلا جميعا وورثها ابن أخ للام فباعها من هذا التاجر وذكرت من كثرة القتلى أمرا عظيما وان مدة الحصار كانت خمسة أيام ثم ساروا منها الى مدينة طنزة ففعلوا فيها كذلك وساروا من طنزة الى وادي القريشية

وكان فيه طائفة من الاكراد وفيه مياه جارية وبساتين والطريق اليه ضيق فقاتلهم الاكراد فمنعوهم عنه وقتل منهم كثير فعاد التتر ولم يبلغوا منهم غرضا وساروا في البلاد لا مانع يمنعهم ولا أحد يقف بين أيديهم فوصلوا الى ماردين فنهبوا ما وجدوا من بلدها واحتمى صاحب ماردين بقلعة ماردين ثم وصلوا الى نصيبين والجزيرة ونهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به وغلقت أبوابها فعادوا عنها ومضوا الى سنجار ووصلوا الى الجبال من أعمال سنجار فنهبوها ودخلوا الى الخابور فوصلوا الى عرابان فنهبوا وقتلوا ومضى طائفة منهم الى الموصل فوصلوا الى قرية تسمى المؤنسة من الموصل فنهبوها واحتمى أهلها بخان فيها فقتلوا كل من فيه قال ابن الاثير وحكى لي عن رجل منهم أنه قال اختفيت منهم ببيت فيه تبن فلم يظفروا بي وكنت أراهم في نافذة في البيت فكانوا اذا أرادوا قتل إنسان فيقول لا بالله فيقتلونه فلما فرغوا من القرية ونهبوا ما فيها وسبوا الحريم رأيتهم وهم يلعبون على الخيل ويضحكون ويغنون بلغتهم ويقولون لا بالله ومضى نصف طائفة منهم الى نصيبين الروم فنهبوها وقتلوا فيها ثم عادوا الى آمد ثم الى بلد بدليس فتحصن أهلها بالقلعة وبالجبال فقتلوا فيها يسيرا وأحرقوا المدينة قال ابن الأثير وحكى لي إنسان من أهلها قال ولو كان عندنا خمسمائة فارس لم يسلم من التتر أحد لان الطريق ضيق بين الجبال والقليل يقدر على منع الكثير ثم ساروا من بدليس الى خلاط فحصروا مدينة من أعمال خلاط يقال لها باكري وهي من أحصن البلاد فملكوها عنوة وقتلوا كل من بها وقصدوا مدينة أرجيش من أعمال خلاط وهي مدينة كبيرة عظيمة ففعلوا كذلك وكان هذا في ذي الحجة من سنة ثمان وعشرين وستمائة قال ابن الاثير ولقد حكى لي عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقاه الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم حتى قيل ان الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد لا يتجاسر أحد يمد يده الى ذلك الفارس ولقد بلغني أن انسانا منهم أخذ رجلا ولم يكن

مع التترى مايقتله به فقال له ضع رأسك على الأرض ولا تبرح فوضع رأسه على الارض ومضى التترى أحضر سيفا فقتله به وحكى لى رجل قال كنت أنا ومعى سبعة عشر رجلا فى طريق فجاءنا فارس من التتر وقال لنا مقالا يأمرنا فيه أن يكتف بعضنا بعضا فشرع أصحابى يفعلون ما أمرهم فقلت لهم هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب فقالوا نخاف فقلت هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا فوالله ما جسر أحد يفعل ذلك فأخذت سكينا وقتلته وهربنا فنجونا وأمثال هذا كثيرة فهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه ما يقاربها فالله سبحانه وتعالى يلطف بالمسلمين ويرحمهم ويرد العدو عنهم * والعجب أن هذا العدو فعلوا هذه الأفعال فى هذه المرة وعادوا سالمين لم يذعرهم أحد ولا وقف فى وجوههم فارس فسبحان من بيده ملكوت كل شئ يعز من يشاء ويذل من يشاء ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون * ولما وصل التتر بلاد أذربيجان أطاعهم أهلها جميعا وحملوا اليهم الأموال والثياب الخطابى والخوبى والعتابى وغير ذلك * وسبب طاعتهم أن جلال الدين لما انهزم الى آمد من التتر تفرقت عساكره وتمزقوا كل ممزق وتخطفهم الناس وفعل التتر بديار بكر والجزيرة وأربل وخلاط ما فعلوا ولم يمنعهم أحد ولا وقف فى وجوههم فارس وملوك الاسلام منجزون فى الانقاب وانضاف الى هذا انقطاع أخبار جلال الدين فانه لما لم يظهر له فى ذلك الوقت خبر ولا علموا له حالا سقط فى أيديهم وأذعنوا للتتر بالطاعة وحملوا اليهم ما طلبوا من الاموال والثياب من ذلك مدينة تبريز التى هى أصل بلاد أذربيجان ومرجع الجميع اليها والى من بها فان ملك التتر نزل فى عساكره بالقرب منها وأرسل الى أهلها يدعوهم الى طاعته ويتهددهم إن امتنعوا عليه فأرسلوا اليه المال الكثير والتحف من أنواع الثياب الابريسم وغيرها وكل شئ حتى الخمر وبذلوا له الطاعة فأعاد الجواب يشكرهم ويطلب منهم أن يحضر مقدمهم عنده فقصده قاضى البلد ورئيسه وجماعة من أعيان أهله وتخلف عنهم شمس الدين الطغرائى وهو الذى يرجع الجميع اليه إلا أنه لا يظهر شيأ من ذلك فلما حضروا عنده سألهم عن امتناع

الطغرائى فقالوا انه رجل منقطع ماله بالملوك تعلق ونحن الاصل فسكت ثم طلب أن يحضر واعنده من صناع الثياب الخطابى وغيرها مايستعمل لملكهم الاعظم فان هذا هو من أتباع ذلك الملك فأحضروا الصناع فاستعملهم فى الذى أراد ووزن أهل تبريز الثمن وطلب منهم خركاه أى خيمة لملكهم أيضا فعملوا له خركاه لم يعمل مثلها وعملوا غشاءها من الاطلس الجيد المزركش وعملوا من داخلها السمور والقندر فجاءت عليهم بجملة كثيرة وقرر عليهم من المال كل سنة شيأ كثيرا ومن الثياب كذلك وترددت رسلهم الى ديوان الخلافة والى جماعة من الملوك يطلبون منهم أنهم لا ينصرون جلال الدين بن خوارزم شاه قال ابن الاثير ولقد وقفت على كتاب وصل من تاجر من أهل الرى كان قد انتقل الى الموصل وأقام بها هو ورفقاء له ثم سافر الى الرى فى العام الماضى قبل خروج التتر فلما وصل التتر الى الرى أطاعهم أهلها وساروا الى أذربيجان وسار هو معهم الى تبريز فكتب الى أصحابه بالموصل يقول ان الكافر لعنه الله مايقدر نصفه ولا كثرة جوعه حتى لا تنقطع قلوب المسلمين فان الامر عظيم ولا تظنون أن هذه الطائفة التى وصلت الى نصيبين والخابور والطائفة الاخرى التى وصلت الى اربل ودقوقا كان قصدهم النهب انما أرادوا أن يعلموا هل فى البلاد من يردهم أم لا فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من ممانع ومدافع وأن البلاد خالية من ذلك ومن العساكر فقوى طمعهم وهم فى الربيع يقصدونكم وما يبقى عندكم مقام إلا ان كان فى بلد الغرب فان عزمهم على قصد البلاد جميعا فانظروا لانفسكم هذا مضمون الكتاب فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم *

وفى هذه السنة أعنى سنة ثمان وعشرين وستمائة كان انتهاء مافى الكامل تاريخ ابن الاثير وكانت وفاته سنة ثلاثين وستمائة وهو الامام عز الدين على بن محمد الشيبانى المعروف بابن الاثير الجزرى ولد بجزيرة ابن عمر سنة خمس وخمسين وخمسمائة ثم سار الى الموصل وسمع من كثير من الاشياخ المقيمين بالموصل ثم رحل الى بغداد ثم الى الشام والقدس وسمع هناك من جماعة ثم عاد الى الموصل

وانقطع فى بيته عاكفا على العلم تعليما وتصنيفا وكان اماما فى علم الحديث حافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة خبيرا بأنساب العرب وأخبارهم وله تصانيف كثيرة منها أسد الغابة فى أخبار الصحابة وهو كتاب جليل ومنها التاريخ الكبير المسمى بالكامل وله غير ذلك ومن تلامذته الذين أخذوا عنه ابن خلكان صاحب التاريخ المشهور ونسبت الجزيرة الى ابن عمر قيل هو رجل من أهل برقعيد من أعمال الموصل اسمه عبد العزيز بن عمر بنى هذه المدينة فأضيفت اليه ثم ان العساكر الخوارزمية الذين كانوا عند جلال الدين تفرقوا فى ديار بكر والموصل وحلب وأكثروا العبث والفساد وفعلوا مثل أفعال التتر من الزنا والفواحش والقتل وكذلك التتر أكثروا العبث والفساد فيما استولوا عليه من البلاد ولم يزل يشتد بالمسلمين وشرح ماجرى فى تلك السنين من الخوارزمية والتتر يطول والقصد الاختصار * وفى سنة احدى وأربعين وستمائة قصدت التتر بلاد غياث الدين كيخسرو السلجوقى صاحب بلاد الروم فأرسل واستنجد بالحلبيين فأرسلوا اليه نجدة مع ناصح الدين الفارسى وجمع العساكر من كل جهة والتقى مع التتر فانهزمت عساكر الروم هزيمة قبيحة وقتل التتر منهم خلقا كثيرا وأسروا كثيرا وتحكمت التتر فى البلاد واستولوا أيضا على خلاط وآمد وهرب غياث الدين كيخسرو الى بعض المعاقل ثم أرسل الى التتر وطلب الامان ودخل فى طاعتهم * وفى سنة ثلاث وأربعين وستمائة قصدت التتر بغداد وخرجت عساكر بغداد للقائهم ولم يكن للتتر بهم طاقة فولى التتر منهزمين على أعقابهم تحت الليل ثم لما قدر الله وأراد من الازل انه لابد من استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية قدر سبحانه وتعالى لذلك أسبابا وجعل لذلك علامات ومقدمات أما الاسباب فأعظمها خروج المسلمين عن كمال الاستقامة وانهماكهم فى المعاصى والشهوات وأما العلامات والمقدمات فقد أوجد الله فى تلك السنين علامات ومقدمات كان الناس يظنون عند مشاهدتها أن القيامة تقوم فى تلك السنين ثم تبين بعد ذلك أنها مقدمات وعلامات لانقراض الدولة العباسية وضعف أهل الاسلام قال

الجلال السيوطى فى حسن المحاضرة كان لانقراض الخلافة ببغداد وماجرى على المسلمين بتلك البلاد مقدمات نبه عليها العلماء منها أنه فى يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وستمائة هبت ريح عاصفة شديدة بمكة فألقت ستارة الكعبة المشرفة فما سكنت الريح إلا والكعبة عريانة قد زال عنها شعار السواد ومكثت احدى وعشرين يوما ليس عليها كسوة وقال الحافظ عماد الدين بن كثير وكان هذا فألا على زوال دولة بنى العباس ومنذرا بما سيقع بعد هذا من كائنة التتار لعنهم الله تعالى ومنها قال ابن كثير فى سنة سبع وأربعين طغى الماء على بغداد حتى أتلف شيأ كثيرا من المحال والدور الشهيرة وتعذرت اقامة الجمعة بسبب ذلك * وفى هذه السنة هجمت الفرنج على دمياط فاستحوذوا عليها وقتلوا خلقا من المسلمين * وفى سنة خمسين وقع حريق بحلب احترق بسببه ستمائة دار فيقال ان الفرنج لعنهم الله ألقوه فيها قصدا * وفى سنة اثنتين وخمسين ظهرت نار فى أرض عدن فى بعض جبالها بحيث انه يطير شررها الى البحر فى الليل ويصعد منها دخان عظيم فى أثناء النهار فتاب الناس وأقلعوا عما كانوا عليه من المظالم والفساد وشرعوا فى أفعال الخير والصدقات * وفى سنة أربع وخمسين زادت دجلة زيادة مهولة فغرق خلق كثير من أهل بغداد ومات خلق تحت الهدم وركب الناس المراكب واستغاثوا بالله وعاينوا التلف ودخل الماء من أسوار البلد وانهدمت دار الوزير وثلاثمائة وثمانون دارا وانهدم مخزن الخليفة يعنى موضع خزانة أموال المسلمين وهلك شئ كثير من خزانة السلاح قال السبكى فى الطبقات وكان ذلك من جملة الامور التى هى مقدمة لواقعة التتار * وفى هذه السنة فى يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة وقع بالمدينة الشريفة صوت يشبه صوت الرعد البعيد تارة وتارة وأقام على هذه الحالة يومين فلما كان ليلة الاربعاء تعقب الصوت زلزلة عظيمة رجفت منها الارض والحيطان واضطرب المنبر الشريف واستمرت تزلزل ساعة بعد ساعة الى يوم الجمعة خامس الشهر فظهر من الحرة نار عظيمة وسالت أودية منها سيل الماء وسالت الجبال نارا وسارت نحو

طريق الحاج العراقي فوقفت وأخذت تأكل الارض أكلا ولها كل يوم صوت عظيم من آخر الليل الى ضحوة النهار واستغاث الناس بنبيهم صلى الله عليه وسلم وأقلعوا عن المعاصي واستمرت النار فوق الشهر وخسف القمر ليلة الاثنين منتصف الشهر وكسفت الشمس في غدوه وبقيت اياما متغيرة اللون ضعيفة النور واشتد فزع الناس وصعد علماء البلد الى الامير يعظونه فطرح المكس ورد على الناس ما كان تحت يده من اموالهم ولما جاء النجاب الى بغداد بخبر هذه النار قال له الوزير الى أي الجهات ترمي شررها قال الى جهة الشرق وفي ليلة الجمعة مستهل رمضان من هذه السنة احترق المسجد الشريف النبوي ابتداء حريقه من زاويته الغربية من الشمال وكان قد دخل أحد خدمة المسجد الى خزانة هناك ومعه نار فعلقت في الآلات واتصلت بالسقف بسرعة ثم دبت في السقوف فأعجلت النار عن قطعها فما كان الاساعة حتى احترقت سقوف المسجد أجمع ووقعت بعض أساطينه وذاب رصاصها واحترق سقف الحجرة النبوية الشريفة واحترق المنبر الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب عليه وعد ماوقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من الآيات وكانت كلها منذرة بما يعقبها في السنة الآتية من الكائنات انتهى ماذكره الجلال السيوطي في حسن المحاضرة وذكر السيد السمهودي في خلاصة الوفا زيادة ايضاح لسبب ذلك الحريق فقال احترق المسجد النبوي ليلة الجمعة أول شهر رمضان سنة أربع وخمسين وستمائة أول الليل لدخول أبي بكر بن أوحد الفراش الحاصل الذي في الزاوية الغربية الشمالية لاستخراج قناديل لمنائر المسجد وترك الضوء الذي كان في يده على قفص من أقفاص القناديل فيه مشاق فاشتعلت النار فيه وأعجزه طفؤها وعلقت ببسط وغيرها مما في الحاصل وعلا الالتهاب حتى علقت بالسقف بسرعة آخذت قبلة وأعجلت الناس عن اطفائها بعد أن نزل أمير المدينة واجتمع معه غالب أهلها فلم يقدروا على طفئها وما كان الأقل من القليل حتى استولى الحريق على جميع سقف المسجد وما احتوى عليه من المنبر النبوي والابواب والخزائن والمقاصير والصناديق

ولم يبق خشبة واحدة أى كاملة وكذا الكتب والمصاحف ووقع السقف الذى كان على أعلى الحجرة على سقف بيت النبى صلى الله عليه وسلم فوقعا جميعا فى الحجرة الشريفة وعلى القبور المقدسة ولم يكن فى ذلك الزمن قبة على القبور المقدسة وانما كان سقف فقط واول من جعل ذلك السقف قبة السلطان المنصور قلاوون الصالحى سنة ثمان وسبعين وستمائة فجعلت قبة صغيرة مربعة من أسفلها مثمنة من أعلاها بأخشاب أقيمت على رؤوس السوارى المحيطة بالحجرة الشريفة ولما كانت عمارة السلطان قايتباى للمسجد النبوى سنة سبع وثمانين وثمانمائة جعلت القبة المشرفة متناهية فى العلو وجعلت من الآجر وأسس لها دعائم عظام بارض المسجد وقد بسط العلامة السمهودى فى خلاصة الوفا الكلام على النار التى ظهرت بالحرم لانها من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم من حيث انه أخبر عنها قبل وقوعها فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى تظهر نار وفى رواية للبخارى تخرج نار فى أرض الحجاز تضىء أعناق الابل ببصرى وفى مسند الفردوس وكامل ابن عدى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى يسيل واد من أودية الحجاز بالنار تضىء له أعناق الابل ببصرى ثم أطال الكلام فى بيان ذلك ثم قال قال النووى تواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام وكانت فى زمنه أى النووى وكان ابتداء ذلك زلزلة بالمدينة مستهل جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة لكنها كانت خفيفة فلم يدركها بعضهم مع تكررها واشتدت فى يوم الثلاثاء وظهرت ظهورا عظيما ثم ليلة الاربعاء ثالث الشهر فى الثلث الاخير من الليل حدثت زلزلة عظيمة جدا أشفق الناس منها واستمرت تزلزل بقية الليل ثم الى يوم الجمعة ولها دوى أعظم من الرعد فتموج الارض وتتحرك الجدران حتى وقع فى يوم واحد دون ليلته ثمان عشرة حركة ونقل عن أبى شامة عن القاشانى قال تزلزلت الارض يوم الجمعة زلزلة عظيمة الى أن اضطربت منائر المسجد وسمع لسقفه صرير عظيم فلما كان يوم الجمعة نصف

النهار ظهرت تلك النار فثار من محل ظهورها فى الجو دخان متراكم غشى الأفق سواده فلما تراكمت الظلمات وأقبل الليل سطع شعاع النار فظهرت مثل المدينة العظيمة فى جهة المشرق وقال القرطبى وكانت ترى على صفة البلد العظيمة عليها سور محيط عليه شراريف وأبراج ومنائر وبرى رجال يقودونها لاتمر على جبل الادكته وأذابته ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر وأزرق له دوى كدوى الرعد يأخذ الصخور بين يديه واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم فانتهت النار الى قرب المدينة ومع ذلك فكان يأتى المدينة نسيم بارد وشوهد لهذه النار غليان كغليان البحر قال وقال لى بعض أصحابنا رأيتها صاعدة فى الهواء من نحو خمسة أيام وسمعت أنها رؤيت من مكة ومن جبال بصرى وقال القطب القسطلانى وكان موجودا فى ذلك العصر وهو جد القسطلانى شارح البخارى ان ضوءها استولى على مابطن وظهر حتى كأن الحرم والمدينة قد أشرقت بهما الشمس وتأثر من لهيبها النيران وصار نور الشمس على الارض يعتريه صفرة ولونها هى يعتريه حمرة والقمر كأنه كسف وقال أبو شامة انها رؤيت من مكة ومن الفلاة جميعها ومن ينبع قال وأخبرنى من أثق به ممن شاهدها بالمدينة انه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب وتيما اسم موضع والشمس والقمر فى مدتها مايطلعان الا كاسفين قال أبو شامة وظهر عندنا بدمشق أثر ذلك الكسوف من ضعف النور على الحيطان وكنا حيارى من ذلك الى أن بلغنا خبرها وقال القطب القسطلانى وقد أخبرنى جماعة أنهم شاهدوها من جبال سابة وجاء من أخبر أنه أبصرها بتيما وبصرى هى منهما مثل ماهى من المدينة فى البعد وقال العماد بن كثير أخبرنى قاضى القضاة صدر الدين الحنفى قال أخبرنى ولدى الشيخ صفى الدين مدرس مدرسة بصرى انه أخبره غير واحد من الاعراب صبيحة الليلة التى ظهرت فيها هذه النار انهم رأوا صفحات أعناق ابلهم فى ضوء تلك النار فظهر أنها الموعود بها وتمت بذلك المعجزة لحصول ما أخبر به صلى الله عليه وسلم وانارتها بتلك الاماكن البعيدة ليتم الانذار واختصاص ظهورها بيوم الجمعة لايخفى

وكانت نعمة فى صورة نقمة أى لانه نعمة من كونها معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم دالة على كمال صدقه صلى الله عليه وسلم وكانت أيضا سببا لتوبة الناس والتجائهم الى الله تعالى ونقمة من حيث الانذار والتخويف فوجلت القلوب منها وأشفقت وأعتق أمير المدينة وهو عز الدين منيف بن شيخة جميع مماليكه ورد على الناس مظالمهم وأبطل المكس وهبط للنبي صلى الله عليه وسلم وبات فى المسجد ليلة الجمعة والسبت ومعه جميع أهل المدينة حتى النساء والصغار وأهل النخل يتضرعون ويبكون كاشفين رؤسهم مقرين بذنوبهم مستجيرين بنبيهم صلى الله عليه وسلم فصرف الله تعالى عنهم تلك النار العظيمة ذات الشمال فسالت من وادى احيلين الى جهة الشمال واستمرت مدة ثلاثة اشهر فطالت مدتها ليشتهر أمرها ويزجر عامة الخلق بها وعظم أمرها ليشاهد منها عنوان نار والآخرة وأرسل أمير المدينة عدة من الفرسان اليها فلم تجسر الخيل على القرب منها فترجل أصحاب الخيل وقربوا منها فذكروا أنها ترمى بشرر كالقصر ولم يظفروا بجلية أمرها فجرد الامير عزمه لذلك فوصل منها الى قدر غلوتين بالحجر ولم يستطع أن يجاوز موقفه من حرارة الارض وأحجار كالمسامير تحتها نار سارية ومقابله ما يتصاعد من اللهب فعاين نارا كالجبال الراسيات والتلال المجتمعة السائرات تقذف بزبد الاحجار كالبحار المتلاطمة الامواج وعقد لهيبها فى الافق قتاما حتى ظن الظان أن الشمس والقمر كسفا اذ سلبا بهجة الاشراق فى الآفاق وقال القطب القسطلانى انها لم تزل مارة على سبيلها وهى تسحق ما والاها وتذيب ما لاقاها من الشجر الاخضر والحصى وان طرفها الشرقى آخذ بين الجبال فحالت دونه ثم وقفت وان طرفها الشامى وهو الذى يلى الحرم اتصل بجبل يقال له عير على قرب من شرقى جبل أحد ومضت فى الشظاه التى فى طرفها وادى حمزة رضى الله عنه حتى استقرت تجاه حرم النبي صلى الله عليه وسلم فطفئت قال وأخبرنى شخص أعتمد عليه أنه عاين حجرا ضخما من حجارة الحرم كان بعضه خارجا عن حد الحرم فعلقت بما خرج منه فلما وصلت الى ما دخل منه فى الحرم طفئت وخمدت وقال أبو

شامة ان سيل هذه النار انحدر مع وادي الشظاه حتى حاذى جبل أحد وكادت النار تقارب حرة العريض ثم سكن قتيرها الذي يلي المدينة وطفئت مما يلي العريض ورجعت تسير في المشرق وقال كثير من المؤرخين انها سالت سيلا ذريعا في واد يكون طوله مقدار أربعة فراسخ وعرضه أربعة أميال وعمقه قامة ونصف وهي تجري على وجه الارض والصخر يذوب كما يذوب الرصاص ولم يزل يجمع منه في آخر الوادي عند منتهى الحرم أي في المشرق حتى قطعت في وسط وادي الشظاه الى جهة جبل عير فسدت الوادي المذكور بسد عظيم من الحجر المسبوك بالنار قال السيد السمهودي وآثار ذلك السد موجودة اليوم هنالك ويسمى المحبس وانقطع وادي الشظاه بسبب ذلك وصار السيل ينحبس خلف السد المذكور حتى يصير بحرا مد البصر عرضا وطولا وأما ما ذكره بعضهم من أن تلك النار ليس لها حر فلعل ذلك كان آخر أمرها فهذه الآيات كلها مقدمات لاخذ التتار بغداد وانقراض الدولة العباسية وظهور الضعف والخلل لأهل الاسلام وذكر الامام القرطبي في تذكرته أن هؤلاء التتر هم الذين ذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم في قوله يقاتلونكم قوم صغار الاعين كان وجوههم المجان المطرقة بفتح الراء المشددة وفي رواية عراض الوجوه ذلف الانوف غلاظها وأطال في بيان روايات الحديث وقال ان هذا الامر الذي أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم قد وقع كما أخبر ونقل مثل ذلك عن الحافظ ابن دحية وغيره وأطال في بيان ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر أخذ التتر بغداد وقتلهم الخليفة ﴾

قد تقدم ما تملكه التتر من ممالك الاسلام في السنين المتقدمة وصاروا بعد ذلك يدبرون الأمر في أخذ بغداد ويتخوفون من كثرة العساكر الموجودة عند الخليفة وعزموا على أخذها في سنة ثلاث وأربعين وستمائة فانهزمت عساكرهم وضعف عزمهم ولما كان أخذهم اياها مقدرا في علم الله تعالى محدودا بأيام مخصوصة سهل لهم الاسباب التي توصلهم الى ذلك عند مجيء وقته فمن ذلك أن وزير الخليفة

كان رافضيا ويحب نقل الخلافة من بني العباس الى العلويين وسولت له نفسه أن ذلك يسهل اذا فوت شوكة التتر وأنه يعقد معهم صلحا وينقل الخلافة للعلويين على زعمه فصار يكاتب التتار ويظهر لهم أنه يحب استيلاءهم وان أمر المسلمين يكون تابعا لأمرهم وكان الخليفة المستعصم بالله مفوضا أمور الخلافة الى الوزير المذكور فينقاد له ويقبل اشارته ويصغي لما يقول مع ان الخليفة المذكور كان صحيح العقيدة يعتقد مذهب أهل السنة ويميل الى الخير والصلاح ويحب أهل الخير والصلاح لكنه كان قليل المعرفة بتدبير الملك مهملا للامور المهمة محبا لجمع المال فأهمل أمر التتار وانقاد الى وزيره محمد بن محمد بن العلقمي حتى كان في ذلك هلاكه وهلاك الرعية فان ابن العلقمي كتب كتابا الى هلاكو ملك التتر وهو ابن طولى بن جنكزخان أنك تحضر الى بغداد وأنا أسلمها لك وكان من جملة الاسباب التي حملته على ذلك وقوع فتنة في تلك الايام بين الرافضة وأهل السنة في بغداد أدت تلك الفتنة الى نهب عظيم وخراب وقتل عدة من الرافضة فغضب لذلك ابن العلقمي وجسر التتار على العراق ليتشفى من أهل السنة فلما كتب لملك التتر يحثه على الحضور كتب له ملك التتار ان عساكر بغداد كثيرة فان كنت صادقا فيما قلته وداخلا في طاعتنا فرق عساكر بغداد ونحن نحضر فلما وصل كتابه الى الوزير دخل على الخليفة المستعصم وقال له ان جندك كثيرة وكانوا أكثر من مائة ألف وعليك كلفة كثيرة والعدو قد رجع والصواب أنك تعطي دستورا لخمسة عشر ألفا من العساكر ليتوفر معلومهم فأجابه المستعصم لذلك فخرج الوزير لوقته ومحا اسمهم من دفتر الديوان ثم نفاهم من بغداد ومنعهم من الاقامة بها ثم بعد شهر فعل مثل فعلته الأولى ومحا اسم عشرين ألفا من الديوان ثم كتب الى ملك التتر بما فعل وكان تدبير الوزير أن التتر اذا قدموا بغداد يقتلون الخليفة ويضعفون شوكة بني العباس ثم يعودون الى سبيلهم فيبقى هو على ماهو عليه من العظمة والعساكر وتدبير المملكة فيقوم عند ذلك بدعوة العلويين الرافضة من غير ممانع ثم يضع السيف في أهل السنة هكذا كان قصده ولما

بلغ ملك التتر ما فعل الوزير ابن العلقمى من محو العساكر واضعاف أمر الخلافة سار بجيوشه فى أول سنة ست وخمسين وستمائة ومعه أيضا الكرج وعسكر الموصل وخلائق لا يحصون وقصد بغداد ونزل عليها وصار الخليفة المستعصم يستدعى العساكر ويتجهز لحرب التتر وقد اجتمع أهل بغداد وتحالفوا على قتال التتر وخرجوا الى ظاهر بغداد وقاتلوا التتر قتالا عظيما وكثرت الجراحات والقتلى فى الفريقين الى أن نصر الله عساكر بغداد وانكسر التتر أقبح كسرة وساق المسلمون خلفهم وأسروا منهم جماعة وعادوا بالاسرى ورؤس القتلى الى ظهر بغداد ونزلوا بخيامهم مطمئنين بهروب العدو وانهزامه فارسل الوزير ابن العلقمى فى تلك الليلة جماعة من أصحابه فقطعوا شط الدجلة فخرج ماؤها على عساكر بغداد وهم نائمون فغرقت مواشيهم وخيلهم وأموالهم وصار السعيد منهم من لقى فرسا يركبها وأرسل الوزير الى ملك التتر يعرفه بما فعل ويأمره بالرجوع الى بغداد فرجع بعساكره الى ظاهر بغداد فلم يجدوا هناك من يردهم فلما أصبحوا اخرج لهم طائفة من عسكر المسلمين وعليهم الدويدار فالتقوا مع طلائع التتر فانهزم المسلمون لقلتهم وأحاطت عساكر التتر ببغداد فقال الوزير ابن العلقمى للخليفة المستعصم بالله انى أخرج الى تلافى هذا الامر وأعقد الصلح وأقرره فأذن له فى ذلك فخرج وتوثق لنفسه ورجع وأخبر الخليفة أن ملك التتر رغب أن يزوج بنته بابنك وان تكون الطاعة له كما كانت للملوك السلجوقية ويرحل عنك فخرج المستعصم فى أعيان دولته وأعيان العلماء وأكابر أهل الوقت ليحضروا العقد فلما حضروا عند ملك التتر أمر بالقبض عليهم وضربت أعناقهم وقتلوا الخليفة بوضعه وولده فى عدلين وأمر التتار برفسهما الى أن ماتا وقيل أغرقهما ودخلت التتر بغداد واقتسموها وكل أخذ ناحية وبقى السيف يعمل أربعة وثلاثين يوما وقل من سلم ولم يرحموا شيخا كبيرا لكبره ولا صغيرا لصغره ولا عالما لعلمه ونهبت دار الخلافة ومدينة بغداد حتى لم يبق فيها الا ماقل ولا ماجل ثم أحرقت بغداد بعد أن قتل أكثر أهلها

قيل ان عدة من قتل بزيد على ألفى ألف وثلاثين ألف انسان ثم نادوا بالامان وانقرضت الخلافة من بغداد بقتل المستعصم هذا وبقيت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة وكانت مدة خلافة المستعصم خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياما وعمره نحو سبع وأربعين سنة ☼ وأما الوزير ابن العلقمى فلم يتم له ما أراد فلم يلبث أن أمسكه ملك التتر بعد قتل المستعصم بأيام ووبخه بألفاظ شنيعة معناها أنه لم يكن له خير فى مخدومه ولا فى دينه فكيف يكون له خير فى ملك التتر ثم انه قتله شر قتلة قيل ان ابن العلقمى بعد قتل المستعصم وقبل قتله هو بقى يركب اكديشا فنادته عجوز يا ابن العلقمى أهكذا كنت تركب فى أيام المستعصم فلم يجبها وكان بعد أن قتل الخليفة يظن ان رياسته تبقى له فأبقوها له أياما الى ان قتلوه قيل انه فى تلك الايام التى أبقوا له الرياسة فيها بعد قتل الخليفة دخل عليه بعض التتر ممن ليس له وجاهة راكبا فرسه فسار الى أن وقف بفرسه على بساط الوزير وخاطبه بما أراد وبال الفرس على بساط الوزير وأصاب الرشاش ثياب الوزير وهو صابر لهذا الهوان يظهر قوة النفس وأنه بلغ مراده ولما انعكست عليه الامور ندم حيث لا ينفعه الندم وكان يقول بعد ذلك وجرى القضاء بعكس ما أملته لانه عومل بأنواع الهوان من أراذل التتار والمرتدة وقال له بعض أهل بغداد يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه حمية وحميت الشيعة وقد قتل من الاشراف الفاطميين ما لا يحصى وكان دخول التتر بغداد وقتلهم الخليفة المستعصم فى العشرين من المحرم سنة ست وخمسين وستمائة وبقى الوزير ابن العلقمى الى أوائل المحرم سنة سبع وخمسين فتكون المدة التى بقى فيها بعد قتل الخليفة سنة واحدة وقيل انما مكث بعد قتل الخليفة أياما قلائل وأن التتر لم يقتلوه وانما مات غما وكمدا لما انعكست عليه الامور وعض يده ندما وفى تاريخ ابن كثير عن الشيخ عفيف الدين يوسف بن البقال أحد الزهاد وقال كنت بمصر فبلغنى ما وقع ببغداد من القتل الذريع فأنكرته بقلبى وقلت يارب كيف هذا وفيهم أطفال ومن لا ذنب له فرأيت فى المنام رجلا وفى يده كتاب فأخذته فاذا فيه

دع الاعتراض فالأمر لك * ولا الحكم فى حركات الفلك
ولا تسأل الله عن فعله * فمن خاض لجة بحر هلك

قال الجلال السيوطى فى حسن المحاضرة بعد ذكره ذلك قلت أجرى الله عادته أن العامة اذا زاد فسادها وانتهكوا حرمات الله ولم تقم عليهم الحدود أرسل الله عليهم آية فى أثر آية فان لم ينجع ذلك فيهم أتاهم بعذاب من عنده وسلط عليهم من لا يستطيعون له دفاعا ثم قال الجلال وقد وقع فى هذه السنين ما يشبه الآيات الواقعة فى مقدمات واقعة التتار وأنا خائف من عقبى ذلك فاللهم سلم سلم انتهى واذا كان هذا فى زمانه وهو القرن التاسع فما بالك بزماننا وهو القرن الرابع عشر فنسأل الله السلامة وحسن الاستقامة فقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى بعض خطبه والله لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولها

﴿ فائدتان ﴾

* الاولى استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية من بغداد فقد جاء الاخبار به قبل وقوعه مأثورا عن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فانه كان يقول ان الخلافة تصير الى ولده حتى يأتيهم العلج من خراسان فينتزعها منهم فكان كما قال والظاهر ان مثل هذا الخبر لا يقال بالرأى ولا بالحدس والتخمين وانما يكون بتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم فيكون الاخبار بذلك قبل وقوعه من معجزاته صلى الله عليه وسلم وهذا الذى ذكرنا أنه مأثور عن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ذكره كثير من المؤرخين منهم الملك المؤيد صاحب حماه فى تاريخه وكذلك ابن الوردى وغيرهما وعبارة ابن الوردى بلغ بعض خلفاء بنى أمية عن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه يقول ان الخلافة تصير الى ولده فأمر الاموى بعلى بن عبد الله فحمل على جمل وطيف به وضرب وكان يقال عند ضربه هذا جزاء من يفترى و يقول ان الخلافة تكون فى ولده فكان على بن عبد الله يقول أى والله لتكونن الخلافة فى ولدى ولا تزال فيهم حتى يأتيهم العلج من خراسان فينتزعها منهم فكان كما قال والعلج المذكور

ملا كوه وفى تاريخ ابن خلكان ان الاموى الذى أمر بضربه وحمله على جمل هو
الوليد بن عبد الملك ثم قال ابن الوردى قلت قال ابن خلكان فى تاريخه ان عليا
رضى الله عنه افتقد عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يوما وقت صلاة الظهر فقال
لاصحابه ما بال أبى العباس لم يحضر الظهر فقالوا ولد له مولود فلما صلى على رضى
الله عنه قال امضوا بنا اليه فأتاه فهناه فقال شكرت الواهب وبورك لك فى
الموهوب ما سميته فقال أو يجوز أن أسميه حتى تسميه فأمر به فأخرج اليه
فأخذه فحنكه ودعا له ثم رده اليه وقال خذ اليك أبا الاملاك قد سميته عليا وكنيته
أبا الحسن ودخل على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يوما على هشام بن عبد
الملك ومعه ابنا ابنه محمد وهما السفاح والمنصور ابنا محمد بن على المذكور فأوسع له
هشام على سريره وسأله عن حاجته فقال ثلاثون ألف درهم على دين فأمر
بقضائها ثم قال على لهشام وتستوصى بابنى هذين خيرا ففعل فشكره وقال وصلت
الرحم فلما ولى على بن عبد الله بن عباس قال هشام لاصحابه ان هذا الشيخ قد اختل
وأسن وخلط فصار يقول ان هذا الامر سينقل الى ولده فبلغ ذلك على بن عبد الله
ابن عباس فقال والله ليكونن ذلك وليملكن هذان يعنى السفاح والمنصور
فكان الامر كذلك وكان على بن عبد الله هذا عظيم المحل عند أهل الحجاز وكان
يلقب بالسجاد كان يصلى كل يوم ألف ركعة لانه كان له خمسمائة أصل زيتون يصلى
فى كل يوم الى كل أصل ركعتين وكان أجمل قرشى على وجه الارض وأوسمهم
وكان اذا قدم مكة حاجا أو معتمرا عطلت قريش مجالسها فى المسجد الحرام
وهجرت مواضع حلقها ولزمت مجالسه اعظاما واجلالا وتبجيلا له فان قعد قعدوا
وان نهض نهضوا وان مشى مشوا خلفه وحوله ولا يزالون كذلك حتى يخرج
من الحرم وكان اذا طاف كأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله وكان مع
هذا الطول يكون الى منكب أبيه عبد الله وكان عبد الله الى منكب أبيه العباس
وكان العباس الى منكب أبيه عبد المطلب نظرت عجوز الى على بن عبد الله بن
عباس وهو يطوف فقالت من هذا الذى فرع الناس (فرع) بالعين المهملة

أى علا عليهم فقيل لها على بن عبد الله بن عباس فقالت (لا إله إلا الله) ان الناس ليرذلون عهدى بالعباس يطوف بهذا البيت كانه فسطاط أبيض وذكر هذا كله المبرد فى الكامل وذكر أن العباس كان عظيم الصوت وجاءتهم مرة غارة وقت الصباح فصاح واصباحاه فلم تسمعه حامل فى الحى إلا وضعت والله سبحانه وتعالى أعلم اه وتوفى على بن عبد الله المذكور سنة سبع عشرة ومائة وعمره ثمانون سنة وكانت مدة خلافة بنى العباس خمسمائة سنة وأربعا وعشرين سنة لأن ابتداء دولتهم سنة اثنين وثلاثين ومائة وانتهاؤها سنة ست وخمسين وستمائة وعدد خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة فسبحان الملك الحق الذى لا يزول ملكه وهو الباقى بعد فناء خلقه

الفائدة الثانية

أول خلفاء بنى حرب بن أمية معاوية رضى الله عنه وآخرهم معاوية وأول خلفاء بنى الحكم مروان بن الحكم وآخرهم مروان بن محمد وأول خلفاء بنى العباس عبد الله السفاح وآخرهم عبد الله المستعصم وأول ملوك بنى الأحمر الذين تداولوا ملك الأندلس فى آخر المدة محمد بن يوسف بن نصر وآخرهم محمد بن سعد وأول ملوك بنى مرين ملوك المغرب الاقصى عبد الحق وآخرهم عبد الحق فانظر كيف توافقت أسماء ملوك أول هذه الدول وأسماء ملوك آخرها وذلك بتقدير الله وتدبيره فانه سبحانه وتعالى له فى كل شئ حكمة بل ما من ذرة فى العالم إلا وهى مشتملة على حكمة بل على حكم كثيرة وكل ذلك بتقدير العزيز العليم وسيأتى ذكر ما تملكه التتر بعد بغداد وهلك هلاكو بن طولى بن جنكزخان سنة ثلاث وستين وسبعمائة وترك خمسة عشر ابنا وملك بعده ابنه ابغاء البلاد التى كانت بيد أبيه وهى إقليم خراسان وكرسيه نيسابور واقليم عراق العجم وتعرف ببلاد الجبل وكرسيه أصفهان واقليم عراق العرق وكرسيه بغداد واقليم أذربيجان وكرسيه تبريز واقليم خوزستان وكرسيه تستر وتسميها العامة تشتر واقليم فارس وكرسيه شيراز واقليم ديار بكر وكرسيه الموصل واقليم الروم وكرسيه قونية وغيرها مما ليس

فى الشهرة مثل هذه الاقاليم العظيمة ومدة ملك هلاكو عشر سنين قال ابن الوردى قلت مات هلاكو على دينه بعلة الصرع و بنوا على قبره قبة بقلعة تلا وفى تاريخ الذهبى أنه هلك سنة أربع وستين وستمائة اه كلام ابن الوردى وفى تاريخ القرمانى مانصه ذكر الذهبى فى تاريخه أن هلاكو سفك دم ألف ألف أو يزيدون فهل يقدر المؤرخون أن يجمعوا أو يصفوا سوء أفعاله ومع هذا فان الله تعالى قد وفقه للاسلام إلا أن الكفار المغولية ميلوه الى دين المجوسية فانقاد اليهم وقصد الممالك الاسلامية بالسوء ثم نزل القرمانى ذكر البيضاوى فى تاريخه أن الله تبارك وتعالى ألهم الى بعض أوليائه بفيض فضله أن يظهر شيأ من الكرامات المحمدية عند هلاكو ومنهم أبو يعقوب ومحمد خواجا دربندى قدس الله سرهما فحضرا عند هلاكو ودخلا النار وشربا السموم والنحاس المذاب فلما عاين هلاكو ذلك رجع عن الكفر والزندقة وخاف من الاولياء وعظم الملة الاسلامية وأهلها وأسلم ومات بعلة الصرع فى بلد مراغة ونقل الى قلعة تلا ودفن بها وبنى عليه قبة اه ولم يذكر اسلامه ابن خلدون ولا الملك المؤيد ولا ابن الشحنة فليحرر ذلك وانما الذى ذكروه اسلام أحمد بن ابغا بن هلاكو والله سبحانه وتعالى أعلم قال الجلال السيوطى فى تاريخ الخلفاء ولما فرغ هلاكو من قتل الخليفة وأهل بغداد أقام على العراق نوابه وحسن لهم ابن العلقمى أن يقيموا خليفة علويا فلم يوافقوه واطرحوه وصار لهم فى صورة بعض الخدم والغلمان ومات كمدا لا رحمه الله ولا عفا عنه ثم بعد تملكهم بغداد كتب هلاكو للملك الناصر صلاح الدين بن أيوب وكان ملك دمشق بيد الملك الناصر المذكور فكتب له هلاكو ثلاث مرات يأمره بالدخول فى طاعته ويتهدده ويذكر له تملكه لأكثر البلاد وما فعله بأهل الاسلام فكاتبه الملك الناصر وصانعه وأرسل له هدايا لعلمه بعجزه عن ملتقى التتر

﴿ ذكر مسير التتر الى ميافارقين فى البلاد الشامية ﴾

وفى سنة خمس وخمسين أيضا قصدت التتر ميافارقين بعد استيلائهم على بغداد وكان صاحب ميافارقين حينئذ الملك الكامل محمد ابن الملك المظفر غازى ابن الملك

العادل أبي بكر بن أيوب فحاصره التتر وضايقوا ميافارقين مضايقة شديدة
وصبر أهل ميافارقين مع الملك الكامل على الجوع الشديد ودام ذلك سنتين حتى
عجز واوسلموا فملك ميافارقين والبلاد والجزيرة وسير هلاكو جيوشه الى حلب
والديار الشامية وارتجت الارض منهم وتزلزلت الناس فى جميع الارض وسار
فى سنة سبع وخمسين الى خدمة هلاكو عز الدين كيكاوس وركن الدين قلج
أرسلان ابنا كيخسرو السلجوقى صاحب الروم وأقاما معه مدة ثم عادا الى بلادهما
وكذلك صانع هلاكو بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وحمل اليه الاموال
و وصل الى خدمة هلاكو بعد أخذ بغداد * وفى سنة سبع وخمسين أيضا نازل
هلاكو شرقى الفرات وحران وملكهما وأرسل ولده سموط بن هلاكو الى
الشام فوصل الى ظاهر حلب فى أواخر ذى الحجة من سنة سبع وخمسين وكان
الحاكم فى حلب الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين نائبا عن ابن
أخيه الملك الناصر يوسف فخرج عسكر حلب لقتالهم وخرج الملك المعظم ولم
يكن من رأيه الخروج وأكمن لهم التتر عند الباب المعروف بباب الله وتقاتلوا
فاندفع التتر قدامهم حتى خرجوا عن البلد ثم عادوا عليهم وهرب المسلمون
وخرج كمين التتر فطلب المسلمون دخول حلب هاربين والتتر يقتلون فيهم حتى
دخلوا البلد واختنق فى أبواب البلد جماعة من المنهزمين ثم رحل التتر الى اعزاز
فتسلموها بالأمان * وفى تاسع صفر من سنة ثمان وخمسين استولت التتر على حلب
وذلك أن هلاكو حصرها بجيوشه الى أن ملكوها وقتل من المسلمين خلق
كثير وصعد الى القلعة خلق ودام القتل والنهب نحو أسبوع ثم نادى هلاكو
بالامان ولم يسلم من القتال إلا جماعة كانت بأيديهم فرمانات بالامان من التتر ولما
فتحت حلب وصل كبراء حماة الى حلب بمفاتيح حماة وحملوها الى هلاكو فأمنهم
وأرسل اليهم بشحنة والشحنة بالكسر ضابط البلد وفى الفارسى بالفتح ولما بلغ
الناصر وهو بدمشق أخذ حلب رحل بعساكره الى الديار المصرية ومعه
المنصور صاحب حماة ثم وصل التتر الى نابلس واستولوا عليها ثم استولوا على

دمشق وسائر الشام الى غزة وشحنوا البلاد وقدم على هلاكو صاحب حمص فقبله وأعادها اليه ثم رحل هلاكو الى حارم فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين والى قلعة حلب فأحضر وسلمت اليه فغضب هلاكو وأمر بهم فقتلوا عن آخرهم وسبي النساء ثم عاد هلاكو الى الشرق وتقدم أن ميافارقين ملكوها بعد محاصرتها سنتين وصاحبها الكامل محمد بن المظفر غازى مصابر ثابت حتى ضعف من عنده عن القتال فاستولوا عليها فى هذا الوقت وقتلوه وطافوا برأسه فى البلاد بالمغانى والطبول وعلق رأسه بباب الفراديس من أبواب دمشق فلما عادت دمشق للمسلمين دفن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس وأما دمشق فملكوا المدينة بالامان فما نهبوا ولا قتلوا وعصت قلعتها فنصبوا عليها المجانيق ثم تسلموها بالأمان ونهبوا مافيها وخربوا سور القلعة وأحرقوا آلاتها وزردخاناتها ثم نازلوا قلعة بعلبك ثم ملكوها وخربوا قلعتها وكانوا اعتقلوا نقيب قلعة دمشق وواليها ثم بعد شهر بن ضربوا أعناقهما ثم إن العساكر الاسلامية اجتمعت بمصر وسار بهم الملك المظفر قطز ملك مصر يريدون الشام لقتال التتر وبلغ ذلك كتبغا نائب هلاكو على الشام فجمع من الشام من التتر وسار الى قتال المسلمين فالتقوا عند عين جالوت واقتتلوا فانهزمت التتر هزيمة قبيحة وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبغا وقدر الله كمال النصر للمسلمين بهذه الهزيمة واسترجع المسلمون دمشق وغيرها مما ملكوه من الديار الشامية بعد حصول اليأس من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام ولانهم ماقصدوا اقليما الافتحوه ولاعسكرا الاهزموه وكان النصر والفتح العظيم يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة ولما أراد الملك قطز أن يتجهز من مصر للخروج لقتال التتر بالشام أراد أن يأخذ من الناس شيأ من المال يستعين به على قتالهم فجمع العلماء فحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام فقال لا يجوز أن يؤخذ من الرعية شئ حتى لا يبقى فى بيت المال شئ وتبيعوا مالكم من الحوائص والآلات ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه ويتساووا فى ذلك هم والعامة وأما

أخذ أموال العامة مع بقاء ما فى أيدى الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا ذكره فى حسن المحاضرة للجلال السيوطى وذكر الامام النووى أنه أفتى بيبرس المتولى بعد قطز بمثل ما أفتى به العز بن عبد السلام وأرسل له الفتوى من الشام ونص المقصود من ذلك ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شئ ما دام فى بيت المال شئ من نقد أو متاع أو أرض أو ضياع أو غير ذلك قال وهؤلاء علماء المسلمين فى بلاد السلطان أعز الله أنصاره متفقون على هذا قال الجلال السيوطى فلما أراد السلطان الظاهر بيبرس الخروج الى الشام لقتال التتر أخذ فتاوى العلماء بانه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو فكتب له فقهاء الشام بذلك فقال هل بقى أحد فقيل نعم بقى الشيخ محيي الدين النووى فطلبه فحضر فقال اكتب خطك مع الفقهاء فامتنع فقال ما سبب امتناعك فقال أنا أعرف أنك كنت فى الرق للامير بندقدار وليس لك مال ثم من الله عليك وجعلك ملكا وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة من ذهب وعندك مائة جارية لكل جارية حق من الحلى فاذا أنفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلا عن الحوائص وبقيت الجوارى بثيابهن دون الحلى أفتيتك بأخذ المال من الرعية فغضب السلطان الظاهر بيبرس من كلامه وقال اخرج من بلدى يعنى دمشق فقال السمع والطاعة وخرج الى نوى فقال الفقهاء ان هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به فأعده الى دمشق فرسم برجوعه فامتنع الشيخ وقال لا أدخلها والظاهر بها فمات الظاهر بعد شهر قال الحافظ الذهبى كان الظاهر بيبرس خليقا للملك لولا ما كان فيه من الظلم قال والله يرحمه ويغفر له فان له أياما بيضا فى الاسلام ومواقف مشهودة وفتوحات معدودة وقال أيضا فى حسن المحاضرة فى موضع آخر وكان فى الظاهر بيبرس محاسن وغيرها وظلم أهل الشام غير مرة وافتاه جماعة بموافقة هواه فقام الشيخ محيي الدين النووى فى وجهه وأنكر عليه وقال أفتوك بالباطل وكان بمصر منقمعا تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام لا يستطيع أن يخرج عن أمره حتى انه قال

لما مات الشيخ عز الدين ما استقر ملكى الى الآن ومن محاسنه ما حكاه ابن كثير فى تاريخه انه حضر الى دار العدل فى محاكمة فى بئر بين يدى القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز فقام الناس له لما جاء سوى القاضى فانه أشار اليه أن لا يقوم فقام هو وغريمه بين يدى القاضى وتداعيا وكان الحق بيد السلطان وله بينة عادلة به فانتزعت البئر من يد الغريم وهو أحد الامراء * ومن محاسن الظاهر بيبرس انه أكمل عمارة المسجد النبوى من الحريق المتقدم ذكره وصنع منبرا للمسجد النبوى وحج فى سنة سبع وستين فغسل الكعبة بيده بماء الورد وزار المدينة الشريفة فرأى الناس يلتصقون بالقبر فقاس ما حوله بيده وأرسل فى العام الذى يليه درابزانا من خشب فأدير حول القبر الشريف

﴿ ذكر عود التتر الى الشام ﴾

لما وصل الخبر الى التتر بانهزام عساكرهم من الشام وخروجه من تحت أيديهم جهزوا جيشا من سنتهم تلك ووصلوا الى حلب فى آخر السنة أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة وملكوها وبذلوا السيف فى أهلها فأفنوا غالبهم وسلم القليل منهم واجتمع كثير من عساكر الاسلام بحمص وسار اليهم التتر فالتقوا بظاهر حمص خامس المحرم من سنة تسع وخمسين وستمائة وكان التتر أكثر من المسلمين بكثير ففتح الله على المسلمين بالنصر وولى التتر منهزمين وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون كيف شاؤا وسار من سلم من التتر الى أفامية فقاتلهم المسلمون عندها فرحلوا وتوجهوا الى الشرق

﴿ مبايعة شخص بالخلافة واثبات نسبته ﴾

فى شهر رجب من هذه السنة أعنى سنة تسع وخمسين وستمائة قدم شخص الى مصر من بنى العباس الذين سلموا فى بغداد من قتل التتر واسمه أحمد بن الظاهر بن الناصر فعقدوا له مجلسا بمصر حضره العز بن عبد السلام وغيره من العلماء والسلطان الظاهر بيبرس وأثبتوا نسبه وعلى هذا يكون عم المستعصم وجاء جماعة

من العرب العارفين به فشهدوا بنسبه فبايعه الملك السلطان بيبرس والعلماء والناس بالخلافة واهتم الملك الظاهر بأمره واحتفل به وجهز معه عساكر كثيرة ووجههم لقتال التتر طمعا أنه يستولى على بغداد ثم جاءت الكتب منه أنه استولى وعساكره على عانة والحديثة وان كتب أهل العراق وصلت اليه يستحثونه على الوصول اليهم ثم قبل أن يصل الى بغداد وصلت اليه التتر وقاتلوا الخليفة المذكور وقتلوه وقتلوا غالب أصحابه ونهبوا ما كان معهم وجاءت الاخبار الى مصر بذلك فى آخر السنة المذكورة * وفى آخر سنة ستين من ذى الحجة حضر أيضا شخص آخر من بنى العباس الذين سلموا من قتل التتر اسمه أيضا أحمد بن حسن بن أبى بكر بن على بن حسن بن الراشد بن المسترشد بن المستظهر فاثبتوا نسبه وبايعوا السلطان بيبرس والعلماء ولقبوه الحاكم بامر الله وأشركه السلطان فى الدعاء لاغير وبقى عقبه بمصر يبايعهم السلاطين وليس بيده من الملك والتصرف شىء بل الامر بيد السلاطين المتملكين مصر واستمر ذلك الى دخول السلطان سليم بمصر سنة تسعمائة واثنتين وعشرين * وفى سنة إحدى وستين وستمائة جهز الملك الظاهر عساكره من مصر وأغاروا على عكا وأعمالها وهى بيد الفرنج فغنموا وعادوا ثم ركب الملك الظاهر بنفسه ومعه جماعة اختارهم وأغار ثانيا على عكا وبلادها وهدم برجا كان خارج البلد وهدم الكنيسة المسماة بالناصرة وكانت من أكبر مواطن عبادات النصارى لان منها خرج دين النصرانية وتوجه عسكر كثير الى انطاكية وبلادها وهى أيضا بيد الفرنج فساروا اليها وأغاروا على أطرافها وضايقوها وعادوا ومعهم ما ينوف عن ثلاثمائة أسير * وفى سنة ثلاث وستين سار الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية بعساكره المتوافرة الى جهاد الفرنج بساحل الشام ونازل قيسارية وضايقها وفتحها بعد ستة أيام وأمر بها فهدمت ثم سار الى أرسوف وفتحها * وفى سنة أربع وستين سار من مصر بعساكره المتوافرة الى الشام وجهز عسكره الى ساحل طرابلس الشام وكانت بيد الفرنج ففتحوا قليعات وعرقا ونزل هو على صفد وضايقها بالزحف وآلات الحصار ولاصق

الجند القلعة وكثر القتل والجراح في المسلمين ثم فتحها وقتل أهلها عن آخرهم ثم بعث كثيرا من العساكر الى بلاد سيس يقتلون ويأسرون كيف شاؤا وفي سنة ثلاث وستين هلك هلاكو بن طولى بن جنكزخان واستقر ولده أبغا على ما كان بيده من الممالك واستمر الى سنة احدى وثمانين وهلك واستقر بعده أخوه تكدار ابن هلاكو ثم أسلم وتسمى أحمد وخاطب بذلك الملوك الكثيرة في عصره وأرسل الى مصر يخبرهم ويطلب المساعدة وسار بأمر التتر بالاسلام فثار لذلك فتنة بين التتر مع بعضهم الى أن قتلوا أحمد المذكور سنة اثنتين وثمانين وستمائة وتملك أرغو ابن ابغا وعدل عن دين الاسلام وأحب دين البراهمة من عبادة الاصنام وانتحال السحر والرياضة وأصابه داء الصرع وهلك سنة تسعين وتملك كيخاتو بن ابغا الى سنة ثلاث وتسعين فقتل وتملك بيدو بن طرغاى بن هلاكو وقتل سنة خمس وتسعين وتملك قازان بن أرغو بن ابغا بن هلاكو سنة ثلاث وسبعمائة فولى بعده أخوه خربندا بن أرغو وابتدأ أمره بالدخول في الاسلام وتسمى بمحمد وتلقب غياث الدين ثم صحب الروافض وساء اعتقاده وحذف ذكر الشيخين من الخطبة ونقش أسماء الأئمة الاثنى عشر على سكته ثم أنشأ مدينة بين قزوين وهمدان وسماها السلطانية ونزلها واتخذ بها بيتا لطيفا بلبن من الذهب والفضة وأنشأ بازائها بستانا جعل فيه أشجار الذهب بثمر اللؤلؤ والفصوص وأجرى اللبن والعسل أنهارا وأسكن به الغلمان والجوارى تشبيها له بالجنة وأفحش في التعرض لحرمات قومه وهلك مسموما سنة ست عشرة وسبعمائة وخلف ابنه أبا سعيد طفلا ابن ثلاث عشرة سنة فبويع له وأظهر الاسلام واستقامة الامور بواسطة وزير لابيه يسمى جوبان واستمر أبو سعيد الى أن مات سنة ست وثلاثين وسبعمائة وكان قد انعقد صلح بينه وبين ملك مصر الملك الناصر قلاوون سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة وحج الاكابر من قرابة أبي سعيد ملك التتر بالعراقين واتصلت المهاداة بينه وبين الملك الناصر ولما مات أبو سعيد لم يعقب واختلف أهل دولته وانقرض الملك من بني هلاكو وافترقت الاعمال التي كانت في ملكهم وأصبحت طوائف في

خراسان وفي عراق العجم وفارس واذربيجان وكذلك في بلاد الروم ولما هلك أبو سعيد سنة ست وثلاثين نصب امراء قومه الوزير غياث الدين والملك موسى خان من أسباطهم وقام بدولته الشيخ حسن بن حسين بن بيبقا بن املكان وهو ابن عمة السلطان أبي سعيد فتغلب وتمكن الشيخ حسن وصار الملك والحل والعقد بيده الى أن توفي سنة سبع وخمسين وسبعمائة فولي مكانه ولده أويس وتوفي سنة ست وسبعين وسبعمائة وتملك ابنه حسين بن أويس ثم تغلب عليه أخوه أحمد بن أويس وقبض عليه وقتله سنة احدى وثمانين وسبعمائة واستمر أحمد بن أويس الى سنة خمس وتسعين وسبعمائة فجاء تيمورلنك بجموعه وملك العراق وبغداد فقدم أحمد بن أويس على سلطان مصر السلطان برقوق مستجيرا به مستصرخا به على طلب ملكه وكان ذلك في ربيع سنة ست وتسعين وسبعمائة فأجاب صريخه ونادى في عسكره بالتجهيز وسيأتي اتمام الكلام على ذلك عند ذكر تيمورلنك وذكرنا ملوك التتر متتابعين الى آخرهم ليتصل الكلام ببعضه * ولنرجع الى ذكر بقية فتوحات الملك الظاهر مع بقية محاربات التتر وملوك مصر بالشام

* ذكر فتح يافا وانطاكية وعكا *

في سنة ست وستين وستمائة توجه الملك الظاهر بيبرس بعساكره المتوافرة الى الشام وفتح يافا وأخذها من الفرنج ثم توجه الى انطاكية ونازلها وشدد الحصار عليها الى أن ملكها بالسيف وقتل أهلها وسبى الذراري والنساء وغنم أموالا جليلة ثم توجه الى بغراس فملكها * وفي سنة تسع وتسعين نازل حصن الاكراد الى أن ملكه ثم رحل الى حصن عكا ونازله وجد في قتاله الى أن ملكه ثم توجه الى حصن القرين ونازله وملكه * وفي سنة سبعين وستمائة أغارت التتر على عينتاب وعلى سروج وقيطون وانتهوا الى قرب أفامية ثم رجعوا ثم نازلوا البيرة ونصبوا عليها المجانيق وضايقوها فسار اليهم الملك الظاهر بيبرس وأراد عبور الفرات الى بر البيرة فقاتله التتر على المخاضة فاقتحم الفرات وهزم التتر فرحلوا عن البيرة وتركوا آلات الحصار بحالها فصارت للمسلمين * وفي سنة ثلاث وسبعين توجه الملك

الظاهر بيبرس الى بلاد سيس فدخلها بعساكره المتوافرة فغنموا ثم رجعوا الى دمشق * وفى سنة أربع وسبعين وستمائة قصد التتر البيرة ونازلوها فتوجه اليهم الملك الظاهر بعساكره فلما سمعوا به ارتحلوا * وفى سنة خمس وسبعين غزا الملك الظاهر بلاد الروم بعساكره المتوافرة والتقى فى طريقه بجيش من التتر فقاتلهم وهزمهم وقتل كثيرا منهم وقتل مقدمهم وأسر كثيرا منهم ثم سار الى قيسارية فملكها ثم سار الى عمق حارم يقتل و يأسر ثم عاد الى دمشق * وفى سنة خمس وسبعين أيضا كان ابتداء عمل المحمل فى مدة الملك الظاهر بيبرس يطوفون به فى مصر قبل خروجه لترغيب الناس فى الحج وتهييجهم ثم يسافرون به مع كثير من الحجاج من طريق البر وعند رجوعهم يزورون النبى صلى الله عليه وسلم * وفى سنة ست وسبعين حج الملك الظاهر بنفسه وزار النبى صلى الله عليه وسلم وتصدق بصدقات كثيرة على أهل الحرمين وغسل الكعبة بيده بماء الورد ثم رجع ثم توفى فى الثامن والعشرين من المحرم سنة سبع وستين وستمائة ومدة ملكه نحو سبع عشرة سنة وولى بعده ولده الملك السعيد بركة وخلع سنة ثمان وسبعين وولى ولده الآخر سلامش وخلع بعد شهرين وولى الملك المنصور قلاون الصالحى وكل هؤلاء يقال لهم المماليك البحرية و يقال لدولتهم الدولة التركية والذين بعدهم يقال لهم الجراكسة الى أن تملك مصر السلطان سليم (والحاصل) أن ملوك مصر بعد الفاطميين الملوك الايوبية وأولهم السلطان صلاح الدين وآخرهم الملك الاشرف موسى بن يوسف ابن الملك المسعود اقسيس بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب والملك العادل أخو السلطان صلاح الدين توارث الملك بنوه بعده الى سنة ثمان وأربعين وستمائة وكانوا استكثروا من المماليك البحرية فتغلبوا على الملك وصار فيهم بعد ساداتهم و بقى الملك فى المماليك البحرية مائة وستة وثلاثين سنة من سنة ثمان وأربعين وستمائة الى سنة أربع وثمانين وسبعمائة وعدد ملوكهم أربع وعشرون وكان لهم مماليك من الجراكسة فتغلبوا على الملك وأول ملوك المماليك البحرية عز الدين ايبك وآخرهم الملك الصالح شعبان بن الحسين بن الناصر قلاوون

وملوك الجراكسة هم مماليك المماليك البحرية وأولهم الملك الظاهر برقوق وآخرهم قانصوه الغوري ومدة ملك الجراكسة مائة وثمان وثلاثون سنة من سنة أربع وثمانين وسبعمائة الى سنة اثنتين وعشرين وستمائة وعدد ملوكهم ثلاث وعشرون والسبب الجاري بتقدير الله تعالى لتملك المماليك البحرية أنه في آخر الدولة الأيوبية كان هجوم الفرنسيس على دمياط وتملكهم إياها وكان ملك مصر بيد الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد فمرض ومات وأوصى بالملك لولده توران شاه وكان غائبا في قلعة حصن كيفا وكانت زوجة الملك الصالح شجرة الدر أم ولده خليل مدبرة للأمور فأخفت موت الملك الصالح وأقامت على ذلك مدة وهي قائمة بالأمر والنهي الى أن حضر ولده توران شاه وقاتل الفرنسيس وهزمهم وقتل منهم أكثر من مائة ألف وأسر ملكهم كما تقدم ذلك كله ثم شرع في إبعاد مماليك أبيه واهانتهم وكانوا هم الامراء فاتفقوا على قتله وقتلوه ثم اتفقوا على اعطاء السلطنة لشجرة الدر فكانت تعلم على المناشير ويدعى لها على المنابر فكان الخطيب يقول بعد الدعاء للخليفة واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصم صاحبة السلطان الملك الصالح ويكتب اسمها على السكة ثمانين يوما وجعلت النائب عنها في الاحكام عز الدين ايبك وهو من مماليك الملك الصالح نجم الدين بن أيوب ثم أطلقت ملك الفرنسيس بشروط كما تقدم ثم تزوجت بنائبها فجاءهم مكتوب من بغداد من الخليفة العباسي يوبخهم فيه على تمليك امرأة ويقول لهم إن لم يكن عندكم رجل نرسل اليكم رجلا يتولى عليكم فاتفقوا على أن يملكوا رجلا من بني أيوب فملكوا الملك الاشرف موسى المتقدم ذكره وكان صغيرا وأشركوا معه شجرة الدر ونائبها عز الدين ايبك ثم خلعوا الملك الاشرف وجعلوا السلطنة لعز الدين ايبك استقلالا ثم إنه أراد أن يتزوج ببنت ملك الموصل فشق ذلك على زوجته شجرة الدر فاتفقت مع الطواشي محسن الجوهري على قتل عز الدين أيبك فهجموا عليه في الحمام فقتلوه فلما سمع مماليكه بقتله عزموا على قتل شجرة

الدر فسبقتهم زوجة عز الدين أم ولده فدخلت هى وجواريها على شجرة الدر فقتلوها بالقباقب وأقاموا فى السلطنة نور الدين ولد عز الدين ايبك وعمره عشر سنين وجعلوا النائب عنه أحد مماليك أبيه وهو الأمير قطز ثم لما هجم التتر على الاقطار الشامية استحسن أهل الحل والعقد أن يخلع الملك الصغير نور الدين وان تكون السلطنة استقلالا للأمير قطز يستقل بتدبير الملك والقيام بقتال التتر فأقاموا قطز فى السلطنة ولقبوه الملك المظفر وخلعوا نور الدين بن عز الدين ايبك ثم خرج الملك المظفر قطز بالعسكر الى الشام لقتال التتر فالتقى معهم عند عين جالوت من أرض كنعان فقاتلهم قتالا شديدا الى أن هزمهم وأسر منهم خلقا كثيرا وتعلق المنهزم منهم برؤس الجبال وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم وأسر ابنه وأرسل قطز خلفهم بيبرس ومعه عسكر فتبعهم الى أطراف البلاد وأتم المظفر قطز السير بالعساكر الى دمشق وتضاعف شكر العالم لله تعالى على هذا النصر العظيم من بعد اليأس من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام لأنهم ما قصدوا إقليما إلا افتضوه ولا عسكرا إلا هزموه وكان القتال مع التتر وهزيمتهم يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة

* وفى يوم دخول قطز دمشق شنق جماعة من المسلمين المنتسبين للتتر ولما قرر قطز أمر الشام وحلب وغيرها سار من دمشق بالعساكر راجعا الى مصر وكان الأمير بيبرس سأله أن يوليه حلب فامتنع فاتفق مع بعض الامراء الذين كانوا مع قطز على قتله وساروا معه من دمشق يترقبون الفرصة فلما وصل الى موضع بينه وبين الصالحية مرحلة وقد خرج النائب بمصر مع العساكر الذين بمصر لاستقبالهم من الصالحية فبينما الملك قطز سائر اذ ثارت أرنب بين يديه فساق جواده خلفها وساق معه بيبرس والذين تواطؤا معه على قتل قطز وأبعدوا عن العساكر السائرة معهم ثم وقفوا فتقدم واحد منهم وشفع عند قطز فى انسان فأجابه الى ذلك فأهوى ليقبل يده وقبض عليها فحمل عليه بيبرس وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه وكان ذلك سابع ذى القعدة

من السنة المذكورة ثم سار بيبرس ومن معه حتى وصلوا الصالحية فوجدوا العساكر التى خرجت من مصر لاستقبالهم ومعهم نائب السلطنة فارس الدين أقطاي ينتظرون قدوم الملك قطز فلما علم نائب السلطنة الخبر منهم سألهم من قتله منكم فقال له بيبرس أنا فقال نائب السلطنة ياخوند اجلس فى مرتبة السلطنة ومعنى خوند الكبير الشان فجلس واستدعى العساكر للتحليف فحلفوا له واستقر الملك لبيبرس ثم ساق وسبق العساكر الى قلعة الجبل ففتحت له ودخلها وكانت مصر قد زينت لقدوم قطز فاستقرت الزينة للملك الظاهر بيبرس فسبحان من يدبر ملكه كيف شاء ولا يسأل عما يفعل فان له فى كل شئ حكمة وكان بيبرس فى الأصل مملوكا لايدكين البندقدار الصالحى ثم اشتراه الملك الصالح نجم الدين بن أيوب قال ابن الوردى فى تاريخه إن الملك الظاهر بيبرس كان على قدم من الديانة وكان ملازما للخمس فى أوقاتها وألزم حاشيته بها وحكى عنه أنه ماشرب خمرا قط ومنع كل مسكر وكان يحصل من مكس المسكر بمصر كل يوم ألف دينار فأبطله ولما حج رؤى بباب الكعبة محرما يأخذ بأيدى ضعفاء الرعية ليصعدوا وعمل الستور الديباج للكعبة والحجرة النبوية وخطب مرة المجد اسماعيل الواسطى والسلطان بيبرس حاضر فقال فى الخطبة أيها السلطان انك لن تدعى يوم القيامة يا أيها السلطان لكن تدعى باسمك وكل منهم يسأل عن نفسه إلا أنت فانك تسأل عن رعاياك فاجعل كبيرهم أبا وأوسطهم أخا وصغيرهم ولدا فاستعذب وعظه وأجزل عطاءه وكان له فى السنة عشرة آلاف أردب تفرق فى الفقراء والمساكين ووقف أوقافا على جهات عديدة واستن سنن العمرين ونصب للناس خيمة وفتح انطاكية وبغراس والقصير وحصن الاكراد وحصن عكا والقرين وصافيتا ومرقبة وأمنت لهيبته السبل ويكفيك فعله بالتتر بعين جالوت وخوضته اليهم غمرات الموت مرات فشكر الله سعيه وانما ذكرت مبدأ دولة المماليك البحرية والجراكسة الى آخر ماتقدم استطرادا وان كان خارجا عما التأليف بصدده تكثيرا للفوائد ولما فى ذلك من الاعتبار لذوى الابصار والله ولى التوفيق

(ولنرجع) الى ما نحن بصدده في سنة ثمانين وستمائة جاءت جيوش من التتر الى البلاد الشامية وكان ذلك في مدة سلطنة الملك المنصور قلاوون بمصر فخرج لقتالهم فكان المصاف العظيم بين المسلمين والتتر بظاهر حمص فنصر الله المسلمين بعد ما كانوا أيقنوا بالبوار وانهزم التتر هزيمة قبيحة وكثر القتل والاسر فيهم وكان عدة جيش التتر ثمانين ألفا وعاد السلطان الى دمشق والأسرى والرؤس بين يديه * وفي سنة أربع وثمانين وستمائة سار الملك المنصور قلاوون بعساكره ونازل حصن المرقب وهو حصن في غاية العلو والمتانة والحصانة لم يطمع أحد من الملوك الماضين في فتحه فلما زحف العسكر عليه أخذ الحجارون فيه النقب ونصبت عليه عدة مجانيق فلما تمكنت النقوب من أسوار القلعة طلب أهله الامان فأجابهم السلطان رغبة في إبقاء عمارته لو أخذه بالسيف لهدمه فيحصل التعب في إعادة عمارته فأعطى أهله الأمان على أن يتوجهوا بما يقدرون على حمله غير السلاح وتسلم الحصن وقرر أمره ورتبه وارتحل الى الوطأة بالساحل وأقام بمروج ثم سار ونزل تحت حصن الاكراد ثم سار ونزل على بحيرة حمص * وفي سنة ست وثمانين سار الى قلعة صهيون ونصب عليها المجانيق وضايقها بالحصار فأجابه صاحبها الى تسليمها بالامان فتسلمها ثم سار الى اللاذقية وكان بها برج للفرنج يحيط به البحر من جميع جهاته فركب طريقا اليه في البحر بالحجارة وحاصر البرج المذكور ثم تسلمه بالامان وهدمه ثم رجع الى مصر وأرسل جيشا الى النوبة فغنموا وعادوا * وفي سنة ثمان وثمانين سار السلطان بعساكره ونازل طرابلس الشام وكانت بيد الفرنج ونصب عليها المجانيق الكبار والصغار ولازمها بالحصار وشدد عليها القتال حتى فتحها بالسيف ودخلها العسكر عنوة فهرب بعض أهلها الى المراكب وقتل غالب رجالها وسبيت ذراريهم ونساؤهم وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة وكان في البحر قريبا من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة فهرب اليها كثير من الفرنج رجالا ونساء فاقتحم العسكر الاسلامي البحر وعبروا بخيولهم سباحة الى الجزيرة فقتلوا جميع من فيها من الرجال وسبوا من فيها من النساء

والصغار وغنموا ما فيها من الاموال وكان الفرنج قد استولوا على طرابلس الشام سنة ثلاث وخمسمائة فبقيت فى أيديهم الى هذه السنة أعنى سنة ثمان وثمانين وستمائة فتكون مدة لبثها مع الفرنج مائة سنة وخمسا وثمانين سنة وشهورا وتوفى الملك المنصور قلاوون سنة تسع وثمانين وأقيم فى السلطنة بعده ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل

﴿ ذكر فتح عكا ﴾

فى سنة تسعين وستمائة جهز السلطان صلاح الدين خليل بن قلاوون عساكره الوافرة لفتح عكا وصحب معه المجانيق وآلات الحصار فنازلها وشدد عليها القتال ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها واشتدت مضايقة العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى ظهر يوم الجمعة السابع عشر من شهر جمادى الآخرة بالسيف ولما هجمها المسلمون هرب جماعة ممن كانوا فيها من الفرنج الى المراكب وقتل المسلمون من بقى منهم بعكا وكانوا كثيرين وغنموا شيأ يفوت الحصر ومن عجائب الاتفاق أن الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من السلطان صلاح الدين الايوبى ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستولوا على من بها من المسلمين ثم قتلوهم فبقيت تحت أيديهم مائة سنة وثلاث سنين فقدر الله فى سابق علمه أنها تفتح فى هذه السنة فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة على يد السلطان صلاح الدين فكان فتوحها فى مثل اليوم الذى ملكها الفرنج فيه وكذلك لقب السلطانين اذ كل منهما يلقب صلاح الدين وتقدم التنبيه على ذلك عند ذكر أخذ الفرنج لها

﴿ ذكر فتوح عدة حصون ﴾

لما فتحت عكا ألقى الله الرعب فى قلوب الفرنج الذين بساحل الشام فأخلوا صيدا وبيروت وتسلمها المسلمون وهرب أهل مدينة صور فأرسل السلطان من تسلمها ثم تسلم عثليث ثم انطرطوس واتفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للاسلام وكان أمرا لا يطمع فيه ولا يرام وتطهر

الشام والسواحل من الفرنج بعد ان كانوا أشرفوا على أخذ الديار المصرية وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام فلله الحمد والمنة على ذلك وقد تقدم فتح حلب سنة أربع وستين وكان التتر قد خربوا قلعتها فأمر السلطان بعمارتها فتمت فى سنة احدى وتسعين وكان تخريبها فى سنة ثمان وخمسين فكان لبثها على التخريب نحو ثلاث وثلاثين سنة

﴿ ذكر فتح قلعة الروم ﴾

هى قلعة على جانب الفرات فى غاية الحصانة سار الى قصدها السلطان صلاح الدين قلاوون فى سنة احدى وتسعين بكثير من الجيوش ونصب عليها المجانيق واشتدت مضايقتها ودام حصارها وفتحت بالسيف وقتل أهلها وسبيت ذراريهم واعتصم جماعة من أهلها بالقلعة فحوصروا ورمى عليهم بالمنجنيق فطلبوا الامان فلم يؤمنهم الا على أرواحهم خاصة وان يكونوا أسرى فأجابوا الى ذلك ثم أمر السلطان بعمارة القلعة ورجع الى دمشق * وفى سنة ثلاث وتسعين قتل السلطان صلاح الدين قتله بعض مماليك أبيه وتسلطن بعده أخوه الملك الناصر * وفى سنة سبع وتسعين وستمائة تجهزت العساكر من مصر ثم ساروا الى الشام ثم ساروا الى بلاد سيس وشنوا عليهم الغارات وكبسوهم وغنموا وعادوا ثم ساروا مرة أخرى ونزلوا على حمص وحاصروها وضيقوا على أهلها وكان بها من الارمن جمع كثير فقل عليهم الماء واشتد بهم العطش وهلك النساء والاطفال فأخرج أهل حمص منها نحو ألف ومائتين من النساء والصبيان فتقاسمهم العساكر وغنموهم واستمر الحصار فضاقت على الارمن الارض بما رحبت وهلكوا من كثرة من قتل منهم وغنم منهم المسلمون غنائم كثيرة فطلبوا الامان وسلموا حمص وحموص وجميع البلاد التى فى جنوبى نهر جيحان ثم سلمت تل حمدون بعدها ثم باقى الحصون فى شوال سنة سبع وتسعين وستمائة فرتب المسلمون فيها من يقوم بها ويحميها * وفى سنة تسع وتسعين وستمائة أقبلت التتر بجموع كثيرة وعبروا الفرات الى حلب ثم الى حماه فخرجت لهم جموع المسلمين والتقوا بجمع الروم من شرقى حمص واقتتلوا قتالا شديدا وانهزمت جيوش المسلمين وساق

التتر خلفهم الى غزة والقدس و بلاد الكرك وغنموا من المنهزمين شيأ كثيرا وأخذ أهل دمشق الامان وملكه التتر وعصت عليه القلعة فحاصروها فصبر المسلمون على الحصار ولم يسلموها وأحرقت الدور التى حول القلعة والمدارس ثم ان عساكر مصر لما وصلوا الى مصر رسم لهم بالنفقة فأنفق السلطان عليهم أموالا جليلة وأصلحوا أحوالهم وجددوا عدتهم وخيولهم وخرجوا من مصر فى العشر الاول من رجب من سنة تسع وتسعين وكاتبوا المسلمين الذين بالشام فى السر وصاروا معهم فلما خرجت العساكر من مصر بلغ ذلك التتر فخافوا وساروا من وقتهم الى الديار الشرقية وخلا الشام منهم فوصلت العساكر الاسلامية الى الشام ورتبوا أمراءها وغيرهم وفعلوا مثل ذلك بحلب وحماه وغيرهما ولما استولى التتر على الشام طمع الأرمن فى البلاد التى افتتحها المسلمون منهم وعجز المسلمون عن حفظها فتركها الذين كانوا بها وأخلوها من العسكر والرجال فاستولى الارمن عليها وارتجعوا حموص وتل حمدون وكوبروسر فندكار والنقير وغيرها ولم يبق مع المسلمين من جميع تلك القلاع غير قلعة حجر شغلان واستولى الارمن أيضا على غيرها من الحصون والبلاد التى كانت جنوبى نهر جيحان * وفى سنة سبعمائة عادت التتر وقصدت الشام وعبروا الفرات فى ربيع الآخر وجفلت المسلمون منهم وخلت بلاد حلب وأقامت التتر ببلاد سرمين والمعرة وتيزين والعمق وغيرها ينهبون ويقتلون وكان ذلك فى مدة السلطان الناصر قلاوون فسار السلطان والعساكر الاسلامية لقتالهم من مصر ووصلوا الى العوجاء واتفق فى تلك المرة تتابع الامطار الى الغاية واشتدت الوحول حتى تقطعت الطرقات وتعذرت الاقوات وعجزت العساكر عن المقام على تلك الحال فرحل السلطان والعساكر وعادوا الى الديار المصرية فوصلوا مصر فى عاشر جمادى الاولى من هذه السنة وأما التتر فانهم أقاموا يتنقلون فى بلاد حلب وأعمالها نحو ثلاثة أشهر ثم ان الله تعالى تدارك المسلمين بلطفه ورد التتر على أعقابهم بقدرته فعادوا الى بلادهم وعبروا الفرات فى أواخر جمادى الآخرة من هذه

السنة ورجع عساكر حلب الى حلب وتراجعت الجفال الى أماكنهم ولما كان أوائل هذه القصة وجاءت الاخبار الى مصر بعود التتر الى الشام أخرج غالب الاغنياء من أهل الشام ومصر ثلث أموالهم لاستخدام المقاتلة واعانتهم * وفى سنة احدى وسبعمائة خرجت العساكر الاسلامية لقتال الارمن وانتشروا فى بلاد سيس وحرقوا الزروع وقتلوا من وجدوه وغنموا اشياء كثيرا * وفى سنة اثنتين وسبعمائة غزا المسلمون جزيرة أرواد وهى جزيرة فى بحر الروم قبالة انطرطوس قريبا من الساحل اجتمع فيها كثير من الفرنج وبنوا فيها حصونا وسوروا وتحصنوا فى هذه الجزيرة وكانوا يطلعون منها ويقطعون الطريق على المسلمين المترددين فى ذلك الساحل فاتخذ المسلمون اسطولا وساروا اليها من الديار المصرية فى بحر الروم ووصلوا اليها فى المحرم من هذه السنة وجرى بينهم وبين الفرنج قتال شديد ونصر الله المسلمين وملكوا الجزيرة المذكورة وقتلوا وأسروا جميع أهلها وخربوا أسوارها وعادوا الى الديار المصرية بالاسرى والغنائم

﴿ ذكر دخول التتر الى الشام وكسرتهم مرة بعد أخرى ﴾

فى سنة اثنتين وسبعمائة عاودت التتر قصد الشام وساروا الى الفرات وأقاموا عليها مدة فى أزوارها وسارت منهم طائفة قدر عشرة آلاف وأغاروا على القريتين وتلك النواحى وكانت العساكر الاسلامية قد اجتمعت بحماه وأرسلوا جماعة من العسكر لقتال الذين أغاروا على القريتين فالتقوا بالتتر سابع شعبان فى موضع يقال له الكوم واقتتلوا وصبر الفريقان ثم نصر الله المسلمين وولى التتر منهزمين وترجل بينهم جماعة كثيرة عن خيلهم وأحاط بهم المسلمون بعد فراغهم من الواقعة وبذلوا لهم الامان فلم يقبلوا وقاتلوا بالنشاب وعملوا سروج الخيل ستائر وناوشهم العساكر من الضحى الى انفراك الظهر ثم حملوا عليهم فقتلوهم عن آخرهم فكان هذا النصر عنوان النصر الثانى على ما نذكره ثم عاد المسلمون الى حماه منصورين ثامن عشر شعبان

﴿ ذكر المصاف الثانى والنصرة العظيمة ﴾

ثم بعد وقعة الكوم سار التتر بجموعهم العظيمة ووصلوا الى حماه فى الثالث

والعشرين من شعبان من السنة المذكورة وجاء كثير من العساكر الاسلامية من دمشق ومصر وجاء السلطان الناصر بباقى العساكر الاسلامية والتقى الفريقان فى ثانى رمضان واشتد القتال بينهم واستشهد من المسلمين خلق كثير ثم أنزل الله نصره على المسلمين فهزموا التتر وأكثروا القتل فيهم فولوا منهزمين لا يلوى بعضهم على بعض وحال الليل بين الفريقين فنزل التتر على جبل هناك بطرف مرج الصفر وأشعلوا النيران فأحاط المسلمون بهم فلما أصبح الصباح وشاهد التتر كثرة المسلمين انحدروا من الجبل يبتدرون الهرب فتبعهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وكان فى طريقهم أرض متوحلة فتوحل فيها عالم كثير من التتر فأخذ بعضهم أسرى وقتل بعضهم وساق كثير من العساكر الاسلامية فى أثر التتر المنهزمين الى القريتين ووصل التتر الى الفرات وهى فى قوة زيادتها فلم يقدروا على العبور والذى عبر فيها هلك فساروا على جانبها الى جهة بغداد فانقطع أكثرهم على شاطئ الفرات وهلك من الجوع وأخذ منهم العرب جماعة كثيرة وأخلف الله تعالى بهذه الوقعة ما جرى على المسلمين فى المصاف الذى كان ببلدة حمص سنة تسع وتسعين وستمائة ❊ وفى سنة ثلاث وسبعمائة خرجت العساكر من مصر ودخلوا بلاد سيس وحاصروا تل حمدون وفتحوها بالامان وارتجعوها من الارمن وهدموها الى الارض

❊ ذكر اغارة عسكر حلب على بلاد سيس ❊

عند الدروب المجاورة لحلب وكانت كرسى ملك الارمن والارمن قوم دخلوا فى الملة النصرانية وكانت مواطنهم ارمينية ثم لما ملك المسلمون بلادهم وضربوا عليهم الجزية وأخذوا منهم خلاط وكانت كرسى ملكهم فانتقل ملكهم الى سيس وكانوا يؤدون الضريبة للمسلمين ولما ظهر التتر دخلوا فى طاعتهم وأجلبوا معهم فى غزواتهم الى الشام ثم صار ملوك مصر يغزون بلادهم ويغيرون عليهم ففى أوائل المحرم من سنة خمس وسبعمائة خرجت عساكر من حلب للاغارة على بلاد سيس فدخلوها وكان أمير العسكر ضعيف العقل قليل التدبير مشتغلا بشرب الخمر

ففرط فى حفظ العسكر ولم يكشف خبر العدو واستهان بهم فجمع صاحب سيس جموعا كثيرة من التتر وانضم اليهم الارمن والفرنج ووصلوا على غرة الى عسكر حلب فالتقوا بالقرب من اياس فلم يكن للحلبيين قدرة بمن جاءهم فتولوا يبتدرون الطريق وتمكنت منهم التتر والارمن فقتلوا وأسروا واغالبهم واختفى من سلم من تلك الجبال ولم يصل الى حلب منهم الا القليل عرايا بغير خيل وفى هذه السنة سار عسكر من دمشق الى جبال الظنينين وكانوا عصاة مارقين من الدين فأحاطت بهم العساكر الاسلامية بتلك الجبال المنيعة وترجلوا عن خيولهم وصعدوا فى تلك الجبال من كل الجهات وقتلوا وأسروا جميع من بها من النصيرية والظنينين وغيرهم من المارقين وطهرت تلك الجبال منهم وهى جبال شاهقة بين دمشق وطرابلس وأمنت الطرق بعد ذلك فانهم كانوا يقطعون الطريق ويخطفون المسلمين ويبيعونهم للكفار * وفى سنة ثمان وسبعمائة ملك الفرنج مدينة رودس وأخذتها من الروم قال الحافظ ابن حجر فى تاريخ مصر فتحت رودس فى خلافة معاوية رضى الله عنه وأمر جماعة من المسلمين بالاقامة بها فلما ولى يزيد أمرهم بالتحول خشية عليهم ففعلوا وتركوها ووضع الجزية والخراج على أهلها ثم ملكها الروم واستولوا عليها وتغلبوا ثم أخذتها الفرنج منهم * وفى سنة ثنتى عشرة وسبعمائة أقبلت التتر بمجموعها وجفل أهل حلب وبلادها عند سماعهم الاخبار باقبال التتر ثم وصلت التتر الى بلاد سيس وكذلك وصلوا الى الفرات ثم نازلوا الرحبة وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وأخذوا فيها الثقوب فقام أهل الرحبة بحفظ القلعة أحسن قيام وصبروا على الحصار وقاتلوا أشد القتال فتجهزت العساكر الاسلامية من كل ناحية لانجادهم وأصاب التتر شدة جوع وغلاء وفناء وتعذرت عليهم الاقوات وسمعوا باقبال جيوش الاسلام فارتحلوا خائبين بعد حصار نحو شهر وتركوا المجانيق وآلات الحصار على حالها فنزل أهل الرحبة واستولوا عليها ونقلوها الى الرحبة ورجعت عساكر الاسلام وكفى الله المؤمنين القتال

﴿ ذكر فتح ملطية وكانت بيد الارمن ﴾

فى سنة خمس عشرة وسبعمائة فتحت ملطية وهى مدينة مشهورة بأرض الروم

ذات أشجار وأنهار وهي قاعدة الثغور ويحف بها جبال قيل انه كان بها اثنا عشر ألف نول يعمل الصوف وسبب تجهز الجيوش لفتحها انه كان بها جماعة من المسلمين اختلطوا بالنصارى حتى انهم زوجوا الرجل النصراني بالمسلمة وكانت الاجناد من المسلمين لا ينقطعون عن الاغارة على العدو ببلاد الروم وغيرها وكانت طريقهم في غالب الأوقات تكون قريب ملطية فاتفق أن أهل ملطية ظفروا ببعض الغيار المذكورين فأسروهم وقتلوا جماعة من المسلمين فلما جرى ذلك أرسل السلطان ناصر الدين قلاوون عسكرا ضخما من الديار المصرية فساروا الى دمشق ورسم السلطان لجميع عساكر الشام بالمسير معه وكذا عسكر حماه وحلب وسار الجميع حتى وصلوا ملطية ونازلوها في الثاني والعشرين من المحرم من السنة المذكورة فأحدقوا بها وحاصروها وخرج جماعة منها وطلبوا الامان لانفسهم فأمنوا واتفق أن الباب الذي فتح لخروجهم قبالة عسكر حماه فهجموا على المدينة من الباب المذكور وخرج الامر عن الضبط لكثرة العساكر الطامعة فنهبوا جميع ما فيها من أموال المسلمين والنصارى حتى لم يدعوا فيها الا ما كان مطمورا ولم يعلموا به وكذلك استرقوا جميع أهلها من المسلمين والنصارى ثم بعد ذلك وقع الانكار التام على من استرق مسلما أو مسلمة وعرضوا الجميع فأطلق جميع المسلمين من الرجال والنساء وأما أموالهم فانها ذهبت واستمرت النصارى في الرق عن آخرهم ثم لما كان من نهب ملطية ما ذكرناه ألقى العسكر فيها النار فاحترق غالبها وخرب العسكر ما أمكن من أسوارها وأقام جيش المسلمين بها يوما واحدا وليلة ثم ارتحلوا عائدين الى بلادهم وبعثوا رسلا الى صاحب بلاد سيس في اعادة البلاد التي في جنوبي جيحان وزيادة القطيعة فزاد القطيعة حتى جعلها نحو ألف درهم

﴿ ذكر الاغارة على سيس وبلادها ﴾

في سنة عشرين وسبعمائة برزت المراسيم السلطانية من السلطان الناصر قلاوون بتجهيز العساكر والاغارة على بلاد سيس فخرجت عساكر من مصر والشام

وحماه وحلب ودخلوا بلاد سيس فى منتصف ربيع الآخر ونازلوا قلعة سيس وزحفت العساكر عليها حتى بلغوا السور وغنموا غنائم كثيرة وأتلفوا البلاد والزراعات وساقوا المواشى وكان شيأ كثيرا وأقاموا ينهبون ويخربون ورجعوا سالمين منصورين

﴿ ذكر فتوح اياس من بلاد سيس ﴾

فى سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة توجهت العساكر حتى نازلوا إياس من بلاد سيس وحاصروها وملكوها بالسيف وعصت عليهم القلعة التى فى البحر فأقام المسلمون عليها منجنيقا عظيما وركب المسلمون اليها طريقين فى البحر الى أن قاربوا القلعة فهربت الارمن منها وأخلوها وألقوا فى القلعة نارا فملك المسلمون القلعة وهدموا ما قدروا على هدمه وعاد كل عسكر الى بلاده * وفى سنة سبع وعشرين وسبعمائة فى رمضان ورد الى دمشق مائة وأربعون أسيرا من بلاد الفرنج وذلك أن قاضى القضاة جلال الدين أشهد أنه جعل لكل من يحضر أسيرا مبلغا عينه وكتب بذلك مكتوبا وعرف الفرنج ذلك فجعلوا الاسرى من تجاراتهم وأحضروهم فأعطوا من وقف الاسرى ستين ألف درهم وأطلقوا الاسرى بحمد الله تعالى

﴿ غزوة عساكر حلب بلاد سيس ﴾

فى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة غزا عسكر حلب بلاد سيس وخربوا فى اذنة وطرسوس وأحرقوا الزرع واستاقوا المواشى وأتوا بمائتين وأربعين أسيرا وما عدم من المسلمين سوى شخص واحد غرق فى النهر وكان العسكر عشرة آلاف سوى من تبعهم فلما علم أهل اياس بذلك أحاطوا بمن عندهم من المسلمين التجار وغيرهم وحبسوهم فى خان ثم أحرقوه فقل من نجا فعلوا ذلك بنحو ألفى رجل من التجار البغاددة وغيرهم فى يوم عيد الفطر فلله الامر من قبل ومن بعد * وفى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة توجهت العساكر المصرية والشامية لغزو بلاد الارمن فنزلوا فى ثانى شوال على مينا اياس وحاصروها ثلاثة أيام ثم قدم رسول الارمن من دمشق ومعه كتاب من نائب الشام بالكف عنهم على أن يسلموا القلاع والبلاد التى فى شرقى نهر جيحان فتسلموا منهم ذلك وهو شئ كثير وملك كبير

كالمصيصة وكوبرا والهارونية وسرفندكار واياس وباناس ونجيمة والنقير فخرب المسلمون برج اياس الذى فى البحر واستنابوا فى البلاد نوابا وعادوا سالمين ولله الحمد وهذا فتح اشتمل على فتوح وترك الأرمن جسدا بلا روح * وفى سنة احدى وأربعين وسبعمائة توفى السلطان الملك الناصر محمد قلاوون وأقيم بعده ولده الملك المنصور أبو بكر * وفى سنة أربع وأربعين أغارت التركمان مرات على بلاد سيس فقتلوا ونهبوا وشفوا الغليل من الارمن * وفى سنة أربعين ملكت التركمان قلعة كابان بالحيلة وهى من أمنع قلاع سيس وقتلوا رجالها وسبوا النساء والاطفال فبادر صاحب سيس لاستنقاذها فصادفه ابن دلقادر فأوقع بالارمن وقتل منهم خلقا وانهزم الباقون

﴿ واقعة الاسكندرية سنة ٧٦٧ سبع وستين وسبعمائة ﴾

قال ابن خلدون كان أهل قبرس من أمم النصرانية من بقايا الروم وانما ينتسبون هذا العهد الى الافرنج لظهور الافرنج على سائر الامم النصرانية وكان على أهل قبرس جزية معلومة يؤدونها الى صاحب مصر ومازالت من لدن فتحها على يد معاوية وكانوا اذا منعوا الجزية يسلط صاحب الشام عليهم أساطيل المسلمين فيفسدون مراسيها ويعيثون فى سواحلها حتى يستقيموا لأداء الجزية وكان الظاهر بيبرس بعث اليها سنة تسع وستين وستمائة أسطولا من الشوانى فطرقت مرساها ليلا فتكسرت لكثرة الحجارة المحيطة بها فى كل ناحية ثم غلب لهذه العصور أهل جفوة من الافرنج على جزيرة رودس حازتها من يد لشكرى صاحب القسطنطينية سنة ثمان وسبعمائة وأخذوا مخنقها وأقام أهل قبرس معهم بين فتنة وصلح وحرب آخر أيامهم وجزيرة قبرس هذه على مسافة يوم وليلة فى البحر قبالة طرابلس منصبة على سواحل الشام ومصر فاطلعوا فى بعض الايام على غرة فى الاسكندرية فأخبروا حاجبهم فعزم على انتهاز الفرصة فيها فنهض فى أساطيله واستنفر من سائر الافرنج ووافى مرساها سابع عشر من المحرم سنة سبع وستين وسبعمائة فى أسطول عظيم يقال انه بلغ سبعين مركبا مشحونة بالعدد والعدد ومعه

الفرسان المقاتلة بخيولهم فلما أرسى بها قذفهم الى السواحل وعبى صفوفه وزحف وقد غص الساحل بالنظارة وبرزوا من البلد على سبيل النزهة لا يلقون بالا لما هم فيه ولا ينظرون مغبة أمره لبعد عهدهم بالحرب وحاميتهم يومئذ قليلة وأسوارهم من الرماة المناضلين دون الحصون خالية ونائبها القائم بمصالحها فى الحرب والسلم خليل بن عوام غائب يومئذ فى قضاء غرضه فما هو الا أن رجعت تلك الصفوف على التعبية ونضحوا القوم بالنبل فأجفلوا متسابقين الى المدينة وأغلقوا أبوابها وصعدوا الى الاسوار ينظرون ووصل القوم الى الباب فأحرقوه واقتحموا المدينة واضطرب أهلها وماج بعضهم فى بعض ثم أجفلوا الى جهة البر بما أمكنهم من عيالهم وولدهم وما اقتدروا عليه من أموالهم وسالت بهم الطرق والاباطح ذاهبين فى عروجه حيرة ودهشا وشعر بهم الاعراب أهل الضاحية فتخطفوا الكثير منهم وتوسط الافرنج المدينة ونهبوا ما مروا عليه من الدور وأسواق البز ودكاكين الصيارفة ومقاعد التجار وملؤا سفنهم من المتاع والبضايع والذخيرة والصامت واحتملوا ما استولوا عليه من السبي والاسرى وأكثر ما فيهم الصبيان والنساء ثم تسايل اليهم الصريخ من العرب وغيرهم فانكفأ الافرنج الى أساطيلهم ومكثوا فيها بقية يومهم وأقلعوا من الغد وثار الخبر الى كافل الدولة بمصر الامير يبيقا لأن السلطان الاشرف شعبان كان صغيرا وكان يبيقا كافل دولته وقائما بتدبير أمر دولته فقام فى ركائبه وخرج لوقته بسلطانه وعساكره ومعه ابن عوام نائب الاسكندرية منصرفا من الحج ومعهم كثير من الامراء والعساكر ونياتهم فى الجهاد صادقة حتى بلغهم الخبر فى طريقهم باقلاع العدو فلم يثنه ذلك واستمر الى الاسكندرية وشاهد ما وقع بها من معرة الحرب وآثار الفساد فأمر بهدم ذلك واصلاحه ورجع الى دار الملك وقد امتلأت جوانحه غيظا وحنقا على أهل قبرس فأمر بانشاء مائة أسطول معتزما على غزو قبرس بجميع من معه من عساكر المسلمين بالديار المصرية واحتفل فى الاستعداد لذلك واستكثر من آلات الحصار ومن السلاح وكمل غرضه من ذلك كله ثم لم يقدر على انجاز غرضه

إلا فى سنة ثمانمائة وتسع وعشرين كما سيأتى ان شاء الله وسبب هذا التأخير كثرة الفتن الواقعة بين أمراء مصر مع بعضهم

﴿ انقراض دولة الارمن والاستيلاء على سيس ﴾

فى سنة ست وسبعين وسبعمائة فى دولة الملك الاشرف شعبان بن حسن بن الناصر قلاوون تجهز جيش للمسلمين لغزو بلاد سيس وكان قائد الجيش المارديني نائب حلب فحاصرهم شهرين ونصب عليها المجانيق واستدعى أصناف التركمان للقتال فلما طال الحصار عليهم واشتد الضيق بهم نزل رئيسهم تكفور بالامان فأرسله الى مصر ودقت البشائر بذلك قال ابن خلدون سافر نائب حلب سنة ست وسبعين بالعساكر الى بلاد الارمن ففتح سائر أعمالها واستولى على ملكها تكفور بالامان فوصل بأهله وولده الى الابواب السلطانية ورتبت لهم الارزاق واستولى السلطان على سيس وانقرض منها ملك الأرمن وجعل السلطان نيابة سيس ليعقوب شاه ثم أضيف اليها طرسوس واذنة واياس وغيرها * وفى سنة ثمانين وسبعمائة نازل الافرنج طرابلس الشام فجهز السلطان عدة مراكب صحبة يلبغا الناصرى فالتقى بهم فهزمهم ثم أمر العساكر أن يتأخروا فطمع فيهم الفرنج الى أن بعدوا عن البحر فرجع عليهم بالعساكر فهزمهم وقتل كثيرا منهم وفر من بقى وطلعوا الى المراكب * وفى سنة خمس وثمانين وسبعمائة نازل الفرنج بيروت فى عشرين مركبا فراسل المسلمون نائب الشام فتقاعد عنهم واعتل باحتياجه الى مرسوم من السلطان فنادى اينال اليوسفى بالغزو والجهاد فنفر معه جماعة فحال بين الافرنج والبحر وقتل كثيرا منهم ونزل اليه بقية الافرنج من المراكب يقاتلونه فهزمهم وقتل كثيرا منهم وغنم من مراكبهم ستة عشر مركبا قبضها واستولى عليها فكان للمسلمين بذلك سرور عظيم * وفى سنة سبع وثمانين وسبعمائة أنشأ المسلمون شوانى كثيرة لغزو الافرنج فى البحر الرومى واجتهدوا فى عملهم وسيروا الشوانى الى دمياط فوجدوا بساحل دمياط غرابا للافرنج فكبسوا عليه واستولوا عليه وأسروا من فيه * وفى سنة تسعين وسبعمائة كانت

وقعة عظيمة بناحية سيواس بين المسلمين والتتر كان النصر فيها للمسلمين * وفي هذه السنين كان ظهور تيمور لنك بالديار الهندية وخراسان والعراق وكان ظهوره من أشد المحن والبلايا على هذه الامة أفسد في الارض وأهلك الحرث والنسل ولنذكر تخليص وقائعه * ثم نعود الى اتمام الكلام على فتوحات ملوك مصر والروم والله المستعان وسيأتي ان مسير تيمور الى الشام كان سنة ثلاث وثمانمائة وحل انذار من الله بذلك المسير الذي كان فيه البلاء قبل وقعه وذلك أن أول انذار هو الحريق الذي وقع في المسجد الحرام سنة ثنتين وثمانمائة قال النجم ابن فهد وتحدث أهل المعرفة بأن هذا ينذر بحادث جليل يقع في الناس وكان كذلك فقد وقعت المحن العظيمة بقدوم تيمور لنك الى بلاد الشام وبلاد الروم وسفك دماء المسلمين وسبى ذراريهم ونهب أموالهم واحراق مساكنهم ودورهم وكان ذلك الحريق الواقع في المسجد الحرام المنذر بذلك في أواخر شوال سنة ثمانمائة واثنتين في مدة سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق وكان الحريق من جهة الجانب الغربي واتصل منه بالسقف وعم الحريق الجانب الغربي وبعض الرواقين المقدمين من الجانب الشامي الى محاذاة باب الباسطية بما كان من السقوف والاساطين وكانت السقوف كلها من الخشب الساج وصار التعمير لهذا كله بعد ذلك وأعيد السقف خشبا كما كان وفرغوا من التعمير سنة ثمانمائة وأربع وكان أمير مكة الشريف حسن بن عجلان

﴿ ذكر ظهور التيمور ﴾

انما ذكرنا التيمور وقتاله وان كان يدعي الاسلام لان قتاله مثل قتال الكفار لانه فعل أفعالا مع المسلمين أكثر مما تفعله الكفار من القتل والاسر والتخريب وكان رافضيا شديد الرفض وسبب خروجه ان ملوك التتر اقتسموا الممالك وانتشرت الفتن بينهم مع بعضهم وكثر عليهم الثوار والخارجون وكان ذلك كله سببا لضعف دولة التتر وموجبا لقيام تيمور وغيره واختلفوا في نسب تيمور فقيل ان نسبه ينتهي الى جنكزخان ملك التتر * وفي تاريخ ابن خلدون ان

تيمور ينسب هو وقومه الى جغطاى بن جنكز خان وجزم بعضهم بأن نسبه الى جغطاى بن جنكز خان انما هو من جهة أمه لا من جهة أبيه وكان أول ظهوره سنة سبعمائة وثلاث وسبعين وأرخه بعضهم بقوله (عذاب) ٧٧٣ وهو أحد الدجالين الموعود بهم فى الاخبار النبوية فانه تغلب على الممالك الاسلامية وأكثر القتل وأفسد الارض وأهلك الحرث والنسل وكان مبدأ أمره وأمر أبيه أنهما كانا فقيرين وكان أبوه اسكافيا من قرية من أعمال كش وهى مدينة من مدائن ماوراء النهر ونشأ ولده تيمور رجلا قويا ذا جسم غليظ فكان لشدة فقره يسرق كثيرا فسرق فى بعض الليالى شاة واحتملها فشعر به الراعى فرماه بسهمين أصاب بأحدهما فخذه وبالآخر كتفه فأعابهما فكان أعرج اليمناوين ولذلك كان يقال له نصف انسان ومع هذا لم يترك السرقة فما زال كذلك حتى اشتهر أمره وافساده فظفر به السلطان حسين ملك هراة فأمر بضربه ثم بصلبه فضرب ثم تشفع فى ترك صلبه الأمير غياث الدين ابن السلطان حسين المذكور فقال له أبوه السلطان حسين هذا أصل مادة الفساد لئن بقى ليهلكن العباد والبلاد فقال له ابنه غياث الدين وما عسى أن يصدر من نصف آدمى وقد أصيب بالدواهى فما زال يراجع أباه حتى قبل شفاعته ووهبه له وعفى عنه ثم ان غياث الدين اصطحبه معه وقربه وأدناه وجعله من خواصه وزوجه أخته ورقاه حتى صار من وزرائه فلما صار الملك لغياث الدين بعد موت أبيه حسين ازدادت منزلة تيمور وصار مقدما على كثير من الجند فطغى وبغى على مولاه غياث الدين ومبدأ ذلك ان زوجة تيمور وهى أخت السلطان غياث الدين وقع بينها وبين تيمور شىء أغضبه فقتلها ولم يراع حرمة مولاه ثم لم يسعه الأمر الا بالخروج على السلطان غياث الدين وخلع الطاعة ولبس التمرد والطغيان فملك بما كان تحت يده من الجند كثيرا من الممالك حتى استصفى ممالك ماوراء النهر وذلت لاوامره ملوك الدهر وشرع فى استخلاص بقية البلاد واسترقاق العباد فكان يجرى فى جسد العالم مجرى الشيطان من بنى آدم ويدب فى البلاد دبيب السم فى الاجساد ثم أرسل الى

مخدومه سلطان هراة الملك غياث الدين يطلب منه الدخول فى طاعته ليجازيه على احسانه باساءته فيتحقق بذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم كتب الله على كل نفس خبيثة أن لاتخرج من الدنيا حتى تسىء الى من أحسن اليها فأرسل غياث الدين يقول له أما كنت خادمالى وأحسنت اليك وأسبلت ذيل نعمتى عليك وذلك بعد أن نجيتك من الضرب والصلب فان لم تكن انسانا يعرف الاحسان فكن كالكلب فلم يصغ لذلك بل عبر جيحون بمن معه من الجند وتوجه الى محاصرة مولاه غياث الدين بهراة ولم يكن لغياث الدين قوة الى قتاله والوقوف بين يديه فحصن نفسه فى القلعة فحاصره وضيق عليه ثم أمنه وقبض عليه وحبسه ومنع عنه الطعام والشراب حتى مات جوعا وعطشا ثم عاد الى خراسان فانتقم أولا من أهل سجستان فوضع السيف فيهم وأفناهم عن آخرهم ثم خرب المدينة ورحل عنها ولم يزل هذا دأبه حتى تخلص له جميع ممالك العجم ودانت له ملوكهم والامم ووصفه بعضهم بقوله وكان رجلا ذا قامة شاهقة كانه من بقايا العمالقة عظيم الجبهة والرأس شديد القوة والبأس أبيض اللون مشربا بحمرة عظيم الاطراف عريض الاكتاف مستكمل البنية مسترسل اللحية أعرج اليمنى وبن وعيناه كشمعتين جهير الصوت لايهاب الموت وكان من ابهته وعظمته ان ملوك الاطراف وسلاطين الاكناف مع استقلالهم كانوا اذا قدموا عليه وتوجهوا بالهدايا والتقاديم اليه يجلسون على أعتاب العبودية والخدمة نحوا من مد البصر من سرادقاته واذا أرادوا منهم واحدا أرسل من الخدمة نحوه قاصدا فينادى ذلك الواحد باسمه فينهض فى الحال يعدو نحوه ممتثلا أمره ودخل تحت طاعته ملوك السلجوقية أصحاب قونية كما كانوا داخلين تحت طاعة التتر والممالك أصبهان وعراق العجم والرى وفارس وكرمان بعد حروب هلك فيها ملوكهم وبادت جموعهم وخربت ديارهم وسبيت نساؤهم خافه السلطان أحمد ابن أويس المتملك بغداد بعد التتر كما تقدم فجمع عساكره وأخذ فى الاستعداد له ثم عدل الى مصانعته ومهاداته فلم يغن ذلك عنه ومازال تيمور يخادعه

بالملاطفة والمراسلة الى أن فتر عزمه وفرق عساكره فنهض اليه يسرع السير فى غفلة عنه حتى انتهى الى دجلة وسبق النذير الى السلطان أحمد فأسرى بغلس ليلة وحمل ما أقلته رواحله من أمواله وذخائره وترك سفن دجلة ومر بنهر الحلة وصبح مشهد على رضى الله عنه ووافى تيمور وعساكره دجلة فى حادى عشر من شهر شوال سنة خمس وتسعين وسبعمائة ولم يجد السفن فاقتحم بعساكره النهر ونازل بغداد وبعث عساكر فى اتباع السلطان أحمد فساروا الى الحلة وقد قطع جسرها فخاضوا النهر عندها وأدركوا السلطان أحمد بمشهد على واستولوا على أثقاله ورواحله فكر عليهم فى جموعه وقتل الامير الذى كان عليهم فرجع بقية عسكرهم ونجا السلطان أحمد الى الرحبة من تخوم الشام فأراح بها وأرسل النائب بالرحبة يخبره الى سلطان مصر السلطان الظاهر برقوق فسرح بعض خواصه فتلقوه بالنفقات والازواد ثم قدم السلطان أحمد الى مصر وخرج السلطان الظاهر برقوق الى ملاقاته وأمر الامراء بالمشى فى خدمته وأكرمه وأخبره السلطان أحمد أن تيمور أخذ بلاد العجم والعراق وانه أرسل قصاده الى السلطان برقوق فكتب السلطان برقوق الى نائب الرحبة أن يقتل قصاد تيمور ففعل ذلك وأخبر السلطان أحمد الملك الظاهر برقوق بأنه جاء مستنصرا مستصرخا به على من أراد انتزاع الملك منه فأجاب الملك الناصر صريخه ووعده بالنصر وتجهيز الجيوش وكان قدوم السلطان أحمد على الملك الظاهر فى شهر ربيع الاول سنة ست وتسعين وسبعمائة لانه كان أصابه مرض فى طريقه تأخر بسببه عن سرعة الوصول وكان السلطان أحمد ترك نائباله على بغداد ثم جاءتهم الاخبار بأن تيمورلنك حاصر بغداد ثم تملكها وعاث فيها وكان دخوله بغداد يوم عيد الأضحى فتقرب على زعمه بأن جعل المسلمين قرابين وقتل خلقا كثيرا ثم أمر عسكره بأن يأتيه كل واحد برأسين من أهل بغداد فأتوا بالرؤس فجمعها وأمر أن يبنى منها مآذن على سور المنائر وعجز بعض الجند عن المجىء برؤس الرجال فقطع رؤس النساء والاطفال واستصفى ذخائر السلطان أحمد واستوعب

موجود أهل بغداد بالمصادرات لاغنيائهم وفقرائهم حتى مستهم الحاجة وأقفرت جوانب بغداد من العيث ثم ان تيمور بعد ان استولى على بغداد زحف فى عساكره الى تكريت وأناخ عليها بجموعه أربعين يوما فحاصرها حتى نزلوا على حكمه فقتل من قتل منهم ثم خربوها وأقفروها وانتشرت عساكره فى ديار بكر الى الرها ووقفوا عليها ساعة من النهار فملكوها وانتسفوا نعمها وافترق أهلها فبلغ الخبر الى الملك الظاهر برقوق فنادى فى عسكره بالتجهيز الى الشام وأفاض العطاء واستوعب الحشد من سائر أصناف الجند وارتحل الى الشام ومعه السلطان أحمد بن اويس وكان العدو تيمور قد شغل بحصار ماردين فأقام عليها أشهرا وملكها وعاثت عساكره فيها واكتسحت نواحيها وامتنعت عليه قلعتها فارتحل عنها الى بلاد الروم ومر بقلاع الاكراد وأغارت عساكره عليها واكتسحت نواحيها وفى هذه المدة جهز السلطان برقوق عساكر كثيرة وبعثها مع السلطان أحمد الى بغداد فملكها وضرب السكة باسم السلطان برقوق كما ذكر ذلك العلامة ابن الشحنة فى تاريخه وبقى السلطان برقوق بالشام مستجمعا لعساكره مترقبا لقتال تيمور والوثبة به متى استقبل جهته فبلغ ذلك تيمور فلم يتجرأ على الاقدام بل رجع الى بلاد خراسان ولم يقدر على الرجوع ودخول الديار الشامية الا بعد وفاة السلطان برقوق كما سيأتى ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر كتاب تيمور الى السلطان برقوق ﴾

كتب تيمور الى الملك الظاهر السلطان برقوق كتابا يقول فيه بعد البسملة اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اعلموا أننا جند الله فى أرضه مخلوقون من سخطه مسلطون على من يحل عليه غضبه لا نرق لشاك ولا نرحم عبرة باك قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا فقد خربنا البلاد وأيتمنا الاولاد خيولنا سوابق وسيوفنا صواعق وسهامنا خوارق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ملكنا لا يرام وجارنا لا يضام من سالمنا سلم ومن رام حربنا ندم فان أنتم قبلتم شرطنا

وأطعتم أمرنا فلكم مالنا وعليكم ماعلينا وان خالفتم وعلى بغيكم تماديتم فلا تلوموا
الا أنفسكم وذلك بما كسبت أيديكم فالحصون لا تمنع والعساكر لا ترد ولا تدفع
ودعاؤكم لا يسمع لانكم أكلتم الحرام وأضعتم الجمعة وارتكبتم الآثام فأبشروا
بالمذلة والهوان فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير
الحق وبما كنتم تفسقون وتقولون انه قد صح عندكم أننا كفرة فقد ثبت عندنا
انكم فجرة وقد سلطنا عليكم من بيده أمور مدبرة وأحكام مقدرة فعزيزكم عندنا
ذليل وكثيركم لدينا قليل وقد أوضحنا لكم الخطاب فأسرعوا برد الجواب قبل أن
ينكشف الغطاء ويدخل علينا منكم الخطا وترمي الحرب نارها وتلقي أوزارها
وتدهون منا بأعظم داهية ولا يبقى لكم باقية وينادي عليكم منادي الفناء هل
تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا الآن قد أنصفناكم اذ راسلناكم فردوا
رسلنا بجواب هذا الكلام والسلام فلما سمع السلطان برقوق هذا الكتاب
اغتاظ غيظا عظيما وأمر بكتابة الجواب فكتب الجواب بانشاء ابن فضل الله
العمري وصورته بعد البعدية والاصدار قد حصل الوقوف على كتاب ور
فقولكم انكم مخلوقون من سخطه مسلطون على من يحل عليه غضبه وانتم
لا ترفقون لشاك ولا ترحمون عبرة باك وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم فذلك من أكبر
عيوبكم وهذه صفات الشياطين لا صفات السلاطين قل يا أيها الكافرون
لا أعبد ما تعبدون ففي كل كتاب لعنتم وعلى لسان كل رسول بالسوء ذكرتم وبكل
قبيح وصفتم وعندنا العلم بكم من حين خلقتم وأنتم الكفرة كما زعمتم ألا لعنة الله
على الكافرين نحن المؤمنون حقا لا يدخلنا عيب ولا يخامرنا ريب القرآن
على نبينا نزل والرب بنا رحيم لم يزل انما النار لكم خلقت ولجلودكم أضرمت اذا
السماء انفطرت ومن أعجب العجاب تهديد الرتوت بالتوت والسباع بالضباع
والكمات بالكراع ونحن خيولنا برقية وسهامنا عتية وسيوفنا شديدة المضارب
وذكرنا في المشارق والمغارب ان قتلناكم فنعم البضاعة وان قتلتم فبيننا وبين
الجنة ساعة ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم

يرزقون وقولكم فلو بنا كالجبال وعددنا كالرمال فالقصاب لايبالى بكثرة الغنم وكثير الحطب يكفيه قليل من الضرم كم من فئة قليلة غلبة فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين الفرار الفرار من الرزايا لا من المنايا ونحن من الطمأنينة على عادة الامنية ان قتلنا فشهداء وان عشنا كنا سعداء ألا ان حزب الله هم الغالبون أبعد أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين يعنى الخليفة العباسى الذى كان اذذاك بمصر تطلبون منا طاعة لاسمعا لكم ولا طاعة وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن يكشف الغطاء ويدخل علينا منكم الخطا هذا الكلام فى نظمه تركيك وفى سلكه تفكيك لو كشف لبان بعد التبيان أكفر ابعد ايمان واتخاذ رب ثان لقد جئتم شيأ اداتكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا قل لكاتبك الذى وضع رسالته ووصف مقالته وصل كتاب كصرير الباب أوكطنين الذباب فستكتب ما يقول ونمد له من العذاب فلما وصل الكتاب الى تيمور غضب غضبا شديدا وقدر الله بوفاة السلطان برقوق بعد ذلك بقليل وكان تيمور ألقى الله الرعب فى قلبه من السلطان برقوق فلما بلغه خبر وفاته استبشر وأنعم على مخبره بجملة مستكثرة وكانت وفاته فى سنة احدى وثمانمائة وأقيم بعده فى السلطنة ولده الملك الناصر فرج فأخذ تيمور فى التجهيز بالجيوش لقصد بلاد الشام والروم وكان فى نفسه من قتل السلطان برقوق قصادة ومن اعانته السلطان أحمد بن أويس على تملك بغداد وكان فى نفسه أيضا على السلطان بايزيد العثمانى لانه تملك بلادا كثيرة كانت للسلطان السلجوقى وقرابته تملكها السلطان بايزيد بعد وفاته وكان السلطان السلجوقى قد كاتب تيمور وأعطاه الطاعة خوفا من السلطان بايزيد وكانت تلك البلاد لبنى قلج أرسلان من ملوك السلجوقية وهم الذين افتتحوها وأقاموا فيها دعوة الاسلام وانتزعوها من يد ملوك الروم أهل قسطنطينية وأضافوا اليها كثيرا من أعمال الارمن ومن ديار بكر فانفسحت أعمالهم وعظمت ممالكهم وكان كرسيهم بقونية ومن أعمالها أقصرا انطاكية والعلايا وطغرل ودمرلو وقراحصار ومن ممالكهم اذربيجان ومن أعمالهم

آقشهر وكامخ وقلعة كغونية ومن ممالكهم قيسارية ومن أعمالها نكر اوقلبة ومنال ومن ممالكهم أيضا سيواس وأعمالها ومن أعمالها نيكسار واماسية وتوقات وكنكرة كوربه وسامول وصفوى وكسحونية وطرخو وبرلو ومما استضافوه من بلاد الارمن خلاط وأرمينية الكبرى ووان وسلطان وأرجيس وأعمالها ومن ديار بكر خربوت وملطية وسميساط ومسارة فكانت لهم هذه الاعمال وما يتصل بها من الشمال الى مدينة بروسية ثم الى خليج القسطنطينية واستفحل ملكهم فيها وعظمت دولتهم وكانت ملوك مصر ينازعونهم فى بعضها ثم طرق دولة السلجوقية الهرم والفشل كما يطرق الدول ولما استولى التتر على ممالك الاسلام استولوا أيضا على كثير من هذه الممالك ولحق غياث الدين السلجوقى مع عياله بقونية ثم استقر فى طاعة التتر هو واخوانه واقتسموا ممالكهم مع الا التتر ثم بقيت بيد بنيهم بعدهم يتوارثونها الى ظهور تيمور لنك وكان فى ذلك الوقت ظهور قوة للسلطان بايزيد العثمانى فاستولى على كثير من تلك الممالك فأرسل الباقون من ملوك السلجوقية الى تيمور يعطونه الطاعة ليحتموا به من السلطان بايزيد فقدر الله تلك الايام موت بعض ملوكهم وظهور الضعف فيهم فاستولى السلطان بايزيد أيضا على بعض ممالكهم هذا هو السبب فى أن تيمور كان له قصد قوى فى التوجه الى قتال السلطان بايزيد وسيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر تجهيز تيمور الجيوش لقصد الشام ﴾

قد ذكرنا أن تيمور فرح واستبشر بوفاة السلطان برقوق ثم انه فى سنة ثلاث وثمانمائة أخذ فى التجهز الى المسير الى الديار الشامية فجمع عساكر كثيرة تبلغ ثمانمائة ألف فاجتاز أولا على سيواس فحاصرها وأخذها وكان فيها عامل للسلطان بايزيد فقيل انه أمن أهلها وحلف لهم أن لا يضع السيف فيهم فلما تمكن منهم حفر لهم حفائر ودفنهم فيها أحياء وكانوا ثلاثة آلاف مسلم ثم حرقها وخربها وتوجه نحو البهنسى فوجد أهلها قد رحلوا عنها فخربها وأحرقها ثم توجه الى ملطية فهرب منها من

كان بها قبل أن يصل اليه نخر بها ثم اجتاز على بهسنى فحاصرها ونصب عليها المنجنيق وهدم بعض قلعتها ثم أخذها صلحا ثم نازل حلب تاسع ربيع الاول من السنة المذكورة وكان فيها من العساكر الاسلامية جمع كثير من دمشق وطرابلس وحماه وصفد وغزة وغيرها فاختلفت آراؤهم بين قائل ادخل المدينة وقاتلوا من الاسوار وقائل اخرجوا ظاهر البلد بالخيام وكان الامير على حلب نائب السلطان هو الامير دمرداش الخاصكى لما رأى اختلافهم أذن للناس فى اخلاء البلد والتوجه حيث شاؤا وكان نعم الرأى لو فعلوا به فلما لم يفعلوا برأيه ضربوا خيامهم بظاهر البلد تلقاء العدو وحضر قاصد مرسل من تيمور فقتله الامير القائم على عسكر دمشق قبل أن يسمع كلامه وبئس ما فعل وفى اليوم العاشر من ربيع وقع قتال يسير وفى الحادى عشر زحف تيمور بجيوشه وفيلته فدهم المسلمين خلق كأمواج البحر فولوا على أدبارهم منهزمين نحو البلد وازدحموا فى الابواب ومات منهم خلق كثير والعدو وراءهم بقتل وبأسر وتعلقت أمراء عساكر المسلمين بالقلعة ومعهم خلق كثير فاقتحمت عساكر تيمور المدينة وامتدت أيديهم فى أقطارها وجالت خيولهم بارجائها سفكا ونهبا وأسرا واحتمى بالمساجد خلق كثير من النساء المخدرات والكواعب وغيرهم فمالوا عليهم وقبضوهم أسرى فى الحبال وأسرفوا فى قتل كثير من الرجال والاطفال ونهب الاموال وتخريب المنازل وافتضاض الابكار وانتهاك الستور واستمر الحال على هذا المنوال ثلاثة أيام وهم مع ذلك مشتغلون بنقب القلعة وهدم الخندق وكان المسلمون قد جعلوا أكثر أموالهم بالقلعة ثم اعتصم بها الامراء وخلق كثير فلما رأى دمرداش أمير حلب اشتداد الامر نزل مع طائفة من الامراء من القلعة يطلبون الأمان فأجابهم تيمور وخلع عليهم فاطمأن خاطرهم فنزل بقية أصحابهم من القلعة كل أمير مع طائفته فنظم تيمور كل رجلين فى قيد وفرقهم فى قومه ثم أذن لهم فى النهب قال ابن الشحنة أخذ القلعة بالامان والأيمان التى ليس معها ايمان وفى ثانى يوم صعد بنفسه الى القلعة وأقام بحلب نحوا من شهر وأصحابه

تعدوفى نهب المدينة والقرى وتعيث بقطع أشجارها وهدم أحجارها وأمر أن يبنى من رؤس الرجال شبه المآذن فبنيت مرتفعة فى الهواء نحو عشرة أذرع ودورها نيف وعشرون ذراعا والوجوه بارزة تسفى عليها الرياح وعدة تلك المنار المتخذة من الرؤس عشر وسلم من قتله كثير من العلماء وغيرهم واختفوا ثم أعطاهم الأمان قال ابن الشحنة ولما طلع القلعة فى ثانى يوم كان طلوعه فى آخر النهار فطلب علماء حلب فحضرنا اليه فأوقفنا ساعة ثم أمر بالجلوس وطلب من معه من أهل العلم فقال لاميرمن أمراء دولته وهو المولى عبد الجبار ابن العلامة نعمان الدين الحنفى كان نعمان الدين المذكور من العلماء المشهورين بسمرقند قل لهم انى سائلكم عن مسئلة سألت عنها علماء سمرقند وبخارى وهراة وسائر البلاد التى افتتحها ولم يوضحوا الى الجواب فلا تكونوا مثلهم ولا يجيبنى الا أعلمكم وأفضلكم ليعرف ما يتكلم به فانى خالطت العلماء ولى بهم اختصاص وألفة ولى فى طلب العلم طلب قديم قال ابن الشحنة وكان قد بلغنا عنه أنه يعنت العلماء فى الاسئلة ويجعل ذلك سببا لقتلهم أو تعذيبهم فقال الشيخ القاضى شرف الدين موسى الانصارى الشافعى هذا شيخنا يعنى الشيخ محمد بن الشحنة وهو مدرس هذه البلاد ونقيها واليه المرجع سلوه والله المستعان فقال عبد الجبار مخاطبا ابن الشحنة مترجما مقالة تيمور سلطاننا يقول انه بالامس قتل منا ومنكم فمن الشهيد قتيلنا أم قتيلكم فوجم الجميع وقالوا فى أنفسهم هذا الذى بلغنا عنه من التعنت فسكت القوم وفتح الله بالجواب على ابن الشحنة فاستحضر سريعا جوابا بديعا فقال هذا السؤال سئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجاب عنه وأنا مجيب بما أجاب به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له القاضى شرف الدين موسى الانصارى بعد أن انقضت الحادثة والله لعظيم انك لما قلت هذا السؤال سئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجاب عنه اختل عقلى مع أن القاضى شرف الدين كان محدث زمانه وهو معذور بما شاهد من الاهوال فى تلك الايام ومثل هذا السؤال لا يمكن عنه الجواب فى هذا المقام لشدة سطوة تيمور بمن خالف مرامه ووقع فى نفس الأمير

عبد الجبار مثل ذلك فقال لابن الشحنة يسخر من كلامه كيف سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف أجاب وألقى تيمور سمعه و بصره الى ابن الشحنة فقال ابن الشحنة جاء أعرابي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله ان الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل ليعرف مكانه فأينا في سبيل الله فقال عليه الصلاة والسلام من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله فمن قاتل منا ومنكم لاعلاء كلمة الله فهو الشهيد فقال تيمور خوب يعني طيب واستحسن ذلك الجواب وقال عبد الجبار ما أحسن ماقلت وانفتح باب المؤانسة فقال تيمور انى رجل نصف آدمي وقد أخذت بلاد كذا وكذا وعدد سائر ممالك العجم والعراق والهند وسائر بلاد التتر فقلت اجعل شكر هذه النعمة عفوك عن هذه الامة ولا تقتل أحدا فقال والله انى لم أقتل أحدا قصدا وانما أنتم قتلتم أنفسكم في الابواب يعني الازدحام ووالله لا أقتل منكم أحدا يعني الآن وأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم وتكررت الاسئلة منه والاجوبة من العلماء وطمع كل واحد من الفقهاء الحاضرين في التقدم وجعل يبادر الى الجواب ويظن انه في المدرسة بين طلبته والقاضي شرف الدين ينهاهم و يقول اسكتوا ليجاوب هذا الرجل يعني ابن الشحنة فانه يعرف مايقول وآخر سؤال سأل عنه ماتقولون في علي ومعاوية و يزيد فأسر القاضي شرف الدين الى ابن الشحنة وكان الى جانبه وقال اعرف كيف تجيبه فانه شيعي فلم يفرغ من كلامه الا وقد قال القاضي علم الدين القفصي الصيفي المالكي كلاما معناه ان الكل مجتهد فغضب تيمور غضبا شديدا وقال علي على الحق ومعاوية ظالم و يزيد فاسق وأنتم حلبيون تبع لاهل دمشق وهم يزيديون قتلوا الحسين فأخذ ابن الشحنة في ملاطفته بالاعتذار عن المالكي بأنه أجاب بشيء وجده مكتوبا في كتاب لايعرف معناه فعاد الى دون ما كان عليه من البسط وأخذ عبد الجبار يباسط ابن الشحنة والقاضي شرف الدين فقال عن ابن الشحنة هذا عالم مليح وقال عن القاضي شرف الدين هذا رجل فصيح فسأل تيمور ابن الشحنة عن عمره فقال مولدي سنة تسع وأربعين وسبعمائة وقد بلغت

الآن أربعا وخمسين سنة وقال للقاضي شرف الدين كم عمرك فقال أنا أكبر من هذا يعني ابن الشحنة بسنة فقال تيمور أنتم في عمر أولادي فان عمري اليوم بلغ خمسا وسبعين سنة وحضرت صلاة المغرب فأمنا عبد الجبار وصلى تيمور الى جانب ابن الشحنة قائما يركع ويسجد ثم تفرقوا وفي اليوم الثاني غدر بكل من في القلعة وأخذ جميع ما كان فيها من الاموال والاقمشة والامتعة مما لا يحصى حتى قيل انه لم يكن أخذ من مدينة قط مثل ما أخذ من هذه القلعة ولا ما يقاربه وعوقب غالب المسلمين بأنواع العقوبات وحبسوا بالقلعة ما بين مقيد ومزنجر ومسجون ومرسم عليه ونزل تيمور من القلعة بدار النيابة وصنع وليمة على زي المغل ووقف سائر الملوك والنوابين في خدمته وأدار عليهم كؤوس الخمر والمسلمون في عقاب وعذاب وسبي وقتل وأسر وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم في هدم وحرق وتخريب ولما كان آخر شهر ربيع الاول طلب ابن الشحنة والقاضي شرف الدين وأعاد عليهما السؤال في حق علي ومعاوية ويزيد فقال ابن الشحنة الحق كان مع علي وليس معاوية من الخلفاء فانه صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الخلافة بعدي ثلاثون سنة وقد تمت بعلي والحسن فقال تيمور قل علي على الحق ومعاوية ظالم فقال ابن الشحنة قال صاحب الهداية يجوز تقلد القضاء من ولاة الجور فان كثيرا من الصحابة والتابعين تقلدوا القضاء من معاوية وكان الحق مع علي في نوبته فانسر لذلك وطلب الامراء الذين عينهم للاقامة بحلب وقال لهم موصيا على ابن الشحنة والقاضي شرف الدين ان هذان الرجلين نزلا عندكم فأحسنوا اليهما والى أصحابهما ومن ينضم اليهما ولا تمكنوا أحدا من أذيتهما ورتبوا لهما علوفة ولا تدعوهما في القلعة بل اجعلوا اقامتهما في المدرسة يعني السلطانية التي تجاه القلعة وفعلوا ما أوصاهم به الا أنهم لم ينزلونا من القلعة وقال لهما الذي ولي الحكم بحلب اني أخاف عليكما قال ابن الشحنة والذي فهمته من نسق تيمور في ملكه أنه اذا أمر بسوء فعلوه بسرعة ولا يحيد عنه واذا أمر بخير فالأمر لمن وليه وفي أول ربيع الآخر برز الى ظاهر البلد متوجها نحو دمشق

وفى ثانى يوم أرسل يطلب علماء حلب فحملوا اليه والمسلمون فى أمر مريج وفى قطع رؤس فقال العلماء لما طلبوا ما الخبر فقيل لهم ان تيمور طلب من عسكره أن يأتوه برؤوس من المسلمين على عادته التى كان يفعلها فى البلاد التى يأخذها فخاف العلماء أن تقطع رؤسهم وتحمل اليه مع ما وقع لهم من الامان منه فلما وصلوا اليه أرسلوا له رسولا يقول له انهم قد حضروا وهو قد حلف أن لا يقتل أحدا منهم صبرا فجاء الرسول وهم ينظرون اليه من بعد وهو يأكل من لحم سليق بين يديه فى طبق فتكلم معه يسيرا ثم أرسل اليهم بشئ من ذلك اللحم ليأكلوه فلم يفرغوا من أكله الا وزعجة قائمة وتيمور صوته عال وساق شخص هكذا وآخر هكذا وجاء أمير يعتذر الى العلماء وقال لهم ان سلطاننا لم يأمر باحضار رؤس المسلمين انما أمر بقطع رؤس القتلى وأن يجعل لناقبة اقامة لحرمته على جارى عادته ففهموا منه غير ما أراده وانه أطلقكم فامضوا حيث شئتم وركب تيمور من ساعته وتوجه نحو دمشق فعاد علماء حلب الى القلعة ورأوا أن المصلحة فى الاقامة بها وأخذ الأمير موسى فى الاحسان اليهم وقبول شفاعتهم وتفقد أحوالهم مدة اقامته بحلب وأما تيمور فانه توجه قاصدا دمشق وكان الملك الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق قد جاء من مصر بعساكره لتحصين حمايتها من تيمور وجاء معه الخليفة العباسى الذى كان بمصر وهو المتوكل على الله فلما دخل الملك الناصر فرج دمشق أقام بها يومين ثم خرج فى اليوم الثالث وخيم بقبة يلبغا

﴿ ذكر دخول تيمور دمشق ﴾

فى اليوم العاشر من جمادى الاولى سنة ثلاث وثمانمائة حلت عساكر تيمور بأطراف دمشق وظهر بعض عسكر تيمور على جبل مما يلى عقبة دمر وهم مقدار ألف فارس فخرج اليهم من عسكر الملك الناصر فرج دون المائة فاقتتلوا معهم فانهزم أصحاب تيمور هزيمة قوية ثم رجعوا على عسكر الملك الناصر وقبضوا على ثلاثة فوارس وجاؤا بهم الى تيمور فأمر عساكره تلك الليلة أن يضرموا نارا عظيمة فى مواضع متعددة فخيل للسلطان الملك الناصر فرج بن برقوق أن

عسكر تيمور ملأ الارض بقدر أماكن النار وأخذ تيمور اثنين من الاسارى وأدخلهما فى أسياخ وشواهما على النار كالغنم وأطلق الثالث فرجع وأخبر السلطان فرج بذلك وسمعت العسكر بذلك فانقطع قلوب العسكر ففى تلك الليلة ارتحل السلطان فرج ورجع الى الديار المصرية هاربا وصحبه الخليفة والأمراء مع كل أمير مملوك أو ثلاثة ليس معهم خيل ولا قماش وتشتت بقية العسكر حفاة عراة وأما أهل دمشق فلم يعلموا برجوع السلطان فأصبحوا ورأيهم جميعا المناصبة للحرب فركبوا الاسوار وأعلنوا بالنداء يستحث بعضهم بعضا على الجهاد فقاموا مع التتر عسكر تيمور وقتلوا منهم وغنموا من خيلهم وكانت بينهم مقاتلة هائلة حتى قتلوا من التتر نحوا من ألف وفى آخر النهار حضر اثنان من أصحاب تيمور ينادى أحدهم بطلب الصلح وان يحضر أحد ممن يعقل حتى يكلمه الملك فوقع الاختيار على ارسال القاضى ابن مفلح الحنبلى فغاب ثم رجع وأخبر أنه اجتمع بتيمور وتلطف معه حتى قال له تيمور بلد الانبياء وقد أعتقتها صدقة عن أولادى وأخذ ابن مفلح يحل عزايم أهل البلد حتى صاروا فرقتين فرقة ترى ما يراه ابن مفلح من بذل الطاعة وهم الفقهاء ونحوهم وفرقة باقية على المحاربة وهم سواد الناس فباتوا تلك الليلة على ذلك ثم أصبحوا وقد غلب رأى ابن مفلح ومن عادة تيمور اذا أخذ بلدا صلحا أن يخرج اليه أهل البلد من كل نوع تسعة أشياء ويسمون ذلك الطقزات فطلب منهم تجهيز ذلك وهموا باخراجه من باب النصر فمنعهم نائب القلعة وهددهم باحراق البلد فأعرضوا عن ذلك وتدلوا من أعلى السور فباتوا فى مخيم تيمور ورجعوا وقد تقرر منهم قضاة ووزير ومستخرج للأموال ومعهم فرمان ومرسوم فيه تسعة أسطر يتضمن الامان لأهل دمشق خاصة فقرىء ذلك على المنبر وقصوا الباب الصغير وقعد أمير من أمراء تيمور ثم شرعوا فى جباية الاموال التى قررها عليهم وهى ألف ألف دينار وحملت اليه فلما وضعت بين يديه غضب وأمر أن يحمل اليه ألف ألف تومان والتومان عشرة آلاف دينار فرجعوا يأخذون فى جباية الأموال فتزايد البلاء وفى أثناء الجباية

حرقوا ما بين الجامع والقلعة بالنار وذلك نحو من ثلث البلد * ثم سلم الناس الذين كانوا محاصرين في القلعة بعد تسعة وعشرين يوما من الاستيلاء على البلد وجمعت الاموال التي قرروها ثانيا وحضرت بين يديه فقال لابن مفلح وأصحابه هذه ثلاثة آلاف دينار ببلادنا وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف أرا كم عجزتم عن الاستخلاص ثم طلب منهم ما تركه العسكر من كل شيء ثم طلب جميع ما في البلد من الاموال والدواب فكان عدتها نحو اثني عشر ألفا ثم طلب جميع ما فيها من السلاح فلما انقضى ذلك كله أمر باستكتاب خطط دمشق وكتب بها أوراقا وفرقها على أمرائه فحينئذ طمت الامواج فنزل كل أمير في خط وطالب سكان ذلك الخط فكان الرجل يطالب بالمال الثقيل الذي لا يقدر عليه فاذا امتنع عوقب بأنواع العذاب ثم تخرج نساؤه وبناته فيوطأن بين يديه فأقاموا على ذلك تسعة عشر يوما فلما علموا أنهم قد أتوا على ما في البلد خرجوا منها وهجم عليهم بعد خروج الامراء بقية عساكرهم كالجراد المنتشر فانتهبوا ما بقي وسبوا النساء والشباب والرجال وتركوا الاطفال وأطلقوا النار في الجامع والبلد فاحترقت حتى صارت ترمي بشرر واستمر ذلك ثلاثة أيام حتى اندرست رسومها * وفي ثالث شعبان ركب تيمور وسار نحو حلب راجعا بلاده وكانت مدة اقامته بدمشق أربعة وسبعين يوما ثم بعد رحيله كل من بقي يعدو عليهم ويعريهم البادية والفلاحون وجرى عليهم منهم ما لا يجري من تيمور * وفي السابع عشر من شعبان وصل تيمور الى الجبول شرقي حلب ولم يدخل حلب بل أمر المقيمين بها من جهته بتخريب القلعة واحراق المدينة وقتل كثير من الناس ففعلوا ونزلوا من القلعة قال ابن الشحنة فبقيت النار تضرم في أرجائها وبعد ثلاثة أيام ارتحل عنا من كان بحلب من أصحاب تيمور ولم يبق من التتر أحد ولم يقدر منا أحد على الاقامة بيته من النتن والوحشة ولا يمكن السلوك في الازقة من ذلك ثم عمرت حلب وتراجع الناس وجاءها أمير من السلطان * وفي سنة أربع وثمانمائة كان مسير تيمور لقتال السلطان بايزيد بن مراد

﴿ ذكر القتال الواقع بين تيمور والسلطان بايزيد ابن السلطان مراد ﴾

سبب مسير تيمور لقتال السلطان بايزيد أن جماعة من ملوك الطوائف ببلاد الروم الذين اقتلع ممالكهم السلطان بايزيد ساروا الى تيمور يشكون اليه من السلطان بايزيد ويرغبونه الى الروم ويستنجدون به عليه فى رد ممالكهم فأجابهم تيمور الى سؤالهم فساروا فى سنة أربع وثمانمائة الى بلاد الروم وأرسل للسلطان بايزيد فى الصلح على عادته من المكر والدهاء وكتب للسلطان بايزيد انك رجل مجاهد فى سبيل الله وأنا لا أحب قتالك ولكن انظر أى البلاد التى كانت مع أبيك وجدك فاقنع بها وسلم الىّ البلاد فلما وقف السلطان بايزيد على كتابه قال لرسله أيخوفنى بهذه الترهات ويستفزنى بهذه الخزعبلات أو يحسب أنى مثل ملوك الاعاجم أو التتر الدشت الأغنام أوما يعلم أن أخباره عندى ان أول أمره حرامى سفاك الدماء نقاض العهود الى غير ذلك من أمثال هذا الكلام وكتب له الجواب على هذا المنوال وكان السلطان بايزيد فى تلك السنة محاصرا مدينة القسطنطينية وقد قارب أن يفتحها فتركها وتوجه لقتال تيمور وأجرى عساكره كالسيول الهامرة وكان قد استخدم عنده كثيرا من عسكر التترحتى صاروا أكثر جنده فأرسل تيمور الى زعمائهم ورؤسائهم يستميلهم ويذكرهم الجنسية ويعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا فوعدوه بالمعاونة وكان تيمور قد نزل انقورية فجاءه السلطان بايزيد بجيوشه ووقع القتال الشديد بينهما ثم اندفع التتر من عسكر السلطان بايزيد واتصلوا بعسكر تيمور كما وعدوه واستمر القتال من الضحى الى العصر فانهزمت بقية عساكر السلطان بايزيد وصار القبض عليه أسيرا بيد تيمور وأكثروا القتل والفساد وكان ذلك يوم الاربعاء سابع عشر ذى الحجة سنة أربع وثمانمائة ورجع به تيمور معه الى تبريز فمرض هنالك وتوفى هنالك رابع شعبان سنة خمس وثمانمائة وقسم تيمور بلاد الروم على الملوك الذين استنصروا به وزعموا أن السلطان بايزيد انتزعها منهم ثم ان السلطان محمد ابن السلطان بايزيد استرجع ذلك الى ملكه لما استقرت السلطنة له كما سيأتى *

وفى سنة خمس وثمانمائة انعقد صلح بين تيمور وسلطان مصر وحصل بينهما مودة ومهاداة وأرسل تيمور الى سلطان مصر هدية وفيلا * وفى سنة ست وثمانمائة عدا قرا يوسف حاكم أذربيجان على السلطان أحمد بن أويس وانتزع بغداد منه ورحل السلطان أحمد الى حلب ودخلها فى زى فقير ثم مشى عسكر تيمور على بغداد وكبسوا بها قرا يوسف ونهبوه وأخذوا بغداد وتوجه قرا يوسف هاربا الى الشام فأمسك وحبس حسب مرسوم سلطان مصر ثم ورد مرسوم بطلب السلطان أحمد من حلب وارساله الى دمشق ثم ورد مرسوم آخر بامساكه واعتقاله بها فأمسك * وفى سنة سبع وثمانمائة كان هلاك تيمور بمدينة نزار وحملوه الى سمرقند ودفنوه بها وعمره قد جاوز ثمانين سنة ومدة ملكه نحو ست وثلاثين سنة وتملك بعده حفيده خليل بن أميرشاه بن تيمور ومكث قليلا وهلك وتفرق ملكهم بأيدى المتغلبين وتغلب على بغداد ملوك من التركمان الى أن انتزعها منهم اسماعيل شاه سلطان العجم ثم انتزعها منه الدولة العثمانية والبقاء لله وحده وبقى لتيمور عقب كان منهم سلاطين فى الهند ولنرجع الى اتمام الكلام على فتوحات سلاطين مصر ثم نذكر ابتداء الدولة العثمانية وفتوحاتها اعلم أن سلاطين مصر بعد السلطان برقوق كثرت بينهم الفتن لاجل طلب السلطنة واستمر الحال الى سنة خمس وعشرين وثمانمائة فتسلطن الملك الاشرف سيف الدين أبو النصر برسباى فجهز جيوشا لقتال أهل قبرس

﴿ ذكر تجهيز الجيوش لقتال أهل قبرس ﴾

قال العلامة القطبي قبرس بالسين لا بالصاد كما يغلط فيه العوام وهى جزيرة فى البحر الشامى مقدارها مسيرة ستة عشر يوما وبها قرى ومزارع وأشجار ومواش وبها معدن الزاج القبرسى ومنها يجلب الى سائر الاقطار وبها ثلاث مدن ومن قبرس الى طرابلس الشام مجريان فى البحر وقد تكرر استيلاء المسلمين عليها وانتزاع الكفار اياها وقد تقدم أن أول من غزاها معاوية رضى الله عنه وصالح أهلها على جزية سبعة آلاف دينار فنقضوا ثم غزاهم ثانية فقتل وسبى سبيا

كثيرا روى انه لما افتتحت مدائن قبرس واشتغل المسلمون بتقسيم السبي فيها بينهم بكى أبو الدرداء رضى الله عنه وتنحى عنهم ثم احتبى بحمائل سيفه ودموعه على خديه فقيل له أتبكى فى يوم أعز الله فيه الاسلام وأهله وأذل الكفر وأهله فضرب على منكبيه وقال ويحك ما أهون الخلق على الله تعالى اذا تركوا أمره فبينما هى قوة ظاهرة وقوة قاهرة لهم على الناس اذ تركوا أمره فصار حالهم على ما ترى من السبي والاهانة ويريد بذلك ان رغبتهم فى السبي وحب المال دليل على تهاونهم بالقيام بأمر الله فيرجع أمرهم الى الذل والهوان وبين جزيرة قبرس وساحل مصر خمسة أيام وبينها وبين جزيرة رودس مسيرة يوم واحد وانما سميت جزيرة قبرس بوثن هنالك كان يسمى قابرس يعظمه الكفار ويعظمون لأجله جزيرة قبرس وهى جزيرة رخاؤها شامل والخير بها كامل وأهلها موصوفون بالغنى واليسار وبها معادن الصفر ويجمع منها اللاذن الحسن الرائحة وبعض منه يغلب رائحة العود فى طيبه وهو الذى يجمع من على الشجر خاصة وكان يحمل الى ملك القسطنطينية لانه أفضله وما يتساقط على وجه الارض يبيعونه للناس وكان الاوزاعى يقول انا نرى هؤلاء يعنى أهل قبرس أهل عهد وان صلحهم وقع على شئ فيه شرط لهم وشرط عليهم وانه لا يسعهم نقضه الا بأمر عنيف عندهم ورأى عبد الملك بن صالح فى حدث أحدثوه ان ذلك نقض لعقدهم فكتب الى عدة من الفقهاء يشاورهم فى أمرهم منهم الليث بن سعد وسفيان بن عيينة وأبو اسحاق الفزارى ومحمد بن الحسن فاختلفوا عليه وأجاب كل واحد بما ظهر له وانتهى خراج قبرس الذى يؤدونه الى المسلمين بعد المائتين من الهجرة الى أربعة آلاف ألف وسبعمائة ألف وأربعين ألفا وقد كان الملك الاشرف سيف الدين أبو النصر برسباى سلطان مصر كثير الغزو الى طرف الفرنج وتسلطن سنة ٨٢٦ ففى سنة ست وعشرين وثمانمائة كثرت الاخبار بأن الفرنج تحركوا على المسلمين فجهز عدة أجناد الى السواحل فندب عدة الى دمياط وعدة الى اسكندرية وعدة الى غيرها وجهز مركبين احداهما من بيروت والأخرى من صيدا فنازلوا جزيرة

الماغوص سنة ٨٢٧ فانتهبوها وأحرقوا مابها من القرى وما بساحلها من المراكب وقتلوا وأسروا وقدموا سالمين غانمين وكان عدد الاسرى ألفا وستمائة نفس ، وفى سنة ثمان وعشرين جهز جندا كثيرا وتوجه صحبتهم عدد كثير من المتطوعة وسافروا الى دمياط وكان ملك قبرس بعث تسعة أغربة يقفون على فم دمياط لمنع الاغربة من الدخول فى البحر المالح فلما أبصر وا مراكب المسلمين وجيوشهم انهزموا بغير قتال ثم توجه المسلمون من جهة طرابلس فوصلوا الى الماغوصة فطلع الخيالة وأكثر المشاة الى البر وضربوا خيامهم وأرسل صاحب الماغوصة يطلب الامان فاعطوه ثم ركبوا فى الحال وداسوا من قدروا عليه وأوسعوهم تحريقا وتخريبا وأوقع الله الرعب فى قلوب الكافرين حتى كان الثلاثة من المسلمين ينتصرون على أكثر من مائة كافر وجاء أخو صاحب قبرس فى ألف فارس وثلاثة آلاف راجل فلم يقدر أن يقدم فرجع من غير قتال فلما تمت للمسلمين هذه الحالة فى الماغوصة قصدوا الملاحة وأحرقوا مامروا عليه الى مكان يقال له رأس العجوز فخيموا هناك وجهزوا من الغنائم شيأ كثيرا ثم ساروا فى المراكب وحاصروا الحصن الذى هناك الى ان أخذوه عنوة وملؤا أيديهم من الغنائم والاسرى وأحرقوا الحصن وكان عدة من قتل من الفرنج فى شهرين خمسة آلاف ولم يقتل من المسلمين فى هذه الغزوة الاثلاثة عشر نفرا ثم رجعوا ثم بلغ الاشراف أن صاحب قبرس أرسل الى ملوك الفرنج يستنصر بهم على المصريين يشكو عليهم ماجرى على بلاده فأرسل كل منهم له نجدة من المراكب والفرسان فأمر الملك الاشرف بزيادة تجديد مراكب وبذل الاموال حتى كان عدة تلك المراكب مائة قطعة وأزيد وندب الناس لجهاد الكفار فأجابه الى ذلك كثير من الامراء والعساكر والمتطوعة وساروا متوجهين فى شعبان سنة تسع وعشرين وثمانمائة فلما وصلوا الى الليمسون وجدوا الحصن الذى كانوا خربوه قد عمر وشحن بالمقاتلة فأحاطوا به وصعدوا على سلالم فملكوا البرج الاول وهزموا الفرنج ثم أحاطوا بقرية من قرى قبرس فطلب أهلها الامان

مما أتوهم ثم أرسلوا الرسل الى ملك قبرس يدعونه الى الطاعة فأبى وقتل الرسول فهاج المسلمون لقتاله والتقوا بجنوده فقاتلوهم واشتد الامر فاتفق ان ملك قبرس أراد الهرب فركب ثم وقع عن فرسه فأركبوه فوقع ثانيا فأركبوه فكبا به الفرس فاندهش قومه من ذلك وانهزموا وولوا الادبار فرآه بعض الاتراك فأراد قتله فصاح أنا الملك فأسروه واستقر المسلمون خلف الافرنج ورشقوهم نبلا فلم يزالوا كذلك الى أن غربت الشمس وكان جملة من قتل من الافرنج في ذلك اليوم ستة آلاف وقيد ملك قبرس وقتل أخوه ولم يسلم من الافرنج الا من بادر الى البحر وركب وهرب وملك المسلمون كثيرا من مراكبهم ثم حمل ملك قبرس الى مصر وطيف به ثم قرروا عليه مائتي ألف دينار يحمل منها وهو بمصر النصف ويرسل النصف اذا رجع والزم بحمل عشرين ألف دينار كل سنة وألف ثوب صوف وكان الافرنج قد طمعوا في تملك السواحل فلما وقع هذا الفتح عظم فرح المسلمين وانقطعت اطماع الفرنج من تملكهم بلاد المسلمين قال بعض المؤرخين ومن مناقب السلطان برسباى انه أخذ بلاد قبرس وأسر ملكها وهو في تخت مملكته بمصر لم يتحرك

﴿ ذكر الغزو الى رودس ﴾

في سنة أربع وأربعين وثمانمائة جهز الملك الظاهر جقمق سلطان مصر ستة عشر غرابا مشحونة بالمقاتلة للغزو الى بلاد رودس * وفي سنة خمس وأربعين اهتم لذلك اهتماما كثيرا * وفي سنة سبع وأربعين وثمانمائة سارت المراكب المجهزة لغزو رودس في جمع كثير ونزلوا على قشتيل ووقع بينهم وبين من فيه من الكفار قتال وقتل جمع من الطائفتين واشتغل بعض المسلمين بما لا يليق من الفساد كالزنا ونحوه ولم يحصلوا على طائل وقتل من المسلمين أكثر من مائة وجرح أكثر من خمسمائة قال البدر العيني كانت سفرتهم هذه ملعبة وارتد منهم عدة مماليك ولما وصل المسلمون الى رودس وجدوا أهلها مستعدين استعدادا هائلا وهي محصنة بآلات الحصار والقتال بكل ما أمكنت قدرتهم ثم حصل القتال

بينهم فعادوا من غير ان ينالوا طائلا وفى تاريخ الفرمانى غير هذا فانه ذكر ان فى سنة خمس وأربعين انتصر الجيش المجهز الى رودس ورجعوا ومعهم بنت الملك وكثير من الاسرى ومن السبى من النساء والصبيان وصحبتهم من الذهب العين ثمانية عشر صندوقا يبلغ ما فيها نحو ثلاثة قناطير من الذهب ومعهم أيضا اثنتا عشرة جرة من النحاس مختومة الفم بالرصاص فى كل جرة قنطار ونصف من الذهب وغير ذلك من الجواهر واليواقيت والتحف أخذ ذلك كله من قلعة قشتيل من أعمال رودس وهدمت القلعة فى هذه الغزوة * وفى سنة ست وستين وثمانمائة بعث الملك الظاهر خوش قدم سلطان مصر تجريدة من العسكر الى قبرس لتقرير الملك لصاحبها القائم بها ودفع المتغلبين عليه ففعلوا ذلك وعادوا سالمين وفى هذه السنين انتشرت فتن كثيرة بمصر زيادة عما كان قبل ذلك وكلها كانت بين الامراء بمصر لطلب السلطنة فضعف أمر الغزو والجهاد منهم وظهرت قوة للدولة العثمانية بأرض الروم وأكثروا الغزو والجهاد وفتحوا كثيرا من البلاد فلنذكر ما حصل الوقوف عليه من ذلك على سبيل الاختصار

﴿ ذكر الدولة العثمانية وفتوحاتها ثبت الله ملكهم ووفقهم لما يحبه ويرضاه ﴾

اتفق العلماء على أن من وقف على سير الدول الاسلامية يعلم علما قطعيا أن الدولة العثمانية سيرتهم من أحسن سير الدول الاسلامية بعد الخلفاء الراشدين لانهم متمذهبون بمذهب أهل السنة صحيحو العقيدة ناصرون لاهل السنة قائمون بتعظيم الصحابة وأهل البيت والعلماء والصالحين ليس عندهم شئ من الزيغ والابتداع ولهم الفتوحات الشهيرة والجهاد والغزوات الكثيرة قائمون بشعائر الاسلام لاسيما فى الحرمين الشريفين فان لهم فيهما الصدقات والخيرات الكثيرة وقائمون أيضا بشعار الحج وتأمين الطرق للحجاج والزوار فيجب على كل مسلم أن يدعو لهم بالتثبيت والتأييد والاعانة والنصر والتوفيق لما يحبه الله ويرضاه واشتهر أنهم من التركمان وأن نسبهم ينتهى الى يافث بن نوح عليه السلام وقيل ان أصلهم من العرب فقد ذكر العلامة السنجارى فى تاريخه نقلا عن صاحب درر

الاثمان فى أصل منبع آل عثمان أن أصلهم من عرب الحجاز وأنهم من المدينة المنوّرة وأن جدهم الأعلى هاجر من بلاد الحجاز قال مؤرخ الدولة العثمانية الشهير بخير الله افندى لانريد أن ندخل فى هذا البحث لكن غاية مانقول ان هذه العائلة الشريفة هى أشرف العشائر الاسلامية ثم ذكر أن جدهم عثمان هو أول من تسلطن منهم بالروم وهو ابن ارطغرل بن سليمان شاه وسليمان شاه سلطانا فى بلاد ماهان بالقرب من بلخ فلما ظهر التتر أفسدوا فى الارض وخربوا البلاد وكان من جملة ماخربوه بلخ وأعمالها فترك سليمان شاه البلاد مع من تركها من الملوك وغيرهم وقصد بلاد الروم وكان قد سمع بدولة السلجوقية التى فى الروم وعظم شوكتهم وكثرة غزوهم الى الكفار فخرج وتبعه فى ذلك خلق كثير فلما وصلوا الى أذربيجان تقاتلوا مع الكفار وغنموا منهم شيأ كثيرا ثم قصدوا ناحية حلب فوصلوا الى نهر الفرات أمام قلعة جعبر ولم يعلموا المعبر فعبروا النهر فغلب عليهم الماء فغرق سليمان شاه ومات غريقا شهيدا فأخرجوه ودفنوه عند قلعة جعبر وقبره هناك مشهور يزار ويتبرك به وكان مع سليمان شاه أولاده الثلاثة وهم سنقور وكون طوغدى وأرطغرل فلما وصلوا الى موضع يقال له ياسين أومسى رجع سنقور وكون طوغدى أبناء سليمان شاه الى بلاد العجم وتخلف أرطغرل جد الملوك العثمانية مع أبنائه الثلاثة وهم كوندز ألب وصاروبنى وعثمان ومكث أرطغرل فى ذلك الموضع يجاهد الكفار ثم أرسل ابنه صاروبنى الى صاحب قونية وسيواس السلطان علاء الدين السلجوقى يستأذنه فى الدخول الى بلاده ويطلب منه موضعا ينزل فيه فعين له جبال طوماج وجبال أرمنك ومابينهما موضعا للسكنى فأقبل أرطغرل مع أربعمائة بيت من قومه فتوطنوا فى قره جه طاغ وفى سنة خمس وثمانين وستمائة نازل السلطان علاء الدين السلجوقى بعساكر كثيرة ومعه الامير أرطغرل قلعة كوناهية وهى يومئذ بيد الكفار ففوض أمر القلعة الى الأمير أرطغرل وسار هو الى قتال التتر بسبب تعرضهم لبعض بلاده ولم يزل الامير أرطغرل يجتهد حتى فتحها عنوة وغنم من الاموال شيأ كثيرا فازداد عند

السلطان علاء الدين قربا ومنزلة ولم يزل الامير أرطغرل يجاهد فى سبيل الله حتى توفى فى سبيل الله سنة سبع وثمانين وستمائة فتأسف عليه وعين مكانه ولده الامير عثمان فلما رأى السلطان علاء الدين جده واجتهاده فى الجهاد وعلم نجابته فى فتح البلاد أكرمه وأمده بأنواع الاضافة والامداد وجعله سلطانا مشاركا للسلطان علاء الدين فى السلطنة وأرسل اليه الراية السلطانية والخلع السنية والطبل والزمر فلما ضرب الطبل بين يدى (السلطان عثمان) نهض قائما على قدميه اعظاما للسلطان علاء الدين ومازال قائما حتى فرغوا فمن ذلك اليوم كان بين العساكر العثمانية القيام على أرجلهم عند ضرب طبل السلطنة فى الاسفار والاعياد وكانت سلطنة السلطان عثمان سنة تسع وتسعين وستمائة وكانت سلطنته على البلاد التى افتتحها أبوه والتى افتتحها هو قبل أن يتسلطن منها مدينة قراحصار وحصن قرا وقصبة وينى كوى وقلعة بلاجك ومدينة ينى شهر وغير ذلك ولما تسلطن جعل كرسى سلطنته قراحصار ثم نقله الى ينى شهر وكان كثير من التتر تغلبوا على بعض ممالك السلجوقية فقاتلهم أبوه ثم قاتلهم هو وأبادهم وانتزعها منهم قبل أن يتسلطن وكان ذلك من جملة أسباب محبة السلطان علاء الدين له قال بعض المؤرخين ان الوقوف على ترجمة هؤلاء السلاطين وفتوحاتهم العجيبة يستوجب أن يعتقد أنهم أعظم ملوك الاسلام فان كل واحد منهم فعل أفعالا باهرة وغزا غزوات قاهرة يستحق أن تخلد فى بطون الاسفار لكى يقتدى بهم الملوك الذين يأتون بعدهم ويعلموا أن أفعال هؤلاء السلاطين تستحق أن تقدم على أفعال الأكاسرة والقياصرة وبقية الملوك والسلاطين الذين تدونت أسماؤهم فى كتب التواريخ ومن طالع تواريخ هؤلاء السلاطين تظهر له عظمة أفعالهم وبطشهم وشجاعتهم التى قاوموا بها جميع الدول المحيطة بهم فكانوا يفتحون المدن العظيمة والحصون المشيدة ويقهرون الجبابرة العظام ويتسلطون على الممالك برا وبحرا الى أبعد مكان فكانت ترتعد من سطوتهم قلوب جميع الدول الافرنجية ويعطونهم الطاعة والخضوع وكان السلطان عثمان جدهم واسطة عقدهم ومؤسس دولتهم وكان

السلطان علاء الدين قد كبر وشاخ وطعن فى السن حين أن أشرك معه السلطا
عثمان لانه تولى السلطنة سنة أربع وخمسين وستمائة واستمر الى أن توفى سنة سبع
وبقى بعض ممالكهم تحت يد بنيه وابناء عمهم مع ضعفهم عن حفظها وآخر من
فى السلطنة منهم السلطان مسعود بن كيكاوس وتوفى مسعود سنة ثمان عشر
وسبعمائة فاضمحلت دولتهم وكان لهم من التترعساكر كثيرة كانوا متغلبين علي
فاستولى عليهم السلطان عثمان وبنوه من بعده وصارت الممالك كلها بأيديهم ومن
الممالك التى افتتحها السلطان عثمان بعد سلطنته حصن الصفصاف المعروف بق
بيلجك وكان الخليفة هرون الرشيد غزا بنفسه الروم ففتح هذا الحصن ثم استو
عليه الكفار واستمر بأيديهم الى أن افتتحه الغازى السلطان عثمان المذكو
وسيأتى ذكر بقية فتوحاته وكان السلطان عثمان المذكور ملكا عادلا زاهد
فى الدنيا راغبا فى الآخرة شجاعا من ابطال فى سبيل الله مجاهدا يراعى الابطا
ويحسن للأيتام والارامل ومن زهده فى الدنيا أنه لما توفى لم يترك من المال شي
وانما ترك بعضا من الخيل وشيأ من الغنم التى ترعى فى نواحى بروسا باسم السلاطي
العثمانية وهى من نسل تلك الاغنام وترك أيضا بعد وفاته قفطانا وعمامة وبعض
مناطق من القطن وملعقة ومملحة فهو سلطان مبارك خرج من صلبه السلاطين
العظام الذين شيدوا أركان الاسلام وكان صحيح العقيدة على عقيدة أهل السنة
يحب الصحابة وأهل البيت والعلماء والصالحين ويحسن اليهم ويعظمهم ويقوم
بحقوقهم وكان شديد التعظيم لشعائر الدين وللقرآن العظيم * يحكى أنه قبل أن
يتسلطن سافر الى موضع ونزل فى طريقه ضيفا عند انسان فلما أراد النوم هيأ له
صاحب المنزل موضعا لينام فيه فلما دخل ذلك الموضع رأى مصحفا معلقا فى جدار
ذلك الموضع فكبر عليه أن ينام وذلك المصحف معلق بذلك الموضع ورأى أن
ذلك يخل بتعظيم القرآن فوقف على قدميه قائما الى الصباح مستقبلا للمصحف
وبداه على صدره وذلك دليل على قوة إيمانه وصحة اعتقاده رحمه الله تعالى وكان
كثير التردد على الشيخ العارف بالله تعالى أده بالى القرمانى فرأى السلطان عثمان

ليلة فى منامه أن قمرا خرج من حضن الشيخ المذكور فدخل فى حضنه ثم نبتت من سرته شجرة عظيمة ملأت أغصانها الآفاق ورأى تحتها جبالا راسيات وتجرى عندها عيون وأنهار والناس يشربون من تلك المياه ويملؤن منها وينتفعون من تلك المياه فلما استيقظ السلطان عثمان قصد الشيخ المذكور وقص رؤياه عليه فقال له الشيخ وكان من المكاشفين لك البشرى بمنصب السلطنة وسيعلو أمرك وينتفع الناس بك وبأولادك وانى زوجتك ابنتى هذه فقبلها السلطان عثمان وتزوج بها فولدت له أولادا منهم السلطان أورخان وهو جد السلاطين آل عثمان أبد الله دولتهم على ممر الزمان وبسط الكلام على فتوحات السلطان عثمان الغازى وغزواته مذكورة فى التواريخ المبسوطة لاسيما التواريخ التى باللسان التركى وكذلك مناقبه وبقية سيرته كل ذلك شئ طويل مذكور فى التواريخ المذكورة وانما الذى يمكن ذكره هنا من ذلك شئ يسير من مناقبه وغزواته وفتوحاته فمن غزواته وفتوحاته قراحصار وجعلها كرسى ملكه كما تقدم الى أن فتح بنى شهر فنقل كرسى ملكه اليها ثم فتح حصن يارحصار وقصبة اينه كول وبنى شهر وأظهر فيها شعار الاسلام ❊ وفى سنة سبعمائة اشتغل بقتال الكفار فى طرف أزنيق حتى أعجزهم أمره مقدار خمس سنين فارسل صاحب أزنيق الى ملك الروم صاحب القسطنطينية يستنجد به فامده بجيوش كثيرة فى سفائن عديدة فلما وصلوا الى الساحل من طرف يلاق أوه كمن لهم المسلمون فكبسوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة فلم ينج منهم الا الشاذ النادر وفى غضون ذلك توفى السلطان علاء الدين السلجوقى سنة سبعمائة وكثر الهرج والمرج فى بلاده فالتحق أكثر عساكره بالغازى السلطان عثمان كذلك ❊ وفى سنة سبع وسبعمائة فتح السلطان عثمان مرمره وفى هذه السنة اتفق كثير من ملوك الروم على قتال السلطان عثمان المذكور فاجتمعوا فى جحافل كثيرة نحو ثلاثين ألفا فقاتلوا المسلمين أمام قيون حصارى فكان يوما شديدا على الكفار قتل فيه كثير من الكفار ومن رؤسائهم وهرب الباقون وتحصنوا بحصن من أعمال برو سا ففاز المسلمون

بالغنائم واستولوا على حصن كستل ثم ساروا الى أولو بار فغلبوا عليها واصطلح
معهم صاحبها على خراج يؤديه وفي هذه السنة أيضا استولى على حصن كك
والبلاد الملحقة بها وقسم البلاد على أولاده وأقطعهم اياها واستقر هو في ينى شهر
وتمكن بها وجعلها دار الامان وبنى فيها البقاع وأشاد القلاع وأسكن فيها الجند ،
وفي سنة ثمان وسبعمائة فتح حصن لفكه وحصن آق حصار وحصن توق حصار
وأسكن فيها المسلمين وأظهر شعائر الدين وفي هذه السنة أعنى سنة ثمان وسبعمائة
كان أول حدوث البارود وأما حدوث المدافع فكان سنة اثنتين وستين وسبعمائة
وفي سنة ثنتى عشرة وسبعمائة افتتح حصن كيوة وحصن طرقلو ينى جه‌سى وحصن
تكور بيكارى وغيرها * وفي سنة ثلاث عشرة وسبعمائه افتتح حصن أونوس
وبلادها وعينه كلى وراو يناس حصار وغير ذلك وفي سنة اثنتين وعشرين نازل
الغازى السلطان عثمان المذكور مدينة بروسا وحاصرها مدة ثم لما اشتد الحصار
أمر ببناء قلعتين في طرف المدينة وأسكن فيها الجند وأمرهم بالتضييق على أهل
البلد وقطع الميرة عنهم وجعل في احدى القلعتين أحد بنى عمه وفي القلعة الأخرى
أحد الشجعان من عبيده ثم رجع السلطان الى ينى شهر * وفي سنة ثلاث وعشرين
وسبعمائة فتحت قلعة قدكرية وبلادها وبلاد ملارنى وبلاد اقبازى * وفي سنة
عشرين فتحت بلاق آباد وحصن قاندرى وهذه البلاد تعرف الآن بقوجه نسبة
الى فاتحها لان الامير الذى فتحها يقال له قوجه ومعناه باللغة التركية الشيبة وفي هذه
السنة فتحت حصون كثيرة منها حصن بولى وحصن صحانون وما ينضم اليها وفيها
فتحت بلاد قره مرسل على يد الامير قره مرسل فسميت تلك البلاد باسم فاتحها
وهى بلاد كثيرة يخرج منها الفواكه الكثيرة تجلب فواكهها الى القسطنطينية
وفي هذه السنة أيضا أرسل السلطان عثمان ابنه أورخان الى فتح بروسا وصحبته
عساكر كثيرة وكان السلطان عثمان اذ ذاك مريضا بعلة النقرس فتخلف عن ذلك
الغزو وقعد في ينى شهر وفي مدة حصار ابنه مدينة بروسا توفي السلطان عثمان
المذكور وقيل بل عاش بعد فتح المدينة أياما فكانت وفاته سنة ست وعشرين

وسبعمائة ومولده سنة ست وخمسين وستمائة وعمره تسع وستون سنة ومدة ملكه ست وعشرون سنة ولما توفى كان بيده الممالك التى افتتحها هو وأبوه أرطغرل والممالك التى افتتحها السلجوقية فكانت بايديهم وكان ملكهم لها على التدريج فى سنين متعددة وهى قونية ووان واقصرا وقيسارية وسيواس وبلاد آيدين ومنيسا وصاروخان وحميد وكرسان وبرقسطمونى وأنكورية وملطية ومرعش والبستان وتوقات وأماسية ونيكسار وأرزنجان وسامسون وجانيق وعنتاب وتسلطن بعده ولده (أورخان) فى ابتداء سنة سبع وعشرين ولما توفى السلطان عثمان جاء الخبر لابنه السلطان اورخان وهو محاصر مدينة بروسة كما تقدم

﴿ ذكر فتح بروسا ﴾

ثم انه بالغ وبذل جهده فى حصار أهلها وقتالهم حتى افتتحها واستولى على القلعة وأسكنها المسلمين وجعلها دار للاسلام بعد أن كانت معقلا لاهل الاوثان والازلام ونقل كرسى ملكه اليها وجعلها دار السلطنة وبنى بها جامعا ومدرسة وتكية يطبخ فيها الطعام للفقراء والايتام والغرباء وهذه المدينة من أعظم المدن الاسلامية وأعمرها وهى مدينة كثيرة الثمار والعيون

﴿ ذكر فتوحاته فى بلاد اليونان ﴾

ولما نقل السلطان أورخان كرسى الملك الى مدينة بروسة أخذ فى الاهتمام والاستعداد لافتتاح مدن جديدة فجهز الجيوش وجند الجنود وهاجم بلاد اليونان فافتتح أكثر بلدانها وعامل أهلها بالشفقة والرحمة حتى ان كثيرا من النساء الروميات اللاتى فقدن أولادهن ورجالهن فى تلك الحروب كن يستغثن به ويقعن على قدميه ويطلبن منه المساعدة والرعاية فكان يلاطفهن بالكلام وينعم عليهن بما يسر خواطرهن فمالت اليه قلوب الناس ومازال يتقدم فى فتوحاته حتى أشرف على خليج القسطنطينية وبوغاز كليبولى واجتاز ابنه سليمان بوغاز شنق قلعه وفتح مدينة كليبولى وهى مفتاح القسطنطينية وفى سنة احدى وثلاثين وسبعمائة سار السلطان أورخان بعساكره فتح حصون قيسون

حصاری وفتح أزميد وفتح مدينة أزينوب وكانت من معظم مدائن الكفار ومجمع عظمائهم فغنم المسلمون منها غنائم كثيرة وفتح حصونا كثيرة * وفى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة أمر السلطان أورخان ولده الامير سليمان أن يجتاز البحر الابيض الى طرف روم ايلي للجهاد ولم يكونوا يملكون السفن فعملوا ألواحا شبه السفن فركبوا عليها فى الليل من موضع يقال له كمر فوصلوا الى ذلك البر فصادفوا حصنا يسمى جنا فاستولوا عليه بعافية ثم هجموا على قلاع أخر فاستولوا عليها قهرا

﴿ ذكر القتال مع أهل كليبولى ﴾

وكان الامير سليمان بن أورخان المذكور على جانب عظيم من الشهامة والعدل فلما رأى الكفار حسن سيرته ونشر عدله وضبط جنده أطاعوه ورضوا به فصار أمر المسلمين ينمو وصيتهم يسمو فخرج لقتالهم صاحب كليبولى فى عسكر كثير وكان المسلمون فى عسكر قليل فتوكلوا على الله وتوسلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوهم قتالا شديدا فانتصر المسلمون واستولوا على عدة حصون منها مدينة كليبولى وهى مدينة جليلة على شاطئ البحر وبينها وبين القسطنطينية ستة وثمانون ميلا ونصف ميل ومنها قلعة قره جك وقلعة خيره بول وهى بلاد منيعة ومنها قلعة دركور ومنها تكفور طاغى وغير ذلك وأخرب الكنائس والبيع وبنى مكانها مساجد ومعابد وفى سنة ستين وسبعمائة خرج الامير سليمان المذكور للصيد فكبا به الفرس فات لوقته فجزع عليه أبوه جزعا شديدا وفى هذه السنة عبر الامير مراد الغازى ابن السلطان أورخان الى طرف روم ايلي من خليج كليبولى ففتح مدينة جورلى وهى من القسطنطينية مسيرة ثلاث مراحل ولم يزل مراد الغازى يحاصر البلاد ويقاتل الكفار حتى فتح مدينة ديمتوقة وهى من كبار البلاد الاسلامية * وفى سنة احدى وستين وسبعمائة توفى السلطان أورخان وعمره ثلاث وثمانون سنة ودفن بمدينة بروسه ومدة ملكه خمس وثلاثون سنة وكان ملكا جليلا ذا سيرة مرضية وكرم وافر وعدل متكاثر طاهر الاعتقاد سليم الفؤاد عدوا لأهل الكفر والالحاد وكان كثير

الغزو والجهاد وبنى كثيرا من الجوامع والمدارس وأجرى فيها الخيرات الكثيرة رحمه الله تعالى وتسلطن بعده ولده (السلطان مراد الاول) فلما جلس على سرير الملك سار وحاصر مدينة انكورية وكانت عصت عليه ففتحها عنوة وكانت من أمنع الحصون فلما سمع بخبره ابن قرمان صاحب مدينة لارندة خشى على بلاده فجمع جموعا من التتر وورشق وطورغود والتركمان وغيرهم وسار بجموع لا تحصى لقتال السلطان مراد المذكور فجرى بينهما قتال شديد وحرب أكيد ثم انجلى الامر عن هزيمة ابن قرمان وانتصار السلطان مراد

﴿ ذكر فتح أدرنه ﴾

وفى هذه السنة أيضا جهز السلطان مراد جيشا وأرسله لفتح أدرنه وجعل عليه شاهين لالا الاتابك فاقتتلوا قتالا شديدا وعجزوا عن أخذها وسألوا السلطان مرادا أن يقدم عليهم بنفسه فسار السلطان مع جيوش الموحدين وغزاة المجاهدين فاجتاز البحر فلما سمع الكفار بقدومه تزلزلت أركانهم وهرب سلطانهم فلما سمع المسلمون بذلك هجموا على المدينة فأخذوها وأرسلوا أعلموا السلطان فحمد الله وأثنى عليه وجاء فدخل المدينة وهى من أعظم مدن الدنيا تجرى من تحتها أنهار ثلاثة بينها وبين القسطنطينية سبعون ميلا ثم أرسل لالا شاهين الاتابك ففتح مدينة فلبة ثم فتح زغرة بنواحيها وعادوا الى مدينة بروسه * ومن غزواته أنه سار الى اقليمى الصرب والبلغار وفتح فيها فتوحات وأثخنهم قتلا وأسرا وكان ببر الأناضول جملة من أمراء الاتراك لم يزالوا باقين على الاستقلال فحاربهم وأخضعهم واستولى على مقاطعة كرميان وغيرها من الولايات ثم على مدينة كوناهية وخضع لسلطنته معظم مقاطعة مكدونيا وبلاد الارناؤوط وفتح كثيرا من بلاد اليونان وعبر بحر مرمرا وفتح مدنا وقلاعا جهة تاساليا

﴿ ذكر ابتداء اختراع عسكر الانكشارية ﴾

وفى سنة ثلاث وستين وسبعمائة أشار خليل باشا على السلطان بأن يأخذ خمس الأسارى من الغانمين على زقاق كليبولى وكان الغزو والجهاد فى بلاد الروم ايلى

متتابعا فكانت تسبي الاسارى وتأتيه كالسيل الهامي والبحر الطامي فاجتمع
عند السلطان طائفة كثيرة فأمرهم السلطان بتعليم علم الرمي بالبندق فتعلموا
ميزهم وأرسلهم الى خدمة الشيخ العارف بالله تعالى الحاج بكتاش ليعلمهم بعلا
ويسميهم باسم ويدعو لهم بالخير والظفر فلما اجتمعوا عند الشيخ قطع كم
وكان من لبد فألبسه رأس رئيسهم ودعا لهم بالبركة وسماهم ينك جرى والجاري
الالسن انكشارى ومعناه العسكر الجديد لان السلطان عثمان كان أ
عساكره من فرسان التركمان ولم يكن لهم معرفة بالضبط والربط العسكري
انتظام لهم حال القتال فاستصوب السلطان أورخان ترتيب عساكره على
الوجه فأحدث وجاق الانكشارية ورتبه ولم يتممه وصار تمام انتظامهم
ابنه السلطان مراد واستمر وجاق الانكشارية الى زمن السلطان محمود ال
فأبطله وأبادهم كما سيأتي سنة إحدى وأربعين ومائتين وألف وأحدث ال
الجديد الموجود الآن * وفي سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة اشترى السلطان م
خان من صاحب بلاد حميد خمس قلاع وهي يلواج وبني شهر وآق شهر و
أغاج وسيدى شهر * وفي سنة احدى وتسعين وسبعمائة خرج السلطان م
المذكور الى قتال رئيس الكفار ابن لازقا وكان قد تجمع لقتاله أهل الب
والصرب والافلاق والبغدان وأهل الماعن والمجر والبلغار وتحزبوا جميعا
فاتفق موافاته بعسكر الكفار بموضع يقال له قوصو ببلاد الروم ايلي فالتحم
الفريقين القتال الى أن هبت رياح النصر للمسلمين وقتل رئيس ال
الكافرين وانقلب الكفار على أدبارهم صاغرين

﴿ ذكر استشهاد السلطان مراد الاول ﴾

ثم انه لما انهزم الكفار أقبل من أمرائهم أمير يقال له يلواش في خيله ور
مظهرا للطاعة فلما هم بتقبيل يد السلطان ضربه بخنجر كان في كمه ففي ذلك
العثمانية عند قدوم الوافد وتقبيل يد السلطان أن يمسك واحد من طرف كمه وآ
من كمه الآخر احترازا من ذلك فمات السلطان سنة سبعمائة واثنتين وتسعين

ضربة ذلك الخنجر وخرجت أمعاؤه فدفنوا أمعاءه هناك وحملوا جسده ودفنوه بمدينة بروسة وقتلوا ذلك الكافر الذى ضربه وقطعوه بالخناجر وكان السلطان مراد المذكور رحمه الله ملكا جليلا عادلا عارفا وكان أفنى عمره فى الجهاد وكان شجاعا مقداما على الهمة توفى وعمره خمس وستون سنة ومدة سلطنته احدى وثلاثون سنة وتسلطن بعده ولده (السلطان السعيد يلدرم بايزيد خان) وبعد جلوسه أخذ فى محاربة الصرب الذين كان أبوه يحاربهم وتقوت عساكره الى أن وصلت الى ودين وتملكوا مدينة اسكوب والتزم ملك الصرب أن يزوج أخته للسلطان المذكور وأن يدفع خراجا سنويا ومن فتوحاته أنه استولى على جزيرة رودس وكانت للمسلمين فتملكها النصارى وتكرر انتزاعها منهم مرة بعد أخرى وآخر الامر انتزعها هذا السلطان منهم * وفى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة فتح السلطان المذكور قرطوه وهى معدن الفضة الخالصة التى لا نظير لها وفتح بلاد أسكوب وهى من أجل البلاد الاسلامية وفتح قلعة ودين فخاف ابن آيدين من السلطان المذكور وسلم مفاتيح قلاعه اليه وفيها أطاع السلطان أهل بلاد قرسى وصاروخان وفيها هرب صاحب قسطمونى وهو ابن منتشا فأرسل السلطان من يضبط تلك القلاع ولما نقض العهد علاء الدين صاحب بلاد قرمان وبلغ السلطان أنه أغار على بعض بلاد أناضولى هجم عليه السلطان فانهزم فلحقه بموضع يقال له آقچاى فأسر هو وابناه فنازل السلطان مدينة قونية وهى كرسى مملكته وحاصرها وكان وقت ادراك الغلال فرسم السلطان بأن لا يتعرض أحد لشئ من الغلال وأن لا يظلموا أحدا وأذن لاهل القلعة بأن لا يخرجوا ويشتغلوا ويبيعوا على مقدار ما شاؤا فخرج أهل القلعة وأصلحوا شأن غلالهم وحصادهم وباعوها من العسكر على أبلغ وجه أرادوا فلما شاهدوا ذلك رجعوا الى أنفسهم فقالوا ان ملكا بلغ منا هذا المبلغ لا ينبغى أن نعصيه ونخرج عن طاعته فحضروا برمتهم طائعين وسلموه مفاتيح القلعة وقالوا أنت أحق بها وأهلها فلما رأى أهل سائر القلاع ما فعل أهل قونية وهى عمدة بلاد قرمان رغبوا فى المتابعة بمفاتيح

قلاعهم وهي بلدة آق سراي ونيكده وقيصرية ودولي قره حصار وسلموها الى السلطان المذكور ثم رجع الى مقر مملكته بروسة بعدما قتل علاء الدين ابن قرمان وحبس ولديه بمدينة بروسة وبقيا الى أن أطلقهما الخارجي تيمور

* وفي سنة خمس وتسعين وسبعمائة استولى السلطان المذكور على سيواس وأماسية ومدينة توقات ونيكسار وجانيك وصامسون وكلها كانت بيد السلجوقية وعمالهم وفي آخر هذه السنة بلغه ان صاحب قسطموني أغار على بعض البلاد التي بيد السلطان بايزيد وعاث فيها نهبا وتخريبا فلما بلغه ذلك وكان قد جاز البحر لغزو الكفار الى طرف روم ايلي فترك الغزو ورجع لقتال صاحب قسطموني فمات قبل ان يصل اليه السلطان بايزيد وتملك ابنه وأرسل الى السلطان يستعطفه ويسترضيه ويقول ان أبي قد جنى وقد مات وأنا مطيع لأوامر مولانا السلطان ومن جملة مماليكه فالمناسب لعدله أن لا يؤاخذ أحدا بذنب غيره وأرجو من مكارمه أن يترك لي مدينة سينوب وهي مدينة أبي ومسقط رأسي ويجعلني فيها نائبا عنه فأجابه السلطان الى سؤاله وعاد الى مدينة بروسة ثم أرسل السلطان بايزيد الى صاحب القسطنطينية يقول له اما أن تخرج من البلاد وتسلمها واما سرت اليك فأتيتك في أعز ما كنت فخاف منه ملك القسطنطينية وتراسل معه الى أن قر الامر بينهما بأنه يدفع خراجا في كل سنة عشرة آلاف ذهب وأن يبني للمسلمين في داخل المدينة محلة يسكنون فيها ويكون لهم فيها مسجد وجامع وقاض يقضي لهم الخصومات فرضي بذلك وفعله واستمر ذلك الى وقعة تيمور فنقض العهد وأخرب الجامع وأخرج المسلمين من البلد وساقهم الى الروم قال الحافظ ابن حجر في كتابه أنباء الغمر في أبناء العمر واشتهر يلدرم بايزيد بالجهاد في الكفار حتى بعد صيته وكاتبه الظاهر برقوق صاحب مصر وهاداه ووفد اليه أمير بعد أمير بالهدايا ولم يبق أحد من ملوك الارض حتى كاتبه وهاداه قال الحافظ وسمعت شيخنا ابن خلدون يقول انما يخاف أن تملك مصر من ابن عثمان وكذا كان يقول الظاهر برقوق أنا لا أخاف من الكفار فان كل أحد

يساعدني عليهم وانما أخاف من ابن عثمان * والحاصل ان هذا السلطان افتتح ايالات كثيرة في الأناضول وروم ايلي واستولى على مدينة سلانيك ثم شن الغارة على بلاد المجر وانتصر على جيوش الافرنج ثم وجه عزمه وهمته لفتح القسطنطينية وأخذ في تدبير ذلك وشرع في محاصرتها ثم قدر الله بمسير التيمور الى قتاله * وفي سنة اثنتين وثمانمائة اجتمع كثير من ملوك الروم الذين اقتلع ملكهم السلطان يلدرم بايزيد وساروا الى تيمور مستغيثين به يشكون اليه من السلطان بايزيد ويرغبونه في المسير الى الروم ويستنجدون به عليه في رد ممالكهم فأجاب تيمور سؤالهم وسار بجيوش كثيرة ووقع بينه وبين السلطان بايزيد مكاتبات كثيرة فلم يرجع عن قصده والكلام على ذلك قد تقدم عند ذكر تيمور مبسوطا وكان السلطان بايزيد محاصرا للقسطنطينية وقد قارب فتحها وأشرف عليه فتركها وتوجه بعساكره لقتال تيمور وكان غالب عسكر السلطان من التتار فأرسل تيمور الى زعمائهم والكبار من رؤسائهم وأمرائهم يستميلهم ويذكرهم الجنسية وبعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا فوعدوه بالمعاونة وكان تيمور قد نازل أنقورية فقصده السلطان والتقت الجيوش بقرب أنقورية واشتد القتال فانهزم التتار الذين مع السلطان بايزيد فتبعهم كثير من العسكر في الانهزام فانهزموا وبقي السلطان بايزيد يقاتل بنفسه الى أن وصل الى تيمور وقد عجزوا عنه فرموا عليه بساطا وأمسكوه أسيرا وكان رحمه الله من خيار الملوك وكان مجاهدا مرابطا قد فتح من بلاد الكفار ومدنهم الكبار مالم يمسها من المسلمين خف ولا حافر وكان قوي النفس شديد البطش على الهمة ولما أخذ السلطان بايزيد أسيرا صحبه تيمور معه الى بلاد العراق قاصدا خراسان ومكث في أسره الى أن توفي في تبريز سنة خمس وثمانمائة ثم وقعت فتن كثيرة في أراضي الروم بين أولاد بايزيد مع بعضهم واستمرت الى سنة عشرة وثمانمائة فتم الملك والسلطنة (للسلطان محمد الاول بن بايزيد) وكان أصغر اخوته فالله سبحانه وتعالى يؤتي الملك من يشاء ولا يسئل عما يفعل وكان دأبه الاشتغال بالحروب وكان من جملة من

خرج عليه وحارب (قره دولقشاه) من التتار فى نواحى اماسية فسار
وهزمه وبدد شمله ثم قصد قتال صاحب سينوب وجرى بين الفريقين قتال شد
انتصر فيه السلطان محمد وانهزم صاحب سينوب أقبح هزيمة واستولى السلطان
محمد على جميع ممالكه ثم بعد ذلك صفى له الدهر وانتظم له الامر ولم يبق
ينازعه فى ملكه وفتح مدينة أزمير ونقل كرسى السلطنة الى ادرنة وأتته رسل
ملوك الافرنج بالهدايا وبالتهانى وعقدوا معه صلحا خوفا منه وأعاد رونق السلطنة
ووسع نطاقها ثم لما بلغه ان ابن قرمان نقض العهد وتعرض لأخذ بعض البلاد
سار اليه بجيش عظيم فقاتله فهزمه وتبعه حتى أسره وولديه فاحضر بين يدى
السلطان فعاتبه على سوء صنعه ثم عفا عنه وعن ولديه وأطلقهما وعين لهما بعض
بلادهما وأخذ عليهما العهد والميثاق أن لا يخونا بعد ذلك واستولى على
قلاع لابن قرمان فيها قلعة صورى حصار وقلعة قيرشهر وقلعة نيكده وقلعة آق
شهر وقلعة سيدى شهر وقلعة أوغازى وقلعة يني شهر وقلعة سعيد ايلى ثم
واستولى على صامسون وغالب هذه البلاد وكانت قد افتتحها السلطان بايزيد
ثم لما قدم تيمور الى بلاد الروم ردها الى أصحابها فارتجعها منهم السلطان محمد
المذكور وكان السلطان محمد المذكور ملكا جليلا مهابا محبا للعلماء والصلحاء
وهو أول من عين الصرة لاهل الحرمين واستمر فى ملكه ثمانية أعوام وعشرة
أشهر وتوفى سنة أربع وعشرين وثمانمائة وعمره ثمان وأربعون سنة وعهد
بالسلطنة لولده مراد الثانى وكان ولده المذكور اذ ذاك غازيا فى أقصى بلاد
ايلى فأخفى الوزراء موت السلطان محمد مدة احدى وأربعين يوما حتى وصل
ولده (السلطان مراد) الى مدينة بروسة واستقر على التخت ثم بعد ذلك
أظهروا موت السلطان * وفى سنة خمس وعشرين وثمانمائة ظهر رجل ادعى
مصطفى ابن السلطان يلدرم بايزيد وكان مصطفى المذكور فقد فى محاربة التيمور
فادعى أنه هو وأقام فى نواحى سلانيك فاجتمع عليه خلق كثير واستولى على
جميع بلاد الروم ايلى وعلى مدينة ادرنة ثم اجتاز البحر الى طرف أناضول لبقتال

السلطان مراد وكان السلطان مراد بعث قبل ذلك وزيره بايزيد باشا وصحبته عساكر كثيرة أدرنة لقتال الخارجي المذكور فقاتلوه بقرب أدرنة فانتصر الخارجي وانهزم عسكر مراد وأسروا الوزير بايزيد باشا وقتله الخارجي فسار السلطان مراد بنفسه لقتاله بعساكر وافرة فقدر الله أن الخارجي المذكور أصابه الرعاف واستمر به ثلاثة أيام حتى ضعف جدا وجعل يخلط في الكلام واختل عقله فلما تحقق ذلك أركان دولته ووجوه عسكره تيقنوا خذلانه فداخلهم الخوف فنفروا شذر مذر وهرب الخارجي مع ضعفه الى طرف روم أيلي فلما شاهد ذلك عسكر السلطان مراد اجتازوا خلف المنهزمين فأسروا منهم خلقا كثيرا وقتلوا اغالبهم وغنموا منهم أموالا ودواب كثيرة ثم أمر السلطان بعض أمرائه حتى لحق الخارجي بقرب أدرنة فظفر به فقتله وانتظم الامر للسلطان مراد واجتمع جميع ممالكه وكان حريصا على فتح القسطنطينية فأقام بمائتي ألف مقاتل وحاصرها حصارا شديدا فقاومه أهلها أشد مقاومة ثم رفع الحصار عنها ورجع الى دار ملكه لتسكين الفتن التي أضرمها الروم بتلك النواحي فقاتلهم حتى أخمد تلك الفتن واستخلص تلك المدن ومازال يتقدم حتى داخل بلاد المورة فلما ذاع عند الفرنج خبره نهض البابا وعقد عهودا بين ملوك الفرنج على محاربته فأجاب الى ذلك الفرنسيس وجرمانيا والمجر وبولونيا فكان بينه وبينهم حروب كانت الغلبة في بعضها لهم وفي بعضها له ثم ثم عقد معهم صلحا سنة سبع وأربعين وثمانمائة وفي سنة ٨٤٩ نزل السلطان مراد عن السلطنة لولده السلطان محمد وخلع نفسه عن السلطنة واختار لنفسه مدينة مغنيسا فانتقل اليها واعتزل عن الملك وشاع هذا الخبر في الآفاق وقال ملوك الكفار بعضهم لبعض ان ملك المسلمين قد صار شيخا كبيرا فاعتزل عن الملك وجعل منصبه لولده وهو صبي صغير لا يخشى منه فاتفق قرال أنكروس وقرال الالمان وقرال جه وقرال له وأمير لاطين وأمير بوسنة وصاحب أفلاق وبغدان وطوائف الافرنج على قتال المسلمين وأن لا يدعوا من بلاد الاسلام حجرا على حجر فلما بلغ ذلك أركان الملك خافوا واستصوبوا أن يدعوا السلطان

مراداً من مغنيسا ليكون معهم لانه سلطان شاع بذكره الاخبار وطال...
الكفار فأرسلوا يطلبونه فامتنع وقال سلطانكم دونكم فخذوه وخلوني...
يدخلون عليه حتى رضي ﴿ ذكر غزوة عظمى ﴾

أسار مع ولده السلطان محمد الى طرف العدو فلما تصافت الطائفتان والتق...
تكاثر كل من الفريقين على الآخر وانهزم المسلمون وجعل الكفار يطرد...
ويقتلونهم ولم يبق الا السلطان مراد خان في القلب فلما شاهد ذلك الحال رفع...
الى الله تعالى وسأله النصر والعون وتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم فلم يمض...
حتى اغتر قرال أنكروس وهو كبيرهم فبرز من بين عسكره فانفرد وجعل يط...
السلطان مراداً للمبارزة ثم هجم على المسلمين فتقنطر به فرسه فسار اليه المس...
فقتلوه وحزوا رأسه ورفعوه على رمح وجعلوا يصيحون هذا رأس قرال المن...
فلما رأى الكفار ذلك انهزموا عن آخرهم وساق المسلمون خلفهم وقتلوهم...
ذريعاً وكان يوم غم ثم سرور والعاقبة للمتقين وأما الغنائم والأسرى فلا تحصى
تحصر ثم ان السلطان مراداً لما رجع من الغزو وأمضى سلطنة ولده السلطان...
خان على ما كان عليه وسار هو الى طرف مغنيسا واستمر الحال الى أن تح...
طائفة الينكجرية وعادوا وكبسوا بيوت الامراء والوزراء ونهبوها...
ذلك في سنة خمسين وثمانمائة ﴿ ذكر غزوة أخرى ﴾

فعند ذلك رأى الوزراء وسائر أركان الملك أن يعيدوا السلطان مراداً الى الم...
ليسترهبوهم فطلبوه وأجلسوه على سرير الملك وعاد ابنه السلطان محمد الى مك...
ابنه مغنيسا وبقي بها الى أن توفي أبوه فجلس بعده على تخت السلطنة واست...
السلطان مراد يغزو حتى استولى على معظم بلاد الكفار وسار الى بلاد المور...
وبقي الاقاليم المجاورة لها فأخضعهم ورتب عليهم الخراج وجرت على آثار ذلك...
حروب كثيرة بينه وبين الارناؤوط والمجر الى أن توفي سنة خمس وخمسين وثمانما...
وعمره تسع وأربعون سنة ومدة سلطنته احدى وثلاثون سنة وكان ملكاً جليـ...
صالحاً يعتني بشأن العلم والعلماء والمشايخ والصلحاء مهد الممالك وأمن المسا...

وأقام الشرع والدين وأذل الكفار والملحدين وكان مقداما فاتكا شجاعا كريما واسع العطاء عين للحرمين الشريفين من خاصة صدقاته فى كل عام ثلاثة آلاف وخمسمائة دينار ذهبا وللشرفاء من خزينته فى كل عام مثل ذلك رحمه الله تعالى وأوصى ابنه محمدا أن يهتم بفتح القسطنطينية و يوجه اليها جنوده فتسلطن بعده ولده (السلطان محمد الثانى) فاتح القسطنطينية وهو السلطان الجليل الفاضل النبيل أعظم الملوك جهادا وأقواهم اقداما واجتهادا وأكثرهم توكلا على الله واعتمادا وهو الذى أسس ملك بنى عثمان وقنن لهم قوانين وصارت كالطوق فى أجياد الزمان وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة وآثار باقية فى صفحات الليالى والأيام وما ثر لا يمحوها تعاقب السنين والاعوام ولما تسلطن كان عمره ١٩ سنة فخرج الى قتال صاحب قرمان فخاف منه صاحب قرمان وصالحه فعاد الى مقر ملكه

﴿ ذكر فتح القسطنطينية ﴾

ثم لم يكن له هم الا فتح القسطنطينية فشرع فى مهماتها ومقدماتها وهى من أعظم البلدان وأكبرها أهلا وأمنعها حصنا لانها أحاط بها البحر من كل صوب الا الطرف الغربى وهو طرف يسير وقد حصنوه بثلاثة أسوار وعدة خنادق يجرى فيها ماء البحر مع ما فيها من المكاحل والمدافع فأظهر السلطان مسالمة صاحب القسطنطينية وذلك فى سنة ست وخمسين وثمانمائة ثم طلب من طرف بلاده أرضا مقدار جلد ثور يهبها له فاستقل ذلك صاحب القسطنطينية وقال سبحان الله ما يفعل به فهو له فأرسل السلطان المزبور جماعة من البنائين والصناع فاجتازوا الخليج الداخل من بحر نيطش وهو البحر الاسود الى بحر الروم فقدوا جلد الثور قدا رقيقا فبسطوه على وجه الارض على أضيق محل من فم الخليج فبنوا على القدر الذى أحاطه ذلك الجلد سورا منيعا شامخا وحصنا رفيعا باذخا فركب فيه المدافع الرعدية والمكاحل الشهابية ثم بنى السلطان فى مقابلة ذلك الحصن فى بر أناضولى حصنا آخر وهو فى طرف بلاده فشحنه بالآلات النارية والمرامى الرعدية حتى ضبط فم الخليج فلم يقدر يسلكه بعده شئ من مراكب البحر الاسود الى

القسطنطينية والى بحر الروم ثم وجه عزمه الى مدينة ادرنة فأمر بانشاء دار السعادة الجديدة فشرعوا فى بناها ثم أمر بسبك المدافع الكبار وعمل المكاحل لاجل فتح القسطنطينية فأكثروا منها ثم لما تكاثرت الآلات وتكاملت الاسباب المتعلقة بالقتال قدر الله أن انتقضت المسالمة التى كانت بينه و بين ملك القسطنطينية لاسباب جرت فأرسل ملك القسطنطينية يتهدده بكلام غليظ فكان ذلك سببا للاستعداد لقتاله وقوة عزمه على ذلك ولما علم ملك القسطنطينية بعزمه على قتاله أرسل الى ملوك الافرنج يستنجدهم ووعدهم بضم الكنيسة الرومية الشرقية الى الكنيسة الرومانية الغربية ففرح البابا بهذا الخبر وكان يتمناه وأرسل له نجدة من عساكر ملوك الافرنج فلم يجد ذلك نفعا اذلم يكن للروم اهتمام بهذا الحرب لكراهيتهم ضم الكنيستين معا ومن ذلك الوقت جرت البغضاء فى قلوبهم لملك القسطنطينية وتخلوا عنه فى المدافعة والمحاماة حتى قال بعض أكابرهم أحب أن أرى فى القسطنطينية تاج السلطان ولا أرى اكليل البابا فنهض فى أوائل شهر جمادى الاولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة بعسكر كثير وجيش كبير يبلغ مائتين وستين ألفا بعزم صارم و رأى حازم فى أسعد أوقات الحركات متوكلا على فائض الخيرات فخيم على القسطنطينية ونازلها من طرف الشمال وكان له أربعمائة غراب قد أنشأها هو وأبوه قبل ذلك التاريخ فأرساها عند الحصن الذى أنشأه على مقدار جلد الثور المرسوم ببغاز كسن فأمر بتلك الاغربة فسحبت الى البر بعد ان جعلت تحتها دواليب تجرى عليها كالعجلة وشحنها بالرجال والابطال ثم أمر بنشر قلاعها فنشرت فى ريح شديد موفقة فساروا فى البر على هذه الهيئة حتى انصبوا الى الخليج الواقع شمالى البلد من طرف مدينة غلطة فامتلأ الخليج من تلك الاغربة ثم قربوا بعضها من بعض وربطوها بالسلاسل فصار جسرا ممدودا ومعبرا لطيفا وكان أهل البلد آمنين من هذه الجهة ولم يحصنوها وانما كان خوفهم من جهة البر فكانوا حصنوها وغفلوا عن هذه الجهة لامر يريده الله تعالى فشرع المسلمون فى الحصار والقتال من جهة البر والبحر مدة احد وخمسين يوما حتى أعيا

المسلمين أمرها وما زالوا مثابرين الحصار والقتال فجمع ملك القسطنطينية أعيان الامراء والقواد لما اشتد عليهم الامر وأخذ يحرضهم على القتال وبعد خطاب طويل أخذوا بالبكاء والعويل وعانق بعضهم بعضا بقصد الوداع ثم قصدوا الاسوار وتحصنوا فيها

﴿ ذكر دخول المسلمين القسطنطينية بعد فتحها ﴾

فلما كان اليوم التى فتحت فيه وهجم العساكر العثمانية ودخلوها قاتل ملكهم قتالا شديدا الى أن قتل فى المعركة وقتل معه خلق كثير فدخلها المسلمون وأسروا أهلها وأحرقوا مكاتبها يقال ان عدد ما فقد منها مائة وعشرون ألف مجلد وكان السلطان محمد قد أرسل وزيره أحمد باشا ابن ولى الدين باشا قبل هذا التاريخ الى خدمة العارف بالله الشيخ آق شمس الدين والى خدمة الشيخ آق بيق بدعوهما للجهاد والحضور معه فى فتح القسطنطينية فحضرا وبشرا الشيخ شمس الدين الوزير المذكور بالنصر وقال ستفتح ان شاء الله تعالى قسطنطينية على يد المسلمين فى هذا العام وأنهم سيدخلونها من الموضع الفلانى فى اليوم الفلانى من هذا العام وقت الضحوة الكبرى وأنت تكون حينئذ واقفا عند السلطان محمد فبشر الوزير السلطان بما بشر به الشيخ من خبر الفتح فلما كان ذلك الوقت الموعود به ولم تفتح القلعة حصل للوزير خوف شديد من جهة السلطان فذهب الى الشيخ فمنعوه من الدخول اليه لانه أوصى جماعته أن لا يدخلوا عليه أحدا فرفع الوزير أطناب الخيمة فنظر فاذا الشيخ ساجد على التراب ورأسه مكشوف وهو يتضرع ويبكى فارفع الوزير رأسه من أطناب الخيمة الا وقد قام الشيخ على رجليه وكبر وقال الحمد لله الذى منحنا فتح هذه المدينة قال الوزير فنظرت الى جانب المدينة فاذا العسكر قد دخلوا بأجمعهم ففتح الله ببركة دعائه فى ذلك الوقت الذى كان أشار به وكانت دعوته تخرق السبع الطباق فلما دخل السلطان محمد خان المدينة نظر الى جانبه فاذا وزيره ابن ولى الدين واقف عنده فقال هذا ما أخبر به الشيخ وقال ما فرحى بهذا الفتح وانما فرحى بوجود مثل هذا الشيخ فى زمانى

(ومن مناقب) هـذا الشيخ أنه كان طبيبا يداوى الابدان كما هو طبيب الا
الارواح يحكى أن الاعشاب كانت تناديه وتقول له أنا أنفع للمرض الفلانى وكان
فتح مدينة القسطنطينية نهار الاربعاء لعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع
وخمسين وثمانمائة وكانت أيام محاصرتها احدى وخمسين يوما فغنم المسلمون من
الاموال والاسباب والدواب مالم يسمع بمثله فى عصر من الاعصار لان السلطان لما
شاهد العى والفتور من العسكر فى الحصار أمر بأن ينادى ان الغنائم كلها لهم
و يكفينى فتح المدينة فلما بلغهم ذلك بذلوا جهدهم واجتهدوا حتى يسر الله فتح المدينة
فلما شاع خبر هـذا الفتح فى الآفاق هـابه ملوك العالم فأرسل اليه صاحب مصر
وصاحب العجم وصاحب الغرب بالمكاتبات والمراسلات يهنونه بالفتح ولا شك
أن هذا الفتح من أعظم الفتوحات الجليلة وكم من الخلفاء والملوك من رام فتح هذه
المدينة وصرفوا هممهم و بذلوا جهدهم وأموالهم وأفنوا أعمارهم وعساكرهم فلم
ينالوه انما حباه الله تعالى لهذا السلطان الجليل والملك الجميل لكونه أخلصهم نية
وطوية وأحسنهم سيرة وضمن بعضهم هذا المعنى فى تاريخ الفتح فقال

رام أمر الفتح قوم أولون * حازه بالنصر قوم آخرون

وقع لفظ آخرون تاريخا لفتح المدينة المذكورة بعدد حساب الحروف ٨٥٧ وقيل
فى تاريخها أيضا بلدة طيبة ٨٥٧ بحساب كل تاء مربوطة بأربعمائة وذلك جائز عند
بعضهم وهى كذلك فى طيب الهواء ولما دخل السلطان مدينة القسطنطينية سارع
بالتوجه الى كنيستها العظمى أياصوفيا فدخلها وطهرها من خبائث الكفر
وصلى فيها ودعا الله تعالى وحمده وأثنى عليه وجعلها مسجدا جامعا للمسلمين وعين له
أوقافا ومرتبات ثم ان السلطان محمدا التمس من الشيخ شمس الدين أن يريه موضع
قبر أبى أيوب الانصارى رضى الله عنه فقال الشيخ انى شاهدت فى موضع نورا لعل
قبره هنالك فجاء اليه وتوجه زمانا ثم قال اجتمعت مع روحه فهنانى بهذا الفتح وقال
شكر الله سعيكم الذى خلصتمونى به من ظلمة الكفر فأخبر السلطان بذلك فحضر
بنفسه الى هنالك وقال ألتمس منك يامولانا الشيخ أن ترينى علامة أراها بعينى

ويطمئن بذلك قلبي فتوجه الشيخ ساعة ثم قال احفروا في هذا الموضع وهو من جانب الرأس من القبر مقدار ذراعين يظهر لكم رخام عليه خط عبراني فلما حفروا ظهر رخام عليه خط عبراني فقرأه من يعرفه وفسره فاذا هو قبر أبي أيوب الانصاري رضي الله عنه فغلب على السلطان محمد حال حتى كاد يسقط لولا أن أمسكوه ثم أمر ببناء قبة عليه وقد روى الامام أحمد باسناد حسن في مسنده والحاكم عن بشر الغنوى لتفتحن بالبناء للمفعول القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش جيشها وهذا الحديث معجزة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وعلم من أعلام نبوته لان فيه الاخبار بالغيب ووقع كما أخبر صلى الله عليه وسلم وهو صادق على السلطان محمد خان هذا وعلى جيشه وان كان الغزو الى القسطنطينية وقع في زمن الصحابة ومن بعدهم وافتتحوا طرفا منها في خلافة معاوية رضي الله عنه في الغزوة التي استشهد فيها أبو أيوب الانصاري رضي الله عنه ثم استرجع الروم الطرف الذي افتتح في ذلك الزمن فالفتح التام انما هو هذا الذي كان في زمن السلطان محمد الفاتح ففي الحديث منقبة عظيمة له وروى الامام أحمد والبخاري ومسلم عن أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم فهذا يحمل على أول غزوة وجهت للقسطنطينية وهي التي كانت في زمن معاوية رضي الله عنه سنة اثنتين وخمسين من الهجرة وكان فيها كثير من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الانصاري وغيرهم رضي الله عنهم وكان في ذلك الجيش يزيد بن معاوية قيل كان هو أمير الجيش وقيل كان الامير سفيان بن عوف وقوله مغفور لهم مشروط بكون المغفور له منهم من أهل المغفرة بأن يموت مؤمنا فلو ارتد واحد والعياذ بالله من ذلك الجيش ومات كافرا كان خارجا من عموم تلك المغفرة وهكذا يقال في كل حديث يذكر فيه أن من فعل كذا غفر له أو دخل الجنة فان ذلك مشروط بالوفاة على الايمان ومثل ذلك قد يرد في كلام بعض الاولياء بأن يقول أحدهم مثلا من

رآنى دخل الجنة أو من أكل طعامى دخل الجنة فان ذلك مشروط بالوفاة على الايمان فلا يشكل عليك شئ من ذلك وبنى السلطان محمد عند قبر أبى أيوب جامعا عظيما وبعد تمام بنائه ذهب اليه بموكب عظيم وأقام الصلاة فيه وقلده الشيخ شمس الدين سيفا بيده ومن ذلك الوقت جرت العادة أن السلطان الذى يجلس على تخت الملك يذهب الى هذا الجامع ويتقلد بالسيف وهو بمنزلة التتويج عند ملوك النصارى

﴿ ذكر الغزو الى بوسنة ﴾

وفى سنة ثمان وخمسين وثمانمائة غزا السلطان محمد بلاد بوسنة بعسكر كثير وقاتلهم أشد قتال واستولى على عامة بلادهم ولم يقم للكفار قائم بعد ذلك هنالك * وفى سنة احدى وستين وثمانمائة وجه همته الى افتتاح جزيرة رودس فهدد أهلها وطلب منهم الخراج فامتنعوا وأرسلوا الى البابا صاحب رومية يستنجدون به فأخذ يحث ملوك الافرنج على محاربة الدولة العثمانية فلما بلغ السلطان محمدا هذا الخبر نهض بمائة وخمسين ألف مقاتل وحاصر مدينة بلغراد وضيق عليها برا وبحرا حتى كاد يفتحها فأخذ أحد الرهبان غيرة شديدة وصار يحث المسيحيين على المدافعة عن ملك المدينة فاستمال نحو أربعين ألفا من العساكر النمساوية وقادهم قائد من المجر فأضر بالسفن العثمانية بواسطة هذه النجدة واستمر السلطان محمد أربعين يوما وهو يكرر الهجمات على المدينة المذكورة ثم ارتحل عنها وأما قائد جيشهم الذى هو من المجر فجرح جرحا بليغا هلك به وبعد هذه الغزوة زحف السلطان محمد على ولاية أتينا من بلاد اليونان ففتح دوكة أتينا وهى المدينة الشهيرة فيها

﴿ ذكر الغزو الى بلاد السرب والبوسنا والارناووط ﴾

وفى سنة ثلاث وستين وثمانمائة توجه الى بلاد السرب وفتح فيها فتوحات * وفى سنة ست وستين فتح ايالة طرابزون وولاية سينوب وأتى بصاحبها أسيرا الى القسطنطينية فقتله السلطان محمد وكان له أولاد ثمانية فقتلهم معه وكان صاحب سينوب يكاتب ملك العجم ويعينه على السلطان محمد * وفى سنة سبع وستين وثمانمائة توجه الى اتمام تملك اقليم بوسنه وشن الغارات على ولايات الافلاق

والبغدان والصقالبة ثم صوب عزيمته الى فتح بلاد الارناؤوط وهم صنف من النصارى يتصبرون على المحن ويتكلفون الأعمال الشاقة قيل أصلهم من عرب الشام من بني غسان ارتحلوا من الشام بعدما أتى الله بالاسلام فقدموا من الشام وتوطنوا هذه البلاد وقيل أصلهم من البربر عبروا البحر من المغرب الى هذا الصوب ثم غلب عليهم الجهل فتنصروا فدخل السلطان بلاد الأرناؤوط فنهبها واستولى على عدة قلاع هناك وأمر ببناء قلعة حصينة في ثغر عظيم هناك كالسد يتناوبين الكفار وشحنها بالرجال وسماها آق حصار وأودع فيها من المدافع والمكاحل مايقيها * وفي سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة غضب السلطان محمد على صاحب قونية ولارندة فانتزع منه ولاية قرمان وجعل فيها ابنه السلطان مصطفى ثم استولى على قلاع عاصية هناك مثل قلعة اركلي وقلعة آق سراي وقلعة كولك وقلعة كولي وجعل الجميع لابنه المذكور * وفي سنة خمس وسبعين فتح جزيرة أرغبوز من أعمال البندقية بعد أن أوقع بأهلها وقتل أكثرهم ثم استولى على بقية بلاد الارناؤوط بأسرها

﴿ ذكر اغراء العجم والتتر على الاغارة والنهب ﴾

وفي سنة ست وسبعين وثمانمائة بعث صاحب العجم حسن بك الطويل ويوسفجه بك مع عسكر التتر الى نهب بلاد العثمانيين فجاؤا ونهبوا مدينة توقات وأضرموا فيها النار وأغاروا عليها ثم اغتر يوسفجه بك فهجم على بلاد قرمان وأغار عليها وكان واليها يومئذ السلطان مصطفى ابن السلطان محمد وكان في غاية من الشجاعة فقاتل العدو فهزمه وأسر رئيسهم يوسفجه بك وكبله في الحديد وأرسله مع عدة من الأسارى الى أبيه السلطان محمد فكان ذلك عنوان الفتح ومقدمة النصر * وفي سنة سبع وسبعين وثمانمائة وقع قتال بين السلطان مصطفى ابن السلطان محمد وبين زينل شاه ولد حسن الطويل فانتصر عليه السلطان مصطفى وانهزم جيشه وصارت الجيوش العثمانية يطردونهم ويقتلونهم ويأسرونهم وظفر بزينل شاه فقتله ثم سار مصطفى الى قره حصار الشرقي وهو من بلاد حسن الطويل

فاستولى عليها وأدرجها فى جملة ممالكه * وفى هذه السنة بعث السلطان محمد وزيره كدك أحمد باشا لفتح بلاد كفة فحاصرها حتى غلب عليها وفتحها ثم افتتح هنالك عدة حصون وقلاع

﴿ ذكر الغزو الى بغدان ﴾

وفى سنة تسع وسبعين سار السلطان محمد الى قتال كفار البغدان فخاف منه كبيرهم استفان فهرب الى أقصى بلاده فدخل السلطان بلاد بغدان وتوغل فيها وقتل من قدر عليه فكانوا خلقا لا يحصى وأسر وسبى ونهب حتى أذعن رئيسهم استفان المذكور بالطاعة وأعطى الجزية * وفى سنة خمس وثمانين وثمانمائة صمم السلطان محمد على افتتاح جزيرة رودس فأرسل اليها أساطيل بحرية مشحونة بمائة ألف مقاتل فحاصروا الجزيرة المذكورة ثلاثة أشهر فلم يتيسر فتحها لانها كانت حصينة ثم ارتحلوا عنها * وفى سنة ست وثمانين جهز جيشين عظيمين أحدهما لمحاربة جزيرة قبرس والآخر لقتال العجم ثم أدركته الوفاة قبل تمام الأمر فتوفى ليلة الجمعة خامس شهر ربيع الاول من سنة ست وثمانين وثمانمائة وعمره احدى وخمسون سنة ومدة ملكه استقلالا بعد وفاة أبيه احدى وثلاثون سنة وشهران وكان ملكا جليلا يعجز الواصفون عن مقدار فضائله ومحاسنه وكانت همته لا تكل ولا تعجز ولا تفتر عن الفتوحات رحمه الله تعالى قال العلامة القطبى عن بعض أوصاف السلطان محمد المذكور وللمرحوم المقدس قلادات منن لا تحصى فى أعناق المسلمين لاسيما العلماء الاكرمين قلدها فى أجيادهم فهى باقية الى يوم الدين ولو ذكرت مناقبه لشحنت بها مجلدا أسكنه الله تعالى فسيح الجنان وأنزل على قبره سحائب الرحمة والرضوان وتسلطن بعده ولده (السلطان بايزيد الثانى) ونازعه أخوه السلطان جم ووقع بينهما حروب يطول الكلام بذكرها وكان الانتصار للسلطان بايزيد واستقر الملك له وكان رحمه الله ملازما للغزو فى سبيل الله مظفرا على أعداء الله محبا بالفعل الخيرات مكرما للعلماء والصلحاء * وفى سنة ثمان وثمانين وثمانمائة سار بعساكره الى بلاد قره بغدان فافتتح قلعة كلى وقلعة آق كرمان وفيها أيضا فتحت قلعة ملوان وقلعة متون وقلعة طرسوس وقلعة نقشة

وقلعة كولك والحاصل انه استولى على كثير من بلدان البغدان وغيرهما مما في تلك الاطراف * وفي سنة سبع وتسعين وثمانمائة توجه الوزير يعقوب باشا لغزو بلاد البوشنة فظفر بملكها درنجيل وقيده في وثاق وأرسله الى السلطان بايزيد * وفي سنة تسعمائة وثلاث بعث جيوشا الى بلاد الارنوءوط براو بحرا وخرج في أثرها بنفسه ومعها أيضا جيوش كثيرة قاصدا السرب و بلاد الارناؤوط وحارب في تلك الغزوة بولونيا وأوقع بها واستولى على جانب عظيم منها وأخذ منها عشرة آلاف أسير ثم عاد اليها مرة ثانية فنكبها نكبة عظيمة * وفي سنة خمس وتسعمائة سار السلطان بايزيد بعساكره فاستولى على قلعة اينه بختي وعلى قلعة قرون وكان السلطان بايزيد ابن السلطان محمد من المجاهدين في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا فما زال غازيا في سبيل الله مظفرا على أعداء الله فكانت به كلمة الاسلام مجموعة وكلمة أهل الضلال خاسئة مقموعة وكان محبا لنيل الخيرات مثابرا على بذل الانعام والصدقات محبا للعلماء والمشايخ والاولياء من أهل الكرامات ودخل في طريق السادة الصوفية ودخل الخلوة وجلس الاربعين وارتاض مثل الصلحاء السالكين ولما دخل الخلوة كان معه المولانا أبي السعود المفسر وهو مولانا الشيخ محي الدين افندي وبنى السلطان بايزيد المذكور الجوامع والمدارس والعمارات ودار الضيافات والتكيات والزوايا والخانقاة ودار الشفاء للمرضى والحمامات والجسور ورتب للمفتي الاعظم ومن في رتبته من العلماء العظام في زمنه في كل عام عشرة آلاف عثماني ولكل واحد من مدرس الثمانية من مدارس والده المرحوم السلطان محمد في كل عام سبعة آلاف عثماني ولمدرس شرح المفتاح لكل واحد أربعة آلاف عثماني ولكل واحد من مدرس شرح التجريد ألفي عثماني وكذلك رتب لمشايخ الطريق الى الله تعالى من أهل الله ومريديهم وأهل الزوايا لكل واحد على قدر مرتبته واستحقاقه وهذا غير كسوة الصيف من الاصواف ونحوها وغير كسوة الشتاء من الفرا والجوخ لكل واحد على قدر مرتبته وصار ذلك

قانونا جاريا مستمرا وكان يحب أهل الحرمين الشريفين ويحسن اليهم احسانا كثيرا ورتب لهم صررا فى كل عام غير ما كان مرتبا من آبائه الكرام وكان يجهز الى فقراء الحرمين الشريفين فى كل سنة أربعة عشر ألف دينار ذهبا يصرف نصفها على فقهاء مكة ونصفها الآخر على فقهاء المدينة ولم يكن حكم الحرمين فى ذلك الوقت عنده فكانوا يتسعون بها ويتفقون بها ويدعون له فكان ذلك من أسباب تسهيل دخول أهل الحرمين تحت طاعة ولده السلطان سليم كما سيأتى ان شاء الله تعالى وكان اذا ورد عليه أحد من أهل الحرمين يكرمه ويحسن اليه ويرجع من عنده بصلات عظيمة ومواهب جزيلة

﴿ ذكر ظهور اسماعيل شاه سلطان العجم ﴾

مما كان من العجائب فى زمن السلطان بايزيد ابن السلطان محمد ظهور اسماعيل شاه فى بلاد العجم وكان ظهوره واشتهار أمره سنة تسعمائة وخمس وكان له ظهور عجيب واستيلاء على ملوك العجم يعد من الاعاجيب فانتشر أمره وفتك فى البلاد وسفك دماء العباد وأظهر مذهب الرفض والالحاد وغير اعتقاد كثير من الخلق وصار يدعو الناس الى الانحلال والفساد بعد الصلاح والسداد وأزال من قلوبهم حسن الاعتقاد والله تعالى يفعل فى ملكه ما أراد وظهر من أتباع اسماعيل شاه شيطان تولى بالروم أهلك الحرث والنسل وعم الفساد والقتل وقويت شوكته وعظمت على المسلمين فتنته فأرسل السلطان بايزيد وزيره الاعظم على باشا بعسكر كثير لقتال هذا الباغى فاستشهد على باشا فى ذلك القتال ولكن قتل الله ذلك الباغى وانهزم من كان معه من الجنود وقتل كثير منهم وكفى الله شر أولئك الاشرار وذلك سنة تسعمائة وخمس عشرة واسماعيل شاه المذكور هو اسماعيل بن حيدر بن جنيد بن ابراهيم بن سلطان خواجه بن على بن صدر الدين موسى بن صفى الدين اسحاق الأردبيلى وكان أهل هذا البيت يقال لهم الصفويون نسبة الى الشيخ صفى الدين الأردبيلى المذكور آنفا وكانوا من أهل السنة والجماعة ومن أهل الولاية والصلاح والمشايخ أرباب الطريق والسلوك

والزوايا وسلسلة طريقهم تنتهي الى الامام أحمد الغزالي أخي الامام محمد حجة الاسلام الغزالي وقيل ان لهم نسبا ينتهي الى موسى الكاظم وكان جدهم الشيخ صفي الدين له شهرة كبيرة في مشيخة الطريق وتوفي سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ثم صارت المشيخة في ولده صدر الدين ثم في ولده علي ثم في ولده سلطان خواجه ثم في ولده ابراهيم ثم في ولده جنيد ثم في ولده حيدر ولما كانت المشيخة في جنيد كثر أتباعه ومريدوه واشتهر أمره وانتشر صيته وصار يجاهد الكفار بمن معه من المريدين والاتباع وكان جهان شاه التركماني صاحب شروان وأذربيجان متغلبا على ملك العراق وبغداد فتوهم من جنيد وكثرة أتباعه وخشي أنه يتغلب عليه وينزع الملك منه فأخرج جنيدا ومن معه من أردبيل فتوجهوا الى ديار بكر ثم قوي أمرهم فقاتلوا سلطان شروان فانهزم الشيخ جنيد ثم قتل وتفرق مريدوه ثم اجتمعوا بعد مدة على ابنه حيدر فقاتلوا أيضا سلطان شروان فقتل الشيخ حيدر وأسر بنوه ومنهم ابنه اسماعيل شاه وكان صغيرا واستمر محبوسا هو واخوانه وهرب بعض اخوانه من الحبس سنة ثمانمائة وست وتسعين ثم هرب اسماعيل شاه سنة تسعمائة وست وعمره ثلاث عشرة سنة واجتمع عليه خلق كثير بعد خروجه من الحبس كانوا يعتقدون الخير في أبيه حيدر فغير اعتقادهم الى مذهب الرافضة فقصد بمجموعه الأخذ بثار أبيه وجده وكان قد رفض مذهب آبائه وأهل بيته وتمذهب بمذهب الرافضة تعلم ذلك وسرى اليه وهو صغير حين كان في الحبس قيل في تاريخ ظهور مذهبنا حق ٩٠٦ سمع ذلك بعض أهل السنة فقال مذهب ناحق على النفي فان نا في الفارسي اداة نفي فقاتل بمن اجتمع معه شروان شاه وكان كلما سار منزلا كثرت جنوده فنازلوا شروان شاه وقاتلوه فهزموه ثم أسروه فأتوا به الى اسماعيل شاه فأمرهم أن يضعوه في قدر كبير ويطبخوه ويأكلوه ففعلوا كما أمرهم وأكلوه ثم قاتل بمن معه من الجند ملوك العراق وخراسان الذين كانوا متغلبين على الممالك في تلك الازمان من التركمان وغيرهم فما كان يهزمه جيش ولا يتوجه الى بلاد الا ويفتحها ويقتل جميع من

فيها وينهب أموالهم الى أن ملك تبريز وأذربيجان وبغداد وعراق العجم وعراق العرب وخراسان وتعاظم أمره حتى كاد يدعى الربوبية وكان ظالما غشوما أفنى وأباد من الامم بالقتل مالا يحصى من العدد وكان عسكره يسجدون له اذا خرج اليهم ويأتمرون بأمره قال العلامة القطبي فى تاريخه قتل خلقا لا يحصون ينوفون على ألف ألف نفس بحيث لا يعهد فى الاسلام ولا فى الجاهلية من القتلى ولا فى الامم السابقة مثل ماقتله اسماعيل شاه وقتل من أعاظم العلماء خلقا كثيرا ولم يبق أحدا من علماء أهل السنة الذين كانوا فى بلاد العجم وأحرق كتبهم ومصاحفهم لانها مصاحف أهل السنة وكان كلما مر بقبر من قبور العلماء والمشايخ يأمر بنبشه واخراج عظامه ثم يحرقها واذا قتل أميرا من الامراء أباح زوجته وأمواله لشخص آخر * ومن جملة خرافاته المضحكة الدالة على سخافة عقله الناشئة عن تكبره وتجبره أنه جعل كلبا من كلاب الصيد أميرا ورتب له ترتيب الامراء من الخدم والكواخى والسماط والاوطاق والفراش الحرير وجعل له سلاسل من ذهب ومرتبة ومستندة يستند اليها كالامراء وأقام لخدمة ذلك الكلب جملة من خواص خدمه ومن تكبره وطغيانه أنه أسقط مرة من يده منديلا الى البحر وفعل ذلك قصدا وكان فى جبل شاهق مشرف على البحر المذكور فصار عسكره وأتباعه وخدمه يلقون أنفسهم فى البحر خلف المنديل ليأتوه به تقربا اليه وليلتمسوا بركة المنديل الذى مسته يده حتى أحصى من رمى نفسه منهم فكانوا نحو ألف صاروا يتخبطون فى البحر حتى غرقوا قيل انهم كانوا يعتقدون فيه الالوهية وأنه لا ينهزم له جيش الى غير ذلك من الاعتقادات الفاسدة التى كانوا يعتقدونها فيه * ومما يحكى عن اسماعيل شاه سلطان العجم أنه كان فى ابتداء أمره تنهزم جيوشه ولا يثبت هو أيضا للقتال بل ينهزم معهم فاتفق انه اجتاز مرة بامرأة وهو متنكر فأضافته هو ومن معه وقدمت لهم طعاما حارا فى صحفة فشرع الشاه اسماعيل يأكل من وسط القصعة وهى حارة والمرأة تنظر اليه فقالت له ما أشبهك أيها الرجل الا باسماعيل شاه الذى ظهر فى هذا الزمان فانه يريد ان

يقصد وسط الدولة محل الشوكة والقوة فيأخذه وذلك خطأ فينبغي له أن يأخذ أطراف البلاد ليبرد الوسط فأنت كل من الاطراف حتى يبرد الوسط ثم كل منه فتنبه من قولها وعمل باشارتها فصار يقاتل أطراف الممالك حتى صار له ماصار وملك جميع اقليم العجم وبواسطته انتشر التشيع وظهر في العجم وسلاطين العجم الموجودون الى وقتنا هذا من ذريته وسيأتي ذكر ماوقع بينه وبين السلاطين العثمانيين من القتال وكذا ماوقع بينهم وبين ذريته وانما أطلت الكلام في بيان أحوال اسماعيل شاه وأصوله ليعلم من ذلك ان كثرة بغيه وطغيانه من جملة الاسباب التي دعت السلطان سليم الى قتاله الذي سنذكره مع ماانضم الى ذلك مما كان بينه وبين السلطان سليم من العداوة التي سنذكر أسبابها

﴿ ذكر الحرب والقتال الذي كان بين السلطان بايزيد وولده سليم ﴾

لابد قبل ذلك من ذكر الاسباب الالهية الخفية التي كانت بتقدير الربوبية ليعلم بذلك أن الاسباب الظاهرية لابد معها من أسباب خفية قدرها الله تعالى من الازل قال العلامة القطبي في تاريخه ان منجما حاذقا كان في عصر السلطان بايزيد الثاني قد أطلعه الله على أمر يتعلق بالسلطان بايزيد فأخبره به وهو ان هلاكه وذهاب ملكه يكون على يد مولود يولد له وكان السلطان بايزيد قد ولد له أولاد قبل اخبار المنجم وكان اخباره له بذلك قبل أن يولد السلطان سليم فطلب السلطان بايزيد امرأة كانت معتمدة عنده بيدها أمر جواريه الموطوآت وهي قابلة لمن تضع حملها منهن وكانت من الصالحات فقال لها اذا وضعت احدى الجواري بعد الآن صبيا فاقتليه ولا تبقيه حيا واذا ولدت أنثى اتركيها التعيش مع بناتي وأكد عليها في ذلك غاية التأكيد فاستمرت على ذلك الى أن ولدت واحدة منهن صبيا فلما رأته أمه التي ولدته حزنت عليه لكونه تخنقه القابلة فلما تناولته القابلة لتخنقه رأته صورة جميلة ووقع حبه في قلبها فرقت له وقالت في نفسها بأى وجه ألقى الله تعالى اذا قتلت هذا الطفل والله لا أقدم على قتله فاظهرت أنه بنت وقالت للسلطان بايزيد انه حصل له من فلانة بنت جميلة حسنة الصورة فلما

أخبرته بذلك سماها سليمة واستمر الأمر على ذلك والحال مكتوم لا يعلمه الا الله تعالى والقابلة وأم الولد وصار كلما كبر وانتشأ تظهر عليه أوصاف الذكور من الاستيلاء والغلبة والقهر واذا اجتمع البنات وجلس بينهن لطم من كان منهن الى جانبه ونهب ما وجد بأيديهن من معلومات الاطفال وغير ذلك وكن يحذرن منه فدخل السلطان بايزيد يوما الى داخل السراية وكان يوم عيد واستدعى بناته وأجلسهن بين يديه وأمر أن يوضع بين يدى كل واحدة منهن أنواع الحلوى والفواكه وحضر معهن ذلك الغلام المسمى سليمة فشرع فى فعل ما كان يفعل مع البنات من الخطف والنهب والضرب وكلهن خائفات منه هائبات له فعجب السلطان بايزيد وصار يتأمله جدا ويفكر فى أمره وفى أثناء ذلك دار بينهن يعسوب كبير وأردن أن يمسكنه فعجزن وهو يلسع من يريد امساكه فهربن منه فهابوه فقام الغلام المسمى سليمة بيده اليه وهو طائر فامسكه وعرسه وعقصه ورماه من يده فازداد تعجب السلطان بايزيد منه وقال للنساء الواقفات هذا لا يكون أنثى اكشفوا الى عنه فبادرت القابلة وقالت نعم هذا صبي وليس ببنت فقال لها كيف خالفت أمرى وما قتلتيه فقالت خفت من الله رب العالمين وخلصت ذمتك وذمتي من قتل معصوم ولا ذنب له فتفكر طويلا ثم قال ما قدره الله فهو كائن لا مفر عنه وأمر بتربيته وأن يلبسوه لباس الذكور وسماه سليما الى أن كان من أمره ما كان والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون والله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدرا ولما أراد الله ابراز ما أراده وقدره من الازل من ذهاب ملك السلطان بايزيد على يد ولده سليم أنشأ سبحانه وتعالى أسباب الحرب والقتال بينهما بايجاد أسباب لا يحكم العقل فيها بانها ينشأ عنها الحرب والقتال وذلك أن السلطان بايزيد شاخ وكبر سنه وتعطلت رجله عن الحركة بعلة النقرس فأراد النزول عن الملك لولده أحمد وكان أكبر أولاده وأحبهم اليه وقد جعله قبل ذلك أمير أماسية ثم جمع الوزراء وأعيان الدولة وعهد اليهم بأن ولده أحمد ولى عهده فاغتاظ سليم من ذلك وعزم على الخروج على أبيه وعلى خلع

طاعته وقتاله وكان قدولاه أبوه أدرنة فجمع العساكر وتوجه بهم الى القسطنطينية مظهراً أنه يريد زيارة أبيه وتقبيل يده وأنه راض بما يصنعه أبوه من جعل أخيه أحمد ولى العهد وأنه ليس له غرض فى الملك واطلع أبوه بقرائن الأحوال على مراد ولده سليم وانه انما يريد السلطنة والملك فنهض السلطان بايزيد من القسطنطينية بعساكره وخرج مستقبلا ولده المذكور فلاقاه بين القسطنطينية وادرنه والتقى الجيشان ووقع القتال بينهما بقرب أدرنه وجرى بينهما حرب شديد ثم انجلى الأمر عن هزيمة سليم وانتصار أبيه عليه وأراد العسكر أن يطردوا خلف سليم ليقبضوا عليه فنعهم أبوه السلطان بايزيد وقال اتركوه لعله ينصلح وتوجه سليم هاربا وركب البحر وقصد بلاد كفة فبينما هو فيه اذ بعث السلطان بايزيد الى ولده أحمد يدعوه الى أن يقلده الملك وينزل له عن السلطنة حالا فامتنع وقال لا يمكن أن يقبل ذلك فى حياة والده تعظيما لوالده وقال أيضا انه يخاف من عسكر الانكشارية لان هواهم ورغبتهم فى سليم فلما علم أبوه انه ليس لابنه أحمد نصيب فى الملك وان الملك لله يؤتيه من يشاء وخاف على الملك أن يتغلب عليه أجنبى أرسل الى ولده سليم يدعوه لينزل عن الملك ويسلمه له فقدم سليم بالرأى الحازم والسيف الصارم حتى قرب من القسطنطينية فأمر السلطان بايزيد العساكر ووجوه الامراء والوزراء فاستقبلوه وهنوه بالملك ولما دخل على أبيه قبل يده فدعا له بخير وسلمه الملك وأوصاه باشياء تليق بالسلطنة ثم أمر من يومه بتجهيز أسباب السفر لابيه للاقامة بمدينة ديمتوقه وقال السيفان لا يجتمعان فى قراب واحد فلما كان السلطان بايزيد ببعض الطريق رام أن يتوضأ لصلاة الظهر فوضعوا له فى السم الماء فلما توضأ تساقط شعر لحيته فاحس بذلك فقال ردونى فردوه فتوفى قبل أن يصل الى القسطنطينية ثم حمل اليها ودفن بها أمام مدرسته التى أنشأها بالمدينة المذكورة وكان مدة ملكه احدى وثلاثين سنة الا أياما الان وفاته سنة ثمان عشرة وتسعمائة وولايته كانت سنة سبع وثمانين وثمانمائة وعمره اثنتان وستون سنة لأن مولده

سنة ست وخمسين وثمانمائة وله رحمه الله مناقب كثيرة تقدم بعض منها * ومن مناقبه انه كان يجمع في كل منزل حل فيه من غزواته ما على ثيابه من الغبار ويحفظ فلما دنا أجله أمر بذلك الغبار فضرب منه لبنة صغيرة وأمر بأن توضع معه في القبر تحت خده الايمن ففعلوا ذلك فكأنه أراد بذلك فحوى قوله صلى الله عليه وسلم من اغبرت قدماه في سبيل الله حرم الله عليه النار ولما توفي السلطان بايزيد المذكور واستقر ابنه (سليم على تخت الملك) نازعه في ذلك أخوه أحمد وقصد كل منهما الآخر سنة تسع عشرة وتسعمائة بجيش عظيم فتقاتلا أمام مدينة بني شهر فانتصر السلطان سليم وأمر باخيه أحمد فخنق وكان اسماعيل شاه سلطان العجم المتقدم ذكر ترجمته يتعصب للسلطان أحمد ويحامي له فلما اخنق أحمد هرب بعض أولاده والتجؤا الى السلطان الغوري وبعضهم الى اسماعيل شاه فأرسل السلطان سليم يطلب منه أن يبعثهم اليه فامتنع فكان ذلك من أسباب قيام الحرب والقتال بين السلطان سليم واسماعيل شاه مع ما تقدم من انتشار ظلم اسماعيل شاه وسفكه الدماء واهلاكه الحرث والنسل وكان للسلطان بايزيد أيضاً أولاد غير أحمد نازعوا سليما وقاتلوه فانتصر عليهم ولا حاجة بنا الى ذكر ذلك

﴿ ذكر الحرب بين السلطان سليم واسماعيل شاه سلطان العجم ﴾

ذكر كثير من المؤرخين أن السلطان سليما كان سلطانا قاهراً قوي البطش عظيم القتل كثير الفحص عن أخبار الناس شديد التوجه الى أهل النجدة والبأس عظيم التجسس عن أخبار الممالك عارفاً بمسالك الطرق والمهالك يغير زيه ولباسه ويتجسس في الليل والنهار ويطلع على الاخبار ويستكشف الاسرار وله عدة مصاحبين يدورون تحت القلعة وفي الاسواق والجمعيات والمحافل ومهما سمعوا به ذكروه له في مجلس المصاحبة فيعمل بمقتضى ما يسمعه بعد الوثوق منهم ولما استقر له الملك بعد قتال اخوته وانتصاره عليهم شرع في قهر الملوك والاستيلاء على الاقاليم والممالك وبدأ بقتال شاه اسماعيل بن حيدر الصفوي وكان ذلك سنة عشرين وتسعمائة وكان السبب في قتاله ان بعض أولاد أخي السلطان سليم التجأ

الى اسماعيل شاه فأرسل يطلبه منه فامتنع مع ما انضم الى ذلك من بغى اسماعيل شاه وطغيانه وافساده فى الارض حتى أهلك الحرث والنسل كما تقدم بيان ذلك فى ترجمة اسماعيل شاه فتوجه السلطان سليم من مقر سلطنته بعسكر كثيف وسار نحو الشرق لقتال اسماعيل المذكور فالتقيا فى مكان يقال له جالدران وكان جيش السلطان مائة وأربعين ألفا فى أول خروجه من مقر سلطنته ثم أردفها باربعين ألفا ولما التقى الجيشان اشتد القتال بينهما ثم انهزم عسكر العجم هزيمة قبيحة واستولى عسكر السلطان سليم على خزائنهم وأموالهم وأكثروا القتل فيهم ولم ينج منهم الا القليل وفر اسماعيل شاه وتحصن بشوامخ الجبال واستولى السلطان سليم على خزائنه وأمواله وخيمه ونسائه ومنع العسكر من المسير خلف المهزمين ودخل السلطان سليم مدينة تبريز وهى كرسى مملكة العجم وصلى فيها الجمعة وخطب باسمه وكان مراده أن يطيل الاقامة ببلاد العجم ليفتح جميع بلادهم ويدخلها فى ملكه ويرتبها لكن اشتد عليه الغلاء لان السلطان الغورى قطع الميرة عن السلطان سليم ومنع السائرين بها اليه لانه كان بينه وبين اسماعيل شاه صداقة ومحبة ومكاتبة حتى ان بعضهم اتهم السلطان الغورى بانه يعتقد مذهب الرافضة وكان من أسباب الغلاء على جيش السلطان سليم ان اسماعيل شاه كان تحت يده كثير من الغلال والذخائر فلما تحقق الهزيمة عليه أمر بحرقها فأحرقت قال القطبى وكان من أمر اشتداد الغلاء ان العليقة بيعت بمائتى درهم وبيع الرغيف بمائة درهم قال العلامة القطبى وقد أدركت جماعة ممن كانوا مصاحبين لمولانا السلطان سليم وكانوا يكثرون مجالسته وسمعت منهم حسن مصاحبة السلطان سليم معهم ولطف معاشرته لهم وشدة تيقظه وذوقه وفهمه وتحفظه مع كثرة مطالعته للتواريخ وتفرسه فى اللغة الفارسية وحسن نظمه بالفارسية والرومية بحيث فاق فيه فصحاء الطائفتين ثم قال العلامة القطبى ورأيت بيتين بالعربى بخطه الشريف كتبهما فى علو المقياس فى الكشك الذى أمر ببنائه لما افتتح مصر وسكن الروضة والبستان هما هذان

الملك لله من يظفر بنيل منى * يردده قسرا و يضمن بعده الدرك
لو كان لى أولغيرى قدر أنملة * فوق التراب لكان الأمر مشترك

وتحتهما ماصورته وكتبه سليم قال العلامة القطبي ولعمرى ان كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما غاية فى البراعة ونهاية فى التمكن من الصناعة فيدل على تمكنه رحمه الله فى اللسان العربى أيضا لانهما من أعلى طبقات الشعر العربى الفصيح البليغ المنسجم وان كان قد تمثل بهما وهما لغيره فهذه رتبة عالية فى حسن التمثل ولطف الاستحضار وفهم الاشعار العربية وذوقه بها وهذا القدر يستعظم و يستكثر على عظماء العجم المكبين على العلوم العربية فضلا عن سلاطينهم المشغولين بضبط الممالك وقصها ولما فرغ السلطان من قتال اسماعيل شاه وتغلبه عليهم الغلاء رجع الى الروم وشتى فى مدينة اماسية ولما دخل الربيع رجع الى بلاد الشرق وافتتح قلعة كماخ وهى من أمنع الحصون ثم افتتح مدينة بيبورد وأرسل وزيره فرهاد باشا بعسكر كثير الى قتال ملك مرعش البستان فانتصر فرهاد باشا واستولى على تلك البلاد وفى هذه السنة أحب أهل آمد أن يدخلوا فى طاعة السلطان سليم فأخرجوا اليهم الذى كان من قبل سلطان العجم وأغلقوا أبواب المدينة وأرسلوا يطلبون أميرا من السلطان سليم فعين لهم بيقلو محمد بيك الآمدى فوصل الى تلك البلاد ثم حاصر مدينة ماردين مدة أربعين يوما وافتتحها ثم افتتح بلاد الموصل وجانة وحديثة وهيت وسنجار وحصن كيفا وجشرك وحصن سورك وسائر بلاد الاكراد وعامة جزيرة الاكراد فدخلت هذه البلاد كلها فى طاعة السلطان سليم ولم تكن قبل من الممالك العثمانية بل كان بعضها عند العجم وبعضها عند ملوك من غير العجم تغلبوا عليها

﴿ ذكر محاربة السلطان سليم للسلطان الغورى ﴾

وفى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة قصد السلطان سليم محاربة السلطان الغورى صاحب مصر والشام وحلب لانه كان متواطئا مع سلطان العجم على محاربة السلطان سليم وقد تقدم أنه قطع الميرة عنه فخرج من القسطنطينية بجيش مقداره

مائة وخمسون ألفا وخرج الغورى من مصر بجيش كثيف لمحاربته والتقى الجيشان فى مرج دابق بقرب حلب واقتتل العسكران فانهزم جيش مصر وقتل الغورى فى المعركة ودخل السلطان سليم مدينة حلب واستقبله أهلها بعلمائهم وصلحائهم حاملين المصاحف على رؤوسهم يستقبلون السلطان سليما ويهنونه بالفتح ويسألونه الرفق والصفح فقابلهم بالجميل ودخل مدينة حلب وخطب له فيها وكان الخطباء يقولون فى أوصاف سلاطين مصر خادم الحرمين الشريفين فلما خطب الخطيب بحلب قال فى وصف السلطان سليم خادم الحرمين الشريفين ففرح بذلك واستبشر مولانا السلطان سليم وعلم أن الله تعالى ينصره على الغورى حتى تكون خدمة الحرمين الشريفين له وخلع على الخطيب حلته التى كانت عليه وكانت تساوى خمسين ألف غرش ثم سار الى الشام فاستقبله أهلها بالاكرام والاحترام وسألوا منه اللطف والانعام فعاملهم بالجميل وصلى عندهم الجمعة وخطب باسمه ومكث بالشام ثلاثة أشهر ونصفا ثم سار يريد البلاد المصرية وافتتح فى مسيره مدينة بيت المقدس ثم سار وفتح مدينة غزة وطبرية وصفد والمجون والرملة ووصل الى مصر فى الثالث عشر من المحرم سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وكان قد تسلطن بمصر بعد مقتل الغورى السلطان الاشرف طومان باى قيل ان الغورى خاله وكان معه أربعون ألفا من الجراكسة فخرج لقتال السلطان سليم ليمنعه من دخول مصر فوقع القتال بين العسكرين فانهزم طومان باى وعسكره وقتل منهم خلق عظيم ثم قبض عليه وبعد عشرة أيام صلبه السلطان سليم فى باب زويلة وأقام السلطان بمصر نائبا عنه خير الدين بك الجركسى وخرج السلطان سليم من مصر فى شعبان من السنة المذكورة وقدم الى دمشق وعين لامارتها مع أعمالها الامير جان بردى فاستولى على مدينة ملطية ودبوركى ودارنده وبهسنى وكركر وكاختة البيره وعنتاب وانطاكية وقلعة الروم وأطاعته قبائل العرب المجاورون للشام ومصر ولما رجع السلطان سليم الى القسطنطينية أخذ فى تكثير المهمات والاستعداد لحروب وغزوات جديدة فطلع

له دمل فى جنبه ولم يزل يتعاظم هذا الدمل حتى اتسع وصار جرحا عظيما واتسع الخرق على الراقع وتعطل السلطان عن الحركة وعجزت حذاق الاطباء فى علاجه وكانت توضع الدجاجة فى جرحه فتذوب واستطال به ذلك المرض الى أن توفى سنة سبع وعشرين وتسعمائة تاسع شوال وعمره أربع وخمسون سنة ومدة ملكه تسعة أعوام وثمانية أشهر

﴿ فائدتان استطرا ديتان لهما تعلق بالفتوحات المذكورة هنا ﴾

(الاولى) ذكر كثير من المؤرخين أن العلامة ابن كمال باشا استخرج من القرآن العزيز الاشارة الى الدولة العثمانية وانتصار السلطان سليم وظهور أمره من بعد سنة تسعمائة وعشرين وأن الدولة العثمانية من عباد الله الصالحين وأن السلطان سليما منهم فقال ابن كمال باشا ان ذلك كله يستخرج بطريق الرمز والايماء والاشارة من قوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون * وبيان ذلك أن قوله ولقد اذا حسب على قاعدة الحساب بحروف أبجد يخرج عدده مائة وأربعين ويقابله لفظ سليم فان حساب عدد حروفه يبلغ مائة وأربعين وقوله من بعد الذكر اشارة الى أن ذلك بعد تسعمائة وعشرين لأنه عدد حروف ذكر بعد اسقاط أداة التعريف على قاعدتهم فى ذلك فتكون الاشارة فى ذلك سليم بعد تسعمائة وعشرين مكتوب فى الزبور أنه يرث الارض وأنه من عباد الله الصالحين قيل ان السلطان سليما لما أخبروه بهذا الاستخراج فرح واستبشر وكان ذلك من أقوى الاسباب لخروجه لقتال الغورى وقد حقق الله له النصر فظهر بذلك صحة هذا الاستخراج ولله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز أسرار كثيرة وله فى كل شئ حكمة والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار كتابه وبغيرها

﴿ الفائدة الثانية ﴾

ان مولانا السلطان سليما لما استقر بمصر وتم له تملك الديار المصرية كما تم له تملك الديار الشامية اشتاقت نفسه الى تملك الاقطار الحجازية ليقوم بخدمة الحرمين الشريفين فأراد أن يجهز جيشا ويسيره الى الحجاز وينتزعه من عمال

السلطان الغوری وكان أمير مكة فی ذلك الوقت الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان وقد كان فی سنة ثمان عشرة وتسعمائة أرسل ولده الشريف أبانمی الى مصر لمقابلة السلطان الغوری فأكرمه وأشركه مع أبيه فی امارة مكة وكان عمر أبی نمی فی ذلك الوقت ثمان سنين وكان السلطان الغوری حبس بمصر جماعة من أعيان أهل مكة منهم العلامة القاضی صلاح الدين بن أبی السعود بن ظهيرة وكان سبب حبسه مع من معه ان الغوری طلب منهم مالا مصادرة وظلما بلغه عشرة آلاف دينار فعجزوا عن تحصيله فأمر بحملهم الى مصر واعتقلهم فی الحبس فلما قتل الغوری وتسلطن طومان بيك أطلقهم وقيل انما أطلقهم السلطان سليم فلما عزم السلطان سليم على تجهيز جيش الى الحجاز اجتمع القاضی صلاح الدين بن ظهيرة بوزير مولانا السلطان سليم وقال له لا حاجة الى تجهيز جيش فان الشريف بركات يكفيكم هذا الامر ويحصل لمولانا السلطان المطلوب وعرفه عظمة الشريف بركات ومنزلته من الشرف والعلم وأنه أول من يطيع مولانا السلطان ويأخذ البيعة له من أهل الحرمين والاقطار الحجازية ويكفی بدلا عن الجيش أن تبعثوا له توقيعا شريفا من مولانا السلطان فعرض الوزير ذلك على مولانا السلطان سليم فاستحسنه وأمر بكتابة التوقيع الشريف للشريف بركات وأن يكون ولده أبونمی مشاركا له كما كان فی مدة السلطان الغوری وكتب القاضی صلاح الدين للشريف بركات الاخبار بذلك ووجه مولانا السلطان ذلك التوقيع الشريف ومعه خلعتان عظيمتان واحدة للشريف بركات والأخرى لولده الشريف أبی نمی وجعل ذلك صحبة الامير مصلح بيك وبعث معه محملا وكان ذلك على اقبال شهر الحج فلما قدم الامير مصلح مع المحمل ومعه الخلعتان والتوقيع الشريف وخلعة للكعبة المعظمة خرج لمقابلته الى الزاهر الشريف بركات وولده أبونمی وكثير من الاشراف وغيرهم فی موكب عظيم ولبس الشريف وولده الخلعتين ودخلوا مكة وأخذوا البيعة لمولانا السلطان سليم ودعوا له فی الخطبة وحصلت طاعة الناس وانقيادهم بالرضا والقبول ثم

أرسل الشريف ولده الشريف أبا نمي سنة ثلاث وعشرين الى مصر لمقابلة مولانا السلطان سليم فقابله وأكرمه وأبقاه على مشاركة أبيه بركات ثم توفي بركات سنة احدى وثلاثين وتسعمائة واستقل ولده أبو نمي بالامارة وجاءه التأييد من مولانا السلطان سليم واستمر الشريف أبو نمي مستقلا بامارة مكة الى أن توفي سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة وعمره ثمانون سنة لأن ولادته كانت سنة احدى عشرة وتسعمائة وكانت مدة ولايته امارة مكة مشاركة لابيه واستقلالا ثلاثا وسبعين سنة ولم يعهد ذلك لغيره من أمراء مكة الذين قبله والذين جاؤا بعده وهو جد سادتنا أشراف مكة ولما ورد الامير مصلح بيك الى مكة صحبة المحمل والتوقيع والخلعتين وكسوة الكعبة أقام بعد الحج بمكة بأمر من مولانا السلطان سليم وأجرى بها خيرات كثيرة يرجع ثوابها اليه منها أنه قرر لمولانا الشريف صاحب مكة خمسمائة دينار زيادة على ما كان له من سلاطين مصر قبل ذلك وكتب دفترا قرر فيه أسماء جماعة من المجاورين ورتب لكل شخص منهم مائة دينار تؤخذ من خزينة مصر وقرر ثلاثين نفرا يقرؤن كل يوم ختمة وعين لكل واحد اثنى عشر دينارا وقسم الامير مصلح أيضا الذخيرة وهي صدقة كانت تخرج من خزينة مصر تخرجها سلاطين مصر للعربان أصحاب الأدراك وفقراء أهل مكة فأبقاها السلطان سليم ورتب مولانا السلطان سليم سبعة آلاف أردب حب لاهل الحرمين الشريفين منها خمسة آلاف لأهل مكة وألفان لأهل المدينة وجاء الأمر للأمير مصلح بيك أن يوزع ذلك فجلس في الحرم الشريف وطلب حضور المفاتي وبقية العلماء والاعيان وقرأ عليهم المرسوم السلطاني واستشارهم في توزيع ذلك فقالوا له لابد من عرض ذلك على شريف مكة مولانا الشريف بركات فكتبوا صورة الامر السلطاني وأرسلوه الى مولانا الشريف واستدعوا رأيه العالي في ذلك فكتب اليهم الجواب يأمرهم بالمبادرة الى امتثال الامر الشريف السلطاني وأن يوزع ذلك على المستحقين بحسب الآراء من أعيان المجلس فاجتمعوا ثانيا بعد وصول الجواب من مولانا الشريف واتفق رأيهم على بيع شئ من ذلك القمح ليصرف

فى نقله من جدة الى مكة وبأن يكتب أسماء الناس على العموم ويصرف لكل واحد ما يخصه فكتبوا بيوت كل محلة وما فى كل بيت من عدد الانفار رجالا ونساء وأطفالا وخدما ماعدا التجار والسوقة والعسكر فبلغ عدد الانفار الذين كتبوهم اثنا عشر ألفا فخص كل نفر ست رباعى بكيل الربع الكبير الذى هو أربع كيل عن أربع وعشرين قدحا بالكيل المصرى ودفعوا لكل نفر دينارا من قيمة القمح الذى باعوه لاجل نقله من جدة الى مكة وجعلوا لكل واحد من الفقاى الاربعة ثلاثة أرادب وزيد فى أسماء بعض البيوت بحسب الاعتناء بشأن كبير البيت قال العلامة القطبى وهذه الصدقة أول صدقات الحب الشريف السلطانى ثم قال فيجب على كافة المسلمين عموما وعلى أهل الحرمين الشريفين خصوصا الدعاء بدوام سلطنة آل عثمان خلد الله سلطنتهم مدى الزمان فان دولتهم الشريفة عماد الاسلام واحسانهم مازال متواصلا الى كافة الانام سيما جيران بيت الله الحرام وجيران نبيه الأطهر عليه أفضل الصلاة والسلام فانهم فازوا بالانعامات الوافرة فى أيام هذه الدولة الزاهرة وحازوا من الصدقات المتكاثرة فى نوبة هذه السلطنة القاهرة مالم يتصوروه من الدول الماضية الغابرة فالله تعالى يديم سلطانهم كما أدام علينا احسانهم اﻫ كلام القطبى وقال العلامة ابن علان ان السلطان سليما كان كثير المحبة لاهل الحرمين من قبل أن يأخذ مصر وهو أول من بعث اليهم صدقة الحب انتهى ثم ان السبعة الآلاف الارادب المذكورة لم يزل أبناؤه من السلاطين يزيدون فيها حتى صار لأهل مكة اثنا عشر ألف أردب ولاهل المدينة سبعة آلاف أردب فالله تعالى يديم العز والبقاء لهذه السلطنة العثمانية السنية ويوفق كل قائم منهم بها لكل خصلة جيدة مرضية ومما فعله الأمير مصلح بيك من الخيرات لمولانا السلطان سليم أنه جدد بناء مقام الحنفى بمكة فانه وسعه وجعله قبة بعد أن كان مسقفا على أربعة أعمدة فى صدره محراب وكان صنعة التسقيف المذكور سنة ثمانمائة وثنتين فى مدة سلطنة السلطان فرج بن برقوق واستمر كذلك الى أن جعله الأمير مصلح قبة سنة تسعمائة وثلاث وعشرين واستمر

على ذلك خمسا وعشرين سنة ثم هدمت القبة وبنى المقام مربعا وجعلت الطبقة
العليا للمكبرين وموضع هذا المقام كان فى الجاهلية موضع دار تجتمع فيها قريش
للمشورة ويسمونها دار الندوة ثم اشتراها معاوية رضى الله عنه فى زمن خلافته
وصارت ينزلها الخلفاء اذا قدموا للحج ويخرجون منها الى المسجد للصلاة
والطواف ثم خربت وتهدمت وعمرت فى خلافة المعتضد سنة مائتين وثمانين
وأدخلت فى المسجد وفتحت جوانبها الى المسجد وجعلت سقوفها على أساطين ثم
غير هذا البناء وأعيد على وضع أحسن منه سنة ثلاثمائة وست ثم سنة ثمانمائة وثنتين
الى أن كانت عمارة الامير مصلح ثم غيرت عمارته بعد خمس وعشرين سنة وسيأتى
ذكر ما يكون بعد ذلك وقد كانت مذاهب الأئمة الأربعة عليها العمل والاعتماد
فى الحرمين وغيرهما من أول ظهور الأئمة الأربعة الى ما بعدهم وقد كان الأئمة
المجتهدون كثيرين ولكن لم يقدر الله بقاء مذاهبهم وانما بقيت مذاهب الأئمة
الأربعة وتحررت وتواردت عليها أنظار العلماء حتى ان أهل السنة والجماعة أوجبوا
تقليد مذهب منها لمن لم يكن فيه أهلية الاجتهاد وحرموا الخروج عنها نقل العلامة
السنجارى عن التقى الفاسى أن صلاة هذه الأئمة على هذه الصفة قديمة لكن قال
لا أعلم فى أى وقت كانت ثم نقل ما يدل على أن الحنفى والمالكى كانا موجودين
مع الشافعى سنة أربعمائة وسبع وتسعين وان الحنبلى لم يكن موجودا وانما كان
امام الزيدية ثم قال ووجدت ما يدل على أن الحنبلى كان موجودا فى عشر الاربعين
وخمسمائة وفى البحر العميق وكان عمل هذه المقامات على هذه الصفة سنة سبع
وثمانمائة وأما كيفية الصلاة فى هذه المقامات فانهم يصلون مرتبين الشافعى ثم
الحنفى ثم المالكى ثم الحنبلى وكلام ابن جبير يقتضى أن المالكى كان يصلى قبل
الحنفى ثم تقدم عليه الحنفى من بعد سنة تسعين وسبعمائة واضطرب كلام ابن جبير
فى الحنفى والحنبلى لانه ذكر ما يقتضى أن كلا منهما يصلى قبل الآخر وهذا كله فى
غير صلاة المغرب أما فيها فانهم يصلون جميعا فى وقت واحد ثم بطل ذلك كله فى
موسم سنة احدى عشرة وثمانمائة بأمر الملك الناصر بن برقوق وصار الشافعى

يصلي بالناس المغرب وحده واستمر ذلك الى أن ورد أمر من الملك المؤيد صاحب مصر بأن يصلي المغرب الائمة الثلاثة فى وقت واحد كما كانوا يصلون قبل ذلك ففعلوا ذلك وأول وقت فعل فيه ذلك ليلة السادس من ذى الحجة سنة عشر وثمانمائة انتهى (والحاصل) أن الامر كان مختلفا فى تقدم بعضهم وتأخر بعضهم واستقر الامر فى عصرنا هذا بعد خروج الوهابى من مكة وجريان أحكام الدولة العلية بالحجاز من سنة ألف ومائتين وثمان وعشرين أن الشافعى يصلي فى الصبح أولا ثم المالكى ثم الحنبلى ثم الحنفى وأما بقية الاوقات فيصلي أولا الحنفى ثم الشافعى ثم المالكى لكن لا يصلي فى المغرب إلا الحنفى ثم الشافعى فقط وكان الحنبلى لا يصلي فى مقامه إلا الصبح فقط * وفى سنة احدى وثلاثمائة وألف صدر الامر من سيدنا الشريف عون الرفيق ابن المرحوم سيدنا الشريف محمد بن عون ومن والى ولاية الحجاز السيد عثمان نورى باشا بأن الحنبلى يصلي أيضا بقية الصلوات غير المغرب وتكون صلاته بعد أن يصلي المالكى واستحسن الناس ذلك لان مكة قد كثر فيها الخلق المجاورون بها فصار كثير من الناس لا يدركون صلاة الائمة الثلاثة فيصلون جماعة متفرقة فلما صار الحنبلى يصلي أيضا صاروا يصلون معه ومما يدل على أن الناس قد كثروا بمكة وزادوا عما كانوا عليه قبل ذلك ما ذكره العلامة القطبى فى تاريخه حيث ذكر ان عمارة مكة زادت وكثر الناس فيها بوجود دولة الدولة العثمانية خلد الله ملكهم الى أن قال وكنت أشاهد فى سن الصبا خلو الحرم الشريف وخلو المطاف من الطائفين حتى انى أدركت الطواف وحدى من غير أن يكون معى أحد مرارا كثيرة كنت أترصده خليا لكثرة ثوابه بان يكون الشخص الواحد يقوم بتلك العبادة وحده فى جميع الدنيا وهذا لا يكون الا بالنسبة الى الانسان فقط وأما الملائكة فلا يخلو عنهم المطاف الشريف بل يمكن أن لا يخلو عن أولياء الله تعالى ممن لا تظهر صورته ويطوف خافيا عن أعين الناس ولكن لما كان ذلك خلاف الظاهر صار يتنافس على هذه العبادة كثير من الصلحاء لانه ليس معنا عبادة يمكن أن ينفرد بها رجل واحد فى جميع الدنيا ولا

يشاركه غيره فى تلك العبادة بعينها الا الطواف فانه يمكن أن ينفرد به شخص
واحد بحسب الظاهر والله أعلم بالسرائر حتى حكى لى والدى رحمه الله أن وليا
من أولياء الله تعالى رصد الطواف الشريف أربعين عاما ليلا ونهارا ليفوز
بالطواف وحده فرأى بعد هذه المدة خلو المطاف الشريف فتقدم يشرع واذا
بحية تشاركه فى ذلك الطواف فقال لها من أنت من خلق الله تعالى فقالت له انى
من الجن وانى أرصد ما رصدته قبلك بمائتى عام فقال لها حيث كنت أنت من غير
البشر فانى فزت بالانفراد بهذه العبادة من بين البشر وأتم طوافه قال وحكى لى
شيخ معمر من أهل مكة أنه شاهد الظباء تنزل من جبل أبى قبيس الى الصفا وتدخل
من باب الصفا الى المسجد ثم تعود لخلو المسجد من الناس وهو صدوق عندى وكنا
نرى سوق المسعى وقت الضحى خاليا عن الباعة وكنا نرى القوافل تأتى بالحنطة
من بجيلة فلا يجد أهلها من يشترى منهم جميع ما جاؤا به فكانوا يبيعون ما جاؤا به
بالاجل اضطرارا ليعودوا بعد ذلك ويأخذوا أثمان ما باعوه وكانت الاسعار
رخيصة جدا لقلة الناس وعزة الدراهم وأما الآن فالناس كثيرون والرزق واسع
والخير كثير والخلق مطمئنون آمنون فى ظلال السلطنة الشريفة خائضون فى
بحر انعامها واحسانها ونعمتها الوريفة أدام الله هذه السلطنة الزاهرة وخلد
دولتها القاهرة وخلافتها الباهرة وأما بناء المقامات فى المسجد الحرام فأما مقام
الحنفى فقد علمت بناءه مما سبق وأما الشافعى فيصلى فى مقام ابراهيم عليه الصلاة
والسلام وأما مقام المالكى والحنبلى ففى البحر العميق كان عمل هذه المقامات على
هذه الصفة سنة سبع وثمانمائة وفى تاريخ القطبى بعد أن ذكر عمارة الحريق الواقع
فى زمن سلطنة السلطان فرج بن برقوق ذكر ان فراغ العمارة كان سنة سبع
وثمانمائة فى مدة امارة مكة للشريف حسن بن عجلان وأنهم فى تلك العمارة عمروا
ما فى صحن المسجد من المقامات الاربعة التى وضعت للمذاهب الاربعة على الهيئة
القديمة اه ومقتضى قوله على الهيئة القديمة أنها كانت موجودة قبل هذا
التعمير ولم أقف على كتاب فيه ذكر هذا البناء السابق ولا على فعله ولا على تاريخ

فعله وعبارة البحر العميق تقتضي أن التعمير الواقع سنة سبع وثمانمائة هو أول احداث مقام المالكي والحنبلي حيث قال كان عمل هذه المقامات على هذه الصفة سنة سبع وثمانمائة ومقام المالكي بين الركن اليماني والركن الغربي ومقام الحنبلي على حذاء الركن الذي فيه الحجر الاسود وفي سنة ١٣٠٠ قال كثير من الناس ان المقام المذكور منحرف وبسبب انحرافه يحصل انحراف لصفوفه فيكون سببا لعدم تحقق استقبال القبلة لبعض الصفوف وسببا لانحراف صف الشافعي الاول الذي خلف مقام ابراهيم عليه السلام فان الصف الاول المذكور عند محاذاته مقام الحنبلي يحصل فيه انحراف وعدم استقامة فلو جعل مقام الحنبلي متوسطا بين الركن اليماني والركن الذي فيه الحجر الاسود بوضع ليس فيه انحراف لكان أولى ورفع الأمر الى أمير مكة سيدنا الشريف عون باشا ووالي ولاية الحجاز دولتلو السيد عثمان نوري باشا ثم وقع الاشراف على ذلك بحضورهما وحضور جمع من العلماء والمهندسين فاتفق الجميع على استحسان جعله متوسطا فأنهى الأمر الى باب السلطنة السنية وجاء الاذن بذلك من مولانا السلطان عبد الحميد الثاني فهدم المقام المذكور سنة ١٣٠٠ وجعل متوسطا كما هو موجود الآن فجاء في غاية الحسن هذا وقد طال الكلام الاستطرادي لارتباط تناسب الكلام مع بعضه تكثيرا للفوائد فلنرجع الى اتمام الكلام الاول فنقول ان الامير مصلح بيك لما أتم ما كان مأمورا باجرائه بمكة من الخيرات توجه الى المدينة المنورة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام وقسم الصدقات التي لاهل المدينة المنورة وأجرى كثيرا من الخيرات ثم توجه الى دار السلطنة السنية

﴿ ذكر ولاية مولانا السلطان سليمان ﴾

ولما توفي السلطان سليم كان ولده السلطان سليمان ولي عهده وكان غائبا في سروخان والياعليها فأخفى الوزراء موت السلطان سليم الى أن حضر ولده السلطان سليمان فأجلسوه على تخت السلطنة ثم أظهروا موت السلطان سليم وكان جلوسه على تخت السلطنة من غير مخالف ولا منازع وكان محبا للجهاد

ولنصرة دين الله ومرغما أنوف أعدائه بلسان سيفه ولسان قناه وكان مؤ
في حروبه ومغازيه مشهودا في وقائعه ومراميه أيان سلك ملك وأين توجه فتح
وأين سافر سفر وسفك وصلت سراياه وجيوشه أقصى الشرق والغرب وا
البلدان الشاسعة الواسعة بالقهر والحرب وأخذ الكفار والملاحدة بقوة الطع
والضرب وأيد الدين الحنيفي بحدود سيفه الباتر وأقام الملة الحنيفية وأحيا
من ما ثر ونصر مذهب السنة السنية وأظهر شعائر الشرائع ودفع أهل الاخ
وقمعهم فالهم من ناصر وكان رحمه الله سلطانا رفيع القدر حسن الطبع في الحرب
والسلم موصوفا بالعلم والحلم والحزم قال العلامه القطبي في وصفه وكان مجدد د
هذه الأمة المحمدية في هذا القرن العاشر فقد ورد أن لكل قرن مجددا
ظاهر هذا مع الفضل الباهر والعلم الزاهر والأدب الغض الذي يقصر عن شأ
كل أديب وشاعر وكان يعرف الالسنة الثلاثة العربية والتركية والفار
وينظم نظما بارعا حسنا وكان دائم الفكر في أحوال الرعية والمملكة وله دي
فائق بالتركي وآخر عديم النظير بالفارسي يتدوالهما بلغاء الزمان وكان رؤفا شفو
صادقا صدوقا اذا قال صدق واذا قيل صدق لا يعرف الغل والخداع ويتحاشى ع
سوء الطباع ولا يعرف المكر والنفاق ولا يألف مساوي الاخلاق بل هو صا
الفؤاد صادق الاعتقاد منور الباطن كامل الايمان سليم القلب خالص الجنا
لا يرتاب أحد في كمال ديانته ولا يشك في صلاحه وولايته قال القطبي بعد ما ذكر

وما تناهيت في بثي محاسنه ❊ الا وأكثر مما قلت ما أدع

ولد رحمه الله سنة تسعمائة وجلس على تخت السلطنة سنة ست وعشرين وتسعمائة
في شوال وأطال الله عمره وطول دولته حتى بلغت ثمانية وأربعين سنة وشهورا
وعاش أربعا وسبعين سنة وكان رحمه الله شجاعا كريما حسن الخلق والخلق
فانه كان ذا صورة جميلة ظاهرا وباطنا وهو الذي أسس قواعد الدولة العثمانية
ومهد المهام وسهل الأمور وفتح البلاد ووضع كثيرا من القوانين الموافقة
للشرع النافعة للعباد رحمه الله رحمة واسعة وكان شديد المحبة للغزو والجهاد

للكفار فأكثر الغزوات وفتح الفتوحات

﴿ ذكر أول فتح له وانتصار ﴾

أول فتح لمولانا السلطان سليمان وانتصار انتصاره على والى دمشق لما خلع طاعته عند سماعه بموت أبيه وأراد أن يكون سلطانا وهو الامير جان بردى بيك الغزالى وأصل ذلك ان المرحوم السلطان سليما استخدم من أصحاب الغورى أميرين وهما خير الدين بيك وجان بردى بيك الغزالى وكلاهما من الجراكسة وكان بينهما وبين الغورى عداوة وكان يكرههما وهما يكرهانه فلما كان القتال بين الغورى والسلطان سليم بمرج دابق أمرهما الغورى أن يتقدما لقتال السلطان سليم وجعلهما مع عسكرهما حجابا أمامه ووقف الغورى مع خواص عسكره الذين يعتمد عليهم متأخرين عنهما وأراد بذلك أن يقتلا بالبنادق فى أول القتال فيسلم هو ومن معه فتفطن خير الدين بيك والغزالى لذلك فأرسلا الى السلطان سليم وطلبا منه الأمان فأرسل السلطان سليم لهما الامان وتعهد لهما بما يطيب خاطرهما وأن يوليهما مملكة مصر والشام فقبلا ذلك منه ووافقاه على ذلك قبل القتال فلما تلاقى العسكران فر خير الدين بيك بمن معه من الميمنة وفر الغزالى بمن معه من الميسرة وبقى السلطان الغورى ومن معه فى القلب فهلك من هلك وهرب من هرب وقتل الغورى تحت سنابك الخيل فلما تم الامر للسلطان سليم واستقر له ملك الشام ومصر قرب خير الدين بيك والامير جان بردى وأدناهما ثم ولى الامير جان بردى دمشق والامير خير الدين مصر فعلا شأنهما وانتشر ذكرهما فلما بلغ الامير جان بردى والى دمشق وفاة السلطان سليم خلع الطاعة وأراد أن يتسلطن بدمشق ونواحيها فجمع جموعا وسار الى مدينة حلب ليستولى عليها فحاصرها مدة فلم يقدر عليها وكان نائب حلب اذ ذاك قرجه أحمد باشا فجد فى دفعه واجتهد فرجع جان بردى الى دمشق وزاد فى تحصين القلعة وترميمها فأرسل اليه السلطان سليمان وزيره فرهاد باشا فى عسكر كثير فالتقوا مع عسكر جان بردى فى موضع يقال له المصطبة بأرض القابون وذلك فى صفر سنة سبع وعشرين

وتسعمائة فانهزم جان بردى وعسكره وذهبوا تحت أرجل الخيل ولم يبق
لجنوده أثر وقال القطبي انهم قبضوا عليه وقتلوه وقطعوا رأسه وأرسلو
الباب العالى فدخل فرهاد باشا الشام ورتب أمورها ورجع الى دار الس
فخلع عليه السلطان وزاد فى قدره ورتبته

﴿ ذكر غزوات مولانا السلطان سليمان ﴾

الغزوة الاولى قتال قرال انكروس لارش ويقال لهم المجر كان من سعود
السلطان سليمان أنه فى أول ولايته كان بين دول الافرنج اختلاف واضطر
وفتن كانت بين الفرنسيس واسبانيا وايطاليا فاغتنم السلطان سليمان هـ
الفرصة وزحف بعسكر جرار سنة سبع وعشرين وتسعمائة وكان رحمه
محبا للجهاد فى سبيل الله باذلا نفسه وخزائنه لاعلاء كلمة الله لم ترتفع راية الاس
على رأس أحد من السلاطين العظام أكثر منه جهادا ونصرة للدين فبرز بجيو
بنفسه من القسطنطينية بر الاحدى عشرة ليلة مضت من جمادى الاخرة س
سبع وعشرين وتسعمائة بعسكر جرار وجيش كثير وأمر بتجهيز أساطي
كثيرة بحرا فجعل منها خمسين للمجاهدين وأربعمائة للدواب والانقال وسيرهم
دخلوا فى نهر الطونة فأرسوا بقرب بلغراد وهى مدينة حصينة لها سور منيـ
وقد أحاط بها نهران عظيمان وهما نهر الطونة ونهر منارة * قيل ان السبب فى
الغزوة ان المجر قتلوا المباشر الذى كان عندهم من طرف السلطان لجمع الخر
فكان ذلك سببا لغضب السلطان وجعل السلطان خروجه على طريق ور
ومعه عساكر كثيرة وبعث جيشا حاصر واقلعة بوكر دلوه وهى قلعة حصـ
على شاطئ نهر صاوه فحاصروها حتى ملكوها ثم توجهوا الى بلغراد ثم لحق
السلطان وصاروا جميعا محاصرين بلغراد ولم يزل يشتد الامر ويعظم القتا
حتى فتح الله على المسلمين وقتلوا كثيرا من الكفار وفازوا بغنائم لاتحصى
واستولى السلطان على بلادهم بعد أن أخرب كثيرا منها فلما شاهد الكفار
الفتح العظيم جاؤا اليه بمفاتيح ثمان قلاع منيعة هناك ثم أمر السلطان بتعمير ما تهد

من قلعة بلغراد وعين لها أميرا وقاضيا ورجع الى كرسي سلطنته سالما غانما في شهر ذي القعدة الحرام من سنته

الغزوة الثانية غزوة رودس

وهي جزيرة في وسط البحر مابين القسطنطينية ومصر وبنى الكفار بها حصنا حصينا فكان في غاية الاستحكام مكينا جعلوه لاخذ المسلمين وأتقنوه في غاية الاتقان والتمكين بحيث رسخ أساسه الى تخوم الارضين وارتفع رأسه الى نجوم الشرطين والبطين ينظرون من أعلى القلعة الى السفائن التي تمر في البحر من مسافة بعيدة فيتهيؤن للتحصن ان كان ذلك عسكرا من المسلمين و يأخذونهم ان كانوا من سفار البحر واتخذته النصارى معبدا يجهزون أموالهم اليه لتصرف في استحكام بنائه واتقانه وجعلوا من أعلاه الى أسفله من جميع جوانبه ثقوبا وضعوا فيها المدافع الكبيرة ترمي على من يقصدها من الخارج فتصيب كل من قصدها من جميع الجهات ولها باب من حديد وسلسلة عظيمة في وسط البحر تمنع المراكب من الوصول الى الباب و يهيؤن أغربة مشحونة بالسلاح والمدافع والمقاتلة اذا أحسوا بسفينة في البحر من الحجاج أو التجار أخرجوا اليها تلك الاغربة وأخذوها وغنموا ما فيها من الاموال وأسروا المسلمين فيقطعون الطريق على هذا الاسلوب و يجمعون الاموال و يصرفونها على مقاتلتهم وكان هذا دأبهم وعجزت ملوك المسلمين عن دفع ضررهم وعم أذاهم المسلمين وقد تكرر غزو المسلمين بلاد رودس وتكرر انتقاضهم وقد تقدم بعض ذلك فلما تحقق السلطان سليمان كثرة الاذى الحاصل للمسلمين من أهل رودس تجهز بنفسه لغزوهم وقتالهم وكان سفره الميمون الهاونزوله وخيمه الشريف في اسكدار متوجها الى هذا الغز ولعشر بقين من شهر رجب سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وكان وصوله الى رودس ونزوله عليها في شهر رمضان من السنة المذكورة وكان عدة الجيش الذي جهزه مؤلفا من مائتي ألف مقاتل وسفائن بحرية تبلغ أربعمائة سفينة فاحاطت الجيوش برا وبحرا بجزيرة رودس وحاصروها فأرسل ملكها يستنجد بملك

الفرنسيس وملك أسبانيا فلم يجيباه لما كان بين ملوكهم من الفتن فأرسل البابا صاحب رومة اليهما يحثهما على المدافعة والمحاماة عن تلك الجزيرة لانها من الحصون المانعة للمسيحيين من مصادمة العثمانيين فلم يلتفتا الى كلام البابا وفي رابع رمضان طلع السلطان سليمان على محل رفيع مشرف على حصن رودس فرآه قلعة حصينة كان بانيها ماهرا في الهندسة بحيث انه بنى سور القلعة تحت الارض وعمل لها خندقا عريضا عميقا وجعل للبلد سورين في عرض سبعة أذرع وملأ ما بينهما وهو مقدار عشرة أذرع بالتراب والحجارة ولها من جانب البحر مينا عظيمة مدورة كالحوض ولها باب مخصوص جعلوا عليه سلسلة من حديد ولها بعض بروج تناغي في الرفعة والاحكام سمك السماء وحضر خير الدين بيك صاحب مصر في أربعة وعشرين غرابا أمدادا للمسلمين واستمروا في أمر الحصار يقاتلونهم بالبنادق والمدافع مدة تزيد على ثلاثين يوما وقيل بل ستة أشهر فلم يغنوا شيأ قال العلامة القطبي وما أمكن من في البحر أن يقرب من حصار رودس للخندق العظيم الذي حولها مع صونه بالمدافع العظيمة ولا أمكن أيضا القرب منها للسلسلة الممدودة من الحديد في البحر والرمي على من يقرب بها بالمدافع الكبار فصاروا يصيبون المسلمين بالمدافع ولا يصيبهم مدافع المسلمين لمتانة عرض الحصن وعدم تأثير المدافع فيه فتأخرت عساكر البرقليلا وأمروا بسوق الرمال والتراب أمثال الجبل وتترسوا بها وصاروا يقدمونها قليلا قليلا الى أن وصل التراب في الخندق وامتلأ به وقرب من الجدار وارتفع عليه فصار الكفار تحت المسلمين يصابون ولا يصيبون فطبق الخنادق ونقب الاسوار من تحت الارض ثم انهم ملؤا النقوب بالبارود وأضرموها بالنار فانفتح بسبب ذلك عدة من مواضع يمكن العبور منها الى القلعة فلما شاهد الكفار ذلك طلبوا الامان فأمنهم السلطان ثم رجعوا عن ذلك لانه أتاهم مدد من الكفار في عدة مراكب في الليل فشرع المسلمون في الحرب ثانيا قيل انهم ضربوا على رودس أكثر من مائتين وعشرين ألف مدفع فصارت خرابا حتى اضطر الكفار وطلبوا الامان وأرسل أمير القلعة

خمسين نفرا من كبارهم بالرسالة فقبل السلطان سؤالهم فأمنهم وأذن لهم فى المسير مع جماعة وأمرهم أن يطلقوا أسارى المسلمين الذين كانوا عندهم وكانوا عددا كثيرا مأسورين عندهم من الاشراف والاعيان والعباد من مدة متطاولة فى سلاسل وأغلال فأطلقوهم وخرج صاحب رودس وتبعه أربعة آلاف من أهل رودس فأعطاهم البابا مدينة و يتسر به من بلاد إيطاليا فأقاموا فيها الى أن نقلهم الملك شركان امبراطور اسبانيا الى جزيرة مالطة فنسبوا اليها فكانوا يقال لهم شقالربة مالطة وصارت من ذلك العهد دار اقامتهم الى أن استخلصها منهم بونابارت وهو آت الى مصر سنة ألف ومائتين وثلاث عشرة ثم دخل المسلمون عسكر السلطان سليمان مدينة رودس وأخربوا الكنائس وجعلوها جوامع ثم رتب السلطان أمور رودس وجعل الجزية على من بقى بها وكان فتح رودس لست مضين من شهر صفر الخير سنة تسعمائة وتسع وعشرين وحصل لاهل الاسلام غاية الفرح والسرور بهذا الفتح العظيم وعمل الناس لذلك تواريخ ألطفها (يفرح المؤمنون بنصر الله) ٩٢٩ وفتحت عدة قلاع فى ذلك العام ورجع السلطان الى القسطنطينية كرسى ملكه سالما غانما

﴿ ذكر عصيان أحمد باشا والى مصر وخلعه السلطان وأخذه البيعة من الناس لنفسه ﴾

كان السلطان سليمان له وزير مقرب تربى معه ونشأ فى خدمته وملازمته اسمه ابراهيم باشا وكان لوالده السلطان سليم وزير آخر يسمى أحمد باشا فظن ان وزارة الصدارة لا تتعداه الى غيره لكونه من خواص مماليك السلطان سليم ووزرائه فأعطى السلطان سليمان الصدارة لابراهيم باشا فزاحمه أحمد باشا وصار يخدم السلطنة فى كثير مما يتعلق بالصدارة فشكاه ابراهيم باشا الى السلطان ودبر فى ازالته من ذلك المكان فطلبه السلطان سليمان وجعل له ولاية مصر وأعطاه أقطاعا كثيرة يستجلب بها خاطره فمضى الى مصر والياوصار يتعقبه ابراهيم باشا فى أشياء كثيرة للعداوة السابقة و يرميه عند السلطان بما يوجب قتله فبرز الامر

جماعة من الأمراء المستحفظين بمصر أن يجمعوا عنده ويقتلوه في محله بالأمر
الشريف السلطاني ويتولى أحدهم مكانه الى أن يرد الامر الشريف باقامة من
يختاره السلطان وأرسلت هذه الاحكام الى الأمراء المذكورين فوقعت
الأحكام بيد أحمد باشا قبل أن تصل الى الامراء المذكورين فجمعهم في ديوانه
وذكر لهم ان الامر الشريف السلطاني ورد اليه بقتلهم فأذعنوا للامر
الشريف فقتلهم ثم سولت له نفسه العصيان وظن أنه يأوي الى جبل يعصمه من
السلطان وأنه يقابل ويقاتل بجيش يلفقه من مصر فأبدى الطغيان وادعى
السلطنة لنفسه وأمر الناس أن يبايعوه وأمر أن يخطب باسمه على المنابر في أيام
الجمع ورتب عسكرا بمصر من العواينة وضرب السكة باسمه على الدراهم والدنانير
وصادر الناس وجمع المال الكثير وعصى عليه أهل قلعة الجبل وجمع عليهم
الشطار فأخذوها بالحيل وقتلوا من فيها من عسكر السلطان وأوقد نيران الفتنة
والعصيان وكان ممن حبسه للمصادرة جانم الحمزاوي ومحمود بيك وأراد قتلهما وأ
أخر الله أجلهما فسمعا أنه دخل الحمام فكسرا الحبس وبرزا ونصبا صنجقا
سلطانيا ونادبا من أطاع السلطان فليقف تحت لوائه فاجتمع تحت الصنجق
السلطاني خلق كثير وجم غفير وصار سردارهم محمود بك وجانم الحمزاوي
الوزير وتوجها بالعسكر الى الحمام فكبسا أحمد باشا وقد حلق نصف رأسه وأعجله
النصف الثاني هجوم العسكر السلطاني عليه فهرب الى السطح وتخلص من
مكان الى مكان وخلص الى البر والتجأ الى شيخ من مشايخ العرب بناحية الشرقية
يسمى عبد الدائم وقوي العسكر السلطاني ونهبوا ما جمعه من الاموال بالظلم
والمصادرة وخرجوا اليه يطلبونه وخوفوا عبد الدائم وحذروه من عصيان
السلطنة فأتاهم به فقطعوا رأسه وطافوا بها مصر وعلقوها في باب زويلة ثم
جهزوها الى الاعتاب السلطانية وذلك في سنة تسع وعشرين وتسعمائة وضبط
مصر محمود بيك وجانم الحمزاوي الى أن جاء قاسم باشا من دار السلطنة متوليا
مصر واستمر ابراهيم باشا في وزارته العظمى ثم أرسله السلطان وهو وزير أعظم

الى مصر لاصلاحها فجاء اليها بغاية العظمة والاقبال ونظر فى أحوالها وأموالها وولى على مصر قاسم باشا ورجع ابراهيم باشا الى دار السلطنة فكان مقبولا معظما عند السلطان نافذ الأمر والنهى الى أن أفرط فى الدلال وزاد فى الادلال فاستبد بالامور واستقل بمصالح الجمهور فأنفت الغيرة السلطانية من ازدياد دلاله وما تحملت زيادة عجبه وادلاله وكثر حاسدوه فوشوا به الى السلطان سليمان وقالوا له انه يريد قتل السلطان والجلوس على تخت السلطنة فلما بلغ السلطان سليمان ذلك أراد أن يختبر حقيقة الامر فقال يوما لابراهيم باشا وهما فى مجلس أنس انى أريد أن أجعل السلطنة لك فقال العفو يامولانا السلطان فان العبد لايبلغ مرتبة السيد فقال له السلطان لابد من ذلك فقال ابراهيم باشا يكفى أن يتفضل مولانا السلطان علىّ بأن يأمر فى دار الضرب أن يجعلوا على وجه السكة اسم مولانا السلطان وعلى الوجه الآخر اسمى فانى أكتفى بالمشاركة فى السكة فلما اطلع السلطان على صحة ذلك الامر بالقرائن التى ظهرت له أمر بقتله فسلبه السلطان فى ليلة من ليالى أواخر رمضان الى عنده وأنعم عليه على جارى عادته بنفائس وانعامات وافرة ووهب له جميع ما كان فى مجلسه من أوانى الذهب المرصعة بالجواهر الغالية وطيب خاطره وطيبه بالعنبر والمسك والغالية وأمره أن يبيت عنده فى مجلس خاص به كان عادته أن يبيت فيه وصبر عليه الى أن غلب سلطان المنام على مقلته وأماقيه فأمر بذبحه فذبح وأخطأ الذابح نحره فصاح مستجيرا وكان السلطان قريبا من موضعه وقد صمم فى أمر قتله فأمر أن يكمل ذبحه فقطع رأسه وأطفى نبراسه وأخمدت أنفاسه ولعل كثرة احسانه الى الناس ونشر مكارمه التى زادت على الحد والقياس نفعته عند الله تعالى فى الدار الآخرة ولعله صدقت نيته فى بعضها فصادفت قبولا وصارت له عند الله ذخرا فكم من عمل صالح يكون سببا للنجاة من النار ويدخل به صاحبه الجنة مع الشهداء الابرار وما ربك بظلام للعبيد وكان قتله فى الليلة السادسة والعشرين من رمضان سنة تسعمائة واحدى وأربعين وفى قصته وقصة أحمد باشا خصمه عبرة للناظرين وأولى الابصار

والمستبصر بن ورحم الله القائل

ومصاحب السلطان مثل سفينة * فى البحر ترعد دائما من خوفه
ان أدخلت من مائه فى جوفها * أدخلها وماءها فى جوفه

وفى سنة ثلاثين وتسعمائة هلك سلطان العجم اسماعيل شاه وقام بالملك بعده ولده طهماسب شاه

﴿ ذكر استغاثة ملك الفرنسيس بالسلطان سليمان ﴾

فى سنة اثنتين وثلاثين حضر الى دار السلطنة رسل من ملك الفرنسيس ومعهم مكاتبة لمولانا السلطان سليمان مضمونها الشكاية اليه من تغلب بعض الملوك أعدائه على مملكته فهو يستغيث بمولانا السلطان سليمان ويطلب منه أن ينجده بمدده وذكر فى تلك المكاتبة تفخيما وتبجيلا وتعظيما كثيرا لمولانا السلطان يستعطفه به فأجابه الى مطلبه وأنجده وجهز له جيوشا كثيرة برا وبحرا فكانت تلك الجنود مع الفرنسيس الى أن انقضى مرامه ودفع المتغلب عليه بل غلبه وقهره فمن ذلك الوقت صار الفرنسيس يعدون أنفسهم خدما وأتباعا للدولة العثمانية

﴿ الغزوة الثالثة الى الانكروس ﴾

فى سنة اثنتين وثلاثين وقيل أربع وثلاثين بلغ مولانا السلطان أن طائفة الانكروس وهم المجر كثر بغيهم وفسادهم وطغيانهم وتكرر ذلك منهم المرة بعد المرة ولم ينجع فيهم التخويف والموعظة فتجهز مولانا السلطان لقتالهم وجهز لهم جيشا يبلغ مائتى ألف مقاتل وقيل ثلاثمائة ألف وخرج بنفسه فلما وصل الى بلغراد لم يزل مشغولا بفتح الحصون والقلاع وجاء أكثر أهلها يطلبون الامان وسلموا مفاتيح القلاع ثم سار مولانا السلطان حتى انتهى الى نهر صاوة وهو من أعظم أنهار الدنيا فأمر مولانا السلطان فاتخذوا عليه جسرا ممدودا أمام قلعة هرسك فاجتاز العسكر منه الى بلاد الكفار ثم أمر السلطان برفع الجسر فرفع فبقى المسلمون فى بلاد الكفار وذلك يدل على شهامته وقوة عزمه وقطع أطماع العسكر من الفرار الى بلادهم ولما سمع القرال لارش ويقال له أيضا الارس وهو رئيس كفار

أنكروس أعنى المجر جمع جنوده وسار بهم من كرسى مملكته الى طرف عسكر المسلمين نحو خمس منازل يريد مهاجمة المسلمين وأن يبادرهم فى القتال اغترارا بمن معه من الجند وخيم فى مفازة هنالك تسمى صهارج وأشرف المسلمون على محل الكفار وربوة القتال فرتبوا الميمنة والميسرة والقلب وأخذوا أهبة الحرب وتضرع السلطان الى الله تعالى وسأله النصر وتوجه اليه بالنبى صلى الله عليه وسلم وجعل أمام العسكر فى هيئة الحاجز بين العسكر بن مائة وخمسين عجلة كانت تجر المدافع الكبار وركبوا عليها المدافع وقيدوا بعضها ببعض بالسلاسل ووقف عساكر السلطان الانقشارية تسعة صفوف كما هى عادتهم فى الحرب وهجم الكفار بأجمعهم على القلب فرأوا أنه لا سبيل الى العبور بسبب العجلات فانحازوا الى طرف اليمين فوقع بينهم و بين عسكر المسلمين أهل روملى مقتلة عظيمة فلما علم الكفار أنهم لا طاقة لهم بهم انحازوا الى طرف عسكر اناطولى فقتلوا أيضا معهم قتالا شديدا وكان قد أصاب رئيس الكفرة القرال لارش مدفع من جهة المسلمين كان به هلاكه وتلفه فتضعضعت جنوده عن المقاومة وامتد القتال الى غروب الشمس ثم انتصر المسلمون وانهزم الكافرون وصاروا كحمر مستنفرة فرت من قسورة فتبعهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى صارت أجساد الكفار كالتلال وجرت الدماء كالسيل وغنم المسلمون من الاموال والدواب شيأ لا يحصى قيل ان القتلى من الكفار عشرون ألفا ثم أغار الجند على بلاد انكروس وتوغلوا فيها مسيرة عشرة أيام وجاؤا بالأسرى والغنائم واستولى مولانا السلطان على الحصون والقلاع الواقعة فى الجهة الجنوبية من تلك المملكة ثم رجع قافلا الى القسطنطينية فى أواخر شهر ذى القعدة الحرام من السنة المذكورة

﴿الغزوة الرابعة الى بلاد النمسا وفرادنز﴾

كانت هذه الغزوة سنة خمس وثلاثين وتسعمائة وسببها أنه اجتمع كفار النمسا وألمان وفرادنز وأغار على قلعة للمسلمين تسمى بدون أخذوها من المسلمين بحيلة وعلى غرة وغفلة فلما بلغ الحضرة السلطانية ما فعلوه استشاط غيظا وأمر بالتجهز

للغزو ليحصل قمعهم فبرز من دار السلطنة الى حلقة لو بكار لليلتين مضتا من رمضان
سنة خمس وثلاثين وتسعمائة واستمر راحلا بجيوش كثيرة الى أن وصل الى النجم
العالى فجاءته امرأة من ملوك أنكروس تطلب الأمان لجماعة من قومها والتزمت
بخراج أنكروس كل عام فقوبلت من الحضرة الشريفة السلطانية بالقبول
وخلع عليها الخلع الفاخرة وكتب لها بالامان وعادت الى بلادها واستمر الوطاق
السلطانى وتوجه كثير من العساكر الى محاصرة قلعة بدون التى كانوا أخذوها
فحاصروها وضيقوا على من فيها الى أن فتحها الله كما فتح سائر البلاد وخذل أهل
الكفر والعناد وكان فتحها بعد حرب شديد ثم ولوا هاربين ومأسورين ومقتولين
لاربع مضين من محرم سنة ست وثلاثين ثم فتحت قلعة تياق حصارى ثم توجه
العساكر الى محاصرة قلعة أخرى قريب تخت النمسا كانت من أعظم قلاع
الكفار فاحاط الجند بها وحاصروها فطلب أهل القلعة الامان وأتوا بمفاتيحها الى
حضرة مولانا السلطان ولما كانت القلعة المذكورة بعيدة عن حدود الاسلام
غير مأمونة من هجوم الكفار أمر حضرة مولانا السلطان بهدمها فهدمت
وأخربت ونهبوا من كانوا نازلين باطرافها وحواليها وسبيت أولادهم ونساؤهم
وعاد السلطان الى تخت ملكه بالنصر والتأييد أوائل شهر ربيع الآخر سنة ست
وثلاثين وتسعمائة

﴿ الغزوة الخامسة الى بلاد النمسا أيضا ﴾

فى سنة سبع وثلاثين وتسعمائة غزا مولانا السلطان سليمان بنفسه من
القسطنطينية بمائة وعشرين ألف مقاتل وأربعمائة مدفع لحرب النمسا ونازل
مدينة فينا عاصمة مملكة النمسا وأقام عليها الحصار فقاتلوا أشد القتال وحصلت
أمطار شديدة تأذى المسلمون منها وفاض النهر وأخذ الخيام وجملة من العسكر
وصعد بعضهم على الاشجار هربا من الماء ومكثوا يومين وليلتين وهم فى مشقة
شديدة حتى انكشفت المياه ولما رأى السلطان ذلك تحول وارتحل عن المدينة
وقتلت عسكر الانقشارية الاسرى الذين كانوا تحت أيديهم ولما وصل مولانا
السلطان الى مدينة موهكز من بلاد المجر أتاه حاكمها وبذل الطاعة فقبله وأكرمه

وأجلسه عن يمين كرسيه ولما أراد الانصراف خلع عليه خلعة ثمينة وأعطاه ثلاثة أفراس من جياد الخيل عليها سروج مرصعة ورجع السلطان الى مقر سلطنته سالما

﴿ الغزوة السادسة الى بلاد ألمان ﴾

لما كانت سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وصلت الاخبار الى الابواب السلطانية ان فرال النمساجمع طائفة من كفار الالمان وأراد الافساد والطغيان فتوجهت همة مولانا السلطان سليمان الى المبادرة الى قتال هذا اللعين فجهز الجيوش برا وبحرا وأرسل في شعبان من طريق البحر أحمد باشا القبودان لحفظ وجه البحر من النصارى ومعه عشرون غرابا مشحونة بالعساكر الابطال فافتتح عدة قلاع من بلاد الفرنج وأرعبهم غاية الرعب وقتل وسبى كثيرا منهم وتوجه مولانا السلطان برا من دار السلطنة في رمضان من السنة المذكورة فوصل بجيوشه الى مملكة الألمان وأحاط بما فيها من الحصون والقلاع بعساكره وضيقوا عليها ونهبوا قراها وضياعها المعمورة وسبوا كثيرا من ذرارى الكفار وغنموا مالا يحصى من الأموال وقتلوا من الرجال مالا يخطر بالبال وهرب ملوكهم وتركوا صعلوكهم وبذلوا مابقي معهم من الاموال والذخائر على بذل الامان لهم ثلاثة أعوام فأجيبوا من جانب السلطنة السنية الى سؤالهم وكتب لهم توقيع الامان وعاد مولانا السلطان الى دار ملكه المسعود مظفر الجنود سعيد الجدود في أواخر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وتسعمائة

﴿ الغزوة السابعة الى بلاد السرب ﴾

في سنة تسع وثلاثين خرج مولانا السلطان سليمان بمائتي ألف مقاتل لمحاربة السرب فافتتح في طريقه أربع عشرة قلعة واستولى على أكثر حدود بلاد النيمسا ثم رجع الى القسطنطينية سالما غانما وفي سنة أربعين عقد صلحا مع ملوك الفرنج أهل أوروبا ليتفرغ لمحاربة العجم لكثرة الخلاف الحاصل منهم

﴿ الغزوة الثامنة الى بلاد العجم ﴾

في سنة أربعين وتسعمائة توجهت همة مولانا السلطان سليمان الى محاربة العجم

فجهز جيوشا كثيرة وأرسلها مع الصدر الأعظم فى أوائل شهر ربيع الأول فافتتح كثيرا من القلاع والحصون والمدائن ثم خرج مولانا السلطان سليمان بنفسه فى ثامن ذى القعدة حتى انتهى الى تبريز فاستقبل الصدر الأعظم قبل وصوله الى تبريز بمن معه من العساكر وتوجها بجميع العساكر لاستئصال مملكة العجم وهرب سلطان العجم وصار يتنقل فى الجهات والاطراف حتى انتهى فى هربه الى خراسان ولما وصل مولانا السلطان الى تبريز استقبله أهلها وهنوه بالقدوم فلما جاء الشتاء توجه الى مدينة بغداد وكانت بيد سلطان العجم وكان له نائب بها وهو بكار محمد خان فلما سمع بقدوم مولانا السلطان بعث اليه الطاعة ثم هرب الى بلاد العجم فدخل مولانا السلطان بعساكره مدينة بغداد وقصد زيارة الامام الاعظم أبى حنيفة رضى الله عنه وكان اسماعيل شاه نقض تربته وهدمها فجددها مولانا السلطان وجعل عليه مشهدا اعظيما وبنى فيه تكية يطبخ فيها الطعام وبنى فى بغداد قلعة حصينة وشحنها بالمدافع والعساكر وكان دخول مولانا السلطان بغداد فى ثامن عشر جمادى الاولى سنة احدى وأربعين وتسعمائة ولما أقبل الربيع نزل منزلا يقال له صاروجه قش ثم نهض بعساكره يريد سلطان العجم فتوغل فى بلاده حتى وصل الى مدينة دركزين فجاءته رسل سلطان العجم وتكرر مجيئهم يطلبون الصلح وكتب اليه سلطان العجم انه لا يقاتل أبدا ويرجوه من كرم السلطان أن يرحم الرعايا فقد خربت ديارهم وهلكت دوابهم ويسأل العفو أن يعود مولانا السلطان الى بلاد الروم وأعطى العهود أنه لا يخون وتكون البلاد التى أخذها السلطان تحت حكمه لا ينازع السلطان فيها أبدا وانه يكون تحت خدمته يلبيه كلما دعاه فلما تحقق السلطان منه ذلك عقد معه صلحا وأمر العساكر بالرجوع فرحل بهم ورجع الى مقر سلطنته فدخل دار السلطنة رابع عشر رجب سنة احدى وأربعين وتسعمائة وزينت المدينة واستبشروا بقدومه والطف تاريخ قيل فى ذلك * فتحنا العراق

﴿ الغزوة التاسعة الى مملكة اسبانيا وجزائر الغرب ﴾

كانت هذه الغزوة فى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة كما فى التاريخ القطبى وذكر

بعض المؤرخين أنها كانت فى سنة خمس وأربعين وحاصلها ان مولانا السلطان توجه بنفسه الشريفة من طريق البر ومعه عساكر كثيرة وأرسل من طريق البحر خمسمائة غراب مشحونة بالعساكر والذخائر والسلاح وعليها خير الدين باشا فافتتح عساكر البر والبحر قلاعا وحصونا كثيرة بعد حروب كثيرة وتملكوا أربعة وثلاثين حصنا وخمسا وعشرين جزيرة من جزائر البندقية وهم طائفة من النصارى خليفتهم البابا وضربوا مراكب البندقية وكانت مائة وسبعا وستين فنتوها وسلمت البندقية لمولانا السلطان قلاع نابولى وروما نيا وغيرهما ودفعت لمولانا السلطان ثلاثمائة ألف ريال ورجع سالما منصورا مظفرا وكانت غنيمة المسلمين من أموال الكفار وسباياهم ممالا يحصى

﴿ الغزوة العاشرة الى البغدان ﴾

وكانت هذه الغزوة فى سنة أربع وأربعين وتسعمائة توجه مولانا السلطان بنفسه الشريفة ومعه كثير من عساكره المنصورة الى بلاد البغدان وقتل فيها وأسال الدماء وسفك وافتتح القلاع وغنم أموالا كثيرة وأسر نفوسا عديدة غير محصورة وعاد الى تخت ملكه الشريف مؤيدا من عند الله تعالى بالنصر والتأييد والفتح الجديد فوصل الى دار السلطنة لست بقين من ربيع الاول سنة أربع وأربعين وتسعمائة

﴿ الغزوة الحادية عشرة الى اسطبور من بلاد أنكروس ﴾

سبب هذه الغزوة ان مولانا السلطان كان قد أنعم على امرأة من أبناء ملوكهم يقال لها ار دل بانو بتلك البلاد ثم توفيت فأراد قرال النمسا أن يملك تلك البلاد فتوجه مولانا السلطان بعساكره المنصورة سنة ثمان وأربعين وتسعمائة الى قتال قرال النمسا فلما أحس بوصول العسكر المنصور السلطانى فر هاربا الى الجبال وتقهقر عن القتال فتبعته الابطال ففر منهم فجالت العساكر المنصورة فى تلك البلدان وقتلوا أهل البغى والعدوان وسبوا الاولاد والاطفال والنسوان وركوا دبار الكفر قاعا صفصفا وغنموا مغانم كثيرة وقصدوا قلعة اسطبور وفتحت

أيضا قلعة رشوة وقتلوا من الكفار مالا يحصى وعاد مولانا السلطان بعساكره الى مقر سلطنته منصورين مؤيدين

الغزوة الثانية عشرة غزوة استرعون

كانت هذه الغزوة سنة خمسين وتسعمائة وذلك ان مولانا السلطان توجهت همته لتنظيف بلاد الروملي من طوائف الكفار بالغزو والجهاد فتوجه من دار سلطنته بالجيوش المتواترة وسار الى أن أحاط بقلعة واليوه وقلعة شقلاولاشور وهما من أحكم القلاع وأعظم الحصون فحاصرهما الى أن فتحهما فى غرة ربيع الاول من العام المذكور ثم افتتح قلعة استرعون وهى قلعة فى غاية الاستحكام مشحونة بالذخائر والاموال مملوءة بالعدد والعدد الوافر فحاصروها وألقى الله الرعب فى قلوب أهلها ثم افتتحها وأخذ من فيها أخذا وبيلا وأسروا وقتلوا تقتيلا ونهبت الاموال وسبيت النساء والاولاد والاطفال وأخذوا ما حولها من البلاد والبقاع والقلاع وكذلك فتحت قلعة استولين بلغيراد وهى قلعة سامية العماد وعين لها ولغيرها من القلاع الامراء الحفاظ النبلاء الأيقاظ ونصب لكل منها قاضيا يجرى الاحكام الشرعية وصنجقا للاستحفاظ وصارت من الممالك المحروسة السلطانية وصارت البيع والكنائس مساجد للصلاة والعبادات ورجع مولانا السلطان الى كرسى ملكه مظفرا منصورا

الغزوة الثالثة عشرة سنة أربع وخمسين وتسعمائة

هذه الغزوة كانت الى الهند لكن لم يخرج فيها مولانا السلطان بنفسه وانما جهز الجيوش وأرسلها وسببها ان طائفة من الفرنج يقال لهم البرتوقال كانوا يغيرون بمراكبهم وعساكرهم فى بحر الهند فأرسل سلطان الهند الى مولانا السلطان سليمان يستغيث به ويشكو اليه بأن الطائفة المذكورة تغلبوا على ممالكه ويطلب نجدة من مولانا السلطان فجهز اليه عساكر فى مراكب بحرية وبعثهم مع الوزير سليمان باشا فوصل بها الى الهند ودفع البرتوقال فصار سلطان الهند من جملة المنتسبين الى السلطنة السليمانية الداعين لها القائمين بخدمتها

ورجع سليمان باشا الى اليمن ثم الى دار السلطنة سالما غانما

﴿ الغزوة الرابعة عشر الى بلاد العجم ﴾

كانت هذه الغزوة أيضا سنة أربع وخمسين وتسعمائة الى بلاد العجم وسببها ان سلطان العجم طهماسب كان له أخ يسمى القاسب ميرزا كان قد ولاه مدينة شروان ثم وقع بينهما اختلاف آل الأمر منه الى القتال ولم يكن للقاسب طاقة لمقاومة أخيه وجيوشه ففر هاربا مع جماعة من خواصه الى الروم ملتجئا الى مولانا السلطان سليمان فلما وصل دار السلطنة السنية أكرمه مولانا السلطان سليمان ووهب له من الذهب الاحمر شيأ كثيرا ووهب له عدة أحمال من الاقمشة وعدة خيول وأعطاه الطبل والعلم ووعده بالنصر ثم تجهز مولانا السلطان بنفسه الى المسير لقتال طهماسب وأمر أخاه القاسب ميرزا بالتقدم وقواه بطائفة من العسكر وفى ثامن شهر صفر سنة خمس وخمسين وتسعمائة توجه السلطان سليمان بنفسه قاصدا بلاد العجم فلما قرب من حدود أذربيجان نزل بيرهان واستخلص شروان من يد جماعة طهماسب وفى عشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة وصل الى تبريز وفوض أمرها الى القاسب ميرزا أخى سلطان العجم وأعطاه من العسكر والمدافع الكبار ما يكفيه فلما تولى القاسب امارة تبريز جعل يصادر الرعايا والبرايا ويظلمهم على عادة ملوك العجم فلما تحقق السلطان سليمان منه ذلك استصحبه معه وكان قصد السلطان أن يسير على مدينة وان ويخلصها من طهماسب لانه ملكها من نواب السلطان بعد أن ملكوها فوصل اليها فى عاشر رجب وكان طهماسب شحنها بالرجال والابطال وأحصنها غاية الاحصان ولم تزل العساكر يعالجون الحصار بضرب المدافع وعمل النار حتى أخربوا أكثرها فلما تيقن من بالقلعة أنهم مأخوذون تدلى بعضهم من القلعة بحبل واجتمع بالقاسب ميرزا وتضرع اليه واستشفع به فشفع القاسب عند السلطان سليمان فى اعطائهم الأمان والعفو عنهم فقبل شفاعته فخرجوا من القلعة وسلموها لصاحبها فدخلها أهل السنة والجماعة ونصبوا عليها الاعلام الاسلامية وولى السلطان اسكندر باشا

الدفترى أمير الأمراء بها ولما قرب الشتاء قصد السلطان أن يسير الى طرف ديار بكر فسار يشتى حتى وصل الى مدينة آمد فبينما هو مخيم فيها إذ ورد أن العجم بلغهم عود السلطان دخلوا مدينة أذربيجان وأحرقوها وشردوا أهلها وقتلوا من قدروا عليه وأحرقوا الزروع فلما بلغ ذلك السلطان أمر الوزير أحمد باشا بالمسير اليهم وعضده بجماعة من العسكر واستخبروا بأن جماعة سلطان العجم مخيمون بقرب مدينة تبريز فساروا وكبسوهم بالليل وقاتلوهم وشردوهم ثم ان القاسب أخا سلطان العجم تضرع الى السلطان سليمان أن يعطيه جماعة من العسكر ليسير بهم الى بلاد أصفهان وقم وقاشان لان بها معظم أموال أخيه سلطان العجم وخزائنه فأجابه السلطان الى سؤله وعضده بطائفة من عساكر الاكراد والاعجام واجتاز السلطان سليمان بنهر الفرات ووصل الى حلب ووصل القاسب بمن معه الى حدود عراق العجم فتوغل بها وبدأ بالنهب والتحريق والتخريب حتى وصل الى حدود فارس وأخرب ضياعهم وأحرق بيوتهم وأسر أولادهم وأزواجهم ثم عاد الى بغداد وشتى بها ووقع بينه وبين الوزير محمد باشا المتولى بغداد من طرف مولانا السلطان سليمان وحشة اقتضت الى أن عرض محمد باشا الى السلطان سليمان بأن القاسب ترفض ورفض طاعة السلطان ولم يكن الامر على حقيقته وانما هى مكيدة فعلها فى حقه بغضا وعداوة فلما اطلع القاسب على ذلك خاف على نفسه من صولة السلطان فهرب الى بلاد الاكراد ولم يزل بها حتى قدر عليه أخوه طهماسب سلطان العجم فقتله قتلة شنيعة

﴿ الغزوة الخامسة عشرة الى بلاد العجم أيضا ﴾

وفى سنة ستين وتسعمائة كثرت مخالفات سلطان العجم لطاعة مولانا السلطان وكثر ظلمه وكثرت الشكايات فيه من جماعته وغيرهم فقصد مولانا السلطان سليمان التوجه لمحاربة العجم فسار بعساكر كثيرة ودخل حلب فى غرة ذى الحجة ولما وصل الى أذربيجان كتب الى سلطان العجم يدعوه للمبارزة ويعيره على ترك الحرب والاختفاء فى الكمون ثم توجه مولانا السلطان سليمان حتى وصل الى

مدينة وان وهى من أحسن مدن الدنيا وأنزهها فأخربها العسكر جميعا وكان دأبهم كذلك من حين دخلوا بلاد العجم ثم لم يزالوا كذلك حتى وصلوا فى سادس عشر بن شعبان من سنة احدى وستين وتسعمائة الى مدينة نخجوان مقر سلطان العجم وفيها دور وقصور شامخة الاركان رفيعة البنيان ودور أولاده وأحفاده ووزرائه وسائر أعيان دولته فلما دخلها العسكر وجدوها خالية فقطعوا أشجارها وخربوا قصورها فصارت البلد كأنها أرض قفراء ما عمرت قط وأغار بعض العسكر على مدينة تبريز فنهبوها وقتلوا من قدروا على قتله ثم أغاروا على مراغة فنهبوا وأحرقوا واقتتلوا مع ألوف من جماعة سلطان العجم فانتصروا عليهم وأخذوا تيجانهم المرصعة وأعلامهم وطبولهم وفى أثناء ذلك وصل وافد من جانب سلطان العجم ومعه مكتوب محصله أنه ندم على ما أظهر من العداوة وأظهر التذلل والاستغفار والتجأ الى عتبة السلطان يطلب منه الصلح فأجابه السلطان الى مسؤله وخلع على الوافد ثم توجه السلطان وشتى بمدينة أماسية ثم رجع الى كرسى مملكة القسطنطينية

﴿ الغزوة السادسة عشرة الى سلطان المغرب ﴾

لهذه الغزوة خبر عجيب غريب لم يذكره تواريخ أهل المشرق وهو يدل على فخامة ملك مولانا السلطان سليمان وقوة سلطنته وعلو همته فيستحق أن يلحق بالغزوات وان لم يخرج فيها السلطان بنفسه فينبغى ذكره لغرابته تتميما للفوائد وهو مذكور فى تواريخ أهل المغرب منها التاريخ المسمى نزهة الحادى فى أخبار أهل القرن الحادى وهو تاريخ مخصوص بذكر ملوك المغرب للعلامة الشيخ محمد بن عبدالله الافرانى المراكشى وذلك أنه ذكر هذا الخبر فى ترجمة السلطان الملقب بالشيخ أبى عبدالله محمد المهدى بن أبى عبدالله القائم ثالث الخلفاء السعديين الذين ملكوا مراكش وفاس (وحاصل) ذلك الخبر أن السلطان المذكور لما تم له ملك المغرب ودانت له حواضره وبواديه تلقب بالمهدى وتاقت همته الى بلاد المشرق فكان يقول لا بد لى أن أذهب الى مصر وأخرج الاتراك من أجحارهم وأنازلهم فى ديارهم فبلغت مقالته مولانا السلطان سليما العثمانى وكان

أبو عبد الله لا يسمى سلطان العثمانيين الاسلطان الحواتة لكون الغالب
الاتراك سفرهم فى السفاين فأنهى ذلك للسلطان سليمان العثمانى فبعث له
برسالة فلم يحتفل بهم أبو عبد الله بل قال أخبر واصاحبكم انى مقتحم عليه
ومتوجه لمقاتله فلما رجعت الرسل للسلطان سليمان وأخبروه بمقالة أبى عبد
الشيخ وما قاله لهم بعث السلطان سليمان لبعض وزرائه الذين بالجزائر أن
برأس أبى عبد الله فبعثوا رجلا من أبطال جندهم فى شرذمة من الاجناد مظهر
أنهم هربوا من السلطان العثمانى ورغبوا فى خدمة أبى عبد الله ونيتهم المك
به والاغتيال له حيث أمكنهم ذلك فلما قدموا على السلطان أبى عبد الله فر
بهم غاية الفرح وأظهر السرور لمقدمهم عليه وكان عنده جماعة من الاتر
استخدمهم قبل ذلك وكان يركب معهم ويدنيهم ويأمن بهم فلما حضر هؤلاء الاتر
فرح بهم الأولون اذ كل غريب للغريب نسيب وان من الغريب يعجب الغر
فلم يزل الاتراك القادمون قائمين بخدمته مختصين به يتربصون الفرصة ويترقبو
المكيدة للفتك بابى عبد الله فسافر لقتال بعض العصاة عليه فلما كان بجب
درنة بموضع يقال له أثلاثة دخلوا عليه خباءه ليلا على حين غفلة من العس
وبقية الخدم فضربوا رأسه بشاقور ضربة واحدة أبانوه بها واحتملو
مخلاة وذهبوا به فى الظلماء عامدين الى جهة سجلماسة كأنهم رسل الى تلمسان ل
يفطن بهم أحد ثم أدركوا فى بعض المواضع فقاتل منهم طائفة حتى هلك
وهرب بعضهم بالرأس الى أن أبلغوه للسلطان سليمان بالقسطنطينية فلم يزل الر
معلقا بها الى أن تلاشى وكان قتله فى التاسع والعشرين من ذى الحجة سنة أرب
وستين وتسعمائة وحمل جسده الى مراكش ودفن فى قبور الاشراف انتهى

﴿ الغزوة السابعة عشرة لم يخرج فيها السلطان بنفسه ﴾

فى سنة أربع وستين أيضا سارت جيوش للسلطان سليمان الى اليمن لاصلاح الي
وتملكه ودفع المتغلبين فيه فكان لهم غاية النصر والاستيلاء والتمكن وت
الاصلاح دفعوا البرتقال التى كانت تقطع البحر وتغير على بلاد الاسلا

امتداد الفتن الى سنة ثمان وستين وتسعمائة

﴿ الغزوة الثامنة عشرة ﴾

وفى سنة سبع وستين وتسعمائة توجه القبطان سنان باشا بعمارة عظيمة الى جزيرة جربا فى افريقا وتملكها بعد حصار ثلاثة أشهر وأخذ حاكمها أسيرا وأتى به الى القسطنطينية فلما بلغ ذلك ملك اسبانيا ركب على بلاد الجزائر وأخذ بعض قلاع ومراكب تخص الدولة فغضب السلطان من ذلك وعزم على فتح مالطة ففى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة خرج القبطان سنان باشا من مينا القسطنطينية بعمارة تحتوى على مائة واحدى وثمانين مركبا ومعه السر عسكر مصطفى باشا فلما وصلوا الى الجزيرة المذكورة خرجت العساكر وأخذوا فى عمل خنادق أمام القلعة وأقاموا عليها الحصار الشديد الى أن أخذوها وأخذوا أسرى كثيرين وسمروا على أخشاب وطرحوا فى البحر أمام المدينة وهى محاصرة وكان قد وقع فى يد حاكم المدينة أسرى من الانكشارية فلما رأى ذلك أمر بقطع رؤسهم ووضعها فى المدافع وضرب بها المحاصرين ووقع عشر هجمات على المدينة وفقد عساكر كثيرة فلم يمكن أخذ المدينة فرفعوا الحصار عنها وارتحلوا

﴿ الغزوة التاسعة عشرة ﴾

وفى أثناء هذه المدة كان قد وقع الحرب بين الدولة والمجر وأخذت عساكر الدولة جملة بلدان من ممالك المجر فأرسلوا يطلبون الصلح ولم يرسلوا الخراج المنكسر عندهم فغضب السلطان وأمر بحبس رسولهم وعزم على السفر اليهم بنفسه فبلغهم الخبر فخضعوا وأعطوا الطاعة وبذلوا المنكسر وضاعفوه بأضعاف كثيرة فعفا عنهم وأمنهم

﴿ الغزوة المكملة عشرين ﴾

وفى سنة أربع وسبعين وتسعمائة نهض مولانا السلطان سليمان خان لفتح مدينة لنصارى المجر تسمى سكدوار والحال أنه قد شاخ وكبر وهرم وازدادت عليه علة النقرس وهو ورم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين فمنعه الاطباء

عن السفر فلم يقبل منهم لمحبته الجهاد وقال أريد أن أموت غازيا فخرج لتسع مضين
من شوال سنة أربع وسبعين وتسعمائة فسار بعسكر كثير متزاحم الافواج
متلاطم الامواج وبعث وزيره برتو باشا الى فتح قلعة كولة فلم يلبث الاقليلا حتى
فتحها وأما السلطان فانه وصل الى بلغراد بعد مشقة عظيمة بسبب المرض الذي
به وكثرة الامطار وسار منها الى سملين فتسلمها وفتح جملة قلاع و بلدان وأما قلعة
سكدوار فهي قلعة في غاية الحصانة واسعة شاسعة مكينة راسخة البناء في حضيض
الماء شامخة الارتفاع في الهواء الى عنان السماء مشحونة بآلات الحرب والمدافع
مملوءة بجيوش النصارى وأبطالهم فكانت في المتانة الى حد الغاية وقد أحاطت
بها المياه والاوحال من كل جانب فلم يزدد أمر القلعة الا استصعابا واشتد مرض
السلطان وهو محاصر لها حتى أحس بالموت فدعا الله أن يعجل بالفتح ونصر
المؤمنين وقال قد تحقق عندي أن الفتح يتيسر ان شاء الله و يكتب في التواريخ
ان سليمان افتتح هذه القلعة العظيمة وهو ميت فاستجاب الله دعاءه وحقق أمله
وأوصى بالسلطنة لولده السلطان سليم الثاني ثم انتقل بالوفاة الى رحمة الله تعالى
وأخفى الوزير الاعظم محمد باشا وفاته شفقة بجيوش المسلمين أن يصيبهم فشل ودعا
رئيس الاطباء فشق بطنه وملأه بالاجزاء الحارة ودفن أمعاءه هناك ثم لم يزالوا
يجدون في أمر الفتح حتى فتحوها بعد وفاة السلطان بثلاثة أيام وقتلوا اصحابها
وقتلوا ثلاثة آلاف ممن معه وكان من جملة أسباب فتحها أن النار اشتعلت في
خزينة بارود الكفار وهي مخزونة في القلعة المذكورة فأخذت جانبا كبيرا
من القلعة رفعته الى عنان السماء و زلزلت الارض زلزلة هائلة وتطايرت جلاميد
الصخار الى الهواء ورمت شررا ولهبا ودخانا الى أن امتلأ الفضاء وقتلت كثيرا
من الكفار الذين كانوا بالقلعة فضعفت قلوب من بقي منهم فتزاحم المسلمون على
دخولها والهجوم على من فيها فاقتلعوها من أيدي الكفار و وضعوا السيف
في جميع الكفار وقتلوهم عن آخرهم وساقوهم الى جهنم و بئس القرار وما
ذكرنا من أن الفتح انما كان بعد وفاة السلطان بثلاثة أيام هو ما في بعض

التواريخ وفي تاريخ القطبي أن الفتح كان قبل وفاة السلطان وانه لما جاءه خبر الفتح وهو في غاية المرض فرح وحمد الله تعالى على هذه النعمة واستسلم لربه وقال طاب الموت الآن ثم انتقل الى رحمة الله تعالى وكان فتحها يوم السبت سابع شهر صفر الخير سنة أربع وسبعين وتسعمائة ولم يزل العسكر هناك في ترميم القلعة واصلاحها حتى بعث الوزير محمد باشا الى السلطان سليم يدعوه الى سكدوار وكان يومئذ على امارة كوتاهية فلما جاء الخبر دخل القسطنطينية على حين غفلة من أهلها وجلس على سرير الملك في التاسع من شهر ربيع الاول من السنة المذكورة وتمت له البيعة واطمأن الناس ثم خرج في اليوم الثالث وتوجه الى سكدوار فلحق العسكر ولم يختل عليهم شيء فحملوا السلطان سليمان رحمه الله تعالى في العجلة ونقلوه الى القسطنطينية ودفن بها وعمره أربع وسبعون سنة ومدة سلطنته ثمان وأربعون سنة وكان قدوم ولده السلطان سليم الى القسطنطينية من سكدوار في شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة وكان الحرب لم يزل قائما بين العساكر العثمانية وملك النمسا * ومن العجائب التدبير الذي حصل من الوزير الأعظم محمد باشا عند وفاة مولانا السلطان سليمان فانه بعد وفاته كتم وفاته وخرج من عنده وفرق الجوائز السنية والانعامات وأعطى الامراء الترقيات وأمر بارسال البشائر الى سائر الأطراف والجهات بحصول النصر والظفر وأرسل سرا يستدعي ولي العهد السلطان سليم الثاني ويستعجله في سرعة الوصول وكتم ذلك عن جميع العسكر والامراء والوزراء والانام وأحسن التدبير في هذا الكتم واستقرت أمور المملكة في غاية الانتظام وهو في ديار الكفار وذلك من كمال العقل التام والرأي الصائب الى أن وصل حضرة السلطان سليم والحرب قائم ثم وقع الصلح على الهدنة ثمان سنين ودفع ملك النمسا لخزينة السلطان ثلاثمائة ألف ريال ورجع مولانا السلطان سليم الى مقر تخت سلطنته وأذن للعساكر المنصورة بالرجوع الى أوطانها ورثت الشعراء مولانا السلطان سليمان بقصائد كثيرة

﴿ ذكر خبر عجيب ﴾

يدل على قوة ديانة مولانا السلطان سليمان وشدة ورعه وخوفه من الله تعالى وذلك

أنه قبل وفاته أحضر بقشة وأوصى أن تجعل معه فى القبر فلما أخبر بذلك شيخ الاسلام المولى أبو السعود العمادى رحمه الله قال لا بد من الاطلاع على ما فى هذه البقشة قبل أن تجعلها معه فى القبر فلما فتحوها وجدوا فيها الأسئلة التى كان مولانا السلطان يسئل عنها شيخ الاسلام المذكور وعلى كل سؤال الجواب منه فبكى شيخ الاسلام المذكور وقال ان مولانا السلطان أراد ليبرئ ذمته عند السؤال عن هذه الأحكام وجعل السؤال متوجها الى من كتب ما فيها فأسأل الله العفو والخلاص

﴿ الغزوة الحادية والعشرون من غزوات مولانا السلطان سليمان التى لم يحضرها بنفسه ﴾

هذه الغزوة وكانت فى الحجاز وهى مما ينبغى أن تلحق بغزوات مولانا السلطان سليمان وان كان المباشر لها مولانا الشريف أبا نمى * وحاصلها أن طائفة البرتوقال من طوائف الفرنج قد تقدم أنهم كانوا يقطعون البحر ويغيرون على كثير من ممالك الاسلام فمن ذلك أن نفوسهم الخبيثة سولت لهم الاستيلاء على الحرمين وجزيرة العرب وكان ذلك فى أواخر سنة ثمان وأربعين وتسعمائة فدخلت طائفة عظيمة من الفرنج المذكورين كثيرا من بنادر الاسلام وخربت وأفسدت فيها ثم قصدت بندر جدة المعمورة ونزلت بالمرسى المعروف بأبى الدوائر فى خمس وثمانين برشة مشحونة بالرجال والسلاح والذخائر فقاتلهم مولانا الشريف أبو نمى أمير مكة بنفسه وترك الحج ونزل الى جدة فى جيش عظيم بعد أن أمر بالنداء بالجهاد فى نواحى مكة وقال من صحبنا فله أجر الجهاد وعلينا السلاح والنفقة فجمع المبادرون للجهاد مبلغا عظيما لا يحد ولا يعد ونفقة مولانا الشريف شاملة للجميع وعيون الكفار تدور عليهم كل حين فتشاهدهم يزيدون عددا وعددا وعيشا رغدا وخدم مولانا الشريف أبى نمى يتوجهون الى أطراف البلاد ويحضرون بأنواع الطعام ويشترونه بأغلى الأثمان حتى فرغت الحبوب والاقوات وكادت تعدم فأقبلوا على نحر الابل فكان مولانا الشريف يأمر بأن ينحر لكل مائة

نفس بعير أو ناقة واستمر الامر على ذلك مدة فقال له بعض الناس ان هـذا الفعل يستأصل ماعندك من الابل فأجابه بأنى نويت أن أنحر ماعنـدى من الابل فاذا فنيت أمرت بنحر الخيل ثم كل حيوان يجوز أكله فلما قرب وقت الحج برز أمره الشريف لابنه الشريف أحمد أن يقابل بمكة أمراء الحج ويلبس الخلعة الواردة ويحج بالناس على عادة أجداده الكرام فلما وصل أمراء الحج قابلهم وفعل مثل ماأمره والده وحج بالناس فلما قضوا الحج توجهوا الى جـدة لمقابلة مولانا الشريف أبى نمى والباسه الخلع الواردة فلاقاهم وهو شاكى السلاح لابسا درعه فى هيئة المقاتل ولما قدموا عليه أمر باطلاق المدافع فأطلقت لمقابلتهم نحو ثلاثمائة مدفع فكان مشهدا عظيما فألبسوه الخلع الواردة معهم وأضافهم وأكرمهم بغاية الاكرام وانصرفوا راجعين ولما رأى الكفار صبره وحصاره لهم انقلبوا خاسئين ولما بلغ حضرة مولانا السلطان سليمان ذلك زاد فى اكرام مولانا الشريف أبى نمى وسمح له بنصف معلوم جدة وأوصل اليه غير ذلك من الانعامات التى لاتحصى وهـذه القصة فيها منقبة عظيمة لسيدنا الشريف أبى نمى تدخله فى عداد الغزاة المجاهـدين فى سبيل الله ولم تكن لأحد غيره من أسلافه وأحفاده أمراء بمكة فرحم الله الجميع رحمة واسعة

﴿ تنبيه ﴾

ذكر العلامة الفاسى فى الاعلام بأخبار بلد الله الحرام أن الحبشة جاءت الى جدة فى خلافة الرشيد سنة ثلاث وثمانين ومائة فأوقعوا بمن فيها فخرج الناس هاربين الى مكة فخرج معهم أهل مكة مجاهدين وأميرهم حينئذ عبد الله بن محمـد بن ابراهيم المخزومى فلما رأت الحبشة ذلك هربوا الى المراكب فجهز وراءهم صاحب مكة غزاة فى البحر وقيل إن هـذه القصة كانت سنة ثلاث وسبعين ومائة وقد ورد فى فضل ثغر جدة أحاديث كثيرة منها ماذكره شيخ الاسلام الحافظ ابن حجر العسقلانى فى كتابه المسمى لسان الميزان عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم اذا كان على رأس السبعين والمائة فالرباط بجدة من أفضل الرباط وفى رواية عن ابن عمر أيضا يأتى على الناس زمان يكون أفضل الرباط بجدة

وروى أيضا عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة من أبواب الجنة فى الدنيا الاسكندرية وعسقلان وقزوين وعبادان وفضل جدة على هؤلاء كفضل بيت الله على سائر البيوت وفى شفاء الغرام للعلامة الفاسى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة رباط وجدة جهاد وكان عطاء يقول انما جدة خزانة مكة وكل ما يؤتى به الى مكة لا يخرج إلا منها وروى ابن جريج أن فضل مرابطى جدة على سائر المرابطين كفضل مكة على سائر البلدان وعن فرقد السنجى أنه يكون فى آخر الزمان بجدة شهداء ليس على وجه الارض مثلهم شهداء وقال الامام حجة الاسلام الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين ان بعض الأولياء كوشف فرأى أن جميع الثغور تسجد لعبادان وعبادان تسجد لجدة اه قال صاحب السلاح والعدة ينبغى لمن دخل هذا الثغر المبارك ان ينوى الرباط والجهاد والذب عن بيت الله العتيق ويصحب معه شيأ لدفع أهل الكفر والعناد فبالنية يحصل له ثواب ما ينوبه من الجهاد إذ العبادات متوقفة على النية لقوله صلى الله عليه وسلم إنما الاعمال بالنيات

﴿ ذكر فتوحات معنوية لمولانا السلطان سليمان ﴾

اعلم أن الخيرات والمبرات والمساجد والعمارات والمدارس والخانقات واجراء العيون وبناء القلاع والخانات وغير ذلك من أنواع الخيرات الجارية للمسلمين فى كل الجهات كل ذلك معدود من الفتوحات وفتوحات مولانا السلطان سليمان فى ذلك كله كثيرة وأعظمها ما كان بالحرمين الشريفين فمن ذلك انه جدد عمارة مولد النبى صلى الله عليه وسلم سنة خمس وثلاثين وتسعمائة * وفى سنة ست وخمسين وتسعمائة أرسل منبرا من الرخام لمكة وهو الموجود الآن وهو من تحف الدنيا ومكتوب عليه انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم وبعث مثله للمدينة المنورة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام * وفى سنة ستين جدد ميزاب الكعبة وجدد للمسجد الحرام منارتين واحدة عند باب على والأخرى بين باب الدريبة وباب الزيادة وكل من المنارتين تسمى بالسليمانية وهما أحسن منائر المسجد الحرام بنى

أربع مدارس للمذاهب الاربعة بين باب الدريبة وباب الزيادة وعمر تعميرا كثيرا في الكعبة المعظمة وجدد سقفها وأمر بتصفيح باب الكعبة بالذهب وباصلاح رخام المطاف ثم في سنة أربع وستين أمر بتجديد باب الكعبة فجدده وفي سنة سبع وستين وتسعمائة أمر بعمارة عين زبيدة فعمرت حتى دخلت مكة وعم الانتفاع بها وكان الناس قبل ذلك يقاسون غاية المشقة في تحصيل الماء وكان تمام هذا التعمير في مدة سلطنة ابنه مولانا السلطان سليم والكلام على هذه التعميرات كلها طويل مبسوط في التواريخ وبالجملة فمفاخر الدولة العثمانية وفتوحاتها وخيراتها لا تعد ولا تحصى لا سيما ما كان من ذلك لمولانا السلطان سليمان فهو واسطة عقدهم الفريد أدام الله سلطنتهم على الانام ووفقهم لما يحبه ويرضاه على الدوام * ومن فتوحات مولانا السلطان سليمان في الحرمين الشريفين تضعيف الصدقات والصرر لاهل الحرمين وهي مادة الحياة لهم وبها معايشهم وقيام أودهم وسبب بقائهم ومددهم فهي وان كانت قديمة متواصلة من زمن آبائه السلاطين العظام الا أنه هو الذي ضاعفها وزادها وأنماها وأضاف عليها من خزينته الخاصة مبلغا كبيرا وقد تقدم أن صدقة الحب أول من أرسلها والده السلطان سليم فاعتنى بها مولانا السلطان سليمان وزادها وأفرز لها قرى بمصر اشتراها من بيت مال المسلمين ووقفها وجعل ريعها لأهل الحرمين وجعل من ريعها لأهل مكة المشرفة ثلاثة آلاف أردب ولأهل المدينة المنورة ألفي أردب وكتب عند شرائه تلك القرى كتاب وقف حكم بصحته قضاة العسكر بالديوان الشريف العالي * ومن فتوحاته وخيراته صدقات الجوالي وهي جمع جالية ومعناها ما يؤخذ من أهل الذمة في مقابلة استقرارهم في بلاد الاسلام تحت الذمة وعدم جلائهم عنها وهي من أجل الاموال اذا أخذت على وجهها المشروع ولاجل حلها جعلت للعلماء والصلحاء والمتقاعدين من الكبراء فلما كانت أيام سلطنة مولانا السلطان سليمان نور الله مرقده وحفه بالرحمة والرضوان بحث عنها وتحرى فيها ووجد سلاطين الجراكسة كانوا يخرجون القليل منها فاجتهد في تحريرها وضبطها واستوعب صرف

جميعها للمذكورين وزاد على ذلك قدرا كثيرا أخرجه من خزائنه الخاصة به واستوعب بالضبط جوالى مصر والشام وحلب وغير ذلك من الممالك الاسلامية واستوعب العلماء والصلحاء والفقراء الموجودين فى الممالك الاسلامية وجعل لكل واحد ما يليق به وجعل عمارات وتكيات تطبخ فيها الاطعمة للفقراء وناهيك بكثرة هذه المصارف فى وجوه الخيرات فالله تعالى يبقى هذه الدولة الشريفة القاهرة والسلطنة الزاهرة الفاخرة الى أن تنقضى الدنيا وتقوم الآخرة ومن خيرات مولانا السلطان سليمان وفتوحاته أنه وقف أوقافا كثيرة متفرقة فى ممالك الاسلام وجعل وظائف للمدرسين والطلبة فى جميع ممالك الاسلام ورتب لهم معلومات جليلة تصرف من ريع تلك الاوقاف والكلام على ذلك طويل مبسوط فى التواريخ وجعل تلك المرتبات متفاوتة على حسب مراتب من جعلت لهم وعلى قدر ترقيهم فى العلوم ولو استوفينا ما فعله من الحسنات لاحتجنا الى عدة مجلدات فالله تعالى يجعل سعيه مشكورا وعمله مبرورا

﴿ ذكر فتوحات مولانا السلطان سليم الثانى ابن مولانا السلطان سليمان ﴾

كان جلوسه على تخت السلطنة بعد وفاة والده سنة أربع وسبعين وتسعمائة وكان دخوله القسطنطينية لتسع مضين من شهر ربيع الاول من السنة المذكورة يوم الاثنين ورجوعه من سكدوار موضع وفاة والده فى شهر جمادى الآخرة كما تقدم وكان مولانا السلطان سليم المذكور شهما شجاعا ذكيا مائلا الى التقوى ووجوه الخير مهاب الشكل جميل الصورة جليل القدر صحيح العقيدة حنفى المذهب كبقية أسلافه مكرما للعلماء والصالحين محبا لهم مواظبا على الصلوات الخمس فى الجماعات وكان احسانه يصل الى أهل الحرمين الشريفين قبل أن يتسلطن فلما جلس على كرسى السلطنة ضاعف لهم الخيرات والعطيات

﴿ ذكر أول غزوة من غزواته ﴾

شاع فى أول مدة جلوس مولانا السلطان سليم الثانى على تخت السلطنة عصيان بنى عليان من سكان الجزيرة وخروجهم عن الطاعة فجهز عليهم عساكر كثيرة

وجرت حروب وخطوب يطول ذكرها حتى استولوا على معظم قلاعهم وأخربوا
أماكنهم وعادوا سالمين فى أواخر سنة خمس وسبعين وتسعمائة * وفى سنة ست
وسبعين سارت جيوش للسلطان سليم الى اليمن لاتمام الاصلاح ودفع المتغلبين
صحبة عثمان باشا ثم أردف بسنان باشا وغيره فانتصروا وأزالوا المتغلبين
والمفردين من البرتقال وملكوا صنعاء وغيرها

﴿ الغزوة الثانية الى قبرس ﴾

وهى تتضمن غزوات لايزال أهل قبرس يتمردون ويخرجون عن الطاعة مرة
بعد أخرى فتوجهت همة مولانا السلطان سليم المذكور الى التجهيز على جزيرة
قبرس فجهز عساكر كثيرة فى البحر ثلاثمائة وستين مركبا وجعل عليها الوزير
مصطفى باشا سنة ثمان وسبعين وتسعمائة فلما وصلت العساكر الى الجزيرة
المذكورة استقرت الآراء على حصار قلعة لفقوسة أولا اذ هى مدينتهم الكبرى
وقاعدة مملكتهم فحاصروها مدة شهر ثم افتتحوها وقتلوا كثيرا من عظماء أهل
لفقوسة وبعثوا برؤسهم فى طباق من فضة الى أهل قلعة كرينة فلما شاهدوها
خافوا وذلوا فطلبوا الامان وبعثوا بمفتاح القلعة فتسلمها ثم مهد الوزير المذكور
قواعد مدينة لفقوسة وبنى ماخرب منها وتوجه الى حصار قلعة ماغوسة وهى من
أمنع الحصون وأصعب المعاقل وقد حصنوها بكثير من المدافع والمكاحل
وشحنوها بالرجال وقد أحاط بها خندق واسع عميق بسور عرضه مائة ذراع
وعشرة أذرع وعمقه تسعة وعشرون ذراعا وقد ركبت فى هذه القلعة من المدافع
سبعمائة وأربعة وستون مدفعا كبيرا ومن البنادق مالا يعلم عددها الا الله تعالى
فحاصرها العسكر حصارا شديدا وقاتلوا أهلها بالآلات النارية والاحجار
المنجنيقية وشقوا بطون الارض شقا وفتقوا قعورها فتقا وبعث أهل قبرس الى
ملوك الفرنج يستنجدون بهم فلم ينجدوهم فلما أيسوا من الخلاص طلبوا الامان
فأمنهم الوزير المذكور وطلب كثير منهم المسير الى بلادهم فمكنهم من ذلك وتسلم
المسلمون ماغوسة ونصبوا فيها أعلام الاسلام وعمروا ما تخرب منها وغنم المسلمون

غنائم كثيرة ثم سارت الجيوش الاسلامية الى جزيرة كفالية فنهبوها وهدموا بنيانها ثم الى جزيرة كورفس وهى مفتاح بلاد البنادقة فحاصروها بعض أيام وعاثوا فيها نهبا وتحريقا ثم فعلوا مثل ذلك بعدة جزائر هناك فلما طال مكثهم على وجه البحر ورأوا ان العدو ماقابلهم اغتروا فأذن الوزير برتو باشا بالتفرق فتفرق غالب العسكر وقدموا المراكب بأسباب الغنائم وشحنوها فسابقت العساكر مرسين فى الميناء فوصل اليهم الخبر بأن الكفار استخبروا عن تفرقكم فهاهم سائرون عليكم وواصلون اليكم فى جموع كثيرة من ملل شتى وقبائل متفرقة واتحد البابا وملك اسبانيا مع البندقية على حرب العثمانية فتشاور المسلمون بعضهم مع بعض فكان رأى الوزير الاعظم برتو باشا فى ذلك أن لا يقابلهم ولا يقاتلهم وكان ذلك مقتضى طبعه لانه كان جبانا الى الغاية وكان ماراه هو الانسب بمقتضى الحال وخالفه كاشف البحر على باشا فى ذلك وكان رجلا شجاعا بطلا مغوارا فقال لابد من لقاء الكفار فان وهج العار أشد من وهج النار وقد أيدنا الله بالاسلام وزاد فينا قوة وبسطة فلو سارت أغربتنا وهى خالية من عسكر الاسلام لكفت قبائل الكفار وفينا من العسكر ما يفى بالمقابلة ولم يزل يناظرهم حتى غلب على رأيهم فاتفق الجميع على لقاء العدو فالتقى الجمعان فى السابع عشر من جمادى الاولى سنة تسع وسبعين وتسعمائة وتقابل الفريقان فى طرف من بلاد المسلمين فهبت الرياح على المسلمين وألجأتهم الى البر فانهزموا بعد قتال شديد دام من طلوع الشمس الى الغروب وقتل المرحوم على باشا المذكور وجماعة كثيرة لا تحصى وغنم الكفار ما معهم من الاموال والاسباب والاغربة والشوانى وما فيها وقل من سلم من هذه الوقعة وكانت عند الافرنج أفراح عظيمة وجعلوا زمان تلك الغلبة عيدا يعيدونه كل سنة فسبحان الحكيم الصمد القادر الذى يفعل ما يشاء

﴿ الغزوة الثالثة الى قبرس أيضا ﴾

لما كان ما تقدم اهتم السلطان فى انشاء مراكب وسفائن أخرى مع ما يناسبها من المدافع فجدوا حتى تم لهم مراموا فى مدة سبعة أشهر وما كان ذلك الا عناية

من الله تعالى كان لم يمسهم ضر ولا شر * وفي سنة ثمانين وتسعمائة خرجت عمارة السلطان من فم الخليج القسطنطيني صحبة كاشف البحر قلج علي باشا القبودان في مائة وخمسين غرابا غير ما انضم اليهم من المراكب فسار يحمي البلاد عن هجوم العدو فلما كان ببعض أطراف البلاد صادف عمارة الافرنج فوقع بين الفريقين بعض مقاتلة ومناوشة فأصاب عدة مدافع بعض سفن العدو فأغرقها ثم انجلى كل من الفريقين نحو بلاده لمصادفة الشتاء وفي هذه السنة أرسلت مشايخ البندقية تطلب الصلح على شروط تعود الى شرف الدولة فصدر الامر بالقبول وتوقف الحرب

﴿ الغزوة الرابعة الى البغدان ﴾

في تلك الايام كان حاكم البغدان قد أظهر العصيان وامتنع عن دفع الخراج فأرسلت اليه الجيوش والعساكر وأخذوه أسيرا ولما حضر ضربوا عنقه

﴿ الغزوة الخامسة الى تونس ﴾

كانت هذه الغزوة في سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة خرجت عمارة عظيمة في سفن وأغربة وغلايين وشواني مشحونة بالرجال وآلات الحرب صحبة الوزير الشهير سنان باشا وصحبته كاشف البحر علي باشا قاصدين فتح حلق الواد وتخليص مدينة تونس فساروا وحاصروا حلق الواد وهو من أمنع الحصون فافتتحوها بعد قتال قتل فيه من الطرفين ناس كثير فقتلوا من بها من الكفار واستولوا عليها وأسروا صاحبها الافرنجي وأسروا صاحبها الاصلي محمدا الحفصي وكان قد تحصن فيها خوفا من العثمانية واستعان بالافرنج الاسبانيين فلم يغنوا عنه شيأ فأسره عساكر السلطنة السنية وجاؤا به الى القسطنطينية وصارت تونس من الممالك العثمانية وهذه الغزوة كانت عظيمة الشأن اختصرها بعض المؤرخين وبسط الكلام عليها العلامة القطبي فقال ان سلاطين تونس كانوا آل حفص وقد تقدم أنهم من فروع دولة ابن تومرت المهدي وان سلطنتهم كانت بتولية بني عبد المؤمن لهم من سنة ستمائة وثلاثة واستمرت الى ظهور

الدولة العثمانية قال القطبي لما ضعف الحفصيون ووهنوا وقع بينهم الاختلاف وصار بعضهم يستعين على بعض بنصارى الافرنج فيأتون بجنود من الكفرة ويقاتلون أهل تونس ويسبون أولادهم ونساءهم ويبنون القلاع فى تلك البلاد ويواصلون جنود النصارى الى بلاد المسلمين ويولى النصارى سلطانا من الحفصيين يكون تحت حكمهم الى أن صار المسلمون تحت حكم النصارى وعم أذاهم للمسلمين وبنوا قلعة عظيمة محكمة الاتقان مشيدة البنيان بقرب تونس فى موضع يقال له حلق الواد كانه بناه شداد وشحنوها بالابطال وملؤها بآلات الحرب والقتال وصارت الفرنج تكمن للمسلمين ويرسلون منها الاغربة والمراكب فى البحر على بلدان المؤمنين ويقطعون الطريق على المسافرين ويأخذون كل سفينة غصبا وكبير ملوكهم صاحب اشبيلية جزيرة الاندلس بعد ان أخذوها من المسلمين أعادها الله دار اسلام ببركة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام وقد كان خير الدين باشا المالك الجزائر استغاث به الرشيد أحد ملوك تونس فأجابه وسار معه بجنود الى أن تملك تونس فى قصة طويلة ففزع الحسن بن محمد الحفصى الى اسبانيا فبعثوا معه جنودا وأخرجوا خير الدين باشا وعساكره وقصة ذلك طويلة فلما كانت سلطنة مولانا السلطان سليم الثانى ابن السلطان سليمان جهز الجيوش الكثيرة وبعثها مع سنان باشا فى مائتى سفينة بالمدافع والآلات الكثيرة والذخائر الوفيرة سنة احدى وثمانين وتسعمائة فأحاطوا بتونس وحاصروها وضقوا عليها ورموا عليها المدافع الكثيرة وقاتلوها قتالا شديدا وطموا خندقها بالتراب بعد تعب شديد وكان عمق الخندق ستين ذراعا وقعره متصل بالبحر ثم حمل الوزير ومن معه من الابطال حملة واحدة تزلزلت منها الجبال ودخلوا القلعة وفتحوها عنوة بالسيف والقتال وقتلوا من فيها وكان هذا الفتح العظيم لست عشرة مضين من شهر جمادى الاولى سنة احدى وثمانين وتسعمائة . ومن أعجب الاتفاق ان هذه القلعة بناها النصارى فى سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وأحكموا بنيانها واستكملوه فى ثلاث وأربعين سنة وافتتحها الوزير المذكور فى ثلاث وأربعين

يوما من أيام محاصرتها فكانت الايام بعدد السنين التى أحكم فيها بناؤها كل يوم بسنة ولما تم هذا الفتح رأى الوزير المذكور ان ترميمها وعمارتها وحفظها بالعساكر والآلات الحربية تحتاج الى مؤنة كثيرة وخزائن من الاموال فأمر بهدمها وتخريبها حتى لاتصير ملجأ للنصارى المخذولين ولما فرغ الوزير من أمر حلق الواد توجه الى تونس وبها قلعة أخرى حاصرها العساكر أيضا الى أن فتحوها وأسروا صاحبها الافرنجى وصاحبها الاصل الحفصى وبعثوا بهما الى دار السلطنة وصارت تونس من الممالك العثمانية وانقضت دولة الحفصيين بعد أن انقضى لهم فيها ثلاثمائة وثمان وسبعون سنة هذا حاصل هذا الفتح بغاية الاختصار * ومن فتوحات مولانا السلطان سليم الثانى المعنوية اضعافه المبرات والخيرات لاهل الحرمين الشريفين وعمارته المسجد الحرام فانه كان مسقفا بالخشب وتوالى عليه الحريق والتعمير وصار فى غاية من الخراب والوهن فبرز أمره السلطانى بتعميره وان يتركوا تسقيفه بالخشب بل يجعلوه قببا وطواجن كما هو مشاهد الآن وبرز الأمر بالتعمير سنة تسع وسبعين وتسعمائة وكان الشروع فيه فى منتصف المحرم سنة ثمانين وتسعمائة وتوفى مولانا السلطان سليم المذكور قبل الكمال التعمير فاتمه ولده السلطان مولانا مراد فكان التمام سنة أربع وثمانين وتسعمائة فجاء نزهة للناظرين والكلام على ذلك طويل مبسوط فى التواريخ وتوفى مولانا السلطان سليم سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة وعمره اثنتان وخمسون سنة ومدة سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر وكان سبب وفاته أنه أنشأ حماما بدار السعادة وأحكمه غاية الاحكام بحيث انه لم يبصر أحد مثله فلما تم الحمام دخله السلطان المذكور فبينما هو يمشى فيه اذ زلق قدمه فسقط سقطة عظيمة اسود منها جنبه الذى سقط عليه فمرض منها أياما ثم توفى رحمه الله وأقيم فى السلطنة بعده ابنه (السلطان مراد الثالث) وكان وقت وفاة أبيه غائبا فى مغنيسا فأخفوا موت أبيه أحد عشر يوما الى أن حضر السلطان مراد وجلس على تخت السلطنة فأظهروا موت أبيه وكان مولانا السلطان مراد المذكور ملكا جليلا ربى فى

حجر السعادة واشتغل بالعلوم حتى حصلها وفاق كثيرا من أسلافه واشتغل بعلم التصوف ولم ينقل عنه أنه صدر منه شئ من الكبائر وكان مكرما للعلماء والصالحين والفقراء محبا لهم كثير الاحسان اليهم وكان واقفا عندما ادربه لا يتعداه عاملا فى أمره بتقوى الله مراعيا للعدل والاحسان فيما استرعاه لم يزل قائما بنصرة الدين وحماية بيضة الاسلام وتقوية جناح المسلمين ولو لم يكن من مناقبه الا تكميل بناء المسجد الحرام لكان ذلك دليلا على كرامة الله له بين الانام وكان له نظم فائق باللسان العربى والتركى والفارسى

﴿ ذكر أول غزوة من غزواته الى بلاد العجم ﴾

كان أهم شئ عنده بعد جلوسه فى السلطنة قتال سلطان العجم لكثرة ما يقع منه من الغدر ونقض العهود وهلك سلطان العجم طهماسب شاه سنة أربع وثمانين وتسعمائة وقام بعده ولده محمد خدا بنده فعين السلطان مراد الوزير مصطفى باشا فاتح بلاد قبرس فتوجه فى سنة ست وثمانين وتسعمائة بعسكر كثير الى بلاد الشرق فبنى قلعة قارس وشحنها بالمدافع والمكاحل ثم سار الى تخوم بلاد العجم والكرج وحاصر قلعة الكرج الى أن استولى عليها ثم التقى مع عسكر العجم وقاتلهم قتالا شديدا فهزمهم وحصدهم بالسيوف واستولى على أموالهم وخيولهم واستولى على عدة قلاع وشحنها بالرجال ثم سار وحاصر قلعة تفليس الى أن افتتحها وكان المسلمون افتتحوها قديما وغلب عليها الكرج ولما فتحت مدينة تفليس أرسلت أم منوجهر الكرجى ملكة تلك البلاد ابنها الى الوزير بالطاعة ومعه مفاتيح ثمان قلاع فرحب به الوزير وآنسه وعين له امرة تلك البلاد بعد أن أسلم بين يدى الوزير ثم سار الى طرف شروان بعد أن نصب أميرا على تفليس وبث سراياه الى الاطراف وتمكن منها وترك فيها عثمان باشا ابن ازدامر واليا بها فلما أقبل الشتاء توجه الوزير مصطفى باشا الى طرف بلاد السلطان وشتى هناك للاغارة فى الربيع على بلاد العجم ثم بلغه أن صاحب شروان القديم قصد بنحو اثنى عشر ألفا لقتال عثمان باشا فوقع بينهما قتال شديد وانتصر عثمان باشا وقتل صاحب شروان وأكثر

عسكره ثم وقع بينه وبين عسكر الشاه هناك ماينوف عن عشرين وقعة وكان النصر فيها دائما لعثمان باشا ثم جاءه عسكر من العجم نحو ثلاثين ألفا وقصدوه فى شروان فقاتلهم أربعة أيام ثم انتصر عليهم وقتل أكثرهم ثم ترك فى شروان جعفرا باشا وتوجه الى القسطنطينية يطلب ليكون صدرا أعظم وقاتل فى مسيره عدة أمم اعترضوه بالحرب وغلب عليهم ولما وصل الى بلاد كفة بلغه أن خاقان التتار أظهر العصيان على سلاطين آل عثمان فقاتله وانتصر عليه وقطع رأسه

﴿ الغزوة الثانية الى بلاد العجم أيضا ﴾

وفى سنة ثمان وثمانين وتسعمائة بعث مولانا السلطان مراد وزيره سنان باشا الى قتال العجم فسار مع عسكر جرار ووصل الى حدود العجم فأرسل اليه الشاه فى الصلح وبعث للسلطان أحد وزرائه يدعى ابراهيم خان بتحف سنية وهدايا جليلة وظن سنان باشا أن هذه الحالة مما تعجب السلطان فلم يكن الامر كذلك بل عزله السلطان وأقام مقامه فرهاد باشا * وفى سنة احدى وتسعين وتسعمائة توجه الوزير فرهاد باشا بالعساكر الى بلاد العجم فسار وتوغل فى بلاد اذربيجان واستولى على مدينة وان وبنى بها حصنا حصينا نصب فيه يوسف باشا واليا * وفى سنة اثنتين وتسعين سار فرهاد باشا بعساكر وافرة الى بلاد الكرج فبنى هناك عدة قلاع وفى هذه السنة أيضا سار الوزير الاعظم عثمان باشا بعساكر كثيرة الى قتال العجم فشتى ببلاد قسطمونى وسار الى بلاد العجم فى سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة ومعه من العساكر ما لا يعلم عدده الا الله فعارضه الاعجام فى الطريق فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم دخل تبريز فى أواخر رمضان من السنة المذكورة واستقبله أهل تبريز بمصاحفهم ووجوه الناس فقابلهم الوزير باللطف ثم شرع فى بناء قلعة حصينة ثم فى بناء سور المدينة فأتم الجميع فى مدة خمسة وثلاثين يوما ثم ظهر من بعض أهل تبريز بعض الغدر فى أمر العساكر فهجم عليهم العساكر وقتلوهم ونهبوا أموالهم ولم ينج منهم الا النساء والاطفال ثم مرض الوزير وخرج متوجها الى بلاد الروم بعد أن أبقى فى مدينة تبريز نحو ثلاثين ألفا صحبة جعفر باشا فلما

كان اليوم الرابع من مسيرهم اعترض للوزير حمزة ميرزا ابن شاه محمد خدابنده سلطان العجم مع عسكر كثير فنهيأ الوزير وهو مريض لقتالهم وركب بغلته الشهباء وهو آخر ركوبه على الدابة فاستمر الحرب من غلس الصبح الى الظهر فلما رأى الوزير امتداد الأمر أمر برمي المدافع الكبار وكانت ثمانمائة مدفع فأصابت خلقا كثيرا من عساكر الاعجام وانجلى الأمر عن هزيمتهم ثم نزل الوزير فى ذلك المحل وفتح أبواب الوطاق لاجل اعطاء الترقى والعطية للعساكر فلما صار نصف الليل غلق أبواب الوطاق وانتقل بالوفاة الى رحمة الله تعالى وأقام مقامه سنان باشا بمدينة وان فلما رحلوا اعترضهم العدو يمينا وشمالا ووقع بينهما مناوشات فلما وصلوا الى حدود المملكة العثمانية أمام قلعة سلماس هجم حمزة ميرزا المذكور فى نحو ثلاثين ألفا فوقع بين العسكرين قتال كثير وانجلى الحرب عن هزيمة الاعجام بعد أن حصد غالبهم بالسيف

﴿ الغزوة الثالثة الى بلاد العجم أيضا ﴾

فى سنة أربع وتسعين وتسعمائة جهز السلطان مراد فرهاد باشا مع عساكر عظيمة الى بلاد العجم وصلوا الى مدينة تبريز وحصنوا قلعتها ورمموا سورها وكانت الشاهية حاصروها مرارا عديدة وفروا من أخذها ثم بنى هناك بين وان وتبريز قلعتين وشحنهما رجالا وسلاحا ولم يزل الوزير المذكور يشتى ببلاد الروم ويرجع فى الصيف الى بلاد العجم حتى مهد البلاد التى أخذت من الكرج وبنى قلاعا وحصونا كثيرة وقاتل قره باغ محمد خان فكسره وغنم أمواله وعاد الى بلاد الروم والحاصل ان الحرب بين الدولة العثمانية والعجم كانت سجالا ثم انعقد بينهما صلح وجعل لكل منهم حدلا يتعداه أحد منهما وكان ذلك فى مدة الشاه محمد خدابنده بن طهماسب بن اسماعيل وخلع محمد خدابنده سنة خمس وتسعين وتسعمائة لانه كان أعمى وأقيم بعده ولده عباس شاه

﴿ الغزوة الرابعة الى بلاد المجر ﴾

فى سنة احدى بعد الالف عين السلطان الوزير سنان باشا لمحاربة كفار المجر

وأرسل معه العساكر ففتح تلك السنة قلعة بستريم وقلعة طاجه وشتى بمدينة بلغراد وفى السنة الثانية فتح قلعة قران بضم القاف وقلعة يانق وهى من أحصن القلاع وأصعبها قد أحاط بها الماء وهى مدينة ماتت الملوك بحسرتها لحصانتها ومنعتها ومتانتها وكان فتحها عند النصارى بمنزلة المحال لصعوبة مراقيها واستعلاء مراميها وذلك بعد أن نال المسلمين شدة عظيمة قيل ان النصارى رموهم بمدافع فجاء مدفع بصنجق النبى صلى الله عليه وسلم فتلقاه رجل قبل السقوط فلم يسقط ثم بعد أيام لما اشتد بهم الحصار سلط الله عليهم موتان فجعلوا يموتون فى فرشهم من غير قتال فسلموا المدينة للمسلمين فدخلوها فوجدوها قد جافت من الموتى وسر المسلمون بذلك سرورا عظيما وتوفى السلطان مراد خان الثالث سنة ثلاث بعد الالف وعمره خمسون سنة ومدة ملكه عشرون سنة وثمانية أشهر وتسلطن بعده ولده (السلطان محمد الثالث) قال فى خلاصة الاثر عند ذكره الملك الاعظم الباهر الشان كان سلطانا عظيم القدر مهابا جوادا عالى الهمة مظفرا فى وقائعه صالحا عابدا ساعيا فى اقامة الشعائر الدينية مراعيا الاحكام الشريعة مطيعا لأوامر الله منقادا لما يقرب اليه مدواما للجماعة والاوقات الخمس قائما بالسنن والرواتب ومن عادته المرضية أنه كان اذا ذكر صلى الله عليه وسلم نهض قائما وبالجملة فأوصافه كلها حسنة فائقة وقال القرمانى فى تاريخه كان كامل الاوصاف محبا للعدل والانصاف محبا للعلماء والصلحاء مكرما لهم بانواع الاكرام شديد المحبة للجهاد ونصرة الاسلام

﴿ الغزوة الاولى من غزواته ﴾

كانت هذه الغزوة الى المجر فى أول مدة سلطنته خرج عن الطاعة ميخاييل ملك الافلاق واجتمع معه ملك النيمسا و بلاد الاردل وعاثوا فى بلاد روم ايلى فبعث السلطان محمد جيشا تحت قيادة فرهاد باشا الصدر الاعظم فكسره الافرنج كسرة هائلة وقتل من جيشه خلق كثير فقتل السلطان فرهاد باشا وولى مكانه سنان باشا وكان شيخا مسنا فلم ينجح بل كسر أيضا فعزله السلطان وأعاده الى الصدارة فأشار على السلطان أن يخرج بنفسه للحرب فخرج بنفسه فى شوال

سنة أربع بعد الالف بجيش غفير قاصدا بلاد المجر فوصل بلغراد وحاصر مدينة اكراد ففتحها وكان فيها قلعة فى غاية المنعة والتحصين فنازلها بجنوده وأطلق أمره فى ضربها بالمكاحل فاشتد البلاء بمن فيها فخرجوا منها طائعين وسلموها فى أواخر صفر سنة خمس بعد الالف ووصل خبر أخذها الى ملك الانكروس فقام وقعد وأرغى وأزبد لانها كانت عندهم من القلاع المعتبرة فكاتب ملوك النصارى فطلب الامداد منهم بالعساكر والذخائر فاجتمع اليه ملك النيمسا وحاكم الاردل وحاكم البغدان وحاكم الافلاق وسواكن الجزائر من حكام البحر وكثير من ملوك الفرنج فجاؤا الى إمداده بسبعة جيوش يضيق عنها الفضاء وكان السلطان محمد سار بعسكره بعد الفتح السابق الى القلعة التى بها المعدن فبينما هو فى أثناء المرحلة الثالثة اذ دهمته النصارى من كل جانب وأحاطوا به وكان عسكر الاسلام حينئذ غير مستعد والنصارى فى غاية الكثرة جدا بحيث ان جمعهم المخذول لا يحصى فوقع حرب عظيم فى ذلك اليوم كله الى أن دخل الليل فتفرقوا وكان ذلك يوم الخميس ثانى عشر ربيع الأول وأصبحوا يوم الجمعة متصافين أيضا واستعدت النصارى أزيد من اليوم الاول فكانوا غرقا فى الفولاذ ثم هجموا دفعة واحدة على المسلمين وفرقوهم بددا وصلوا الى مخيم السلطان فطلب السلطان اليه معلمه الخوجه سعد الدين وكان فى صحبته فحضر بين يديه وجعل يثبته والسلطان يستنهض عساكره الخاصة به ويستغيث بالله تعالى فلم يكن بأسرع من أن قوى المسلمون وأدركهم بعض المنهزمين ففرقوا شمل النصارى وأبادوهم ودخلوا بينهم والتحم القتال وتراجع جميع العسكر مسعفين فكسروا النصارى وردوهم على أعقابهم ووقع السيف فيهم وهم فارون حتى قتل بعضهم بعضا من الزحام وغيره ووهب الله تعالى له النصر والتأييد ولم يسلم أحد من الكفار الا من هرب وغنم السلطان ومن معه غنيمة عظيمة وأحصيت قتلى المسلمين فكان الذى استشهد من القواد ما يقرب من أربعمائة ومن الصناجق أصحاب الالوية بضعة عشر رجلا ومن الامراء الكبار أربعة أنفار ومن

العساكر كثير ومن الكفار مالا يحصى والحاصل ان ما وقع له من النصر لم يقع لاحد من ملوك آل عثمان وذلك انما هو بمحض لطف الهى وامداد ربانى غير متناه ولقد حكى أن ملوك الفرنج تطلق على هذا السلطان صاحب القرال وهذا الوصف انما هو لمن بلغ فى الشجاعة المرتبة التى لا تسامى وانهم على عادتهم يصورون ملوك آل عثمان فيقدمون هذا فى التصوير على كل الملوك وذلك كله بسبب هذه النصرة التى رزقها * وفى خلاصة الأثر أن بعض العلماء رأى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه يتذاكرون أمر هذه الغزوة فقال الصديق الاكبر رضى الله عنه ان انهزام المسلمين كان مقدراً لكن لما كان السلطان محمد سعيداً أكرمه الله تعالى فأمده بملائكة حتى حصل له الظفر والتأييد ودخل السلطان الى مقر ملكه ثالث جمادى الآخرة سنة خمس وألف بموكب حافل

﴿ الغزوة الثانية الى بلاد الانكروس ﴾

فى هذه السنة عين محمد باشا الساطورجى سرداراً على بلاد الانكروس فتقابل مع الكفار بجيش جرار ووقع بينهما قتال ووقع من محافظ بوسنة حسن باشا الترياقى اهمال فى مساعفته ولولا ذلك ماخلص أحد من الكفار

﴿ الغزوة الثالثة جهز مولانا السلطان محمد جيشا مع محمد باشا ﴾

فى سنة سبع فتح محمد باشا المذكور قلعة واردار وفى هذه السنة استولى الكفار على قلعة يافق وبعض قلاع وفيها أيضا كبس ميخاييل اللعين على غفلة قرب نيكبولى ففر محافظ الطونة أحمد باشا منهزما فحاصر اللعين قلعة نيكبولى مدة ثم رحل عنها وفيها غضب السلطان على محمد باشا الساطورجى لاهماله فى أمر المحاربة واتعابه العسكر واسرافه فى المصارف وانتزاع يافق فى زمانه واقتلاع بعض قلاع فأرسل اليه السلطان من قتله

﴿ الغزوة الرابعة جهز مولانا السلطان محمد جيشا ﴾

فى سنة ثمان بعد الالف ففتحوا قلعة فانيسره وكان فتحها على يد الوزير الاعظم ابراهيم باشا وكان فتحاً عظيماً يعادل فتحاً أكراى وسر بها المسلمون وزينت البلاد

لهذا الفتح ثلاثة أيام وكان فى أيام محاصرتها وقع اضطراب عظيم فرأى بعض
الصلحاء فى منامه شيخ الاسلام صنع الدين جعفر وهو يأمره بقراءة هذا الدعاء
وهو اللهم قو قلوب المؤمنين بقوة الكرام البررة وألق الرعب فى قلوب
الكفرة الفجرة فشاع هذا الدعاء وداوم على قراءته الناس فظهر أثره ولله الحمد
وفى هذه السنة استولت النصارى على استون بلغراد ثم استرجعت منهم

﴿ الغزوة الخامسة الى بلاد المجر ﴾

فى سنة عشر بعث مولانا السلطان سنان باشا ابن جغال لمحاربة المجر ففتح تلك
السنة قلعة قنجة

﴿ الغزوة السادسة الى بلاد العجم ﴾

فى سنة احدى عشرة جاء الخبر بأن شاه العجم نقض الصلح واستأسر محافظ تبريز
واضطرب أمر المسلمين فضمت تبريز الى وان ووجهنا الكافل حلب نصوح باشا
وعين السلطان عسكرا جرارا وأردف بهم نصوح باشا ثم توفى السلطان محمد قبل
تمام الامر وكان تمامه فى مدة سلطنة ابنه (السلطان أحمد الاول) وكانت وفاة
السلطان محمد سنة اثنتى عشرة بعد الالف وعمره تسع وثلاثون سنة ومدة سلطنته
تسع سنين وشهران وتسلطن بعده ابنه السلطان أحمد الاول وهو الرابع عشر من
سلاطين آل عثمان والقمر ليلة الرابع عشر يسمى بدرا فلذلك قال بعضهم ان
السلطان أحمد يستحق أن يسمى بدرا لانه أضاء به الملك فانه لما تسلطن كان البغاة
والخارجون قد كثروا فى كل ناحية من أواخر سلطنة والده فسعى السلطان أحمد
فى اخمادهم وجد فى قطع دابرهم حتى أبادهم وكان سلطانا عظيم القدر جميل الذكر
محبا للعلماء وآل البيت والصحابة متمسكا بالسنة النبوية حسن الاعتقاد معاشرا
لارباب الفضائل سمح الكف جوادا لاتزال احساناته للفقراء واصلة وعطاياه
لارباب الاستحقاق مترادفة وجاء تاريخ جلوسه فى السلطنة (هو خير السلاطين)
ومن خيراته ومآثره أنه فى سنة أربع وعشرين وألف أرسل الى الحجرة
الشريفة النبوية فصين من الالماس قيمتهما ثمانون ألف دينار فوضعهما فوق
الكوكب الدرى وهذا الكوكب هو الذى تجاه الوجه الشريف فى الجدار

وهو فى مسمار من الفضة مموه بالذهب فى رخامة حمراء ومن استقبله كان مستقبل الوجه الشريف وله صدقات كثيرة فى أهل الحرمين

﴿ ذكر غزوة من غزواته ﴾

جهز جيشا فى ابتداء دولته وأرسله مع وزيره الاعظم على باشا فر الى بلاد المجر فمات على باشا وهو متوجه فأقام بدله محمد باشا الذى كان سردارا فى الروم ايلى ثم سعى مراد باشا بالصلح بين مولانا السلطان أحمد والمجر والهدنة عشرين سنة ودخل الى دار السلطنة ومعه رسل المجر ومعهم الهدايا والتحف فقبل مولانا السلطان أحمد ذلك

﴿ ذكر غزوة أخرى ﴾

فى سنة ثلاث عشرة بعد الالف جهز جيشا وبعثه مع محمد باشا البوسنوى أحد الوزراء العظام لفتح قلعة استرغون فسار اليها ولم يتمكن من فتحها تلك السنة ثم فتحها فى سنة أربع عشرة

﴿ ذكر غزوة الى بلاد العجم ﴾

فى سنة ألف وأربع عشرة جهز جيوشا الى بلاد العجم وكان عليها سنان باشا ابن جغال فوصل اليهم وقتلهم وانتصر فى أول الامر ثم خالف أمره بعض الوزراء الذين كانوا معه فكان ذلك سببا لانهزام الجيوش فانهزموا وقتل منهم خلق كثير

﴿ ذكر غزوة أخرى الى بلاد العجم أيضا ﴾

فى سنة ست عشرة وألف جهز جيشا عظيما يقوده مراد باشا وكان قد كبر وشاخ فجعل الامر لنصوح باشا وتأخر فى ديار بكر ومرض ومات فتقدم نصوح باشا لمحاربة العجم فقاتلهم وقهرهم واستولى على تبريز فهرب سلطانهم عباس شاه والتجأ الى بعض الجبال وأرسل يطلب الصلح فأجابهم نصوح باشا الى ذلك بعد أن اشترط عليه أن يذكروا اسم السلطان فى بلاد العجم ويدعوا له فى الخطبة وان الشاه عباس يدفع مصاريف الحرب ويقوم بالخسارة التى أحدثها فى بلاد السلطنة العثمانية فقبل الشاه عباس ذلك وانعقد الصلح ورجعت العساكر العثمانية الى بلادها

﴿ ذكر غزوة أخرى الى بلاد العجم أيضا ﴾

فى سنة خمس وعشرين وألف نقض الشاه عباس تلك العهود ولم يف بالشروط

ففتحت الحرب ثانيا بين الدولتين وأرسلت الجيوش العثمانية مع نصوح باشافظ
وانتصر واستولت الجيوش على بعض القلاع بعد حرب شديد ثم وقفت الحرب
بسبب كثرة الثلج والبرد ومات من العسكر جانب عظيم وأشيع أن الشاه انما نقض
الصلح بمكاتبة جاءته من نصوح باشا وعده بالاعانة فأمر مولانا السلطان أحمد بقتل
نصوح باشا فقتل سنة خمس وعشرين وألف * وفي سنة ست وعشرين توفي
السلطان أحمد وعمره خمس وعشرون سنة ومدة سلطنته أربع عشرة سن
وأوصى بالسلطنة لاخيه مصطفى بن محمد لان أولاد السلطان أحمد كانوا صغار
وأخوه أكبر منهم وكان أبوه السلطان محمد أوصاه به فكان يرعاه فبويع
أخوه (السلطان مصطفى) وخلع بعد ثلاثة أشهر لانه كان صالحا زاهدا متقشفا ف
تظهر كفاءته للسلطنة لشدة بذله الاموال وكثرة ركوبه الى المحلات البعيدة من
غير تقيد بأمر مركوب ولا غيره لانه تارك للدنيا وليس براغب فيها بحيث انه كان
في مدة سلطنته لبسه جوخة خضراء بأكمام عربية وأما أكله فانه لم يأكل الدسم
مطلقا وانما كان يأكل الكعك الناشف واللوز والبندق وأنواع الفواكه وأما
أمره في النساء فان والدته أحضرت له جواري عديدة فلم يقبل منهن واحدة
وكان لا يدري من أحوال الملك الا ما يلقى اليه فلما رأى أركان الدولة أن الامر به
لا ينتظم ذهب المفتي المولى أسعد بن سعد الدين الى اسكدار للشيخ محمود المعتقد
الصالح العالم العامل يستشيره في خلعه فأشار بخلعه وأن يولي مكانه السلطان عثمان
ابن السلطان أحمد ثم جاء من عنده وأخبر قائم مقام الوزير مصطفى أغا ضابط الحرم
قريب العشاء من ليلة الاربعاء ثالث شهر ربيع الاول فأرسل القائم مقام الى
الصو باشي اذا جاءتك في غد ورقة مختومة فافعل بما فيها واحترس على الابواب فقال
سمعا وطاعة وكان الصدر الاعظم محمد باشا قد توجه بجيش لمحاربة العجم في مدة
السلطان مصطفى وأما مصطفى أغا فانه أول ما مضى من ليلة الاربعاء ست ساعات
ذهب الى أبواب السرايا وقفلها جميعا وكذا أبواب الامكنة التي فيها أكابر الخدم
وأخذ المفاتيح وهيأ المحل الذي فيه تخت السلطنة وأوقد فيه الشموع وفرشه

بأحسن الفرش وذهب من حينه الى السلطان عثمان فى مجلسه الذى هو فيه وهو محل عمه مصطفى الذى كان فيه فى حياة السلطان أحمد وفتح عليه الابواب فحصل له رعب وتخوف من أن يكون عمه أرسله اليه ليقتله فقال له لاتخف أنت صرت سلطاننا فلم يصدق ذلك فصار يحلف له أن القول صحيح ولا زال يتلطف به الى أن أدخله الى محل التخت فألبسه ثياب الملك وأجلسه على التخت وقبل يده وصار يفتح أبواب السرايا بابا بابا و يدخل من كان داخل الابواب للمبايعة حتى لم يبق أحد فى السرايا بغير مبايعة هذا كله والسلطان مصطفى نائم عند والدته ثم أرسل مصطفى أغا المفتى وقائم مقام الوزير فحضرا و بايعا ثم ذهبوا الى السلطان مصطفى قبل الفجر فطلبوه من الداخل فخرج اليهم وقال لهم ماجاء بكم فى هذا الوقت فكان أول من تكلم شيخ الاسلام أسعد فقال له ان أمر المملكة اختل وان الاعداء تسلطت علينا ونحن نخشى ضياع الملك وأنت لست بلائق للسلطنة فأجابه بقوله أنا ماطلبت منكم الملك ولا أردته وليس لى به مصلحة فقالوا جميعا لانكتفى بقولك هذا ولا بد أن تذهب معنا وتبايع ولد أخيك (السلطان عثمان) فانا قد أجلسناه على التخت فقال جعله الله مباركا وليس عندى مخالفة وذهب وبايع السلطان عثمان فقالوا الآن نحضر جميع الوزراء وأركان الدولة وأشهد على نفسك بالخلع فقال لهم أفعل ذلك فأرسلوا وأحضروا الوزراء وقاضى العسكر وكتبوا عليه حجة بخلع نفسه وأرسل القائم مقام الورقة الموعود بها الى الصوباشى وفيها الامر بالمناداة وتولية السلطان عثمان فنودى بذلك وتم الامر وما انتطح فى ذلك عنزان وكان ذلك يوم الاربعاء ثامن شهر ربيع الاول سنة سبع وعشرين وألف وكان السلطان عثمان المذكور من أحسن السلاطين خلقا وخلقا وأجلهم سيما وطبعا له أدب وحياء وعرفان وفيه شجاعة وفروسية وكان ينظم الشعر التركى

﴿ ذكر أول غزوة من غزواته ﴾

كان الصدر الاعظم محمد باشا قد توجه بجيش لمحاربة العجم فى مدة السلطان مصطفى فلما بلغه خلعه رجع بطلب الانتقام ممن خلع السلطان مصطفى فلما وصل

الى دار السلطنة وعلم حقيقة الامر قاد الوزير المذكور الجيش ثانية لمحاربة العجم في مدة السلطان عثمان سنة ثمان وعشرين وألف ونجح في هذه التجريدة كل النجاح وارتجع من العجم الممالك التي اختلسوها وأرسل عباس شاه سلطان العجم يطلب الصلح على شروط موافقة للسلطان فأجابوه الى ذلك

﴿ غزوة ثانية الى البغدان ﴾

كان صاحب البغدان قد ألقى فتنة بين أهل بولونيا والدولة وحرضهم على العصيان فأرسل السلطان عثمان اليهم اسكندر باشا فاستظهر عليهم وقتل منهم عشرين ألفا وأسر عشرة آلاف ثم قتلهم وقطع رأس رئيسهم الذي حملهم على العصيان وأرسله الى دار السلطنة وألزم أهل بولونيا أن تدفع مائة ألف ريال وألزمهم أيضا بمصارف الحرب

﴿ غزوة ثالثة الى بولونيا ﴾

في سنة ثلاثين خرج السلطان عثمان بنفسه لقتال أهل بولونيا وهم القزاق وكان الذي خرج معه من الجيش ستمائة ألف مقاتل فأرسل أهل بولونيا يستنجدون بملوك الافرنج فأنجدتهم دولة الروسيا وفرنسا والباباوالمجر والنمسا وبعد محاربة شديدة طويلة فقد فيها من الطرفين نحو مائتي ألف انتصر عليهم وأخذ عدة قلاع وغنم غنائم كثيرة ثم عقد صلحا معهم ورجع الى مقر ملكه بعد أن أخذ منهم الجزية فهابته ملوك الآفاق وقويت شوكته واتسعت دائرة الملك في أيامه وكان فيه صلاح وتعطف وخشوع وأمر في أيامه بتعطيل خانات الخمر ودار عليها بنفسه وقفل أبوابها وطرد أصحابها

﴿ ذكر ارادته الخروج للحج المؤدي الى قتله ﴾

في شهر رجب من سنة احدى وثلاثين وألف عزم السلطان عثمان على الحج من طريق البر وأراد التوجه الى الشام وأخرج خيامه وسرادقه الى اسكدار سابع رجب وصمم على هذا الامر فحصل التخلل من العسكر في ذلك اليوم وقامت الفتنة واجتمعت العساكر واتفقوا على عدم السفر معه وأخرجوا فتوى ان السلاطين لا يكلفون بالحج فلما بلغ السلطان ذلك غضب غضبا شديدا ولم يلتفت الى كلام المفتي فأخذ المفتي وأصحابه يهيجون العساكر ثم تجمعوا في المكان

المعروف آت ميدانى واتفقوا على قتل الوزير الاعظم دلاور باشا وضابط الحرم السلطانى والدفتردار ومعلم السلطان المولى عمر بدعوى أنهم كانوا السبب لتحرك السلطان الى السفر للحج ثم هجموا فى ذلك اليوم بعد الظهر على بيت معلم السلطان ونهبوا أمواله وأرادوا قتله فما وجدوه ثم فى وقت العصر اجتمع كبار العلماء بالسلطان وسألوه أن يسلم الوزير الاعظم وضابط الحرم أو يقتلهما هو حتى تسكن الفتنة وأبرموا عليه بالسؤال فامتنع ثم تفرق العسكر * وفى ثانى يوم وهو يوم الخميس اجتمعوا أيضا والعسكر كلهم بالاسلحة وآلة الحرب وذهبوا الى الموالى وجمعوهم بالجامع الجديد الذى عمره السلطان أحمد وأرسلوا قاضى عسكر وقاضى دار السلطنة وبعض الموالى الى السلطان بطلب الجماعة الذين اتفقوا على قتلهم المذكورين أولا فامتنع من تسليمهم واستمروا فى مراجعته الى وقت الظهر ومل العسكر من الانتظار فهجموا على دار الخلافة فوجدوا السلطان مصطفى فى الموضع المحبوس فيه نائما على فراش بال وعنده خادمان أخرسان جالسين أمامه ومملوك يدعى درويش أغا فاستيقظ السلطان مصطفى فلما رآهم ظن أنهم يريدون قتله فدلهم عنقه بكل خضوع فأكبوا على أقدامه يقبلونها قائلين له ياسلطاننا عساكرك ينتظرونك خارجا قم فانهض بنا ورفعوا السلطان مصطفى وأنزلوه الى فسحة الجنينة وأركبوه على حصان المفتى وساروا به الى جامعهم ولما علم السلطان عثمان ذلك تحير فى أمره فأخذ معه الوزير الاعظم السابق حسين باشا وذهب به الى بيت ضابط الجند ليدبر أمره وقال له السلطان نذهب ونأخذ خاطر العسكر ونجعل لكل انسان منهم خمسين شريفيا وخمسة أذرع من الجوخ وألزمه بذلك فذهب الى العسكر وكلمهم فى ذلك فما كان جوابهم إلا أن قتلوه وذهبوا من وقتهم الى بيته وقتلوا حسين باشا وقبضوا على السلطان وأحضروه بين يدى السلطان مصطفى فأرسله الى يدى قلة وأحضروا دلاور باشا وضابط الحرم وقطعوا رأسيهما وعلقوا رؤس الجميع على جامع السلطان بايزيد ووقعت البيعة العامة (للسلطان مصطفى) فجعل زوج أخته

داود باشا وزيرا أعظم و بعد العصر من هذا اليوم ذهب داود باشا الى يدى قله من غير علم السلطان مصطفى وخنق السلطان عثمان وغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه عند أبيه السلطان أحمد وذلك فى اليوم الثامن من رجب وجرت أمور هائلة ونهبت دور كثيرة من دور أركان الدولة وقيل فى تاريخ قتله

مات سلطان البرايا * فهو فى الاخرى سعيد
قال لى الهاتف أرخ * ان عثمان شهيد

٥١ ٦٦١ ٣١٩

١٠٣١

وكانت ولادته سنة ثلاث عشرة وألف ووفاته سنة احدى وثلاثين ومدة خلافته أربع سنوات وشهر وعمره سبع عشرة سنة بعد تمام البيعة للسلطان مصطفى بيومين جهرت العساكر الصباحية أمام سرايا داود باشا وزير الصدارة يسألونه لماذا قتلت السلطان عثمان ونشأ من ذلك فتنة أخرى آل الامر فيها الى قتل داود باشا فقتل بعد عشرين يوما وصار البحث عن الاشخاص الذين تداخلوا فى قتل السلطان عثمان فقتلوهم واضطربت أمور السلطنة والوزارة وأقام أهل الاناضول وأمراؤها ونوابها على ساق لطلب دم السلطان عثمان وأظهروا الاستقلال التام فى ولاياتهم وامتنعوا من الدخول فى بيعة السلطان مصطفى ولم يزل الأمر يزداد شدة الى أن خلعوا السلطان مصطفى رابع ذى القعدة سنة اثنتين وثلاثين وألف فمدة سلطنته سنة واحدة وأربعة أشهر وما عاش بعد ذلك كثيرا وكانت ولادته سنة ألف رحمه الله ولما خلعوه وأقاموا فى السلطنة (السلطان مراد الرابع) أخا السلطان عثمان بن أحمد قال فى خلاصة الاثر وكان عمره احدى عشرة سنة وسبعة أشهر و جاء تاريخ ولايته (مراد خان العادل) ١٠٣٢ ومع صغر سنه كان له عقل ثاقب ورأى سديد وكانت تظهر عليه أمارات الشجاعة وقوة القلب فكان من أعظم أبطال ذلك الزمان وكان اسكندر الثانى فى تلك الايام بل كان من أعلى السلاطين مقدارا وأوسطهم همة واقتدارا اخضعت لعظمته

رؤساء الاكاسرة وذلت لحرمته وقهره تصلب فى قمع المفسدين سديد الرأى فى أمره كان من أمره أنه ابتدأ أولا باستئصال الطغاة من العسكر الذين قتلوا أخاه فاهتم بأمر تحصيلهم من البلاد وتتبع قتلهم وأجاد وبلغ من قوته أنه رمى بقوس الى درقة مطبقة احدى عشرة طبقة فثبت العود فيها فلم يقدر أحد على انتزاع العود منها فأرسلها الى مصر وبرز أمره الى العساكر المصرية باخراج العود منها وأن من أخرجه يزاد فى علوفته فحاولوا اخراجه فعجزوا عن ذلك

﴿ ذكر استيلاء العجم على مدينة بغداد ﴾

لما بلغ العجم قتل السلطان عثمان واعادة السلطان مصطفى وعلموا اضطراب الدولة العثمانية وضعوا أيديهم على كثير من البلاد التى افتتحها العثمانيون وملكوها فمن ذلك مدينة بغداد وكانت بغداد فى كفالة الوزير يوسف باشا فوقع بينه وبين واحد من كبار عسكره اختلاف يقال له بكر الصوباش فحاصر بكر الوزير فى قلعة بواسطة العسكر فأصاب الوزير رصاصة مات منها فتغلب بكر على بغداد فلما رأى اضطراب أمر الدولة أظهر العصيان والاستبداد فبعثت اليه الدولة جانبا من العسكر لتأديب هذا العاصى وجعلوا أمر هذا العسكر تحت رياسة حافظ باشا فلما بلغه ذلك كتب الى شاه العجم أن يحضر لكى يسلم له بغداد فأرسل من يستلم منه مفاتيح المدينة مع جانب من العسكر نحو ثلاثمائة وأنعم على بكر الصوباش بعمامة قزل باش وقبل وصول العجم الى بغداد وصلت عساكر الدولة وأقامت الحصار على بغداد فأرسل بكر الصوباش لحافظ باشا يطلب منه أن يلقبه بكلس بك لكى يطرد الأعجام فلم يقبل منه حافظ باشا ذلك * وفى أثناء ذلك وصل رسول العجم الى بغداد وأرسل يقول لحافظ باشا ان بكر الصوباش صار يخص شاه العجم فاذا كنت تريد حفظ الصداقة بيننا فارحل عن بغداد فغضب حافظ باشا من كلامه هذا وأجابه كلاما غليظا واشتبك القتال فلما رأى حافظ باشا أنه لا يمكنه فتح بغداد لأنها كانت حصينة وتكاثرت عليه عساكر العجم قام عنها وذهب على طريق الموصل بعد أن كتب الى بكر الصوباش انه والى بغداد يريد

بذلك ترغيبه ليمتنع من تسليمها للعجم ففرح بذلك بكر الصوباش ورأى أنه بلغ غاية مرامه فقتل جماعة شاه العجم وعلق رؤسهم على شرافات السور وأخذ العمامة التى بعثها اليه الشاه عباس ووطئها برجليه وأرسل رسولا الى حافظ باشا يشكر فضله على ذلك وأما الشاه عباس فانه لما بلغه مافعله بكر من الانتقاض والخيانة حضر بنفسه ومعه جيش جرار وأرسل لبكر يطلب منه تسليم المدينة فامتنع وأجابه بأنه لايسلمها ولايقدر الشاه عباس على قبضها ولو أحضر لحصارها عشرة شاهات نظير الشاه عباس فجاءت جيوش الشاه عباس وأحاطت بأسوار مدينة بغداد فأمر بكر الصوباش باطلاق المدافع من الابراج على الاعجام واشتبك القتال بين الفريقين وأرسل بكر الى حافظ باشا يخبره بقدوم جيش الاعجام ويستنجده فأنجده بفرقة من العساكر تحت رياسة كور حسين باشا فلما وصل الى قرب بغداد نزل بعساكره فى موضع يقال له قروان سراى فلما علم قائد عسكر العجم بقدوم عساكر الدولة صنع خديعة وأرسل يطلب كور حسين باشا ليتحادث معه فى أمر الصلح فذهب ومعه بعض كبار العسكر فبينما هم فى أثناء الطريق وثب عليهم جماعة من الاعجام كانوا كامنين لهم فى الطريق فقتلوهم وقدموا رؤسهم لشاه عباس عوضا عما فعله بكر بقتله الأعجام الذين علق رؤسهم على شرافات السور ومكث الحصار على بغداد ثلاثة أشهر فكانت الاهالى تشكوا من الجوع واشتد الحصار حتى أكل الآدميون بعضهم وخرج كثير منهم الى معسكر الاعجام وكان لبكر ولد يقال له محمد وكان مثل أبيه فى الخيانة وكان هو المتسلم محافظة قلعة بغداد فأرسل له الشاه عباس يغره ويعده ويمنيه بأن يجعله حاكم بغداد عوض أبيه فاغتر وقبل وعد الشاه وفى الليلة الثانية فتح أبواب القلعة ليلا للاعجام فهجموا ودخلوا المدينة بضجة عظيمة وكان ذلك سنة اثنتين وثلاثين وألف وكان بكر نائما فانتبه مذعورا من ذلك الضجيج وصراخ الاعجام وكانوا أصعدوا اناسا منهم الى المنائر يصرخون بقولهم قد انتصر الشاه عباس وملك بغداد فلتطمئن الاهالى وتفتح الأسواق وترجع الناس الى

..قاها وذهب منهم جماعة الى بكر فى منزله فقبضوا عليه وأتوا به الى الشاه فلما
..س أمامه رأى ولده جالسا الى جانب الشاه وأخذ الولد يوبخ أباه على الخيانة
..ى التى حصلت منه فى حق الشاه ثم أمر الشاه أن تسلب جميع أموال بكر
..طى لولده ثم انهم أخذوه ووضعوه فى قفص من حديد ووكلوا ولده بحراسته
.. اليوم السابع طرحوا ذلك القفص الذى فيه بكر فى موقد نار لكى يقرروه
.. المكان الذى أخفى فيه الأموال ثم أخذوا ذلك القفص ووضعوه فى قارب
..هون بالزفت والكبريت وأضرموا فيه النار ليلتهب فى الدجلة أمام الناس
..صل فى بغداد قتال بين أهل السنة والاعجام بسبب هذه الفتنة ولما كان بينهم
.. نفاسن العداوة حتى جرى الدم فى أزقة المدينة وأخذ الأعجام خطيبين
..هورين من أهل السنة أحدهما يدعى نورى افندى والآخر عمر افندى
..روهما أن يسبا أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فامتنعا فملقوهما فى نخلة وأطلقوا
..يهما الرصاص فماتا من ذلك وأما الشاه عباس الذى كان قد وعد محمد بن بكر
..لا فى مكان أبيه فانه أخذه وأرسله الى خراسان وأمر بقتله هناك فقتل وبعد
..ك أقام الشاه عباس فى بغداد مدة ثم سار بالعسكر لمقاتلة حافظ باشا ونزل على
..وصل وأقام عليها الحصار مدة فلم ينجح فرجع الى بغداد وذهب حافظ باشا الى
..سطنطينية ثم عاد بعساكر نحو عشرين ألفا وسار لمحاشرة بغداد وتخليصها
.. العجم وانتشب فيهم القتال وطال الحصار فسئموا العساكر وقاموا على حافظ
..فعزلوه وحبسوه فى قلعة خارج بغداد وأقاموا عليهم مراد باشا ثم عزلوه
..رجعوا حافظ باشا ثم قاموا عليه أيضا ليقتلوه فهرب منهم واختفى فى موضع يقال
..ه الامام ثم اصطلح مع العساكر ونهض بهم راجعا عن حصار بغداد فسير
..شاه عباس خلفه جانبا من عساكره ليضربوه فى الطريق فقاتلهم حافظ باشا
..زمهم هزيمة هائلة وقليل منهم رجع الى بغداد ثم قام على مراد باشا فقتله لانه
..سبب فى اختلال الأمور ثم سار حافظ باشا بعسكره الى الموصل فأقام مدة ثم
..ته الأوامر من الدولة أن يتقدم الى حلب الى أن تأتيه نجدة من العساكر

و بعد مدة عزل حافظ باشا وأقيم مكانه خليل باشا ثم مات و ولى بدله خسرو
وكان الجيش الذى مع خسرو باشا مائة وخمسين ألف مقاتل فجاء وحاصر
وحصل قتال شديد ولم تحصل نتيجة فرجع الى الموصل وصنع وليمة لكثير
العسكر فلما حضروا قتلهم زاعما انهم السبب فى اختلال الأمور وأرسل
أربعين ألفا وجرت أمور يطول الكلام بذكرها * ومات الشاه عباس
ست وثلاثين وألف وبقيت بغداد بيد العجم الى سنة ثمان وأربعين وألف
مولانا السلطان مراد بنفسه

﴿ ذكر فتح بغداد ﴾

فى سنة ثمان وأربعين وألف تجهز مولانا السلطان مراد وتوجه لفتح بغد
مائة ألف مقاتل ثم تتابعت الجنود حتى بلغت ثلاثمائة ألف ولما خرج
السلطنة كان لابسا لبس العرب القدماء وعلى رأسه خودة من البولاد
محاطة بشال أحمر مسدولة أطرافه على أكتافه ولما وصلوا الى بغد
العساكر بأطرافها ولما بلغ الشاه ذلك جاء من تبريز ومعه عساكر كثير
بهم عساكره الذين فى بغداد والتقى بعساكر الدولة على شاطئ الدجلة
قتالا شديدا وهزموه هزيمة قبيحة وكان يوما مهولا مشؤما على الاعجام ثم
الحصار على بغداد وضربت مدافع السلطان على الابراج وكانت ما
فخرقتها وهدمت كثيرا منها وأمر السلطان بحفر لغم عظيم ووضع فيه
وأطلقت فيه النار فهدم جانبا عظيما من جدار السور فلما رأى أهل بغداد
بعثوا الى الشاه انهم يريدون التسليم فبعث الشاه الى السلطان فى طلب
فلم يقبل ثم شدد السلطان الحصار و والى القتال الى أن يسر الله فتحها
ثامن شعبان وكان مدة حصارها أربعين يوما ودخلها العسكر ومولانا
مراد فى أثرهم وقتلوا من العجم أكثر من عشرين ألفا وأسروا كثير
رؤسائهم وقيل ان الذين قتلوا من العجم فى هذا القتال خمسون ألفا
ثلاثون ألفا طرح البعض منهم نفسه فى نهر بغداد والبعض تشتتوا
وأمر السلطان بقتل كل من يخفى عنده رجلا عجميا فجمعوا منهم بعد

ب وأنوابهم الى السلطان فأمر بقتلهم فقتلوا عن آخرهم وكان الذى فقد من
عسكر السلطان عشرة آلاف ثم أمر مولانا السلطان بتجديد عمارة مشهد
الإمام الأعظم أبى حنيفة ومشهد الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنهما
بين ما كان أحدثه الاعاجم فى المشهدين وأمر ببناء ماتهدم من السور والقلعة
ووضع بها بالعسا كر وترك فى بغداد عشرة آلاف من العسكر وعين لكفالة
بغداد وولايتها وزيرا ورجع الى دار سلطنته ومقر ملكه سالما غانما منصورا وكان
لدخوله القسطنطينية احتفال عظيم فدخل وكان معه خمسون من خانات العجم
مقيدين بالسلاسل وكان حاملا بيده حزمة من السلاح وأكتافه مغطاة بجلد نمر
كما فعل اسكندر لما فتح مدينة بابل وبالجملة فقد كان هذا السلطان من أعظم ملوك
آل عثمان * ومما كان فى مدة سلطنته أنه أمر بتبطيل القهاوى فى جميع ممالكه
ومنع من شرب الدخان بالتأكيدات البليغة ومما يدل على سعادته العظمى توجه
همته الى أهل الحرمين الشريفين وأمره المتولى الجهات خصوصا مصر
بإيصال حبوبهم وارسال مغلات أوقافهم فامن أمر بردمنه الاوفيه الحث على ذلك
ومن ذلك أيضا التفاته الى أخبار الرعية مطلقا والبحث عن أحوال ولاة البلدان
بحثا ومحنا تامين بحيث ان ولاة الجهات لايجاوزون حدا ومن سعادته العظمى
عمارته الكعبة المشرفة وتجديدها كلها وذلك أن فى سنة تسع وثلاثين وألف جاء
سيل عظيم بمكة ودخل المسجد الحرام وهدم بعض جوانب الكعبة واتفق العلماء
المدرسون انه لابد من تجديد الجميع فعرضوا الامر الى مسامع مولانا السلطان
السلطان المذكور فبرز أمره العالى بالتعمير فهدموا الباقى وعمروا الجميع فهذا
البناء الموجود الآن من مفاخر مولانا السلطان مراد وتم التعمير فى شعبان سنة
أربعين وكان أمير مكة فى ابتداء العمارة مولانا الشريف مسعود بن ادريس بن
حسن بن أبى نمى وتوفى فى أثناء التعمير وولى امارة مكة مولانا الشريف عبد الله
بن حسن بن أبى نمى وهو جد مولانا الشريف محمد بن عون فكان تمام التعمير
فى ولايته وجاء تاريخ ذلك * رفع الله قواعد البيت * ولبعضهم

١٠٤٠

* مرادبنى بيت الاله وزاده * سناءبهاء يزدهى زيد مجده *

١٠٣٩ ٢٣٠ ٨٠٩

ولما حصل هذا التعمير أبقوا باب الكعبة القديم على حاله * ثم فى سنة
وأربعين برز الامر السلطانى بتجديد الباب فجددو ووضع عليه حلية الباب
ووزنت قبل وضعها فجاءت مائة وأربعين رطلا خارجا عن الزرافين فو
شابهها مما كان على الباب ثمانية عشر رطلا وكتب على الباب الجد
مولانا السلطان مراد وذلك موجود الى الآن وأرسل الباب القديم
السلطنة وجعل فى الخزائن السلطانية وكانت ولادة مولانا السلطان
سنة احدى وعشرين وألف وتوفى تاسع شوال سنة تسع وأربعين وألف
تسع وعشرون سنة ومدة سلطنته ست عشرة سنة وأحد عشر شهرا وخ
رحمه الله تعالى

﴿ ذكر ولاية مولانا السلطان ابراهيم بن أحمد مع ذكر أول غزواته ﴾

لم يخلف المرحوم السلطان مراد ولدا ولم يبق من اخوته السلطان ابراهيم
بعد وفاة أخيه قال فى خلاصة الاثر كان ملكا معظما حسن النظر سمح
وكان زمانه أنضر الازمان وعصره أحسن العصور وأطاعته جميع الم
وسكنت بيمن دولته الفتن واعتدل به الزمن وبعد مضى سنتين من ولا
جيشا لمحاربة القزاق فلم ينجحوا ثم أرسل عساكر وحاصروا أزوفة فلما
أهلها أحرقوا المدينة وانهزموا فدخلتها العساكر السلطانية وعمرتها
فيها جانبا من العساكر للمحافظة

﴿ غزوة أخرى لمحاربة جزيرة كريد ﴾

سنة خمس وخمسين وألف جهز السلطان ابراهيم جيشا فى مراكب بحرية
أربعمائة مركب لمحاربة جزيرة كريد بمائة ألف مقاتل وسبب ذلك أن م
مالطة كانت قد تعدت على بعض مراكب الدولة ثم ذهبت فاحتمت عند
البندقية فى كريد فلما وصلت عساكر الدولة العلية أقامت الحصار على

قندية وهى من أعظم مدن هذه الجزيرة وفى أقرب زمن استولوا عليها وجعلوا كنايسها جوامع ورجعوا الى القسطنطينية بعد أن تركوا فيها جانبا من العسكر فأرسلت لهم مشيخة البندقية عساكر فاستولوا على ما كان بأيدى العساكر السلطانية واستأسروا جانبا منهم فغضب السلطان من هذا الامر وجهز عليهم تجهيزا آخر فاخرجوهم واستولوا على المدينة المذكورة وحاصروا قلعة تمو وكانت قلعة حصينة الى أن ملكوها واستعانوا باللغم حتى أهلك خلقا كثيرا ثم ملكوا بقية جزيرة كريد الا قلعة قندية وطال أمرها مدة طويلة فتركوها وسيأتى ذكر فتحها فى مدة سلطنة السلطان محمد بن ابراهيم وجزيرة كريد من أعظم الجزائر وأكبرها تشتمل على بلاد واسعة ورساتيق كثيرة وذكر بعض من دخلها ان بها من القرى أربعة وعشرين ألف قرية وأن دورها مسيرة خمسة عشر يوما وهى ذات رياض نضرة وبها أنواع الفواكه والثمار وخيراتها وافرة ثم ان رجال الدولة خلعوا السلطان ابراهيم سنة ثمان وخمسين وألف بسبب انه كان منهمكا فى اللذات والشهوات مسرفا فى انفاق الاموال وسلاطين آل عثمان انما عظم شأنهم بزهدهم فى الدنيا وعدلهم فى بيت المال وقد حكى ان بعض سلاطينهم واعد مع شيخ الاسلام الذى كان فى وقته أن يجتمعا فى جامع من جوامع دار السلطنة فى وقت مخصوص بالخفية للتشاور فى بعض القضايا فحضر السلطان فى الوقت الذى تواعد وافيه وأبطأ شيخ الاسلام فى الحضور وما جاء الا بعد مضى مدة فلما حضر سأله السلطان عن سبب تأخره فقال لما أردت الخروج رأيت عمامتى وسخة فكرهت أن أقابل بها مولانا السلطان فأمرت أهلى أن يغسلوها وانتظرتها حتى جفت فلبستها وجئت فهذا يدل على انه ليس عند شيخ الاسلام غيرها فقال له السلطان لو كان عندى غير هذه التى على رأسى لاعطيتك اياها فانظر الى زهد هذا السلطان وزهد شيخ الاسلام فالاصل كله الزهد فى الدنيا والعدل فى بيت المال فالخلفاء الراشدون انما فتحوا البلاد ومصروا الأمصار بالزهد فى الدنيا والعدل فى بيت المال لا بكثرة الصلاة والصيام فالسلطان ابراهيم

لما رأوه مسرفا فى الانفاق رأوه مخالفا لما عليه أسلافه فكانت أفعاله عندهم غير مرضية فخلعوه وأجلسوا فى السلطنة ولده محمدا فكانت مدة سلطنة السلطان ابراهيم ثمان سنين وتسعة أشهر وفى ثالث يوم من خلعه قتلوه وعمره ثلاث وثلاثون سنة وكان ميمون النقيبة منصور الكتيبة طالعه سعيد ما جهز جيشا الى ناحية الا انتصر ولا قصد فتح ناحية الا افتتحها ولولا ما نقموا عليه به من الاسراف فى بيت المال وجميع السلاطين الذين جاؤا من بعده كلهم من ذريته

﴿ فائدة ﴾ فى خلاصة الاثر انه اتفق للسلطان ابراهيم المذكور ما لم يتفق لغيره من السلاطين فيما أعلم وذلك أنه رأى سلطنة أبيه وعمه وأخويه ووالده ثم ذكر انه استقرى من ولى السلطنة وكان اسمه ابراهيم فوجدوا لم يتم لاحدهم أمرها وقال الراغب فى محاضرته قال أبو على النظام كان المهدى يحب ابنه ابراهيم فقالت له أم ابراهيم ألا تراه يلى الخلافة فقال لا ولا يليها من اسمه ابراهيم ان ابراهيم الخليل أول نبى عذب بالنار وان ابراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعش وبويع ابراهيم بن المهدى فلم يتم له الامر وأحكم ابراهيم الامام أمر الملك ليكون أول خلفاء بنى العباس فقتل قتله مروان بن محمد بن مروان وطلب الخلافة ابراهيم بن عبد الله بن الحسن المثنى فقتل وبايع المتوكل لابنه ابراهيم المؤيد فلم يتم له وقتل فسبحان من دبر الامور على طبق علمه وأجراها بحكمته وفى مروج الذهب للمسعودى قال ابراهيم بن المهدى كنت أنا والرشيد على ظهر حراقة وهو يريد نحو الموصل والمدادون يمدون الشطرنج بين أيدينا فلما فرغنا قال الرشيد يا ابراهيم ما أحسن الاسماء قلت اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فما الثانى بعده قلت اسم هارون اسم أمير المؤمنين قال فما أسمجها قلت ابراهيم فزبرنى وقال ويلك ابراهيم خليل الرحمن عز وجل قلت بشؤم هذا الاسم لقى ما لقى من نمرود وألقى فى النار قال وابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لاجرم لما سمى بهذا الاسم لم يعش قال فابراهيم الامام قلت بحرفة اسمه قتله مروان الجعدى فى جراب النورة وأزيدك يا أمير المؤمنين ابراهيم بن الوليد خلع وابراهيم بن

عبدالله بن الحسن قتل ولم أجد أحداً معى بهذا الاسم الا رأيته مقتولا أو بمضر وبا أو مطر وداف انقضى كلامى حتى سمعت ملاحا على بعض الحراقات يهتف بأعلى صوته يا ابراهيم يا عاض كذا وكذا من أمه أى بظرها قال فالتفت الى الرشيد فضحك حتى فحص برجله اه

﴿ ولاية السلطان محمد الرابع ابن ابراهيم ﴾

كانت ولايته سنة ثمان وخمسين وألف بعد خلع أبيه وكان عمره اذ ذاك سبع سنين وكانت أمور الدولة فى ذلك الوقت مرتبكة عديمة الانتظام مزعزعة الاركان قد كثر حسادها وأعداؤها وكانت من جهة المالية فى ضيق وعسر والعساكر غير منقادة لاولياء أمورها وأصبح وكلاء الدولة فى الولايات غير مبالين فى تنفيذ أوامرها فمن هذه الاحوال نبعت الفتن وكثر الفساد وتقوى الضعفاء على الوزراء والاكابر فكان الوزير يتولى أياما ثم يعزل أو ينفى واستمر الحال هكذا نحو عشر سنين والدولة فى تعكير والسلطان مع صغر سنه لايزال يبحث هو وأمه عن رجل فيه اللياقة لان يتبوأ مسند الصدارة الى أن عثرا على محمد باشا كو برلى وكان مسنا حاذقا ذا دراية وخبرة وسياسة كاملة لان طول الايام علمه مالم يعلمه غيره فولى الصدارة سنة سبع وستين وألف وشرع فى سد الخلل الذى أوقع الدولة فى الانحطاط وبرهة قصيرة انتظمت أمور الدولة على أحسن نظام

﴿ ذكر غزوة فى أيام السلطان محمد لقتال المجر والقزق ﴾

كانت هذه الغزوة بتدبير الوزير محمد باشا كو برلى جهز جيوشا لقتال القزق والمجر وجميع العصاة الخارجين على الدولة حتى أهلكهم وأبادهم * وفى سنة ثمان وستين وألف استولى على مراكب البندقية وأخذ جزيرة بتفداس وجزيرة ليمنوس

﴿ ذكر غزوة أخرى تتبعها أخرى ﴾

وجهز جيشا لقتال السرب فانتصر عليهم وقتل منهم مائة وخمسين ألفا وخرج

جماعة من الاروام فى بلاد الافلاق وأظهروا العصيان فأرسل اليهم عسكرا فقاتلوهم وانتصروا عليهم وجهز جيشا لقتال البندقية فاخترمته الوفاة سنة اثنتين وسبعين وألف قبل اتمام الامر فأسندت الصدارة لابنه أحمد باشا الفاضل وكان أكثر من أبيه فى الحذق وحسن السياسة وكان أبوه أقرأه العلوم حتى مهر فيها وكان صائب الرأى كامل الفراسة (فراسة عجيبة) مما ينسب اليه من الفطنة أنه جاءه يوما شخص بتوقيع فتفرس فيه أنه مصنوع فأعطاه لبعض أتباعه وأمره بحفظه حتى مضى على ذلك ست سنوات فجاءه يوما شخص آخر برقعة فلما رآها طلب ذلك التوقيع فجىء به فقابله على الرقعة فاذا الخط واحد ثم سأل صاحبها عن كاتبها فأخبره به فلما مثل بين يديه أراه التوقيع وقال أليس هذا بخطك فأقر فأمر بقطع يمينه وعين له من بيت المال ما يكفيه

﴿ غزوة ابوار ﴾

ومن الغزوات التى وقعت فى أيام وزارته غزوة ابوار عينه السلطان محمد لفتحها فسار بجميع العساكر وحاصرها ووقع بينه وبين كفار المجر وقعة عظيمة ومكروا بعسكره مرات وخاصهم الله تعالى بيمن تدبيره ثم افتتحها سنة أربع وسبعين وألف وهدم مما يليها قلعة تسمى القلعة الجديدة كان الكفار بنوها ليتحصنوا بها

﴿ ذكر غزوة عظمى الى كريد ﴾

وفى سنة سبع وسبعين توجه بجيش الى جزيرة كريد لفتح بلدة قندية التى كانت بقيت فى هذه الجزيرة من بين بلادها لم تفتح كما تقدم شرح ذلك فلما وصلها بنى بالقرب منها مكانا كان متهدما لتهيئة مهمات الحصار ثم نزلها بمن معه من العساكر وكان أهل قندية حصنوها بأشياء لا يمكن حصرها وأضافوا لسورها سورا آخر عمروه من داخل السور القديم وطال الحرب بين الفريقين مدة وأرسل أهل قندية الى فرانسا يستنجدونهم فأنجدوهم بعمارة بحرية فيها خمسة عشر ألف مقاتل وجاءهم أيضا نجدة من مالطة ومن البابا فاجتمعت مع عساكر فرانسا

ونزلوا الى البحر وهجموا على العساكر العثمانية واقتتلوا قتالا شديدا كان النصر فيه لعساكر الاسلام فقتلوا أكثرهم ولم ينج منهم الا القليل فرجعت مراكب الفرنج بالخيبة ثم ان أهل فنديه أرسلوا للوزير يطلبون منه الصلح فأجابهم الى ذلك وأخرجهم منها ووضع فيها العساكر الاسلامية ورجع الوزير الى مقر الملك ومعه جملة من مراكب مالطة وغيرهم غنيمة وكثير من الأسرى وفى غرة جمادى الاولى سنة ثمانين وألف وردت البشائر الى الاطراف بالزينة وكثرت تباشير الناس بفتحها وأكثرت الشعراء من التواريخ لهذا الفتح ومن نوادرها التاريخ اللفظى المعنوى للفاضل الشيخ أحمد الصفدى وهو قوله (فى عام ألف وثمانين عام)

﴿ غزوة الى بلاد القرم يتبعها أخرى الى بولونيا ﴾

وفى سنة أربع وثمانين توجه الوزير بجيش لمحاربة القرم المعروفين بالليه من النصارى فافتتح قلعة قتجة وفى سنة خمس وثمانين وألف توجه بالعساكر الى بولونيا وفتح مدينة كمينا كرة الشهيرة فى متانة قلعتها وفتح بعدها جملة بلاد وحصون ثم عقد صلحا مع أهل بولونيا ووضع عليهم خراجا سنويا ولما رجعت العساكر الاسلامية بلغهم أن أهل بولونيا بدسائس النمسا والبابا تحركوا وأظهروا العصيان وانضم اليهم عصاة من الافلاق والبغدان والقزق واتسع الامر وتوفى الصدر أحمد باشا الفاضل سنة سبع وثمانين وألف وحزن السلطان وجميع الناس عليه وولى الصدارة مصطفى باشا وكان قد خدم الوزير محمد باشا وابنه أحمد باشا الفاضل وترقى فى الخدم والمناصب وتعلم كثيرا من سياستهما وان لم يكن مثلهما

﴿ ذكر غزوة عظمى الى جهرين ﴾

وكان أول سفرة باشرها بعد ولايته سفرة جهرين فتوجه بجيوش عظيمة وافتتحها واحتوى على المملحة التى بالقرب منها وهذه المملحة من أعظم مجالب النفع لبيت المال حتى انهم يبالغون فيما يدخل منها حد المبالغة وسبب ذلك ان بلاد النصارى المعروفين بالموسكوف والقزق محتاجون اليها وليس فى بلادهم مملحة غيرها ولما فتحت هذه القلعة سر الناس سرورا عظيما لان فتحها كان فى غاية الصعوبة

وكان كثير من نصارى الروم يزعمون استحالة فتحها ويهزؤن بالوزير المذكور فى قصدها وأشاعوا أخبارا فى انكسار عسكر المسلمين وهزيمتهم وكانوا يظهرون الشماتة وسبب ذلك مايعرفونه من أنها تابعة لملك الموسكوف وهو أكثر ملوك النصارى جيوشا وأكبرهم ملكا وبالجملة فان فتح هذه القلعة كان من أعظم الفتوحات وبعد فتحها زينت دار الخلافة ثلاثة أيام وكان السلطان محمد اذ ذاك ببلدة سلسترة بروم ايلى فكتب الى قائم مقام القسطنطينية أنه يريد القدوم الى دار المملكة وأنه لم يتفق له رؤية زينة بهامدة عمره وأمره بالنداء لتهيئة زينة اخرى ثم قدم السلطان فشرعوا فى الزينة وبذلوا جهدهم فى التأنق فيها واتفق أهل ذلك العصر على أنه لم يقع مثل هذه الزينة فى دور من الادوار ثم وقع بعدها حريق فى القسطنطينية حرق فيه نحو اثنى عشر ألف بيت ثم تراسل الحريق فى كثير من المحلات حتى حسب ماوقع منه فكان تسعين حريقا كل ذلك فى سنة واحدة فكان ذلك الفرح سببا لهذا الترح فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

﴿ ذكر غزوة الى بلاد النمسا ﴾

ثم طلب الوزير مصطفى باشا من السلطان محمد الاذن بالسفر على بلاد الانكروس وافتتاح مدينة فيناقصبة بلاد النمسا فأذن له السلطان وشرع فى تهيئة الاسباب من الذخائر ومكاتبة نواب البلاد والعساكر وجمع من الجيوش والجنود مالا يدخل تحت حصر حاصر ولم يتفق جمع مثله من الزمان الغابر ثم طلع الوزير المذكور من القسطنطينية بأبهة عظيمة مصمما على أخذ النصارى بالقوة الجسيمة ولم يزل بمن معه من العساكر سائرين الى أن وصلوا قلعة يالق يوم الخميس ثانى عشر رجب سنة أربع وتسعين وألف ثم توجه يوم السبت قاصدا قلعة يج وأطلق أمره فى نهب القلاع والقرى التى على الطريق فما كان للعسكر مشغلة الا نهبها واحراقها واتلاف زروعها فأحرقوا من القلاع المعلومة نحو مائة قلعة ومايتبعها من القرى أشياء كثيرة جدا وكل قرية من هذه القرى بمثابة بلدة تحتوى على ألف بيت أو أكثر وجميع هذه القلاع والقرى فى نهاية الاحكام وحسن البناء

والبيوت فى غاية من اتقان الصنعة مسورات بالرخام وفيها من السماقى مالا يوصف وأكثر بيوت هذه البلاد ثلاثة طبقات الثالثة منها مصنوعة بالدق والخشب وعاثت العسكر فى بلاد الكفار الى قريب قزل ألما التى هى محل الانكروس المعروف بالباباو نهبوا ما قدروا عليه وحرقوه * ومن أغرب ما وقع فى هذا الاثناء ان سوقة العسكر كانوا كلما يدخلون قلعة من القلاع المذكورة فيرون فيها أناسا قلائل من النساء والرجال العاجزين عن الحركة فيقتلونهم و يستولون على القلعة ثم يطلقون فيها النار ففعلوا هذا فى أكثر من أربعين قلعة وغنم المسلمون غنائم لا تحصر وأسروا نحو مائة ألف أسير بحيث بيعت الجارية مع ولدها بثلاثة قروش وهرب عسكر النصارى من يج ونواحيها وأخذوا معهم كثيرا من الاموال فلحقهم جماعة من العسكر فاستأصلوهم قتلا ولما وصل الوزير المذكور الى يج وهى مدينة فينا وكانت النمسا قد حصنتها تحصينا عظيما وضرب مخيمه بها وهى قلعة عظيمة يحيط بها من جوانبها الثلاث الدور والأبنية والعمارات والحدائق ومن جملة ذلك سبعة عشر مكانا باسم الملك تحتوى هذه الأمكنة على عجائب الزخارف والفواكه والفساقى ومن السماقى والرخام وقد تقدم أن عسكر يج كانوا قد هربوا وكذلك هرب أهل الخارج من الرعية ولم يبق الا نحو عشرين ألف رجل وعشرة آلاف من العسكر وعشرة آلاف من الرعية فى داخل القلعة فأمر الوزير بمجاهدة القلعة فنصب عليها المكاحل وشرع العسكر فى رميها بآلات الحرب من المدافع والقلل حتى هدموا الدور والكنائس فضاق بمن فيها الخناق فى أقل من قليل والتجؤا الى أن يسلموها طوعا فأبى الوزير خوفا من أن ينهب العسكر ما فيها من المال فراجعه الوزراء والعسكر فى المبادرة الى دخولها صلحا خوفا من أن يأتى أمر فقال ان ضمنتم لى العسكر فى أن لا يأخذوا شيأ فعلت فأبوا فتمادى الامر يومين أو ثلاثة وهو و بقية الوزراء فى اعمال الفكر على أن يفتحوها عنوة وما لهم علم بما سيحدث وكان ملوك النصارى قد تكاتبوا لتجتمع جيوشهم و يستعين بعضهم ببعض على قتال المسلمين وكان ملك النمسا لما سمع بقدوم المسلمين بالجيوش فر

من مقر ملكه واحتمى ببعض القلاع من بلاده وأرسل يخاطب ملك بولونيا فى الاتحاد وقتال من يعاديهما فاتفقت النمسا وألمانيا وكثير من الفرنج على قتال المسلمين وكان البابا يحرضهم على ذلك ويرغبهم فيه وكانت مدة الحصار خمسا وأربعين يوما فبينما الوزراء يدبرون فى الفتح عنوة اذا بطلايع الكفار أقبلت وفى أثرها عسكر سد الفضاء وشبت نيران القتال لايبالون بقتل ولا ضرب بل يقدمون على الموت بجنان من الصخر وهجموا دفعة واحدة والعسكر فى غفلة عما رادبهم واختلطوا بهم طامعين فى قتلهم وسلبهم وأطلقوا السيوف وجردوا أسنة الحتوف ولم يكن أسرع مما انقلب العيان وجدت فى الوجوه العينان وكان المقدم من المسلمين من عمد الى الفرار ولم يقر له فى تلك الحركة القرار فقتل من قتل ونجا من نجا واحتوت الكفار على السرادقات والخيول وفازوا بأمر كان يتعسر اليه الوصول وكر الوزير بمن معه هاربا وتفرق العسكر فى تلك البرارى والوهاد ونفد ما كان معهم من الزاد ونفذ أمر العلى الكبير وهو على جمعهم اذا يشاء قدير ثم اجتمع كثير من العسكر مع الوزير ببلغراد وأظهرت نصارى الافلاق والبغدان والاردل العصيان وزحف الكفار على بلاد الاسلام قال بعض المؤرخين فى وصف اليوم الذى هجم فيه النصارى على المسلمين وهجموا دفعة واحدة على صفوف العسكر العثمانية واشتبك بينهم قتال مهول دائر من الصباح الى المساء حتى تخضبت الأرض بالدماء وتغطى من العجاج ودخان البارود كبد السماء وصمت الآذان من صوت المدافع والقنابر وكان يوما مهولا لم يسمع بمثله فى زمان غابر وبقى الوزير مصطفى باشا فى بلغراد فى قلق واضطراب مترقبا لما يظهر فى حقه من طرف السلطنة من الجزاء والعقاب فبرز الأمر السلطانى بقتله وتدميره جزاء على ما جناه من سوء تدبيره فقتل فى المحرم من سنة ألف وخمس وتسعين عليه رحمة المولى المعين وعين للصدارة بعده ابراهيم باشا وبعد تلك الوقائع الشديدة والحروب المهولة أخذ البابا يحرض أهل أوربا على طرد المسلمين من قرة بلادهم فاجتمعت العساكر من كل الجهات وصمموا على اخراج المسلمين من أوربا فتكفلت

النمسا وتكفلت مقدونيا ببلاد بولونيا والبندقية وغيرهم من ساكني شطوط البحر الابيض فى دلماتيا بكثير من البلاد وزحفوا على بلاد الدولة العثمانية من جميع الأطراف فكانت عساكر الدولة تحارب الافرنج من جملة أماكن والبابا يحرض الافرنج على التجلد والقتال وأنجدهم بجيوش كثيرة فلم ينجح تدبير ابراهيم باشا الصدر فعزل وأقيم مكانه سليمان باشا سنة سبع وتسعين وألف وسار بالعساكر الى بلاد المجر وكان هذا الصدر يريد أن يتمثل بمحمد باشا كوبرلى لكنه كان قاصرا فى التدبير فأراد العساكر قتله فتركهم وهرب الى القسطنطينية فقتله السلطان سنة ثمان وتسعين وألف وأقيم فى الصدارة سياوس باشا وكان السلطان مشغولا بالصيد واللهو وقد حفت المصائب بالدولة من كل جانب وكثر الجوع والغلاء والحرائق فتآمر أهل الحل والعقد من رجال الدولة وخلعوا السلطان محمدا سنة تسع وتسعين وتوفى سنة أربع ومائة وألف وكانت مدة سلطنته أربعين سنة وخمسة أشهر ﴿ لطيفة ﴾ فى مدة السلطان محمد المذكور ظهر يهودى يدعى انه المسيح ومسلم يدعى انه المهدى فى عام واحد وهو عام ألف واثنين وسبعين أما اليهودى فظهر فى أزمير زاعما أنه المسيح وكان اليهود ينتظرون النبى الذى وعدهم به موسى عليه السلام وهو آخر الأنبياء عليهم السلام فلما بعث عيسى عليه السلام كذبوه ولما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كذبوه أيضا ولم يزالوا ينتظرون النبى الذى وعدهم به موسى عليه السلام فاذا ظهر المسيح الدجال يتبعونه ويقولون انه هو النبى المبعوث فى آخر الزمان الذى وعدهم به موسى عليه السلام فلما ظهر هذا اليهودى بأزمير ادعى أنه المسيح عيسى ليغتر به كل من المسلمين واليهود ويتبعوه وأظهر لليهود أنه هو النبى الذى وعدهم به موسى عليه السلام وكان فصيح اللسان جميل المنظر وزعم أنه يوحى اليه وأنه إنما يتكلم بالوحى فصار بعض الناس و يجتمعون عليه ثم انتقل الى بيت المقدس وكاتب اليهود الذين هم فى الممالك العثمانية فأجابوه وآمنوا به وصاروا يأتونه أفواجا ليتبركوا به ويبالغون فيما يحكونه عنه من إظهار عجائب وخوارق عادات كان يوهم عليهم بها ويصنعها

بالحيل كالحواة فيزعمون أنها معجزات فانتشر اسمه وكثر أتباعه وكان ذلك
كله فى مدة سلطنة السلطان محمد بن ابراهيم بن أحمد بن محمد بن مراد بن سل
ابن سليمان ابن سليم فاتح مصر فأراد الوزير المتولى دمشق أن يقبض على ذلك
اليهودى المدعى لهذه الدعوى لما رأى من كثرة أتباعه وكان اليهود الذ
بالقسطنطينية قد كاتبوه وطلبوا منه أن يأتى اليهم فتوجه اليهم واستعدوا لملاقـ
ليأخذوا بيده ويتبعوه فأرسل الصدر الأعظم وقبض على ذلك اليهودى وهو
المركب الذى جاء فيه ووضعه فى السجن فكان اليهود يطلبون الاذن من الصد
الأعظم ليأذن لهم فى زيارته فى السجن وتقبيل أقدامه فكانوا يأتون لذلك
جميع الجهات فوضع الوزير على كل من جاء لزيارته مالا جزيلا يأخذه منهم و
من ذلك مالا كثيرا فكان السجن يضيق عن هؤلاء الذين يأتون لزيارة مسيحهم
ثم إن السلطان محمدا أحضر ذلك اليهودى بين يديه فأخذ يتكلم باللسان التر
كلاما ضعيفا غير فصيح فقال له السلطان محمد ان مسيحا مثلك يجب أن يكون فـ
اللسان بكل اللغات ثم قال له السلطان هل تصنع شيأ من العجائب فقال نعم
بعض الاوقات فقال له السلطان محمد انى أريد أن أجرب فيك هذه العجيبة و
أن يجرد من ثيابه ويوقف فى فسحة الميدان ويرمى عليه بالرصاص فان نجا
يهلك علم صدقه فيما يدعيه فلما سمع هذا الكلام خر راكعا على الارض وقال ان
قوتى لا تقدر على هذه العجيبة فأمر السلطان بقتله فرمى نفسه على قدم السلطان
يقبلها ويعترف بالتوبة وتكذيب نفسه والدخول فى الاسلام فقبل السلطان
محمد منه ذلك فأسلم وحسن اسلامه وصار يعظ اليهود فأسلم منهم خلق كثير
الرجل المسلم الذى ادعى أنه المهدى فانه رجل من الاكراد وظهر أيضا فى هذا
العام فى ناحية الموصل وتبعه خلق كثير فقبض عليه وأتى به الى السلطان محمد
أيضا فأحضره وعرض عليه مثل ما عرض على اليهودى فأبت نفسه الشقية أن
يعترف بالتوبة ويكذب نفسه بل رضى أن العساكر ترمى عليه الرصاص فرمو
عليه فمات من ذلك وبعده خلع السلطان محمد وأقيم فى السلطنة أخوه السلطان

سليمان الثانى ابن ابراهيم ﴿ ولاية السلطان سليمان الثانى ﴾

تولى السلطنة وأمور الدولة فى غاية الارتباك وزيادة على ذلك هاج العساكر الانقشارية وقتلوا كبيرهم وقصدوا كثيرا من الوزراء ليقتلوهم وقتلوا الصدر الاعظم سيواس باشا وأقيم بعده اسماعيل باشا واستولت النمسا على كثير من ممالك الدولة وكذا البندقية وبعد ثلاثة أشهر عزل اسماعيل باشا عن الصدارة وأقيم مكانه تكفور طاغلى مصطفى باشا سنة ألف ومائة وواحدة * وفى تلك السنة توجهت العساكر العثمانية الى ناحية أدرنه وفى ذلك الوقت كانت عساكر النمسا محاصرة بلغراد ثم ملكوها تلك السنة بعد حصار طويل

﴿ ذكر غزوة السلطان سليمان الثانى ﴾

ولما بلغ الدولة أخذ بلغراد أمر السلطان بتجهيز العساكر لكى يخرج بنفسه وكانت الخزينة خالية من المال فرضوا عن أهل القسطنطينية أن كل عائلة تجهز خيالين وفى أثناء ذلك توجه من طرف الدولة الى فينا بلاد النمسا ذو الفقار أفندى لأجل المخاطبة فى عقد الصلح فعرض عليه امبراطور النمسا انه عند دخوله يسجد أولا عند باب القلعة وثانيا فى وسطها وثالثا أمام كرسيه ثم يقبل ذيله ويضع كتاب السلطان بين يديه ويرجع ساجدا كذلك فأبى وأقام عشرة أشهر فى هذه المنازعة ولما رأى السلطان أنه قد طال أمر هذه المخاطبة أمر بالذهاب الى الحرب فتقدمت العساكر الى بلاد المجر وحاربتهم وأخربت قلاعهم واستولت على أكثر البلاد وكان الجرنال درسكوفيس قد خرج على عساكر الدولة فى نواحى بلاد اليونان وكسرهم وكان عددهم خمسين ألفا وأما عساكر النمسا الذين كانوا فى نواحى الطونة فقتلهم العساكر العثمانية وشتت شملهم فتركوا البلاد والقلاع وفر من بقى منهم

﴿ ذكر غزوة الى بلاد النمسا ﴾

ولما وصل ذو الفقار من بلاد النمسا الى بلاد القسطنطينية وأعلم السلطان بما جرى له فى بلاد النمسا لم يستحسن مصطفى باشا الصدر أن يتغاضى عن ذلك فعزم

على حرب النيمسا فامر بتجهيز العساكر وأخذ فى استجلاب قلوب الناس الذين كانوا تحت حماية النمسا حتى احتموا بالدولة وأخذ جميع الآنية الفضية والذهبية التى كانت عنده وعند السلطان وأرسلها الى دار الضرب فسبكها معاملة ثم توجه لمحاربة النيمسا ومعه نحو مائة ألف ففتح نيساو ودين وسمندرياو بلغراد ثم رجع الى القسطنطينية مظفرا منصورا

﴿ ذكر غزوة أخرى ﴾

وفى سنة ألف ومائة واثنتين بلغ الدولة تقدم النيمسا فزحف عليهم مصطفى باشا بالعساكر المنصورة وتوفى السلطان سليمان فى رمضان من هذه السنة بداء الاستسقاء وعمره خمسون سنة ومدة ملكه ثلاث سنين وتسعة أشهر

﴿ ذكر ولاية السلطان أحمد الثانى ابن ابراهيم وأول غزوة من غزواته ﴾

وجلس على تخت السلطنة بعده أخوه السلطان أحمد بن ابراهيم وكان الصدر الأعظم مصطفى باشا سائرا بالعساكر لمحاربة النيمسا وكانت عساكر الدولة تقدمت الى قرب بز رزدين واشتبك الحرب والقتال بين الجيشين وانهزم من جيش المسلمين رئيس العساكر الاكراد فلما شاهد ذلك مصطفى باشا صرخ عليهم بصوت عظيم واقتحم فى وسط المعركة يحرض العساكر على القتال والسيف بيده واذا برصاصة أصابته فى رأسه فوقع قتيلا رحمة الله عليه وبموته تغلبت عساكر النيمسا على العساكر الشاهانية ووقعت الهزيمة وقتل خلق كثير من المسلمين قيل ان عدد القتلى كان ثمانية وعشرين ألفا وفى ذلك الوقت كانت عساكر المسلمين البحرية منصورة على الافرنج نصرا شديدا وبعد موت الوزير أقيم مكانه عربجى على باشا ثم عزل سنة أربع وأقيم بيقلو مصطفى باشا وحدث فى هذه السنة حريقة فى القسطنطينية أحرقت ربع المدينة

﴿ ذكر غزوة فى خلافة السلطان أحمد الثانى ﴾

فى ذى القعدة من هذه السنة توجه الوزير الى بلغراد لمحاربة النيمسا وكانت محاصرة بلغراد فلما بلغ النيمسا قدوم الوزير رفع الحصار وهرب من أمامه فأمر

الوزير بترميم الاماكن التى أخربتها عساكر النيمسا ورجع بعدذلك الى أدرنة وبقى جيش الدولة محافظا هناك وكانت دولة انكلترا تداخلت مع دولة هولاندا فى اتمام الصلح مع الباب العالى والنيمسا ولم يتم * وفى سنة خمس ومائة وألف توجهت العساكر لمحاربة المجر وبسبب الامطار الكثيرة رجعوا الى بلغراد * وفى سنة ست توفى السلطان أحمد وعمره أربع وأربعون سنة ومدة ملكه ثلاث سنين وثمانية أشهر

﴿ ذكر ولاية السلطان مصطفى الثانى وغزوة يتلوها غزوات ﴾

وأقيم فى السلطنة بعده السلطان مصطفى الثانى ابن السلطان محمد الرابع ابن ابراهيم وبعد جلوسه عرض عليه قضية الصلح فلم يقبل بل أصدر فرمانا شريفا يقول فيه لايجوز لعبيد الله أن يمتعوا بالراحة وهم على تخت السلطنة فمن الآن وصاعدا احتم ان التلذذ والكسل يهجر من دولتى العلية لان الاعداء قد أحاطوا بمملكة الاسلام واستأسروهم وسوف آخذ ثارهم ان شاء الله تعالى وأسير امام جيوشى لان جدى سليمان العظيم الذى تتصاعد رائحة الطيب من قبره لم يكن يرسل وزراءه فقط للجهاد بل كان يخرج بنفسه للمبارزة فى الجهاد المقدس حتى ان فخره ومجده قد انتشر فى جميع الاقطار المسكونة وأنا سوف أصنع نظيره فأطيعوا أمير المؤمنين والسلام وكان السلطان مصطفى المذكور محبا للعلوم والمعارف متدينا عادلا وعلى جانب عظيم من الرقة والحذق ثم اجتمع رجال الدولة واتفقوا على أن السلطان لا ينبغى أن يخاطر بنفسه فلم يلتفت الى كلامهم

﴿ ذكر غزوة من غزوات السلطان مصطفى ﴾

ثم عزم على الخروج بالعساكر فأمر بجمع الجيوش وأرسل عمارة بحرية فضربت مراكب مشيخة البندقية بقرب ساقس وكسرتهم كسرة مهولة وشتتتهم فى جهات البحر الابيض وتملكت عساكر الدولة جزيرة ساقس وسار السلطان بنفسه مع العساكر وعبروا نهر الطونة وقاتلوا عساكر النيمسا وملكوا جملة بلاد وقلاع وقطعوا رأس الجنرال فيترانى وكانت عساكره أكثر

من عساكر الدولة بخمس مرات وأخذوا مدافعهم ومهماتهم وهدموا القلاع والحصون وعند دخول الشتاء رجع السلطان بجانب من العساكر الى أدرنة وترك الباقي يحارب النمسا ثم دخل بالعساكر القسطنطينية في موكب حافل ومعه أسارى كثيرة ومدافع وبيارق من غنائم النمسا وفي أثناء ذلك حاصر ملك المسكوف قلعة أزوف فكسرته عساكر الدولة تحت أسوارها وقتلت من عساكره ثلاثين ألفا ورجع عنها بعد حصار ثلاثة أشهر وتملك المسكوف بحر أزوف وبنى على سواحله قلاعا

﴿ ذكر غزوة عظمى ﴾

بلغ السلطان ان النمسا جمعت عساكر كثيرة وجعلت قائدها أوجين الفرنساوي وكان متدربا في الحروب فسار السلطان سنة ثمان ومائة وألف بمائة ألف مقاتل الى مدينة أدرنه وأرسل الجيوش منها لمحاربة النمسا فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا وكان النصر للمسلمين فقتلوا من النصارى عددا كثيرا وشتتوهم في جميع الجهات ورجع السلطان الى مقر ملكه

﴿ غزوة أخرى ﴾

في سنة تسع بلغ الباب العالي رجوع عساكر النمسا مع الجنرال أوجين الفرنساوي فخرج السلطان بنفسه بالعساكر وصحب معه وزيره الصدر الاعظم محمد الماس باشا واستولوا في طريقهم على عدة قلاع ثم التقوا بجيوش النمسا التي مع أوجين الفرنساوي ووقع بينهم وقعات ثم صارت الهزيمة على عساكر المسلمين وقتل الصدر الاعظم في ميدان الحرب وأقيم مكانه حسين باشا ثم انهزم ورجع الى بلاد المجر وفي أثناء ذلك سعت دولة فرانسا وانكلترا وهولاندا في الصلح واختاروا مدينة كرلوفتز لانعقاد الجمعية بهذا الصدد والسبب ان الدولة كانت كلت وقلت النقود من كثرة الحروب فحصل القبول لهذه الجمعية فاجتمعت عمد الدولة العلية ودولة فرانسا وانكلترا والموسكوف والنمسا والبندقية وبولونيا وهولندا وبعد ستة وثلاثين جلسة في برهة اثنين وسبعين يوما تم الصلح

فى رجب سنة ألف ومائة وعشرة وانعقدت شروطه باتفاق الجميع وتلك الشروط تعرف بشروط كارلاويز وكان من جملة الشروط حصول الهدنة ومتاركة الحرب مع النمسا خمسا وعشرين سنة وأما المسكوف فلم يقبل الا بهدنة سنتين وبعد انعقاد الصلح هاجت الناس والعساكر بسببه وانتشر من ذلك فتنة عظمى وطالت الى ان قاموا على السلطان وخلعوه وقتلوا شيخ الاسلام فيض الله افندى قبل ان السلطان مصطفى لما بلغه انهم يريدون خلعه دخل على أخيه أحمد وأخبره بذلك وترك له كرسى السلطنة فكانت مدة ملكه ثمان سنين وأربعة أشهر وكان خلعه سنة خمس عشرة ومائة وألف ومات فى السنة التى بعدها فعمره احدى وأربعون سنة (ولاية السلطان أحمد الثالث) وتسلطن بعده أخوه السلطان أحمد الثالث ابن السلطان محمد الرابع ابن ابراهيم وكان من الصالحين المحبين للجهاد واقامة الحق ولما جلس على تخت السلطنة كان أهم شئ عنده أخذ القصاص من العصاة الذين كانوا اسبابا فى تلك الفتنة وقتل كثيرا منهم

﴿ ذكر غزوة فى زمن السلطان أحمد الثالث ﴾

ثم جهز عمارة بحرية لمحاربة البندقية فى جهات المورة فملكوا أكثر الجزائر واستأسروا كثيرا من البندقية واستولوا على مراكبهم * وفى سنة ست عشر ومائة وألف قامت الحرب على ساق وقدم بين قيصر الروسية بطرس وكارلوس ملك السويد واسترسلت الى سنة فانكسر أخيرا كارلوس المذكور وفاز عليه قيصر الروسية بطرس الاكبر ولما انهزم ملك السويد دخل فى حدود الدولة فأمر السلطان وقتئذ أن يكرم غاية الاكرام وأن تكون مصاريفه ومصاريف كل تبعته من خزينة الدولة ومكث فى بلاد الدولة مداوما الالحاح عليها لمحاربة الروسية اعانة له فامتنعت الدولة من اجابته

﴿ ذكر غزوة الى الروسية ﴾

ثم أجابته فى سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف وأشهرت الحرب على الروسية وجهزت جيشا تحت قيادة محمد باشا البلطجى فاشتبك القتال بين الطرفين عند

نهر برت وبعد كفاح شديد تقهقر جيش الروسية وأمسى القيصر فى خطر مبين ولولم تتدارك الامر زوجته كاترينا بحذقها ودرايتها لاصبح زوجها أسيرا فعقد صلحا مع الوزير الاعظم تحت شروط منها ترجيع بحر ازوف الى الدولة وهدم الحصون التى على سواحل هذا البحر ويترك للدولة المدافع التى فيها وعدم مداخلة الروسية فيما يخص القفدق وان تتعهد الملك السويد بحرية الرجوع الى بلاده وبعد المصادقة على هذه العهود من الطرفين أرسل الوزير يعلم السلطان بالنتيجة فغضب وأمر بعزله ونفيه فمات بعد شهر وأقيم مكانه يوسف باشا وتم رأى رجال الدولة على ابطال ذلك الصلح مع الروسية واشهار الحرب عليهم بعد قتل جملة أشخاص كانوا السبب مع ذلك الوزير فى تلك العهود وكان يوسف باشا الصدر الجديد لا يريد الحرب فلذلك صار يؤخر فى تجهيز المهمات الحربية واجتهد فى تجديد الصلح مع الروسية على هدنة خمس وعشرين سنة فلما بلغ السلطان ذلك أمر بعزل يوسف باشا وأقام مكانه سليمان باشا وذلك سنة ألف ومائة وأربع وعشرين ثم ان ملك السويد أراد الرجوع الى بلاده وطلب من الدولة ألف كيس فأمرت له بها ثم طلب ألفا أخرى فأمرت له بها فغضب الوزير وأراد اخراج ملك السويد بالعنف وجرى بينه وبينه أشياء يطول ذكرها فعزل السلطان الوزير سليمان باشا وأقيم مكانه ابراهيم باشا ثم بعد عشرين يوما عزل وأقيم مكانه داماد على باشا فعقد الصلح مع الروسية على خمس وعشرين سنة وفى أثناء ذلك حضر الى ملك السويد كتاب من أخته تقول له ان حضوره لازم لاجل راحة المملكة فعزم على الرحيل واستأذن الدولة فى الرجوع فأمرت له بستمائة جاويش لاجل محافظته فى الطريق وأهدته ثمانية أفراس من جياد الخيل وصيوانا مطرزا بالذهب وسيفا مرصعا بالاحجار الثمينة فرحل من بلاد الدولة سنة ست وعشرين ومائة وألف شاكرا افضال الدولة على ماصنعته معه من الغيرة والمساعدة ونحو ذلك من الاعمال الممدوحة التى تستحق أن ترقم فى صحائف التواريخ لتكون تذكارا بين الملوك وأهل السويد لاينسون هذا الجميل الذى فعلته الدولة العلية فى حق ملكهم

﴿ ذكر غزوة عظمى ﴾

وفى سنة ست وعشرين أيضا فتحت الدولة الحرب على البندقية واستولت العساكر العثمانية على أكثر بلاد المورة وعلى جزائر البنادقة وذلك سنة سبع وعشرين ومائة وألف وكانت مشيخة البنادقة استغاثت بملك النمسا وهو اذ ذاك أمبراطور المانيا فلبى دعوتها وبعث الى الدولة العلية يطلب منها أن ترسل معتمدا من طرفها الى حدود بلاد المجر لاجل المخابرة معه لجهة جمهورية البندقيه وان أبت عن ذلك فانه مستعد أن يشهر الحرب عليها فلم تجب الدولة هذا الطلب

﴿ ذكر غزوة ﴾

بل أرسلت على الفور الصدر الاعظم بمائة وخمسين ألف مقاتل لمحاربة ألمانيا فوافاهم ثمانون ألفا من عساكر الالمان تحت قيادة الأمير أوجين الفرنساوى والتقى الجيشان عند كارلوفيتز والتحم القتال بين الفريقين مدة أيام وكان الصدر الاعظم داماد على باشا من أحسن أبطال زمانه فكان ينزل فى ميدان الحرب ويقاتل بنفسه أشد القتال فقدر الله انه قتل فى ميدان القتال فانهزمت الجيوش العثمانية انهزاما مهولا واستولت عساكر العدو على المهمات والمدافع ثم تقدموا الى مدينة تمغار وحاصروها شهرين وملكوها

﴿ ذكر غزوة أخرى ﴾

وولى الصدارة خليل باشا فجهز جيشا لقتال العدو وسار الى أدرنة ومنها الى بلغراد واشتبك القتال بين الجيشين سنة ١١٢٩ ولسوء تدبير هذا الوزير وقعت الهزيمة أيضا على جيش المسلمين وملك العدو مدينة بلغراد فعزل الصدر وأقيم مكانه محمد باشا وعزل بعد ثمانية أشهر وأقيم مكانه داماد ابراهيم باشا وكان جانب من عساكر الدولة مشتغلا بالحرب مع العدو فى جهة بوسنة ولما بلغت هذه الاخبار ديوان السلطنة فتحت المخابره فى الصلح سنة ثلاثين ومائة وألف وكان السلطان يريد عقد الصلح مع كل من دولة ألمانيا وجمهورية البندقية على حدته فأجاب الامير أوجين بأن الامبراطور لا يفتح المخابرة الا تحت شرط عقد الصلحين سواء تحت

نظره وأردف هذا الطلب بأن يعطى له ماعدا مصاريف الحرب ومدينتى بلغراد وتمغار اقليا بوسنة والسرب الواقعان فى الجهة اليمنى من نهر الدانوب والافلاق من حدود بغدان الى نهر دنيستر وأن ترجع المورة الى البندقية فعظمت هذه المطالب على السلطان أحمد وفضل فقد التاج على التسليم بشروط مجلبة للعار فتداخلت أخيرا دولتا انكلترا وهولندة فى نقض الخلاف وصار القرار على أن يبقى فى يد كل من الدولتين الاملاك التى تكون فى يدها عند امضاء المعاهدة وأن يبقى إيالة المورة للدولة العلية وفى سنة ثلاث وثلاثين حدثت حريقة مهولة فى القسطنطينية أحرقت نحو ربعها وبعد نهاية الصلح جددت الدولة مع الروسية وملك بولونيا شروط الصلح وروابط العهود

﴿ ذكر غزوة الى بلاد العجم ﴾

فى سنة ثمان وثلاثين جاء جماعة من أهل السنة يسكنون فى حدود العجم الى السلطان أحمد يشكون من المظالم والتعدى التى يجريها الشيعة عليهم ويستنجدون به ويطلبون خلاصهم من تلك المظالم فأجابهم السلطان أحمد وسير جيشا الى بلاد العجم وفتحوا جملة حصون ومدينة أرمقان ونهاوند وتبريز وشتتوا جموع الاعاجم قتلا وأسرا وامتلأت أيديهم من غنائمهم فأرسل شاه العجم يخاطب الدولة فى الصلح فقبلت بشروط أن يرجع الى الدولة البلاد التى كان استولى عليها وفى أثناء ذلك مات شاه العجم حسين وملك ولده طهمسب فأرسل الى الدولة يطلب ترجيع الاملاك التى أخذت من أبيه وحاصر تبريز وملكها واستولى على ستمائة حمل جمل من الامتعة فصدر الامر من السلطان أحمد بتجهيز العساكر لحرب الاعجام وعندما كانوا على هيئة الذهاب وذلك سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هاجت العساكر الانكشارية وتمردوا وطلبوا من السلطان قتل الصدر الاعظم ابراهيم باشا وشيخ الاسلام وقبطان باش وكتخدا بيك لشكايا يشكون منها فلم يقبل السلطان منهم ذلك فقالوا نسمح عن شيخ الاسلام فقط ثم قتلوا الصدر الاعظم ابراهيم باشا وكتخدا بيك ثم ان بعض العسكر أنكروا أن

المقتول ابراهيم باشا وقالوا ان المقتول رجل يشبهه وليس هو ورجعوا يطلبون من السلطان إحضار ابراهيم باشا وأخذوا يصرخون يعيش السلطان محمود وساروا يطلبون السلطان محمودا فى المكان الذى هو فيه وأتوا به الى الديوان وأجلسوه على كرسى السلطنة وبايعوه بعد ان خلعوا عمه السلطان أحمد فكان خلعه سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف وتوفى سنة تسع وأربعين وعمره ستون سنة ومدة ملكه سبع وعشرون سنة واحد عشر شهرا

﴿ ولاية السلطان محمود الأول ﴾

وأما ابن أخيه الذى أقيم فى السلطنة بعده فهو السلطان محمود الاول ابن مصطفى ابن محمد بن ابراهيم هكذا ذكرت هذه القصة فى كثير من التواريخ ورأيت فى تاريخ مكة للرضى حكاية كيفية خلع السلطان أحمد المذكور وكيفية قتل الوزير ابراهيم باشا فقال فى تاسع عشرى شهر ربيع الاول من سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف كان جلوس السلطان الاعظم والخاقان الاكرم الافخم السلطان محمود ابن السلطان مصطفى بن محمد ورفع عمه السلطان أحمد ابن السلطان محمد المتولى فى سنة ألف ومائة وخمس وعشرة وكان هذا الرفع والجلوس لاسباب وأمور اقتضت وقوع هذا الحادث العظيم والخطب الجسيم وهو أنه لما تكاثرت المظالم من وزير السلطان أحمد ابراهيم باشا ومن كخيته حتى زاد الحال على المسلمين اجتمع من أطراف العسكر اثنا عشر نفرا الازيادة واستمر عشرة أيام وهم فى كل يوم يخرجون ويجتهدون فى أن يعضدهم أحد من العسكر فلم يحصل ذلك وفى اليوم الحادى عشر تكاثرت الأمة عليهم فغاب منهم أحد عشر لا يدرى أين ذهبوا ولم يبق منهم الا واحد فصار ذلك الواحد أمير تلك الأمة المجتمعة فأركبوه جوادا وامتثلوا له جميع ما أمر وصارت عدتهم فوق العشرة آلاف وفى أثناء ذلك والسلطان أحمد حافظ للوزير وكخيته وأمير البحر المسمى بالقبطان وهو فى غاية الذلة والهوان أرسل اليه أمير الأمة المذكور بأن ادفع الينا الوزير والكخيا نريد أن نقتص منه مظالم الخلق فاضطرب حالهم اضطرابا انجلى عن قتل الوزير

لكيخيته بيده ثم قتل القبطان أيضا بيده ثم قتل الوزير بعض خدم السلطان وأرسل اليهم بروس الثلاثة بناء على أن ذلك مرض لهم فزاد الحال وكثر الجدال وقالوا ان قتل القبطان كان ظلما لأنه لم يصدر منه مايوجب ذلك وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه وأما قتل الوزير وكيخيته فلم يكن لنا به غرض بل كان مطلوبنا حضورهما حين نطالبهما بحقوق العباد وما كان يصدر منهما فى البلاد ثم صرحوا بعدم الرضا بالسلطان أيضا فعرض عليهم تولية ابنه السلطان سليمان فامتنعوا عن ذلك فرأى هو ومن لديه من أهل الحل والعقد أنه لا يطفى هذه الثائرة الا اخراج السلطان محمود من الحبس وتوليته السلطنة فقام السلطان أحمد بنفسه وذهب اليه فى الحبس وأخرجه وأجلسه على التخت ثم أرسل اليهم بأن يتفرقوا فأبوا الا بعزل بعض أشخاص عن مناصبهم وتولية غيرهم وقتل آخرين ونفى جماعة فتم لهم ما طلبوه ثم رغب منهم السلطان محمود التفرق فتوقفوا أيضا فأرسل اليهم شيخ الاسلام بأنكم اذا لم تتفرقوا والا أخرجت لواء النبى صلى الله عليه وسلم وأخذت عليكم فتوى ووجهت الجهاد عليكم فعند ذلك تفرقوا فطلب ذلك الرجل الذى كان أمير هذه الأمة المجتمعة فلم يوجد له خبر ولا أثر ولا يدرى أين ذهب واستقرت السلطنة العثمانية للسلطان محمود الاول وصدرت منه الاوامر العلية الى جميع ممالكه وزينت البلاد وكان من أغرب الاتفاق أن خرج تاريخ ذلك قوله تعالى (فاعتبروا يا أولى الابصار)

﴿ذكر غزوة الى بلاد العجم﴾

وقد وقع فى مدة السلطان محمود المذكور محاربات بينه وبين الروسيا والمانيا عدة سنوات وكذا وقعت أيضا محاربات بينه وبين العجم

﴿ذكر غزوة الى العجم﴾

فنها أن العجم جهزوا جيوشهم وأغاروا على مواضع مما كانت فى حكم الدولة وأخذوها وحاصروا بغداد فجهز السلطان محمود عليهم جيوشا سنة ست وأربعين ومائة وألف وأزالهم عن محاصرة بغداد وشتتهم فى الجهات وقتل منهم مقتلة عظيمة

ورجع بعض جيوش الدولة الى كردستان ليخلصها من أيدى الاعجام وأشتبك الحرب وقتل رئيس العساكر العثمانية طوبال عثمان باشا في ميدان الحرب وقد كان في السنة التي قبلها عقد صلحا مع العجم على أن تبريز تكون تحت أيدى العجم فغضب السلطان محمود ولم يرض بذلك ولما قتل طوبال عثمان باشا انهزمت عساكر الدولة فلما بلغ الخبر الباب العالى جهز السلطان جيشا آخر لقتال العجم ولما وصل الجيش الى شط نهر كوبان صدهم الموسكوف عن المسير فرجعوا ودخلت عساكر الموسكوف في بولونيا فشكتهم الدولة الى ملوك أوروبا لأن ذلك مخالف للشروط التي كانت بينهم فاعتذر الموسكوف بأن دخول عساكره في بولونيا لمنع دولة فرانسا من تسليم أحكام بولونيا فلم تقبل الدولة هذا العذر وأشهرت الحرب على الموسكوف

﴿ ذكر غزوة الى بلاد الموسكوف ﴾

وسارت العساكر في سنة تسع وأربعين ومائة وألف بعد أن عقدوا صلحا مع العجم غير الصلح الذى تقدم ذكره على شرط رجوع حدود الدولة على ما كانت أيام السلطان مراد الرابع وفي مدة عقد هذا الصلح تقدمت عساكر الموسكوف وأخذت بعض جهات من أراضى الدولة فلما تجهزت عساكر الدولة توجهت الى القرم واقتتلوا مع الموسكوف فانتصرت عساكر الدولة وهزموهم ثم ان الموسكوف اتحدت مع النمسا وألمانيا وكانت ألمانيا تابعة للنمسا ورجعوا واستلموا قلعة أزوف وانهزمت عساكر الدولة أمام هذه القلعة واستولت عساكر النمسا على ثمان مدن من بلاد السرب والافلاق وعلى قلعة نيش

﴿ غزوة أخرى ﴾

فرجعت اليهم عساكر الدولة وهزمت عساكر النمسا قدام بنالوغا وتشتتت في جهات البلاد وامتد الانتصار الى أن طردت عساكر الدولة النمسا من الافلاق والبغدان وارصوفا واسترجعت قلعة نيش وأحرقت لهم سبع مراكب حربية في البحر تجاه قلعة البرابت وتوسطت فرانسا في الصلح فلم يقبل السلطان

فلم تزل فرنسا تراجع السلطان الى أن تم الصلح بشرط أن النيمسا ترجع بلغراد للدولة وكل ما استولت عليه من الافلاق والسرب وغير ذلك وأن يكون الحد الفاصل بين المملكتين نهر الطونة وعقد واهدنة طويلة وهى سبع وعشرون سنة واشترطت الدولة على الموسكوف أن لا يكون لها مراكب حربية ولا تجارية فى البحر الاسود و بحر أزوف وأن الموسكوف يرجع الاماكن التى استولى عليها فى مدة الحرب وأن يهدم قلعة أزوف و بعد هذا الصلح طلبت دولة السويد عقد معاهدة مع الدولة العثمانية بالاتفاق على حرب من يعاديهم فأجابتهم الدولة الى ذلك وعظم أمر السلطنة فى تلك السنة هذا تلخيص ما كان فى مدة السلطان محمود الاول وكان من أعظم سلاطين آل عثمان عقلا وهمة وتدبيرا ومحبة للجهاد ونصرة الدين واقامة الشريعة وتوفى رحمه الله سنة ألف ومائة وسبع وستين وعمره ستون سنة ومدة ملكه أربع وعشرون سنة (ولاية السلطان عثمان الثالث) وأقيم فى السلطنة بعده أخوه السلطان عثمان بن السلطان مصطفى بن محمد بن ابرهيم ومكث قريبا من أربع سنين وتوفى سنة احدى وسبعين ومائة وألف (ولاية السلطان مصطفى الثالث) وأقيم بعده فى السلطنة السلطان مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث ابن محمد الرابع ابن ابراهيم فلما استقر فى ملكه أخذ فى تنظيم ملكه وتقوية ما وهن منه وكان ذلك باسعاف وزيره الصدر الاعظم محمد راغب باشا المشهور بالعلم والتدبير وحسن السياسة وفى سنة ألف ومائة وست وسبعين توفى راغب باشا و بعد وفاته شبت نيران الحرب بين الدولة والروسية وفى هذه السنة خلعت كاترينا امرأة ملك الموسكوف بعلها عن كرسى السلطنة وجلست مكانه وسجنته ثم أمرت بقتله فقتل وأخذت تسعى فى اخراج اليونان عن طاعة الدولة العثمانية وحركت اليونان فى المورة والارناؤود وأخذوا يستعدون لخلع الطاعة ونهض على بيك بمصر وتغلب عليها وعلى الشام وأراد الاستقلال وأرسلت الدولة من عساكرها أربعين ألفا لحماية البلاد على شاطئ نهر الطونة وأرسلت اليونان الى كاترينا ملكة الموسكوف تستنجد بها فبعثت لهم جيشا لم يغن شيأ فهزمتهم

عساكر الدولة غير أن عساكر الموسكوف فى تلك الايام انتصرت على عساكر الدولة التى كانت على حدود الطونه واستولوا على بندروا كرمان واسمعيل وقلاع على شاطئ هذا النهر ولما بلغ الباب العالى هذه الوقائع صدر الامر بتكثير الجيوش وفى السنة الثانية تغلبت عساكر الدولة على عساكر الموسكوف فرجعت الى بلادها بعد أن فقد منها عساكر كثيرة فى الحرب وبالطاعون وحينئذ أخذت النيمساو بروسيا فى التوسط فى الصلح وتوقيف الحرب ولكن لما رأت الدولة أن مطالب الموسكوف غير مقبولة رفضت هذا الطلب وأشهرت الحرب

﴿ ذكر غزوة الى بلاد الموسكوف ﴾

وفى سنة ألف ومائة وست وثمانين سار الصدر الاعظم محسن باشا بالعساكر لمحاربة الموسكوف فضربهم على نهر الطونة وأخذ منهم ستمائة أسير وسار حسن باشا قبطان باشى بجانب من العساكر الشاهانية وضرب عسكر الموسكوف على نهر الطونة أيضا وأخذ مدافعهم وذخائرهم وفى أثناء هذه الغلبات توفى السلطان مصطفى سنة ألف ومائة وسبع وثمانين وعمره ثمان وخمسون سنة ومدة ملكه ست عشرة سنة

﴿ ولاية السلطان عبد الحميد الاول ﴾

وأقيم فى السلطنة بعده أخوه السلطان عبد الحميد الاول ابن أحمد الثالث ابن محمد الرابع ابن ابراهيم وكان أخوه السلطان مصطفى قد ترك له نهاية الحرب الجسيم مع الروسية فأمر بانجاز الجيوش وتكثيرها

﴿ ذكر غزوة للسلطان عبد الحميد الأول ﴾

بعث مع الصدر الأعظم أربعمائة ألف مقاتل والتحم القتال بينهم وبين الجيوش الروسية فحصلت لهم هزيمة وانحصروا فى شملة ووقعوا فى صعوبة كلية فاجتهد السلطان فى ارجاع قوة الدولة وكانت العساكر قد كلت من الحروب وحدث بين العساكر الانقشارية شغب فتركوا الصدر الاعظم فى ميدان الحرب بجانب قليل من العساكر فرجع الى شملة وأرسل يعلم الباب العالى بذلك فصدر الامر بعقد الصلح فتم على شروط تعرف بعهد كوجيك قينرجه وهى منطوية على

استقلال التتر فى بلاد القرم واليوجك والكوبان وعلى سير السفن الروسية فى بحر الدولة وترك أزوف وكيل برون و بعض القلاع الى الموسكوف وقبول الدولة انقسام بولونيا والموسكوف يترك للدولة الافلاق والبغدان والجزائر التى كانت فى يدها فى البحر الابيض و بعد امضاء هذه الشروط عاد الصدر الاعظم محسن باشا بمن معه من العساكر الى دار السلطنة وتوفى فى طريق مدينة أدرنة وأقيم مكانه محمد عزت باشا وأخذ السلطان عبد الحميد فى اصلاح أمور السلطنة وقمع العصاة الذين فى ممالكه ولم تقنع الروسية بما جرى من الصلح ولم تلتزم الشروط بل كانت تتعدى من حين الى حين على حدود الدولة حتى انها أغارت على القرم واستولت عليها وكان السلطان عبد الحميد يتحمل تلك التعديات بمرارة عظيمة زمانا طويلا ويرى سلطنته مشرفة على وهدة السقوط وهو غير قادر على أن يأتيها بالعلاج الشافى ولما رأى أن كثيرا من ممالكه وقعت فى قبضة الاجانب شرع فى استعدادات جديدة للحرب

﴿ ذكر غزوة أخرى ﴾

و بعث جيوشا متعددة فمنها جيش سار به حسين باشا القبطان فقتل كثيرا من العصاة و بعث برأس ظاهر العمر الذى تغلب فى جانب سورية و برأس حاكم البغدان الذى كان يحاكيه فى الشقاوة

﴿ غزوة أخرى ﴾

ثم توجه حسين باشا المذكور لتأديب اليونان ساكنى المورة فسار اليهم وقتل منهم أصحاب الفتن والدسائس فأرعب قلوبهم وكسر عزائمهم وألزمهم الطاعة وطلب العفو لهم من الباب العالى وكانت كاترينا ملكة الروسية تجتهد دائما فى تخفيض قوة الدولة العثمانية ومذ ما كنفت بتملك القرم فأرسلت أناسا فى كثير من الممالك يزرعون فيها الفتن فلما نظرت رجال الدولة تعدى الروسية على حقوق الدولة استشاطوا فى ذلك ونادوا بالحرب وكانت الانكليز تحرض الدولة على ذلك وتؤكد لها الاعانة وان دولة اسوج و بلونيا ينهضان معها لاسعاف الاسلام وان بروسيا تقاوم النمسا

﴿ ذكر غزوة أخرى ﴾

فصدر الأمر الى الصدر الأعظم يوسف باشا فتوجه لحرب الروسية والنمسا وكانت

كاترينا ملكة الروسية حضرت الى بلاد القرم بجيش عظيم وحضر امبراطور النمسا بجيش عظيم وكان قد تعاهد معها على محاربة الدولة وكانت فرانسا متفقة مع الروسية سرا فاقتتلت عساكر الدولة مع النمسا فى محل يقال له فتح الاسلام والجزيرة الكبيرة فانتصرت العساكر الاسلامية واستولت على كثير من القلاع والحصون

﴿ غزوة أخرى ﴾

وتوجهت فرقة أخرى من عساكر الدولة لمحاربة الروسية تحت رياسة شاهين على باشا وعندما كانت العساكر العثمانية متغلبة على عساكر النمسا حتى كاد امبراطور النمسا يقع أسيرا تقدمت عساكر الروسية واستولت على البغدان وعلى كثير من القلاع والحصون ولم يحضر أحد من باقى الدول الذين وعدوا بالمساعدة والنصر فلما شاهد الصدر الاعظم ذلك كتب الى الباب العالى يستأذن فى السعى فى عقد الصلح * وفى أثناء ذلك توفى السلطان عبد الحميد سنة ألف ومائتين وثلاث وعمره ست وستون سنة ومدة سلطنته ست عشرة سنة

﴿ ولاية السلطان سليم الثالث وغزوة من غزواته ﴾

وجلس على تخت السلطنة بعده ابن أخيه السلطان سليم الثالث ابن مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث ابن محمد الرابع ابن ابراهيم وبعد جلوس السلطان سليم وجه همته الى اصلاح حال العساكر وتقوية العمارة البحرية وأمر بجمع الجيوش من جهات البلاد لتكثير الجيوش المجتمعة قبل ذلك فاجتمع فى وقت قريب نحو مائة وخمسين ألف مقاتل وكان اجتماعهم فى مدينة صوفيا وكانت عساكر الروسية سارت مع عساكر النمسا لمحاربة العساكر الاسلامية التى كانت تحت رياسة الصدر الاعظم يوسف باشا وقبطان باشا حسين باشا فانتشب القتال بينهم وبين عساكر الدولة فى البغدان وبقى نحو شهرين فحصلت هزيمة لعساكر الدولة واستولوا على أكثر مدافعهم ومهماتهم وبسبب ذلك عزل الصدر الاعظم يوسف باشا وأحيلت رتبة الصدارة الى كتخدا حسن باشا ثم عزل وصار بدله حجازى حسن باشا سنة ١٢٠٤ فتوفى وصار بدله شريف حسن باشا وأما عساكر الروسية

فتقدموا أيضا فى البلاد واستولوا على قلعة بلغراد وقلعة بندر وايالتى الافلاق والسرب وكل المدن التى على شاطئ الطونة وكادوا يستولون على قلعة اسماعيل التى هى أعظم حصن فى بلاد الدولة التى فى تلك الجهات وبيناهم كذلك اذ حضر الخبر بموت امبراطور المانيا وكان متعاهدا مع ملكة الروسية على محاربة الدولة وجلس فى مكانه أخوه فانفصل عن معاهدة الروسية وعقد معاهدة مع الدولة العلية بواسطة انكلترا وبروسيا وشرطوا عليه أن يرد للدولة ممالك الدولة التى افتتحتها النمسا فرد لها كل الأراضى التى افتتحها مع النمسا وأبقى فى يده روكزيم الى حين تمام الصلح بين الدولة والروسية وسعى فى عقد الصلح بين الروسية والدولة فلم تقبل ملكة الروسيا كاترينا وكانت مواظبة على الحرب فتقدمت عساكرها الى قلعة اسماعيل وأقامت الحصار عليها وكان فى القلعة نحو ثلاثين ألفا فقطعوا عنهم الزاد والمهمات وصرخوا على عساكرهم الموت والا قلعة اسماعيل وهجمت عساكرهم على تلك القلعة وافتحوها واشتد القتال بين الجيشين حتى ملا القتلى خنادق تلك القلعة ولما هجم الليل صعدت العساكر على جثث القتلى ودخلوا القلعة وحاربوا فيها حربا شديدا فكانت النساء والأولاد يجمعون سلاح القتلى ويهجمون على عساكر المسلمين ومازالوا كذلك حتى قتل رئيس العساكر مع كل الذين كانوا دخلوا القلعة ولم ينج منهم إلا رجل واحد طرح نفسه فى النهر وذهب الى القسطنطينية وأعلمهم بأن الغلبة وقعت على عساكر الدولة لانهم مكثوا ثلاثة ايام وثلاث ليال والسيف دائر فيهم حتى أن الدم جرى كالسواقى وقتل من النساء والأطفال فى تلك المعركة خمسة عشر ألفا ولما وصل هذا الخبر الى القسطنطينية هاجت العساكر هيجانا عظيما وطلبوا من الدولة رأس حسن باشا صدر أعظم قائد العساكر مع أنه كان من أعظم رجال زمانه فى الحروب البرية والبحرية ولكن النصر من عند الله ولا رادّ لقضاء الله وقدره ولأجل تسكين هذا الهيجان قتل حسن باشا وجىء لهم برأسه وأحيلت الصدارة الى يوسف باشا الذى عزل سابقا وبعد ذلك تقدمت عساكر الروسية وقاتلت العساكر الاسلامية

فى الجهة الثانية من نهر الطونة وذلك فى سنة خمس ومائتين وألف فتوسطت دولة الانكليز والبروسيا فى الصلح فتم سنة ست ومائتين وألف على شروط وهى أن الروسية ترجع للدولة كل الاماكن التى فتحتها خلا أوكزاكوف والاراضى الواقعة بين بوغ وسليسترة حيث أقامت الملكة كاترينا مدينة أودسا سنة ألف ومائتين وسبع تذكارا لنصرها وهى مدينة شهيرة أكثر سكانها نصارى على البحر الاسود سكانها نحو أربعين ألفا ثم سعى السلطان سليم فى ترقية أسباب تقدم بلاده وعمرانها وأرسل يطلب من فرانسا مهندسين ومعلمى صنائع وضباطا الى غير ذلك فبعثت له بجانب عظيم ثم ان العلاقات الودادية تكدرت معها لما استولت على مصر سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وأقاموا فيها الى سنة ست عشرة فالتزمت الدولة العلية أن تشهر حربها الى أن أخرجتها من مصر بمعاضدة انكلترا وسيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر غزوة فى مدة السلطان سليم الثالث ﴾

وفى سنة ألف ومائتين وأربع عشرة وجه عمارة مع عمارة الروسية وفتحنا السبع الجزائر التى كانت لجمهورية البندقية وكانت فرانسا يومئذ متولية عليها وهذه هى المرة الأولى التى اتحد فيها هاتان الدولتان * وفى سنة خمس عشرة صار الاتفاق أيضا بين الدولتين المشار اليهما فى صيرورة الجزائر المذكورة حكومة مستقلة خاضعة للسلطنة العثمانية تحت اسم جمهورية السبع الجزائر * وفى سنة سبع عشرة ومائتين وألف عقدت معاهدة صلح بين الدولة العلية وفرانسا

﴿ ذكر غزوة الى بلاد الروسية ﴾

وفى سنة احدى وعشرين اتفقت الدولة مع فرانسا على حرب الروسية فكان ذلك ان داعيا لتعكيرها مع انكلترا لأنها كانت تسعى فى ملاشات شوكة نابليون امبراطور فرانسا ولكن لم تستطع انكلترا أن تمنع السلطان سليمان محاربة الروسية لأن جيوش الروسية كانت تجاوزت الحدود ودخلوا الافلاق والبغدان وذلك مخالف للعهود فاضطر السلطان سليم أن يحافظ على بلاده ويدافع عن

حقوقه فجهز الجيوش وأرسلها تحت قيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا جلبي ومصطفى باشا البيرقدار الى الاقليمين المذكورين فحاربوا الروسية ومنعوا تقويهم على الأراضي العثمانية ولما أيست انكلترا من ايقاع المنافرة بين الدولة العلية وفرانسا سارت بمراكبها الى الاسكندرية وتملكوها فأخرجهم منها محمد على باشا حاكم مصر وكان من الاسباب في حضور الانكليز لأخذ الاسكندرية ان الصناجق المماليك الذين كانوا متغلبين على مصر كان بينهم وبين محمد على باشا محاربات وشتتهم في الارياف فأرسل كبيرهم محمد بك الالفي للانكليز يستنجدهم فحضرت مراكبهم في ثغر الاسكندرية في أول محرم سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف وعدتها اثنان وأربعون مركبا مشحونة بالعساكر وضربوا على الاسكندرية بالقنابر والمدافع الهائلة من البحر فهدموا جانبا من البرج الكبير وكذلك الابراج الصغار والسور فعند ذلك طلب أهل الاسكندرية الامان فرفعوا عنهم الضرب ودخلوا البلد ثم سيروا جيشا منه الى رشيد فدخلوها ثم ثار عليهم أهل رشيد وقتلوا منهم خلقا كثيرا فرجع الباقون الى الاسكندرية منهزمين واستعد محمد على باشا لمحاربتهم واخراجهم من الاسكندرية وشرع في تعمير القلاع واستنفر كافة الناس لقتالهم واستمر الحال الى أواخر جمادى الآخرة من السنة المذكورة وتوجه محمد على باشا بعساكره الى جهة البحيرة والاسكندرية وحصل بينه وبين الانكليز الذين في الاسكندرية مكاتبات ثم انعقد بينه وبينهم صلح على شروط فخرجوا من الاسكندرية وأخلوها في أوائل رجب من السنة المذكورة أعني سنة اثنتين وعشرين وتفصيل القصة طويل وهذا حاصلها بالاختصار وكان محمد بك الالفي الذي استنجدهم قد مات قبل مجيئهم الاسكندرية وفي هذه السنة أيضا كانت فتن كثيرة بدار السلطنة وخلعوا السلطان سليما وقصة ذلك طويلة سنذكر ملخصها فيما يأتي لكن ينبغي أن يقدم قبل ذلك ذكر أشياء كانت في مدة السلطان سليم المذكور منها فتنة الوهابية بالحجاز وفتنة الفرنسيس عند دخوله مصر ولنبدأ بذكر فتنة الوهابية لان مبدأها متقدم على فتنة الفرنسيس

وان كان منها هامتأخرا

﴿ ذكر فتنة الوهابية وتملك الفرنسيس مصر ﴾

اعلم أن السلطان سليما الثالث حدث فى مدة سلطنته فتن كثيرة منها ماتقدم ذكره ومنها فتنة الوهابية التى كانت فى الحجاز حتى استولوا على الحرمين ومنعوا وصول الحج الشامى والمصرى ومنها فتنة الفرنسيس لما استولوا على مصر من سنة ثلاث عشرة الى سنة ست عشرة ولنذكر مايتعلق بهاتين الفتنتين على سبيل الاختصار لان كلا منهما مذكور تفصيلا فى التواريخ وأفرد كل منهما بتأليف رسائل مخصوصة * أما فتنة الوهابية فكان ابتداء القتال فيما بينهم و بين أمير مكة مولانا الشريف غالب بن مساعد وهو النائب من جهة السلطنة العلية على الاقطار الحجازية وابتداء القتال بينهم وبينه من سنة خمس بعد المائتين والالف وكان ذلك فى مدة سلطنة مولانا السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى الثالث ابن أحمد (وأما ابتداء أول ظهور الوهابية) فكان قبل ذلك بسنين كثيرة وكانت قوتهم وشوكتهم فى بلادهم أولا ثم كثر شرهم وتزايد ضررهم واتسع ملكهم وقتلوا من الخلائق مالا يحصون واستباحوا أموالهم ونسبوا نساءهم وكان مؤسس مذهبهم الخبيث محمد بن عبد الوهاب وأصله من المشرق من بنى تميم وكان من المعمرين فكاد يعد من المنظرين لانه عاش قريب مائة سنة حتى انتشر عنه ضلالهم كانت ولادته سنة ألف ومائة واحدى عشرة وهلك سنة ألف ومائتين وست وأرخ بعضهم بقوله (بدا هلاك الخبيث) ١٢٠٦

وكان فى ابتداء أمره من طلبة العلم بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وكان أبوه رجلا صالحا من أهل العلم وكذا أخوه الشيخ سليمان وكان أبوه وأخوه ومشايخه يتفرسون فيه أنه سيكون منه زيغ وضلال لما يشاهدونه من أقواله وأفعاله ونزغاته فى كثير من المسائل وكانوا يوبخونه ويحذرون الناس منه فحقق الله فراستهم فيه لما ابتدع ما ابتدعه من الزيغ والضلال الذى أغوى به الجاهلين وخالف فيه أئمة الدين وتوصل بذلك الى تكفير المؤمنين فزعم ان زيارة

النبي صلى الله عليه وسلم والتوسل به وبالانبياء والأولياء والصالحين وزيارة قبورهم شرك وأن نداء النبي صلى الله عليه وسلم عند التوسل به شرك وكذا نداء غيره من الانبياء والاولياء والصالحين عند التوسل بهم شرك وأن من أسند شيأ لغير الله ولو على سبيل المجاز العقلي يكون مشركا نحو نفعني هذا الدواء وهذا الولي الفلاني عند التوسل به في شيء وتمسك بادلة لا تنتج له شيأ من مرامه وأتى بعبارات مزورة وزخرفها ولبس بها على العوام حتى تبعوه وألف لهم في ذلك رسائل حتى اعتقدوا كفر أكثر أهل التوحيد واتصل بامراء المشرق أهل الدرعية ومكث عندهم حتى نصروه وقاموا بدعوته وجعلوا ذلك وسيلة الى تقوية ملكهم واتساعه وتسلطوا على الاعراب وأهل البوادي حتى تبعوهم وصاروا جندا لهم بلا عوض وصاروا يعتقدون أن من لم يعتقد ما قاله ابن عبد الوهاب فهو كافر مشرك مهدر الدم والمال وكان ابتداء ظهور أمره سنة ألف ومائة وثلاث وأربعين وابتداء انتشاره من بعد الخمسين ومائة وألف وألف العلماء رسائل كثيرة للرد عليه حتى أخوه الشيخ سليمان وبقية مشايخه وكان ممن قام بنصرته وانتشار دعوته من أمراء المشرق محمد بن سعود أمير الدرعية وكان من بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب ولما مات محمد بن سعود قام بها ولده عبد العزيز ابن محمد بن سعود ثم ولده سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود وكان كثير من مشايخ ابن عبد الوهاب بالمدينة يقولون سيضل هذا أو يضل الله به من أبعده وأشقاه فكان الامر كذلك وزعم محمد بن عبد الوهاب ان مراده بهذا المذهب الذي ابتدعه اخلاص التوحيد والتبري من الشرك وأن الناس كانوا على شرك من منذ ستمائة سنة وانه جدد للناس دينهم وحمل الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على أهل التوحيد كقوله تعالى ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وكقوله تعالى ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك وكقوله تعالى والذين يدعون من لا يستجيب لهم الى يوم القيامة وأمثال هذه الآيات في القرآن كثيرة فقال محمد

ابن عبد الوهاب من استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم أو بغيره من الانبياء والاولياء والصالحين أو ناداه أو سأله الشفاعة فانه مثل هؤلاء المشركين ويدخل في عموم هذه الآيات وجعل زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الانبياء والاولياء والصالحين مثل ذلك وقال في قوله تعالى حكاية عن المشركين في اعتذارهم عن عبادة الاصنام ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان المتوسلين مثل هؤلاء المشركين الذين يقولون ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى قال فان المشركين ما اعتقدوا في الاصنام أنها تخلق شيأ بل يعتقدون أن الخالق هو الله تعالى بدليل قوله تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله فما حكم الله عليهم بالكفر والاشراك الا لقولهم ليقربونا الى الله زلفى فهؤلاء مثلهم ومما ردوا به عليه في الرسائل المؤلفة للرد عليه ان هذا استدلال باطل فان المؤمنين ما اتخذوا الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولا الاولياء آلهة وجعلوهم شركاء لله بل انهم يعتقدون انهم عبيد الله مخلوقون ولا يعتقدون انهم مستحقون العبادة وأما المشركون الذين نزلت فيهم هذه الآيات فكانوا يعتقدون استحقاق أصنامهم الالوهية ويعظمونها تعظيم الربوبية وان كانوا يعتقدون انها لا تخلق شيأ وأما المؤمنون فلا يعتقدون في الانبياء والاولياء استحقاق العبادة والالوهية ولا يعظمونهم تعظيم الربوبية بل يعتقدون انهم عباد الله وأحباؤه الذين اصطفاهم واجتباهم وببركتهم يرحم عباده فيقصدون بالتبرك بهم رحمة الله تعالى ولذلك شواهد كثيرة من الكتاب والسنة فاعتقاد المسلمين ان الخالق الضار النافع المستحق العبادة هو الله وحده ولا يعتقدون التأثير لاحد سواه وان الانبياء والأولياء لا يخلقون شيأ ولا يملكون ضرا ولا نفعا وانما يرحم الله العباد ببركتهم فاعتقاد المشركين استحقاق أصنامهم العبادة والألوهية هو الذي أوقعهم في الشرك لا مجرد قولهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله لانهم لما أقيمت عليهم الحجة بأنها لا تستحق العبادة وهم يعتقدون استحقاقها العبادة قالوا معتذرين ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى فكيف يجوز لابن عبد الوهاب ومن تبعه أن

يجعلوا المؤمنين الموحدين مثل أولئك المشركين الذين يعتقدون ألوهية الاصنام فجميع الآيات المتقدمة وما كان مثلها خاص بالكفار المشركين ولا يدخل فيه أحد من المؤمنين روى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فى وصف الخوارج أنهم انطلقوا الى آيات نزلت فى الكفار فحملوها على المؤمنين وفى رواية عن ابن عمر أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال أخوف ما أخاف على أمتى رجل يتأول القرآن يضعه فى غير موضعه فهو وماقبله صادق على هذه الطائفة ولو كان شئ مما صنعه المؤمنون من التوسل وغيره شركا ما كان يصدر من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الامة وخلفها ففى الاحاديث الصحيحة أنه صلى الله عليه وسلم كان من دعائه اللهم انى أسألك بحق السائلين عليك وهذا توسل لاشك فيه وكان يعلم هذا الدعاء أصحابه ويأمرهم بالاتيان به وبسط ذلك طويل مذكور فى كتب السنة وفى الرسائل التى فى الرد على ابن عبد الوهاب وصح عنه أنه صلى الله عليه وسلم لما ماتت فاطمة بنت أسد أم على رضى الله عنهما ألحدها صلى الله عليه وسلم فى القبر بيده الشريفة وقال اللهم اغفر لامى فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والانبياء الذين من قبلى انك أرحم الراحمين وصح انه صلى الله عليه وسلم سأله أعمى أن يرد الله عليه بصره بدعائه فأمره بالطهارة وصلاة ركعتين ثم يقول اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبى الرحمة يا محمد انى أتوجه بك الى ربى فى حاجتى لتقضى اللهم شفعه فى ففعل فرد الله عليه بصره وصح ان آدم عليه السلام توسل بنبينا صلى الله عليه وسلم حين أكل من الشجرة لأنه لما رأى اسمه صلى الله عليه وسلم مكتوبا على العرش وعلى غرف الجنة وعلى جباه الملائكة سأل عنه فقال الله هذا ولد من أولادك لولاه ما خلقتك فقال اللهم بحرمة هذا الولد ارحم هذا الوالد فنودى يا آدم لو تشفعت الينا بمحمد فى أهل السماء والأرض لشفعناك وتوسل عمر بن الخطاب بالعباس رضى الله عنه لما استسقى الناس وغير ذلك مما هو مشهور فلا حاجة الى الاطالة بذكره والتوسل الذى فى حديث الأعمى قد استعمله الصحابة

والسلف بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وفيه لفظ يا محمد وذلك نداء عند التوسل ومن تتبع كلام الصحابة والتابعين يجد شيأ كثيرا من ذلك كقول بلال بن الحارث الصحابي رضي الله عنه عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يارسول الله استسق لامتك كالنداء الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم عند زيارة القبور وممن ألف في الرد على ابن عبد الوهاب أكبر مشايخه وهو الشيخ محمد بن سليمان الكردي مؤلف حواشي شرح ابن حجر على متن بافضل فقال من جملة كلامه يا ابن عبد الوهاب اني أنصحك لله تعالى أن تكف لسانك عن المسلمين فان سمعت من شخص انه يعتقد تأثير ذلك المستغاث به من دون الله فعرفه الصواب وأبن له الادلة على انه لا تأثير لغير الله فان أبى فكفره حينئذ بخصوصه ولا سبيل لك الى تكفير السواد الاعظم من المسلمين وأنت شاذ عن السواد الاعظم فنسبة الكفر الى من شذ عن السواد الاعظم أقرب لانه اتبع غير سبيل المؤمنين قال تعالى ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا وانما يأكل الذئب من الغنم القاصية اه وأما زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقد فعلها الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من السلف والخلف وجاء في فضلها أحاديث أفردت بالتأليف ومما جاء في النداء لغير الله تعالى من غائب وميت وجماد قوله صلى الله عليه وسلم اذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فلیناد يا عباد الله احبسوا ان لله عبادا يجيبونه وفي حديث آخر اذا أضل أحدكم شيأ أوأراد عونا وهو بأرض ليس فيها أنيس فليقل يا عباد الله أعينوني وفي رواية أغيثوني فان لله عبادا لا ترونهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا سافر فأقبل الليل قال يا أرض ربي وربك الله وكان صلى الله عليه وسلم اذا زار القبور قال السلام عليكم يا أهل القبور وفي التشهد الذي يأتي به كل مسلم في كل صلاة صورة النداء في قوله السلام عليك أيها النبي والحاصل أن النداء والتوسل ليس في شيء منهما ضرر الا اذا اعتقد التأثير لمن ناداه أو توسل به ومتى كان معتقدا أن التأثير لله لا لغير الله فلا ضرر في ذلك وكذلك اسناد فعل من الافعال لغير الله

لا يضر الا اذا اعتقد التأثير ومتى لم يعتقد التأثير فانه يحمل على المجاز العقلي كقوله نفعني هذا الدواء أو فلان الولي فهو مثل قوله أشبعني هذا الطعام وأرواني هذا الماء وشفاني هذا الدواء فمتى صدر ذلك من مسلم فانه يحمل على الاسناد المجازي والاسلام قرينة كافية في ذلك فلا سبيل الى تكفير أحد بشيء من ذلك ويكفي هذا الذي ذكرناه اجمالا في الرد على ابن عبد الوهاب ومن أراد بسط الكلام فليرجع الى الرسائل المؤلفة في ذلك وقد لخصت ما فيها في رسالة مختصرة فلينظرها من أرادها ولما قام ابن عبد الوهاب ومن أعانه بدعوتهم الخبيثة التي كفروا بسببها المسلمين ملكوا قبائل الشرق قبيلة بعد قبيلة ثم اتسع ملكهم فملكوا اليمن والحرمين وقبائل الحجاز وبلغ ملكهم قريبا من الشام فان ملكهم وصل الى المزيريب وكانوا في ابتداء أمرهم أرسلوا جماعة من علمائهم الى الحرمين ظنا منهم أنهم يفسدون عقائد علماء الحرمين ويدخلون عليهم الشبهة بالكذب والمين فلما وصلوا الى الحرمين وذكروا لعلماء الحرمين عقائدهم وما تمسكوا به رد عليهم علماء الحرمين وأقاموا عليهم الحجج والبراهين التي عجزوا عن دفعها وتحقق لعلماء الحرمين جهلهم وضلالهم ووجدوهم ضحكة ومسخرة كحمر مستنفرة فرت من قسورة ونظروا الى عقائدهم فوجدوها مشتملة على كثير من المكفرات فبعد أن أقاموا البرهان عليهم كتبوا عليهم حجة عند قاضي الشرع بمكة تتضمن الحكم بكفرهم بتلك العقائد ليشتهر بين الناس أمرهم فيعلم بذلك الاول والآخر وكان ذلك في مدة امارة الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد المتوفى سنة خمس وستين ومائة وألف وأمر بحبس أولئك الملحدة فحبسوا وفر بعضهم الى الدرعية فأخبرهم بما شاهدوا فازدادوا عتوا واستكبارا وصار أمراء مكة بعد ذلك يمنعون وصولهم للحج فصاروا يغيرون على بعض القبائل الداخلين تحت طاعة أمير مكة ثم انتشب القتال بينهم وبين أمير مكة مولانا الشريف غالب ابن مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد وكان ابتداء القتال بينهم وبينه من سنة خمس بعد المائتين والالف ووقع بينهم وبينه وقائع كثيرة قتل فيها

خلائق كثيرون ولم يزل أمرهم يقوى و بدعتهم تنتشر الى أن دخل تحت طاعتهم أكثر القبائل والعربان الذين كانوا تحت طاعة أمير مكة * وفى سنة سبع عشرة بعد المائتين والألف ساروا بجيوش كثيرة حتى نازلوا الطائف وحاصروا أهله فى شهر ذى القعدة من السنة المذكورة ثم تملكوه وقتلوا أهله رجالا ونساء وأطفالا ولا نجا منهم إلا القليل ونهبوا جميع أموالهم ثم أرادوا المسير الى مكة فعلموا أن مكة فى ذلك الوقت فيها كثير من الحجاج و يقدم اليها الحاج الشامى والمصرى فيخرج الجميع لقتالهم فمكثوا فى الطائف الى أن انقضى شهر الحج وتوجه الحجاج الى بلادهم ساروا بجيوشهم يريدون مكة ولم يكن للشريف غالب قدرة على قتال جيوشهم فنزل الى جدة فخاف أهل مكة أن يفعل الوهابية معهم مثل ما فعلوا مع أهل الطائف فأرسلوا اليهم وطلبوا منهم الامان لاهل مكة فأعطوهم الأمان ودخلوا مكة ثامن محرم من السنة الثامنة عشر بعد المائتين والألف ومكثوا أربعة عشر يوما يستتيبون الناس و يجددون لهم الاسلام على زعمهم ويمنعونهم من فعل ما يعتقدون أنه شرك كالتوسل وزيارة القبور ثم ساروا بجيوشهم الى جدة لقتال الشريف غالب فلما أحاطوا بجدة رمى عليهم بالمدافع والقلل فقتل كثيرا منهم ولم يقدروا على تملك جدة فارتحلوا بعد ثمانية أيام ورجعوا الى بلادهم وجعلوا لهم عسكرا بمكة وأقاموا لهم أميرا فيها وهو الشريف عبد المعين أخو الشريف غالب وانما قبل أمرهم ليرفق بأهل مكة و يدفع ضرر أولئك الاشرار عنهم * وفى شهر ربيع الاول من السنة المذكورة سار الشريف غالب من جدة ومعه والى جدة من طرف السلطنة العلية وهو شريف باشا ومعهما العساكر فوصلوا الى مكة وأخرجوا من كان بها من عسكر الوهابية ورجعت امارة مكة للشريف غالب ثم بعد ذلك تركوا مكة واشتغلوا بقتال كثير من القبائل وصار الطائف بأيديهم وجعلوا عليه أميرا عثمان المضايفى فصار هو و بعض جنودهم يقاتلون القبائل التى فى أطراف مكة والمدينة و يدخلونهم فى طاعتهم حتى استولوا عليهم وعلى جميع الممالك التى كانت تحت طاعة أمير مكة فتوجه

قصدهم بعد ذلك للاستيلاء على مكة فسار وابجيوشهم سنة عشرين وحاصروا مكة وأحاطوا بها من جميع الجهات وشددوا الحصار عليها وقطعوا الطرق ومنعوا الميرة عن مكة فاشتد الحصار على أهل مكة حتى أكلوا الكلاب لشدة الغلاء وعدم وجود القوت فاضطر الشريف غالب الى الصلح معهم وتأمين أهل مكة فوسط أناسا بينه وبينهم فعقدوا الصلح على شروط فيها رفق بأهل مكة فمن تلك الشروط أن امارة مكة تكون له فتم الصلح ودخلوا مكة فى أواخر ذى القعدة سنة عشرين وتملكوا المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وانتهبوا الحجرة وأخذوا ما فيها من الاموال وفعلوا أفعالا شنيعة وجعلوا على المدينة أميرا منهم مبارك بن مضيان واستمر حكمهم فى الحرمين سبع سنين ومنعوا دخول الحج الشامى والمصرى مع المحامل مكة وصاروا يصنعون للكعبة المعظمة ثوبا من العباء القيلان الاسود وأكرهوا الناس على الدخول فى دينهم ومنعوهم من شرب التنباك ومن فعل ذلك واطلعوا عليه عزروه بأقبح التعزير وهدموا القبب التى على قبور الأولياء وكانت الدولة العثمانية فى تلك السنين فى ارتباك كثير وشدة قتال مع النصارى وفى اختلاف فى خلع السلاطين وقتلهم كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى ثم صدر الأمر السلطانى لصاحب مصر محمد على باشا بالتجهيز لقتال الوهابية وكان ذلك فى سنة ست وعشرين ومائتين وألف فجهز محمد على باشا جيشا فيه عساكر كثيرة جعل عليهم بفرمان سلطانى ولده طوسون باشا فخرجوا من مصر فى رمضان من السنة المذكورة ولم يزالوا سائرين برا وبحرا حتى وصلوا الى ينبع فملكوه من الوهابية ثم لما وصلت العساكر الى الصفرا والجديدة وقع بينهم وبين العرب الذين فى الحربية قتال شديد بين الصفرا والجديدة وكانت تلك القبائل كلها فى طاعة الوهابى وانضم اليها قبائل كثيرة فهزموا ذلك الجيش وقتلوا كثيرا منهم وانتهبوا جميع ما كان معهم وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ست وعشرين ولم يرجع من ذلك الجيش الى مصر الا القليل فجهز جيشا غيره سنة سبع وعشرين وعزم محمد على باشا على التوجه الى الحجاز بنفسه

وتوجهت العساكر قبله فى شعبان فى غاية القوة والاستعداد وكان معهم من المدافع ثمانية عشر مدفعا وثلاثة قنابر فاستولت العساكر على ما كان بيد الوهابية وملكوا الصفرا والجديدة وغيرهما فى رمضان بلا قتال بل بالمخادعة ومصانعة العرب باعطاء الدراهم الكثيرة حتى انهم أعطوا شيخ مشايخ حرب مائة ألف ريال وأعطوا اشياخا من صغار مشايخ حرب أيضا ثمانية عشر ألف ريال ورتبوا لهم علائف تصرف لهم كل شهر وكان ذلك كله بتدبير شريف مكة الشريف غالب وهو فى الظاهر تحت طاعة الوهابى وأما المرة الأولى التى هزموا فيها فلم يكونوا كاتبوا الشريف غالب فى ذلك حتى يكون الامر بتدبيره ودخلت العساكر المدينة المنورة فى أواخر ذى القعدة ولما جاءت الأخبار الى مصر صنعوا زينة ثلاثة أيام وأكثروا من الشنك وضرب المدافع وأرسلوا ابشائر لجميع ملوك الروم واستولت العساكر السائرة من طريق البحر على جدة فى أوائل المحرم من سنة ثمان وعشرين ثم طلعوا الى مكة واستولوا عليها أيضا وكل ذلك بلا قتال بتدبير الشريف غالب سرا ولما وصلت العساكر الى جدة فر من كان بمكة من عساكر الوهابية وأمرائهم وكان سعود أمير الوهابية حج فى سنة سبع وعشرين ثم ارتحل الى الطائف ثم الى الدرعية ولم يعلم باستيلاء العساكر السلطانية على المدينة الا بعد ذلك ثم لما وصل الى الدرعية علم باستيلائهم على مكة ثم الطائف ولما وصلت العساكر الى جدة ومكة فر من الطائف أميرها عثمان المضايفى وفر من كان بها من عساكر الوهابية وأمرائهم * وفى شهر ربيع الاول من سنة ثمان وعشرين أرسل محمد على باشا مبشرين الى دار السلطنة ومعهم مفاتيح وكتبوا اليهم أنها مفاتيح مكة والمدينة وجدة والطائف فدخلوا بها دار السلطنة بموكب حافل ووضعوا المفاتيح على صفائح الذهب والفضة وأمامها البخورات فى مجامر الذهب والفضة وخلفهم الطبول والزمور وعملوا لذلك زينة وشنكا ومدافع وخلعوا على من جاء بالمفاتيح وزادوا فى رتبة محمد على باشا وبعثوا له أطواقا وعدة أطواخ بولايات لمن يختار تقليده * وفى شهر شوال سنة ثمان وعشرين

توجه محمد على باشا بنفسه الى الحجاز وقبل توجهه من مصر قبض الشريف غالب على عثمان المضايفى الذى كان أميرا على الطائف للوهابية وكان من أكبر أعوانهم وأمرائهم فزنجره بالحديد و بعثه الى مصر فوصل فى ذى القعدة بعد توجه الباشا الى الحجاز ثم أرسل الى دار السلطنة فقتلوه ووصل محمد على باشا فى ذى القعدة الى مكة وقبض على الشريف غالب بن مساعد و بعثه الى دار السلطنة وأقام لشرافة مكة ابن أخيه الشريف يحيي بن سرور بن مساعد * وفى شهر محرم من سنة تسع وعشرين بعثوا الى دار السلطنة مبارك بن مضيان الذى كان أميرا على المدينة المنورة للوهابية فطافوا به فى القسطنطينية فى موكب لمرأى الناس ثم قتلوه وعلقوا رأسه على باب السرايا وفعل مثل ذلك بعثمان المضايفى وأما الشريف غالب فأرسلوه الى سلانيك و بقى بها مكرما الى أن توفى سنة احدى وثلاثين ودفن بها و بنى عليه قبة تزار ومدة أمارته على مكة ست وعشرون سنة ثم ان محمد على باشا وجه كثيرا من العساكر الى تربة و بيشة و بلاد غامد وزهران و بلاد عسير لقتال طوائف الوهابية وقطع دابرهم ثم سار بنفسه فى أثرهم فى شعبان سنة تسع وعشرين ووصل الى تلك الديار وقتل كثيرا منهم وأسر كثيرا وخرب ديارهم * وفى شهر جمادى الأولى سنة تسع وعشرين هلك سعود أمير الوهابية وقام بالملك بعده ولده عبد الله ورجع محمد على باشا من تلك الديار التى وصلها من ديار الوهابية عند اقبال الحج وحج ومكث بمكة الى رجب سنة ثلاثين ثم توجه الى مصر ونزل بمكة حسن باشا ووصل الباشا الى مصر منتصف رجب سنة ثلاثين ومائتين وألف فتكون اقامته بالحجاز سنة وسبعة أشهر وما رجع الى مصر الا بعد أن مهد أمور الحجاز وأباد طوائف الوهابية التى كانت منتشرة فى جميع قبائل الحجاز والشرق وبقى منهم بقية بالدرعية أميرهم عبد الله بن سعود فجهز محمد على باشا لقتاله جيشا وأرسله تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا وكان عبد الله ابن سعود قبل ذلك تكاتب مع طوسون باشا بن محمد على باشا حين كان بالمدينة وعقد معه صلحا على بقاء امارته ودخوله تحت طاعة محمد على باشا فلم يرض محمد

على باشا بهذا الصلح فجهز ولده ابراهيم باشا وجعل أمر العساكر اليه وكان ابتداء ذلك فى أواخر سنة احدى وثلاثين فوصل الى الدرعية سنة اثنتين وثلاثين ونازل بجيوشه عبد الله بن سعود ووقع بينهما وقائع وحروب يطول ذكرها الى أن استولى عبد الله بن سعود فى ذى القعدة سنة ثلاث وثلاثين ولما جاءت الاخبار الى مصر ضربوا لذلك ألف مدفع وفعلوا اشنكا وزينوا مصر وقراها سبعة أيام وكان محمد على باشا له اهتمام كبير فى قتال الوهابية وأنفق فى ذلك خزائن من الاموال حتى أخبر بعض من كان يباشر خدمته أنهم دفعوا فى دفعة من الدفعات لاجرة تحميل بعض الذخائر خمسة وأربعين ألف ريال هذا فى مرة من المرات كان ذلك الحمل من الينبع الى المدينة عن أجرة كل بعير ست ريال دفع نصفها أمير ينبع والنصف الآخر أمير المدينة عند وصول الحمل من المدينة الى الدرعية كان أجرة تلك الحملة فقط مائة وأربعين ألف ريال وقبض ابراهيم باشا على عبد الله بن سعود وبعث به وكثير من أمرائهم الى مصر فوصل فى سابع عشر محرم سنة أربع وثلاثين وصنعوا له موكبا حافلا يراه الناس وأركبوه على هجين وازدحم الناس للتفرج عليه ولما دخل على محمد على باشا قام له وقابله بالبشاشة وأجلسه بجانبه وحادثه وقال له الباشا ماهذه المطاولة فقال الحرب سجال قال وكيف رأيت ابنى ابراهيم باشا قال ماقصر و بذل همته ونحن كذلك حتى كان ماقدره الله تعالى فقال له الباشا أنا أترجى فيك عند مولانا السلطان فقال المقدر يكون ثم ألبسه خلعة وانصرف الى بيت اسماعيل باشا ببولاق وكان بصحبة عبد الله بن سعود صندوق صغير مصفح فقال له الباشا ماهذا فقال هذا ما أخذه أبى من الحجرة أصحبه معى الى السلطان فأمر الباشا بفتحه فوجدوا فيه ثلاثة مصاحف من خزائن الملوك لم يرالراؤن احسن منها ومعها ثلاثمائة حبة من اللؤلؤ الكبار وحبة زمرد كبيرة وشريط من الذهب فقال له الباشا الذى أخذتموه من الحجرة أشياء كثيرة غير هذا فقال هذا الذى وجدته عند أبى فانه لم يستأصل كل ما كان فى الحجرة لنفسه بل أخذه كذلك كبار العرب وأهل المدينة وأغاوات الحرم وشريف مكة فقال

الباشا صحيح وجدناعند الشريف أشياء من ذلك ثم أرسلوا عبد الله بن سعود الى دار السلطنة ورجع ابراهيم باشا من الحجاز الى مصر فى شهر المحرم من سنة خمس وثلاثين بعد أن أخرب الدرعية خرابا كليا حتى تركوا سكناها ولما وصل عبد الله ابن سعود الى دار السلطنة فى شهر ربيع الاول طافوا به البلد ليراه الناس ثم قتلوه عند باب همايون وقتلوا أتباعه أيضا فى نواح متفرقة هذا حاصل ما كان فى قصة الوهابى بغاية الاختصار ولو بسط الكلام فى كل قضية لطال وكانت فتنتهم من المصائب التى أصيب بها أهل الاسلام فانهم سفكوا كثيرا من الدماء وانتهبوا كثيرا من الاموال وعم ضررهم وتطاير شررهم فلا حول ولا قوة الا بالله وكثير من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم فيها التصريح بهذه الفتنة كقوله صلى الله عليه وسلم يخرج أناس من قبل المشرق يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية سيماهم التحليق وهذا الحديث جاء بروايات كثيرة بعضها فى صحيح البخارى وبعضها فى غيره لاحاجة لنا الى الاطالة بنقل تلك الروايات ولا لذكر من خرجها لانها صحيحة مشهورة ففى قوله سيماهم التحليق تصريح بهذه الطائفة لانهم كانوا يأمرون كل من اتبعهم أن يحلق رأسه ولم يكن هذا الوصف لاحد من طوائف الخوارج والمبتدعة الذين كانوا قبل زمن هؤلاء وكان السيد عبد الرحمن الاهدل مفتى زبيد يقول لاحاجة الى التأليف فى الرد على الوهابية بل يكفى فى الرد عليهم قوله صلى الله عليه وسلم سيماهم التحليق فانه لم يفعله أحد من المبتدعة غيرهم واتفق مرة أن امرأة أقامت الحجة على ابن عبد الوهاب لما أكرهوها على اتباعهم ففعلت أمرها ابن عبد الوهاب أن تحلق رأسها فقالت له حيث انك تأمر المرأة بحلق رأسها ينبغى لك أن تأمر الرجل بحلق لحيته لان شعر رأس المرأة زينتها وشعر لحية الرجل زينته فلم يجد لها جوابا ومما كان منهم أنهم يمنعون الناس من طلب الشفاعة من النبى صلى الله عليه وسلم مع ان أحاديث شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم لأمته كثيرة متواترة وأكثر شفاعته لأهل الكبائر من أمته وكانوا يمنعون من قراءة دلائل الخيرات المشتملة على الصلاة على النبى

صلى الله عليه وسلم وعلى ذكر كثير من أوصافه الكاملة ويقولون ان ذلك شرك ويمنعون من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم على المنابر بعد الأذان حتى ان رجلا صالحا كان أعمى وكان مؤذنا وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم بعد الأذان بعد أن كان المنع منهم فأتوا به الى ابن عبد الوهاب فأمر به أن يقتل فقتل ولو تتبعت لك ما كانوا يفعلونه من أمثال ذلك لملأت الدفاتر والاوراق وفى هذا القدر كفاية والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر قتل الصناجق المماليك المتغلبين على مصر ﴾

اعلم أن المماليك المذكورين كانوا متغلبين على مصر فلما تمكن محمد على باشا من المماليك المصرية احتال عليهم وقتلهم سنة ست وعشرين ومائتين وألف وكانوا هم وعساكرهم وأتباعهم كثيرون وما زالوا يعارضون محمد على باشا فى كثير من شؤنه وهو يداهنهم ويتحذر منهم فلما جاء الامر السلطانى بتوجهه الى الحجاز لمحاربة الوهابى طلب من الدولة أن يأتيه فرمان بولاية ولده طوسون باشا صارى عسكر على العساكر التى يريد أن يرسلها الى الحجاز فجاءه فرمان سلطانى بذلك فجعل ذلك وسيلة الى جمع الصناجق وعساكرهم فى القلعة لقراءة الفرمان المذكور وخروجهم بالألاى الحافل مع ابنه المذكور الى العرضى الخارج للحجاز المنتصب خارج مصر عند قبة العزب فنبه على العساكر الصناجق فى الحضور الى القلعة فى الثالث من شهر صفر فى الساعة الرابعة من النهار ورتب فى القلعة عساكر خاصة به وجعلهم فى الابراج والمكامن التى فى القلعة وأمر البواب للقلعة أنهم اذا استكمل دخولهم يغلق الباب وأمر العساكر الخاصة به الذين رتبهم فى القلعة أن يقتلوا كل من دخل منهم بعد غلق باب القلعة ففعلوا ذلك وصار القتل فيهم من وقت الضحى الى غروب الشمس فقتل منهم خلقا كثيرا ثم تتبع الباقين منهم فى مصر وبقية الارياف بالقتل حتى أبادهم عن آخرهم وذلك شئ كثير وعدد وفير والقصة طويلة لكن هذا حاصلها وتم له انتظام ملكه من غير معارض بعد أن قتلهم وكانت ولايته مصر سنة عشرين واستمر فيها الى سنة أربع وستين ومائتين

وألف وكان فى الاصل من العساكر الذين جاؤا مع يوسف باشا لما أخرج الفرنسيس من مصر سنة ست عشرة وأصله من بلاد قوله وجنسه من الأرنؤود فلما كان محاربة يوسف باشا للفرنسيس قاتل مع من قاتل واشتهر بالشجاعة فى تلك الحروب ثم ترقى فى مدة قصيرة الى رتبة قائم مقام الى أن تقلد زمام أحكام الديار المصرية سنة تسع عشرة ومائتين وألف ولما خرج الفرنسيس من مصر ودخلها يوسف باشا ثم سافر يوسف باشا وأقامت الدولة وزير المصر واليا عليها الوزير محمد خسرو باشا واستمر الى المحرم سنة ثمان عشرة فوقع بينه و بين العساكر فتنة بسبب طلب مرتباتهم وجوامكهم واتسعت الفتنة حتى أخرجوا الوزير المذكور من مصر واتفقوا على تولية طاهر باشا قائم مقام بمصر الى أن يأتى الامر من الدولة بتولية غيره فألبسه القاضى فرواسمورا وكان الرئيس الثائر فى تلك الفتنة محمد على باشا ثم بعد ست وعشرين يوما ثاروا على طاهر باشا فقتلوه وكان قد حضر من دار السلطنة الى مصر أحمد باشا واليا على المدينة المنورة فولاه أهل مصر عليهم بعد قتل طاهر باشا فلم يذعن لذلك محمد على وقال ان أحمد باشا لم يكن واليا على مصر وانما هو وال على المدينة المنورة وانما ولينا قبله طاهر باشا لكونه كان محافظا للديار المصرية من الدولة العلية فله شبهة فى التولية وأما أحمد باشا فليس له تعلق بمصر فهو يخرج خارج مصر ونجهزه بالعساكر و يتوجه الى محل ولايته ثم اشتدت الفتنة وانتشرت بين العساكر الى ان أخرجوا أحمد باشا فكانت مدة ولايته بمصر يوما وليلة ثم نادى مناد بتسكين الناس وتأمينهم وان الأمر يكون لابراهيم بيك كبير الصناجق وحاكم الولاية وأشركوا معه محمد على وقبضوا على الدفتردار وقطعوا رأسه ثم قامت العساكر على ابراهيم بيك لطلب جوامكهم وانتشرت الفتنة وأرادوا قتل ابراهيم بيك ونهبوا داره فهرب فقوى أمر محمد على وصار الحل والعقد بيده ثم جاءت الاخبار من دار السلطنة بولاية مصر لأحمد باشا خورشيد حاكم الاسكندرية ووصل الى مصر فى ذى الحجة سنة ثمان عشرة و بعد وصوله طلب من الناس أموالا جزيلة تكون معجلة عما يلزم الناس من

خراج مصر فاشتد الامر على الناس وارتفعت الأسعار وأغلقت الدكاكين والأسواق واجتمع الاطفال بالجامع الأزهر وصعدوا الى المنابر يصرخون ويتضرعون ويقولون يالطيف فسمعهم الباشا وهو فى القلعة فأرسل الى نقيب الأشراف انا قدر فعنا عن الناس ما كنا طلبناه وأما ابراهيم بيك ومن معه من الامراء الذين أخرجوهم من مصر فانهم جمعوا جموعا من الأرياف وجاؤا لقتال الباشا ومن معه بمصر فخرج اليهم بالعساكر ووقع القتال واشتد الأمر وتقطعت الطرق وشرح ذلك كله يطول ثم جاء أمر من الدولة لمحمد على بولاية جدة فألبسه الباشا فروا ولما خرج يريد الركوب ثارت على محمد على العساكر وطلبوا منه العلوفة فقال لهم هاهو الباشا عندكم وركب هو الى داره وصار ينثر الذهب على الناس فى الطريق وأمسك العساكر أحمد باشا ومنعوه من الركوب الى بعد المغرب ثم لاطفهم وركب وأشيع بين الناس انهم حبسوه وهو قد ذهب الى القلعة ثم أشيع أنه يريد وضع فردة على الناس فهاج الناس واجتمع كثير من الناس عند بيت القاضى وصاروا يصرخون بقولهم شر الله بيننا و بين هذا الباشا الظالم ومنهم من يقول يامتجلى أهلك العثملى ومنهم من يقول حسبنا الله ونعم الوكيل ومنهم من يقول لانريد هذا الباشا حاكما علينا لابد من عزله وذهبوا الى بيت محمد على يقولون ذلك فقال لهم ومن تريدون أن يكون واليا عليكم فقالوا لانرضى الابك لما نتوسمه فيك من العدالة والخير فامتنع أولا ثم رضى فأحضروا له كركا وقام السيد عمر مكرم نقيب الاشراف والشيخ الشرقاوى فألبساه ونادوا بذلك فى البلد وذلك يوم الاثنين سادس صفر سنة عشرين ومائتين وألف ونادوا فى مصر بولايته وأرسلوا الخبر الى أحمد باشا فقال انى متول من السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ولا أنزل من القلعة الا بأمر السلطان فكتب الناس سؤالا وكتب عليه المفاتى وحكموا بعزله وصحة تولية محمد على باشا وحضروا فى بيت القاضى فحكم بمقتضى ذلك واستقر أحمد باشا فى القلعة وأراد الحرب والقتال مع أهل مصر فحاصروه فى القلعة أياما الى ان أخرجوه منها وحصل بينه و بين العلماء كلام كثير وقال لهم

كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) فقالوا له أولوا الأمر هم العلماء وجرت العادة من القديم ان أهل البلد يعزلون الولاة حتى السلطان اذا جار عليهم يخلعونه والقصة طويلة جدا يطول الكلام بذكرها وطال الأمر بينهم الى أن جاء الأمر السلطاني بولاية محمد على باشا واقرار ما فعله العلماء وأهل مصر في شهر ربيع الثاني فتم الأمر لمحمد على باشا حتى كان من أمره ما كان وأكثر ما تقدم ذكره من القيام على الباشوات الذين تولوا مدة هذه الفتنة كان بتدبير محمد على باشا وترتيبه ولم يزل في ترق وعلو وارتفاع حتى حارب السلطان محمود وملك عكا والشام فلما توفي السلطان محمود انعقد الصلح بينه وبين السلطان عبد المجيد سنة خمس وخمسين ومائتين وألف وترك الشام والحجاز وأعطوه ولاية الاقطار المصرية مؤبدة له ولأولاده وجعلوا عليه خراجا معلوما يدفعه كل سنة واستمر الى سنة أربع وستين فأصابه مرض اختل به عقله فولى ابنه ابراهيم باشا في حياة أبيه فكانت مدة ولاية محمد على باشا نحو خمس وأربعين سنة واستمر ابنه ابراهيم باشا نحو سنة ثم توفي فولى عباس باشا ابن طوسون باشا ابن محمد على باشا واستمر الى سنة سبعين فتوفي مقتولا ثم ولى سعيد باشا ابن محمد على باشا وتوفي سنة تسع وسبعين ثم ولى اسمعيل باشا ابن ابراهيم باشا ابن محمد على باشا وخلع سنة ست وتسعين وولى ابنه محمد توفيق باشا وهو الموجود الآن وانما ذكرنا هذا كله استطرادا تتميما للفائدة ليتصل الكلام بعضه ببعض

﴿ ذكر استيلاء الفرنسيس على مصر ﴾

كانت مصر قبل أن تتملكها الدولة العثمانية بيد ملوك الجراكسة وكان لهم كثير من المماليك الذين هم أيضا من الجراكسة ومن غيرهم من الترك فلما تملكت الدولة العثمانية مصر لم تزل المماليك باقين وفي كل وقت يزدادون حتى بلغوا غاية الكثرة وكان منهم أمراء ورؤساء فصارت لهم عصبية قوية فتغلبوا على الاملاك والاراضي والاطيان والمحصولات والخراجات والجمارك وكانوا اذا جاء الباشا المتولى على مصر من الدولة العلية ينقادون له في الظاهر وفي الباطن هم متغلبون

نكانوا يبقونه اذا أرادوا ويعزلونه اذا أرادوا ولا يصل الى الدولة العلية من محصولات مصر الا القليل والباقى بأيديهم وكان لهم رؤساء وعلى الجميع أمير كبير تحت أمر الوزير المتولى من السلطنة صورة وظاهرا فقط فلما تغلبوا هذا التغلب كثر منهم الظلم والعدوان على المسلمين وغيرهم من طوائف النصارى واليهود فيتعدون كثيرا عليهم لاسيما على تجارهم فكانت الدولة العلية مشتغلة عنهم بكثرة الحرب مع النصارى فطمع الفرنسيس فى تملك مصر وابعاد هؤلاء المماليك المتغلبين وأوهموا على المسلمين انهم انما يريدون تخليص مصر منهم وبقاء الحكم فيها للدولة العلية فجهز الفرنسيس عليها جيوشه بالسر والكتمان من غير اطلاع أحد على ذلك وجاءهم بغتة فتملكها على الوجه الآتى ذكره وكان ذلك فى شهر المحرم سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وكان الوزير المتولى على مصر من السلطنة العلية فى تلك السنة هو أبو بكر باشا الطرابلسى كانت ولايته من سنة احدى عشرة ومائتين وألف وكان للمماليك المتغلبين على مصر أميران رئيسان على جميعهم وهما ابراهيم بيك ومراد بيك كان تحت طوعهما جميع الصناجق والعساكر فلما اشاعت الاخبار بقدوم الفرنسيس للاستيلاء على مصر خرج من مصر الوزير المتولى من السلطنة العلية وهو أبو بكر باشا المتقدم ذكره وتوجه الى غزة ثم منها الى دار السلطنة توجه من مصر يوم السبت سابع شهر صفر من السنة المذكورة وبقيت مصر بيد ابراهيم بيك ومراد بيك وصناجقهما والأمراء والعساكر التى تحت أيديهما وكان أهل مصر عند خروج أبى بكر باشا من مصر وقبل خروجه بأيام يسمعون اشاعات عن مسير الفرنسيس الى تملك مصر ولم يقفوا على حقيقتها فلما كان العشرون من المحرم من سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وصلت مراكب للفرنسيس مشحونة بالعساكر وآلات الحرب وتقاتل من كان فيها من العساكر مع أهل الاسكندرية ولم يكن أهل الاسكندرية مستعدين لقتالهم فلم يقدروا على دفعهم لاسيما وقد جاؤهم بغتة فقاتلوهم قليلا ثم طلبوا الامان منهم فامنوهم ودخلوا الاسكندرية وملكوها فلما جاء الخبر الى مصر

أخذ ابراهيم بيك ومراد بيك فى الاستعداد لهم وأبرزوا جيشا من العسكر الى موضع يقال له الجسر الاسود وأخرجوا المدافع وآلات الحرب واضطرب الناس بمصر وكثر الهرج والمرج وتقطعت الطرق وارتفع السعر وكثر المراقبة جاءهم مكتوب من الفرنسيس فيه بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه وبعد ذلك كلام كثير من جملته انى أعبد الله وأحترم نبيه والقرآن العظيم وأنهم مسلمون (يعنون أنفسهم) مخلصون واثبات ذلك انهم نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة أهل الاسلام ثم قصدوا مدينة مالطة وطردوا منها الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة أهل الاسلام وكل ذلك من الكلام الذى يوهمون به على أهل الاسلام انهم موحدون لله تعالى وانهم يحبون أهل الاسلام ويحبون سلطانهم وانهم انما جاؤا لنصرة سلطان الاسلام وابعاد المماليك المتغلبين على ممالكه ودفع ظلمهم عن الرعية ومن جملة ما فى ذلك الكتاب خطابا للمسلمين وما جئتكم لازالة دينكم وانما قدمت اليكم لاخلص حقكم من يد الظالمين الصناجق المماليك الذين يتسلطون فى البلاد المصرية ويعاملون الملة الفرنساوية بالذل والصغار ويظلمون تجارهم ويؤذونهم بانواع الايذاء والتعدى ويأخذون أموالهم ويفسدون فى الاقليم الحسن الاحسن الذى لا يوجد فى كرة الارض كلها مثله فأما رب العالمين القادر على كل شئ فانه قد حكم بانقضاء دولتهم وانى أعبد الله سبحانه أكثر من المماليك وأحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا لهم ان جميع الناس متساوون عند الله تعالى وان الشئ الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شئ أحسن فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فان كانت الارض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر عن

الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العلية فالعلماء والفضلاء والعقلاء منهم سيدبرون الامور وبذلك يصلح حال الأمة كلها وسابقا كان فى الاراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك أيها المشايخ والقضاة والائمة وأعيان البلد قولوا لامتكم ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون ومع ذلك فالفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك ان المماليك امتنعوا من طاعة السلطان غير ممتثلين لامره فما أطاعوا أصلا الا لطمع أنفسهم طوبى ثم طوبى لاهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم طوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لاحد الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالاكثر تسارعوا الينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر وأن جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار اليه انهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذى هو أبيض وأكحل وأحمر وان كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار وان كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى أيضا تنصب صناجق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه والواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والائمة انهم يلازمون وظائفهم وعلى كل أحد من أهالى البلد أن يبقى فى مسكنه مطمئنا وتكون الصلاة تامة فى الجوامع على العادة والمصريون باجمعهم ينبغى أن يشكروا الله تعالى على انقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله اجلال السلطان العثمانى أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى لعن الله المماليك وأصلح حال الامة المصرية وعلى المشايخ فى كل بلد أن يختموا حالا على جميع الارزاق والبيوت والاملاك التى للماليك وعليهم الاجتهاد التام أن لا يضيع أدنى شئ منها وفى التاسع والعشرين من محرم قدموا الى مصر فاستقبلهم عسكر مصر

عند الرحمانية وهزموا الى الجيزة والتقوا عند بشقيل وحصلت مقتلة عظيمة وقدر الله ان المسلمين هزموا ففر مراديك ومن معه الى الصعيد وفر ابراهيم بيك ومن معه فى البر الشرقى الى الشام وقيل لم يقع قتال كثير وانما هى مناوشة من طلائع العساكر بحيث لم يقتل الا القليل من الفريقين وكانت مراكب فى البحر لمراديك فاحترقت بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية واحترق بها رئيس الطبجية واحترق ما فيها من المحاربين فلما عاين ذلك مراديك دخله الرعب وولى منهزما وترك الاثقال والمدافع التى فى البر وتبعته العساكر وركب ابراهيم بيك الى ساحل بولاق طرف البر الشرقى ورجع الناس منهزمين طالبين مصر فاجتمع الباشا والعلماء ورؤوس الناس يتشاورون فى هذا الحادث العظيم فاتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق الى شبرا ويتولى الاقامة ببولاق ابراهيم بيك وكشافه ومماليكه وقد كانت العلماء عند ابتداء هذا الحادث يجتمعون بالازهر كل يوم ويقرؤن البخارى وغيره من الدعوات وكذلك مشايخ الطرائق وأتباعهم وكذا أطفال المكاتب ويذكرون اسم اللطيف وغيره من الاسماء ويوم الاثنين حضر مراديك الى برانبابه وشرع فى عمل متاريس هناك ممتدة الى بشقيل وتولى ذلك هو وصناجقه وأمراؤه وكان معه فى ذلك على باشا الطرابلسى ونصوح باشا وأحضروا المراكب الكبار والغلايين التى أنشأها بالجيزة وأوقفها على ساحل انبابه وشحنها بالعساكر والمدافع فصار البر الغربى والشرقى مملوأين بالعساكر والمدافع والمتاريس والخيالة والمشاة ومع ذلك فقلوب الامراء لم تطمئن بذلك فانهم من وصول الخبر الاول لهم من الاسكندرية شرعوا فى نقل أمتعتهم من البيوت الكبار المشهورة المعروفة الى البيوت الصغار التى لا يعرفها أحد واستمر واطول الليالى ينقلون الامتعة ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم وأرسلوا البعض منها لبلاد الارياف وأخذوا أيضا فى تشهيل الاحمال واستحضار دواب الشيل وأسباب الارتحال فلما رأى أهل البلد منهم ذلك داخلهم الخوف الكثير والفزع واستعد الاغنياء وأولو المقدرة للهرب ولولا ان الامراء منعوهم من ذلك لما بقى بمصر منهم

أحدوفى يوم الثلاثاء نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس فأغلق الناس الدكاكين والاسواق وخرج الجميع لبولاق فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خياما أو يجلسون فى مكان خراب أومسجد ويرتبون أمرهم فيمن يصرف لهم ما يحتاجون اليه من الدراهم التى جمعوها ويجعلون فيما عليهم يباشر ذلك وبعض الناس يتطوع على بعض فى الانفاق ومن الناس من يجهز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والاكل وغير ذلك بحيث أن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما فى قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم فلم يشح أحد فى ذلك الوقت بشىء يملكه ولكن لم يسعفهم الدهر وخرجت الفقراء وأرباب الاشائر بالطبول والزمور والاعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون باذكار مختلفة وصعد السيد عمر مكرم نقيب الاشراف الى القلعة فأخرج بيرقا كبيرا سمته العامة بيرق النبى صلى الله عليه وسلم فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصى يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور وغير ذلك وأما مصر فانها صارت خالية الطرق لاتجد بها سوى النساء فى البيوت وضعفاء الرجال الذين لايقدرون على الحركة وغلا سعر البارود والرصاص جدا بحيث بيع الرطل البارود بستين نصفا والرصاص بتسعين نصفا وغلا جنس أنواع السلاح وقل وجوده وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصى والمساوق وجلس مشايخ العلماء بزاوية على بيك ببولاق يدعون ويبتهلون الى الله تعالى بالنصر وأقام غيرهم من الرعايا بالبيوت والزوايا والخيام ومحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول الى بولاق وأقام بها من حين نصب ابراهيم بيك العرضى هناك الى وقت الهزيمة سوى القليل من الناس الذين لايجدون لهم مكانا ولا مأوى فيرجعون الى بيوتهم يبيتون بها ثم يصبحون الى بولاق وأرسل ابراهيم بيك الى العربان المجاورة لمصر ورسم لهم أن يكونوا من المقدمة بنواحى شبرا وما والاها وكذلك اجتمع عند مراد بيك الكثير من عرب البحيرة والجيزة

والصعيد والجيزية والقيعان وأولاد علي والقناوية وغيرهم وفي كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون أقواتهم يومافيوما لتعطل الاسباب واجتماع الناس كلهم في صعيد واحد وانقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكام واشتغالهم بما دهمهم وكذلك العرب أغارت على الاطراف والنواحي وقامت الارياف على ساق يقتل بعضهم بعضها وينهب بعضهم بعضا وصار قطر مصر من أوله الى آخره في قتل ونهب واخافة طريق وقيام شر واغارة على الاموال وافساد المزارع وغير ذلك من أنواع الفساد الذي لا يحصى وطلب أمراء مصر تجار الافرنج الذين بمصر وحبسوهم في القلعة وفي بعض أماكن غير القلعة من بيوت الامراء وساروا يفتشون في محلات الافرنج على الاسلحة وغيرها وكذلك يفتشون بيوت النصارى الشوام والاقباط والاروام والكنائس على الاسلحة والعامة لا ترضى الا أن يقتلوا النصارى واليهود فيمنعهم الحكام عنهم ولولا ذلك المنع لقتلهم العامة وقت هذه الفتنة ثم في كل يوم تكثر الاشاعة بقرب الفرنسيس الى مصر وتختلف الناس في الجهة التي يجيؤن منها فمنهم من يقول انهم واصلون من البر الغربي ومنهم من يقول انهم واصلون من الشرقي ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتين وليس لأحد من الامراء همة أن يبعث جاسوسا أو طليعة تناوشهم القتال قبل قربهم ووصولهم الى فناء مصر بل كل من ابراهيم بيك ومراد بيك جمع عساكره ومكث في مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم وليس هناك قلعة ولا حصن ولا معقل وهذا من سوء التدبير واهمال أمر العدو ولما كان يوم الجمعة سادس شهر صفر وصل الفرنسيس الى الجسر الاسود وأصبح يوم السبت فوصل أم دينار فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين والمجاورة بلادهم لمصر ولكن الاجناد متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم مختلفة آراؤهم حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم مختالون في ريشهم مغترون بجمعهم محتقرون شأن عدوهم مرتبكون في رؤيتهم مغمورون في غفلاتهم وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم وقد كان الظن

الفرنسيس أن يأتوا من البرين بل أشيع ذلك فلم يأتوا الا من البر الغربى ولما كان
وقت القبولة ركب جماعة من العساكر التى بالبر الغربى وتقدموا الى ناحية
تقبيل بلدة مجاورة لانبابه فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس فكروا عليهم
بالخيول فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتابعة الرمى وأبلى الفريقان وقتل أيوب
بيك الدفتردار وكثير من كشاف محمد بيك الالفى ومماليكهم وتبعهم طابور من
الافرنج نحو الستة آلاف وكان رئيسهم الكبير بونابارته لكنه لم يشهد الوقعة بل
حضر بعد الهزيمة كان بعيدا عن هؤلاء بكثير ولما قرب طابور الفرنسيس من
متاريس مراد بيك ترامى الفريقان بالمدافع وكذلك العسكر المحاربون البحرية
وحضر عدة وافرة من عساكر الارنؤد من دمياط وطلعوا الى انبابه وانضموا
الى المشاة وقاتلوا معهم فى المتاريس فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقى القتال ضج
العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح ورفعوا الاصوات بقولهم
يارب يالطيف ويارجال الله ونحو ذلك وكانهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم
فكان العقلاء من الناس يأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم ان الرسول والصحابة
والمجاهدين انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لابرفع الصوت
والصراخ والنباح فلا يستمعون ولا يرجعون عماهم فيه ومن يقرأ ومن يسمع
وركب طائفة كبيرة من الأمراء والاجناد من العرضى الشرقى ومعهم ابراهيم
بيك الوالى وشرعوا فى التعدية الى البر الغربى فى المراكب فتزاحموا على المعادى
لكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة جدا فلم يصلوا الى البر الآخر حتى
وقعت الهزيمة على المحاربين هذا والريح العاصفة قد اشتد هبوبها وأمواج البحر
فى قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح فى وجوه المصريين فلا
يقدر أحد أن يفتح عينيه مع شدة الغبار وكون الريح من ناحية العدو وذلك من
أعظم أسباب الهزيمة كما هو منصوص عليه ثم ان الطابور الذى تقدم لقتال
مراد بيك انقسم على تراتيب معلومة عندهم فى الحرب وتقارب من المتاريس
بحيث صار محيطا بالعسكر من خلفه وأمامه ودق طبوله وأرسل بنادقه المتابعة

والمدافع ترمى واشتد هبوب الريح وانعقد الغبار وأظلمت الدنيا من دخان البارود
وغبار الريح وصمت الاسماع من توالى الضرب بحيث خيل للناس ان الارض
تزلزلت والسماء عليها سقطت واستمر الحرب والقتال نحو ثلثى ساعة ثم كانت
الهزيمة على العسكر الغربى فغرق الكثير من الخيالة فى البحر لاحاطة العدو
وظلام الدنيا والبعض وقع أسيرا فى يد الفرنسيس وملكوا المتاريس وفر مراد
بيك ومن معه الى الجيزة فصعد الى قصره وقضى بعض أشغاله فى نحو ربع ساعة
ثم ركب وذهب الى الجهة القبلية وبقيت القتلى والثياب والامتعة والاسلحة
والفرش ملقاة على الارض ببرانبابه تحت الارض وألقى كثير نفسه فى البحر و
انهزم العسكر الغربى حول الفرنسيس المدافع والبنادق على البر الشرقى
وضربوها وتحقق أهل البر الآخر الهزيمة فقامت فيهم ضجة عظيمة وركب فى الحال
ابراهيم بيك والأمراء والعسكر والرعايا وتركوا جميع الاثقال والخيام كما هى
يأخذوا منها شيأ فأما ابراهيم بيك والأمراء فساروا الى جهة العادلية وأما الرعايا
فهاجوا وماجوا ذاهبين الى جهة المدينة ودخلوها أفواجا أفواجا وهم جميعا فى
غاية الخوف والفزع وترقب الهلاك وهم يضجون بالعويل والنحيب ويبتهلون
الى الله تعالى من شر هذا اليوم الصعيب والنساء يصرخن بأعلى أصواتهن من
البيوت وقد كان ذلك قبل الغروب فلما استقر ابراهيم بيك بالعادلية أرسل بأخذ
حريمه وكذلك من كان معه من الأمراء فأركبوا النساء على الخيول والبغال
والحمير والجمال والبعض ماش كالجوارى والخدم واستمر معظم الناس طول الليل
خارجين من مصر البعض بحريمه والبعض ينجو بنفسه ولا يسئل أحد عن أحد
بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه فخرج تلك الليلة معظم أهل مصر
البعض لبلاد الصعيد والبعض لجهة الشرق وهم الاكثر وأقام بمصر كل مخاطر
بنفسه لا يقدر على الحركة ممتثلا للقضاء متوقعا المكروه وذلك لعدم قدرته وقلة
ذات يده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله ويصرفه عليهم فى الغربة فاستسلم
للمقدور ولله عاقبة الأمور والذى أزعج قلوب الناس بالاكثر أن فى عشاء تلك

الليلة شاع فى الناس ان الافرنج عدوا الى بولاق وأحرقوها وكذلك الجيزة وان أولهم وصل الى باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنساء وكان السبب فى هذه الاشاعة ان بعض عسكر مراديك الذين كانوا فى الغليون لمرسى انبابه لما تحقق الكسرة أضرم النار فى الغليون الذى هو فيه وكذلك مراديك لما رحل من الجيزة امر بانجرار الغليون الكبير من قبالة قصره ليصحبه معه الى الجهة القبلية فمشوا به قليلا فوقف فى الطين لقلة الماء وكان به عدة وافرة من آلات الحرب والجبخانة فأمر بحرقه أيضا فلما صعد لهيب النار من جهة الجيزة وبولاق ظنوا بل أيقنوا أنهم أحرقوا البلدين فماجوا واضطربوا وزيادة عما هم فيه من الفزع والروع والجزع وخرج أعيان الناس وأفندية الوجاقات وأكبرهم ونقيب الاشراف وبعض المشايخ القادرين فلما عاين العامة والرعية ذلك واشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهرب واللحاق بهم والحال أن الجميع لا يدرون أى جهة يسلكون وأى طريق يذهبون وأى محل يستقرون فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدب ينسلون وبيع الحمار الاعرج أو البغل الضعيف باضعاف ثمنه وخرج أكثرهم ماشيا أو حاملا متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات وأطفالهن على أكتافهن يبكين فى ظلمة الليل واستمروا على ذلك بطول ليلة الاحد وصبحها وأخذ كل انسان ما قدر على حمله من مال ومتاع فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته أو يسد جوعته فكان ما أخذته العرب شيأ كثيرا يفوق الحصر بحيث ان الاموال والذخائر التى خرجت من مصر فى تلك الليلة أضعاف ما بقى فيها بلا شك لان معظم الاموال عند الامراء والاعيان وحريمهم وقد أخذوه صحبتهم وغالب مساتير الناس وأهل المقدرة أخرجوا أيضا ما عندهم والذى أقعده العجز وكان عنده ما يعجز عليه حمله من

مال أو مصاغ أعطاه لجاره أو صديقه الراحل ومثل ذلك أمانات وودائع الحجاج من المغاربة والمسافرين فذهب ذلك جميعه وربما قتلوا من قدروا على قتله أو دافع عن نفسه ومتاعه وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن وفيهم الخوندات والاعيان فنهم من رجع عن قريب وهم الذين تأخروا فى الخروج وبلغهم ماحصل للسابقين ومنهم من جاز متكلا على كثرته وغزوته وخفارته فسلم أو عطب وكانت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة جرى فيهما مالم يتفق مثله فى مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه فى تواريخ المتقدمين قال الشاهد فاراء كمن سمعا ولما أصبح يوم الاحد المذكور والمقيمون لايدرون مايفعل بهم ومتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه ورجع الكثير من الفارين وهم فى أسوأ حال من العرى والفزع فتبين ان الفرنج لم يعدوا الى البر الشرقى وان الحريق كان فى المراكب المتقدم ذكرها فاجتمع فى الازهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة الى الفرنج وينتظروا ما يكون من جوابهم ففعلوا ذلك وأرسلوه صحبة شخص مغربى يعرف لغتهم وآخر صحبته فغابا وعادا وأخبرا انهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة فقرأها عليه ترجمانه وأفهم أن مضمونها الاستفهام عن قصدهم فقال على لسان الترجمان وأين عظماؤكم ومشايخكم لم تأخروا عن الحضور الينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة وطمنهم وبش فى وجوههم فقالا نريد أمانا منكم فقال قد أرسلناه لكم سابقا يعنون الكتاب المذكور فيما تقدم فقالا أيضا نريد أمانا لأجل اطمئنان الناس فكتبوا لهم ورقة أخرى مضمونها اننا أرسلنا لكم فى السابق كتابا فيه الكفاية وذكرنا لكم أننا ماحضرنا إلا بقصد ازالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان ولما حضرنا الى البر الغربى خرجوا الينا فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنا بعضهم وأسرنا بعضهم ونحن فى طلبهم حتى لم يبق أحد منهم بالقطر المصرى وأما العلماء والمشايخ وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين فى مساكنهم مرتاحين ونحو ذلك من الكلام ثم قال لهم لابد ان المشايخ والشربجية يأتون الينا

لنرتب لهم ديوانا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الامور ولما رجع الجواب بذلك اطمأن الناس وركب الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى وآخرون الى الجيزة فتلقاهم وضحك لهم وقال لهم أنتم المشايخ الكبار فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا فقال لأى شئ يهربون اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوانا لاجل راحتكم وراحة الرعية واجراء الشريعة فكتبوا منه عدة مكاتيب بالحضور والامان ثم انفصلوا من معسكرهم بعد العشاء وحضروا الى مصر واطمأن برجوعهم الناس وكانوا فى وجل وخوف على غيابهم وأصبحوا فأرسلوا الامان الى المشايخ فحضر شيخ السادات والشيخ الشرقاوى والمشايخ ومن انضم اليهم من الناس الفارين من ناحية المطرية وأما عمر افندى نقيب الاشراف فانه لم يطمئن ولم يحضر وكذلك الروزنامجى والأفندية وفى ذلك اليوم اجتمعت الجعدية وأوباش الناس ونهبوا بيت ابراهيم بيك ومراد بيك وأحرقوهما ونهبوا أيضا عدة من بيوت الامراء وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وأمتعة وغير متعة ذلك وباعوه بأبخس الاثمان

﴿ ذكر دخول الفرنسيس مصر ﴾

وفى يوم الثلاث عدت الفرنساوية الى مصر وسكن بونابارته بيت محمد بيك الالفى بالازبكية الذى أنشأه الامير المذكور فى السنة الماضية وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة وفرشه بالفرش الفاخرة وعند تمامه وسكناه حصلت هذه الحادثة فادخلوه بل تركوه بما فيه فكأنه انما كان يبنيه لأمير الفرنسيس وكذلك حصل فى بيت حسن كاشف بالناصرية ولما عدى كبيرهم وسكن بالازبكية كما ذكر استمر غالبهم بالبر الآخر ولم يدخل المدينة الا القليل منهم ومشوا فى الاسواق من غير سلاح ولا تعديل صاروا ايضا حكون الناس ويشترون ما يحتاجون اليه بأغلى ثمن فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها فى ثمنها ريالا فرانسى ويأخذ البيضة بنصف فضة قياسا على أسعار بلادهم وأثمان بضائعهم فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم واطمأنوا لهم وخرجوا اليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وغير ذلك من السكر والصابون والدخان والبن وصاروا

يبيعون لهم بما أحبوا من الاسعار وفتح غالب السوقة الحوانيت والقهاوى وا...
الناس

﴿ ذكر ترتيب ديوان لفصل الخصومات ﴾

وفى يوم الخميس ثالث عشر شهر صفر أرسلوا يطلبون المشايخ والوجاقلية عند...
مقام سر عسكر فلما حضروا تشاور معهم فى تعيين عشرة أنفار من المشايخ للديوان
وفصل الحكومات فوقع الاتفاق على الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ خليل
البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدى
والشيخ موسى السرسى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد العريشى
والشيخ يوسف الشبرخيتى والشيخ محمد الدواخلى وحضر ذلك المجلس ...
مصطفى كتخدا والقاضى وقلدوا محمد أغا المسلمانى اغات مستحفظان وعلى أغا
الشعراوى والى الشرطة وحسن أغا أمين احتساب وذلك باشارة أرباب الديوان
فانهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس المماليك فعرفهم أن سوقة مصر
يخافون الامن الاتراك ولا يحكمهم سواهم وهؤلاء المذكورون من بقايا البيوت
القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم كغيرهم وقلدوا ذا الفقار كتخدا ...
كتخدا بونابارته وسأل أرباب الديوان المذكورين عما وقع من النهب للبيوت
فقالوا هذا فعل الجعيدية وأوباش الناس فقالوا لاى شئ يفعلون ذلك ...
أوصيناكم بحفظ البيوت والختم عليها فقالوا هذا أمر لا قدرة لنا على منعه وانما ذلك
وظيفة الحكام ثم أمروا بالنداء بالامان وفتح الدكاكين والاسواق والمنع من
النهب فلم يسمعوا ولم ينتهوا واستمر غالب الاسواق والدكاكين معطلة والناس ...
مطمئنين وفتح الفرنسيس بعض البيوت المغلوقة التى للأمراء ودخلوها
وأخذوا منها أشياء وخرجوا منها وتركوها مفتوحة فعندما يخرجون منها ...
طائفة الجعيدية يستأصلون ما فيها ثم ان عسكرهم صارت تدخل المدينة شيأ فشيأ
حتى امتلأت منها الطرقات وسكنوا فى البيوت ولم يشوشوا على الناس
ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها وبعد أيام طلبوا سلفة خمسمائة ألف ريال
من التجار فأخذوا فى تحصيلها بعد مراجعتهم فى تخفيفها فلم يفعلوا ونادوا بالامان

نساء الامراء وأمروا كل من عندها شيء من متاع زوجها تأتى به وصالحت زوجة مراديك عن نفسها وأتباعها من نساء الامراء بمائة وعشرين ألف ريال واستخرجوا من الجباياشيأ كثيرا ثم طلبوا من أهل الحرف والاسواق مبلغا من المال يعجزون عنه فاستغاثوا بالمشايخ فتشفعوا عندهم فلطفوها لهم ولما جاء وقت مولد النبي صلى الله عليه وسلم أمروا بصنعه على المعتاد وأعطوا من عندهم اعانة على ذلك ثلاثمائة ريال وصنعوا اشنكا ليلة المولد وجاءت مراكب الانكليز وحاربت مراكب الفرنسيس وأحرقوا لهم مركبا كبيرا واستمر أياما ثم ذهبوا وأما ابراهيم بك ومراديك فذهبوا الى غزة ثم رجعوا الى جهة الفيوم وفى شهر ربيع الثانى طلبوا من الناس حجج أملاكهم وقيدوها عندهم ووضعوا عليها قدرا معلوما من الدراهم وأمروا المشايخ أن يكتبوا للسلطان كتابا مضمونه الثناء عليهم وحسن سيرتهم وانهم من المحبين للسلطان وانهم محترمون للقرآن والاسلام ففعلوا وفى عاشر جمادى الأولى جمعوا الناس وقرروا على الاملاك أموالا ازيادة مما كان قبل ذلك وهاج عامة الناس ونادوا الجهاد ووقع قتال قتل فيه خلق كثير ثم صار النداء بالأمان ثم تتبعوا كثيرا ممن كان قائما فى تلك الفتنة فقتلوهم وأما كيفية مجالسهم وبقية الترتيب فى نظامات دولتهم فهو طويل لا حاجة لذكره وكذا ما كان يجرى من الحوادث ولما جاءت أخبار دخول الفرنسيس مصر الى الحجاز قام شيخ عالم مغربى بمكة يقال له محمد الجيلانى واستنفر الناس للجهاد فاجتمع معه خلق كثير ووصلوا الى الصعيد وقاتلوا من وجدوه من الفرنسيس ولم يقدروا على استخلاص الأقطار المصرية منهم فقاتلوا حتى قتل أكثرهم ورجع القليل منهم ثم جهز الفرنسيس جيشا لمحاربة أحمد باشا الجزار فى عكا فملكوا كثيرا من قرى الشام وحاصروا أحمد باشا فى عكا ثم عجزوا عن أخذها فارتحلوا عنها وأجروا عمل ما يعتاده أهل مصر من مولد السيد احمد البدوى وغيره على حسب المعتاد وكذا اخراج المحمل والحج وحصل بينهم وبين أهل الارياف محاربات كثيرة حتى ملكوهم كلهم وصاروا يتبعون الامراء من المماليك ويقتلون من ظفروا به وحضرت مراكب الى السويس فيها أموال وبضائع للشريف غالب

فسمحوا عن عشورها وحصل بينه وبينهم مكاتبات ومهادات بهدايا عظ
ووضعوا الشيخ العريشي قاضيا للمسلمين يحكم بالشرع وتوجه بانوبرته الى
الفرنسيس سنة أربعة عشرة وجعل سارى عسكرهم نائبا عنه بمصر
بانوبرته حتى صار ملكا على كافة الفرنسيس * وفى شهر رجب من سنة
عشرة جاء جيش من السلطان سليم يقوده يوسف باشا ومعه نصوح باشا
واليا على مصر وهو الذى يقال له أيضا ناصف باشا وساروا من جهة الشام
وصلوا الى العريش فاستعد الفرنسيس لقتالهم وخرج بجنوده الى الصالحية
توسط الانكليز فى الصلح على شروط كثيرة منها أن الفرنسيس يخلى
الديار المصرية بعد ثلاثة أشهر ففى تلك المدة صار الناس يحتقرونهم ويسخر
بهم ويقول بعضهم لبعض سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة
ذلك بمشاهدة الفرنسيس وهم يحقدون ذلك عليهم وكشف همج الناس
الحياء معهم بالكلية وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ولم يفكروا
عواقب الامور حتى أن فقهاء الاطفال كانوا يجمعون الاطفال ويمشون
وطوائف وهم يجهرون ويقولون كلاما مقفى بأعلى أصواتهم بلعن النصار
وأعوانهم وأفراد رؤسائهم كقولهم ينصر الله السلطان ويهلك فرط الرمان
يملكوا لأنفسهم صبرا حتى تنقضى الأيام المشروطة على أن ذلك لم يغير الاحق
والعداوة التى تأسست فى قلوب الفرنسيس وأخذ الفرنساوية فى أهبة الرحيل
وشرعوا فى بيع أمتعتهم وما فضل من سلاحهم ودوابهم وسلموا غالب الثغو
والقلاع كالصالحية وبلبيس ودمياط والسويس ثم ان العثمانيين تدرجوا
دخول مصر وصار كل يوم يدخل منهم جماعة بعد جماعة ووصل الوزير يوسف
باشا الى بلبيس والتقى بالامراء المصريين وأخلى الفرنساوية قلعة الجبل وبا
العلماء القلاع التى أحدثوها ونزلوا منها فلم يطلع اليها أحد من العثمانيين وطلع
من العلماء والتجار للسلام على الوزير فى مدينة بلبيس فى رمضان فقابلوه و
والى مصر نصوح باشا وخلع عليهم خلعا وانصرفوا ثم فى شهر شوال وقعت
كانت سببا للنقض وذلك أن جماعة من عسكر العثمانيين تشاجروا مع جماعة

عسكر الفرنسيس فقتل بينهم شخص فرنساوي فثار من ذلك فتنة ثم قتلوا ستة أنفار كانوا سبب الفتنة فسكنت لكن لم تطب نفوس الفرنسيس ثم ان الفرنساوية طلبوا ثمانية أيام مهلة زيادة على المهلة السابقة لما قرب تمامها فأعطوهم مهلة ثمانية أيام ونصبوا وجاق عسكرهم وخيامهم بساحل البحر متصلا بأطراف مصر ممتدا الى شبرا وترددوا الى القلاع وهي لم يكن بها أحد وشرعوا باجتهاد في رد الجبخانة والذخيرة وآلات الحرب والبارود والقلل والمدافع واجتهدوا في ذلك ليلا ونهارا والناس يتعجبون من ذلك وأشيع أن الوزير اتفق مع الانكليز على الاحاطة بالفرنساوية اذا صاروا بظاهر البحر وكان الفرنساوية عندما تراسلوا وترددوا الى جهة العرضي تفرسوا في عرضي العثمانيين وعسكرهم وأوضاعهم وتحققوا حالهم فعلموا ضعفهم عن مقاومتهم فلما حصل ماذكر تأهبوا للمقاومة ونقض الصلح والمحاربة وردوا آلاتهم الى القلاع فلما تمموا أمر ذلك وحصنوا الجهات وأبقوا من أبقوه بها من عساكرهم خرجوا بأجمعهم الى ظاهر المدينة جهة قبة النصر وانتشروا في تلك النواحي ولم يبق منهم بالمدينة إلا من كان بداخل القلاع وأشخاص ببيت الالفي وبعض بيوت الازبكية وغلب على ظن الناس أنهم برزوا للرحيل فلما كان اليوم الثالث والعشرين من شوال ركب صاري عسكرهم قبل طلوع الفجر بعساكره وصحبتهم المدافع وآلات الحرب وقسم عساكره طوابير فمنهم من توجه الى عرضي الوزير ومنهم من مال على جهة المطرية فضربوا عليهم بالمدافع فلم يسعهم إلا الجلاء والفرار وتركوا خيامهم ووطاقهم وركب نصوح باشا ومن كان معه وطلعوا جهة مصر فتركهم الفرنساوية ولحقوا بالذاهبين الى جهة العرضي بعد أن نهبوا ما في عرضي ناصف باشا من المتاع والأغنام وسمروا أفواه المدافع التي لنصوح باشا وهو ناصف باشا وتركوها وساروا الى جهة العرضي فلما قاربوه أرسلوا للوزير يأمرونه بالرحيل بعد أربع ساعات فلم يسعه إلا الارتحال والفرنساوية في أثره وعساكره متفرقون ومنتشرون في البلاد والقرى والنواحي لجمع المال وظلم الفقراء وأما أهل مصر

فانهم لما سمعوا صوت المدافع كثر فيهم اللغط والقيل والقال ولم يدركوا حقيقة الحال فهاجوا وزحموا الى أطراف البلد وخرج نقيب الاشراف وتبعه كثير من العامة وتجمعوا على التلول خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبابيت والعصى والقليل معه السلاح وتحزب كثير من طوائف العامة والأوباش والحشرات وجعلوا يطوفون بالازقة ولهم صياح بكلمات يقفونها من اختراعاتهم وخرافاتهم وقاموا على ساق ثم خرج الكثير منهم الى خارج البلد بتلك الصورة فلما أضحى النهار حضر بعض الاجناد المصريين ودخلوا مصر وفيهم المجاريح وطفق الناس يسألونهم فلم يخبروهم لجهلهم أيضا حقيقة الحال ثم لم يزل الحال كذلك الى العصر فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلد ولهم صياح وخلفهم ابراهيم بيك ثم بقية الأمراء ثم نصوح باشا ومعه عدة وافرة من العساكر والسيد عمر نقيب الاشراف وصار نصوح باشا يقول للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم فعندما سمعوا قوله هاجوا وماجوا ورفعوا أصواتهم ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم وساروا الى حارات النصارى يقتلون ويأسرون وينهبون فتحزبت النصارى واحترسوا وجمعوا كل ماقدروا عليه من الفرنساوية والاروام فوقع الحرب بين الفريقين وصارت النصارى ترمى من طاقات البيوت على المجتمعين بالأزقة من العامة والعسكر يحامون على أنفسهم والآخرون يرمون من أسفل ويكبسون البيوت ويتسورون عليها فلما أصبح الصباح أرسلوا الى المطرية وأحضروا منها ثلاثة مدافع فوجدوها مسدودة فعالجوها حتى فتحوها وأمر الباشا بجر المدافع الى الازبكية وضربوا منها على بيت الالفى وكان به أشخاص مرابطون من عساكر الفرنساوية فضربوهم أيضا بالمدافع والبنادق واستمر الحرب بين الفريقين الى آخر النهار فسكن الحرب وباتوا ينادون بالسهر * وفى هذا اليوم وضع أهل مصر والعسكر متاريس بالأطراف كلها وشرعوا فى بناء جهات السور واجتهدوا فى تحصين البلد بقدر الطاقة وبات الناس فى هذه الليلة خلف المتاريس فلما أظلم الليل أطلق

الفرنساوية المدافع والبنب على البلد من القلاع و والوا الضرب فأجمع رأى الكبراء والرؤساء على الخروج من البلد فى تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة وعدم آلات الحرب وعزة الاقوات لان غالب قوت أهلها يجلب من قراها كل يوم بيوم وربما امتنع وصول ذلك اذا تجسمت الفتنة فاتفقوا على الخروج بالليل وتسامع الناس بذلك فتجهز المعظم للخروج وغصت الطرق بالازدحام عند الخروج وازدحم الناس بالحمير والبغال والخيول والهجن والجمال وركب الناس بعضهم بعضا ووقع للناس فى هذه الليلة من الكرب والمشقة والخوف مالا يوصف وأناس من أهل خان الخليلى جاؤا الى الجمالية وشنعوا على من يريد الخروج وأغلقوا باب النصر وبات فى تلك الليلة معظم الناس على مساطب الحوانيت وأزقة الحارات فلما أصبح يوم السبت تهيأ كبراء العساكر والعساكر ومعظم أهل مصر ماعدا الضعيف الذى لاقدرة له على الحرب وذهب المعظم الى جهة الازبكية وسكن الكثير فى البيوت الخالية والبعض خلف المتاريس وأخذوا عدة مدافع زيادة عن الثلاثة المتقدمة وأحضروا من حوانيت العطارين من المثقلات التى يزنون بها البضائع من حديد وأحجار استعملوها عوضا عن القلل للمدافع وصاروا يضربون بها بيت سارى عسكر بالازبكية ثم فرقوا الناس فى أطراف البلد والمتاريس للاحتراس وكان كل من قبض على نصرانى أو يهودى أو فرنساوى ذهب به الى كتخدا وأخذ البقشيش فيحبس البعض ويقتل البعض وأحضروا الحدادين لانشاء مدافع وجعلوا معملا لعمل البارود والقلل وغير ذلك من المهمات واهتموا لذلك اهتماما زائدا وأنفقوا أموالا جمة * وأما الفرنساوية فانهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالبلد وبيت الألفى وماوالاه وأما الوزير فانه لما ارتحل بالعرضى ووصل الى الصالحية تكلموا معه فى الرجوع فاعتذر بعدم الاستعداد ثم ساروا الى الشام فرجع طائفة من عسكر الفرنساوية الذين ساروا خلف الوزير الى أصحابهم الذين بمصر نجدة لهم فقويت بهم نفوسهم ووقف جملة منهم بباب النصر ومنعوا الداخل والخارج وذلك كله بعد مضى ثمانية أيام من ابتداء الحركة

وقطعوا الجالب الى البلد وأحاطوا بها احاطة السوار بالمعصم فعظم الكرب وأكثروا من الرمى بالمدافع على البيوت من القلاع وعدمت الاقوات وارتفعت الأسعار وهلكت البهائم وتهدمت البيوت وكثر صريخ النساء والصغار وفى كل ساعة تهجم الفرنساوية الذين هم خارج البلد على جهة من جهات مصر ويملكون بعض المتاريس واستمر الحال الى عشرة أيام فرددوا الرسل للصلح فقال الفرنساوية لا بد من خروج العثمانية من مصر ونعطيهم ما يحتاجون من المؤنة حتى يصلوا الى جماعاتهم وخرج اليهم الشيخ الشرقاوى والمهدى والسرسى والفيومى وغيرهم وتمموا الصلح على ذلك فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه عساكر الانقشارية العثمانية وسائر الناس قاموا على المشايخ وسبوهم وضربوا الشيخ الشرقاوى والسرسى ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وانهم أخذوا دراهم من الفرنسيس وتكلم السفلة والغوغاء بكثير من الفضول فأرسلوا للفرنسيس ان الباشا والعساكر والناس لم يرتضوا بالصلح ثم جاء مطر شديد ونوحلت جميع السكك فاشتغل الناس بتخفيف المياه والأوحال فاغتنم الفرصة الفرنسيس وهجموا على مصر وبولاق من كل ناحية وعملوا فتائل بالزيت والقطران وكعكات غليظة ملوية معمولة بالنقط ملوية على أعناقها مشربة بقطرات تشعل وتقوى لهبها وتابعوا رمى المدافع والبنبات من القلاع وصاروا يهجمون وأمامهم المدافع وخلفهم بواردية يرمون بالبندق المتتابع وطائفة بأيديهم الفتائل والكعكات المشتعلة بالنيران يلهبون بها السقائف والحوانيت وشبابيك الدور ويزحفون على هذه الصورة شيأ فشيأ والمسلمون بذلوا جهدهم وقاتلوا بشدة وزلزلوا زلزالا شديدا وصرخت النساء والصبيان ونطوا من الحيطان والنيران تأخذهم من كل جهة والامطار متوالية بالليل والنهار ومثل ذلك كان فى بولاق بل زيادة عن ذلك لانهم فى آخر الامر قتلوهم وحرقوا بلادهم وأخذوا أموالهم وسبوا حريمهم وذراريهم والحاصل ان هذه الفتنة قد

شاهد الناس فيها من الهول ما يشيب منه النواصي وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والأزقة واحترقت الابنية والدور والقصور وهرب كثير من الناس عندما أيقنوا بالخذلان فنجوا بأنفسهم الى الجهة القبلية ثم أحاطوا بالبلد واستولوا على الخانات والوكالات والحواصل والبضائع والودائع وملكوا الدور وما بها من الامتعة والاموال والنساء والخاوندات والصبيان والبنات ومخازن الغلال ومالا تسعه السطور ولا يحيط به كتاب ولا منشور وكان جماعة من المسلمين فى هذه الفتنة يداهنون الفرنسيس وأخذوا منهم أمانا وهم مع المسلمين فاطلع المسلمون عليهم فأخذوهم وعذبوهم بأنواع العذاب وقتلوا بعضهم واتهموا الشيخ البكرى بموالاة الفرنسيس وأنه يرسل اليهم الاطعمة فهجم عليه طائفة من العسكر مع بعض أوباش العامة فنهبوا داره وسحبوه مع أولاده وحريمه وأحضروه الى الجمالية وهو ماش على أقدامه ورأسه مكشوفة وحصلت له اهانة بالغة وسمع من العامة كلاما مؤلما وشتما فلما مثلوه بين يدى الكتخدا أهاله ذلك واغتم غما شديدا ووعده بخير وطيب خاطره وأخذه أحمد بن محمود محرم التاجر مع حريمه الى داره وأكرمهم وكساهم وأقاموا عنده حتى انقضت الفتنة وكان جماعة من الامراء والرؤساء يذهبون ويجيئون من الفرنسيس الى المسلمين ومن المسلمين اليهم يسعون فى الصلح بين الفريقين واستمر الحال الى السادس والعشرين من الشهر حتى هلكت الناس وتمنوا دخول الفرنسيس وخروج العثمانيين ثم تم الصلح على وقف الحرب وخروج العثمانيين بعد مهلة ثلاثة أيام ثم خرجوا وارتحلوا وزودهم الفرنسيس وأعطوهم دراهم وجمالا وغير ذلك وخرج أيضا ابراهيم بيك وأمراؤه ومماليكه وخرج معهم بعض الرؤساء منهم نقيب الاشراف والمحروقى رئيس التجار سنة ١٢١٥ وأما مراد بيك فكان بالصعيد وكان قد انعقد بينه وبين الفرنسيس صلح ومهادنة وكانت مدة الحرب والحصر بالثلاثة الأيام المهدنة سبعة وثلاثين يوما وقع فيها من الحروب والكروب وعظائم الامور ما لا يحيط به الا الله تعالى ودخل الفرنسيس مصر وضبطوها فى أوائل

ذى الحجة سنة خمس عشرة وأمنوا الناس واستولوا على ما كان اصطنعه العثمانيون وأعدوه من المدافع والقنابر والبارود وآلات الحرب وركب المشايخ فى عصر ذلك اليوم وذهبوا الى كبير الفرنسيس فلما جلسوا أبرز لهم ورقة مكتوب فيها النصرة لله الذى يريد أن المنصور يعمل بالشفقة والرحمة مع الناس وبناء على ذلك يريد سر عسكر أن ينعم بالعفو العام على أهل مصر ولو كانوا يخالطون العثمانيين فى الحروب ويأمرهم أن يشتغلوا بمعاشهم وصنائعهم ثم نبه عليهم بالحضور الى قبة النصر بكرة تاريخه ثم قاموا من عنده وشقوا المدينة وطافوا بالاسواق وبين أيديهم المناداة للرعية بالاطمئنان والامان فلما كان الغد ذهبوا الى قبة النصر وصنع لهم سماطا عظيما ضيافة وزينت البلاد ثلاثة أيام ثم بعد أيام أمرهم بالحضور بدار الازبكية فلما وصلوا اجلسوا احصة طويلة فى الديوان الخارج ثم أدخلوا وجلسوا احصة فخرج اليهم سر عسكر وصحبته ترجمانه وجماعة من أعيانهم فوضع له كرسى فى وسط المجلس وجلس عليه ووقف الترجمان فكلمه سر عسكر بكلام طويل بلسانهم فالتفت الترجمان وأخبرهم بما قاله سر عسكر وملخص ذلك القول أن سر عسكر يقول اننا لما حضرنا الى بلدكم هذه نظرنا أن أهل العلم هم أعقل الناس والناس بهم يقتدون ولأمرهم يمتثلون ثم انكم أظهرتم لنا المحبة والمودة وصدقنا ظاهر حالكم فاصطفيناكم وميزناكم على غيركم واخترناكم لتدبير الامور وصلاح الجمهور فرتبنا لكم الديوان وغمرناكم بالاحسان وخفضنا لكم جناح الطاعة وجعلناكم مسموعين القول مقبولين الشفاعة وأوهمتمونا ان الرعية لكم ينقادون ولأمركم ونهيكم يرجعون فلما حضر العثملى فرحتم لقدومهم وقمتم لنصرتهم وثبت عند ذلك نفاقكم لنا فقالوا له نحن ماقمنا مع العثملى الا عن أمركم لانكم عرفتمونا أنكم ونحن فى حكم العثملى ان البلاد والاموال صارت له وخصوصا وهو سلطاننا القديم وسلطان المسلمين وما شعرنا الا بحدوث هذا الحادث بينكم وبينهم على حين غفلة ووجدنا أنفسنا فى وسطهم فلم يمكن التخلف عنهم فقال لهم لاى شئ لم تمنعوا الرعية عما فعلوا من قيامهم

ومحاربتهم فقالوا لا يمكننا ذلك خصوصا وقد تقووا علينا بغيرنا وسمعتم مافعلوه معنا من ضربنا واهانتنا عندما أشرنا عليهم بالصلح فقال لهم واذا كنتم لا يمكنكم تسكين الفتنة فما فائدة رياستكم وأى شئ يكون نفعكم وحينئذ لا يأتينا منكم الا الضرر لانكم اذا حضر أخصامنا قمتم معهم وكنتم واياهم علينا واذا ذهبوا رجعتم الينا معتذرين فكان جزاؤكم القتل وحرق البلاد وسبى الحريم والاولاد كما فعلنا بأهل بولاق ولكن حيث أعطيناكم الامان فلا ننقض أماننا ولا نقتلكم وانما نأخذ منكم الاموال فالمطلوب منكم عشرة آلاف ألف فرنك عن كل فرنك ثمانية وعشرون فضة يكون فيها ألفا ألف فرانسه عنها خمس عشرة خزنة رومى بثلاث عشرة خزنة مصرى منها خمسمائة ألف فرانسه على مائتين على شيخ السادات خاصة من ذلك خمسمائة وخمسة وثلاثون ألفا وعلى الشيخ الجوهرى خمسون ألفا وعلى أخيه الشيخ فتوح خمسون ألفا وعلى الشيخ مصطفى الصاوى خمسون ألفا وعلى الشيخ العنانى مائتان وخمسون ألفا جعلوا ذلك عليه وعلى الفارين مع العثملى مثل السيد عمر مكرم نقيب الاشراف والمحروقى وما بقى من المبلغ المطلوب تقررونه وتوزعونه على أهل البلد وتتركوا عندنا منكم خمسة عشر شخصا انظروا من يكون منكم عندنا رهينة حتى توفوا ذلك المبلغ وقام من كرسيه من فوره ودخل مع أصحابه الى داخل وأغلق بينه وبينهم الباب ووقفت الحرسية على الباب الآخر يمنعون من يخرج من الجالسين فبهت الجماعة وانتقعت وجوههم ونظروا الى بعضهم وتحيرت أفكارهم ولم يخرج عن هذا الامر الا البكرى والمهدى لكون البكرى حصل له ماحصل فى صحائفهم والمهدى كان يداهنه وحرق بيته بمرأى منهم ولم يكن فيه الا الحصر لانه كان قد نقل مافيه بداره التى فى الخرنفش ولم تزل الجماعة فى حيرتهم وسكرتهم وتمنى كل واحد منهم أنه لم يكن شيأ مذكورا ولم يزالوا على ذلك الحال الى قريب العصر حتى بال أكثرهم على ثيابه وبعضهم شرشر ببوله من شباك المكان وصاروا يدخلون على نصارى القبط ويقعون فى عرضهم فالذى كان معهم ولم يكن معدودا من الرؤساء خرجوه

فخرجوا مسرعين حتى ان بعضهم ترك مداسه وخرج حافيا وماصدق بخلاص نفسه هذا والنصارى والمهدى يتشاورون فى تقسيم ذلك وتوزيعه وتدبيره وترتيبه فى قوائم حتى وزعوها على أصحاب الحرف وأهل البيع والشراء وجميع الناس حتى القردانية جعلوا على كل طائفة مبلغا له صورة مثل ثلاثين ألف فرانسه وأربعين ألفا وجعلوا على أجرة الاملاك والعقار أجرة سنة كاملة ثم استأذنوا المشايخ الخالص منهم الذى ليس عليه شئ يتوجه حيث أراد والمشبوك يلازمه جماعة من العسكر حتى يؤدى المطلوب منه وأما الصاوى وفتوح والجوهرى فحبسوهم ببيت قائم مقام والعنانى هرب فلم يجدوه وداره أحرقت فأضافوا غرامته على غرامة شيخ السادات وانفض المجلس على ذلك وركب صارى عسكر من يومه ذلك وذهب الى الجيزة ووكل يعقوب القبطى يفعل فى المسلمين مايشاء ونزل شيخ السادات وركب الى داره فذهب معه عشرة من العسكر وجلسوا على باب داره فلما كان حصة من الليل حضر اليه مقدار عشرة من العسكر وأركبوه وطلعوا به الى القلعة وحبسوه فى مكان ثم تشفع له أناس وكفلوه لينزل الى داره ويحصل لهم المطلوب منه فتحصل عنده من الدراهم ستة آلاف ريال وقاوموا ماوجدوه من المصاغ والفراوى والملابس فبلغ خمسة عشر ألف ريال فكان الجميع أحداوعشرين ألف ريال ثم صاروا يفتشون داره ويحفرون الارض الخبايا حتى فتحوا الكنف فلم يجدوا شيأ ثم نقلوه الى بيت قائم مقام وضربوه وأهانوه وأودعوا زوجته وابنه عند أغاة الانكشارية ثم ان المشايخ وهم الشيخ الشرقاوى والامير والمهدى وغيرهم تشفعوا فى نقل الزوجة الى بيت الفيومى ثم وقعت المراجعة والشفاعة فى غرامة الشيخ فتوح والصاوى فجعلوا على كل واحد خمسة عشر ألف ريال وردوا الباقى على الفردة العامة وأما الجوهرى فاختفى فلم يجدوه فنهبوا داره ثم وكلوا بالفردة العامة يعقوب القبطى وأعطوه عسكرا لتحصيلها ودهى الناس بهذه النازلة التى لايصابون بمثلها وفرغت الدراهم من عند الناس وباعوا أمتعتهم وجميع ماعندهم ولم يجدوا

من يشتري الاثاث والفرش والملبوس بأبخس الاثمان ودفعوا لهم أيضا جميع ما يملكون من البغال والخيل والحمير ومنعوا المسلمين من ركوبها سوى خمسة أنفار وهم الشرقاوي والمهدي والامير والفيومي وابن محرم وتطاولت النصارى من الشوام والقبط على المسلمين بالضرب والسب وفي كل وقت يشتد الطلب وتلبث المعينون والعسكر في طلب الناس وهجم الدور وجرجرة الناس حتى النساء من أكابر وأصاغر ونهبهم وحبسهم وضربهم والذي لم يجدوه لكونه فر وهرب يقبضون على قريبه أو حريمه أو ينهبون داره فان لم يجدوا شيأ ردوا غرامته على أبناء جنسه وأهل حرفته ونالوا من الناس أغراضهم وأظهروا حقدهم وصاروا يصرخون بانقضاء ملة الاسلام وأيام الموحدين هذا والكتبة والمهندسون والبناؤن يطوفون ويحررون أجرة الاملاك والعقارات والوكائل والحمامات ويكتبون أسماء أربابها وقيمتها وخرج كثير من الناس من المدينة وأجلوا عنها وهربوا الى القرى والارياف واستمرت الحوانيت مقفولة والعقول مخبولة والمصائب عميمة والمطالب عظيمة والامر عظيم والخطب جسيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ﴿وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد﴾ واستمر شيخ السادات محبوسا الى غاية شهر صفر من سنة خمس عشرة فأفرجوا عنه ونزل الى بيته بعد ان غلق الذي عليه واستولوا على حصصه وأقطاعه وقطعوا مرتباته وكذلك جهات حريمه والحصص الموقوفة على زاوية أسلافه وشرطوا عليه عدم الاجتماع بالناس وان لا يركب بدون اذن منهم ويقتصد في أموره ومعاشه ويقلل اتباعه وفي شهر ربيع الاول من السنة المذكورة نادوا على الناس الفارين من مصر من خوف الفردة وغيرها بأن من لم يحضر بعد اثنين وثلاثين يوما من وقت المناداة نهبت داره وأحيل بوجوده وكان من المذنبين واشتد الامر بالناس وضاقت منافسهم وتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة ولا شفيع تقبل شفاعته أو متكلم تسمع كلمته ونزل بالمسلمين الذل والهوان وتطاولت عليهم الفرنساوية وأعوانهم وأنصارهم من نصارى البلد الاقباط والشوام

والاروام حتى صاروا يأمرونهم بالقيام لهم عندمرورهم ثم شددوا فى ذلك حتى كانوا اذا مر بعض عظمائهم بالشارع ولم يقم اليه بعض الناس على أقدامه رجع اليه الاعوان وقبضوا عليه وأصعدوه الى الحبس بالقلعة وضربوه واستمر عدة أيام فى الحبس ثم يطلق بشفاعة بعض الأعيان وأما الاموال المطلوبة فأخذوها وما بقى شئ للناس الا واستولوا عليه وما بقى جعلوه على الاطيان والفدادين ومشايخ القرى والبلدان وتفصيل ذلك كله طويل ولم يزل الناس معهم فى شدة وكرب الى أن قضى الله ما قدره وأذن بخروجهم وانقضاء دولتهم

﴿ ذكر خروج الفرنسيس من مصر ﴾

فى أواخر شوال من سنة خمس عشرة برز الامر من مولانا السلطان سليم بالتجهيز الى مصر براو بحرا أما العساكر التى من البر فهى بمعية يوسف باشا وأما البحر فتعهدت به الانكليز ثم فى أوائل ذى القعدة ورد جماعة من الانكليز بمراكب الى ثغر الاسكندرية وطلع جماعة منهم الى البر وتحارب وامع أمير الاسكندرية ومن معه من الفرنسيس ثم فى أول ذى القعدة جاءت الأخبار الى الفرنسيس بمصر بأن يوسف باشا وعساكره وصلوا الى العريش فجمعوا المشايخ والاعيان بمصر وقالوا لهم انه يحب المسلمين و يميل اليهم بالطبع وخصوصا العلماء أهل الفضائل و يفرح لفرحهم و يغتم لغمهم ولا يحب لهم الا الخير لكن سياسة الاحكام تقتضى بعض الامور المخالفة للمزاج والآن بلغنا ان يوسف باشا وعساكر العثمانية تحركوا الى هذا الطرف فلزم الامر لتعويق بعض الاعيان وذلك من قوانين الحرب عندنا بل وعندكم ولا يكون عندكم تكدر ولا هم بسبب ذلك فليس الا الاعزاز والاكرام أينما كنتم ثم انفض المجلس على تعويق أربعة أشخاص من المشايخ وهم الشيخ الشرقاوى والشيخ المهدى والشيخ الصاوى والشيخ الفيومى فأصعدوهم الى القلعة فى الساعة الرابعة من الليل مكرمين وكان هؤلاء الاربعة من أهل الديوان المرتب فى مصر لفصل القضايا وكان معهم فى الديوان الشيخ الامير والبكرى والشربينى فأبقوهم فى الديوان على حالهم السابق ثم وقع حرب أيضا

بالاسكندرية فى البر بين الانكليز والفرنسيس فى الرابع عشر من ذى القعدة وكانت الهزيمة على الفرنساوية وقتل منهم كثير وانحازوا الى داخل الاسكندرية وأرسل الفرنسيس من كشف عن متاريس الانكليز فوجدوها فى غاية الوضع والاتقان ثم وقع قتال آخر فقتل فيه من الفرنسيس خمسة عشر ألفا ثم طلبوا عساكر من مصر نجدة لهم فأطلق الانكليز حبوس المياه المالحة حتى أغرقت طرق الاسكندرية وصارت جميعا لجة ماء ولم يبق لهم طريق مسلوك الا من جهة العجمى الى البرية وتترس الانكليز قبالهم من جهة الباب الغربى ووقع فى مصر فى هذه السنة طاعون مات فيه خلق كثير منهم مراد بيك مات فى الصعيد رابع ذى الحجة من السنة المذكورة وكان قد اصطلح مع الفرنسيس وأعطوه أمارة الصعيد وهو من مماليك محمد بيك أبى الذهب ومحمد بيك مملوك على بيك وعلى بيك مملوك ابراهيم بيك كتخدا اشترى مراد بيك سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف ثم أعتقه ورقى عنده وأكرمه وأنعم عليه بالاقطاعات الجليلة وقدمه على أقرانه ولما تفرد سيده محمد بيك بامارة مصر كان مراد بيك وابراهيم بك أكبر الامراء المشار اليهما دون غيرهما واتسعت لهما الاموال والاملاك والضياع ثم لما مات محمد بيك سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف صارت الرئاسة فى ملك مصر لهما ولكن كان ابراهيم بيك مقدما وكان مراد بيك منعكفا على اللذات والملاهى وكان لكل منهما مماليك وهم الصناجق والامراء وكانت وفاة ابراهيم بيك بدنقله سنة احدى وثلاثين ومائتين وألف

﴿ ذكر ما كان من استعداد الفرنسيس ﴾

فى خامس المحرم من سنة ست عشرة ومائتين وألف أكثروا من نقل الماء والدقيق والاقوات الى القلعة بمصر وكذلك البارود والكبريت والقلل والقنابر والبنب ونقلوا الاسوار والبيوت من الفرش والامتعة والاسرة الى القلعة ولم يبقوا بالقلاع الصغار الا مهمات الحرب وطلبوا الزياتين وألزموهم بمائتى قنطار زيت وسيرج عاجلة من حوانيتهم لتحصيل ذلك واجتهدوا فى وضع متاريس خارج البلد وحفروا خنادق وطلبوا الفعلة للعمل فكانوا يقبضون على كل من وجدوه

ويسوقونه للعمل وألقوا الاحجار العظيمة والمراكب بحر انبابة
المراكب من العبور وهدموا جانبا من الجيزة من الجهة البحرية وبلغهم ا
عساكر الانكليز القادمة من البر الغربي قريب ووصلت ترعة الفرعونية
العساكر الشرقية وصلت الى بنها وان طائفة من الانكليز فى جهة الاسكن
وأن الحرب قائم بها وأن الفرنساوية محاصرون بداخل الاسكندرية ومحا
الانكليز ومن معه من العثمانية من الخارج وأن جماعة من الانكليز قصد
الاماكن التى يمكن الفرنسيس النفوذ اليها وقطعوا عليهم الطرق من كل
وأطلقوا المحبوس عن المياه السائلة من البحر المالح منه الا الجسر المقطوع
سالت المياه ورد غت الاراضى المحيطة بالاسكندرية وخرج عن طاعة الفرنس
الامراء الذين بالصعيد وردوا مكاتبهم التى أرسلوها لهم بعد مراد بيك وحضر
لهم الاخبار المتواترة بوصول القادمين من الانكليز والعثمانية الى الرحا
وتملكهم القلعة وما بالقرب منها من الحصون وجاءتهم الاخبار أيضا بأنهم تملك
رشيد ودمياط وفى العشرين من المحرم يوم الاثنين جاءتهم الاخبار بأن الوز
وصل دجوة فطلبوا مشايخ الديوان عند قائم مقام فقال لهم ان الخصم قد قرب
ونرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنسيس وأن تنصحوا أهل البلد والر
أن يكونوا مستمرين على سكونهم وهدوهم ولا يتداخلون فى الشر والشغب
الرعية بمنزلة الولد وأنتم بمنزلة الوالد والواجب على الوالد نصح ولده وتأديبه
الطريق المستقيم حتى يكون فيه الخير والصلاح فانهم ان داموا على الهدوح
لهم الخير ونجوا من كل شر وان حصل منهم خلاف ذلك نزلت عليهم النار وأحر
دورهم ونهبت أموالهم ومتاعهم وسبيت نساؤهم وتيتمت أولادهم وأل
بالاموال والفرد التى لا طاقة لهم بها فقد رأيتم ما حصل فى الوقائع السابقة فاحذر
من ذلك فانكم لا تدرون العاقبة ولا نكلفكم المساعدة لنا ولا المعاونة لحرب عد
وانما نطلب منكم السكون والهدو لا غير فأجابوا بالسمع والطاعة وقرأ عليهم و
بمعنى ذلك وأمروا بالمناداة على الناس بذلك وأنهم ربما سمعوا ضرب مدافع ج

الجبرتى فلا تنزعجوا من ذلك فانه شنك وعيد لبعض أكابرهم وأمروا أن يجتمع الديوان فى الغد الاعيان والتجار وكبار الاخطاط ومشايخ الحارات ويتلى عليهم ذلك فكان كذلك وفى غاية شهر محرم جاءتهم الاخبار بأن الوزير وصل الى الصالحية وكذلك عساكر الانكليز فجمعوا المشايخ بالديوان وأعلموهم أن أرض مصر استقر ملكها للفرنساوية فيلزم اعتقادكم ذلك وأركزوه فى أذهانكم كما تعتقدون وحدانية الله تعالى ولا يغرنكم هؤلاء القادمون وقربهم فانهم لا يخرج من أيديهم شئ أبدا وهؤلاء الانكليز ناس خوارج حرامية وصناعتهم القاء العداوة والفتن والعثمانلى مغتر بهم فان الفرنساوية كانت من الاحباب الخلص للعثمانلى فلم يزالوا حتى أوقعوا بينه وبينهم العداوة والشرور وان بلادهم ضيقة وجزيرتهم صغيرة ولو كان بينه وبين الفرنساوية طريق مسلوكة من البر لانمحى اسمهم وانمحى ذكرهم من زمان مديد وتأملوا فى شأنهم وأى شئ خرج من أيديهم ولهم ثلاثة أشهر من حين طلوعهم الى البر والى الآن لم يصلوا الينا والفرنسيس بعدوهم وصلوا فى ثمانية عشر يوما فلو كان فيهم همة أو شجاعة لوصلوا مثل وصولنا وكلام كثير من هذا النمط * وفى ثالث صفر وصلت عساكر العثمانيين وانتصبوا الى العادلية فى الجهة الشرقية والى انبابة فى الجهة الغربية وجرى القتال بينهم وبين الفرنسيس وكان النصر لعسكر السلطنة العلية ثم انعقد الصلح على خروج الفرنسيس من مصر وتسليمها للدولة العلية فتجهزوا وخرجوا آمنين فى أواخر صفر ولما انعقد الصلح أطلقوا المشايخ الذين كانوا بالقلعة رهائن وهم الشيخ الشرقاوى والمهدى والصاوى والفيومى وكانت مدة حبسهم فى القلعة نحو مائة يوم وسافرت عساكر الفرنسيس على رشيد وأبى قير ودخل الوزير يوسف باشا مصر فى التاسع والعشرين من شهر صفر بموكب حافل وكانت مدة تملك الفرنسيس مصر ثلاث سنين وشهرا قال الشيخ الشرقاوى فى تاريخه المسمى بتحفة الناظرين ان طائفة الفرنساوية الذين حضروا الى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة اباحية طبائعية يقال لهم نصارى كاثوليكية يتبعون عيسى عليه السلام ظاهرا

و ينكرون البعث والدار الآخرة و بعثة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه
عليهم أجمعين ويقولون ان الله واحد ولكن يقولون بالتعليل و يحكمون العقل
و يجمعون منهم مدبرين يدبرون الأحكام و يضعونها بعقولهم و يسمونها شرائع
و يزعمون أن الرسل محمدا وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء وأن الشرائع
المنسوبة اليهم هي قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم ولذا جعلوا في
مصر وقراها الكبار دواوين يدبرون مايناسب أهل البلاد بحسب عقولهم
وكان في ذلك رحمة الله تعالى بأهل مصر فانهم جعلوا من جملة ذلك ديوانا فيه جماعة
من المشايخ وصاروا يراجعونهم في بعض أشياء لاتليق بالشرع والسبب الذي
أوجب لأهل مصر وقراها بعض الانقياد اليهم عجزهم عن مقاومتهم بسبب
هروب المماليك الذين معهم آلات القتال وانهم عند قدومهم كتبوا كتابا وفرقوه
في البلاد وذكروا فيها أنهم ليسوا نصارى لأنهم يقولون ان الله واحد والنصارى
تقول بالتثليث وانهم يعظمون محمدا و يحترمون القرآن وانهم يحبون العثمانيين
يأتوا إلا لطرد المماليك الظلمة لأنهم نهبوا أموالهم وأموال تجارهم ولا يتعرضون
للرعايا في شيء لكن لما دخلوا لم يقتصروا على نهب أموال المماليك بل نهبوا الرعايا
وقتلوا جملة من الناس لما قامت عليهم أهل مصر بسبب ظلمهم تفريد غرامة
على البيوت وقتل منهم مايقرب من الألف وهتكوا بعض الاعراض في مصر
وقراها فان كل قرية حاربتهم نهبوا أموالها وقتلوا رجالها وأخذوا نساءها وقتلوا
من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالما ودخلوا بخيولهم الجامع الأزهر ومكثوا فيه
يوما و بعض الليلة الثانية وقتلوا فيه بعض علماء ونهبوا منه أموالا كثيرة وسبب
وجودها فيه أن أهل البلد ظنوا أن العسكر لاتدخله فحولوا فيه أمتعة بيوتهم
فنهبوها ونهبوا أكثر البيوت التي حول الجامع ونثروا الكتب التي في
الخزائن يعتقدون أن بها أموالا وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم
كتبا ومصاحف نفيسة وكان خروجهم بهمة مولانا سلطان سلاطين أهل الأرض
مولانا السلطان سليم خان لازال محفوفا برعاية الحنان المنان و بتدبير وزيره

الاعظم وكان مكث بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية فى مصر سبعة أشهر ثم ذهب لقتال أحمد باشا الجزار بعكا ثم توجه الى بلاد الفرنسيس وجعل له نائبا منهم بمصر ولما وصل بونابرته الى بلاد الفرنسيس و يقال له نابليون استعانوا به فى اصلاح خلل كان حاصلا ثم ساق جيوشا لمحاربة ايطاليا والنمسا وانتصر عليهم * وفى سنة تسع عشرة ومائتين وألف أقاموه امبراطورا على فرانسا كافة وشن الغارات على دول أوروبا وحارب الروسية والنمسا والانكليز والبروسية وروقائعه طويلة أفردت بالتأليف ثم تجمعت جميع ملوك أوروبا واتفقوا على حرب فرانسا فأصاب فرانسا من ذلك شدائد عظيمة وسئموا من كثرة الحرب فاتفقوا على خلع بونابرته ودعوا الوزير الثامن عشر ليملكوه عليهم فلما علم ذلك بونابرته استعفى وذلك سنة ثلاثين ومائتين وألف فملكوا الوزير الثامن عشر وأعطوا بونابرته جزيرة الالب ليملك عليها ثم بعد سنة أتى باريس فهرب الوزير الثامن عشر وعاد الى انكلترا فنهضت الدول لمحاربة بونابرته واعادة الوزير الى ملك فرانسا وجرت أمور يطول ذكرها وآخر الأمر تنازل عن الملك الى ابنه فلم تقبل الدول المتحدة أن يتبوء الملك أحد من سلالته فذهب بونابرته الى رشفورت وطلب من حكومة الانكليز أن تقبله ضيفا فى بلاده فأجابته أولا الى ذلك فركب الى أحد الموانى الانكليزية وقبل أن ينزل الى البر أرسلت اليه الحكومة الانكليزية تخبره أنه أسير الدول المتحدة ثم شيعوه الى جزيرة هيلانه فبقى أسيرا الى أن هلك سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف وعمره أربع وخمسون سنة ولنرجع الى اتمام الكلام على ما كان فى بقية زمن السلطان سليم

﴿ ذكر خلع السلطان سليم ﴾

سبب ذلك أنه كان السلطان سليم يرغب أن يلاشى وجاق الانقشارية ويقيم مكانه عسكرا جديدا على الطريقة الافرنجية لأن الانقشارية كانوا قد زعزعوا أركان السلطنة بعصيانهم وعدم انقيادهم وكان قد نظم فى العام الماضى بعض الفرق من النظام الجديد فهاج الانقشارية من ذلك وأثاروا فى القسطنطينية شغبا

عظيما يطول الكلام بذكره واعتصبوا عصبة واحدة وكان موافقالهم على منع النظام الجديد عطاء الله افندى شيخ الاسلام وقائمقام صدر أعظم ففوى أمرهم وقال لهم انه لا يجوز أن تكون عساكر الاسلام متشبهة بالكفار وحيث أحدثوا النظام الجديد كانوا متشبهين بالكفار فقويت هذه الحجة فى صدورهم وقالوا سيروا بنا لنلاشى النظام الجديد وننتقم من الوزراء الذين أفسدوا طهارة الايمان بأفعالهم الشنيعة وتحالفوا على ملاشاة وجاقات العساكر الانقشارية الذين هم أعمدة مملكة الدولة العلية وبعد هذا الحديث أخرجوا ورقة فيها أسماء بعض أشخاص من رجال الدولة يريدون قتلهم أرسلها اليهم المفتى عطاء الله افندى فأخذوا يتلونها ويسمون الأشخاص الذين يريدون قتلهم ثم ساروا يفتشون على أولئك الأشخاص فوجدوا بعضا منهم فقتلوهم واختفى كثير من أولئك الأشخاص فى بيوت النصارى واليهود وقتلوا خلقا كثيرا وأحضروا سبعة عشر رأسا من أعظم رجال الدولة وكان الدم جاريا فى القسطنطينية ثلاثة أيام ثم صمموا على طلب السلطان سليم والقبض عليه ليخلعوه وصاروا يقولون يا أيها السلطان المغشوش بهذه التعاليم نسيت أنك أمير المؤمنين وعوضا عن اتكالك على الله القادر العظيم الذى يبدد بدقيقة واحدة الجيوش الكثيرة العدد وأردت أن تشبه الاسلام بالكفار وأغضبت الله فكيف يسوغ لك أن تكون أمير المؤمنين ومحاميا عن الدين فالعساكر المحافظة كرسيك لم يبق لهم ثقة بك والمملكة أضحت مضطربة فيجب عليك أن تلاحظ وتفضل على كل شئ شرف الايمان وسلامة الاسلام وبعد كلام كثير صارت قراءة الفتوى التى مضمونها أن السلطان الذى يخالف القرآن الشريف هل يترك على تخت السلطنة الجواب كلا ثم قال القارىء قد صار معلوما عندكم أنه تحتم عزل السلطان فاقول لكم الآن هل تسلمون له أن يفعل مايخل بالاسلام فصرخت العساكر كلا ثم كلا لانقبله سلطانا علينا فليعزل وصرحوا باسم السلطان مصطفى ابن السلطان عبد الحميد وقالوا ليعش السلطان مصطفى وأرسلوا المفتى للسلطان سليم ليتنازل عن

السلطنة من دون مقاومة فدخل عليه متذللا منخفض الرأس قائلا يا مولانا انى قد حضرت بين يديك برسالة محزنة أرجوك قبولها لتسكين الهيجان وليس خافيا على مسامعكم الشريفة بأن العساكر الانكشارية قد نادوا باسم السلطان مصطفى ابن عمك سلطانا عليهم فالآن لا سبيل الى المقاومة فالتسليم لأمر الله أوفق من كل شئ فلم تظهر على السلطان سليم كآبة من هذا الحديث وقبل كلام المفتى ونزل عن السلطنة وكان ذلك فى أحد وعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف فمدة سلطنة السلطان سليم ثمانى عشرة سنة وثمانية أشهر واذا كان ذاهبا يختلى فى مكان منفرد عن السرايا التقى بالسلطان مصطفى قادما ليجلس مكانه على تخت السلطنة فقال له يا أخى أهبطنى الله من العرش العتيد لان تجلس عليه أنت لأننى أردت وضع تنظيمات لتقوية المملكة والدين وصلاح حال العسكر الذين جهلوا نعالميهم وتركوا قوانينهم فهاجت على العساكر مع بعض رجال الدولة وأرسلوا يطلبون منى التنازل عن تخت السلطنة ونادوا باسمك وها أنا ماض بكل رضا أعيش منفردا وأما أنت فانك سعيد أكثر منى فارغب اليك أن تسلك معهم بالحكمة اللازمة الحسنى فلم يصغ السلطان مصطفى لكلام السلطان سليم وأراد السلطان سليم أن يعانقه فلم يمكنه من معانقته فلما وصل السلطان سليم الى المكان الذى يريد وضعه فيه وجد السلطان محمود أخا السلطان مصطفى ما كثا فى ذلك الموضع عليه آثار الرقة والنباهة وعندما شاهد السلطان سليم التقاه فقبل يده ذارفا دموعا غزيرة فحرك السلطان سليم الى البكاء وجلسا فى ذلك الموضع وطال ما كانا يتحدثان دائما بالأمور المشيدة أركان الدولة والدين هذا ما كان من أمر السلطان سليم والسلطان محمود

﴿ ذكر ولاية السلطان مصطفى بن عبد الحميد ﴾

وأما السلطان مصطفى فانه بوصوله الى امام أولئك العساكر فرحوا به فرحا عظيما وأجلسوه على تخت السلطنة وبسبب هذه الحادثة العظمى والفتنة الظلماء حصل الخوف لجميع أهل القسطنطينية وقفلت الحوانيت ووقع الرعب فى قلوب

الجميع ثم أطلقت المدافع علامة على جلوس السلطان مصطفى ونودى فى المنابر باسمه وتقدم المفتى شيخ الاسلام وقائمقام موسى باشا الى الجموع التى كانت مجتمعة فى فسحة آت ميدان وأخبروهم أن السلطان مصطفى قد وعد بابطال ما كان مهتما به السلطان سليم من وضع النظام الجديد وبارجاع العوائد القديمة فلما سمع الجميع هذا الحديث تفرقوا وبعد أن جلس السلطان مصطفى على تخت السلطنة سلم زمام الاحكام بيد القائمقام كوسج موسى باشا والى المفتى شيخ الاسلام عطاء الله افندى ولما بلغت هذه الاخبار الصدر الاعظم جلبى مصطفى باشا وكان رئيس الجيوش التى خرجت لقتال الروسية كما تقدم حزن لذلك وغضب غضبا شديدا هو ومن معه من العساكر وكان من جملتهم مصطفى باشا البيرقدار فعقدوا صلحا مع الروسية ورجعوا بالعساكر ليتداركوا هذا الأمر وأرسلوا للعساكر الانقشارية الذين بالقسطنطينية يقولون لهم انهم قادمون لنجدتهم واتمام رغبتهم ليطمئنوا بذلك وما دخلوا القسطنطينية الا بعد مشاق وأراد البيرقدار مصطفى باشا ارجاع السلطان سليم والقبض على السلطان مصطفى وطلب من الصدر الأعظم المساعدة على ذلك فانكر عليه ذلك مبينا سوء عواقب الامور فغضب البيرقدار غضبا شديدا وأمر بحبسه وبلغ الخبر السلطان مصطفى فارسل أناسا يقتلون السلطان سليما فدخلوا عليه وهو يصلى صلاة العصر فلم يمهلوه الى أن يتم الصلاة بل وثبوا عليه وطرحوه الى الارض فنهض حالا عليهم كالاسد وصرعهم وكان قويا جدا ثم تغلبوا عليه وخنقوه حتى مات ورجعوا به الى السلطان مصطفى مسرعين وطرحوه ميتا أمامه وكان ذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف وعمر السلطان سليم ثمان وأربعون سنة ثم أرسل أناسا وأمرهم بخنق أخيه السلطان محمود وكان البيرقدار هجم بجماعة مسرعين لانفاذ السلطان سليم فوجدوه قد مات فاهتموا بأمر السلطان محمود وقال لهم البيرقدار عليكم بنجاة السلطان محمود لانه هو الوارث الوحيد لتخت السلطنة الباقى من سلالة آل عثمان فاخذت العساكر تطلب السلطان مصطفى وتبحث عن السلطان محمود

لان السلطان محمود لما جاءه جنود السلطان مصطفى الذين يريدون قتله أراد الفرار فرشقه أحدهم بخنجر أصاب يده فهرب وصعد على سطوح السرايا فلما نظر له جماعة البيرقدار وضعوا له سلما فنزل الى صحن الدار حيث كان البيرقدار وعندما نظر اليه البيرقدار فرح فرحا عظيما وحمد الله تعالى على خلاصه من أخيه وصار يقبل قدميه

﴿ ذكر ولاية السلطان محمود بن عبد الحميد ﴾

ثم دخل به القاعة وأجلسه على تخت السلطنة وأرسل جندا قبضوا على السلطان مصطفى وأمر بحبسه فلما تم جلوس السلطان محمود جعل مصطفى باشا البيرقدار صدرا أعظم وسلمه زمام الاحكام فأخذ يجتهد فى أخذ الثار من الذين قتلوا السلطان سليما ثم شرع فى تنظيم العسكر الجديد وأرسل وطلب اجتماع أهل الحل والعقد من رجال الدولة فلما حضروا أخذ يبين لهم شدة الاضطرار لتعليم العساكر صناعة الحرب وانفاذ أوامر السلطان طالبا رأيهم فى ذلك فصادقوه مذعنين لامر السلطان وتعهدوا بالمساعدة فى كل مايؤول لنجاح المملكة وفى الحال أخذ الصدر الاعظم فى موضع ترتيبات جديدة أوجبت الملام عليه من كثيرين وأضمروا له السوء وصاروا يطعنون فيه جهارا ويدعونه بالكافر وعلقوا أوراقا فى الاسواق وعلى باب داره مكتوبا فيها قد قرب موت الصدر الاعظم وساروا بأسلحتهم يطلبون قتل العساكر الذين تعلموا التعليم الجديد فأخذوهم بغتة وشتتوهم وأحاطوا بمنزله وطرحوا فيه النار ووقعت أمور يطول الكلام بذكرها وانقسم الناس فريقين فريقا يريد التعليم الجديد وفريقا يكرهه وقتل بسبب هذه الفتنة خلق كثير وأحرقت دور كثيرة وحاصروا الصدر الاعظم فى الدار التى كان فيها وأطلق عليهم الرصاص وقتل كثيرا منهم ثم ثار عليه صناديق بارود وكانت فى داره فمات بسبب ذلك وكان قد أخرج جواريه ونسائه من الدار قبل ذلك فأحيلت الصدارة الى يوسف باشا وكان ذلك فى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف وعزل شيخ الاسلام عطاء الله افندى وأحيلت المشيخة

الى عرب زاده محمد عارف افندى وكتب السلطان مصطفى وهو محبوس كتابا
بالعساكر الانقشارية يحرضهم على الغيرة وارجاعه الى السلطنة فوقع ذلك
الكتاب فى يد بعض العلماء فذهب به الى شيخ الاسلام فجمع كثيرا من العلماء
وأخذوا يتحدثون فى عواقب هذه الامور ويتشاورون فى اطفاء هذه الفتنة
وأرادوا انه اذا بقى السلطان مصطفى فى قيد الحياة لا تنطفى الفتنة فاختاروا
رجلا من بينهم يقال له منيب افندى كان قاضى اسلامبول ليعرض على السلطان
محمود رأى العلماء ويلتمس منه قتل السلطان مصطفى فسار منيب افندى الى
السلطان محمود وعرض عليه ذلك فاجابه السلطان محمود ان هذا أمر عظيم
وكيف يتصور أن يصدر أمرى بقتل أخى مع كونى قادرا على منعه من هذه
الاعمال وصار بينه وبين السلطان محمود محاورة كثيرة فى ذلك وقال له منيب
افندى فى غضون تلك المحاورة قد جاء فى الحديث الشريف اذا اجتمع خليفتان
فاقتلوا أحدهما فشق ذلك على السلطان محمود وحول وجهه الى شباك هناك
ولم يجبه بشئ لشدة أسفه على أخيه فقال منيب افندى ان السكوت اقرار وفى
الحال أرسل منيب افندى الى كبير البستانجية وقال له ان مولانا السلطان قد
صدر أمره الشريف بقتل أخيه السلطان مصطفى فاذهب وأتم أمره فذهب
البستانجى باشا ومعه جماعة من أعوانه الى الموضع الذى كان فيه السلطان مصطفى
فأحس بهم السلطان مصطفى وعرف مقصدهم فاختبى بين فرش كانت هناك
فدخلوا فلم يجدوه ورأوا امام تلك الفرش خفيه فقلبوا تلك الفرش الى الارض
فوجدوا السلطان مصطفى مختبأ فيه فقتلوه خنقا وكان العلماء الذين اجتمعوا
عند شيخ الاسلام وأرسلوا منيب افندى للسلطان محمود ينتظرون رجوعه اليهم
بالجواب فلما أبطأ عليهم ظنوا أن السلطان محمود لم يقبل ما رأوه فتوجهوا جميعا
للسلطان محمود تقوية لمنيب افندى وتصديقا له فدخلوا على السلطان محمود
يلتمسون منه اتمام ما عرضه عليه منيب افندى فاتفق انهم حين دخولهم قبل ان
يبتدؤا بالحديث نظر السلطان محمود من الشباك فرأى اخراج جثة أخيه من

تألم من ذلك جدا والتفت اليهم وعيناه ممتلئتان بالدموع وقال لهم أسرعوا
واهتموا بتكثير الجيوش واحضار المهمات وارسال العساكر لانني أنا اليوم
بحزن عظيم على موت أخي فحينئذ علم العلماء موت السلطان مصطفى فتوقفوا
عما كانوا يريدون عرضه عليه وأخذوا يدعون له بطول العمر ويعزونه
ويسلونه على فقد أخيه وكان ذلك في شهر جمادى الاولى سنة ثلاث وعشرين
ومائتين وألف فمدة سلطنة السلطان مصطفى سنة واحدة وشهران وعمره ثلاثون
سنة ولما استقرت السلطنة للسلطان محمود كانت أمور الدولة في غاية الارتباك
والاضطراب فمن ذلك ان عساكر الروسية كانت تتقدم الى جهة الطونة
بسرعة فبعث السلطان جيشا عظيما لمصادمتهم فلم يقدر أن يوقف سيرهم فطلبت
دولة فرانسا أن تتوسط في الصلح فرفض السلطان محمود مداخلتها لانه تأثر جدا
من الشروط السرية التي عقدها نابليون ملك فرانسا مع اسكندر ملك الروسية
في تيلسيت التي من شأنها اقتسام دول أوروبا فيما بينهم حتى بلاد الدولة العلية
واستمر في مقاومة الروسية ومحاربتهم ولكن كانت الغلبة لهم فاستولوا على مدينة
ملة وقلعة اسمعيل وعلى عدة مراكز حسنة وضايقوا العساكر العثمانية أشد
مضايقة وبينما كانت المصائب محيطة بالدولة واذا بطالع سعيد بزغ في أفقها وذلك
ان نابليون الأول ملك فرانسا أشهر الحرب على الروسية سنة ألف ومائتين وثمان
وعشرين وسار اليها بجيوشه الجرارة فألزم ذلك الروسية أن تخرج جيوشها
من حدود الدولة العلية وعقدت صلحا مع الباب العالي موافقا جدا للدولة العثمانية
فاغتنم السلطان فرصة هذا الصلح لتسكين الثورات في ولايتي بغداد وايدين
وغيرهما فانه في سنة ألف ومائتين وست وعشرين أظهر سليمان باشا والي بغداد
العصيان فأرسل اليه السلطان محمود من قتله

﴿ ذكر حرب المورة ﴾

في سنة ألف ومائتين وسبع وثلاثين تحرك اليونان في المورة وجاهروا بالعصيان
على الدولة وكانوا يهجمون بمراكبهم على سواحل البحر فيقتلون ويسلبون

ويرمون الفتن في جميع الاطراف فشق ذلك على الدولة العلية وأرسلت
العساكر لردعهم وادخالهم في الطاعة فشبت الحرب بينهما وقامت على ساق وقدم
وبعث الباب العالي الى محمد على باشا والي ولاية مصر يأمره أن يرسل جندا
لمحاربتهم فارسل ولده ابراهيم باشا المشهور بخمسة وعشرين ألف مقاتل مع عمارة
بحرية ولما وصل الى المورة انضم بجيشه الى جيش الدولة العثمانية ودارت نيران
الحرب ولما أيس الاروام من النجاة ونوال الاستقلال استنجدوا بالدول الاوربا
فبادرت دولتا فرانسا وانكلترا الى التوسط في الأمر والسعي بالصلح فلم يجب
السلطان محمود سؤالهما فانضمت اليهما العمارة الروسية وبعثوا الى ابراهيم باشا أن
يوقف الحرب فاجاب أنه لا يقدر على ذلك الا بامر من السلطان فعند ذلك أطلقوا
النار على عمارتي الدولة ومحمد على باشا فاحرقوهما وكان ذلك سنة ألف ومائتين
واحدى وأربعين ولما بلغ الخبر السلطان محمود اضطر الى اجابة سؤال الدول
المتحدة وأمضى الصلح بشروط مخصوصة فيها ابطال الحرب واستقلال الاروام

﴿ ذكر قتل العساكر الانقشارية ﴾

وفي سنة احدى وأربعين أيضا شرع السلطان محمود في تعليم بعض العساكر
التعليم الجديد وشرع في تدبير الأمر في تدمير الانقشارية وإبطال وجاقهم فأبرز
أمرا سلطانيا يتضمن القدح في وجاق الانقشارية وبيان الخلل الواقع منهم
وتغلبهم على الدولة وقتلهم بعض السلاطين وأمر سليم باشا الصدر الاعظم أن يجمع
العلماء في بيت شيخ الاسلام ويتلوا عليهم الامر الشاهاني ففعل ذلك فاجابوا
بالامتثال بما صدر به الامر السلطاني وتعهدوا بانفاذه وكان مع الحاضرين جماعة
يميلون الى الانقشارية فتعصبوا لهم سرا وأخبروهم بما صار عليه الاتفاق فهجموا
على بيت الصدر الاعظم وبعض العظماء من رجال الدولة وأخذوا ينادون في
شوارع اسلامبول ويقولون اليوم قتل العلماء ورجال الدولة وكل من كان
السبب في وضع النظام الجديد ويقتلون كل من صادفوه منهم وينهبون البيوت
ويطرحون فيها النار ففر الصدر الاعظم منهم وجاء الى السلطان محمود وأخبره

بتلك الحوادث فامره أن يجمع الطوبجية وسائر أهل الاسلام أمام باب السرايا فاجتمع فى ذلك النهار جم غفير من العلماء ورجال الدولة ينتظرون خروج السلطان اليهم فلما خرج اليهم أخذ يحدثهم بكلام يهيج به نخوتهم فاقسم جميعهم على انهم يهريقون دماءهم فى صيانة أوامره وتنفيذها والتمسوا منه اخراج الصنجق الشريف النبوى ليهجموا على العصاة فأراد السلطان أن يكون معهم فتوسلوا اليه أن لا يتنازل الى ذلك وأرسلوا ينادون فى شوارع المدينة ويدعون أهل الاسلام للاجتماع تحت الصنجق الشريف فلما علم بعض الانقشارية بذلك أرسلوا أناسا من جماعتهم ينادون لاجتماع الانقشارية فلما قرعت أصوات المنادين آذان أهل الاسلام أسرعوا الى فسحة السرايا أفواجا أفواجا ففرقوا عليهم السلاح وسلم السلطان الصنجق الشريف لشيخ الاسلام قاضى زاده طاهر افندى وعاد الى كرسيه الملوكى وكان يشرف على الجميع أمام السرايا وسار سليم باشا الصدر الاعظم أمام تلك الجموع التى كانت أكثر من خمسين ألفا وشنوا الغارة على الانقشارية صارخين الله أكبر على الاشقياء وهجموا عليهم وأطلقوا المدافع والرصاص وكان يوما مهولا عظيما فقتلوا منهم نحو عشرة آلاف والباقون فروا الى قشلهم وتحصنوا فيها فهجم عليهم العساكر والأهالى وطرحوا فيها النار فاحترق كثير منهم ومن بقى ولوا الادبار ثم قبضوا على كثير منهم فقتلوهم وطرحوهم فى فسحة آت ميدان وبعد ذلك دعا السلطان اليه العلماء ووكلاء الدولة وأخذ يريهم أثواب السلاطين العظام الملطخة بالدماء الذين قتلهم العصاة الانقشارية طالبا ثمن دم السلاطين فاجاب العلماء أن ثمن دم كل سلطان خمسة وعشرون ألف نفس فصدرت الاوامر بتدمير الانقشارية فى الاستانة العلية وفى جميع الجهات فقتل منهم عدد كثير وارتاحت الدولة والناس من مظالمهم وألحق بهم بعض الدراويش من البكطاشية لكونهم يميلون اليهم ويساعدونهم ويفعلون فى تكياتهم أفعالا شنيعة محرمة وبدعا مستنكرة فامر السلطان بقتل أكثرهم وهدم تكياتهم وأخذت الدولة فى تكثير العساكر النظامية والجد فى تعليمهم وأبطلت

وجاق الانقشارية وفى أثناء تلك المدة غير السلطان محمود لبسه ونزع العمامة والجبة وتزيا بزى العسكر الجديد على هيئة الاوربا ويين وبالطربوش الصغير ولم يبال باقوال المعترضين

﴿ ذكر القتال مع الروسية ﴾

فى سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف زحفت العساكر الروسية لمحاربة الدولة العلية عند نهر الطونة وسار جيش الى جهة الاناطول فارسلت الدولة عساكر لمصادمتهم تحت قيادة الصدر الاعظم سليم باشا فوقع بين الفريقين حرب شديد وتغلبت عساكر الروسية وهزموا عساكر الدولة واستولوا على جملة اماكن وتقدمت عساكرهم الى شوملة وأقاموا الحصار على سليسترة واستولوا على مدينة وارنة فعزل السلطان الصدر الاعظم سليم باشا وأمر بنفيه وأقيم فى الصدارة محمد عزت باشا وسارت بعض عساكر الدولة الى جبل البلقان فتركت الروسية محاصرة شوملة وكانوا قد استولوا على سليسترة وكانت عساكر الروسة التى فى الاناطول تتقدم فملكوا القرص وبايزيد وطبراق وأرض روم واستأسروا صالح باشا وجاء جيش الروسية فيه مائة وستون ألف مقاتل وحاصروا أدرنة حصارا شديدا الى أن استولوا عليها ولما اشتد الامر على رجال الدولة وعلى السلطان محمود اضطربت الامور اضطرابا كثيرا الا أن السلطان محمود أظهر الثبات وقوة الجنان فى وسط تلك الاخطار المحدقة به وبدولته ثم تداخلت دول أوروبا فى الصلح وأتموه بشروط سنة خمس وأربعين ومائتين وألف ومآل تلك الشروط استقلال الاروام وتنازل الدولة عن اقليم السرب والافلاق والبغدان للملوك من أهل تلك البلاد تحت نظارة ملك الروسية وعن بعض جزائر عند فم نهر الطونة وعن بعض أراض فى الاناطول مع غرامة حربية قدرها مائة وعشرة ملايين فرنك قال بعض مؤرخى الفرنج وربما استغرب القارىء كيف ان الدولة التى سادت على أغلب ممالك العالم وأوقعت الرعب فى قلوب جميعهم لم تستمر فى نموها وتقدمها حتى التزم سلاطينها الى أن يرتضوا هذه الشروط فاذا نظر الى هذا الامر بعين خالية عن الغرض يحق الاستغراب من وجه آخر وهو كيف أمكن

هذه الدولة أن تحتمل هذه الصدمات الشديدة والمقاومات المريعة من أعدائها مع وجود الخلل فى داخليتها بسبب أصحاب البغى والفساد وقلة الاموال ولم تتزعزع أركانها بل استمرت فى سلك الثبات العجيب ولم تستطع قوة أو سببا آخر أن يثنيها واذا ضممنا الى هذه الاسباب الخلل الذى أوقعه وجاق الانكشارية وعدم تمام انتظام الترتيب للعسكر الجديد وعدم تمرن الجيوش بفنون الحرب وملاقاة الاهوال لربما حق العجب كيف لم تنقرض هذه الدولة أصلا واستطاعت أن تناضل الى هذه الدرجة مستهينة بكل الموانع التى تعرضت لها فهذا أعظم برهان على عظمها وسطوتها انتهى كلامه وأقول ان ههنا سرا الهيا لتأييدها وهو سر بركة الاسلام وسر بركة النبى صلى الله عليه وسلم وسريان روحانيته لتأييد ملته وأهل دينه والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر استيلاء الفرنسيس على الجزائر ﴾

وفى سنة خمس وأربعين وألف ومائتين استولت الفرنسيس بقوة جبرية على جزائر الغرب مدعين ان أهلها كانوا يقبضون على مراكبهم التجارية ويربطون عليهم البحر فى تلك الجهات ويفتكون بهم فلما بلغ الباب العالى ذلك أرسل طاهر باشا قبودان باشا الى الجزائر يتعاطى الصلح بينهم وبين أحمد باشا والى الجزائر فلما وصل وأراد النزول الى البر منعته الفرنساوية فعاد راجعا الى القسطنطينية والجزائر المذكورة كانت فى حكم الدولة العلية من حين تملكها السلطان سليمان فلما طالت المدة صار الولاة الذين فيها يتوارثون الولاية بالتغلب ويدفعون خراجا للدولة ويكون تحت امر الدولة ظاهرا ومتغلبين باطنا فلما أحدثت الدولة العساكر السلطانية بالتعاليم الجديدة امتنع والى الجزائر من تعاليم عساكرها ولم يمتثل أمر السلطان فى ذلك فقيل ان السلطان محمود هو الذى سلط عليه الفرنسيس لتأديبه فجاؤا بجيوش كثيرة وحاصروا الجزائر الى أن قبضوا على الباشا المتولى عليها وذهبوا به الى بلادهم وتملكوا الجزائر وحصنوها بالعساكر فلما تملكها الفرنسيس لم ترجع تلك الجزائر لحكم الدولة بل استولى عليها و بقى

على ذلك الى عصرنا هذا

﴿ ذكر القتال بين محمد على باشا والسلطان محمود ﴾

فى سنة سبع وأربعين ومائتين وألف وجه محمد على باشا والى مصر جيوشه برا وبحرا الى الممالك الشام وجعل قيادتها لولده ابراهيم باشا فحاصر عكا وافتتحها مظهرا الانتقام من عبدالله باشا والى عكا لاسباب كانت بينهما وفتح فى طريقه غزة ويافة وحيفا فلما بلغ الدولة ذلك غضبت وأرسلت تأمر محمد على باشا برجوع العساكر وأنه اذا كان بينهما دعوى يقدمان الى الباب العالى فيحكم بينهما فلم يمتثل لاوامر الدولة فأبرزت الدولة فرمانا بعصيان محمد على باشا وتنزيله عن ولاية مصر وصدر الأمر السلطانى لوالى حلب بجمع العساكر لمحاربة ابراهيم باشا وخرج حسين باشا بعساكر من الاستانة وحصل القتال بين الفريقين خارج طرابلس فهزمهم ابراهيم باشا واستولى على الاقطار الشامية وقبض على عبدالله باشا والى عكا وأرسله الى الاسكندرية لأبيه محمد على باشا ولما وصل ابراهيم باشا الى داريا قرب دمشق خرج اليه على باشا وزير دمشق واشتبك الحرب بينهما فهزمهم ابراهيم باشا وخرج أهل دمشق يسألونه الامان فأمنهم ودخلها وتقدم الى حمص واشتبك القتل بينه وبين والى حلب وكان يوما عظيما وحربا شديدا من أشهر الوقائع قتل فيه خلق كثير واستولوا على المهمات جميعها وانهزم والى حلب ورجع اليها فقفلت فى وجوههم الابواب فساروا الى انطاكية ولما وصل ابراهيم باشا الى حلب خرج أهالى حلب لاستقباله فدخلها وتسلم ما كان فيها من الذخائر والمهمات وأمن أهلها ثم سار الى انطاكية وحاربهم فيها ثم الى بوغاز بيلان ولما بلغ الباب العالى تقدم العساكر المصرية تسير رشيد باشا الصدر الاعظم بالجيوش لحربهم فتقدم الى قونية والتقى الجيشان واشتبك القتال وانهزمت عساكر الدولة وقبض على رشيد باشا الصدر الاعظم وأتى به الى ابراهيم باشا فقابله بكل اكرام ثم خلى سبيله وامتدت هذه الفتنة والحروب الى سنة خمس وخمسين ومائتين وألف ثم صدرت الاوامر السلطانية الى حافظ باشا ليسير لمحاربة ابراهيم باشا فالتقى الجيشان بالقرب

من مرعش واقتتلا ووقعت الهزيمة أولا على عساكر ابراهيم باشا وكان فى وادى عسر فجمع العساكر وخرج بهم من ذلك الوادى وصعد الى تل كان تجاه معسكر حافظ باشا وأخذ يطلق عليهم المدافع فعطل أكثر مدافعهم وفرق صفوفهم ثم هجم عليهم بعساكر هجمة هائلة فانهزموا أمامه تاركين مدافعهم ومهماتهم عائدين الى مرعش وقتل من الفريقين خلق كثير وهذه الوقعة من أشهر تلك الوقائع التى وقعت فى تلك الحروب وأعقبها ابراهيم باشا بفتح أكثر الجهات فى تلك البلاد ولم تصل أخبارها الى القسطنطينية الا بعد وفاة السلطان محمود بثمانية أيام ومن فتوحاته إخراج الخوارج الوهابية من مكة والمدينة وتطهير الحرمين منهم وقد تقدم ذلك عند ذكر السلطان سليم بن مصطفى لكون ابتداء القتال مع الوهابية كان فى مدة سلطنته لكن اتمام الامر ما كان الا فى زمن مولانا السلطان محمود الثانى ابن السلطان عبد الحميد فذلك من فتوحاته ومن فتوحاته المعنوية اعتناؤه بأهل الحرمين كمال الاعتناء فانه صدرت الارادة الشاهانية من دولته بتحرير ما كان يصرف لهم من قمح الجراية فوجدوا أكثر ذلك بيد الأغنياء والتجار كانوا يأخذونه من الفقراء بالفراغ بعوض حقير فصار الفقراء ليس لهم شئ فصدر الامر الشاهانى بنقض ذلك وابطاله وتجديد كتابة دفتر بأسماء المستحقين فحصل تجديد ذلك فى المدة التى كان فيها محمد على باشا بمكة حين جاء لقتال الوهابية وكتب الله ذلك صدقة جارية فى صحيفة مولانا السلطان محمود وصحيفة كل من كان له اعانة وتسبب فى ذلك ومن حسنات السلطان المذكور وفتوحاته انه كان فى مدة سلطنته تجديد قبة مولد النبى صلى الله عليه وسلم وقبة السيدة خديجة زوجة النبى صلى الله عليه وسلم وقبة السيدة آمنة والدة النبى صلى الله عليه وسلم وقبة سيدنا عبد الله بن عباس بالطائف فان القبب المذكورة وهدمها الوهابى وجددها مولانا السلطان محمود وهدم الوهابى أيضا قببا كثيرة بالمدينة على قبور الصحابة وبعض الاولياء فجددها مولانا السلطان المذكور ومن خيراته وفتوحاته المعنوية أنه جدد لأهل الحرمين خيرات ومرتبات زيادة على الذى كان مرتبا لهم

من أسلافه وذلك أنه فى سنة احدى وخمسين بعد المائتين والالف رتب مرتبات للعلماء والخطباء بالحرمين الشريفين وللقاعين بخدمة المسجدين الشريفين مثل المؤذنين والفراشين والكناسين والبوابين وجعل للجميع مرتبات جزيلة من النقود الجليلة بعضها شهريات وبعضها سنويات واشترى لذلك عقارات كثيرة وأوقفها ليصرف من غلاتها جميع المرتبات المذكورة فصارت حسنة جارية الى هذا الوقت يحصل منها كمال النفع والاعانة للمذكورين على معاشهم ومن وقت هذا الترتيب كان ابتداء وضع المدير والمديرية بمكة والمدينة ولم يكن ذلك موجودا قبل ذلك ثم ان ولده مولانا السلطان عبد المجيد ضم الى ذلك الترتيب مثله فى مدة سلطنته كما سيأتى ذكر ذلك عند ذكره وكانت مدة سلطنة السلطان محمود اثنين وثلاثين سنة وعمره خمس وخمسون سنة وكانت وفاته تاسع عشر ربيع الاول سنة خمس وخمسين ومائتين وألف

﴿ ذكر ولاية السلطان عبد المجيد ﴾

وجلس على تخت السلطنة بعده ولده السلطان عبد المجيد فجهز الجيوش لقتال عساكر محمد على باشا واخراجها من الشام وأعانه على ذلك دولة انكلترا وكانوا عرضوا على السلطان محمود الاعانة فأبى فلما توفى وتسلطن ولده السلطان عبد المجيد قبل اعانتهم فأعانوه وسير جيوشه الى الشام فهزموا عساكر ابراهيم باشا وأخرجوهم من الاراضى الشامية وأرادوا التوجه الى مصر والاسكندرية لاخراج محمد على باشا فتوسطت دولة انكلترا بالصلح الى أن أتموه بشرط أن تكون الاسكندرية ومصر وأقطارها لمحمد على باشا ولأولاده من بعده وضربوا عليه خراجا معلوما يدفعه فى كل سنة ويرجع الى الدولة الشام والحجاز وتم الامر على ذلك وكانت مدة تملكه الاقطار الشامية قريبا من مدة تسع سنين وفى مدة السلطان عبد المجيد قوى الاتحاد مع دولتى فرانسا وانكلترا فحسنوا له احداث القوانين المسماة بالتنظيمات الخيرية فصدر منه الفرمان السلطانى بذلك سنة خمس وخمسين ومائتين وألف وهى سنة جلوسه على تخت السلطنة

﴿ ذكر الحرب مع الروسية ﴾

فى سنة تسع وستين ومائتين وألف كانت الحروب العظيمة بين السلطان عبد المجيد والروسية المسماة بحرب القرم وسببها أنه وقع اختلاف بين طائفتى الروم واللاتين فى القدس من عدة سنين بسبب كنيسة القيامة وبعض الأماكن المقدسة فكانت كل طائفة منهما تدعى لنفسها حق الرياسة والتقدم على الاخرى باستيلاء مفاتيحها ثم أخذت هذه المسئلة تتعاظم بينهما وتمتد يوما بعد يوم الى أن آل الامر الى النزاع والجدال فى سنة ثمان وستين ومائتين وألف فوقع الباب العالى فى ارتباك وحيرة من جهة تسكينها واخماد نارها لأن الروسية كانت تحامى عن حقوق الروم وفرانسا تحتشد لطرف اللاتين فتداخل سفير انكلترا فى صرف هذا المشكل ورسم ترتيبا لائتلاف الملتين المتخالفتين فقبلته فرانسا ولم تقبله الروسية لأن مقصدها التوحد ولم يكن مقتصرا على المحامات عن حقوق الروم بل كان لها غايات أخرى طالما كانت تجتهد على نوالها وتترقب الفرص لاستحصالها وهو ابعاد الدولة العثمانية من قارة أوروبا والاستيلاء على أقاليمها وولاياتها فانتهز امبراطورها نقولا تلك المنازعة فرصة مناسبة لنوال بغيته وبلوغ أربه فبعث سفيرا الى القسطنطينية لمقابلة السلطان عبد المجيد بعد أن كان بعث جيشا يبلغ مائة وأربعة وأربعين ألفا الى نهر الطونة ليكون مستعدا لوقت اللزوم والحاجة فلما وصل السفير المذكور الى القسطنطينية رفض مواجهة فؤاد باشا وزير الخارجية ودخل رأسا على الحضرة الشاهانية وعرض عليه مطالب الامبراطور نقولا فى المسئلة المتعلقة بالأماكن المقدسة وان جميع الروم الذين هم من تبعة الدولة العلية تكون تحت حمايته من الآن فصاعدا وان بطرك الروم القسطنطينى وباقى أساقفة الطائفة يكون انتخابهم وتغييرهم منوطا به وان الشكاوى والدعاوى التى تصدر عليهم من جهة تصرفاتهم تعرض عليه لينظر فيها فاستعظم السلطان هذه المطالب ورفضها لانها مخلة بناموس السلطنة ومغايرة للاصول وقوانين الدول فانثنى السفير راجعا من حيث أتى وأعلم الأمبراطور نقولا بواقعة الحال

فاستشاط غضبا ثم أصدر أمرا الى العساكر التى أرسلها الى أطراف الطونة أن تعبر النهر وتستولى على تلك الأطراف فاجتازت النهر وشنت الغارات على امارات الافلاق والبغدان واستولت عليها ولما تحقق الباب العالى قدوم ذلك الجيش الى أطراف بلاده علم أن مقاصد الروسية فى تطلباتها لم تكن إلا وسيلة لاشهار الحرب فجهز جيشا وأرسله الى تلك الحدود تحت قيادة عمر باشا المجرى لردع الروسيين ولما تأكدت الدول الأورباوية بغية الروسية ومقاصدها بادرت انكلترا وبروسيا والنمسا الى عقد جمعية للنظر فى اجراء الوفاق بين الدولتين وأرسلت كل دولة منهما معتمدا من طرفها الى مدينة ڤينا حيث وافاهم سفير من طرف الروسية وآخر من طرف الدولة العلية وعقدوا هنالك مجلسا فى سنة ألف ومائتين وسبعين لم يأت بالمرغوب فلما لم يكن سبيل للصلح أشهر الباب العالى الحرب وصدم سليم باشا العساكر الروسية فى الاناضول وانتصر عليهم فى عدة مواقع وهاجمهم عمر باشا فى الروم ايلى وانتصر عليهم أيضا وأما العمارة التى للروسية فى البحر الاسود فصدمت العمارة العثمانية واستظهرت عليها بعد حرب شديد فأتلفتها وكانت مؤلفة من سبعة فركاتات وباخرتين وثلاث مراكب حربية ثم ان انكلترا وفرانسا لما تيقنتا سوء نتايج هذه الحرب احتشدتا بالمعونة السلطان وأعلنتا الحرب على الروسية فى سنة احدى وسبعين ابتدأتا فى نقل رجالهما ومهماتهما الى ساحة الحرب واشتركتا فى القتال وأما باقى دول أوروبا فكانت محافظة على الحيادة وكانت دولة انكلترا قد أرسلت عمارة بحرية الى بحر بلتيك فاستولت على قلعة بومارستود ثم على جزيرة الاندولكنها لم تقدر على استخلاص القلعة نظرا لحصانتها واذا كانت سيواسطبول أعظم قوات الروسية التى يعولون عليها فى البحر الاسود وجهت انكلترا وفرانسا قواهما لافتتاحها والاستيلاء عليها فأرسلتا فرقا من عساكرهما عددها ستون ألفا وكان أكثرها فرانساويين فنزلوا فى بوباسمرايا وفيما كانوا يتقدمون الى سيواسطبول صادفهم العساكر الروسية فاقتتل الفريقان قتالا شديدا الى أن دارت الدائرة على الروسيين

فانهزموا عند نهر الماء وكان جيش عساكر الروسية محاصر مدينة سلسترة ولم تقدر على أخذها فخرجت عليهم العساكر العثمانية من المدينة واقتحمتهم فانتصرت عليهم وفرقتهم فذهبوا عن المدينة خائبين وانضموا الى آخرين وقصدوا القرم لنجدة حصار قلعة سيواسطبول التى اليها وجهت الروسية كل قوتها من المهمات والعساكر والذخائر وصادم جيش من الانكليز جيشا للروسيين عند بالاكلا فانتصروا عليهم بعد ما فقد منهم خلق كثير وكان جيش للروسية محاصرا فى أق كرمان وعددهم ستون ألفا فخرجوا من مكان حصارهم واقتحموا العساكر العثمانية والانكليزية والفرنساوية ودارت بينهم معركة شديدة الخسران على الفريقين وانجلت بانهزام الروسية وألزموهم حصن المدينة ولم يكن حينئذ فى قوة الدول المتحدة الاستيلاء على سيواسطبول مع انهم كانوا يزيدون فى قوتهم الحربية ويكثرون هجماتهم وقنابرهم ولم يقدروا على استخلاص تلك القلعة أوأن يمنعوا المساعدات التى كانت تأتيها من داخل البلاد ولقد قاست العساكر المتحدة لاسيما الانكليز فى شتاء سنة احدى وسبعين وشتاء اثنتين وسبعين أهوالا وشدائد يكل اللسان عن وصفها وتعدادها فان الأمراض والأوجاع قد أخذت فى العساكر كل مأخذ وأهلكت كثيرا منهم فضلا عن الجوع والتعرض لبرد تلك البلاد والابخرة المنتنة التى كانت تتصاعد من جثث القتلى والحيوانات أما ايطاليا فقد هيأت جنودها للحرب وانضمت الى الدول المتحدة فأرسلت خمسة عشر ألف مقاتل بعد ما تعهدت لها انكلترا بدفع مبلغ مليون ليره على سبيل الاعانة واشتهرت رجالها فى تلك المجامع بالشجاعة والثبات وفى خلال ذلك هلك الامبراطور نقولا سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف وجلس ولده اسكندر الثانى مكانه ٭ وفى خلال ذلك وقعت واقعة هائلة بين الروسية والعساكر المتحدة كانت الدائرة فيها على الروسية واستولت جيوش فرانسا على قلعة ملاكوف واذلم يبق للروسية استطاعة على حفظ مراكزهم تركوا سيواسطبول فى مساء ذلك النهار وعولوا على الهزيمة والفرار ودخلت العساكر المتحدة القلعة وامتلكتها فانفتحت

حينئذ مخابرات الصلح وعقدت جمعية فى باريز سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف حضرها اثنان من طرف كل دولة من الدول الست المتصابة وهى انكلترا وفرانسا والعثمانية والنمسا وبروسيا وسردانيا وأمضت شروط الصلح متضمنة أربعة وثلاثين بندا أخصها أن الدولة العلية يكون لها الامتيازات التى لباقى دول أوروبا من جهة القوانين والتنظيمات السياسية وأنها تكون مستقلة فى ممالكها كغيرها من الدول وان البحر الاسود يكون بمعزل عن جولان مراكب حربية فيه من أى جنس كان ماعدا الدولة العثمانية والروسية فان لهما حقا فى ادخال عدد قليل من المراكب الصغيرة الحربية لأجل محافظة أساكلهما وأن لا يكون للدولة العثمانية ولا للروسية ترسانات بحرية حربية على شواطئ البحر الاسود الى غير ذلك من الشروط ثم انسحبت العساكر الى مواطنها وانتهت الحرب التى لم يكن لها داع سوى المطامع * وفى سنة اثنتين وسبعين كانت فتنة عظيمة بمكة المشرفة بين أهالى مكة وعساكر الدولة بسبب ورود أمر بمنع بيع الرقيق وانتهت فى رمضان بالقبض على الشريف عبد المطلب بن غالب أمير مكة وتولية الشريف محمد بن عون والكلام عليها طويل * وفى سنة أربع وسبعين وقعت فتنة فى جدة بين أهالى جدة والنصارى الذين بها بسبب اختلاف بعض أهل المراكب فى وضع بندرة الاسلام أو الانكليز على بعض المراكب والكلام عليها أيضا طويل * وفى سنة ست وسبعين كانت فتنة بالشام بين النصارى وأهل الشام والكلام عليها أيضا طويل * وفى سنة ألف ومائتين وسبع وسبعين حدثت فتنة عظمى بين الدروز والنصارى فى جبل لبنان آل الامر الى وقوع حرب بين الفريقين وكانت النتيجة رديئة على النصارى بسبب اختلافهم وعدم انضمام بعضهم لبعض وعدم انقيادهم لبعضهم ففتكت بهم الدروز فأرسل الباب العالى فؤاد باشا ليمهد الامور وينتقم من المذنبين وأرسلت فرانسا عشرة آلاف جندى للمحافظة ومنع التعدى وكذلك باقى الدول الافرنجية منها من أرسل مراكب حربية ومنها من أرسل نوابا لاصلاح الحال وتمهيد الامور وغب اجراء ما يلزم اجراؤه انصرفت

الدولة العلية باتفاق الدول وضع نظامات جديدة لاهل هذا الجبل وان تحول احكامه لمشير من الطائفة النصرانية من غير أهالى الجبل ليكون متصرفا بها وبخابر رؤساء الباب العالى فتوجهت المتصرفية لداود باشا الارمنى ومن خيرات السلطان عبد المجيد وفتوحاته المعنوية تجديد مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة فانه كان على بناء السلطان قايتباى وكان مسقفا بالخشب فطالت مدته وحصل فيه خراب فصدرت ارادة مولانا السلطان عبد المجيد بهدمه وتجديده سنة ألف ومائتين وسبعين فهدم وجدد وجعل سقفه قببا وطواجن كالمسجد الحرام وتم عمارته بعد مضى أربع سنين فجاء على صفة لم ير الراؤن أحسن منها وله عمارات كثيرة فى الاماكن المأثورة بالحرمين الشريفين وله تجديد ميزاب الكعبة المشرفة سنة خمس وسبعين ومائتين وألف وتوفى السلطان عبد المجيد فى سابع عشر ذى القعدة سنة ألف ومائتين وسبع وسبعين وعمره أربعون سنة ومدة سلطنته ثنتان وعشرون سنة وستة أشهر

﴿ ذكر ولاية السلطان عبد العزيز ﴾

وأقيم فى السلطنة بعده أخوه السلطان عبد العزيز ابن السلطان محمود الثانى ✱ وفى سنة ثمان وسبعين أظهر العصيان أهل الجبل الاسود فسير السلطان عبد العزيز اليهم جيشا فقاتلهم وهزمهم ثم رجعوا الى الطاعة ✱ وفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف أظهر العصيان كثير من الأروام بجزيرة كريد وكثير من البندقية فجهزت الدولة عليهم جيوشا برا وبحرا وكذلك جهز صاحب مصر عساكر كثيرة برا وبحرا فكانت مع عساكر الدولة ووقع بينهم وبين العصاة حرب شديد فكان النصر فيها لعساكر الاسلام وأذاقوا العصاة الويل والثبور وأرجعوهم الى الطاعة ✱ وفى سنة تسع وثمانين توجه السلطان عبد العزيز الى الديار المصرية للتنزه والتفرج وكان ذلك فى ولاية اسماعيل باشا ابن ابراهيم باشا ابن محمد على باشا ✱ وفى سنة أربع وثمانين توجه السلطان المذكور الى باريز تخت ملك الفرنسيس للتنزه والتفرج أيضا ثم منها توجه الى بلاد الانكليز للتفرج والتنزه أيضا وكان فى

رحلته هذه مر على أدرنه وعلى قلعة بلغراد وكان السرب قد طلبها منه وقيل النمسا فأعطاها اياهم ظنين عابن تحصينها غضب لذلك وكانوا أخبروه أنها مهدومة وأنها مدينة كاسدة فأعطاها قبل أن يراها فلما رآها ندم حيث لا ينفع الندم * وفى سنة ثمان وثمانين كانت فتنة عظمى ببلاد عسير فجهزت الدولة جيشا تحت قيادة رديف باشا فسار حتى صعد جبال عسير وقاتلهم وهزمهم وقتل أميرهم محمد ابن عائض بن مرعى وقتل معه جماعة من عشيرته وأسر كثيرا وأرسلهم الى الاستانة وصارت بلاد عسير فى حكم الدولة العلية منضمة الى ولاية صنعاء واليمن * وفى هذه السنة أيضا كانت فتنة عظمى بين دولة البروسية وفرانسا آل الامر فيها الى هزيمة الفرنسيس وأسر ملكهم نابليون الثانى والكلام عليها طويل مفرد بالتأليف * وفى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف فى السابع من شهر جمادى الاولى خلع السلطان عبد العزيز ومات رحمه الله تعالى بعد خمسة أيام وعمره ثمان وأربعون سنة ومدة سلطنته ست عشرة سنة وأربعة أشهر

﴿ ذكر ولاية السلطان مراد الخامس ﴾

وأقيم فى السلطنة بعده السلطان مراد الخامس ابن السلطان عبد المجيد ابن السلطان محمود الثانى ثم خلع بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أيام فى ثالث شعبان من السنة المذكورة أعنى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف (والسبب) فى خلعه انه وقع له خلل فى عقله بعد أيام مضت بعد بيعته فلما تحققوا الخلل فى عقله استفتوا فيه شيخ الاسلام خير الله أفندى فأفتى بخلعه لان شرط الخليفة أن يكون متصفا بالعقل فخلعوه وبايعوا أخاه سلطان العصر مولانا السلطان عبد الحميد الثانى وبقى السلطان مراد المخلوع فى داره وأما السلطان عبد العزيز فانه بعد خلعه بأيام قلائل أقل من الاسبوع توفى فأشيع أنه قتل نفسه بمقص قص به عرقا فى ذراعه فمات من ذلك * وفى سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف نفى جماعة من الوزراء الى الحجاز فحبسوهم فى قلعة الطائف منهم مدحت باشا ومحمود باشا داماد مولانا السلطان عبد المجيد ونورى باشا داماد مولانا السلطان عبد الحميد أيضا

ومعهم جماعة آخرون غير هؤلاء منهم شيخ الاسلام خير الله أفندى * وفى سنة ثلاثمائة توفى مدحت باشا ومحمود باشا الداماد فى القلعة المذكورة وكان خلع السلطان عبد العزيز بسبب الاضطراب كثير وحوادث شتى وكان القائم أكمل القيام فى خلعه حسين عونى باشا وكان السلطان عبد العزيز هو الذى رقاه وأعلى قدره الى أن جعله رئيسا على العساكر كلها بل صار مقدما على جميع أهل الرتب والمناصب فرتب الامور مع الوزراء وغيرهم وزعم أن السلطان عبد العزيز تداخل مع الروسية وأنه يريد أن يملكهم دار السلطنة فما زال حسين عونى باشا وغيره يسعون فى ذلك حتى تم لهم خلعه فقدر الله أن رجلا يقال له حسن جركس قتل حسين عونى باشا وذلك أن السلطان عبد العزيز كان متزوجا بأخته فأخذته حمية حين خلع السلطان عبد العزيز فصمم على قتل حسين عونى باشا فدخل عليه فى دار الصدر الاعظم محمد رشدى باشا فوجده مع جماعة من الوزراء مجتمعين للمشاورة فى بعض الامور وكان مع حسن جركس زوج من الطبنج ذوات الأرواح المتعددة فضربه ضربا متعددا وقتل جماعة من الحاضرين منهم حسين عونى باشا الساعى فى خلع السلطان عبد العزيز ولم يتم لحسين عونى باشا شئ من مراده والله غالب على أمره ثم قبضوا على حسن جركس فقتلوه

﴿ ذكر ولاية سلطان العصر أطال الله عمره ﴾

هو السلطان المعظم المفخم سلطان سلاطين العرب والعجم حائز العلم والصلاح والكرم المتشرف بخدمة طيبة والحرم * صاحب السيف والقلم * ظل الله فى العالم غياث بنى آدم * نعمة الله على العباد وفضله على الحاضر والباد * ناصر الحق والدين * مؤيد شريعة سيد المرسلين * المحفوف بالسبع المثانى * أمير المؤمنين مولانا السلطان الغازى عبد الحميد الثانى * أعز اللهم سرير الملك والخلافة بوجوده * وأعد على القريب والبعيد آثار فضله وجوده * وأنفذ فى جميع البلاد أوامره وأحكامه * وانشر على البرايا ألوية عدله وأعلامه * وأيده بتأييدك وأبده بتأبيدك واجعل سلالة تلك السلطنة العلية مسلسلة الى منتهى

الدوران * مستمرة على مرور الليالى والايام باقية الى آخر الازمان * آمين يارب العالمين بويع أطال الله عمره لما خلعوا أخاه السلطان مراد فى ثالث شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف فكانت سلطنته زينة و بهجة وسرورا وامتد بها فى مشارق الارض ومغاربها ماملأهما نورا * ومما كان من الحوادث فى أول ولايته أنه وقع عصيان من بعض النصارى الداخلين فى رعية الدولة العلية فى بلاد الروم ايلى وهم طائفة يقال لهم الهرسك فجهز عليهم مولانا السلطان المذكور جيشا فقاتلوهم وكانوا قوما ضعافا لا يحتاج الاستيلاء عليهم وقهرهم الى كلفة ولا الى كثرة عساكر الا أن الروسية تداخلت معهم وصارت تقويهم بأشياء كثيرة حتى اتسعت فتنتهم وانتشرت وأعانهم طوائف من النصارى الذين كانوا قريبا منهم الى أن صارت المحاربة بين الدولة والروسية وصارت تلك الطوائف من النصارى مع الروسية وساقت الدولة بهذه الفتنة العساكر الكثيرة وأنفقت الخزائن الوفيرة فقدر الله بانهزام جيوش الاسلام وأسر كثير منهم فى بلونة وذلك بسبب محاصرة عساكر الروسية لهم فى ذلك البلد وعدم امكان وصول الميرة اليهم لشدة البرد وكثرة الثلج وممن أسر من كبار عساكر الاسلام الوزير عثمان باشا الغازى قوماندان ذلك الجيش فى بلونة ثم أطلق مع كثير ممن أسروا وكان اطلاقهم بعد انعقاد الصلح وتملك الروسية كثيرا من المدائن العظام الى أن وصلوا الى قريب أدرنة والكلام على هذه الفتنة طويل قد أفرد بالتأليف وختام الامر ان بقية الدول توسطت فى الصلح بين الدولة العلية ودولة الروسية وانعقد الصلح سنة خمس وتسعين على أن يبقى تحت يد الروسية ما تملكوه من البلاد وأن الدولة العلية تدفع لهم غرامة الحرب وكان شيأ كثيرا وتبقى للدولة أدرنة وما يليها الى دار سلطنة الدولة العلية وكان هذا الخلل انما دخل على المسلمين بعد خلع السلطان عبد العزيز فلا حول ولا قوة الا بالله * وفى سنة ست وتسعين ومائتين وألف أعطت الدولة العلية جزيرة قبرس للانكليز على أن تكون بأيديهم سنين مؤقتة بشروط أن يدفعوا للدولة العلية قدر الخراج الذى كان يحصل منها وقد تقدم فى هذا الكتاب تكرر

وضع اليد على قبرس من المسلمين والنصارى مرارا كثيرة أولها من زمن الصحابة حين افتتحها معاوية رضى الله عنه وبعد ذلك صار المسلمون والنصارى يتداولونها تارة تكون بيد هؤلاء وتارة بيد هؤلاء * وفى سنة ست وتسعين ومائتين وألف خلع والى مصر اسماعيل باشا ابن ابراهيم باشا ابن محمد على باشا وقد كان محمد على باشا لما انعقد الصلح بينه وبين مولانا السلطان عبد المجيد سنة خمس وخمسين ومائتين وألف جعلت له مصر ولأولاده من بعده فلما صارت ولايتها لاسماعيل باشا أراد حصر الولاية فى أولاده ومنع اخوانه وأولاد اخوانه منها فتوجه الى دار السلطنة فى مدة السلطان عبد العزيز سنة احدى وتسعين ومائتين وألف فتم له مراده وجعلوا ولاية مصر له ولأولاده الأكبر فالأكبر وكان الصدر الاعظم فى ذلك الوقت فى دار السلطنة هو محمد رشدى باشا الشروانى ثم ان الله قضى وقدر أن عاقبة هذا الامر الذى فعله اسماعيل باشا أول ماظهر سوؤه عليه فانه فى سنة ست وتسعين ظهر عليه كثرة ديون أخذها من الدول الاجنبية وأنفقها فى غير حقها فتشاور أهل الديون على أنهم يضبطون خراج مصر ومحصولاتها لأجل استيفاء ديونهم فلما أحس بذلك أراد أن يجعل له عصبية يمنعهم بها فتداخل مع العلماء وأهل مصر وعقد بينه وبينهم عهودا ومواثيق على أن الامور كلها تكون بيد العلماء والأهالى وبمشاورتهم فلما أحس الانكليز والفرنسيس وغيرهما بانعقاد هذه العصبية سعوا فى خلعه ووافقهم على ذلك مولانا السلطان عبد الحميد فخلعوه فى سنة ست وتسعين وجعلوا ولاية مصر لولده الأكبر محمد توفيق باشا عملا بما تقرر قبل ذلك حين نفى اخوته وبنيهم من دخولهم فى الولاية من بعده وأن الولاية من بعده تكون لأكبر أولاده فأقاموا عليها ولده الأكبر وهو محمد توفيق باشا وتوجه والده اسماعيل باشا بعائلته وبقية أولاده الى نابولى من بلاد ايطاليا وجعل له مرتب من محصولات مصر وخزينتها * وفى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف استولت دولة الفرنسيس على تونس وأعمالها بالمكر والخديعة والحيلة فجهزت دولة الفرنسيس عساكر كثيرة وأظهرت أنها تريد تأديب بعض

قبائل العرب العصاة منهم قبيلة يقال لهم الخمير فى أعمال تونس فوصلوا بعساكرهم اليهم وقاتلوهم وقهروهم ثم زحفوا بعساكرهم الى تونس ولم يستطع أحد أن يدفعهم الى أن قاربوا دخول تونس فاضطرب أهل تونس اضطرابا كثيرا ثم عقدوا معهم صلحا وأدخلوا طائفة من عساكرهم تونس وأبقوا التى على ولايته بحسب الظاهر واستولوا فى الباطن على الاحكام والمحصولات والخراجات واستقبلوا الديون التى كانت على والى تونس وصارت الامور كلها بأيديهم فلا حول ولا قوة الا بالله * وفى سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف كانت فتنة بمصر بين والى مصر محمد توفيق باشا وبين عرابى باشا وكان عرابى باشا من رؤساء عساكر محمد توفيق باشا واتسع الامر فى ذلك فجاء الانكليز بعساكرهم البحرية نجدة لمحمد توفيق باشا الى الاسكندرية وضربوا مدافعهم على الاسكندرية وقاتلوا الذين كانوا مع عرابى باشا وكان ذلك فى شعبان ورمضان سنة تسع وتسعين واتسع الأمر بما يطول الكلام بذكره وكانت الغلبة لتوفيق باشا ومن معه من الانكليز وتملكوا الاسكندرية وذهب عرابى باشا ومن معه الى مصر ثم سارت الانكليز بعساكرهم لقتاله بمصر والكلام على ذلك طويل وفى آخر الامر انهزم عرابى باشا ومن معه ثم دخلوا مصر وقبضوا على عرابى باشا وعلى كثير ممن كانوا معه فقتلوا جماعة منهم ونفوا جماعة نفيا موقتا وجماعة نفيا مؤبدا وصار العفو عن قتل عرابى باشا ونفوه مع بعض من كانوا معه الى جزيرة سيلان من أعمال مليبار من بلاد الهند وجعلوا اقامته ومن معه هناك ورتبوا لهم مرتبا يكفيهم واستولى الانكليز على القطر المصرى ووضعوا عساكرهم فى القلعة على صورة أنهم انما فعلوا ذلك اعانة لمحمد توفيق باشا وأبقوه على ولايته والانكليز مع ذلك كله يقولون ليس مرادنا الاستيلاء على مصر وانما مرادنا الاصلاحات والتأييد لمحمد توفيق باشا واذا استقامت الامور وانتظمت أحوال مصر نخرج منها ونخرج عساكرنا * وفى سنة سبع وتسعين ظهر رجل بالسودان يسمى محمد أحمد يقال إنه المهدى أو قائم طالب لاظهار الحق ولم يدع أنه المهدى و يقال إنه

شريف حسني وكان قبل ظهوره مشهورا بالصلاح ومن مشايخ الطرائق قيل انه على طريقة الشيخ السمان وأول ظهوره أنه لما كثرت أتباعه ومن بدوه وقع اختلاف بينه وبين العساكر المصرية المتملكين للسودان عمالا لصاحب مصر محمد توفيق باشا ثم اتسع الامر بينهم وبينه الى القتال وقاتلوه وقاتلهم مرارا وكانت الغلبة لمحمد أحمد عليهم حتى استولى على كثير من بلاد السودان وأخرجهم منها فلما دخل الانكليز مصر صار الانكليز هو الذي يجهز عليه العساكر ويقاتله بعساكر الانكليز ومعهم عساكر مصر ووقع بينهم وبينه وقائع كثيرة يطول الكلام بذكرها والغلبة في تلك الوقائع كلها له عليهم فملك كردفان وكسلة والخرطوم وبربرة ودنقلة وغير ذلك وقتل منهم خلقا كثيرا لا يحصى عددهم وكان أمره معهم عجيبا يأتون اليه بالعساكر الكثيرة والمدافع والآلات الشهيرة التي لا يطيق أحد مقابلتها فيقابلهم بجيوشه السودانيين وليس معهم الا السيف والرمح والسكاكين فيهجمون على تلك العساكر في موضعهم ومحط جيشهم ولا يبالون بمدافعهم وآلاتهم حتى يخالطوهم ويقتلوا أكثرهم من قرب طعنا بالرماح وضربا بالسيوف والسكاكين ويشتتون شملهم ومنهم جماعة في برارى سواكن قد ولى محمد أحمد عليهم رجلا يسمى عثمان دقنه فجاء بمن معه من السودان لمحاصرة سواكن واخراج الانكليز والعساكر المصرية منها فخرجوا اليه بجيوشهم الكثيرة وآلاتهم ومدافعهم الشهيرة فهزمهم عثمان دقنه ومن معه من السودان هزيمة بعد هزيمة وقتل الكثير منهم حتى أنهم جاؤه في سنة اثنتين وثلاثمائة بنحو من سبعين مركبا مشحونة بالعساكر الكثيرة والآلات والاستعدادات الوفيرة وخرجوا لقتاله في البر قريبا من سواكن فهزمهم وقتل أكثرهم وشتت شملهم وغنم أكثر أموالهم ودوابهم وذخائرهم وأسبابهم والى هذا الوقت وهو شهر ذي الحجة من سنة ثنتين وثلاثمائة وعثمان دقنه ومن معه من السودان في نواحي سواكن محاصرون لها وفيها عساكر للانكليز وصاحب مصر قيل ان جيوش محمد أحمد تبلغ ثلاثمائة ألف أو يزيدون وأما دعوى أنه

المهدى فيختلف فيها فن الناس من يقول إنه يدعى أنه المهدى ومنهم من يقول لم يدع انه المهدى بل يقول انه قائم لاظهار الحق واقامة الشريعة واخراج الانكليز من مصر والله أعلم بحقيقة الحال والاكثر من الناس يقولون انه رجل صالح على غاية من الاستقامة ومنهم من يقدح فيه وينسب اليه خلاف ذلك ويقول ان جيوشه يقع منهم فساد كثير وليس لهم غرض الا القتل والنهب وانهم فى استيلائهم على كردفان والخرطوم وغيرهما قتلوا خلقا كثيرا من المسلمين فيهم العلماء والصلحاء والنساء والاطفال وقيل ان وقوع ذلك كان من بعض المفسدين منهم ولم يرض بذلك محمد أحمد ولم يأمر به والله أعلم بحقيقة الحال وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بأن انتصار آخر هذه الامة فى آخر الزمان يكون بالسودان فيحتمل أنهم هؤلاء ويحتمل أن يكونوا غيرهم وانتصار المسلمين بهم فى آخر الزمان مأخوذ مما ذكره الخازن فى تفسيره عند تفسير قوله تعالى * ثلة من الاولين وثلة من الآخرين * من سورة الواقعة فانه قال ما نصه ثلة من الاولين يعنى من المؤمنين الذين قبل هذه الامة وثلة من الآخرين يعنى من مؤمنى هذه الامة ويدل على ما رواه البغوى باسناد الثعلبى عن عروة بن رويم قال لما أنزل الله عز وجل قوله تعالى ثلة من الاولين وقليل من الآخرين بكى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال يا رسول الله آمنا برسول الله وصدقناه ومن ينجو منا قليل فأنزل الله عز وجل ثلة من الاولين وثلة من الآخرين فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب وقال له قد أنزل الله فيما قلت فقال عمر رضى الله عنه رضينا عن ربنا وصدقنا نبينا صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آدم الينا ثلة ومنا الى يوم القيامة ثلة ولا يستتمها الاسودان من رعاة الابل ممن قال لا اله الا الله اه ومثل ذلك فى تفسير الخطيب الشربينى وفى التفسير المسمى بالدر المنثور للجلال السيوطى أن عروة بن رويم يروى هذا الحديث عن جابر بن عبد الله الانصارى رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم وان الحديث المذكور أيضا رواه ابن مردويه وابن عساكر لكن اللفظ الذى ذكره فى الدر المنثور قال فى آخره وأمتى ثلة

ولن نستكمل ثلثنا حتى نستعين بسودان من رعاة الابل ممن يشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له اه فيحتمل ان المراد من السودان هؤلاء القائمون مع محمد أحمد وعثمان دقنه ويحتمل أن يكون غيرهم والله أعلم بغيبه وكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم لابد من وقوعه وروى ابن مكرم الافريقي في كتابه المسمى لسان العرب حديثا لم يذكر من خرجه وقال فيه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يخرج في آخر الزمان رجل يسمى أمير الغضب أصحابه محسرون محقرون مقصون عن أبواب السلطان ومجالس الملوك يأتونه من كل أوب كقزع الخريف يورثهم الله مشارق الارض ومغاربها اه فيمكن أنهم هؤلاء السودان القائمون مع محمد أحمد أو غيرهم وقد ذكر كثير من العلماء الذين ألفوا رسائل في ظهور المهدي وعلاماته ان من علامات ظهوره خروج السودان منهم الجلال السيوطي والعلامة ابن حجر والعلامة المتقي والعلامة السيد محمد بن رسول البرزنجي في كتابه المسمى بالاشاعة في أشراط الساعة ففي رسالة الجلال السيوطي المسماة بالعرف الوردي في علامات المهدي حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه اذا خرجت السودان طلبت العرب ينكشفون حتى يلحقوا ببطن الاردن أو ببطن الارض فبينما هم كذلك اذ خرج السفياني في ستين وثلاثمائة راكب حتى يأتوا دمشق فلا يأتي عليهم شهر حتى يبايعه من كلب ثلاثون ألفا والاحاديث التي جاء فيها ذكر السفياني كثيرة شهيرة والكلام عليها طويل وهو يريد قتال المهدي عند ظهوره ثم يخسف بجيش السفياني ويهلكه الله تعالى وفي رسالة ابن حجر المسماة بالقول المختصر في أخبار المهدي المنتظر أن من علامات ظهور المهدي ألوية تقبل من المغرب وأن خروج أهل المغرب الى مصر من أمارات خروج السفياني وذلك انما يكون عند ظهور المهدي وجهة السودان بالنسبة الى مصر مغرب فيحتمل أنهم هؤلاء القائمون مع محمد أحمد ويحتمل أن يكون المراد غيرهم وكذا قوله خروج أهل المغرب الى مصر يحتمل أن يكونوا هؤلاء لأنه يصدق على الجهة التي ظهروا منها أنها من المغرب بالنسبة لمصر ويحتمل

أن يكونوا غيرهم والله أعلم بأسرار غيبه وأسرار أحاديث نبيه صلى الله عليه وسلم
ومن علامات ظهور المهدي الرايات السود التي تخرج من خراسان وفيها
أحاديث كثيرة قال في الاشاعة يمكن أنها هي التي خرجت في زمن المهدي العباسي
ابن المنصور ويحتمل أنها أيضا تخرج عند ظهور المهدي المنتظر وفي شرح
الشجرة النعمانية للشيخ صلاح الدين الصفدي عبارات تفيد ان الدولة
العثمانية تبقى قوتها وسلطنتها الى ظهور المهدي وانهم يكونون من أعوانه وأنصاره
بأنفسهم وأموالهم وخزائنهم وعساكرهم وآلاتهم وعددهم فيجب الدعاء للدولة
العثمانية على كل مسلم والذي يقاتلهم يكون باغيا خارجا عليهم فالواجب على كل
مسلم السعي في تشييد دولتهم وتثبيت قواعدها واعانتهم في إظهار الشرع بتواجد
السنن واماتة البدع والدعاء لهم بالتوفيق فنسأل الله تعالى أن يوفقهم لكل خير
وأن يلهمهم كمال الرشد والصلاح وكذا سائر وزرائهم وقضاتهم وعمالهم ثم ان
القائم بالسودان وهو المسمى محمد أحمد اما أن يكون باغيا خارجا على السلطان
فيجب قتاله وان لم يدع أنه المهدي ويمكن أن الله أقامه لاخراج الانكليز من مصر
اعانة للدولة العثمانية ولا يريد الخروج على السلطان وانما يريد أن يكون من جملة
رعايا الدولة العثمانية ثم يكون لاعانة المهدي ويؤيد ذلك ما ذكره الجلال
السيوطي في رسالته التي ألفها في علامات المهدي فانه ذكر فيها حدثنا أبو
نعيم بن حماد عن أبي قبيل قال يكون أمير بافريقية اثنتي عشرة سنة ويكون بعده
فتنة فيملك رجل يملؤها عدلا ثم يسير الى المهدي فيؤدي اليه الطاعة ويقاتل
فيمكن أنه هو هذا الرجل المسمى محمد أحمد ويمكن أنه غيره والله أعلم بأسرار نبيه
وقيل ان الذين يشيعون انه هو المهدي انما هم بعض أتباعه ليرغبوا عامة الناس في
اتباعه والدخول في طاعته وأما هو فانه لم يدع أنه المهدي بل قال بعض من اجتمع
به انه سمع منه بلا واسطة انه يقول اني لست أنا المهدي المنتظر وانما أنا قائم لاظهار
الحق واقامة الشرع وأما ان ثبت انه يدعي انه هو المهدي المنتظر فالامر مشكل
لان المهدي المنتظر لا يدعي أنه المهدي ولا يطلب البيعة لنفسه ولا يقاتل الناس

تحصيلها ولا يبايع الا وهو مكره بل لا يبايع الناس حتى يهددوه بالقتل وذلك
أن الله يطلع بعض من اختصه من صالحي عباده عليه وعلى علاماته فيدلون
الناس عليه فيطلبونه فيفر منهم مرارا ثم يمسكونه ويكرهونه على البيعة
ويهددونه بالقتل ولا يكون ظهوره والبيعة له إلا والناس بلا خليفة أخذا من
حديث يحصل اختلاف عند موت خليفة وهو أصح حديث روى فى هذا الباب
وأما الآن فالناس لله الحمد لهم خليفة وهو أمير المؤمنين مولانا السلطان عبد الحميد
ابن المرحوم مولانا السلطان عبد المجيد وبيعته فى أعناق المسلمين وسلسلة
سلطنته من أحسن الدول الاسلامية مقيمين للشريعة السنية محبين للصحابة وأهل
البيت ناصرين أهل السنة المحمدية قامعين أهل البدعة الردية فلا يجوز خلع بيعته
ولا الخروج عن طاعته ثبت الله دولته وأيد سلطنته فمن خلع بيعته أو ترك طاعته
أو خرج عليه فهو باغ معتد وأيضا من علامات المهدى المنتظر أن يكون من ولد
فاطمة رضى الله عنها وأن يكون ظهوره والبيعة له بمكة بين الركنين ولا يصح أن
يكون ظهوره والبيعة له بغير مكة قال الجلال السيوطى فى آخر العرف الوردى فى
علامات المهدى وأما قول القرطبى ان ظهور المهدى يكون من المغرب فهو باطل
وقد تابع السيوطى على ذلك العلامة العلقمى والعلامة الصبان فى رسالته التى
ألفها فى علامات المهدى فكل منهما قال كما قال السيوطى ان قول القرطبى ان
ظهور المهدى يكون بالمغرب باطل وقال بعضهم يمكن حمل كلام القرطبى على غير
المهدى المنتظر فان كثيرا ممن ادعى كل منهم أنه المهدى كان ظهورهم بالمغرب كمحمد
ابن تومرت وعبيد الله العبيدى جد ملوك افريقية ومصر وخلق كثير غير هذين
ادعى كل واحد منهم أنه المهدى بالمغرب وغيره وذلك لأن المهديين متعددون
والمهدى المنتظر واحد وهو الذى يكون من ولد فاطمة يكون ظهوره بمكة والناس
بلا خليفة ويبايع مكرها ولا يطلب البيعة لنفسه ولا يقاتل الناس لتحصيلها
ويكون فى زمنه خروج المسيح الدجال ونزول عيسى عليه السلام ويجتمع به ومما
يدل على أن المهديين متعددون والمهدى المنتظر واحد ما ذكره العلامة ابن حجر

في الصواعق المحرقة لأهل الضلال والزندقة حيث قال حاكيا لقول من قال
المهدي من ولد العباس وهو والد هارون الرشيد واسمه محمد المهدي ابن عبد
المنصور بناء على الأحاديث المذكورة فيها أن المهدي من ولد العباس عم النبي
صلى الله عليه وسلم وقال انه من أحسن خلفاء بني العباس وهو فيهم كعمر بن
عبد العزيز في بني أمية ثم قال ابن حجر موجها القول هذا القائل ويمكن أنه
من ولد العباس وهو غير المهدي المنتظر فان المهدي المنتظر من ولد فاطمة رضي
الله عنها ويكون في زمنه خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام ويجتمع
فهذه العبارة صريحة في تعدد المهديين وجمع بعضهم بين الأحاديث التي فيها
من ولد فاطمة والاحاديث التي فيها أنه من ولد العباس بطريق آخر فقال
المهدي المنتظر من ولد فاطمة من جهة أبيه ومن ولد العباس من جهة أمه
تكون أمه أو أم بعض آبائه من ولد العباس وكلام ابن حجر في رسالته
التي في علامات المهدي يقتضي أيضا تعدد المهديين وان المهدي المنتظر واحد
فانه قال فيها والذي يتعين اعتقاد مادلت عليه الاحاديث الصحيحة من وجود
المهدي المنتظر وهو الذي يخرج الدجال وعيسى عليه السلام في زمنه
المراد حيث أطلق المهدي وأما من قبله فليس واحد منهم هو المهدي المنتظر
ويكون بعد المهدي أمراء صالحون لكنهم ليسوا مثله فهو الاخير في الحقيقة
وكذلك غير ابن حجر ممن ألفوا رسائل في علامات المهدي كلهم يقتضي
كلامهم تعدد المهديين وأن المهدي المنتظر واحد وانما قالوا بذلك التعدد لأنه
قيل في محمد بن الحنفية انه المهدي وقيل في عمر بن عبد العزيز انه المهدي وقيل
في محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط
المهدي فهؤلاء أطلق على كل واحد منهم أنه المهدي فثبت بذلك تعدد المهديين
لكن ليس واحد من هؤلاء هو المهدي المنتظر فالمهدي المنتظر واحد وهو لم
يظهر الى الآن فيمكن حمل كلام القرطبي على غير المهدي المنتظر ممن كان خروجه
بالمغرب ولا يمكن حمل كلامه على المهدي المنتظر لأنه انما يظهر بمكة والناس

السنة كما تقدم ايضاحه وكذلك لا يصح قول من قال انما يكون ظهور المهدى
فى القطر من ماسة بالمغرب فهو قول باطل لا أصل له كما نبه على ذلك العلامة ابن
خلدون فى تاريخه فانه قال ان القول بظهوره من ماسة باطل لا أصل له وانما نشأ
من رجل من المتصوفة خرج بالسوس الاقصى وعمد الى مسجد ماسة وزعم
انه الفاطمى المنتظر تلبيسا على العامة هنالك بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره
هنالك وأفهمهم أن من ذلك المسجد تكون أصل دعوته فتهافتت عليه تهافت
الفراش طوائف من عامة البربر ثم خشى رؤساؤهم اتساع نطاق الفتنة فدسوا
اليه من قتله فى فراشه وانطفأت الفتنة (والحاصل) أن الذى تقتضيه الاحاديث
المتواترة وصرح به العلماء أن المهدى المنتظر الى هذا الوقت لم يظهر وذكروا
له علامات كثيرة بعضها مضى وانقضى وبعضها باق لم يظهر ومن أعظم علاماته أنه
يصلحه الله فى ليلته وأنه من ولد فاطمة رضى الله عنها وأنه يبايع مكرها الا انه يطلب
البيعة لنفسه ويقاتل الناس لتحصيلها بل لا يبايع حتى يتهدد بالقتل وان ظهور
بيعته انما يكون بمكة بين الركنين وأن ظهوره انما يكون عند وجود اختلاف
عند موت خليفة فلا يظهر ويبايع إلا والناس بلا خليفة فهذه الاشياء هى أقوى
العلامات عليه وله علامات كثيرة غير هذه ذكرها الذين ألفوا الرسائل فى
شأن أمره لكن تلك الاشياء ظنية ومختلف فى كثير منها وذلك مثل اسمه واسم
أبيه وموضع ولادته ومقدار عمره ووقت ظهوره ومدة مكثه فى الارض بعد
ظهوره فكل هذه الأشياء مختلف فيها فما قيل فى مقدار عمره وقت ظهوره انه ابن
أربعين وقيل انه ابن عشرين وقيل انه ابن ثمانية عشر وقيل غير ذلك وقيل فى
مدة مكثه بعد ظهوره انها سبع أو تسع سنين وقيل انها أربعون وقيل عشرون
وقيل غير ذلك وقيل فى اسمه انه محمد وقيل أحمد وهل هو من ولد الحسن أو الحسين
أو العباس وجمع بعضهم بأنه من ولد أحد الحسنين من جهة أبيه ومن ولد الآخر من
جهة أمه وفى بعض أمهاته من هى من ولد العباس والاحاديث التى جاء فيها ذكر
ظهور المهدى كثيرة متواترة فيها ما هو صحيح وفيها ما هو حسن وفيها ما هو ضعيف

وهو الاكثر لكنها لكثرتها وكثرة رواتها وكثرة مخرجيها يقوى بعضها بعضا حتى صارت تفيد القطع لكن المقطوع به أنه لا بد من ظهوره وأنه من ولد فاطمة وأنه يملأ الارض عدلا نبه على ذلك العلامة السيد محمد بن رسول البرزنجي في آخر الاشاعة وأما تحديد ظهوره بسنة معينة فلا يصح لان ذلك غيب لا يعلمه إلا الله ولم يرد نص من الشارع بالتحديد وقد ذكر كثير من المتقدمين من العلماء تحديد ظهوره في سنين عينوها بالظن والتخمين فلم يخرج فيها فأخطؤا في ظنهم وتحديدهم ويؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم في المهدي انه يصلحه الله في ليلة أن المهدي لا يعلم بنفسه أنه المهدي المنتظر قبل وقت ارادة الله اظهاره ويؤيد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو أشرف المخلوقات لم يعلم برسالته الا وقت ظهور جبريل له بغار حراء حين قال له اقرأ باسم ربك الذي خلق وأما قبل ذلك فكان يرى منامات كثيرة تأسيسا لرسالته وتقوية لقلبه لكنه لم يعلم أن المراد منها تأسيس الرسالة حتى انه كان كلما رأى مناما من تلك المنامات يخبر زوجته خديجة رضي الله عنها ويشكو اليها حاله فكانت تثبته وتقول له كلاما يقوي به قلبه كما هو موضح في كتب الحديث فاذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يعلم بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعد ظهور جبريل عليه السلام له وقوله له اقرأ باسم ربك فبالاولى أن المهدي المنتظر لا يعلم بأنه المهدي المنتظر الا بعد ارادة اظهاره ولذلك يمتنع من البيعة حتى يهدد بالقتل ويبايع مكرها فهذا هو سر قوله صلى الله عليه وسلم يصلحه الله في ليلة ليعلم من ذلك أنه لم يعلم أنه المهدي المنتظر الا وقت ارادة الله اظهاره فكل من يدعي انه هو المهدي المنتظر ويطلب البيعة لنفسه أو يقاتل الناس لتحصيلها فهو مخالف لما صرحت به أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وقد ادعى هذه الدعوى كثيرون فيما تقدم من الازمان ولم تثبت دعواهم وكان لهم مع الخلفاء وقائع وحروب مذكورة في التواريخ وقد جمعت أسماءهم ووقائعهم باختصار في رسالة مستقلة ليعلم من وقف عليها أن كل من ادعى هذه الدعوى لا تتم له ولا تتم الا اذا جاءت على طبق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم لانه الصادق المصدوق الذي

للتخلى عن الهوى وقد ذكر العلامة ابن خلدون فى تاريخه كلاما فيه فوائد تتعلق بهذا البحث فلنذكر ملخص ذلك تتميما للفائدة وحاصل ذلك أن الذين يدعون هذه الدعوى إما أن يكونوا موسوسين أو مجانين فلا علاج لهم إلا التنكيل بالقتل أو الضرب ان أحدثوا فتنة والا يسخر بهم وتذاع السخرية بهم وتشنع فى الطرق أو الاسواق واما أن يكونوا من طالبي الرياسة والملك فيجعلون هذه الدعوى وسيلة لذلك ويغفلون عما ينالهم من الهلكة واسراع الهلاك والقتل من الملوك والسلاطين عند احداثهم فتنة بهذه الدعوى وقد يكون بعض من يدعي هذه الدعوى من الصالحين ويريد اظهار الحق ويتخيل له انه هو المهدى على ظنه ولا يعرف ما يلزمه وما يحتاج اليه فى إقامة الحق والامر بالمعروف والنهى عن المنكر فان الله لم يكتب عليه فى ذلك اثارة فتنة وانما أمره الله تعالى به حين تكون القدرة عليه قال صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وأحوال الملوك والدول قوية مستقلا يزحزحها ولا يزلزلها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التى من ورائها عصبية القبائل والعشائر وهكذا كان حال الانبياء عليهم الصلاة والسلام فى دعوتهم الى الله تعالى بالعشائر والعصائب وهم المؤيدون من الله تعالى بالكون كله لو شاء لكنه سبحانه وتعالى انما أجرى الأمور على مستقر العادة والله حكيم عليم فاذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان محقا قصر به الانفراد عن العصبية فطاح فى هوة الهلاك وأما ان كان من المتلبسين بذلك لطلب الرياسة فأجدر أن تعوقه العائق وتنقطع به المهالك لان أمر الله لا يتم الا برضاه واعانته والاخلاص له والنصيحة للمسلمين ولا يشك فى ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة وكل أمر يجتمع عليه كافة الخلق لا بد له من العصبية وفى الحديث الصحيح ما بعث الله نبيا الا فى منعة من قومه واذا كان هذا فى الانبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق لهم العوائد فى الغلبة بغير عصبية والغفلة عن هذا هى أكثر أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر

من العامة والفقهاء، فان كثيرا من المنتحلين للعبادة وسلوك طريق الدين يذهبون الى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين الى تغيير المنكر والنهى عنه والأمر بالمعروف رجاء الثواب عليه من الله تعالى فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرضون أنفسهم فى ذلك للمهالك وأكثرهم يهلكون فى تلك السبيل مأزورين غير مأجورين وكثير منهم يدعى أنه المهدى المنتظر ولم يصح دعواهم ويتبعهم كثير من العامة والاغمار ممن لا يرجعون الى عقل يهديهم ولا علم يفيدهم يستجيبون لكثير ممن يدعون هذه الدعوى لما اشتهر من ظهور فاطمى ولا يعلمون حقيقة الامر وأكثر ما يكون ذلك فى الممالك القاصية وأطراف العمران بأفريقية والسوس من المغرب وتجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطا بماسة لما كان بذلك الرباط بالمغرب من الملثمين من كدالة واعتقادهم هو أنهم قائمون بدعوة الفاطمى يزعمون ذلك زعما لا مستند له الا البعد عن القاصية عن منال الدولة وخروجها عن نطاقها فتقوى عندهم الاوهام فى ظهور الفاطمى من ذلك الموضع لخروجه عن ربقة الدولة ومنال الاحكام والقهر ولا محصول لديهم فى ذلك الا هذا الوهم وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة تنشأ عن وسواس وحمق وتقتل الملوك والرؤساء كثيرا منهم ثم قال أخبرنى شيخنا محمد بن ابراهيم الابلى قال خرج برباط ماسة لأول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب المرينى رجل من منتحلى التصوف يعرف بالتويزرى وادعى أنه الفاطمى المنتظر واتبعه الكثير من أهل السوس من كدالة وكزولة وعظم أمره وخافه رؤساء المصامدة وعلماؤهم فدس عليه السكسوى من قتله بياتا وانحل أمره وكذلك ظهر فى غمارة فى آخر المائة السابعة فى عشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادعى أنه الفاطمى المنتظر وتبعه الدهماء من غمارة ودخل مدينة فاس عنوة وحرق أسواقها وارتحل الى بلد المزمة فقتل بها غيلة ولم يتم أمره وكثير من هذا النمط وأخبرنى شيخنا المذكور بغريبة عن مثل هذا وهو انه صحب فى حجه رجلا من أهل البيت من سكان

كربلاء كان متبوعا معظما كثير التلامذة وكان يتلقونه بالنفقات فى أكثر البلدان وتأكدت الصحبة بيننا فى الطريق ثم كشف لى عن أمرهم وانهم انما جاؤا من مواطنهم بكربلاء قاصدين أرض المغرب لاظهار دعوى انه الفاطمى المنتظر فلما وصل الى المغرب وعاين دولة بنى مرين وكان أمير المسلمين يوسف بن يعقوب فى ذلك الوقت منازلا تلمسان فلما رأوا قوة ملكه قال ذلك الرجل لاصحابه ارجعوا بنا فقد أزرى بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا وهذا يدل على أن ذلك الرجل استبصر بأن الامر لا يتم الا بالعصبية الكافية لاهل الوقت فلما علم أنه غريب فى ذلك الموطن ولا شوكة له وان عصبية بنى مرين فى ذلك الوقت لا يقاومها أحد من أهل المغرب استكان ورجع الى الحق واقصر عن مطامعه وبقى عليه أن يستيقن ان عصبية الفواطم وقريش أجمع قد ذهبت لاسيما فى المغرب الا أن التعصب لشأنه لم يتركه لهذا القول والله يعلم وأنتم لا تعلمون وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القريبة نزعة من الدعاة الى الحق والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها دعوة فاطمى ولا غيره وانما ينزع منهم فى بعض الاحيان الواحد فالواحد الى اقامة السنة وتغيير المنكر ويعتنى بذلك ويكثر تابعوه وأكثر ما يعتنون باصلاح السابلة لما أن أكثر فساد الاعراب فيها لما قلناه من طبيعة معاشهم فيأخذون فى تغيير المنكر بما استطاعوا الا أن الصبغة الدينية فيهم لم تستحكم لما أن توبة العرب ورجوعهم الى الدين انما يقصدون به الاقصار عن الغارة والنهب ولا يعقلون فى توبتهم واقبالهم الى مناحى الديانة غير ذلك لانها المعصية التى كانوا عليها ومنها توبتهم وتجد ذلك المنتحل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة غير متعمق فى فروع الاقتداء والاتباع وانما دينهم الاعراض عن النهب والبغى وافساد السابلة ثم الاقبال على طلب الدنيا والمعاش أقصى قصدهم وشتان بين هذا الطالب للدنيا وبين من أراد اصلاح الخلق لكلى ما يحتاجون اليه من أمر دينهم فاتفاقهما ممتنع لا تستحكم للاول صبغة فى الدين ولا يكمل له نزوع عن الباطل ويختلف حال صاحب الدعوة معهم فى استحكام دينه وولايته فى

نفسه دون تابعيه فاذا هلك انحل أمرهم وتلاشت عصبيتهم وقد وقع ذلك بافريقية لرجل من كعب من سليم يسمى قاسم بن مرة فى المائة السابعة ثم من بعده لرجل من بادية رياح كان أشد دينا من الاول وأقوم طريقة فى نفسه ومع ذلك فلم يستتب أمرهما وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يتشبهون بمثل ذلك ويلبسون فيها وينتحلون اسم السنة وليسوا عليها الا الاقل فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شئ من أمرهم وأول ابتداء هذه النزعة فى الملة ببغداد حين وقعت الفتنة بين الامين والمأمون ابنى الرشيد وقتل الامين وكان المأمون بخراسان فأبطأ عن مقدم العراق وأراد انتزاع الخلافة من بنى العباس ونقلها للعلويين فجعل ولى عهده عليا الراضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق فهاج من ذلك فتن كثيرة ببغداد واجتمع بنو العباس وكشفوا وجه النكير على المأمون وتداعوا للقيام وخلعوه وبايعوا عمه ابراهيم ابن المهدى فوقع الهرج وكثر القتل والنهب ببغداد وانطلقت أيدى الدعار بها من الشطار والحربية على أهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلأت أيديهم من نهاب الناس وباعوها علانية فى الاسواق ورفع أهلوها أمرهم الى الحكام وقد ضعف أمرهم فلم ينصفوهم فتوافر أهل الدين والصلاح وتعاقدوا على منع الفساق وكف عاديتهم وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوس ودعا الناس الى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فأجابه خلق وقاتل بهم أهل الدعارة فغلبهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل ثم قام من بعده رجل آخر يعرف بسهل بن سلامة الانصارى وعلق مصحفا فى عنقه ودعا الناس الى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فاتبعه كافة الناس من بين شريف ووضيع من بنى هاشم فمن دونهم ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من أخاف المارة ومنع الخفارة لاولئك الشطار فقال له القائم الاول وهو خالد الدريوس أنا لا أعيب على السلطان فقال له سهل لكنى أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائنا من كان وذلك سنة احدى ومائتين فجهز ابراهيم بن المهدى بعد أن بايعه بنو العباس جيشا لقتال سهل بن سلامة فغلبه

وأسره وانحل أمره سريعا وذهب ونجا بنفسه ثم اقتدى بهذا العمل بعده كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم باقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون اليه فى اقامته من العصبية ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم ثم ذكر كثيرا من الاحاديث التى جاءت فى المهدى وضعف كثيرا منها ثم قال والحق الذى يتقرر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والملك الا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية وعصبية الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد أمم آخرون وقد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش الا ما بقى بالحجاز فى مكة وينبع والمدينة من الطالبيين من حسن وحسين بن جعفر منتشرون فى تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب متفرقة فان صح ظهور هذا المهدى فلا وجه لظهور دعوته الا أن يكون منهم ويؤلف الله بين قلوبهم فى اتباعه حتى يتم له شوكة وعصبية وافية لاظهار كلمته وحمل الناس عليها وأما على غير هذا الوجه فلا يتم ذلك لما أسلفناه من البراهين الصحيحة انتهى ما أردت نقله من كلام ابن خلدون ورأيت فى كثير من الرسائل المؤلفة فى شأن المهدى أنه لا يتم أمره الا بالقيام بالشريعة الغراء وانه يكون على مثل ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون ويفيض الله على الخلق نور بركته فيتبعونه ويقتدون به فى جميع شؤنه وأفعاله وأقواله وأحواله حتى يكون حالهم كحاله ووصفهم كحال أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ووصفهم لان الناس على دين ملوكهم فاذا استقام خليفة المسلمين وصار كالخلفاء الراشدين فانهم كلهم يستقيمون واذا زهد فى الدنيا يزهدون وملاك الامر كله هو الزهد فى الدنيا وعدم التبسط فيها ومن الامثال القديمة الناس على دين ملوكهم وذكروا ان السبب فى هذا المثل ان الوليد بن عبد الملك بن مروان كان مشغوفا بتشييد البنيان فكان الناس فى زمانه ليس لهم همة إلا تشييد البنيان والقصور وفى ذلك طول الامل والغرور ثم ولى بعده أخوه سليمان بن عبد الملك بن مروان فكان مشغوفا بكثرة الاكل وتنويع الاطعمة وتكثير الألوان فكان

الناس فى زمانه يتفاخرون بالتوسعة فى تنويع المأكولات وينهمكون فى التلذذ بالشهوات وفى ذلك أعظم البليات ثم ولى بعد سليمان ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان الملحق بالخلفاء الراشدين فكانت همته فى الاشتغال بالطاعات والعدل واقامة الدين فكان الناس فى زمنه راغبين فى فعل الطاعات مستكثرين من فعل الخيرات فقالوا الناس على دين ملوكهم فالخليفة الاعظم هو القدوة لجميع المسلمين وأعظم شئ يقتدون به هو فيه فيكون به صلاحهم وانتظام أمرهم واتفاق كلمتهم والزهد فى الدنيا والتناول منها بقدر الضرورة والحاجة وترك الفضول الذى لا يحصل الا بتعب والحاجة فان حب الدنيا رأس كل خطيئة و بلية والزهد فيها أصل كل خصلة سنية ولا يكون الزهد من العامة إلا بعد زهد الخاصة فان الخاصة هم العمدة فى ذلك والمراد من الخاصة الملوك والسلاطين والأمراء والقضاة والعلماء وأولى من يطلب الزهد فى الدنيا الخليفة الاعظم الذى أقامه الله لاصلاح أمور الدنيا والدين واحياء الشريعة وقتال الكفار ودفع المفسدين قال الامام الطرطوشى فى كتابه المسمى سراج الملوك ان الخليفة اذا عدل فى بيت المال وساوى نفسه بالمسلمين فى الاخذ من بيت المال بقدر الحاجة كان المسلمون كلهم عسكرا للاسلام اهـ والحاصل انه اذا زهد فى الدنيا واقتصر على قدر الحاجة والضرورة فى جميع الاحوال يتبعه على ذلك الوزراء والامراء والقضاة والعلماء وجميع الناس من الرجال والنساء والاغنياء والفقراء فاذا حصل ذلك يسهل حينئذ اقامة الشريعة والقيام بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر وتصير همة الجميع متوجهة لاتحاد الكلمة والاجتماع على منهج الشرع المطهر فتحيا بذلك السنن التى أميتت وتزول البدع التى أذيعت وتقبل الناس على جهاد الكفار وفعل كل الطاعات فان الكفار انما تغلبوا على المسلمين بسبب رغبة المسلمين فى الدنيا واقتحامهم المعاصى لتحصيلها فلا يزيلون منكرا لان أكثر المنكرات يتوصلون بها الى تحصيلها وازالتها مخالفة لأغراضهم الذين هم بصددها فلا يمكن استقامتهم على مثل ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم

وأصحابه ومادام لم يكونوا كذلك لا يستقيم لهم أمر وقد صح عن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه انه كان كثيرا مايقول فى خطبه ومجالسه ان هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ولا يحمله الا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه فهذه العبارة نص صريح فى أنه لا يستقيم أمر المسلمين حتى يكونوا كما كان الصحابة رضى الله عنهم ومادام الخليفة الاعظم يتبسط فى الدنيا ويأخذ من بيت المال ماأراد مما زاد عن حاجته الضرورية ويتكرم فى العطاء بما شاء على من شاء ولا يراعى فى ذلك القواعد المشروعة ولا يسلك مسلك الخلفاء الراشدين فان الناس يتبعونه فلا يمكن حصول الاستقامة لهم ولا تتحد كلمتهم ولا ينتظم أمرهم ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر بل يصيرون كلهم يطلبون الدنيا ويتلذذون بالشهوات ويرتكبون لتحصيلها أنواع الخطيئات لأن الله تعالى أجرى عادته بين العباد أن يكون الناس على دين ملوكهم فهذا هو السبب فى عدم اتحاد المسلمين واتفاق كلمتهم وأما فى زمن المهدى فانه يسلك هو مسلك الخلفاء الراشدين ويزهد فى الدنيا ولا يأخذ من بيت المال إلا بقدر الضرورة والناس يكونون فى زمنه على طريقته يفعلون كما يفعل فظهر بهذا أنه اذا زهد الخليفة الاعظم فى الدنيا وعدل فى بيت المال وأخذ منه بقدر حاجته الضرورية من غير زيادة له ولخدمه وأتباعه واتخذ له من الخدم الذين يقومون بخدمته بقدر الحاجة الضرورية أيضا من غير زيادة يتبعه على ذلك كافة الوزراء والامراء والقضاة والعلماء وجميع الابرار والفجار والخليفة أمين على بيت مال المسلمين لا يتصرف فى شئ منه الا بحسب المصلحة العائدة النفع على الاسلام والمسلمين فهو مثل قيم مال اليتيم لا يتصرف إلا بالمصلحة الظاهرة فان كان له مال خاص يستعف به عن الاخذ من مال المسلمين فلا يأخذ شيأ وان لم يكن له مال يأخذ بقدر الحاجة والضرورة كما قال تعالى (ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) فاذا فعل ذلك اقتدى به الوزراء والامراء والقضاة والعلماء وكافة الخلق فتتحد قلوبهم وتجتمع كلمتهم ويقبلون على فعل الطاعات ويعرضون عن فعل السيئات

ويتركون التلذذ بالشهوات فيتم اجتماعهم على نصرة الدين ويصيرون كلهم عسكر النصرة للاسلام ويقوى عزمهم على قتال أعدائهم من القوم الكافرين وأما اذا تبسط الخليفة فى مال المسلمين وتبعه الوزراء والامراء والقضاة والعلماء فلا تطيب قلوب بقية المسلمين ببذل أموالهم وأنفسهم وأولادهم فى قتال الكافرين حيث يرون ملوكهم لم يساووهم وما كان انتصار الصحابة على القوم الكافرين وفتحهم البلاد الواسعة مع الاتحاد واتفاق الكلمة إلا بسبب مساواة أمرائهم لهم فى جميع شؤنهم وما حصل افتراق الكلمة وعدم ائتلاف القلوب الا لما استبد الملوك بالاموال وتبسطوا فيها وترفعوا على بقية المسلمين وأكثروا من المكوسات والظلم بأخذ أموالهم وصرفوها فى غير مصارفها فشق على المسلمين تميزهم عنهم وترفعهم عليهم بأموالهم التى أخذوها منهم بغير حق ولا يظن ظان أن الخلفاء الراشدين انما فتحوا الامصار وانتصروا على الكفار بكثرة الصلاة والصيام بل انما كان ذلك بزهدهم فى الدنيا وعدم تبسطهم بها وعدلهم فى بيت المال والحرص على مساواتهم للمسلمين فطابت قلوب بقية المسلمين فبذلوا أموالهم وأنفسهم وأولادهم وجاهدوا الكفار وفتحوا البلاد حتى كان الغزاة يتجهزون للغزو من أموال أنفسهم ويجهزون منها غيرهم ان قدروا على ذلك ونفوسهم طيبة بذلك وتأبى نفوسهم أن يأخذوا من بيت المال شيأ اذا كان لهم ما يفى بذلك لأنهم يرون أمراءهم مساوين لهم فى جميع تلك الشؤن واذا سلك الخليفة والامراء والعلماء هذا المسلك يرتفع عن المسلمين المكوسات والضرائب وينتفى عنهم جور الحكام لانهم انما يجورون عليهم ليتبسطوا فى أموالهم ويتلذذوا بها واذا ساوى الحكام رعاياهم وعدلوا فى بيت المال تسمح نفوس الاغنياء باعطاء الفقراء ويواسونهم وتقنع نفوس الجميع بأقل القليل فلا يبقى فى المسلمين فقير وينقاد الناس للحق وينصفون من أنفسهم فتزول المخاصمات التى كانت بينهم وتقل مرافعاتهم الى الحكام ويحصل بينهم كمال المحبة والائتلاف ويرتفع كل شقاق واختلاف واذا عدل الخليفة فى بيت المال وسلك فى ترك التبسط فى الدنيا طريق

النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كان قدوة للمسلمين ويكون له من الاجر مثل أجر من عمل بمثل عمله من المسلمين وكان سببا فى اتحاد المسلمين وائتلاف قلوبهم واتفاق كلمتهم وانتصارهم على القوم الكافرين ويكون له فى ذلك من الله الرضا والرضوان فى الدنيا وجنات النعيم وتقر بذلك عين النبي صلى الله عليه وسلم فانه بالمؤمنين رؤف رحيم ويستحيل أن يحصل لهم شيء من ذلك والخليفة لم يكن كذلك لانهم انما يفعلون مايفعل وحالهم عن ذلك لا يتحول والتبسط فى الدنيا من أعظم أسباب الفسق الموجب للهلاك قال تعالى (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) وعدم التبسط فى الدنيا هو ملاك الامر وليس على الخليفة فى سلوك هذا الطريق مشقة ولا ضيق ولا منع من ادراك الحق ولا تعويق وينال بغيته من الاكل والشرب والنكاح بغاية الراحة والتلذذ والحاصل أن استقامة الخليفة حتى يكون كالخلفاء الراشدين فى عدله فى بيت المال هو السبب الاعظم فى اجتماع كلمة المسلمين واتحادهم فى جميع الاحوال وعدم عدله فى بيت المال سبب للافتراق فى الحال والمآل ولو صام النهار وقام الليالى الطوال وبدون استقامة الخليفة وعدله فى بيت المال كالخلفاء الراشدين لا يرجى للمسلمين فلاح ولا يتم لهم اتحاد ولا نجاح (ولنذكر لك نبذة مما كان من الزهد وترك التبسط فى الدنيا مما كان صادرا من النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين لتعلم أن انتظام أمور المسلمين بدون ذلك محال واتحادهم بغير سلوكه مكابرة وجدال

﴿ خاتمة نسأل الله حسنها نذكر فيها ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من الاقتصاد وحسن السيرة ﴾

ذكر ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم من الاقتصاد فى الدنيا وما كان عليه من مكارم الاخلاق * كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحلم الناس وأشجع الناس وأعدل الناس وأعف الناس لم تمس يده قط امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم وان

فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأو الى منزله حتى يتبرأ منه الى من يحتاج اليه لا يأخذ مما آتاه الله الا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير و يضع سائر ذلك فى سبيل الله لا يسئل شيأ الا أعطاه ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى انه ربما احتاج قبل انقضاء العام ان لم يأته شيء وكان يخصف النعل و يرقع الثوب و يخدم فى مهنة أهله و يقطع اللحم معهن وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره فى وجه أحد و يجيب دعوة العبد والحر و يقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب و يكافىء عليها و يأكلها ولا يأكل الصدقة ولا يستكبر عن اجابة الأمة والمسكين يغضب لربه ولا يغضب لنفسه و ينفذ الحق وان عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو فى قلة وحاجة الى انسان واحد يزيده فى عدد من معه فأبى وقال أنا لا أنتصر بمشرك ووجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم ولا زاد على مر الحق بل وداه بمائة ناقة وان بأصحابه لحاجة الى بعير واحد يتقوون به وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال وان وجد تمرا دون خبز أكله وان وجد شواء أكله وان وجد خبز بر أو شعير أكله وان وجد حلوا أو عسلا أكله وان وجد لبنا دون خبز اكتفى به وان وجد بطيخا أو رطبا أكله لا يأكل متكئا ولا على خوان منديله باطن قدميه لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقى الله تعالى إيثارا على نفسه لا فقرا ولا بخلا يجيب الوليمة و يعود المرضى و يشهد الجنائز و يمشى وحده بين أعدائه بلا حارس أشد الناس تواضعا وأسكنهم فى غير كبر وأبلغهم فى غير تطويل وأحسنهم بشرا لا يهوله شيء من أمور الدنيا و يلبس ما وجد فمرة شملة ومرة برد حبرة يمانيا ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس وخاتمه فضة يلبسه فى خنصره الأيمن مرة والأيسر مرة يردف خلفه عبده أو غيره و يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمارا ومرة يمشى راجلا حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة يعود المرضى فى أقصى المدينة يحب الطيب و يكره الرائحة الرديئة و يجالس الفقراء و يؤاكل

المساكين ويكرم أهل الفضل فى أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم يصل
ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم لا يجفو على أحد يقبل معذرة
المعتذر اليه يمزح ولا يقول الا حقا يضحك من غير قهقهة يرى اللعب المباح فلا ينكره
يسابق أهله وترفع الاصوات عليه فيصبر وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله
من ألبانها وكان له عبيد واماء لا يرتفع عليهم فى مأكل ولا ملبس ولا يمضى له وقت
فى غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد له منه من صلاح نفسه يخرج الى بساتين أصحابه لا
يحتقر مسكينا لفقره وزمانته ولا يهاب ملكا لملكه يدعو هذا وهذا الى الله دعاء
مستويا قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أمى لا يقرأ ولا
يكتب نشأ فى بلاد الجهل والصحارى فى فقر وفى رعاية الغنم يتيما لا أب له ولا أم
فعلمه الله تعالى جميع محاسن الاخلاق والطرق الحميدة وأخبار الاولين والآخرين
وما فيه النجاة والفوز فى الآخرة والغبطة والخلاص فى الدنيا ولزوم الواجب
وترك الفضول وفقنا الله لطاعته فى أمره والتأسى به فى فعله آمين يارب العالمين
وما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما قط لكن ان أعجبه أكله وان كرهه
تركه وان عافه لم يبغضه الى غيره وكان فى بيته أشد حياء من العاتق لا يسألهم طعاما
ولا يتشهاه عليهم ان أطعموه أكل وما أعطوه قبل وما سقوه شرب وكان ربما قام
فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب وكان أكثر طعامه الماء والتمر وكان يجمع اللبن
بالتمر ويسميهما الأطيبين وكان يأكل خبز الشعير غير منخول وكان يأكل ما وجد
وكان أحب الطعام اليه ما كثرت عليه الايدى وكان اذا وضعت المائدة قال اللهم
اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة وكان يأكل مما يليه ويأكل بأصابعه
الثلاث وربما استعان بالرابعة ولم يكن يأكل بأصبعين ويقول ان ذلك أكلة
الشيطان وكان لا يأكل الحار ويقول انه غير ذى بركة وان الله لم يطعمنا نارا
فأبردوه وكان أحب الطعام اليه اللحم ويقول هو يزيد فى السمع وهو سيد
الطعام فى الدنيا والآخرة ولو سألت ربى أن يطعمنيه كل يوم لفعل وكان يأكل
الثريد باللحم والقرع وكان يحب القرع ويقول انها شجرة أخى يونس عليه

السلام قالت عائشة رضي الله عنها وكان يقول يا عائشة اذا طبختم قدرا فأكثروا فيها من الدباء فانه يشد قلب الحزين وكان يأكل لحم الطير الذي يصاد له وكان لا يتبعه ولا يصيده ويحب أن يصاد له ويؤتى به فيأكله وكان يلعق بأصابعه الصحفة ويقول آخر الطعام أكثر بركة وكان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول انه لا يدري في أي الطعام البركة واذا فرغ قال اللهم لك الحمد أطعمت فأشبعت وأسقيت فأرويت لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه وكان اذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلا جيدا ثم يمسح بفضل الماء على وجهه وكان يشرب في ثلاث دفعات وله فيها ثلاث تسميات وفي آخرها ثلاث تحميدات وكان يمص الماء مصا ولا يعب عبأ وأتي باناء فيه عسل ولبن فأبى أن يشربه وقال شربتان في شربة وادامان في اناء واحد ثم قال صلى الله عليه وسلم لا أحرمه ولكني أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غدا وأحب التواضع فان من تواضع لله رفعه الله وكان يعجبه الثياب الخضر وكان أكثر لباسه البياض وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين ويكون الازار فوق ذلك الى نصف الساق وكان قميصه مشدود الازرار وربما حل الازرار في الصلاة وغيرها وربما لبس الكساء وحده ما عليه غيره وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول انما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد وكان له ثوبان لجمعته خاصة سوى ثيابه في غير الجمعة وربما لبس الازار الواحد ليس عليه غيره ويعقد طرفيه بين كتفيه وربما أم بها الناس على الجنائز وربما صلى في بيته في الازار الواحد ملتحفا به مخالفا بين طرفيه ويكون ذلك الازار الذي جامع فيه يومئذ وكان ربما صلى بالليل في الازار ويرتدي ببعض الثوب مما يلي هدبه ويلقي البقية على بعض نسائه فيصلي كذلك ولقد كان له كساء أسود فوهبه لانسان فقالت له أم سلمة رضي الله عنها بأبي أنت وأمي ما فعل ذلك الكساء الاسود فقال كسوته فقالت ما رأيت شيأ قط كان أحسن من بياضك على سواده وقال أنس رضي الله عنه وربما رأيته يصلي بنا الظهر في شملة عاقدا بين طرفيها وكان صلى الله عليه وسلم يتختم وربما

خرج وفي خاتمه الخيط المربوط يتذكر به الشيء وكان يختم به على الكتب ويقول الخاتم على الكتاب خير من التهمة وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلي اليها وربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهته وكانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من علي رضي الله عنه فربما طلع علي فيها فيقول صلى الله عليه وسلم أتاكم علي في السحاب وكان اذا لبس ثوبا لبسه من قبل ميامنه ويقول الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في الناس واذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره وكان اذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول ما من مسلم يكسو مسلما من سمل ثيابه لا يكسوه الا لله الا كان في ضمان الله وحرزه وخيره ما واراه حيا وميتا وكان له فراش من أدم حشوه ليف طوله ذراعان أو نحوه وعرضه ذراع وشبر أو نحوه وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل تثنى طاقين تحته وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره وما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مضجعا ان فرشوا له اضطجع وان لم يفرش له اضطجع على الارض وكان لا يقوم ولا يجلس الا على ذكر الله تعالى وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعا ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه لانه كان حيث انتهى به المجلس جلس وما رؤي قط مادا رجليه بين أصحابه وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته فان أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل وما استصغاه أحد الاظن أنه أكرم الناس عليه حتى يعطي لكل من جلس اليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للجالس اليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة قال تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم اكراما لهم واستمالة لقلوبهم ويكني من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه به ويكني أيضا النساء اللاتي لهن الاولاد واللاتي لم يلدن

يبتدىء لهن الكنى ويكنى الصبيان فيسلى به قلوبهم وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا وكان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس ولم تكن ترفع فى مجلسه الاصوات وكان اذا قام من مجلسه قال سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك واستحب بعض العلماء زيادة وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم وكان اذا نزل به الأمر فوض الامر الى الله تعالى وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى فيقول اللهم أرنى الحق حقا فأتبعه وأرنى المنكر منكرا وارزقنى اجتنابه وأعذنى من أن يشتبه علىّ فأتبع هواى بغير هدى منك واجعل هواى تبعا لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسى فى عافية واهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدى من تشاء الى صراط مستقيم وكان على رضى الله عنه اذا وصف النبى صلى الله عليه وسلم قال كان أجود الناس كفا وأوسع الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله وما سئل عن شئ قط على الاسلام الا أعطاه وان رجلا أتاه فسأله فأعطاه غنما سدت ما بين جبلين فرجع الى قومه وقال أسلموا فان محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة وما سئل شيأ قط فقال لا وحمل اليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام اليها فقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ما عندى شئ ولكن ابتع علىّ فاذا جاء شئ قضيناه فقال عمر يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فقال الرجل أنفق ولا تخش من ذى العرش اقلالا فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم وعرف السرور فى وجهه ولما قفل صلى الله عليه وسلم من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه الى شجرة فخطفت رداءه فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اعطونى ردائى لو كان لى عدد هذه العضاة نعما لقسمته عليكم ثم لا تجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا صلى الله عليه وسلم وسيرته المذكور فيها محاسن صفاته صلى الله عليه وسلم طويلة وفى هذا القدر

كفايته والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر ما كان من أبي بكر الصديق رضي الله عنه من الاقتضاء في الدنيا وحسن السيرة ﴾

لما بويع أبو بكر رضي الله عنه بالخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أصبح وعلى ساعده أبراد وهو ذاهب الى السوق فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه أين تريد قال السوق قال تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين قال فمن أين أطعم عيالي قال انطلق يفرض لك أبو عبيدة أي لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لكل أمة أمين وأمين هذه الامة أبو عبيدة ففرض له قوت رجل من المهاجرين ليس بأوكسهم ولا أكيسهم وكسوة الشتاء والصيف وقال اذا أخلقت شيأ رددته وأخذت غيره وفي رواية ففرض له نصف شاة وما كساه في البطن والظهر وفي رواية أنهم قوموا ذلك بألف وخمسمائة من الدراهم وفي رواية ان عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما تذاكرا أيضا في ذلك وفرضاه له بمثل ما قاله أبو عبيدة وفي رواية ان عمر وعليا لما فرضا ذلك قال أبو بكر رضي الله عنه انما أنتما رجلان من المهاجرين لا أدري أرضي بذلك بقية المهاجرين أم لا فانطلق أبو بكر فصعد المنبر فاجتمع الناس فخطبهم وذكر لهم ذلك فقال الناس رضينا وأخرج ابن سعد أيضا عن ميمونة قال لما استخلف أبو بكر رضي الله عنه جعلوا له ألفي درهم ثم نظروا فرأوا ذلك لا يكفيه وعياله فزادوه خمسمائة فلعل الفرض الاول كان ألفا وخمسمائة ثم زادوا في ذلك حتى أوصلوه ألفين وخمسمائة درهم في كل سنة وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي بكر بن حفص قال قال أبو بكر رضي الله عنه لما احتضر لعائشة رضي الله عنها يا بنية انا ولينا أمر المسلمين فلم نأخذ لأنفسنا دينارا ولا درهما ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا وانه لم يبق عندنا من فيء المسلمين لا قليل ولا كثير الا هذا العبد الحبشي وهذا البعير الناضح وجرد هذه القطيفة فاذا مت فابعثي بهن الى عمر بن الخطاب وأخرج الطبراني عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله

عنهما قال لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه قال يا عائشة أنظرى اللقحة التى كنا نشرب من لبنها والجفنة التى كنا نصطبغ فيها والقطيفة التى كنا نلبسها فانا كنا ننتفع بذلك حين نلى أمر المسلمين فاذا مت فاردديه الى عمر فلما مات أبو بكر رضى الله عنه أرسلت به الى عمر رضى الله عنه فقال عمر رحمك الله يا أبا بكر لقد أتعبت من جاء بعدك وفى رواية فبكى عمر رضى الله عنه حتى سالت دموعه الى الارض وجعل يقول رحم الله أبا بكر لقد أتعب من جاء بعده ويكرر ذلك وأمر برفعه الى بيت المال فأراد عبد الرحمن بن عوف أن يرجعه عمر الى عيال أبى بكر فقال لعمر سبحان الله تسلب عيال أبى بكر عبدا وناضحا وسحق قطيفة ثمنها خمسة دراهم فلو أمرت بردها عليهم فقال عمر لا والذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم لا يكون هذا فى ولايتى ولا يخرج أبو بكر منه وأتقلده أنا وفى رواية أن عمر قال ورب الكعبة لا يتأثم بها أبو بكر فى حياته وأتحملها من بعد موته أى لا يأثم بردها خوفا من الوقوع فى الاثم وأتحمل اثمها بعد موته ثم قال رحم الله أبا بكر لقد كلف من بعده تعبا وفى رواية وأوصى أبو بكر أن يرد بعد وفاته جميع ما أخذه من بيت المال لنفقته وفى رواية فلما حضرته الوفاة أوصى أن تباع أرض له ويصرف ثمنها عوض ما أخذه من مال المسلمين وروى أن زوجته اشتهت حلوا فقال ليس لنا ما نشترى به فقالت أنا أستفضل من نفقتنا فى عدة أيام ما نشترى به قال افعلى ففعلت ذلك فاجتمع لها فى أيام كثيرة شئ يسير فلما عرفته ذلك ليشترى به حلوا أخذه فرده الى بيت المال وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط من نفقته بقدر ما نقصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ثمن ملك كان له رضى الله عنه قال المسعودى فى تاريخه المسمى مروج الذهب فى صفة أبى بكر رضى الله عنه كان أزهد الناس وأكثرهم تواضعا فى أخلاقه ولباسه ومطعمه ومشربه وكان لباسه فى خلافته الشملة والعباءة وقدم عليه زعماء العرب وأشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحلل والبرد المثقل بالذهب والتيجان والحبرة فلما شاهدوا عليه من اللباس والتواضع والتنسك وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان

عليهم وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ومعه ألف عبد دون ما كان معه من عشيرته وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحلى فلما شاهد من أبي بكر ما وصفنا ألقى ما كان عليه وتزيا بزيه حتى انه رؤى ذو الكلاع يوما فى سوق من أسواق المدينة على كتفيه جلد شاة فصرخت عشيرته وقالوا له فضحتنا بين المهاجرين والانصار قال أردتم أن أكون ملكا جبارا فى الجاهلية جبارا فى الاسلام لاها الله لا تكون طاعة الرب الا بالتواضع لله والزهد فى الدنيا وتواضعت الملوك ومن ورد عليه من الوفود بعد التكبر وتذللوا بعد التجبر انتهى كلام المسعودى ولما دفن أبو بكر رضى الله عنه دعا عمر رضى الله عنه الامناء ودخل بهم بيت المال منهم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ففتحوا بيت المال فلم يجدوا فيه لا دينارا ولا درهما وقيل وجدوا دينارا سقط من غرارة فترحموا عليه قال أبو صالح الغفارى كان عمر يتعهد امرأة عمياء فى المدينة بالليل فيقوم بأمرها فكان اذا جاءها وجد غيره قد سبقه اليها ففعل ما أرادت فرصده عمر فاذا هو أبو بكر كان يأتيها ويقضى أشغالها سرا وهو خليفة فقال أنت هو لعمرى ولما ولى الخلافة وارتدت العرب خرج شاهرا سيفه الى ذى القصة فجاءه على بن أبى طالب رضى الله عنه وأخذ بزمام راحلته وقال له الى أين يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول لك ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد شم سيفك لا تفجعنا بنفسك والله لئن أصبنا بك لا يكون للاسلام نظام فرجع وأمضى الجيوش مع خالد بن الوليد رضى الله عنه قال ابن الأثير وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما رعيت له وربما خرج هو بنفسه فيها وكان يحلب للحى أغنامهم فلما بويع بالخلافة قالت جارية منهم الآن لا يحلب لنا منائح دارنا فسمعها فقال بلى لعمرى لاحلبنها لكم وانى لأرجو أن لا يغير بى ما دخلت فيه فكان يحلب لهم وكان ذلك لما كان نازلا بالسنح فى عوالى المدينة عند زوجته حبيبة بنت خارجة فكان يغدو على رجليه الى المدينة وربما ركب فرسه ويأتى المدينة فيصلى بالناس فاذا صلى العشاء رجع الى السنح فمكث على ذلك بعد أن بويع بالخلافة ستة أشهر ثم تحول

الى المدينة وقال كان فى بعض الايام يغدو الى السوق فيبيع و يبتاع فرأى ذلك يشغله ثم قال ما تصلح أمور الناس مع التجارة وما يصلح الا التفرغ لهم والنظر فى شأنهم فترك التجارة وأنفق من مال المسلمين ما يصلحه وعياله يوما بيوم وما يحج به و يعتمر ثم أوصى أن تباع أرض له و يصرف ثمنها لبيت المال عوض ما أخذ من مال المسلمين وفى خلافته انفتح معدن لبنى سليم فكان يسوى فى قسمه بين السابقين الأولين والمتأخرين فى الاسلام و بين الحر والعبد والذكر والانثى فقيل له فى تقديم أهل السبق على قدر منازلهم فقال انما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه يوفيهم ذلك فى الآخرة وانما هذه الدنيا بلاغ وكان يشترى الأكسية ويفرقها فى الارامل فى الشتاء ولما أسلم رضى الله عنه كان له أربعون ألفا أنفقها فى الله مع ما كسب من التجارة وأعتق فى أول الاسلام سبعة نفر كلهم كانوا يعذبون فى الله لما أسلموا منهم بلال وعامر بن فهيرة رضى الله عنهما وكان أبو بكر رضى الله عنه أجود الصحابة رضى الله عنهم لأنه جاء بجميع ماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما أبقى لنفسه شيأ وتخلل بالعباء وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول أكيس الكيس التقوى وأحمق الحمق الفجور وأصدق الصدق الأمانة وأكذب الكذب الخيانة وكان رضى الله عنه اذا أكل طعاما فيه شبهة ثم علم به استقاءه من بطنه و يقول اللهم لا تؤاخذنى بما اشربته العروق وخالط الامعاء قال الشعرانى فى الطبقات وكان رضى الله عنه يقول إن هذا الامر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ولا يحمله إلا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه وهذا نص صريح فى أن أمر هذه الأمة لا يصلح إلا اذا كانوا على سيرة الصحابة وكان خليفتهم كالخلفاء الراشدين فيسير بهم كسيرهم وكان رضى الله عنه يقول إن العبد اذا داخله العجب بشئ من زينة الدنيا مقته الله تعالى حتى يفارق تلك الزينة وكان رضى الله عنه يقول يا معشر المسلمين استحيوا من الله تعالى فو الذى نفسى بيده انى لأظل حين أذهب الى الغائط فى الفضاء متقنعا استحياء من ربى عز وجل وكان رضى الله عنه يقول ليتنى كنت شجرة تعضد ثم تؤكل وكان رضى الله عنه يأخذ

بطرف لسانه ويقول هذا الذى أوردنى الموارد وكان رضى الله عنه اذا سقط خطام ناقته ينيخها ويأخذه فيقال له هلا أمرتنا فيقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن لا أسأل الناس شيأ وكان رضى الله عنه يقول للصحابة رضى الله عنهم قد وليت أمركم ولست بخيركم فأعينونى واذا رأيتمونى استقمت فاتبعونى واذا رأيتمونى زغت فقومونى وغلب عليه الخوف حتى كان يشم فى فمه رائحة الكبد المشوى ولما بويع أبو بكر خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم وان أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه وان أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه أيها الناس انما أنا متبع ولست بمبتدع فان أحسنت فأعينونى وان زغت فقومونى وكان رضى الله عنه لم يشرب خمرا قط لا جاهلية ولا اسلاما ولم يسجد لصنم قط ولما سمع الحسن البصرى قول أبى بكر رضى الله عنه قد وليت عليكم ولست بخير منكم قال بلى ولكن المؤمن يهضم نفسه ويروى أن أبا بكر رضى الله عنه مر على طائر واقع على شجرة فقال طوبى لك يا طائر تطير فتقع على الشجرة وتأكل من الثمر وليس عليك حساب ولا عقاب ياليتنى كنت مثلك والله لوددت أنى شجرة الى جنب طريق فمر على بعير فأخذنى فلاكنى ثم ردردنى ثم أخرجنى بعرا ولم أك بشرا وأخرج ابن السماك والحافظ السلفى وغيرهما أن أبا بكر رضى الله عنه بعد ما بويع وبعد أن بايعه على رضى الله عنه وأصحابه أقام ثلاثا يقول للناس قد أقلتكم بيعتكم هل من كاره فيقوم على رضى الله عنه فى أول الناس يقول والله لا نقيلك ولا نستقيلك قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن ذا الذى يؤخرك وقوله قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى فى الصلاة حيث قال مروا أبا بكر فليصل بالناس فقال الصحابة رضى الله عنهم أفلا نرضى لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا وفى رواية احتجب أبو بكر رضى الله عنه عن الناس ثلاثا يشرف عليهم كل يوم فيقول قد أقلتكم بيعتى فبايعوا من شئتم فيقول على بن أبى طالب رضى الله عنه لا نقيلك ولا نستقيلك قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم

فمن ذا الذي يؤخرك وأخرج الحاكم عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه قال في خطبته بعد أن بويع والله ما كنت حريصا على الامارة يوما ولا ليلة قط ولا كنت راغبا فيها ولا سألتها والله في سر ولا علانية ولكن أشفقت من الفتنة ومالي في الامارة من راحة لقد قلدت أمرا عظيما مالي به من طاقة إلا بتقوية الله تعالى وقوله أشفقت من الفتنة يعني لما رأى الناس اختلفوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فيمن يبايع فأراد المهاجرون أن يكون منهم وأراد الانصار أن يكون منهم فخشي أبو بكر رضي الله عنه أن يفتتنوا فلما طلب منه أبو عبيدة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أن يبايعه الناس بايعهم خوفا من افتتانهم وقال في خطبته أيضا أطيعوني ما أطعت الله تعالى ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم وكان أبو بكر رضي الله عنه قبل أن يبايعوه أخذ بيد أبي عبيدة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وقال للناس بايعوا أحد هذين الرجلين في ضمن كلام كثير ذكره قال عمر والله ما كرهت من كلامه كلمة غير هذه ولأن أقدم فتضرب عنقي فيما لا يقربني الى إثم أحب الي من أن أؤمر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه وقال أبو عبيدة والله لا نتولى عليك هذا الامر وأنت أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة وهي أفضل دين المسلمين أبسط يدك نبايعك فبايعه أبو عبيدة وعمر ثم بقية الناس وأخرج الحافظ أبو ذر الهروي والدارقطني وغيرهما من طرق كثيرة عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال دخلت على علي رضي الله عنه في بيته فقلت له يا خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مهلا يا أبا جحيفة ألا أخبرك بخير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر ويحك يا أبا جحيفة لا يجتمع حبي وبغض أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في قلب مؤمن وكان أبو جحيفة من أخص أصحاب علي رضي الله عنه الملازمين له وهذا الذي ذكره عن علي رضي الله عنه من تفضيل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كان يخطب به علي رضي الله عنه على منبر الكوفة زمن خلافته ورواه عن علي رضي الله عنه سبعون رجلا من أصحابه وقيل

رواه عنه نيف وثمانون رجلا من أصحابه وأخرج الامام أحمد رضى الله عنه أن أبا بكر رضى الله عنه بعد شهر من خلافته نادى فى الناس الصلاة جامعة ثم خطب فقال أيها الناس وددت أن هذا الامر كفانيه غيرى وفى رواية إنى وليت هذا الامر وأنا له كاره والله لوددت أن بعضكم كفانيه ألا وانكم إن كلفتمونى أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدا أكرمه الله بالوحى وعصمه به انما أنا بشر ولست بخير من أحدكم فراقبونى فان رأيتمونى زغت فقومونى وفى رواية فاذا رأيتمونى لاوانى أشعاركم وأبشاركم وفى رواية انما أنا متبع ولست بمبتدع فان أحسنت فاعينونى وان أنا زغت فقومونى قال الامام مالك رضى الله عنه لا يكون أحد إماما أبدا إلا على هذا الشرط (وكان عثمان بن عفان) كاتب أبى بكر رضى الله عنهما وربما كتب له أيضا زيد بن ثابت وعبد الله بن الارقم وحنظلة بن الربيع رضى الله عنهم فلما مرض أبو بكر رضى الله عنه مرضه الذى توفى فيه استخلف على الامة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأمر عثمان بن عفان رضى الله عنه أن يكتب صحيفة الاستخلاف وهذه صورتها بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجا منها وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيه حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب انى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا وانى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيرا أى لم أقصر فيه وفى رواية فانى والله ما آلوتكم من جهدى ورأى فان عدل فذلك ظنى فيه وعلمى به وان بدل فلكل امرىء ما اكتسب والخير أردت ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون والسلام عليكم ثم امر بالكتاب فختمه ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوما وأخرج ابن عساكر عن يسار بن حسن قال أشرف أبو بكر رضى الله عنه على الناس من كوة فقال أيها الناس انى قد عهدت عهدا أفترضون به وفى رواية أفترضون بمن أستخلفه عليكم فانى ما استخلفت عليكم ذا قرابة فقال الناس قد رضينا يا خليفة رسول الله صلى

الله عليه وسلم فقام على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال لا نرضى الا أن يكون عمر
ابن الخطاب قال أبو بكر فانه عمر فبايع على رضى الله عنه وبايع الناس ورضوا
به فرفع أبو بكر رضى الله عنه يده ودعا فقال اللهم انى لا أريد بذلك الا اصلاحهم
وخفت الفتنة عليهم فعملت بما أنت أعلم به واجتهدت لهم رأيى فوليت عليهم
خيرهم وأقواهم عليه وأحرصهم على مايرشدهم وقد حضرنى من أمرك
ماحضرنى فاخلفنى فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك اللهم أصلح ولايته واجعله
من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته ومما أوصاه به أبو بكر رضى الله عنه لما
استخلفه ان قال له انى قد استخلفتك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
أوصاه بتقوى الله تعالى ثم قال يا عمر ان لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار وحقا فى النهار
لا يقبله فى الليل وانه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ألم تر يا عمر انما ثقلت
موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم وحق لميزان
أن لا يوضع فيه غدا الا حق أن يكون ثقيلا ألم تر يا عمر انما خفت موازين من
خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان أن لا
يوضع فيه الا باطل أن يكون خفيفا ألم تر يا عمر انما نزلت آية الرجاء ليكون المؤمن
راغبا راهبا لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله تعالى ماليس له ولا يرهب رهبة يلقى
فيها بيده الى التهلكة ألم تر يا عمر انما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم فاذا ذكرتهم
قلت انى لارجو أن لا أكون منهم وانه انما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم
لانه تجاوز لهم عما كان من سوء فاذا ذكرتهم قلت أين عملى من أعمالهم فان
حفظت وصيتى فلا يكونن غائب أحب اليك من الموت ولا بد لك منه وان أنت
ضيعت وصيتى هذه فلا يكونن غائب أبغض اليك من الموت ولن تعجزه اللهم انى
لا أريد بذلك الا اصلاحهم وخفت الفتنة عليهم فعملت فيهم بما أنت أعلم به
واجتهدت لهم رأيى فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليه وأحرصهم على مايرشدهم
وقد حضرنى من أمرك ماحضرنى فاخلفنى فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك
اللهم اصلح ولايته واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته وأخرج ابن

وعدوا الحاكم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال أفرس الناس ثلاثة أبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب وصاحبة موسى عليه السلام حين قالت يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين والعزيز حين تفرس فى يوسف فقال لامرأته أكرمى مثواه قال الزهرى استخلف أبو بكر عمر رضى الله عنهما فقام بالامر أتم قيام وكثرت الفتوحات فى أيامه كثرة عظيمة لم يقع نظيرها فى أيام خليفة بعده ففتح الله فى أيامه الشام ومصر والروم والاسكندرية والعراق وفارس وقد أشار الى ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت كأنى أنزع بدلو على قليب نزعت منها ما شاء الله ثم أخذها أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين وفى نزعه ضعف والله يغفر له ثم أخذها عمر بن الخطاب فاستحالت غربا فلم أر عبقريا يفرى فريه حتى ضرب الناس بعطن قال النووى فى شرح مسلم ففى هذا الحديث اشارة الى خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما والى كثرة الفتوحات وظهور الاسلام فى خلافة عمر رضى الله عنه وفى قوله فى أبى بكر رضى الله عنه فنزع ذنوبا أو ذنوبين الى نزعه ضعف اشارة الى قصر مدة خلافته وقوله والله يغفر له ليس فيه اشارة الى نقص أو تقصير أو ذنب وقع منه وانما هى كلمة تقولها العرب عند الاعتناء بالامر وقوله ثم أخذها عمر بن الخطاب فاستحالت غربا أى دلوا عظيما الى آخر الحديث اشارة الى طول مدة خلافته والى كثرة انتفاع الناس بها واتساع دائرة الاسلام بكثرة الفتوحات وتمصير الامصار وتدوين الدواوين وقوله عبقريا أى رجلا قويا شديدا من الناس يفرى فريه أى يعمل عمله حتى ضرب الناس بعطن أى رووا وضربوا بعطن والعطن ما تناخ به الابل اذا رويت ومن أعظم فضائل أبى بكر رضى الله عنه قتال العرب الذين ارتدوا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم والذين منعوا الزكاة وقال والله لاجاهدنهم ما استمسك السيف فى يدى وان منعونى عقالا أو عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عمر رضى الله عنه وكيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله تعالى فقال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال وقد قال إلا بحقها قال عمر فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق قال سيدي محيي الدين العربي في المسامرة لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب أبو بكر رضي الله عنه الزكاة كفر بها قوم وقالوا قد كنا ندفع أموالنا إلى محمد فما بال ابن أبي قحافة يسألنا والله لا نعطيه منها شيأ أبداً فاستشار أبو بكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجمع القوم على التمسك بدينهم في أنفسهم وأن يتركوا الناس مع ما اختاروه لأنفسهم وتخيلوا أنهم لا يقدرون على من ارتد من المسلمين فقال أبو بكر رضي الله عنه لو لم أجد أحداً يوازرني لجاهدتهم بنفسي وحدي حتى أموت أو يرجعوا إلى الإسلام ولو منعوني عقالاً مما كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لجاهدتهم حتى ألحق بالله تعالى فلم يزل أبو بكر رضي الله عنه يجاهد بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عاد الناس جميعاً إلى الإسلام ودخلوا فيه كما خرجوا منه وبعث خالد بن الوليد إلى بني أسد وغطفان فقتل من قتل وأسر من أسر ورجع الباقون إلى الإسلام ثم بعث خالداً أيضاً إلى اليمامة لقتال مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة ودام الحصار أياماً ثم قتل مسيلمة الكذاب لعنه الله قتله وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه ❊ وفي السنة الثانية من خلافته بعث العلاء بن الحضرمي إلى البحرين وكانوا قد ارتدوا فقاتلهم ونصر الله المسلمين عليهم وقتل من قتل من المرتدين ورجع من بقي منهم إلى الإسلام وبعث عكرمة بن أبي جهل إلى عمان وكانوا قد ارتدوا أيضاً وبعث المهاجر بن أبي أمية إلى طائفة من المرتدين وزياد بن لبيد الأنصاري إلى طائفة آخرين وما توفي أبو بكر رضي الله عنه حتى رجع العرب كلهم إلى الإسلام وابتدأ التجهيز لفتوح الشام وقتال الروم حتى إن فتح الشام كان ليلة وفاة أبي بكر رضي الله عنه ومن ثم أخرج البيهقي وابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه

قال والله الذى لا إله الا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما عبد الله ثم قال الثانية والثالثة فقيل له مه يا أبا هريرة فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جهز جيش أسامة ابن زيد رضى الله عنه ليسير فى سبعمائة الى الشام وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يتوجه ذلك الجيش وارتدت العرب حول المدينة واجتمع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا لابى بكر رضى الله عنه رد هذا الجيش كيف توجه هؤلاء الى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة فقال والله الذى لا إله الا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ما رددت جيشا وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حللت لواء عقده فوجه أسامة فجعل أسامة لا يمر بقبيلة يريدون الارتداد الا قالوا لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم فلقوهم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين فثبتوا على الاسلام واستدل العلماء على عظم علم أبى بكر رضى الله عنه بقوله والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة وبقوله والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه وقال العلماء أيضا ان أبا بكر رضى الله عنه كان أعلم الصحابة رضى الله عنهم لانهم كلهم وقفوا عن فهم الحكم فى المسئلة الا هو ثم ظهر لهم بمباحثته أن قوله هو الصواب فرجعوا اليه واستدلوا بذلك أيضا على عظم شجاعته رضى الله عنه بتصميمه على قتالهم من قوله لاجاهدنهم ما استمسك السيف فى يدى ومما يدل على عظم شجاعته ثباته يوم وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وتثبيته لجميع الصحابة ولم يثبت ذلك اليوم أحد غيره وما ثبتوا بعد ذلك الا بتثبيته والقصة مشهورة فلا حاجة لذكرها وأخرج ابن عساكر عن على رضى الله عنه يوم وفاة أبى بكر رضى الله عنه دخل عليه وهو مسجى فقال ما أحب أن ألقى الله بصحيفة أحب الى من هذا المسجى وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم من طرق كثيرة لو وزن ايمان أبى بكر بايمان الامة لرجحهم وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه مخبرا عن نفسه انه ما سابق أبا بكر الى خير الا سبقه أبو بكر رضى الله عنهما وأخرج أبو يعلى عن على رضى الله عنه قال

أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكران أبا بكر أول من جمع بين اللوحين لان أبا بكر رضي الله عنه لما كان قتال أهل اليمامة وقتل كثير من الصحابة قال أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن فأمر زيد بن ثابت بجمع القرآن من الرقاع والاكتاف والكتب وصدور الرجال فجمع في صحف الى أن كان زمن خلافة عثمان رضي الله عنه فجمع في المصاحف فاجمعه عثمان الامن الصحف التي جمعها أبو بكر رضي الله عنهما وكان رضي الله عنه جعل ولاية بيت المال في زمن خلافته لامين هذه الامة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وأخرج البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا يعني ثلاث حفنات فلما جاء مال البحرين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر رضي الله عنه من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أو دين فليأتنا فجئت فأخبرته فقال خذ فأخذت مقدارا فوجدت عدد تلك الدراهم التي أخذتها خمسمائة فأعطاني ألفا وخمسمائة وفاء بقول النبي صلى الله عليه وسلم هكذا وهكذا وهكذا ولما مرض أبو بكر رضي الله عنه مرض الوفاة قال له الناس ألا ندعوا لك طبيبا قال قد أتاني وقال لي أنا فاعل ما أريد فعلموا مراده وسكتوا عنه وكان سبب مرضه انه سمه يهودي في أرز وقيل في خزيرة أهديت لابي بكر رضي الله عنه فأكل هو والحارث بن كلدة طبيب العرب فكف الحارث وقال لابي بكر ارفع يدك ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلنا طعاما مسموما سم سنة فماتا بعد سنة في يوم واحد وفي رواية والله ان فيها سم سنة وأنا وأنت نموت في يوم واحد فرفع يده فلم يزالا عليلين حتى ماتا في يوم واحد وقيل سبب موته سم الحية التي لدغته في الغار تحرك عليه أثره قبل وفاته ولامانع من تعدد هذه الاسباب وأخرج الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال كان سبب موت أبي بكر رضي الله عنه وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كمدا وحزنا فمازال جسده ينقص حتى مات وأخرج الحاكم عن الشعبي قال ماذا يتوقع

من هذه الدنيا الدنية وقدسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسم أبو بكر رضى الله عنه وكان ابتداء مرض أبى بكر الذى منعه من الخروج أنه اغتسل يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة وكان يوما باردا فحم خمسة عشر يوما لا يخرج وتوفى ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة وله من العمر ثلاث وستون سنة ومدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر وعشر ليال وعن عائشة رضى الله عنها قالت لما ثقل أبو بكر رضى الله عنه قعدت عند رأسه فتمثلت بقول القائل

لعمرك ما يغنى التراث عن الفتى * اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فقال لا تقولى هذا ولكن قولى وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ثم قال انظروا ثوبى هذين فاغسلوهما فكفنونى فيهما فان الحى أحوج الى الجديد من الميت وصلى عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ودفن ليلا الى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجرة عائشة رضى الله عنها وكان آخر ما تكلم به توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ولما توفى أبو بكر رضى الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء ودهش القوم كيوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المحب الطبرى فى الرياض النضرة أخرج الامام أبو بكر محمد بن عبد الله الخوارزمى وابن السماك عن أسد بن صفوان وكان قد أدرك النبى صلى الله عليه وسلم قال لما قبض أبو بكر رضى الله عنه ارتجت المدينة عليه بالبكاء كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول انا لله وانا اليه راجعون انقطعت خلافة النبوة حتى وقف على باب البيت الذى فيه أبو بكر رضى الله عنه وهو مسجى فقال رحمك الله يا أبا بكر كنت إلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنسه ومستراحه وثقته وموضع سره ومشاورته كنت أول القوم اسلاما وأخلصهم إيمانا وأشدهم يقينا وأخوفهم لله وأعظمهم غناء فى دين الله وأحوطهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيمنهم على أصحابه وأحسنهم صحبة وأكثرهم مناقب وأفضلهم سوابق وأرفعهم درجة وأقربهم وسيلة وأشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم

هديا وسمتا ورحمة وفضلا وأشرفهم منزلة وأكرمهم عليه وأشفقهم عليه فجزاك الله
عن الاسلام وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا كنت عنده بمنزلة السمع
والبصر صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كذبه الناس فسماك الله في
تنزيله صديقا فقال تعالى (والذي جاء بالصدق وصدق به) الذي جاء بالصدق محمد
صلى الله عليه وسلم والذي صدق به أبو بكر رضي الله عنه وأخرج البزار وابن
عساكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في تفسير قوله تعالى الذي جاء
بالصدق هو محمد صلى الله عليه وسلم والذي صدق به أبو بكر رضي الله عنه وجاء مثل
ذلك في آيات كثيرة من آيات القرآن العزيز فمن ذلك ما أخرجه الحاكم والطبراني
ان أبا بكر رضي الله عنه أعتق سبعة كلهم يعذب في الله تعالى فأنزل الله تعالى
وسيجنبها الأتقى الذي الى آخر السورة قال ابن الجوزي أجمعوا على أنها نزلت في
أبي بكر رضي الله عنه وفيها التصريح بأنه أتقى من سائر الامة والأتقى هو الأكرم
عند الله تعالى لقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم والأكرم عند الله تعالى
هو الافضل فدلت الآية على أنه أفضل هذه الأمة وجاءت أحاديث كثيرة صريحة
بأن سورة والليل اذا يغشى نزلت في أبي بكر رضي الله عنه وفي أمية بن خلف
وذلك أن أمية بن خلف كان يعذب بلالا رضي الله عنه لما أسلم فاشتراه أبو بكر
رضي الله عنه وأعتقه فأنزل الله السورة فقوله تعالى ان سعيكم لشتى أول داخل
فيه أبو بكر رضي الله عنه وأمية بن خلف أي ان سعي أبي بكر وأمية مفترق افتراقا
عظيما فشتان ما بينهما ثم شرح ذلك وبينه بالآيات التي بعد هذه الآية فقوله فأما من
أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى هو أبو بكر رضي الله عنه
وقوله تعالى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى هو أمية بن
خلف وكذا قوله تعالى وما يغني عنه ماله اذا تردى وقوله تعالى لا يصلاها الا الاشقى
الذي كذب وتولى كل هذه الآيات في أمية بن خلف وختمت السورة بقوله تعالى
وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء
وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى وهو أبو بكر رضي الله عنه وتأمل قوله تعالى

وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى فانها تدل على كمال اخلاص أبى بكر رضى الله عنه ولهذا عقب ذلك بقوله ولسوف يرضى ولاشئ أعلى من هذا الوعد من الرب الكريم ومن الآيات قوله تعالى ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها أجمع المسلمون على أن المراد بالصاحب هنا أبو بكر رضى الله عنه ومن ثم قالوا من أنكر صحبته فقد كفر بالاجماع ومن الآيات الدالة على صحة خلافته قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيأ قال ابن كثير هذه الآية منطبقة على خلافة الصديق رضى الله عنه وقد أخرج ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن عبد الحميد المهرى أنه قال ان خلافة أبى بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما فى كتاب الله تعالى فى قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض الآية ومن الآيات الدالة على خلافته رضى الله عنه قوله تعالى قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما فقد أخرج ابن أبى حاتم وابن قتيبة ان هذه الآية حجة على خلافة الصديق رضى الله عنه والقوم المذكورون فى الآية هم بنو حنيفة الذين ارتدوا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم واتبعوا مسيلمة الكذاب وأبو بكر هو الذى دعا المخلفين من الاعراب الى قتالهم قال الشيخ أبو الحسن الاشعرى امام أهل السنة سمعت أبا العباس بن سريج يقول خلافة الصديق رضى الله عنه فى القرآن فى هذه الآية قال لان أهل العلم أجمعوا على أنه لم يكن بعد نزولها قتال دعوا اليه الا والداعى اليه أبو بكر رضى الله عنه وأول ما دعا اليه قتال أهل الردة ومانعى الزكاة فدل على صحة خلافة أبى بكر رضى الله عنه وافتراض طاعته لان الله تعالى يقول فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وأخبر أن المتولى عن ذلك يعذب بقوله وان

تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما قال ابن كثير ومن فسر القوم بأنهم فارس والروم فأبو بكر الصديق رضى الله عنه هو الذى دعا الى قتالهم وهو أول من جهز الجيوش الى قتالهم وتمام أمرهم كان على يد عمر وعثمان رضى الله عنهما فهما فرعان تفرعا من خلافة أبى بكر رضى الله عنه * فان قلت يمكن أن يراد بالداعى فى الآية النبى صلى الله عليه وسلم * قلت لا يمكن ذلك مع قوله تعالى قبل ذلك لن تتبعونا ومن ثم لم يدع أولئك الذين تخلفوا الى محاربة فى حياته صلى الله عليه وسلم وأما على رضى الله عنه فلم يتفق له فى زمن خلافته قتال الكفار لطلب الاسلام بل كان قتاله لتحقيق أمر الامامة ورعاية حقوقها فتعين أن ذلك الداعى الذى يكون الاجر الحسن باتباعه والعذاب الأليم بعصيانه أحد الخلفاء الثلاثة وأبو بكر هو أولهم وأصلهم وأساسهم فيلزم صحة خلافته على كل تقدير والآيات الدالة على فضله وصحة خلافته كثيرة لا حاجة الى ذكرها فمن راجع تفاسير القرآن وكتب السنة وقف على ذلك وكان أبو بكر رضى الله عنه كثيرا ما يقول فى خطبه أين القضاة الحسنة وجوههم المعجبون بشأنهم أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان أين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا فى ظلمات القبور الوحا الوحا النجا النجا ولما أراد أبو بكر رضى الله عنه استنفار الناس لقتال أهل الردة ثم لقتال الروم كتب الى أهل مكة بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أبى بكر الى أهل مكة وسائر المؤمنين فانى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أما بعد فانى استنفرت الناس الى الجهاد وقد كتبت اليكم والى المسلمين أن تسرعوا الى ما أمركم ربكم تبارك وتعالى انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون وهذه الآية أنتم أحق بها وأهلها وأول من صدق بها وقال بحكمها من ينصر دين الله فالله ناصره ومن بخل استغنى الله عنه والله غنى حميد فسارعوا الى جنة عالية قطوفها دانية أعدها الله للمجاهدين والانصار ومن اتبع سبيلهم من الأولياء الاخيار وحسبنا الله ونعم الوكيل وختم الكتاب

ودفعه الى عبد الله بن حذافة السهمى رضى الله عنه فأخذه وسار حتى وصل مكة وصرخ فى أهلها فاجتمعوا اليه فدفع اليهم الكتاب فقرؤه فلما سمعوا قام سهيل أبو عمرو والحارث بن هشام وعكرمة بن أبى جهل وقالوا أجبنا داعى الله وصدقنا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقال عكرمة بن أبى جهل الى متى نبسط لأنفسنا وقد سبقنا القوم الى المواطن وقد فاز من فاز بالصدق وان كنا تأخرنا عن السبق فاللحاق اللحاق والسباق السباق فلعلنا نكتب فى الحال ثم خرج عكرمة ابن أبى جهل فى بنى مخزوم وخرج عمه الحارث بن هشام معهم وتلاحق أهل مكة حتى بلغوا خمسمائة رجل وكتب أبو بكر بمثل ذلك لأهل الطائف فخرجوا فى أربعمائة رجل ثم كتب لاهل اليمن بعد فراغه من قتال المرتدين وصورة كتابه اليهم بسم الله الرحمن الرحيم من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى من قرئ عليه كتابى من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن سلام عليكم أما بعد فانى أحمد اليكم الله الذى لا إله إلا هو فان الله كتب على المؤمنين الجهاد وأمرهم أن ينفروا خفافا وثقالا قال الله تعالى انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله فالجهاد فريضة مفروضة وثوابه عند الله عظيم وقد استنفرنا من قبلنا من المسلمين الى جهاد الروم بالشام وقد سارعوا الى ذلك وشكروا وخرجوا وحسنت فى ذلك نيتهم وعظمت فى الخير حسنتهم فسارعوا عباد الله الى فريضة ربكم والى احدى الحسنيين اما الشهادة واما الفتح والغنيمة فان الله لم يرض من عباده بالقول دون الفعل ولا يترك أهل عداوته حتى يدينوا بالحق و يقروا بحكم الكتاب أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون حفظ الله لكم دينكم وهدى قلوبكم وزكى أعمالكم ورزقكم أجر المجاهدين والصابرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته و بعث بهذا الكتاب مع أنس بن مالك رضى الله عنه قال أنس فأتيت أهل اليمن جناحا جناحا وقبيلة قبيلة أقرأ عليهم كتاب أبى بكر رضى الله عنه فاذا فرغت من قراءته قلت الحمد لله وأشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فانى رسول المسلمين اليكم ألا وانى قد تركتهم معسكرين

لم يمنعهم من الشخوص الى عدوهم الا انتظاركم فعجلوا الى اخوانكم رحمة الله عليكم أيها المسلمون قال وكان كل من قرئ عليه ذلك الكتاب وسمع منى هذا القول يحسن الرد على ويقول نحن سائرون وكأن قد فعلنا حتى انتهيت الى ذى الكلاع ملك حمير فلما قرأت عليه الكتاب وقلت هذا المقال دعا بسلاحه وفرسه ونهض فى قومه من ساعته ولم يؤخر ذلك وأمر بالعسكر فما برحنا حتى عسكر وعسكر معه جموع كثيرة من أهل اليمن وسارعوا فلما اجتمعوا اليه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال أيها الناس ان من رحمة الله اياكم ونعمته عليكم ان بعث فيكم رسولا وأنزل عليكم كتابا فأحسن عنه البلاغ فعلمكم ما يرشدكم ونهاكم عما يفسدكم وعلمكم مالم تكونوا تعلمون ورغبكم فى الخير مالم تكونوا ترغبون ثم قد دعاكم أخوانكم الصالحون الى جهاد المشركين واكتساب الأجر العظيم فلينفر من أراد معى النفر الساعة فنفر بعدد كثير من أهل اليمن وقدموا على أبى بكر رضى الله عنه قال فرجعنا نحن فسبقناه بأيام فوجدنا أبا بكر رضى الله عنه بالمدينة ووجدنا ذلك العسكر على حاله ووجدنا أباعبيدة يصلى بأهل ذلك العسكر فقدمت حمير على أبى بكر رضى الله عنه ومعها نساؤها وأولادها ففرح أبو بكر رضى الله عنه بقدمهم ولما رآهم أبو بكر رضى الله عنه قال عباد الله ألم نكن نتحدث فنقول اذا أقبلت حمير تحمل أولادها ومعها نساؤها نصر الله المسلمين وخذل المشركين فأبشروا أيها المسلمون فقد جاءكم النصر من الله تعالى قال وجاء قيس بن هبيرة بن مكسوح المرادى وكان من فرسان العرب فى الجاهلية ومن أشرافهم وأشدائهم ومعه جمع كثير من قومه حتى أتى أبا بكر رضى الله عنه فسلم ثم جلس اليه فقال ما تنتظر ببعثة هذه الجنود فقال أبو بكر رضى الله عنه ما كنا ننتظر الا قدومكم قال فقد قدمنا فابعث الناس الاول فالاول فان هذه البلدة ليست ببلدة خف ولا كراع قال فخرج أبو بكر رضى الله عنه يمشى فدعا يزيد بن أبى سفيان فعقد له ودعا معه بن الاسود بن عامر من بنى عامر بن لؤى وأوصاهم وبعثهم وقد كان أبو بكر رضى الله عنه قبل بعث

الكتب حدث نفسه بغزو الروم وأسر ذلك فى نفسه ولم يطلع عليه أحدا فبينما هو فى ذلك اذ جاءه شرحبيل بن حسنة رضى الله عنه فقال يا خليفة رسول الله أتحدث نفسك أن تبعث الى الشام جندا فقال نعم قد حدثت نفسى بذلك وما اطلعت عليه أحدا وما سألتنى عنه الا لشىء عندك فقال أجل انى رأيت فيما يرى النائم كانك فى ناس من المسلمين فوق جبل فأقبلت تمشى معهم حتى صعدت على قبة عالية على الجبل فأشرفت على أناس ومعك أصحابك أولئك ثم هبطت من تلك القبة الى أرض سهلة دمثة فيها القرى والعيون والزروع والحصون فقلت يا معشر المسلمين شنوا الغارات على المشركين فانى ضامن لكم الفتح والغنيمة وأنا فيهم ومعى راية فتوجهت الى قرية فدخلتها فسألونى الامان فأمنتهم ثم جئت فوجدتك قد انتهيت الى حصن عظيم ففتح لك وألقوا اليك السلم وجعل لك عرشا فجلست عليه ثم قال لك قائل فاسئل يفتح الله لك وتنصر فاشكر ربك واعمل بطاعته ثم قرأ عليك اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا قال ثم انتبهت فدمعت عينا أبى بكر رضى الله عنه ثم قال أما الجبل الذى رأيتنا نمشى عليه حتى صعدنا منه الى القبة العالية فأشرفنا على الناس فانا نكابد من أمر هذا الجند مشقة ويكابدون ثم نعلو بعد ويعلو أمرنا وان نزولنا من القبة العالية الى الارض السهلة الدمثة والزروع والحصون والعيون والقرى فانا نزلنا الى أمر أسهل مما كنا فيه من الخصب والمعاش وأما قولى شنوا عليهم الغارة فانى ضامن لكم بالفتح والغنيمة فان ذلك توجيهى للمسلمين الى بلاد المشركين وأمرى اياهم بالجهاد فى سبيل الله وأما الراية التى كانت معك فتوجهت بها الى قرية من قراهم فدخلتها فاستأمنوك فأمنتهم فانك تكون أحد أمراء المسلمين ويفتح الله على يديك وأما الحصن الذى فتح الله على يدى فهو الفتح الذى يفتح الله على يدى وأما العرش الذى رأيتنى جالسا عليه فان الله يرفعنى ويضع المشركين وأما أمرى بطاعة ربى وقراءة القارئ على هذه السورة فانه نعى الى نفسى فان هذه السورة حين أنزلت علم

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نفسه نعيت اليه ثم سالت عينا أبي بكر رضي الله عنه فقال لآمرن بالمعروف ولانهين عن المنكر ولاجاهدن من ترك أمر الله عز وجل ولاجهزن الجيوش الى العادلين بالله في مشارق الارض ومغاربها حتى يقولوا الله أحد ويؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون فاذا توفاني ربي لم يجدني مقصرا ولا في ثواب المجاهدين زاهدا ثم انه أمر الامراء وبعث الى الشام قال عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه لما أراد أبو بكر رضي الله عنه تجهيز الاجناد الى الشام دعا بعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد ووجوه المهاجرين والانصار من أهل بدر وغيرهم فدخلوا عليه وأنا فيهم فقال إن الله تبارك وتعالى لا تحصى نعمه ولا تبلغ الأعمال جزاءها فلله الحمد كثيرا على ما اصطنع عندكم فجمع كلمتكم وأصلح ذات بينكم وهداكم الى الاسلام ونفى عنكم الشيطان فليس يطمع أن تشركوا بالله ولا تتخذوا إلها غيره فالعرب بنو أم وأب وقد أردت أن أبعثهم الى الروم بالشام فمن هلك منهم هلك شهيدا وما عند الله خير للابرار ومن عاش منهم عاش مدافعا عن الدين مستوجبا على الله عز وجل ثواب المجاهدين هذا رأيي الذي رأيت فأشار امرؤ على بمبلغ رأيه فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال الحمد لله الذي يخص بالخير من شاء من خلقه والله ما استبقنا الى شيء من الخير قط الا سبقتنا اليه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء قد والله اني أردت لقاءك لهذا الأمر والرأي الذي ذكرت فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن فقد أصبت وأصاب الله بك سبل الرشاد وابعث اليهم الخيل في أثر الخيل وابعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود فان الله عز وجل ناصر دينه ومعز الاسلام وأهله ومنجز ما وعد رسوله صلى الله عليه وسلم ثم ان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قام فقال يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وانها الروم وبنو الاصفر حد حديد وركن شديد والله ما أرى أن تقحم الخيل عليهم اقحاما ولكن تبعث الخيل

تغير عليهم فى أدانى أراضيهم ثم تبعثها فتغير ثم ترجع اليك فاذا فعلوا ذلك أضروا بعدوهم وغنموا من أدانى أراضيهم فقووا بذلك على قتالهم ثم تبعث الى أقاصى أهل اليمن والى أقاصى ربيعة ومضر فتجمعهم اليك جمعا فان شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك وان شئت بعثت على غزوهم غيرك ثم جلس وسكت وسكت الناس فقال لهم أبو بكر رضى الله عنه ماترون رحمكم الله فقام عثمان بن عفان رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال انى أرى أنك لأهل هذا الدين مشفق واذا رأيت رأيا لعامتهم رشدا وصلاحا وخيرا فاعزم على امضائه فانك غير ظنين ولا متهم فقال طلحة والزبير وسعد وأبو عبيدة وجميع من حضر ذلك المجلس من المهاجرين والانصار صدق عثمان فيما قال ما رأيت من أمر فامضه فانا سامعون لك مطيعون لانخالف أمرك ولا نتهم رأيك ولانتخلف عن دعوتك واجابتك فذكروا هذا وشبهه وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه فى القوم لايتكلم فقال له أبو بكر رضى الله عنه ماترى يا أبا الحسن قال رأيى أنك مبارك ميمون الناصية وانك ان سرت اليهم بنفسك أو بعثت اليهم نصرت ان شاء الله تعالى فقال له أبو بكر رضى الله عنه بشرك الله بخير من أين علمت هذا قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لايزال هذا الدين ظاهرا على من ناواه حتى يقوم الدين وأهله ظاهرين فقال أبو بكر رضى الله عنه سبحان الله ما أحسن هذا الحديث لقد سررتنى سرك الله فى الدنيا والآخرة ثم ان أبا بكر رضى الله عنه قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه وذكره بما هو أهله وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وقال أيها الناس ان الله قد أنعم عليكم بالاسلام وأعزكم بالجهاد وفضلكم بهذا الدين على أهل كل دين فتجهزوا عباد الله الى غزو بلاد الروم بالشام فانى مؤمر عليكم أمراء وعاقد لهم عليكم فأطيعوا أمر ربكم ولاتخالفوا أمراءكم ولتحسن نيتكم وسيرتكم وطعمتكم فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون قال فسكت الناس فوالله ما أجابه أحد هيبة لغزو الروم لما يعلمون من كثرة عدوهم وشدة شوكتهم فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال يامعشر

المسلمين مالكم لا تجيبون خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دعاكم لما يحييكم فقام خالد بن سعيد بن العاص رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال الحمد لله الذى لا إله الا هو بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فان الله منجز وعده ومعز دينه ومهلك عدوه ثم أقبل على أبى بكر رضى الله عنه فقال إنا غير مخالفين لك ولا متخلفين عنك وأنت الوالى الناصح الشفيق ننفر اذا استنفرتنا ونجيبك اذا دعوتنا ففرح أبو بكر رضى الله عنه بمقالته وقال له جزاك الله من أخ خيرا فقد أسلمت مرتضيا وهاجرت محتسبا وهربت بدينك من الكفار لكى يطاع الله ورسوله وتكون كلمة الله هى العليا فسر رحمك الله فتجهز خالد بن سعيد بأحسن الجهاز ثم أتى أبا بكر وعنده من المهاجرين والأنصار أجمع ما كانوا فسلم على أبى بكر رضى الله عنه ثم قال والله لأن أخر من رأس حالق ويخطفنى الطير فى الهواء بين السماء والارض أحب الى من أن أبطئ عنك وأخالف أمرك والله ما أنا فى الدنيا راغب ولا على البقاء فيها بحريص وانى أشهدكم أنى واخوانى وفتيانى ومن أطاعنى من أهلى حبيس فى سبيل الله نقاتل المشركين أبدا حتى يهلكهم الله أو نموت عن آخرنا فقال أبو بكر خيرا ودعا له المسلمون بخير وقال له أبو بكر انى لأرجو أن تكون من نصحاء الله فى عباده باقامة كتابه واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم فخرج هو واخوانه وغلمانه ومن تبعه من أهل بيته وكان أول من عسكر فأمر أبو بكر بلالا رضى الله عنه فنادى فى الناس أن انفروا الى عدوكم بالشام وأرسل الى يزيد بن أبى سفيان والى أبى عبيدة ابن الجراح ومعاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة فقال إنى باعثكم فى هذا الوجه ومؤمركم على هذه الجنود وأنا موجه مع كل رجل من الرجال ماقدرت عليه فاذا قدمتم البلد ولقيتم العدو واجتمعتم على قتالهم فأميركم أبو عبيدة بن الجراح وان لم يلقكم أبو عبيدة ولقيكم حرب فأميركم يزيد بن أبى سفيان فانطلقوا فتجهزوا فانطلق القوم يتجهزون وكان خالد بن سعيد من عمال رسول الله صلى

الله عليه وسلم فكره الامارة واستعفى أبا بكر رضى الله عنه فأعفاه ثم ان الناس خرجوا الى معسكرهم من عشرة وعشرين وثلاثين وأربعين وخمسين ومائة فى كل يوم حتى اجتمع الناس وكثروا فخرج أبو بكر رضى الله عنه ذات يوم ومعه رجال من أصحابه كثير حتى انتهى الى عسكرهم فرأى عدة حسنة ولم يرض كثرتها للروم فقال لأصحابه ماذا ترون فى هؤلاء أترون أن نشخصهم الى الشام فى هذه العدة فقال له عمر رضى الله عنه ما أرضى هذه العدة لبنى الاصفر فأقبل أبو بكر رضى الله عنه على أصحابه فقال لهم ماذا ترون فقالوا نحن نرى أيضا ما رأى عمر رضى الله عنه فقال أبو بكر رضى الله عنه أفلا نكتب كتابا الى أهل اليمن ندعوهم الى الجهاد ونرغبهم فى ثوابه فرأى ذلك جميع الصحابة رضى الله عنهم فقالوا له نعم ما رأيت فكتب اليهم فأجابوه وأقبلوا كما تقدم بيان ذلك مفصلا وتجهزوا الى الشام فكان النصر والفتوح وكان أول جيش بعثه أبو بكر رضى الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم جيش أسامة وكان بعض الصحابة استصغروا أسامة ابن زيد أميرا الجيش وقالوا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه امض الى أبى بكر وأبلغه عنا واطلب منه أن يولى أمرنا أقدم سنا من أسامة فلما أبلغه عمر ذلك وثب أبو بكر رضى الله عنه وكان جالسا وأخذ بلحية عمر رضى الله عنه وقال ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أعزله ثم خرج أبو بكر رضى الله عنه حتى أتى ذلك الجيش وأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب فقال له أسامة يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن فقال أبو بكر رضى الله عنه والله لا نزلت ولا أركب وما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله فان للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة درجة ترفع له وسبعمائة سيئة تمحى عنه فلما أراد أن يرجع أوصى أسامة ومن معه فقال لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوا ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لأكله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم

له وسوف تقدمون على قوم من حزب الشيطان وعبدة الصلبان فحلقوا أوساط رؤسهم حتى كأنها أفاحيص القطا وفى رواية وتركوا حولها مثل العصائب فاعلوهم بسيوفكم حتى يرجعوا الى الاسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون استودعكم الله اندفعوا باسم الله وفعل مع يزيد بن أبى سفيان عند موادعته مثل ما فعل مع أسامة وأوصاه بمثل ما أوصاه وزاد بعضهم فى وصيته ليزيد قوله اذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على أصحابك فى سيرك ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك وشاورهم فى الامر واستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور فانه لا أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم واذا لقيتم القوم فلا تولوهم الادبار واذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدا ولا شيخا ولا امرأة ولا طفلا ولا تعقروا بهيمة الا بهيمة المأكول ولا تغدروا اذا عاهدتم ولا تنقضوا اذا صالحتم وقال فى وصيته لخالد بن الوليد رضى الله عنه لما خرج لقتال أهل الردة سر على بركة الله فاذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا عن كله فانى لا آمن عليك الجملة واستظهر بالزاد وسر بالادلاء ولا تقاتل بمجروح فان بعضه ليس منه واحترس من البيات فان فى العرب غرة وأقلل من الكلام فان مالك ما وعى عنك واقبل من الناس علانيتهم وكلهم الى الله تعالى فى سريرتهم واستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه فسار أسامة قبل كل جيش جهزه أبو بكر رضى الله عنه وأوقع بقبائل من قضاعة كانوا قد ارتدوا وغنم وعاد وكانت غيبته أربعين يوما وكان نفاذ جيش أسامة من أعظم الأمور نفعا للمسلمين فان العرب قالوا لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا أرادوا أن يفعلوه قال أبو بكر بن عياش سمعت أبا حصين يقول ما ولد بعد النبيين مولود أفضل من أبى بكر رضى الله عنه فقد قام مقام نبى من الأنبياء فى قتال أهل الردة وقال أنس بن مالك رضى الله عنه كرهت الصحابة قتال مانعى الزكاة وقالوا انهم أهل القبلة يعنون أنهم مسلمون فتقلد أبو بكر رضى الله عنه سيفه وخرج وحده فلم يجدوا بدا من الخروج على أثره وهذا دليل على شجاعة أبى

بكر رضى الله ثم أشار عليه على رضى الله عنه بالرجوع وان يبعث الجيوش ففعل ما أشار عليه وتقدم أن عمر رضى الله عنه كان ممن توقف فى قتالهم ثم شرح الله صدره كما شرح صدر أبى بكر فقال بعد ذلك والله لقد رجح ايمان أبى بكر بايمان هذه الأمة جميعا فى قتالهم وقتال بقية المرتدين وكان من جملة مقالة عمر لما راجع أبا بكر فى قتالهم أن قال يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تألف الناس وارفق بهم فانهم بمنزلة الوحش فقال له أبو بكر رضى الله عنه رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك جبارا فى الجاهلية وخوارا فى الاسلام بماذا شئت أتألفهم بشعر مفتعل أو بسحر مفترى هيهات هيهات قد تم الدين وانقطع الوحى أينقص وأنا حى والله لو خذلنى الناس كلهم لجاهدتهم بنفسى وقال بعض الصحابة فى مراجعتهم اياه ارفق بالعرب حتى ينفرج هذا الامر فان هذا الامر شديد غوره ومهلكة من غير وجه فلو أن طائفة من العرب ارتدت قلنا قاتل من ارتد بمن ثبت معك وقد أصفقت العرب على الارتداد فهم بين مرتد ومانع صدقة فهو مثل المرتد وبين واقف ينظر ما تصنع أنت أو عدوك قد قدم رجلا وأخر أخرى وقالوا له أيضا قد نعت العرب على أموالها وأنت لا تصنع بتفريق العرب عنك شيأ فلو تركت للناس صدقة هذه السنة وقدم عيينة بن حصن الفزارى وأقرع بن حابس فى رجال من أشراف العرب فدخلوا على رجال من المهاجرين فقالوا انه قد ارتد عامة من وراءنا عن الاسلام وليس فى أنفسهم أن يؤدوا اليكم من أموالهم ما كانوا يؤدون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فان تجعلوا لنا جعلا نرجع فنكفيكم من وراءنا فدخل المهاجرون والانصار على أبى بكر رضى الله عنه فعرضوا عليه ما عرضوه عليهم وقالوا نرى أن نطعم الاقرع وعيينة طعمة يرضيان بها ويكفيانك من وراءهما حتى يرجع اليك أسامة وجيشه ويشتد أمرك فانا اليوم قليل فى كثير ولا طاقة لنا بقتال العرب فقال لهم أبو بكر رضى الله عنه هل ترون غير ذلك قالوا لا فقال أبو بكر رضى الله عنه انكم قد علمتم انه كان من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم المشورة فيما لم يمض فيه أمر من نبيكم ولا نزل به الكتاب عليكم وان الله لن

يجمعكم على ضلال وانى سأشير عليكم وانما أنا رجل منكم تنظرون فيما أشرته عليكم وفيما أشرتم به فتجتمعون على أرشد ذلك فان الله يوفقكم أما أنا فأرى أن نشد على عدونا فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وان لا ترشوا على الاسلام أحدا وأن تتأسوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فنجاهد عدوه كما جاهدهم والله لو منعونى عقالا لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه من أهله وأدفعه الى مستحقه فأمروا يرشدكم الله فهذا رأيى فقالوا لأبى بكر لما سمعوا رأيه أنت أفضلنا رأيا ورأينا لرأيك تبع فأمر أبو بكر رضى الله عنه بالتجهيز قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه كرهنا ذلك فى الابتداء ثم حمدنا عليه فى الانتهاء وقال أبو هريرة رضى الله عنه والله لم يستخلف أبو بكر لما عبد الله وأخرج الدار قطنى أن أبا بكر رضى الله عنه لما أراد قتال أهل الردة أراد أن يخرج اليهم بنفسه فلما برز واستوى على راحلته أخذ على بن أبى طالب رضى الله عنه بزمامها وقال الى أين يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول لك ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد شم سيفك ولا تفجعنا بنفسك وارجع الى المدينة فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للاسلام نظام أبدا فرجع وبعث خالد بن الوليد رضى الله عنه لقتال أهل الردة وكان الصحابة رضى الله عنهم قد شاهدوا من أبى بكر رضى الله عنه الثبات الذى هو أعظم من هذا وهو ثباته يوم وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فان الناس قد تزلزلت أقدامهم وذهلت عقولهم يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشك بعضهم فى موته وكان أبو بكر رضى الله عنه غائبا بمنزله بالسنح فى عوالى المدينة وعمر حاضر فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام عمر فقال ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات وانه والله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا انه مات وأخرس بعض وأقعد بعض واضطرب الناس فجاء أبو بكر رضى الله عنه من منزله بالسنح ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مسجى فى ناحية البيت فكشف عن وجهه ثم قبله وقال بأبى أنت وأمى قد طبت

حيا وميتا أما الموتة التي كتب الله عليك فقد متها اذكرني يارسول الله عند ربك ثم رد الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس فأمره بالسكوت فأبى فأقبل أبو بكر على الناس فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ثم تلا قوله تعالى وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيأ وسيجزي الله الشاكرين فوالله لكأن الناس ما سمعوها الا منه وقد كان نزولها يوم أحد في السنة الثالثة من الهجرة فكأنهم نسوها لما أصابهم من الحزن بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر فوالله ماهو الا أن سمعتها فعقرت حتى وقعت على الارض ما تحملني رجلاي وعلمت حينئذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات فازال عنهم رضي الله عنهم ذلك الدهش الا بتثبيت أبي بكر رضي الله عنه حين خطب الناس فرجعت اليهم عقولهم وعرفوا حقيقة الامر فدل ذلك على أنه كان أشد الصحابة رأيا وأكملهم عقلا وأوفرهم علما وأخرج البزار في مسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال يوما لاصحابه أخبروني عن بأشجع الناس فقالوا أنت قال أما أنا فما بارزت أحدا الا انتصفت منه ولكن أخبروني بأشجع الناس قالوا الا نعلم فمن قال أبو بكر انه لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشا فقلنا من يكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش لئلا يهوي اليه أحد من المشركين فوالله مادنا منا أحد الا أبو بكر شاهرا سيفه واقفا على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يهوي اليه أحد الا أهوى اليه فهذا أشجع الناس ثم قال علي رضي الله عنه ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذته قريش يعني بمكة قبل الهجرة فهذا يجره وهذا يتلتله ويقولون أنت الذي جعلت الآلهة الها واحدا قال فوالله مادنا منا أحد الا أبو بكر يضرب هذا ويتلتل هذا وهو يقول أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ثم رفع علي رضي الله عنه بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ثم

قال أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر فسكت القوم فقال ألا تجيبوني فوالله لساعة من أبي بكر خير من مؤمن آل فرعون ذلك رجل يكتم ايمانه وهذا رجل أعلن ايمانه فهذا الذي ذكره مع ما انضم اليه من ثبات أبي بكر رضي الله عنه يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وثباته لقتال أهل الردة هو الذي حمل أهل السنة أن يجزموا بأن أبا بكر رضي الله عنه أشجع الناس بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وأخرج في الطوريات عن الامام محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم قال قال رجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه نسمعك تقول في الخطبة اللهم أصلحنا بما أصلحت به الخلفاء الراشدين فمن هم فاغرورقت عيناه بالدموع ثم أهملها فقال هما حبيباي أبو بكر وعمر اماما الهدى وشيخا الاسلام ورجلا قريش والمقتدى بهما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اقتدى بهما عصم ومن اتبع آثارهما هدى الى الصراط المستقيم ومن تمسك بهما فهو من حزب الله وحزب الله هم المفلحون وأخرج البيهقي عن الشافعي رضي الله عنه قال ان الناس بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجدوا تحت أديم السماء خيرا من أبي بكر رضي الله عنه فولوه رقابهم وأخرج أبو ذر الهروي والدارقطني من طرق أن بعضهم مر بنفر يسبون الشيخين فأخبر عليا رضي الله عنه وقال له لولا أنهم يرون أنك تضمر ما أعلنوا ما اجترؤا على ذلك فقال علي رضي الله عنه أعوذ بالله رحمهما الله تعالى ثم نهض فأخذ بيد ذلك المخبر وأدخله المسجد وأمر باجتماع الناس فصعد المنبر ثم قبض على لحيته وهي بيضاء فجعلت دموعه تتحادر على لحيته وجعل ينظر البقاع حتى اجتمع الناس ثم خطب خطبة بليغة من جملتها ما بال أقوام يذكرون بسوء أخوي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رواية وصاحبيه وسيدي قريش وأبوي المسلمين وأنا بريء مما يذكرون وعليه معاقب صحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجد والوفاء في أمر الله يأمران وينهيان ويقضيان ويعاقبان لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم كرأيهما رأيا

ولا يحب كحبهما حبا لما يرى من عزمهما فى أمر الله فقبض وهو عنهما راض والمسلمون راضون فما تجاوزا فى أمرهما وسيرتهما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره فى حياته وبعد موته فقبضا على ذلك رحمهما الله تعالى فوالذى فلق الحبة وبرأ النسمة لا يحبهما الا مؤمن ولا يبغضهما ويخالفهما الا شقى مارق وحبهما قربة وبغضهما مروق ثم ذكر أمر النبي صلى الله عليه وسلم لابى بكر أن يصلى بالناس وهو يرى مكان على ثم ذكر أنه بايع أبا بكر ثم ذكر استخلاف أبى بكر لعمر رضى الله عنهما ثم قال ألا لا يبلغنى عن أحد أنه يبغضهما الا جلدته حد المفترى وكان أول من حمل على التكلم فى الشيخين عبد الله بن سبأ وكان يهوديا فأسلم وكان اسلامه ظاهرا فقط وهو باق على يهوديته وانما أراد باسلامه التوصل الى ايقاع الافتراق بين المسلمين وادخال التشكيك عليهم فيما بينهم لان الطعن فى الصحابة طعن فى الشريعة لانها انما وصلت الى الأمة من طريق الصحابة فاذا انتفت العدالة عنهم لم يوثق بصحة شئ من القرآن ولا الشريعة ولما بلغ عليا أمر ابن سبأ أحضره وسأله عما نسب اليه فأنكر وسيره الى المدائن وقال لا تساكنى فى بلدة أبدا وأخرج الدارقطنى من طرق ان عليا رضى الله عنه بلغه أن رجلا يعيب أبا بكر وعمر فأحضره وعرض له بعيبهما لعله يعترف ففطن فأنكر فقال على أما والذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق أن لو سمعت منك الذى بلغنى ونبئته عنك أو ثبت عليك لأفعلن بك كذا وكذا * ومما استدل به أهل السنة والجماعة على صحة خلافة أبى بكر واعتراف على بها رضى الله عنهما ما أخرجه الدارقطنى وابن عساكر وغيرهما ان عليا رضى الله عنه لما قام بالبصرة قام اليه رجلان فقالا له أخبرنا عن مسيرك هذا الذى سرت فيه تستولى على الامة أعهد من رسول الله عهده اليك فحدثنا فأنت الموثوق به والمأمون على ما سمعت فقال أما أن يكون عندى عهد من النبى صلى الله عليه وسلم عهده الىّ فى ذلك فلا والله لئن كنت أول من صدق به فلا أكون آخر من كذب عليه ولو كان عندى منه عهد فى ذلك ما تركت أخا بنى تيم بن مرة وعمر بن الخطاب

يثبان على منبره ولقاتلتهما بيدى ولو لم أجد الا بردى هذه ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتل قتلا ولم يمت فجأة مكث فى مرضه أياما وليالى يأتيه المؤذن يعرفه بالصلاة فيأمر أبا بكر فيصلى بالناس وهو يرى مكانى وانى حاضر لست بغائب وفى رواية ومابى مرض ولقد أرادت امرأة من نسائه تصرفه عن أبى بكر فأبى وغضب وقال أنتن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرنا فى أمرنا فاخترنا لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا وكانت الصلاة معظم الاسلام وقوام الدين فبايعنا أبا بكر رضى الله عنه وكان لذلك أهلا لم يختلف منا اثنان وفى رواية فأقام بين أظهرنا الكلمة واحدة والامر واحد لا يختلف عليه منا اثنان فأديت لأبى بكر حقه وعرفت له طاعته وغزوت معه فى جنوده وكنت آخذ اذا أعطانى وأغزو اذا أغزانى وأضرب بين يديه الحدود بسوطى فلما قبض ولاها عمر فأخذها بسنة صاحبه ومايعرف من أمره فبايعنا عمر لم يختلف عليه اثنان منا فأديت له حقه وعرفت له وغزوت معه فى جيوشه وكنت آخذ اذا أعطانى وأغزو اذا أغزانى وأضرب بين يديه الحدود بسوطى فلما قبض تذكرت فى نفسى قرابتى وسابقتى وفضلى وأنا أظن أن لا يعدل بى ولكن خشى أن لا يعمل الخليفة بعده شيأ الا لحقه فى قبره فأخرج منها نفسه وولده ولو كانت محاباة لآثر ولده بها وبرئ منها الرهط أنا أحدهم وظننت أن لا يعدلوا بى فأخذ عبد الرحمن ابن عوف مواثيقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولاه الله أمرنا ثم بايع عثمان فنظرت فاذا طاعتى قد سبقت بيعتى واذا ميثاقى قد أخذ لغيرى فبايعنا عثمان فأديت له حقه وعرفت له طاعته وغزوت معه فى جيوشه وكنت آخذ اذا أعطانى وأغزو اذا أغزانى وأضرب بين يديه الحدود بسوطى فلما أصيب نظرت فاذا الخليفتان اللذان أخذاها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهما بالصلاة قد مضيا وهذا الذى أخذ له ميثاقى قد أصيب فبايعنى أهل الحرمين وأهل هذين المصرين أى الكوفة والبصرة فوثب عليها من ليس مثلى ولا قرابته كقرابتى ولا علمه كعلمى ولا سابقته

كسابقتي وكنت أحق بها منه يعني معاوية رضي الله عنه وصح من طرق كثيرة أن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أبسط يدك أبايعك فلا يختلف عليك اثنان فأبى علي رضي الله عنه ولو علم وجود نص لقبل ذلك ولم يتأخر عنه ولاسيما ومعه العباس والزبير و بنو هاشم وغيرهم وأقبح من كل قبيحة قول الشيعة انه علم النص وكتمه تقية حاشا لله من ذلك والحاصل ان الاخبار عن علي رضي الله عنه بصحة خلافة أبي بكر وعمر وكونهما خير الامة بعد النبي صلى الله عليه وسلم تثبت عنه من طرق كثيرة بروايات كثير من الثقات العدول منهم ابنه محمد بن الحنفية وغيره بحيث يجزم من تتبعها بصدور ذلك القول من علي رضي الله عنه جزما قاطعا ليس فيه شك ولا ارتياب قال الحافظ الذهبي تواتر ذلك عن علي رضي الله عنه ورواه عنه نيف وثمانون من أصحابه وصرح بذلك في الخلوة والملأ وخطب بذلك على منبر الكوفة زمن خلافته مع حضور الجمع العظيم ولهذا اتفق الأئمة الاربعة وأئمة الحديث مثل البخاري ومسلم و بقية أصحاب الكتب الستة وغيرهم وأئمة السلف و بقية أهل السنة والجماعة على اعتقاد صحة خلافته قال سفيان الثوري من قال ان عليا رضي الله عنه كان أحق بالخلافة من أبي بكر رضي الله عنه فقد خطأ أبا بكر وعمر والمهاجرين والانصار وما أراه يرتفع له مع هذا الاعتقاد عمل الى السماء وأخرج الدار قطني عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما مثل ذلك ولم ينقل عن علي رضي الله عنه أنه ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على خلافته بل اذا سئل عن ذلك أنكر وأما الرافضة فانهم لما لم يمكنهم انكار ذلك ولم يمكنهم أيضا انكار اعتراف علي بصحة خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لظهوره وانتشاره عنه بحيث لا ينكره الا جاهل بالآثار أو مباهت مكابر قالوا انما قال ذلك تقية ومداراة وذلك منهم كذب وافتراء وأحسن ما يقال في هذا المحل ألا لعنة الله على الكاذبين وكيف يتوهم من له أدنى عقل أو فهم صدور ذلك من علي تقية ومداراة مع ما أعطاه الله من كمال الايمان وعظم الشجاعة والاقدام حتى انه لا يهاب أحدا ولا يخشى في الله لومة

لاثم وكيف يتوهم عاقل أن يقول ذلك فى الخلاوعلى رؤس الملاء وفى زمن خلافته وعلى منبر الكوفة وهو فى ذلك الوقت أقوى ما كان أمرا وأنفذ حكما وذلك بعد مدة طويلة من وفاة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فما أحق أن يقال فيما افتروه سبحانك هذا بهتان عظيم ومن قبيح افترائهم زعمهم أن النبى صلى الله عليه وسلم أوصى بالخلافة لعلى رضى الله عنه وأنه كتم ذلك وأن الصحابة رضى الله عنهم خالفوا أمر النبى صلى الله عليه وسلم وأن عليا رضى الله عنه انما سكت على النزاع فى أمر الخلافة لان النبى صلى الله عليه وسلم أوصاه أن لا يوقع بعده فتنة ولا يسل سيفا وهذا منهم كذب وافتراء وحمق وجهالة مع عظيم الغباوة عما يترتب على ذلك اذ كيف يعقل هذا الذى زعموه وكيف يعقل انه جعل اماما واليا على الامة بعده ويمنعه من سل السيف على من امتنع من قبول الحق ولو كان مازعموه صحيحا لما سل السيف فى حرب صفين والجمل وقتال الخوارج وقاتل هو بنفسه وقاتل معه أهل بيته وأصحابه وجالد وبارز الألوف من مقاتليه وحده أعاذه الله من مخالفة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيضا كيف يعقل أنه يوصيه بعدم سل السيف على قوم زعم فيهم الرافضة أنهم كفار مرتدون تجاهروا بأقبح أنواع الكفر مع ما أوجب الله من جهاد الكفار قال بعض أئمة أهل البيت النبوى قد تأملت كلام هؤلاء الضالين فرأيتهم قوما أعمى الهوى بصائرهم فما يبالون بما يترتب على مقالاتهم من المفاسد فأورثتهم غباوتهم العار والفضيحة ولم يبالوا بما يترتب على ذلك من نسبة على رضى الله عنه الى الذل والعجز بل ونسبة جميع بنى هاشم الى ذلك العار اللاحق بهم الذى لا أقبح منه وبنو هاشم أهل النجدة والشجاعة والأنفة بل يلزمهم أيضا نسبة جميع الصحابة رضى الله عنهم الى ذلك وكيف يتوهم مؤمن عاقل أن الصحابة يطلعون على النص على خلافة على رضى الله عنه فلا يعملون به ولا يرجعون اليه وهم أطوع الناس لله وأشد الناس وقوفا عند حدود الله تعالى وأبعد عن اتباع حظوظ النفس وقد قال فيهم النبى صلى الله عليه وسلم خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم كيف يكون ذلك وفيهم العشرة المبشرون بالجنة ومنهم أبو عبيدة

أمين هذه الأمة بنص قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة وكيف يتوهم فيهم شيء من ذلك وهم بهذه الأوصاف الجليلة معاذ الله أن يتركوا العمل بما ثبت عندهم عن النبي صلى الله عليه وسلم لان ذلك خيانة فى الدين فلا يجوز عليهم ذلك لا شرعا ولا عقلا ولا عادة لأنه يلزم من وقوع ذلك منهم تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم فى شهادته لهم بالخير وثنائه عليهم وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم كفر ووقوع الكذب منه محال لثبوت صدقه بالمعجزات فما أدى اليه محال أيضا كيف يكون هذا! وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تجتمع أمتي على ضلالة ولو جاز وقوع مثل ذلك منهم لارتفع الأمان والثقة فى كل مانقلوه عن النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن والاحكام ولم يحصل الجزم بشيء من أمور الدين من أن جميع الدين أصوله وفروعه انما أخذه الأئمة عنهم ووصل اليهم بواسطتهم * وفى نسبة الرافضة سيدنا عليا رضى الله عنه الى الكتمان للنص غاية النقص لما يلزم عليه من نسبته الى الجبن والظلم والخيانة والكتمان حاشاه الله من ذلك وبمقالة الرافضة هذه المقالة القبيحة توصل بعض الملحدة الى تكفير على رضى الله عنه اعتمادا على قولهم لأنه كتم النص وكل ذلك زور وبهتان وكيف يسع من له أدنى ايمان أن ينسب عليا وبقية الصحابة الى الكتمان مع ما استفاض وتواتر عنهم من غيرتهم لنبيهم صلى الله عليه وسلم وشدة غضبهم عند انتهاك حرماته حتى قاتلوا دونه وقتلوا الآباء والأبناء فى طلب مرضاته فلا يتوهم مؤمن بالله تعالى لحوق أدنى نقص لهم أو سكوت على باطل فقد طهر الله هذه العصابة من كل رجس ودنس ونقص وقد شهد الله لهم بالصدق بقوله أولئك هم الصادقون وأخبر أنه رضى عنهم بقوله رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ووعدهم بالحسنى بقوله وكلا وعد الله الحسنى وشهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بكل خير وتوفى وهو راض عنهم فلا يقدم على شيء مما افتراه الرافضة وأمثالهم إلا عبد أضله الله وخذله فباء بعظيم الخسار والبوار وأحله الله نار جهنم وبئس القرار فنسأل الله السلامة مما وقع فيه هؤلاء الاشرار

فما أقبح قولهم إن الصحابة علموا النص على خلافة على رضى الله عنه فلم ينقادوا له عنادا ومكابرة بالباطل وأقبح من ذلك قولهم ان عليا ترك ذلك تقية كل ذلك كذب وزور وتوصلوا به الى تكفير الصحابة رضى الله عنهم وقد أخرج البيهقى عن الامام أبى حنيفة رضى الله عنه أنه قال أصل عقيدة الشيعة تضليل الصحابة رضى الله عنهم وانما نبه على الشيعة لأنهم أقل فحشا فى عقائدهم من الرافضة وذلك لان الرافضة يقولون بتكفير الصحابة رضى الله عنهم لانهم على زعمهم عاندوا بترك العمل بالنص على خلافة على رضى الله عنه بل زاد أبو كامل وكان من رؤس الرافضة فكفر عليا رضى الله عنه زاعما أنه أعان الكفار على كفرهم وعلى كتمان الأمر بامامته بل تواتر عن على رضى الله عنه الاعتراف بصحة خلافة أبى بكر وعمر وأنهما أفضل الامة وقبل من عمر رضى الله عنه ادخاله اياه الشورى بل تواتر عنه كما تقدم ذلك عنه وانما اتخذ الملحدون كلام الرافضة والشيعة وأمثالهم ذريعة للطعن فى الدين والقرآن لان ذلك انما وصل الينا من طريق الصحابة رضى الله عنهم ومن جملة ما قاله أولئك الملحدون كيف يقول الله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس وقد ارتدوا بعد وفاة نبيهم إلا نحو ستة أنفس منهم فى زعمهم وجعل سبب الارتداد وامتناعهم من قبول النص بتقديم على رضى الله عنه فانظر الى كلام هذا الملحد تجده مأخوذا مما اختلقه الرافضة وأمثالهم قاتلهم الله أنى يؤفكون بل هم أشد ضررا على الدين من اليهود والنصارى وسائر فرق الضلالة وقد جاء التصريح بذلك عن على رضى الله عنه فانه صح عنه أنه قال تفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة شرها من ينتحل حبنا ويفارق أمرنا ووجهه ما اشتمل عليه كلامهم من افتراء الكذب وارتكاب قبائح البدع والعناد حتى تسلطت الملحدة بسبب ذلك على الطعن فى الدين وأئمة المسلمين بل قال القاضى أبو بكر الباقلانى فيما ذهبت الرافضة مما ذكروه ابطال للاسلام رأسا لانه اذا أمكن اجتماع الصحابة رضى الله عنهم على الانكار للنصوص أمكن فيهم نقل الكذب والتواطؤ عليه لغرض فيمكن أن سائر ما نقلوه من الاحاديث كذب وزور وحاشاهم من ذلك

وكذلك ماذكره سائر الأمم عن جميع الرسل يجوز الكذب فيه والزور والبهتان على زعمهم لأنهم اذا ادّعوا ذلك في هذه الامة التي هي خير أمة أخرجت للناس فادعاؤهم إياه في باقي الأمم أحرى وأولى فتأمل هذه المفاسد التي ترتبت على ما أسسه هؤلاء الملحدة قاتلهم الله أنى يؤفكون وقد أخرج البيهقي عن الشافعي رضى الله عنه أنه قال ما من أهل الاهواء أشهد بالزور من الرافضة وكان اذا ذكرهم عابهم أشد العيب وأخرج الدارقطني عن عمار بن ياسر رضى الله عنهما قال من قال ان عليا رضى الله عنه كان أحق بالولاية من أبي بكر رضى الله عنه فقد خطأ أبا بكر وعمر والمهاجرين والأنصار وقال الامام مالك قوله تعالى في حق الصحابة ليغيظ بهم الكفار أن الرافضة كفار لان الصحابة يغيظونهم ومن أغاظه الصحابة فهو كافر وهو مأخذ حسن يشهد له ظاهر هذه الآية ومن ثم وافقه الشافعي رضى الله عنه في أحد قوليه بكفرهم ووافقه أيضا جماعة من الأئمة قال ابن الاثير في تاريخه المسمى بالكامل في حوادث سنة ست وتسعين ومائتين عند ذكره ابتداء دولة العبيديين ما نصه لما بعث الله سيد الأولين والآخرين سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم عظم ذلك على اليهود والنصارى والروم والفرس وقريش وسائر العرب لانه سفه أحلامهم وعاب أديانهم وآلهتهم وفرق جمعهم فاجتمعوا يدا واحدة فكفاه الله كيدهم ونصره عليهم فأسلم منهم من هداه الله تعالى فلما قبض صلى الله عليه وسلم نجم النفاق وارتدت العرب وظنوا أن الصحابة رضى الله عنهم يضعفون بعده فجاهد أبو بكر رضى الله عنه في سبيل الله فقتل مسيلمة ورد أهل الردة وأذل الكفر ووطأ جزيرة العرب وغزا فارس والروم فلما حضرته الوفاة ظنوا أن بوفاته ينتقص الاسلام فاستخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأذل فارس والروم وغلب على ممالكهما فدس عليه المنافقون أبا لؤلؤة فقتله ظنا منهم أن بقتله ينطفئ نور الاسلام فولى بعده عثمان رضى الله عنه فزاد في الفتوح واتسعت ممالك الاسلام فلما قتل ولى بعده أمير المؤمنين على رضى الله عنه فقام بالأمر أحسن قيام فلما يئس أعداء الاسلام من استئصاله بالقوة أخذوا في وضع الاحاديث الكاذبة

وتشكيك ضعفة العقول فى دينهم بأمور قد ضبطها المحدثون وأفسدوا الصحيح بالتأويل والطعن عليه وكانوا يظهرون التشيع لآل النبى صلى الله عليه وسلم ليستروا أمرهم ويستميلوا العامة وتفرق أصحابهم فى البلاد وأظهروا الزهد والعبادة يغرون الناس بذلك وهم على خلافه وأكثروا الطعن فى الصحابة لانهم علموا أن الطعن فيهم طعن فى الشريعة فان بطريقهم وصلت الى من بعدهم وأنفقوا اموالا عظيما على من تبعهم لتنتشر مذاهبهم انتهى فعلم من ذلك كله ان أساس مذاهبهم الطعن فى الصحابة ليتوصلوا بذلك الى ابطال الشريعة قاتلهم الله أنى يؤفكون (ولنرجع) الى اتمام الكلام على ما يتعلق بخلافة أبى بكر رضى الله عنه وذكر شئ آخر من محاسنه رضى الله عنه فمن ذلك خطبه التى كان يخطب بها وهى كثيرة منها انه خطب مرة فقال بعد أن حمد الله بما هو أهله وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ان أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك فرفع الناس رؤوسهم فقال مالكم أيها الناس انكم لطعانون عجلون ان من الملوك من اذا ملك زهده الله فيما بيده ورغبه فيما بيد غيره وانتقصه شطر أجله وأشرب قلبه الاشفاق فهو يحسد على القليل ويسخط على الكثير ويسأم الرخاء وتنقطع عنه لذة البقاء لا يستعمل العبرة ولا يسكن الى الثقة فهو كالدرهم القسى والسراب الخادع جذل الظاهر حزين الباطن فاذا وجبت نفسه ونضب عمره وضحى ظله حاسبه الله فأشد حسابه وأقل عفوه ألا ان الفقراء هم المرحومون ألا ان من آمن بالله حكم بكتابه وسنة نبيه وانكم اليوم على خلافة نبوة ومفرق محجة وسترون بعدى ملكا عضوضا وملكا عنودا وأمة شعاعا ودما مباحا فان كانت للباطل نزوة ولاهل الحق جولة يعفو لها أثر الخبر ويموت لها فالزموا المساجد واستشيروا القرآن واعتصموا بالطاعة وليكن الابرام بعد التشاور والصفقة بعد طول التناظر أى بلاد جوسه ان الله سيفتح لكم أقصاها كما فتح عليكم أدناها وقال رضى الله عنه فى خطبه ان الله أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم للناس كافة رحمة لهم وحجة عليهم والناس يومئذ على شر حال فى ظلمات الجاهلية دينهم بدعة ودعوتهم فرية

فأعز الله الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم وألف بين قلوبكم أيها المؤمنون فاصبحتم بنعمته اخوانا أوصيكم بتقوى الله العظيم فى كل أمر وعلى كل حال ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم فانه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير من يكذب يفخر ومن يفخر يهلك واياكم والفخر وما فخر من خلق من التراب والى التراب يعود وهو اليوم حى وغدا ميت فاعملوا وعدوا أنفسكم فى الموتى وما أشكل عليكم فردوا علمه الى الله تعالى وقدموا لانفسكم تجدوه محضرا فاتقوا الله عباد الله وراقبوه واعتبروا بمن مضى قبلكم واعلموا أنه لابد من لقاء ربكم والجزاء باعمالكم صغيرها وكبيرها الاما غفر الله انه غفور رحيم فانفسكم أنفسكم والمستعان الله ولا حول ولا قوة الا بالله ان الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما اللهم صل على محمد عبدك ورسولك أفضل ماصليت على أحد من خلقك وزكنا بالصلاة عليه وألحقنا به واحشرنا فى زمرته وأوردنا حوضه اللهم أعنا على طاعتك وانصرنا على عدوك وقال فى خطبة أخرى بعد أن حمد الله وأثنى عليه أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله وان تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الالحاف بالمسئلة فان الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ثم اعلموا عباد الله ان الله قد ارتهن بحقه أنفسكم وأخذ على ذلك مواثيقكم وعوضكم بالقليل الفانى الكثير الباقى وهذا كتاب الله فيكم لاتفنى عجائبه ولا يطفأ نوره فثقوا بقوله وانتصحوا كتابه وتبصروا فيه ليوم الظلمة فانه خلقكم لعبادته ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ماتفعلون ثم اعلموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون فى أجل قد غيب عنكم علمه فان استطعتم أن تنقضى الآجال وأنتم فى عمل الله ولن تستطيعوا ذلك الا بالله فسابقوا فى مهل بأعمالكم قبل أن تنقضى آجالكم فتردكم الى سوء أعمالكم فان أقواما جعلوا آجالهم لغيرهم فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم فالوحا الوحا النجا النجا فان وراءكم طالبا حثيثا أمره سريع سيره وكان آخر دعاء أبى بكر الصديق رضى الله عنه

فى خطبته اللهم اجعل خير زمانى آخره وخير عملى خواتمه وخير أيامى يوم لقائك وخطب مرة خطبة فقال أيها الناس انكم تقرؤن هذه الآية وتؤولونها على غير تأويلها يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من قوم عملوا بالمعاصى وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل الا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده ومن كلامه رضى الله عنه أنه قال لخالد بن الوليد رضى الله عنه فر من الشرف يتبعك الشرف واحرص على الموت توهب لك الحياة ولما وفد عليه أهل اليمامة بعد قتل مسيلمة الكذاب قال لهم أبو بكر رضى الله عنه ما كان يقول صاحبكم يعنى مما يزعم أنه وحى قالوا اعفنا يا خليفة رسول الله قال لابد أن تقولوا قالوا كان يقول ياضفدع كم تنقين لا الشرب تمنعين ولا الماء تكدرين لنا نصف الارض ولقريش نصفها ولكن قريش قوم لا يعدلون فقال لهم أبو بكر رضى الله عنه ويحكم ما خرج هذا من ال ولا بر فأين ذهب بكم الال الله تعالى والبر الرجل الصالح ومن دعاء الصديق رضى الله عنه اللهم انى أسألك الذل عند النصف من نفسى والزهد فيما جاوز الكفاف ولما نزل قوله تعالى من يعمل سوأ يجز به قال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله كيف الفرح بعد هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض ألست يصيبك الأذى ألست تحزن فهذا مما تجزون به يعنى ان جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه اذا مدح يقول اللهم أنت أعلم بى من نفسى وأنا أعلم بنفسى منهم اللهم اجعلنى خيرا مما يظنون واغفر لى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون و روى الصديق رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال سلوا الله العافية فما أعطى أحد أفضل من العافية الا اليقين وأشار باليقين الى عافية القلب عن مرض الجهل والشك فعافية القلب أعلى من عافية البدن ومن كلامه رضى الله عنه من استطاع أن يبكى فليبك ومن لم يستطع فليتباك و رأى رضى الله عنه مرة طائرا فقال ليتنى مثلك يا طائر ولم أكن بشرا قال الامام الغزالى فى الاحياء ان أبا بكر رضى الله عنه

حسب جميع ما كان أخذه من بيت المال فبلغ ستة آلاف درهم فغرمها لبيت المال وشرب أبو بكر رضى الله عنه مرة لبنا من كسب عبده ثم سأل عبده فقال تكهنت لقوم فأعطونيه فأدخل أصبعه فى فيه وجعل يقىء حتى ظنوا أن نفسه ستخرج ثم قال اللهم انى أعتذر اليك مما حملت العروق وخالط الامعاء ولما أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك قال أوما علمتم أن الصديق لا يدخل جوفه الا طيبا وروى أنه صلى الله عليه قال فيه يعنى أبا بكر نزل ولمن خاف مقام ربه جنتان ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عبدا خير بين الدنيا وما عند الله فاختار ما عند الله بكى أبو بكر رضى الله عنه وفهم ان العبد هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وان ذلك اشارة الى قرب أجله صلى الله عليه وسلم ولم يفهم ذلك المعنى أحد من الصحابة الحاضرين غير أبى بكر رضى الله عنه فقال النبى صلى الله عليه وسلم على رسلك يا أبا بكر سدوا هذه الابواب الشوارع فى المسجد الا باب أبى بكر اشارة الى أنه خليفة بعده فقح باب له على المسجد ليدخل منه ويصلى بالناس ثم قال صلى الله عليه وسلم انى لا أعلم امرأ عندى أفضل فى الصحبة من أبى بكر رضى الله عنه ولما مرض أبو بكر رضى الله عنه مرض الوفاة دخل عليه سلمان الفارسى رضى الله عنه فقال يا أبا بكر أوصنا فقال ان الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها الا بلاغك واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو فى ذمة الله فلا تخفرن الله فى ذمته فيكبك فى النار على وجهك وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للارامل

فقال أبو بكر رضى الله عنه ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال سعيد بن المسيب لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه أتاه ناس من الصحابة فقال يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا فقال أبو بكر رضى الله عنه من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه فى الافق المبين قالوا وما الافق قال قاع بين يدى العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار يغشاه كل يوم مائة رحمة فمن قال هذا القول جعل الله روحه فى ذلك المكان اللهم انك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك اليهم

ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعيم وفريقا للسعير فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير اللهم
انك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقيا وسعيدا وغويا
ورشيدا فلا تشقني بمعاصيك اللهم انك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها
فلا محيص لها مما علمت فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك اللهم ان أحدا لا يشاء حتى
تشاء فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربني اليك اللهم انك قدرت حركات العباد فلا
يتحرك شئ الا باذنك فاجعل حركاتي في تقواك اللهم انك خلقت الخير والشر
وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به فاجعلني من خير القسمين اللهم انك
خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا فاجعلني من سكان جنتك
اللهم انك أردت بقوم الهدى وشرحت به صدورهم وأردت بقوم الضلال
وضيقت به صدورهم فاشرح صدري للايمان وزينه في قلبي وكره الى الكفر
والفسوق والعصيان واجعلني من الراشدين اللهم انك دبرت الامور وجعلت
مصيرها اليك فأحيني بعد الموت حياة طيبة وقربني اليك زلفى اللهم من أصبح
وأمسى وثقته ورجاؤه غيرك فانت ثقتي ورجائي ولا حول ولا قوة الا بالله قال أبو
بكر رضي الله عنه هذا كله في كتاب الله عز وجل وروى رضي الله عنه عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال من ولي من أمر المسلمين شيأ فأمر عليهم أحدا محاباة فعليه
لعنة الله لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم ومن أعطى حمى الله فقد
انتهك من حمى الله ومن أخذ شيأ بغير حقه فعليه لعنة الله وروى أيضا أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم اذا أراد أمرا قال اللهم خر لي واختر لي وروى أيضا ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال السلطان العادل المتواضع ظل الله ورمحه في الارض
ويرفع له كل يوم وليلة عمل ستين صديقا وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال ما ترك قوم الجهاد الا عمهم الله بالعذاب وروى أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال النظر الى علي عبادة وسئل أبو بكر رضي الله عنه يوما عن آية في كتاب الله
تعالى فقال أي سماء تظلني وأي أرض تقلني اذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم وقال
رضي الله عنه في قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة هي النظر الى وجه

وجل وكان رضي الله عنه اذا عزى رجلا قال ليس مع العزاء مصيبة وليس مع
الجزع فائدة الموت أهون مما قبله وأشد مما بعده أذكروا فقد رسول الله صلى الله
عليه وسلم تصغر مصيبتكم ويعظم الله أجركم وكان رضي الله عنه اذا صلى على الميت
قال اللهم عبدك أسلمه الاهل والمال والعشيرة والذنب عظيم وأنت غفور رحيم
وغضب رضي الله عنه يوما على رجل فاشتد غضبه فقال له أبو برزة الاسلمي
يا خليفة رسول الله اضرب عنقه فقال له ويلك ما هي لاحد بعد رسول الله صلى الله
عليه وسلم وروى أيضا رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خالد بن
الوليد سيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين وروى أيضا ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم اشدد الاسلام بعمر وروى أيضا ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال لو لم أبعث فيكم لبعث عمر وسيرة أبي بكر طويلة وفي
هذا القدر كفاية والقصد من ذلك كله بيان أن ملاك الأمر كله العدل في بيت المال
وفي سيرة الخليفة على المسلمين بسيرة الخلفاء الراشدين وقد تقدم في كلام أبي بكر
رضي الله عنه أنه قال لن يصلح أمر آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها فلابد لصلاح
هذه الامة من خليفة يسلك مسلك الخلفاء الراشدين ولا يكون ذلك الا بالزهد في
الدنيا وروى الحافظ ابن القيم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال ان أبا بكر
الصديق رضي الله عنه استسقى فأتى بماء فيه عسل فلما أدناه من فيه بكى وأبكى
من حوله ثم سكت فسكتوا ثم عاد فبكى حتى ظنوا أن لا يقدر أحد على مسألته
ثم مسح وجهه فأفاق فقالوا ما هاجك على هذا البكاء قال كنت مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم وجعل يدفع عنه شيأ يقول اليك عني اليك عني ولم أر معه
أحدا فقلت يا رسول الله انك تدفع عنك شيأ ولا أرى معك أحدا قال هذه
الدنيا تمثلت لي بما فيها فقلت لها اليك عني فتنحت وقالت أما والله لئن انفلت
مني لا ينفلت مني من بعدك فخشيت أن تكون قد لحقتني فذلك الذي أبكاني
وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه دخلت على أبي بكر رضي الله عنه
في مرض موته فقال والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد خير له

من أن يسبح في غمرة الدنيا قال الحسن البصري لما ثقل أبو بكر رضي الله
عنه في مرض موته جمع الناس اليه فقال انه قد نزل بي ما قد ترون وقد أطلق
الله أعناقكم من بيعتي وحل عنكم عقدي ورد عليكم أمركم فأمروا عليكم من
أحببتم فانكم ان أمرتم في حياة مني كان أجدر أن لا تختلفوا بعدي فقاموا في
ذلك وخلوا عنه فلم يستتم لهم رأى فرجعوا اليه وقالوا أرنا يا خليفة رسول الله
رأيك فقال لعلكم تختلفون قالوا لا وقال علي رضي الله عنه يا خليفة رسول الله
امض لما رأيت فانا سامعون مطيعون فقال فلعلكم تختلفون قالوا لا قال فعليكم
عهد على الرضا قالوا نعم قال فأمهلوني ونصر الله لدينه ولعباده وفي رواية قال لهم قد
حضر ما ترون ولا بد من قائم بأمركم يجمع فئتكم ويمنع ظالمكم من الظلم ويرد على
الضعيف حقه فان شئتم اخترتم لأنفسكم وان شئتم جعلتم ذلك الي فوالله لا آلوكم
ونفسي خيرا وفي رواية لهم أترضون بخلافة خليفة أعينه لكم والله ما أعين لكم
أحدا من أقربائي قالوا قد رضينا من اخترت لنا ثم أرسل لكثير منهم واختلى بكل
واحد وحده فكانوا يشيرون عليه باستخلاف عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقبل
اشارتهم وأمر عثمان رضي الله عنه بكتابة الصحيفة التي فيها استخلاف عمر بن
الخطاب رضي الله عنه ثم أمر عثمان أن يخرج للناس ويقرأها عليهم وقال لهم أبو
بكر رضي الله عنه قبل قراءتها أترضون بمن أستخلفه عليكم قالوا نعم وقال علي
رضي الله عنه لا نرضى الا أن يكون عمر فقال هو عمر فقال علي يا خليفة رسول الله
امض لرأيك فانا نعلم به الا خيرا وقال عثمان وسعيد بن زيد وأسيد بن حضير وغيرهم
من المهاجرين والانصار أنت أخبرنا به وهو أعلمنا للخير بعدك يرضى للرضا
ويسخط للسخط وسريرته خير من علانيته وليس فينا مثله ولن يلي هذا الامر
أقوى عليه منه ثم قرئت عليهم الصحيفة فرضوا بما فيها وعن عاصم بن عدي قال
جمع أبو بكر رضي الله عنه الناس وهو مريض وأمر من يحمله الى المنبر وكانت
آخر خطبة خطبها بعد أن عهد بالخلافة الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فحمد الله
وأثنى عليه ثم قال أيها الناس احذروا الدنيا ولا تغتروا بها فانها غرارة وآثروا

الآخرة على الدنيا فأحبوها فيحب كل واحدة منهن تبغض الاخرى وان هذا الأمر الذى هو أثبت بنا لا يصلح آخره الا بما صلح به أوله ولا يحمله الا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه وأشدكم فى حال الشدة وألينكم فى حال اللين وأعلمكم برأى ذوى الرأى لا يتشاغل بما لا يعنيه ولا يحزن لما ينزل به ولا يستحى من التعلم ولا يتحير عند البديهة قوى على الامور لا يجوز لشئ منها حده بعدوان ولا يقصر برصد لما هو آت عتاده من الحذر والطاعة وهو عمر بن الخطاب ثم قد نزل فدخل داره رضى الله عنه وقال له قائل ما أنت قائل لربك اذا سألك عن استخلافك عمر وقد ترى غلظته فقال أبو بكر رضى الله عنه أجلسونى أبالله تخوفنى خاب من تزود من أمركم بظلم أقول اللهم استخلفت عليهم أفضلهم وأقواهم وفى رواية قال أبالله تخوفنى أقول استعملت عليهم خيرهم وأشدهم حبا لله تعالى فستعلمون اذا فارقتموه وتنافستموه وذكر صاحب الاكتفاء ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه التوى وامتنع من قبول عهد أبى بكر له بالخلافة وقال لا أطيق القيام بأمر الناس فقال أبو بكر لابنه عبد الرحمن ارفعنى وناولنى السيف فقال عمر أو تعفنى قال لا فعند ذلك قبل رضى الله عنه وفى رواية ان عمر راجع أبا بكر رضى الله عنهما وقال يا خليفة رسول الله لا حاجة لى فيها فقال ان لم تكن محتاجا اليها فهى محتاجة اليك وانى ما حبوتك بالخلافة ولكن حبوتها بك ومع ذلك فانى أحذرك نفسك فان النفس لأمارة بالسوء وأحذرك الناس واعلم أنهم خائفون منك ما خفت الله عز وجل وآثرت رضاه جل جلاله على هواك وكتب أبو عبيدة الى أبى بكر رضى الله عنهما بعد توجه الجنود الى قتال الروم بلغنى ان هرقل ملك الروم نزل قرية من قرى الشام تدعى انطاكية وأنه بعث الى أهل مملكته فحشدهم اليه وأنهم نفروا اليه على الصعب والذلول وقد رأيت أن أعلمك ذلك فترى فيه رأيك والسلام فكتب اليه أبو بكر رضى الله عنه أما بعد فقد بلغنى كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم فأما منزله بانطاكية فهزيمة له ولاصحابه وفتح من الله عليك وعلى المسلمين وأما حشده أهل مملكته وجمعه لكم الجموع فان ذلك ما كنا وكنتم

تعلمون أنه سيكون منهم ما كان قوم أن يدعوا سلطانهم ويخرجوا من مملكتهم بغير قتال ولقد علمت والحمد لله أن قد غزاهم رجال بسيف من المسلمين يحبون الموت حب عدوهم الحياة يحتسبون من الله فى قتالهم الأجر العظيم ويحبون الجهاد فى سبيل الله أشد من حبهم أبكار نسائهم وعقائل أموالهم الرجل منهم عند الفتح خير من ألف رجل من المشركين فالقهم بجنودك ولا تتوحش لمن غاب عنك من المسلمين والله تعالى ذكره معك وأنت وذكره معك وأنا مع ذلك ممدك بالرجال بعد الرجال حتى تكتفى ولا تريد أن تزدادوا والسلام وقوله فأماه نزله بانطاكية فهزيمة لعله أخذ ذلك من أنطاقانه لغة فى أعطى وكتب يزيد بن أبى سفيان رضى الله عنهما الى أبى بكر رضى الله عنه أما بعد فان هرقل ملك الروم لما بلغه مسيرنا اليه ألقى الله الرعب فى قلبه فتحول ونزل أنطاكية وخلف أمراء من جنده على جند الشام وأمرهم بقتالنا وقد تيسروا لنا واستعدوا وقد نبأنا مسالمة الشام أن هرقل استنفر أهل مملكته وأنهم جاؤا يجرون الشوك والشجر فرنا بأمرك وعجل علينا فى ذلك برأيك نتبعه نسأل الله تعالى النصر والصبر والفتح وعاقبة المسلمين والسلام عليك فكتب له أبو بكر رضى الله عنه أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه تحول ملك الروم الى انطاكية وألقى الله الرعب فى قلبه من جموع المسلمين فان الله تبارك وتعالى وله الحمد قد نصرنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرعب وأيدنا بملائكته الكرام وان ذلك الدين الذى نصرنا الله فيه بالرعب هو هذا الدين الذى ندعو الناس اليه اليوم فوربك لا يجعل الله المسلمين كالمجرمين ولا من يشهد أن لا اله غيره كمن يعبد آلهة أخرى ويدين بعبادة آلهة شتى فاذا لقيتهم فانبذ اليهم بمن معك وقاتلهم فان الله لن يخذلك وقد نبأنا الله تعالى أن الفئة القليلة مما تغلب الفئة الكثيرة باذن الله وأنا مع ماهنا ممدكم بالرجال فى أثر الرجال حتى تكتفوا ولا تحتاجوا الى زيادة انسان ان شاء الله تعالى والسلام وقال للرسول أخبره أن مدد المسلمين آتيهم مع هاشم بن عتبة بن أبى وقاص وسعيد بن عامر الجمحى فلما قدم الرسول بالكتاب على يزيد قرأه على المسلمين فتباشروا وفرحوا

ثم ان أبا بكر رضى الله عنه دعا هاشم بن عتبة و بعثه فى ألف من المسلمين فسلم على أبى بكر وودعه ثم خرج من عنده فلزم طريق أبى عبيدة حتى قدموا عليه فسر المسلمون بقدومه وتباشروا به وبلغ سعيد بن عامر الجمحى ان أبا بكر يريد أن يبعثه فلما أبطأ ذلك عليه أتاه فقال يا أبا بكر والله لقد بلغنى انك كنت أردت أن تبعثنى فى هذا الوجه ثم رأيتك قد سكت فما أدرى ما بدا لك فى فان كنت تريد أن تبعث غيرى فابعثنى معه وان كنت لا تريد أن تبعث أحدا فانى راغب فى الجهاد فأذن لى رحمك الله كيما ألحق بالمسلمين فقد ذكر لى أن الروم جمعت لهم جمعا عظيما فقال أبو بكر رضى الله عنه رحمك الله ارحم الراحمين يا سعيد فأمر بلالا فنادى فى الناس أن انتدبوا أيها المسلمون مع سعيد بن عامر الى الشام فانتدب معه سبعمائة رجل فى أيام فلما أراد سعيد الشخوص جاء بلال فقال يا خليفة رسول الله ان كنت انما أعتقتنى لله تعالى لا لأملك نفسى وأتصرف فيما ينفعنى فخل سبيلى حتى أجاهد فى سبيل ربى فان الجهاد أحب إلى من المقام قال أبو بكر رضى الله عنه فان الله يشهد أنى لم أعتقك إلا له وانى لا أريد منك جزاء ولا شكورا فهذه الأرض ذات الطول والعرض فاسلك أى فجاجها أحببت فقال أيها الصديق كأنك عتبت على مقالتى ووجدت فى نفسك منها قال لا والله ما وجدت فى نفسى من ذلك وانى لا أحب أن تدع هواك لهواى كيف وهواك الى طاعة ربك قال فان شئت أقمت معك قال أما اذا كان هواك فى الجهاد فلم أكن آمرك بالمقام وانما أردت للأذان ولا وجدت لفراقك وحشة يا بلال ولا بد من التفرقة فرقة لا التقاء بعدها حتى يوم البعث فاعمل صالحا يا بلال وليكن زادك من الدنيا ما يذكرك الله ما حييت و يحسن لك الثواب اذا توفيت فقال له بلال جزاك الله من ولى نعمة ومن أخ بالاسلام خيرا فوالله ما أمرك لنا بالصبر على الجود والمداومة على العمل ثم قال وما كنت لأؤذن لأحد بعد النبى صلى الله عليه وسلم وخرج بلال مع سعيد بن عامر وأمر سعيد بن عامر مع من معه أن يلحقوا بيزيد بن أبى سفيان رضى الله عنهما فأقام بلال فى الشام بقصد الجهاد وتوفى بدمشق وقيل بحلب سنة عشرين أو ثمانية وعشرين

وقدم مرة المدينة للزيارة فطلب منه أهل المدينة أن يؤذن فقال لا أفعل بعد أن أذنت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فألحوا عليه فصعد فاجتمع أهل المدينة رجالهم ونساؤهم وصغارهم وكبارهم وقالوا هذا بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يؤذن فهلموا نسمع أذانه فلما قال الله أكبر الله أكبر تذكروا زمن النبي صلى الله عليه وسلم فصاحوا وبكوا جميعا فلما قال أشهد أن لا إله إلا الله ضجوا جميعا فلما قال أشهد أن محمدا رسول الله لم يبق فى المدينة ذو روح إلا بكى وصاح وخرجت العذارى والأبكار من خدورهن يبكين وصاروا كيوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فرغ من أذانه فقال أبشركم أنه لا تمس النار عينا بكت على النبي صلى الله عليه وسلم وأذن مرة بالشام فكان أيضا مثل ذلك وكان أبو بكر رضى الله عنه يحب على بن أبى طالب وكافة أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو الذى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال النظر الى على بن أبى طالب عبادة وروى مثله عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم وأخرج البخارى فى صحيحه عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال والذى نفسى بيده لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلىّ من أن أصل من قرابتى وفى رواية والله لأن أصلكم أحب إلى من أن أصل قرابتى لقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرج أبو الشيخ عن أبى بكر رضى الله عنه يا أيها الناس ان الفضل والشرف والمنزلة والولاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وذريته فلا تذهبن بكم الأباطيل وكان أبو بكر رضى الله عنه كثيرا ما يعمل بما يشير به على رضى الله عنه عند بعث الجنود للجهاد ولا يأذن له فى الخروج مع المجاهدين حرصا على بقائه معه للانتفاع برأيه ومشورته وكذا لم يأذن فى الخروج لعمر وعثمان رضى الله عنهما للاستعانة بكل منهم على تدبير أمور المسلمين ولا يفعل شيأ إلا بعد استشارتهم مع غيرهم من وجوه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال الجلال السيوطى كان أبو بكر رضى الله عنه يصوم الصيف ويفطر الشتاء وكأنه يختار الصيف للصوم لانه أشق على النفس وتقدم أن من دعاء الصديق رضى الله عنه اللهم انى أسألك الذل

عند النصف من نفسي والزهد فيما جاوز الكفاف قال في الاحياء اذا كان الصديق رضي الله عنه في كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أن فقد المال أصلح من وجوده هذا مع أن أحسن أحوال الغني أن يأخذ حلالا و ينفق طيبا ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة و يطول انتظاره ومن نوقش الحساب عذب وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها وقال ان أردت اللحوق بي فاياك و مجالسة الاغنياء ولا تنزعي قميصا حتى ترقعيه وكان أبو بكر رضي الله عنه جعل ولاية بيت المال في زمن خلافته لأمين هذه الامة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وقد تقدم أنه جاءه في زمن خلافته مال من البحرين فقسمه بين الناس وقال من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أو دين فليأتنا فجاء جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فقال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم لو جاء مال من البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا يعني ثلاث حفنات فقال أبو بكر رضي الله عنه خذ فأخذت مقدارا فوجدت عدد تلك الدراهم التي أخذتها خمسمائة فأعطاني ألفا وخمسمائة وفاء بقول النبي صلى الله عليه وسلم هكذا وهكذا وهكذا ولم يأخذ أبو بكر رضي الله عنه لنفسه من ذلك المال شيأ وفي هذا القدر كفاية والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر ما كان لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الاقتصاد في الدنيا وحسن السيرة ﴾

أخرج ابن سعد عن آصف بن قيس قال كنا جلوسا بباب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فمرت جارية فقالوا سرية أمير المؤمنين فسمعهم عمر رضي الله عنه فقال ما هي لأمير المؤمنين بسرية ولا تحل له انها من مال الله تعالى فقلنا ماذا يحل له من مال الله تعالى فقال انه لا يحل لعمر من مال الله تعالى إلا حلتان حلة للشتاء وحلة للصيف وما حج به واعتمر وقوتي وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأفقرهم ولا بأغناهم ثم أنا بعد رجل من المسلمين وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وغيرهما من طرق عن عمر رضي الله عنه قال اني أنزلت نفسي من مال الله منزلة ولي اليتيم من

ماله ان أيسرت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف فان أيسرت قضيت واتفق فى بعض السنين انه لم يأخذ من بيت المال شيأ حتى أصابته خصاصة وحاجة فاستشار الصحابة وقال مايصلح لى أن آخذه فقال على رضى الله عنه غداء وعشاء فأخذ بذلك عمر رضى الله عنه وذكر الجلال السيوطى فى تاريخ الخلفاء ان ذلك كان من عمر رضى الله عنه فى ابتداء ولايته فذكر أنه فى أول ولايته لم يأخذ من بيت المال شيأ حتى أصابته خصاصة فقال مايصلح لى أن آخذه فقال على رضى الله عنه غداء وعشاء فأخذ بذلك عمر رضى الله عنه وقال ابن سعد قال محمد بن ابراهيم كان عمر رضى الله عنه ينفق كل يوم درهمين له ولعياله واحتاج مرة عسلا للتداوى به وكان فى بيت المال عكة من عسل فقال ان أذنتم لى والا فذلك على حرام فأذنوا له فأخذ من العكة بقدر الحاجة وكان رضى الله عنه يأكل خبز الشعير ويأتدم بالزيت ويلبس المرقوع ويخدم نفسه وكان يقول مانعبأ بلذات العيش ولكنا نبقى طيباتنا لآخرتنا ولما كلمته ابنته حفصة وابنه عبد الله وغيرهما قالوا له لو أكلت طعاما طيبا لكان أقوى لك على الحق قال أكلكم على هذا الرأى قالوا نعم قال قد علمت نصحكم ولكنى تركت صاحبىّ على جادّة فان تركت جادّتهما لم أدركهما فى المنزل و يعنى بصاحبيه النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضى الله عنه واجتمع مرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد زهاء خمسين رجلا فقالوا أماترون الى زهد هذا الرجل والى حليته وقد فتح الله على يديه ديار كسرى وقيصر وطرفى المشرق والمغرب والعجم يأتونه فيرون عليه هذه الجبة وقد رقعها بثنتى عشرة رقعة فلو سألتموه معاشر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يغير هذه الجبة بثوب لين فيهاب منظره ويغدى عليه بجفنة من الطعام ويراح عليه بجفنة يأكل منها من حضره من المهاجرين والأنصار فقال القوم بأجمعهم ليس هذا القول إلا لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه فانه صهره لكونه زوجه ابنته أم كلثوم رضى الله عنهم فقال على لست بفاعل ذلك ولكن عليكم بأزواج النبى صلى الله عليه وسلم

أمهات المؤمنين فانهن يجرأن عليه قال الاحنف بن قيس فسألوا عائشة رضي الله عنها وحفصة وكانتا مجتمعتين فقالت عائشة أسأله ذلك وقالت حفصة ما أراه يفعل وسيتبين لك ذلك فدخلتا عليه فقربهما وأدناهما فقالت عائشة رضي الله عنها أتأذن لي أن أكلمك فقال تكلمي يا أم المؤمنين فقالت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قضى الى جنة ربه ورضوانه لم يرد الدنيا ولم ترده وكذلك مضى أبو بكر على أثره وقد فتح الله عليك كنوز كسرى وقيصر وديارهما وحمل اليك أموالهما وذل لك الطرفان المشرق والمغرب ونرجو من الله المزيد ورسل العجم يأتونك ووفود العرب تفد اليك وعليك هذه الجبة قد رقعتها اثنتي عشرة رقعة فلو غيرتها بثوب لين يهاب فيه منظرك ويغدى عليك بجفنة من طعام ويراح عليك بأخرى تأكل منها أنت ومن حضرك من المهاجرين والانصار فبكى عمر رضي الله عنه عند ذلك بكاء شديدا ثم قال سألتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شبع من خبز بر عشرة أيام أو خمسة أيام أو ثلاثة أيام أو جمع بين عشاء وغداء حتى لحق بالله عز وجل قالت لا قال أنشدك بالله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرب اليه طعام على مائدة في ارتفاع شبر من الارض إلا كان يأمر بالطعام فيوضع على الارض قالت اللهم نعم ثم قال أنتما زوجتا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين لكما على المؤمنين حق وعلي خاصة وقد أتيتماني ترغباني في الدنيا واني لأعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس جبة من الصوف وربما حكت جلده من خشونتها أتعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرقد على عباء على طاق واحد وكان مسح في بيتك يا عائشة يكون بالنهار بساطا وبالليل فراشا ينام عليه وكان يرى أثر الحصير في جنبه ألا يا حفصة أنت حدثتني أنك ثنيت له المسح ليلة فوجد لينه فرقد عليه فلم يستيقظ إلا بأذان بلال فقال يا حفصة ماذا صنعت ثنيت المهاد حتى ذهب بي النوم الى الصباح مالي وللدنيا ومالدنيا ولي شغلتموني بلين الفراش يا حفصة أما تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مغفورا له ولم

يزل جائعا ساجدا راكعا باكيا متضرعا آناء الليل والنهار الى أن قبضه الله تعالى الى رحمته ورضوانه لا أكل عمر طيبا ولا لبس لينا فله أسوة بصاحبيه ولا جمع بين إدامين الا الماء والزيت ولا أكل لحما إلا فى كل شهر فخرجنا من عنده فأخبرنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل كذلك حتى لحق عمر رضى الله عنه بالله عز وجل وكان رضى الله عنه يقول إن من ولى أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب لهم عليه ما يجب على العبد من النصح وأداء الأمانة ولما أصاب الناس القحط فى العام الذى كانوا يسمونه عام الرمادة ما أكل عمر رضى الله عنه فى ذلك العام سمنا ولا سمينا قال أنس رضى الله عنه قد قرقرت بطن عمر عام الرمادة من أكل الزيت فطعن بطنه بأصبعه وقال ليس عندنا غيره حتى يحيا الناس ومن ثم تغير لونه فى هذا العام حتى صار أسمر وقال مرة لمن كلمه فى طعامه ويحك آكل طيباتى فى الدنيا وأستمتع بها وقال لابنه عاصم وهو يأكل لحما كفى بالمرء سرفا أن يأكل كل ما اشتهى وكان رضى الله عنه يداوم على أكل التمر ولا يداوم على أكل اللحوم ويقول اياكم واللحم فان له ضراوة كضراوة الخمر أى ان له عادة تنزع النفس اليها كعادة الخمر وعن جعفر بن أبى العاص رضى الله عنه قال أكلت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخبز والزيت والخبز واللبن والخبز والخل والخبز واللحم القديد وأعلى ذلك اللحم الغريض أى الطرى وكان رضى الله عنه يقول لا تنخلوا الدقيق فانه كله طعام وأتى مرة بخبز غليظ فجعل يأكل ويقول لنا كلوا فجعلنا نعتذر فقال مالكم لا تأكلون فقلنا لا كله أنت والله يا أمير المؤمنين نرجع الى طعام هو ألين من طعامك وعن حفصة رضى الله عنها قالت دخل على عمر مرة فقدمت له مرقة باردة وصببت عليها زيتا فقال ادامان فى إناء واحد لا أذوقه أبدا حتى ألقى الله عز وجل وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال دخل علينا أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ونحن على مائدة فأوسعت له عن صدر المجلس فقال باسم الله ثم ضرب بيده فى لقمة فلقمها ثم ثنى بأخرى ثم قال انى لأجد طعم دسم غير دسم اللحم فقال عبد الله يا أمير المؤمنين انى خرجت الى السوق أطلب السمن لأشتريه

فوجدته غاليا فاشتريت بدرهم من اللحم المهزول وجعلت عليه بدرهم سمنا فقال عمر رضى الله عنه ما اجتمعا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أكل أحدهما وتصدق بالآخر فقال عبد الله يا أمير المؤمنين اذن فلم يجتمعا عندى أبدا إلا فعلت ذلك وعن جابر رضى الله عنه قال رأى عمر بن الخطاب لحما معلقا فى يدى فقال ما هذا يا جابر قلت اشتهيت لحما فاشتريت فقال عمر أو كلما اشتهيت اشتريت يا جابر أما تخاف الآية أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها وجىء له مرة بلحم فيه سمن فأبى أن يأكله وقال كل واحد منهما ادام وكان رضى الله عنه يقول والله ما يمنعنا أن نأمر بصغار المعز فيسمط لنا ونأمر بلباب الحنطة فيخبز لنا ونأمر بالزبيب فينبذ لنا فنأكل هذا ونشرب هذا إلا أنا نستبقى طيباتنا لانا سمعنا الله يقول أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها وكان رضى الله عنه يلبس وهو خليفة جبة من صوف مرقوعا بعضها بأدم وفى رواية من جراب ويطوف فى الاسواق وعلى عاتقه الدرة يؤدب الناس ويمر بالنوى فيلتقطه ويلقيه فى منازل الناس ينتفعون به وتأكله شياههم وقال أنس رضى الله عنه رأيت بين كتفى عمر رضى الله عنه أربع رقاع فى قميصه وقال أبو عثمان النهدى رأيت على عمر ازارا مرقوعا بأدم وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه رأيت عمر يطوف بالكعبة وعليه ازار فيه احدى وعشرون رقعة فيها أدم وقال الحسن خطب عمر الناس وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة فيها أدم ولما حج لم يتظلل إلا تحت كساء أو نطع يلقيه على شجرة وكانت جملة نفقته فى حجته ستة عشر دينارا ومع ذلك يقول أسرفنا فى هذا المال وقال نافع العبسى دخلت دار الصدقة مع عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعثمان بن عفان رضى الله عنهم فجلس عثمان فى الظل يكتب ومعه على قائم على رأسه يملى عليه ما يقول عمر وعمر قائم فى الشمس فى يوم شديد الحر عليه بردان أسودان اتزر بأحدهما ولف الآخر على رأسه يتفقد ابل الصدقة يكتب ألوانها وأسنانها فقال على لعثمان رضى الله عنهما قال الله فى كتابه ان خير من استأجرت القوى الأمين هذا هو القوى الأمين وخطب عمر رضى الله عنه

الناس مرة فقال والذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات لخشيت أن يسألنى الله عنه وخطب مرة فقال أيها الناس انى لم أرسل اليكم عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم وانما أرسلتهم اليكم ليعلموكم أمر دينكم وسنة نبيكم فمن فعل به شئ سوى ذلك فليرفعه الى فوالذى نفسى بيده لاقصنه منه وقال سلام بن مسكين كان عمر رضى الله عنه اذا احتاج شيأ أتى عبدالله بن مسعود وكان هو صاحب بيت المال فاستقرضه فربما أعسر فيأتيه صاحب بيت المال ليتقاضاه فيلزمه فيحتال له عمر فيعطيه أو يسأله الامهال حتى يخرج عطاؤه فاذا خرج عطاؤه قضاه قال سالم بن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما كان عمر اذا نهى الناس عن شئ جمع أهله فقال انى نهيت الناس عن كذا وكذا وان الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحدا فعله منكم إلا أضعفت عليه العقوبة وقال محمد بن سيرين قدم على عمر صهر له من مكة فطلب أن يعطيه من بيت المال فانتهره وقال أردت أن ألقى الله ملكا خائنا ثم أعطاه من صلب ماله عشرة آلاف درهم وكان رضى الله عنه يقول أحب الناس الى من رفع الى عيوبى وكان مرة يقسم مالا للمسلمين فدخلت ابنة له وأخذت درهما فنهض عمر فى طلبها حتى سقطت الملحفة من أحد منكبيه ودخلت الصبية الى بيت أهلها تبكى وجعلت الدرهم فى فيها فادخل عمر أصبعه فى فيها فأخرجه وطرحه على الخراج وقال أيها الناس ليس لعمر ولا لآل عمر الا ما للمسلمين قريبهم و بعيدهم وكسح أى كنس أبو موسى الاشعرى رضى الله عنه بيت المال مرة بأمر عمر فوجد درهما فمر ابن لعمر فأعطاه اياه فرأى عمر ذلك فى يد الغلام فسأله عنه فقال أعطانيه أبو موسى فقال يا أبا موسى ما كان من أهل المدينة أهل بيت أهون عليك من آل عمر أردت أن لا يبقى أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم الا طلبنا بمظلمة ورد الدرهم الى بيت المال مع أن المال كان حلالا ولكنه خاف أن لا يستحق هو ذلك القدر فكان يستبرئ لدينه و يقتصر على الأقل امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك الى ما لا يريبك ولقوله صلى الله عليه وسلم من تركها أى الشبهات فقد

استبرأ لعرضه ودينه وعن طارق بن شهاب قال قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الشام فلقيه الجنود وعليه ازار ورداء وخفان وعمامة وهو آخذ برأس راحلته يخوض الماء قد خلع خفيه وجعلهما تحت ابطه فقالوا له يا أمير المؤمنين الآن يلقاك الجنود و بطارقة الشام وأنت على هذه الحال فقال عمر انا قوم أعزنا الله بالاسلام فلا نلتمس العز فى غيره وروى أنه قال يوما وهو على المنبر يامعشر المسلمين ماذا تقولون لو ملت برأسى الى الدنيا كذا وميل رأسه فقام اليه رجل فاستل سيفه وقال نقول بالسيف كذا وأشار الى قطعه فقال عمر رحمك الله الحمد لله الذى جعل فى رعيتى من اذا تعوجت أقامنى وجاءته مرة برود من اليمن ففرقها على الناس بردا بردا ثم صعد المنبر يخطب وعليه بردان ازار ورداء فقال اسمعوا رحمكم الله فقام اليه رجل من القوم فقال والله لا نسمع والله لا نسمع فقال عمر لم يا عبد الله قال لانك أعطيتنا بردا بردا وخرجت تخطب فى بردين فقال عمر أين عبد الله بن عمر فقال عبد الله هنا يا أمير المؤمنين فقال لمن أحد هذين البردين اللذين على قال لى فقال للرجل عجلت على يا عبد الله انى كنت غسلت ثوبى الخلق فاستعرت ثوب عبد الله فقال الرجل قل الآن نسمع ونطع ولما رجع رضى الله عنه من الشام ووصل الى المدينة تفرد عن الناس يوما ليعرف أخبارهم فمر بعجوز فى خبائها فقصدها فقالت ياهذا مافعل عمر لما رجع من الشام قال هو ذا قد أقبل من الشام ووصل الى المدينة قالت لا جزاه الله عنى خيرا قال و يحك لم قالت لأنه والله ما نالنى من عطائه منذ ولى الخلافة الى يومنا هذا دينار ولا درهم قال و يحك وما يدرى عمر حالك وأنت فى هذا الموطن فقالت سبحان الله ماظننت أن أحدا يلى على الناس ولا يدرى مابين مشرقها ومغربها فصار يبكى و يقول واعمراه واخصوماه كل أحد أفقه منك يا عمر ثم لم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين دينارا فبينما هو كذلك اذ أقبل على بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما فقالا السلام عليك يا أمير المؤمنين فوضعت المرأة يدها على رأسها وقالت واسوأتاه شتمت أمير المؤمنين فى وجهه فقال لها عمر لا بأس عليك يرحمك الله ثم طلب عمر رضى الله عنه قطعة

فكتب فيها بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ ولي الى يومنا هذا بخمسة وعشرين دينارا فما تدعي عند وقوفه في المحشر بين يدي الله عز وجل فعمر منه بريء شهد على ذلك علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود ورفع الكتاب الى علي رضي الله عنه وقال له اذا تقدمتك أي مت قبلك فاجعلها في كفني وعن الاوزاعي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج ليلة في سواد الليل فرآه طلحة رضي الله عنه فتبعه فذهب عمر فدخل بيتا فلما أصبح طلحة ذهب الى ذلك البيت فاذا بعجوز عمياء مقعدة فقال لها ما بال هذا الرجل يأتيك فقالت انه يتعاهدني منذ كذا وكذا بما يصلحني ويخرج عني الاذى فقال طلحة لنفسه ثكلتك أمك يا طلحة أعثرات عمر تتتبع رضي الله عنهما وعن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم عن مولى لعثمان بن عفان رضي الله عنه قال بينا أنا مع عثمان في مال له بالعالية في يوم صائف اذ رأى رجلا يسوق بكرين وعلى الارض مثل الفراش من الحر فقال عثمان رضي الله عنه ما على هذا لو أقام بالمدينة حتى يبرد ثم تروح ثم دنا الرجل فقال انظر فنظرت فاذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقلت له هذا أمير المؤمنين فقام عثمان رضي الله عنه فأخرج رأسه من الباب فاذا لفح السموم فاعاد رأسه حتى حاذاه قال ما أخرجك هذه الساعة قال بكران من ابل الصدقة تخلفا وقد مضى الراعي بابل الصدقة أردت أن ألحقهما بالحما وخشيت أن يضيعا فيسألني الله عنهما فقال عثمان رضي الله عنه هلم يا أمير المؤمنين الى الماء والظل ونكفيك قال عد الى ظلك وسار فقلت عندنا من يكفيك فقال عد الى ظلك ومضى فقال عثمان رضي الله عنه من أحب أن ينظر الى القوي الامين فلينظر الى هذا أخرجه الشافعي رحمه الله في مسنده ولما جهز الجيوش لفتح العراق جعل الامير عليهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ولما انقضت القادسية كتب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بالفتح وبعدة من قتل وبعدة من أصيب من المسلمين وأرسل ذلك مع سعد بن عميلة الفزاري وكان عمر رضي الله عنه يخرج خارج المدينة كل يوم يسأل الركبان من حين يصبح

الى انتصاف النهار يسأل عن أهل القادسية ثم يرجع الى أهله ومنزله فلقى هذا البشير المرسل فى يوم من تلك الايام التى كان يخرج فيها فقال له من أين فأخبره والرجل المرسل راكب على ناقته يسير بسرعة وعمر رضى الله عنه يخب على رجليه معه وهو يسأله والبشير لا يعرفه فقال له عمر أخبرنى يا عبد الله قال هزم الله المشركين فأخبره الخبر فلم يزل عمر سائرا تحت ناقة ذلك البشير يسأله حتى دخل المدينة فاذا الناس يسلمون عليه بامرة المؤمنين فقال البشير هلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين قال لا بأس عليك يا أخى وعن الاحنف بن قيس قال أخرجنا عمر رضى الله عنه فى سرية الى العراق ففتح الله علينا العراق و بلاد فارس فأصبنا فيها من بياض فارس وخراسان فحملناه معنا واكتسينا منها فلما قدمنا على عمر رضى الله عنه أعرض عنا بوجهه وجعل لا يكلمنا فاشتد ذلك علينا فشكونا الى ابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فقال ان عمر زاهد فى الدنيا وقد رأى عليكم لباسا لم يلبسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الخليفة من بعده فأتينا منازلنا فنزعنا ما كان علينا وأتيناه فى برد يعهدها منا فقام فسلم علينا رجلا رجلا واعتنقنا رجلا رجلا حتى كأنه لم يرنا قبل فقدمنا اليه الغنائم فقسمها بيننا بالسوية فعرض فى الغنائم شئ من أنواع الخبيص من أصفر وأحمر فذاقه عمر فوجده طيب الطعم والريح فأقبل علينا بوجهه وقال يا معشر المهاجرين والانصار ليقتلن منكم الابن أباه والاخ أخاه على هذا الطعام ثم أمر به فحمل الى أولاد من قتل من المسلمين بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والانصار ثم ان عمر قام وانصرف ولم يأخذ لنفسه شيأ من تلك الغنائم وعن الاحنف أيضا قال لما فتح العراق وحملت الى عمر خزائن كسرى قال له صاحب بيت المال ألا ندخله بيت المال قال لا والله لا تأوى تحت سقف حتى أقسمه فبسط الأنطاع فى المسجد وكشفوا عن الاموال فرأى شيأ عظيما من الذهب والجوهر فقال ان الذى أدى هذا لأمين فقالوا أنت أمين الله وهم يؤدون اليك ما أديت الى الله تعالى فقسمه ولم يأخذ منه شيأ وفى صحيح البخارى قال النبى صلى الله عليه وسلم ان هذا

المال خضرة حلوة وقال الله تعالى زين للناس حب الشهوات الآية وقال عمر رضى الله عنه اللهم إنا لا نستطيع الا أن نفرح بما زينته لنا اللهم انى أسألك أن أنفقه فى حقه وفى رواية للدارقطنى لما فتح العراق وجاء الى عمر خزائن كسرى وأمواله بكى وقرأ زين للناس الآية ثم قال اللهم انا لا نستطيع الا أن نفرح بما زينته لنا فقنى شره وارزقنى أن أنفقه فى حقه وقسم تلك الأموال فما قام حتى ما بقى منها شئ وكان رضى الله عنه لما جاءت تلك الاموال يبكى ويقول ان الله زوى الدنيا عن النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه وفتحها لى فأخاف أن أكون مستدرجا وفى رواية رواها الشافعى رضى الله عنه لما قدم على عمر رضى الله عنه ما أصيب من مال العراق قال له صاحب بيت المال أدخله فى بيت المال فقال لا ورب الكعبة لا يأوى تحت سقف بيت حتى أقسمه فأمر به فوضع فى المسجد ووضعت عليه الانطاع وحرسه رجال من المهاجرين والأنصار فلما أصبح غدا ومعه العباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف فلما كشفوا الانطاع عن الاموال رأى منظرا لم ير مثله من الذهب والياقوت والزبرجد واللؤلؤ يتلألأ فبكى عمر فقال له أحدهما انه والله ما هو بيوم بكاء ولكنه يوم شكر وسرور فقال والله ما ذهبت حيث ذهبت ولكنه والله ما كثر هذا فى قوم قط الا وقع بأسهم بينهم ثم أقبل على القبلة ورفع يديه الى السماء وقال اللهم انى أعوذ بك أن أكون مستدرجا فانى أسمعك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ثم قسم ذلك المال ولم يأخذ لنفسه منه شيأ رضى الله عنه وكان من جملة ما غنمه المسلمون بالعراق بساط كسرى ويقال له بهار كسرى والقطيف وهو بساط واحد طوله ستون ذراعا وعرضه ستون ذراعا كانت الاكاسرة ملوك فارس تعده للشتاء اذا ذهبت الرياحين شربوا عليه فكأنهم فى رياض فيه طرق كالصور وفيه فصوص كالانهار أرضها مذهبة وخلاف ذلك فصوص كالدر وفى حافاته كالارض المزروعة والارض المبقلة بالنبات فى الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب وزهره الذهب والفضة وثمره الجواهر وأشباه ذلك وكانت

العرب تدعيه القطيف فلما قسم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الغنائم بين الغانمين أراد أن يخرج خمس القطيف لبيت المال و يقسم أربعة أخماسه على الغانمين فلم تعتدل قسمته فقال للمسلمين هل تطيب أنفسكم على أربعة أخماسه فنبعث به الى أمير المؤمنين يضعه حيث شاء فانا لانراه ينقسم وهو بيننا قليل وهو يقع من أهل المدينة موقع فقالوا نعم فبعثه الى عمر رضي الله عنه فلما قدموا بالقطيف مع خمس الغنائم قال عمر رضي الله عنه بعد ان قسم الاموال أشيروا على في هذا القطيف فمن مشير بقبضه وابقائه في بيت المال وآخر مفوض اليه فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يجعل الله علمك جهلا و يقينك شكا انه ليس لك من الدنيا الا ما أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت أو أكلت فأفنيت انك ان تبقه عن هذا اليوم لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له فقال صدقتني ونصحتني فقطعه وقسمه بينهم قال في السيرة الحلبية فأصاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه قطعة منه فباعها بعشرين ألف دينار ولم يأخذ عمر رضي الله عنه من ذلك لنفسه شيأ ولما فرض للمهاجرين الاولين العطاء فرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف وكان من المهاجرين الاولين فقيل له انك فرضت للمهاجرين الاولين أربعة آلاف فلم نقصته عن أربعة آلاف فقال انما هاجر به أبوه فليس هو كمن هاجر بنفسه وقسم مرة مالا فأعطى الحسن والحسين رضي الله عنهما ألفا ألفا وأعطى ابنه عبد الله خمسمائة فقيل له يا أمير المؤمنين ان ابنك عبد الله كان يضرب بالسيف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن والحسين طفلان يدرجان في سكك المدينة تعطيهما ألفا ألفا وتعطيه خمسمائة فقال اذهب فأتني بأب كأبيهما وأم كأمهما وجد كجدهما وجدة كجدتهما وعم كعمهما وخال كخالهما وخالة كخالتهما فانك لا تأتي به أما أبوهما فعلي رضي الله عنه وأما أمهما ففاطمة الزهراء وأما جدهما فمحمد المصطفى صلى الله عليه وسلم وأما جدتهما فخديجة الكبرى وأما عمهما فجعفر بن أبي طالب وأما خالهما فابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما خالتهما فرقية وأم كلثوم بنتا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت صلته لاقارب رسول الله صلى

الله عليه وسلم أكثر من غيرهم قال الزهري كان عمر رضي الله عنه اذا أتاه مال من العراق أو غيره لم يدع رجلا عزبا من بني هاشم الا زوجه ولا رجلا منهم ليس له خادم الا أخدمه وعن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال قدمت على عمر حلل من اليمن فقسمها بين المهاجرين والانصار ولم يكن فيها على قدر الحسن والحسين رضي الله عنهما فكتب الى صاحب اليمن أن يعمل حلتين على قدرهما ففعل وبعث بهما الى عمر فالبسهما اياهما فلبساهما ولما دون الدواوين وفرض العطاء بدأ ببني هاشم وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال اشتريت ابلا وارتجعتها الى الحما فلما سمنت قدمت بها قال فدخل عمر السوق فرأى ابلا سمانا فقال لمن هذه فقيل لعبد الله بن عمر فجعل يقول بخ بخ يا عبد الله بن أمير المؤمنين قال فجئته أسعى فقلت مالك يا أمير المؤمنين قال ما هذه الابل فقلت ابل انضاء يعني مهازيل اشتريتها وبعثت بها الى الحما أبتغي ما يبتغي المسلمون فقال أرعوا ابل ابن أمير المؤمنين اسقوا ابل ابن أمير المؤمنين يا عبد الله اغد على رأس مالك وأتني بباقيه أجعله في بيت مال المسلمين ففعلت ذلك وفي رواية انه أخذ شطر الربح وجعله في بيت المال فكأنه غرمه شطر الربح وجعله بالاجتهاد قيمة الكلا الذي للمسلمين وذكر بعضهم ان تلك الابل كانت لعبد الله وأخيه عبيد الله شركة وأخذ مرة ابناه عبد الله وعبيد الله مالا من أبي موسى حين ولايته بالعراق ليوصلاه الى عمر بالمدينة فاستأذنا أبا موسى أن يتجرا في المال على سبيل القراض ويشتريا به شيأ يبيعانه في المدينة فأذن لهما فأخذ عمر رضي الله عنه ربح مال القراض وأدخله بيت المال وقال لهما انما أعطيتما المكان كما مني أي انما كان اعطاؤهما المال والاذن لهما في التجارة فيه لاجل انهما ابنا أمير المؤمنين وعن قتادة قال بعث عمر رضي الله عنه رسولا الى ملك الروم فاستقرضت أم كلثوم بنت علي رضي الله عنهما وكانت امرأة عمر دينارا فاشترت به عطرا وجعلته في قارورة وبعثت به مع الرسول الى امرأة ملك الروم فلما أتاها بعثت لها شيأ من الجواهر وقالت للرسول اذهب به الى امرأة عمر فلما أتاها فرغته على البساط

فدخل عمر فقال ماهذا فأخبرته فأخذ الجواهر وخرج بها الى المسجد ونادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس أخبرهم الخبر وأراهم الجواهر وقال ماترون فى ذلك فقالوا انا نراها تستحق ذلك لانه هدية جاءتها من امرأة لاجزية ولا خراج عليها ولا يتعلق بها حكم من أحكام الرجال فقال لكن الزوجة زوجة أمير المؤمنين والرسول رسول أمير المؤمنين والراحلة التى ركبها للمؤمنين وماجاء ذلك كله لولا المؤمنون فأرى أن ذلك لبيت مال المسلمين ونعطيها رأس مالها فباع الجواهر ودفع لزوجته دينارا وجعل مابقى فى بيت مال المسلمين ويروى ان امرأة أبى عبيدة أرسلت الى امرأة ملك الروم هدية مثل تلك الهدية فكافأتها بجوهر فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فأخذه فباعه وأعطاها ثمن هديتها ورد باقيه الى بيت مال المسلمين وأتى عمر مرة بمسك فأمر ان يقسم بين المسلمين ثم سد أنفه فقيل له فى ذلك فقال وهل ينتفع منه الا بريحه ودخل يوما على زوجته فوجد معها ريح مسك فقال ماهذا قالت انى بعت من مسك فى بيت مال المسلمين ووزنت بيدى فلما وزنت مسحت أصبعى فى متاعى هذا فقال ناولينى متاعك فأخذه فصب عليه الماء فلم يذهب فجعل يدلكه فى التراب ويصب عليه الماء حتى ذهب ريحه وعن سفيان بن عيينة ان سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه بعد أن فتح العراق وهو على الكوفة كتب الى عمر رضى الله عنه يستأذنه فى بناء منزل يسكنه فكتب اليه ابن مايسترك من الشمس ويكنك من الغيث وعن أبى عثمان النهدى قال كتب عمر الينا ونحن باذربيجان مع عتبة بن فرقد يقول ياعتبة انه ليس من كدك ولا من كد أبيك فاشبع المسلمين فى رحالهم مما تشبع منه فى رحلك واياكم والتنعم وزى أهل الشرك ولبوس الحرير فان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لبوس الحرير وأخرج ابن السماك عن أبى جعفر محمد الباقر رضى الله عنه قال بينما عمر رضى الله عنه يمشى فى طريق من طرق المدينة اذ لقيه على والحسن والحسين رضى الله عنهم فسلم عليه على رضى الله عنه وأخذ بيده واكتنفهما الحسن والحسين عن يمينهما وشمالهما فعرض لعمر رضى الله عنه من

البكاء ما كان يعرض له فقال له على رضى الله عنه ما يبكيك يا أمير المؤمنين فقال عمر رضى الله عنه من أحق منى بالبكاء يا على وقد وليت أمر هذه الامة أحكم فيها ولا أدرى أمسىء أنا أم محسن فقال له على والله انك لتعدل فى كذا وتعدل فى كذا فما منعه ذلك من البكاء ثم تكلم الحسن بما شاء الله فذكر من ولايته وعدله فلم يمنعه ذلك فتكلم الحسين مثل كلام الحسن فانقطع بكاؤه ثم قال أتشهد ان لى بذلك يعنى العدل فقال على رضى الله عنه اشهد وأنا معكما شهيد وعن الشعبى ان على بن أبى طالب رضى الله عنه قال لأهل نجران ان عمر كان سيد الامة ولن أغير شيأ صنعه وعنه أيضا ان عليا رضى الله عنه لما دخل الكوفة قال ما كنت أحل عقدة شدها عمر وعن الحسن بن على رضى الله عنهما قال لا أعلم ان عليا خالف عمر ولا غير شيأ مما صنعه وعن زيد بن على بن الحسين رضى الله عنهم ان عليا رضى الله عنه كان يشبه بعمر فى السيرة وعن أبى اسحاق عمن حدثه انه كان جليسا لعلى رضى الله عنه فبكى بكاء شديدا فقيل له ما يبكيك يا أمير المؤمنين قال ذكرت أخى عمر وهذا البرد على كسانيه خليلى وصفيي وصديقى وصاحبى عمر بن الخطاب وقال مرة ان عمر ناصح نبيه صلى الله عليه وسلم فنصحه الله ثم بكى وكان على رضى الله عنه يقول اذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر وكان على رضى الله عنه يقول لا يبلغنى ان أحدا فضلنى على عمر الا جلدته حد المفترى وخطب مرة على رضى الله عنه خطبة طويلة وقال فيها وان الله تعالى صير الامر الى عمر فى المسلمين فمنهم من رضى ومنهم من سخط فكنت ممن رضى فوالله ما فارق الدنيا حتى رضى به من سخط فأعز الله باسلامه الاسلام وجعله للدين قواما وضرب الله الحق على لسانه حتى ظننا ان ملكا ينطق على لسانه وقذف الله فى قلوب المؤمنين الحب له وفى قلوب المنافقين الرهبة منه سيرته سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن لكم مثله وروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه لما توفى عمر وسجى رضى الله عنه وقف عليه على بن أبى طالب رضى الله عنه وقال ما على الارض رجل أحب الى ان ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى زاد فى رواية لابن السماك ثم

بكى على رضى الله عنه حتى اخضلت لحيته بالدموع وفى رواية أخرى ان عليا رضى الله عنه قال رحمك الله يا ابن الخطاب ان كنت لآيات الله لعالما وان كان الله فى صدرك لعظيما وان كنت لتخشى الله ولا تخشى الناس فى الله جوادا بالحق بخيلا بالباطل خميصا من الدنيا بطينا من الآخرة وعن أوس بن حكيم قال رأيت على بن أبى طالب رضى الله عنه حين موت عمر رضى الله عنه قد نكس رأسه ثم رفعه فقال واعمراه يا نقى الثوب قليل العيب واعمراه ذهب بالسنة وابقى الفتنة أصاب والله ابن الخطاب خيرها وانتحى شرها وروى ان ملك الموت لما دخل دار عمر ليقبض روحه سمعه عمر وهو يقول هذا بيت أمير المؤمنين ليس فيه شئ كأنه القبر فأجابه عمر وقال يا ملك الموت من تكون أنت خلفه هكذا يكون بيته وأخرج أبو يعلى عن عمار بن ياسر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانى جبريل آنفا فقلت يا جبريل حدثنى بفضائل عمر بن الخطاب فقال لو حدثتك بفضائل عمر منذ لبث نوح فى قومه ما نفدت فضائل عمر وان عمر حسنة من حسنات أبى بكر رضى الله عنهما وربما ان العقول القاصرة تستبعد كثرة هذه الفضائل لعمر رضى الله عنه لكن من كان ذا بصيرة وأمعن فكره فيما خص الله به عمر من الفضائل فى نفسه وفيما أجراه الله على يديه وما حصل للاسلام وأهله بسببه من كونه أعز الله به الاسلام فى ابتدائه ومن كثرة الفتوحات التى فتحها الله على يده حتى كثر العلم واتسع الاسلام وكثر المسلمون يتضح له أن كل خير وقع لاهل الاسلام منذ خلافة عمر رضى الله عنه الى يوم القيامة كله من فضائل عمر رضى الله عنه ومن حسناته ويكتب الله له مثل أجورهم وذلك كثير لا يمكن ضبطه ولا احصاؤه ولو مكث العبد منذ لبث نوح فى قومه وأخرج عبد الله ابن الامام أحمد فى زوائد المسند عن أنس بن مالك رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انى لارجو لامتى فى حبهم لابى بكر وعمر ما أرجو لهم فى قول لا اله الا الله وأخرج أبو ذر الهروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر معى وأنا مع عمر والحق بعدى مع عمر حيث كان وهذا مثل ما قاله صلى الله عليه وسلم فى حق على

رضى الله عنه حيث قال وأدر الحق معه حيث دار فكل من عمر وعلى رضى الله عنهما كان مع الحق ولهذا كان على رضى الله عنه مع الخلفاء الثلاثة قبله فى زمن خلافتهم ولم ينازع أحدا منهم لعلمه بأنهم كانوا مع الحق فكان هو معهم فلما جاءت نوبة خلافته رضى الله عنه ونوزع فى ذلك قاتل من نازعه فلا يصح أن ينسب اليه أن سكوته فى زمن خلافة الخلفاء الثلاثة كان تقية حماه الله من المحاباة فى دين الله تعالى والله سبحانه وتعالى أعلم قال المسعودى فى تاريخه المسمى مروج الذهب فى صفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان متواضعا خشن الملبس شديدا فى ذات الله واتبعه عماله فى سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه كل منهم يتشبه به ممن غاب أو حضر وكان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالادم ويشتمل بالعباء ويحمل القربة على كتفه مع هيبة قد رزقها وكان أكثر ركابه الابل ورحله مشدودة بالليف وكذلك عماله مع مافتح الله عليه من البلاد وأوسعهم من الاموال وكان من عماله على حمص سعيد بن عامر بن حذيم الجمحى فلما قدم عمر الشام شكاه أهل حمص اليه وسألوه عزله فقال عمر اللهم لا تضيع فراستى فيه ماذا تشكون منه قالوا لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار ولا يجيب أحدا بليل وله يوم فى الشهر لا يخرج الينا فقال عمر على به فلما جمع بينهم وبينه قال ماذا تنقمون منه قالوا لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار فقال ماتقول ياسعيد قال ياأمير المؤمنين انه ليس لاهلى خادم فأعجن عجينى ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزى ثم أتوضأ وأخرج اليهم قال وماذا تنقمون منه قالوا لا يجيب بليل قال ماتقول يا سعيد قال قد كنت أكره أن أذكر هذا انى قد جعلت الليل كله لربى وجعلت النهار لهم قال وماذا تنقمون منه قالوا له يوم فى الشهر لا يخرج الينا قال نعم ليس لى خادم فأغسل ثوبى ثم أجففه فأمسى فقال عمر الحمد لله الذى لم يضيع فراستى فيك ثم قال عمر ياأهل حمص ماتقولون فقالوا ما نريد غيره فأبقه لنا ياأمير المؤمنين فقال استوصوا به خيرا ثم بعث اليه عمر بألف دينار وقال استعن بها فقالت امرأته قد أغنانا الله عن خدمتك فقال لها ألا ندفعها الى من يأتينا بها أحوج ما كنا اليها

يعني يوم القيامة قالت بلى فصرها صررا ثم دفعها الى من يثق به وقال انطلق بهذه الى فلان وبهذه الى فلان يتيم آل فلان مسكين آل فلان حتى بقي منها شيء يسير فدفعه الى امرأته فقال انفقي هذه وعاد الى خدمته فقالت له امرأته ألا تبعث بذلك المال فتشتري لنا منه خادما فقال سيأتيك أحوج ما تكونين اليه يعني يوم القيامة وذكر بعضهم هذه القصة وزاد فيها فقال وأرسل عمر رضي الله عنه الى سعيد بن عامر ألف دينار فجاء الى أهله حزينا كئيبا فقالت امرأته أحدث أمر قال أشد من ذلك ثم قال أريني درعك الخلق فشقه وجعله صررا وفرقه ثم قام يصلي ويبكي الى الغداة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام حتى ان الرجل من الاغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج وروى بعضهم هذه القصة فقال لما بعث عمر رضي الله عنه سعيد بن عامر واليا على حمص اشتدت فاقته حتى تحدث الناس بفقره فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فأرسل اليه بأربعمائة دينار وكتب اليه يعزم عليه لينفقها على نفسه وأهله فلما اقرأ الكتاب اهتم هما شديدا حتى تبين عليه فقالت امرأته نفسي فداك مالي أراك مهتما أبلغك موت أمير المؤمنين قال اعظم من ذلك قالت أبلغك من ثغور المسلمين شيء فقال أعظم من ذلك قالت وما هو قال ابتليت بالدنيا وقد كنت صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ابتل بها وصحبت أبا بكر فلم أبتل بها وابتليت بها في صحبة عمر ألا فشر أيامي أيام عمر قالت وماذاك بأبي أنت وأمي قال اني أخافك قالت اياي تعني قال نعم قالت فأنت آمن من هذا فقال فان أمير المؤمنين أرسل الي بأربعمائة دينار وعزم علي أن أنفقها علي وعليك واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفا والله ما أحب أن لي بها حمر النعم واني أحبس عن الفوج الاول قالت فدونكها فاصنع بها ما شئت فقال هل من خرق فأعطته درعا لها خلقا فزقه خرقا ثم صر فيه ما بين أربعة الى عشرة ثم طرحها في مخلاة ثم خرج الى باب الرستاق من حمص فجعل يعطي الناس

صرة صرة حتى بقيت صرة فى المخلاة فدفعها والمخلاة الى رجل ثم رجع فذهب عنه ماقام به واستراح وذكر الحافظ أبو نعيم فى الحلية هذه القصة فقال مانصه قال خالد بن معدان استعمل علينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه سعيد بن عامر بن حذيم الجمحى فلما قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه حمص قال ياأهل حمص كيف وجدتم عاملكم فشكوا اليه وكان يقال لاهل حمص الكوفة الصغرى لشكايتهم العمال قالوا نشكوا أربعا لايخرج الينا حتى يتعالى النهار قال أعظم بها قال وماذا قالوا لايجيب أحدا بليل قال وعظيمة قال وماذا قالوا له يوم من الشهر لايخرج فيه الينا قال وعظيمة قال وماذا قالوا يغط الغطة بين الأنام حتى تأخذه موتة يعنون أنه يغشى عليه قال فجمع عمر بينهم وبينه وقال اللهم لايفل فيه رأبى اليوم ماتشكون منه قالوا لايخرج الينا حتى يتعالى النهار قال سعيد والله انى كنت لأكره ذكره ليس لاهلى خادم فأعجن عجينى فأجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزى ثم أتوضأ ثم أخرج اليهم فقال ماتشكون منه أيضا قالوا لايجيب أحدا بالليل فقال ان كنت لأكره ذكره انى جعلت النهار لهم وجعلت الليل لله عز وجل قال وماتشكون أيضا قالوا ان له يوما من الشهر لايخرج الينا فيه فقال ليس لى خادم يغسل ثيابى ولالى ثياب أبدلها فأغسل ثيابى وأجلس حتى تجف فألبسها ثم أخرج اليهم آخر النهار قال وماتشكون منه أيضا قالوا يغط الغطة بين الأنام فقال شهدت مصرع خبيب الانصارى حين قبضت عليه قريش بمكة وقد بضعت أى قطعت قريش لحمه ثم صلبوه على جذع ثم قال ألاتحب أن محمدا مكانك فقال والله ما أحب أنى فى أهلى وأن محمدا يشاك بشوكة ثم نادى يامحمد فاذكرت ذلك اليوم وتركى نصرته هو فى تلك الحالة وأنا مشرك لاأومن بالله العظيم الاظننت أن الله يغفر لى بذلك الذنب أبدا قال فتصيبنى تلك الغطة فقال عمر الحمد لله الذى لم يفل رأبى فيك فبعث اليه بألف دينار وقال استعن بها على فقرك فقالت امرأته الحمد لله الذى أغنانا عن خدمتك فقال لها فهل لك من خير من ذلك ندفعها الى من يأتينا بها أحوج مانكون اليها قالت نعم فدعا رجلا من أهله يثق به فصرها صررا شديدا ثم

قال انطلق بهذه الى أرملة آل فلان والى يتيم آل فلان والى مسكين آل فلان والى مبتلى آل فلان فبقيت منه ذهبة فقال انفق هذه ثم عاد الى عمله فقالت ألا تشترى لنا خادما قال سيأتيك أحوج ماتكونين اليه والظاهر أن القصة واحدة والاختلاف من تصرف الرواة الذين رووا القصة بالمعنى وروى أيضا أن عمر بن الخطاب كتب الى أهل حمص اكتبوا الى فقراءكم فكتبوا له أسماء الفقراء وكتبوا له عمير بن سعيد ولعله ابنه كان أميرا بعده قال عمر لما قرأ اسمه قال من عمير ابن سعيد قالوا أميرنا قال أوفقير هو قالوا ليس أهل بيت أفقر منه قال أين عطاؤه قالوا يخرجه كله لا يمسك منه شيأ قال فوجه اليه بمائة دينار فأخرجها كلها فقالت امرأته لو كنت حبست لنا منها دينارا واحدا فقال لو ذكرتني فعلت ذكر هذه الحكاية أبو طالب المكى فى القوت ونسبها لعمير بن سعيد وكتب لسعيد بن عامر عمر مرة يطلب قدومه الى المدينة فلم ير معه الا عكازا وقدحا فقال له عمر ليس معك الا ما أرى فقال له سعيد بن عامر وما أكثر من هذه عكاز أحمل عليه زادى وقدح آكل فيه وأشرب به وعبارة الاحياء فى هذه القصة نسبها لابنه عمير فقال ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضى الله عنهما قال له مامعك من الدنيا فقال معى عصاى أتوكأ عليها وأقتل بها حية ان لقيتها ومعى جرابى أحمل فيه طعامى ومعى قصعتى آكل فيها وأغسل فيها رأسى وثوبى ومعى مطهرتى أحمل فيها شرابى وطهورى للصلاة وما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معى فقال عمر رضى الله عنه صدقت رحمك الله فهكذا كان الامراء فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنهم وأنفق بعض عمال عمر رضى الله عنه عنده عشرة دراهم لاتخاذ بيت خلاء لقضاء حاجته وأخذها من بيت المال فعزله من امارته وقال أما وجدت موضعا تقضى فيه الحاجة حتى أخذت عشرة دراهم من بيت المال اتخذت بها بيت خلاء لقضاء حاجتك وكان رضى الله عنه اذا استعمل عاملا كتب ماله ليعلم بعد ذلك ما يكون عنده من المال وكان يأمر عماله بعد مضى مدة من اماراتهم يكتبون أموالهم فيأخذ شطر أموالهم ويدخله فى بيت المال احتياطا لهم وبراءة لذمتهم

وكانوا يرضون بذلك و يرون المنة له عليهم وقال بعض العلماء ان عمر رضى الله عنه رأى أن كل ذلك لا يستحقه العامل ورأى شطر ذلك كافيا على حق عملهم وقدره بالشطر اجتهادا ومن عماله على المدائن سلمان الفارسى رضى الله عنه دخل عليه رجل وهو يعجن فقال ما هذا يا أبا عبد الله فقال بعثنا الخادم فى شغل فكرهنا أن نجمع له عملين وكان يلبس الصوف و يركب الحمار بغيرا كاف ويأكل خبز الشعير وكان ناسكا زاهدا فلما احتضر جعل يبكى و يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن فى الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون وأرى هذه الاساودة حولى فنظروا فلم يجدوا فى البيت الا اداوة ومطهرة وركوة * ومن عماله رضى الله عنه أبو عبيدة بن الجراح وكان أميرا على الشام وعلى جميع الأجناد وأمرائها كان يلبس الصوف الجافى و يأكل الخشن من الطعام فعير على ذلك وقيل له انك بالشام وحولنا الاعداء فغير من زيك وأصلح من شارتك فقال ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر فى منزله بالشام فلم يجد فيه غير سرج فرسه ورحل بعيره وسيفه ورمحه وركوة ومطهرة فقال له عمر أين متاعك يا أبا عبيدة لا أرى الا لبدا أوشنا أو صحفة وأنت أمير الشام أعندك طعام فقام أبو عبيدة الى جونة فأخرج منها كسرات فبكى عمر رضى الله عنه فقال أبو عبيدة رضى الله عنه يا أمير المؤمنين يكفى من الدنيا ما بلغ المقيل فاحتقر عمر نفسه فى الزهد بالنسبة لأبى عبيدة فقال غرتنا بعدك الدنيا يا أبا عبيدة و يروى أن عمر رضى الله عنه صر أربعمائة دينار وقال للغلام اذهب بها الى أبى عبيدة ثم تلكأ فى البيت ساعة فقال أبو عبيدة يا جارية اذهبى بهذه السبعة الى فلان و بهذه الخمسة الى فلان حتى أنفذها ورجع الغلام الى عمر فأخبره و وجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل ففعل مثل أبى عبيدة الى أن بقى ديناران فقالت امرأة معاذ ونحن والله مساكين فأعطنا فرمى بهما اليها فرجع الغلام فأخبر عمر بذلك فقال هما اخوة بعضهم من بعض ووقف اعرابى على عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال

ياعمر الخير جزيت الجنه * يوم تكون الاعطيات منه
والواقف المسؤل بينهنه * إما الى نار واما الى جنه

فبكى عمر رضى الله عنه حتى اخضلت لحيته وقال لغلامه ياغلام أعطه قميصى هذا لذلك اليوم أما والله لا أملك غيره وكان رضى الله عنه يقول فى الخلافة من يأخذها بما فيها وكان يقول رضى الله عنه ليتنى لم أخلق ليت أمى لم تلدنى ليتنى لم أك شيأ ليتنى كنت نسيا منسيا وأخذ مرة تبنة من الأرض فقال ليتنى كنت هذه وكان يدخل يده فى دبرة البعير و يقول انى أخاف أن أسأل عنك وكان رضى الله عنه يدنى يده من النار ثم يقول يا ابن الخطاب هل لك على هذا من صبر وكان رضى الله عنه كثير البكاء حتى كان بوجهه خطان أسودان من البكاء وكان رضى الله عنه يقول ليتنى كنت كبشا أهلى سمنونى ما بدا لهم ثم ذبحونى فأكلونى فأخرجونى عذرة ولم أكن بشرا وكان رضى الله عنه يسقط من الخوف اذا سمع اية من القرآن مغشيا عليه فكان يعاد أياما وكان رضى الله عنه يقول من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون وقرأ مرة اذا الشمس كورت وانتهى الى قوله تعالى واذا الصحف نشرت فخر مغشيا عليه ومر يوما بدار انسان وهو يصلى و يقرأ سورة والطور فوقف عمر رضى الله عنه يستمع فلما بلغ قوله تعالى ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع نزل عن حماره واستند الى حائط ومكث زمانا ورجع الى منزله فمرض شهرا يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه ولما طعن رضى الله عنه وأيقن بالموت كان يقول ويلى وويل أمى ان لم يرحمنى ربى والله انى وددت أن أخرج من الدنيا كفافا لا أجر لى ولا وزر على وقال أيضا لو أن لى ما طلعت عليه الشمس وغربت لافتديت من هول المطلع وخرج عمر رضى الله عنه يوما من المسجد ومعه الجارود العبدى و بينما هما يمشيان اذا بامرأة على ظهر الطريق فسلم عليها عمر فردت عليه السلام ثم قالت رويدك ياعمر حتى أكلمك كلمات قليلة قال لها قولى قالت ياعمر عهدى بك وأنت تسمى عميرا فى سوق عكاظ وتصارع الصبيان فلم تذهب الايام حتى تسميت عمر ثم لم

تذهب الايام حتى تسميت أمير المؤمنين فاتق الله فى الرعية واعلم أن من خاف الموت خشى الفوت فبكى عمر رضى الله عنه فقال الجارود قد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيته فقال عمر دعها أما تعرف هذه يا جارود هذه خولى بنت حكيم التى أنزل الله فيها قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله فاذا سمع الله قولها فعمر أحرى أن يسمع كلامها قال ابن سعد اتخذ عمر رضى الله عنه دار للدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج اليه لاعانة المنقطع ووضع فيما بين مكة والمدينة بالطريق ما يصلح به شأن من انقطع وهدم المسجد النبوى وزاد فيه ووسعه وفرشه بالحصى وكذا وسع مسجد مكة وأخرج اليهود من الحجاز الى الشام وأخرج أهل نجران الى الكوفة وقال أسلم مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرجت مع عمر بن الخطاب مرة الى موضع بظاهر المدينة فرأى نارا فقال يا أسلم أنظر الى تلك النار هل هو ركب أضر بهم الليل والبرد فقلت لا أعلم يا أمير المؤمنين فقال انطلق بنا اليهم قال فخرجنا نهرول فاذا امرأة معها صغار ولها قدر منصوب على تلك النار وصبيانها يبكون فقال عمر السلام عليكم يا أهل هذا الضوء وكره أن يقول يا أهل هذه النار فقالت المرأة وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته أدن بخير أودع فقال لها ما بال هذه الصبية يتضاغون فقالت من الجوع قال فهذا القدر قالت ماء جعلته فى القدر أسكتهم به حتى يناموا والله بيننا وبين عمر بن الخطاب قال يرحمك الله وما يدرى عمر بكم قالت يتولى أمرنا ثم يتغافل عنا قال أسلم فأقبل على عمر فقال انطلق بنا فخرجنا حتى أتينا الى دار الدقيق فأخرجنا عدلا من دقيق وكبة من شحم فقال احمله على فقلت أنا أحمله عنك فقال أنت تحمل وزرى لا أم لك فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه اليها وهو يهرول حتى أتينا اليها فألقى ذلك العدل عندها ثم أخرج قطعة من دهن وألقاها فى القدر وجعل يقول للمرأة ذرى من الدقيق وأنا أحرك لك فكان يحرك تارة وينفخ فى النار تارة أخرى قال أسلم فوالله لقد رأيت أمير المؤمنين وهو ينفخ فى النار والدخان يخرج من خلال شعر ذقنه حتى طبخ القدر ثم أنزله بيده وقال للمرأة اعطنى شيأ فأتته

بقصعة أو قال بصحفة فأفرغ الطعام فيها وقال لهم كلوا وأنا أسطح لكم ثم توارى
عن المرأة وجعل يربض كما يربض الاسد وأنا أقول يا أمير المؤمنين ما خلقت لهذا
فلم يلتفت الى حتى رأيت الصغار يضحكون ثم قام عمر وهو يضحك ويحمد الله
تعالى ثم جعل يده على يدى وقصدنا المدينة وقال لى يا أسلم ان الجوع عدو وقد
رأيتهم وهم يبكون فأحببت أن أفارقهم وهم يضحكون وعن الاعمش قال أتى عمر
ابن الخطاب مرة باثنين وعشرين ألف درهم فلم يقم حتى فرقها بين المسلمين ولم
يأخذ منها شيأ وكان اذا أعجبه شئ من ماله تصدق به وكان كثيرا ما يتصدق بالسكر
فقيل له فى ذلك فقال انى أحبه وقد قال الله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما
تحبون وكان رضى الله عنه يأتى المجزرة ومعه الدرة فكل من رآه يشترى لحما
يومين متتابعين يضربه بالدرة ويقول له هلا طويت بطنك لجارك وابن عمك
وأبطأ يوما عن الخروج لصلاة الجمعة ثم خرج فاعتذر للناس وقال انما حبسنى
عنكم ثوبى هذا كان يغسل وليس عندى غيره وكان ازاره مرقوعا بقطعة من
جراب وعدوا مرة فى قميصه أربع عشرة رقعة احداها من أدم أحمر وكان رضى
الله عنه أبيض اللون تعلوه حمرة وانما صار فى لونه سمرة عام الرمادة حين أكثر
من أكل الزيت توسعة على الناس أيام الغلاء فترك لهم اللحم والسمن واللبن وكان
قد حلف لا يأكل غير الزيت فى تلك الأيام حتى يوسع الله على المسلمين ومكث ذلك
الغلاء تسعة أشهر وصارت الارض سوداء مثل الرماد وكان يخرج فى تلك الايام
يطوف على البيوت ويقول من كان محتاجا فليأتنا وكان يقول اللهم لا تجعل هلاك
أمة محمد صلى الله عليه وسلم على يدى ومن كلامه رضى الله عنه من خاف الله لا يفعل
ما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون * ومن كلامه رضى الله عنه حاسبوا
أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا فانه أهون عليكم من
الحساب غدا والذى بعث محمدا بالحق لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات
لخشيت الله يسألنى عنه ولما طعن رضى الله عنه دعا بلبن فشربه فخرج من طعنته
فقال الله أكبر فجعل جلساؤه يثنون عليه فقال وددت أن أخرج منها كفافا كما

دخلت فيها لو أن لى اليوم ماطلعت عليه الشمس وغربت لافتديت به من هول
المطلع وجاء رجل شاب فى ذلك اليوم فقال ابشر ياأمير المؤمنين ببشرى من الله
عز وجل قد كان لك صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم فى الاسلام ماقد
علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة فقال وددت أن ذلك كان كفافا لاعلى ولالى فلما
أدبر الرجل إذا ازاره يمس الارض فقال ردوا على الغلام فقال يا ابن أخى ارفع
ثوبك فانه أبقى لثوبك وأتقى لربك ودخل عليه يوم طعن على بن أبى طالب رضى
الله عنه يعوده فقعد عند رأسه وجاء ابن عباس رضى الله عنهما فأثنى عليه وقال
كنت وكنت ووعده بخير من ربه فقال له عمر أنت لى بهذا يا ابن عباس فأومأ
اليه على رضى الله عنه أن قل نعم فقال ابن عباس نعم فقال عمر لاتغرنى أنت
وأصحابك وفى رواية يا ابن عباس المغرور من غررتموه لو أن لى طلاع الأرض
ذهبا لافتديت به من هول المطلع والله وددت أن أخرج منها كفافا لاعلىّ ولالى
وأن صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت لى وفى رواية عن ابن عباس رضى
الله عنهما لما طعن عمر رضى الله عنه دخلت عليه فقلت ابشر ياأمير المؤمنين فان
الله تعالى مصر بك الأمصار ودفع بك النفاق وأفشى بك من الرزق فقال عمر أفى
الامارات تثنى على يا ابن عباس فقلت وغيرها فقال والذى نفسى بيده لوددت أنى
خرجت منها كما دخلت لاأجر ولاوزر وقال حماد بن زيد قال ابن عباس رضى الله
عنهما لما طعن عمر رضى الله عنه كنت قريبا منه فمسست بعض جلده وقلت هنيأ
لك جلدا لاتمسه النار فنظر الىّ نظرة جعلت أرثى له منها ثم قال وما علمك بذلك
قلت ياأمير المؤمنين صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسنت صحبته
ففارقك وهو عنك راض ثم صحبت المسلمين وأحسنت صحبتهم فان فارقتهم فهم
عنك راضون فقال أما ماذكرت من صحبتى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانما
كان ذلك منا من الله عز وجل منّ به علىّ فلو أن لى ما فى الأرض من شئ لافتديت
به من عذاب الله قبل أن أراه وقال صالح بن كيسان قال ابن عباس رضى الله عنهما
دخلت على عمر رضى الله عنه فى أيام طعنته وهو مضطجع على وسادة من ادم

وعنده جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رجل ليس عليك بأس قال لئن لم يكن على اليوم ليكونن بعد اليوم وان للحياة لنصيبا من القلب وان للموت لكربة وقد كنت أحب أن أنجى نفسي وأنجو منكم وما كنت من أمركم إلا كالفريق الذي يرى الجنة والنار وهو مشغول ولقد تركت زهرتكم كما هي مالبستها فأخلقتها وثمرتكم يانعة في أكمامها ما أكلتها وما جنيت ماجنيت الا لكم ولا تركت درهما ماعدا ثلاثين أو أربعين درهما ثم بكى وبكى الناس معه فقلت يا أمير المؤمنين أبشر فوالله لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض ومات أبو بكر وهو عنك راض وان المسلمين راضون عنك فقال المغرور والله من غررتموه أما والله لو أن لي ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطلع قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ولما حضرت عمر الوفاة غشي عليه فأخذت رأسه فوضعتها في حجري فقال ضع رأسي بالأرض لعل الله يرحمني فمسح خديه بالتراب وقال ويل لعمر وويل لأمه ان لم يغفر الله له فقلت وهل فخذاى والارض إلا سواء يا أبتاه فقال ضع رأسي بالارض لا أم لك كما آمرك فوضعته في الارض فوضع عمر خده على الارض وقال ويل لعمر ولأم عمر ان لم يغفر الله له ويعفو عنه ثم قال فاذا قضيت فأسرعوا بي الى حفرتي وانما هو خير تقدموني اليه أو شر تضعونه عن رقابكم ثم بكى فقيل له ما يبكيك قال خبر السماء لا أدري الى جنة ينطلق بي أو الى نار قال عروة بن الزبير ولما طعن عمر رضي الله عنه قالوا له استخلف قال ان تركتكم فقد ترككم من هو خير مني وان استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير مني ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك صلى الله عليه وسلم يقول انه أمين هذه الامة ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لاستخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك صلى الله عليه وسلم يقول ان سالما ليحب الله حبا لو لم يخفه لم يعصه فقالوا له لو أنك عهدت الى ابنك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فانه لذلك أهل في دينه وفضله وقديم اسلامه فقال بحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد صلى الله عليه

وسلم ولوددت أنى نجوت من هذا الامر كفافا لا علىّ ولا لى ثم كلموه مرة أخرى
فقالوا لو عهدت فقال كنت أجمعت بعد مقالتى لكم ان أولى رجلا أمركم يحملكم
على الحق وأشار الى على بن أبى طالب رضى الله عنه ثم رأيت أن لا أتحملها حيا
وميتا ثم دعا أصحاب الشورى الذين سيأتى ذكرهم فلم يكلم أحدا منهم غير على
وعثمان رضى الله عنهما فقال يا على لعل هؤلاء القوم أن يعرفوا لك قرابتك من
النبى صلى الله عليه وسلم وصهرك وما آتاك الله من الفقه والعلم فان وليت هذا
الامر فاتق الله فيه ثم دعا عثمان رضى الله عنه فقال يا عثمان لعل هؤلاء القوم أن
يعرفوا لك صهرك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنك وشرفك فان ولبـ
هذا الامر فاتق الله فيه ولا تحملن بنى معيط على رقاب الناس ثم جعل عمر رضى
الله عنه الامر شورى بين الستة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
عنهم راض كما روى ذلك ابن عمر وغيره وهم عثمان وعلى وطلحة والزبير وعبـ
الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص على أن يكون الخليفة واحدا منهم أن يتفقو
عليه فان اختلفوا فمن يتفق عليه أكثرهم فان تساووا يحكمون عبد الله بن عم
بينهم فان لم يرضوا بحكمه يقدم قول الحزب الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف وأم
أن يحضر معهم ابنه عبد الله بن عمر كالتعزية له وليس هو منهم فى أمر الخلافة فـ
خرجوا من عنده قال لو ولوها عليا سلك بهم الطريق فقال له ابنه عبد الله فما يمنـ
يا أمير المؤمنين أن تستخلفه قال أكره أن أتحملها حيا وميتا وروى أن عمر رضـ
الله عنه عرض على عبد الرحمن بن عوف أن يستخلفه ويجعله ولى عهده فقا
عبد الرحمن أتشير على بذلك اذا استشرتك فقال لا والله فقال عبد الرحمن اذ
أرضى أن أكون خليفة بعدك وبعد أن ذكر عمر رضى الله عنه الستة أصحا
الشورى قال ما أظن يلى الا أحد هذين الرجلين وأشار الى على وعثمان فان و
عثمان فرجل فيه لين وان ولى على ففقيه وعابد وأحرى أن يحملهم على طريق الحـ
وان ولوا سعدا فهو أهل والا فليستعن به الوالى فانى لم أعزله عن ضعف ولا خيـ
ونعم ذو الرأى عبد الرحمن بن عوف فاسمعوا منه وأطيعوا وفى رواية قال عـ

رضى الله عنه ما أرى أحدا أحق بهذا الامر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى الستة وقال يشهد عبد الله بن عمر معهم وليس له من الامر شىء فان أصاب الامر سعد فهو ذاك والا فليستعن به أيكم ما أمر فانى لم أعزله يعنى عن امارة الكوفة عن عجز ولا خيانة ثم قال أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله تعالى وأوصيه بالمهاجرين والانصار وأوصيه بأهل الامصار ثم لما توفى عمر رضى الله عنه وفرغوا من دفنه عند النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه فى حجرة عائشة رضى الله عنها تفرغ أصحاب الشورى للاجتماع فلما اجتمعوا قال عبد الرحمن بن عوف اجعلوا أمركم الى ثلاثة منكم فقال الزبير جعلت أمرى الى على وقال سعد جعلت أمرى الى عبد الرحمن بن عوف وقال طلحة جعلت أمرى الى عثمان وقيل ان طلحة كان غائبا وما حضر الا بعد تمام الامر ثم خلا هؤلاء الثلاثة فقط وهم عبد الرحمن بن عوف وعلى وعثمان رضى الله عنهم فقال عبد الرحمن أنا لا أريدها فأيكما يبرأ من هذا الامر ويفوض الامر اليه فيولين أفضل الرجلين الباقيين وليحرص على صلاح الامة فسكت الشيخان على وعثمان رضى الله عنهما فقال عبد الرحمن بن عوف اجعلا الامر الىّ والله على والاسلام أن أجتهد فأولى أولاكما فقالا نعم ثم خاطب كلا منهما بما فيه من الفضل وأخذ عليه العهد والميثاق لئن ولاه ليعدلن ولئن ولى عليه ليسمعن وليطيعن فقال كل واحد منهما نعم ثم خلا بعلى فقال له أرأيت ان لم أولك فمن تشير على به قال عثمان وخلا بعثمان فقال له ان لم أولك فمن تشير على به قال على ابن أبى طالب ثم تفرقوا ومكث عبد الرحمن ثلاث ليال يستشير الناس فيمن يوليه ويجمع رؤس الناس وأمراء الاجناد وأشراف الناس وغيرهم جمعا وأشتاتا مثنى وفرادى سرا وجهرا حتى انه ذهب الى النساء المخدرات فى حجالهن حتى سأل الولدان فى المكاتب وسأل من يرد من الركبان والاعراب الواردين الى المدينة فى ثلاثة أيام بلياليهن قال فلم أجد اثنين يختلفان فى تقديم عثمان على على رضى الله عنهما الا ما ينقل عن عمار والمقداد فانهما أشارا بعلى بن أبى طالب.

رضى الله عنه قال بعض العلماء وكان السبب فى ذلك أن الأكثرين اختاروا عثمان ان عثمان رضى الله عنه كان فيه لين وعدم شدة وكان على رضى الله عنه يشبه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الشدة ومضت مدة خلافة عمر رضى الله عنه وهى عشر سنين ونصف سنة وهم منقادون له يسيرون بسيرته وفتحت لهم الامصار وكثرت عندهم الأموال فأحبوا أن يكون لهم بعض التخفيف من تشديد عمر وعلموا أنه لو كان الأمر لعلى رضى الله عنه لم يحصل التخفيف الذى يريدونه بل يسلك بهم سبيل عمر ويسير بسيرته سواء أو أشد من ذلك هذا هو السبب فى تقديمهم عثمان على على رضى الله عنهم وليس عندهم طعن فى على رضى الله عنه ولا كراهة لشىء من أخلاقه ولا يشكون فى حصول العدل منه هذا هو اللائق الذى ينبغى حمل أفعال الصحابة عليه رضى الله عنهم أجمعين وربما ان الذى يقف على ما يذكره المؤرخون فى شرح هذه القصة يفهم منه أن كلا من على وعثمان وبقية أصحاب الشورى كان لكل واحد منهم رغبة فى أن تكون الخلافة له فهذا ان صح فليحمل على أن كل واحد منهم يريد أن يكون منه القيام بالعدل واقامة الدين والقيام بمصالح المسلمين لما فى ذلك من الأجر والثواب عند الله تعالى ولا يتوهم من له قوة ايمان أن يكون مرادهم الرياسة واستيفاء حظوظ النفس حاهم الله من ذلك بل لا يريد كل واحد منهم الا القيام باظهار الحق كما شهد لهم الله سبحانه وتعالى بذلك فى آيات كثيرة وأخبر أنهم رضى الله عنهم ورضوا عنه وكذلك الاحاديث الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حقهم تشهد لهم بذلك فاحذر أن تتوهم ظن سوء بأحد من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فان المظلمة المتعلقة بأحد منهم مما لا يغفر كما جاء ذلك فى أحاديث كثيرة * والحاصل ان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه اجتهد فى ذلك ثلاثة أيام بلياليهن كل الاجتهاد بحيث انه لم يغتمض بكثير نوم ولم يزل فى صلاة ودعاء واجتهاد واستخارة وسؤال من ذوى الرأى وغيرهم حتى حاول ربات الحجال فى خدورهن فلم يجد أحدا يعدل بعثمان زاد فى رواية أنه قال فى آخر ليلة للمسور بن مخرمة وكان ابن الاخت عبد الرحمن بن

عوف ادع لى الزبير وسعد بن أبى وقاص فدخلا عليه فشاورهما ثم انصرفا ثم قال ادع لى عليا قال فدعوته فناجاه الى ثلث الليل ثم قام من عنده وكان من جملة ماقال له أرأيت لو صرف هذا الامر عنك من كنت ترى أحق به قال عثمان قال المسور ابن مخرمة فلما خرج من عنده قال ادع لى عثمان فدعوته فناجاه طويلا حتى فرق بينهما مؤذن الصبح وقال له مثل ماقال لعلى رضى الله عنه لو صرف عنك هذا الامر من كنت ترى أحق به قال على بن أبى طالب وقال للزبير كذلك فأشار بعثمان وقال لسعد كذلك فأشار بعثمان وكذلك شاور المهاجرين والانصار وكلهم أشار بعثمان وجاء فى رواية عن المسور بن مخرمة رضى الله عنه انه قال فلما كانت الليلة التى يسفر صباحها عن اليوم الرابع من موت أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه جاء عبد الرحمن الى منزلى وأنا نائم فقال أنائم أنت يامسور والله لم أغمض بكثير نوم منذ ثلاث أيام اذهب فادع لى عليا وعثمان قال المسور ياخالى بأيهما أبدأ فقال بأيهما شئت قال فذهبت الى على فقلت أجب خالى قال أمرك أن تدعو معى أحدا فقلت نعم قال من قلت عثمان بن عفان قال بأيهما بدأ قلت لم يأمرنى بذلك بل قال ادع أيهما شئت أولا فجئت اليك نخرج معى فلما مررنا بدار عثمان جلس على حتى دخلت الى عثمان فوجدته يوتر مع الفجر فدعوته فقال لى مثل ماقال على سواء ثم خرج فدخلت بهما على خالى وهو قائم يصلى فلما انصرف أقبل على على وعثمان فقال انى سألت الناس عنكما فلم أجد أحدا يعدل بكما ثم أخذ العهد على كل واحد منهما لئن ولاه ليعدلن ولئن ولى عليه ليسمعن وليطيعن فقالا نعم ثم خرج بهما الى المسجد وقد لبس عبد الرحمن العمامة التى عممه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقلد سيفا وبعث الى وجوه الناس من المهاجرين والانصار ليحضروا فى المسجد ونودى فى الناس الصلاة جامعة وامتلأ المسجد حتى غص بالناس وازدحم الناس وتراصوا حتى انه لم يحصل لعثمان بن عفان موضع يجلس فيه الا فى أخريات الناس وكان رجلا شديد الحياء ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام على الدرجة التى كان يجلس عليها رسول

الله صلى الله عليه وسلم فوقف وقوفا طويلا ودعا دعاء طويلا لم يسمعه الناس ثم تكلم فقال أيها الناس انى قد سألتكم سرا وجهرا مثنى وفرادى وجمعا وأشتاتا فلم أجد أحدا منكم يعدل بأحد هذين الرجلين اما على واما عثمان فقم الى يا على فقام اليه فوقف تحت المنبر وأخذ عبد الرحمن بيده فقال له هل أنت مبايعى على كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وفعل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فقال على على قدر جهدى وطاقتى قال فأرسل يده قال قم يا عثمان فأخذ بيده فقال هل أنت مبايعى على كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وفعل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فقال اللهم نعم قال فرفع عبد الرحمن رأسه الى سقف المسجد وقال اللهم اسمع واشهد اللهم اسمع واشهد اللهم اسمع واشهد اللهم قد جعلت ما فى رقبتى من ذاك فى رقبة عثمان وبايعه وازدحم الناس يبايعون عثمان رضى الله عنه حتى غشوه تحت المنبر قال وقعد عبد الرحمن بن عوف مقعد النبى صلى الله عليه وسلم وأجلس عثمان تحته على الدرجة الثانية وجاء الناس يبايعونه وبايعه على بن أبى طالب رضى الله عنه أولا ويقال آخرا وما ذكرناه هو الثابت فى ولاية عثمان رضى الله عنه كما حققه العلماء المحققون من أهل السنة منهم السيد الشريف طاهر بن هاشم باعلوى فى كتابه المسمى مجمع الاحباب ثم قال ولا تغتر بما سوى هذا مما ينقله الروافض فانه لا أصل له والله سبحانه وتعالى أعلم واعترض بعض المبتدعة على عمر بن الخطاب فى عدم ادخاله العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشورى وأجاب أهل السنة عن ذلك بأن العباس رضى الله عنه كان صديقا لعمر وانما لم يدخله فى أهل الشورى لان الامر عندهم كان مبنيا على تقديم السابقية فى الاسلام والعباس رضى الله عنه كان ممن تأخر اسلامه وكان صديقا لعمر رضى الله عنهما هذا عذر عمر رضى الله عنه فى عدم ادخاله العباس رضى الله عنه فى أهل الشورى ولم ينكر عليه ذلك العباس ولا أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلمهم بأن الامر عندهم مبنى على الاسبقية فى الاسلام قال الامام محمد بن الحسن وانما لم يدخل معهم سعيد بن زيد مع أنه أحد العشرة

المبشر بن بالجنة لانه كان ابن عم لعمر بن الخطاب فخشى أنه اذا أدخله معهم يكون ذلك منه محاباة له لكونه من أقاربه فما أحب أن يتقلدها ابنه ولا أحد من أقاربه فهكذا كان احتياط عمر وورعه رضى الله عنه ثم ان الناس مكثوا ست سنين من خلافة عثمان وهم على غاية من الاتفاق والرضا كما كانوا فى خلافة عمر رضى الله عنه بل قال بعضهم أحبوا عثمان أكثر من محبتهم لعمر رضى الله عنهما للينه ورفقه ثم فى الست السنين الثانية وقع الاختلاف وأوقعه جماعة لم تكن لهم سابقية فى الاسلام وكان الاصل فى ذلك عبد الله بن سبأ كان يهوديا فأسلم ظاهرا وليس له غرض فى الاسلام الا قصد ايقاع الفرقة بين أهل الاسلام وأدخل على الناس شبهة من حيث تولية عثمان كثيرا من أقاربه على كثير من الامصار مع أن عثمان رضى الله عنه كان يفعل ذلك باجتهاد منه يراه هو الصواب ويرى أن أقاربه أقرب الى اعانته على العدل فلا لوم عليه فى ذلك على أن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك كله فكان فى ذلك معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بذلك قبل وقوعه فوقع كما أخبر وكل ذلك كان بقضاء الله وقدره ليكتب له الشهادة ويحقق قول النبى صلى الله عليه وسلم فى عثمان انه يقتل مظلوما وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى عبد الرحمن بن عوف أمين فى السماء وأمين فى الارض فكفى بهذا حجة على صحة ما فعله واجتهد فيه رضى الله عنه قال القائلون بان طلحة كان غائبا وقد جعله عمر رضى الله عنه من أهل الشورى قدم طلحة فى اليوم الذى بويع فيه عثمان فقيل له ان الناس قد بايعوا عثمان فقال أكل قريش رضوا به قالوا نعم فأتى عثمان فقال عثمان أنت على رأس أمرك قال طلحة فان أبيت أتردها قال نعم قال أكل الناس بايعوك قال نعم فقال طلحة قد رضيت لا أرغب عما اجتمعت الناس عليه وبايعه ثم ان عمر رضى الله عنه بعد أن جعل أمر الخلافة للستة أصحاب الشورى حسب ما عليه من الدين فوجده ستة وثمانين ألفا ولزمته هذه الديون من انفاق كان ينفقه من ماله على الفقراء والمحتاجين لم يأكل منها خبيصا ولا لبس منها قميصا بل كانت جبته

مرقعة بالجلود وباب منزله من الجريد لكنه أنفق هذا المال فى سبيل الخير لا غير فلما فرغت حياته وحانت وفاته قال لابنه عبد الله وابنته حفصة رضى الله عنهما انى قد أصبت من مال الله شيأ وانى أحب أن ألقى الله عز وجل وليس فى عنقى منه شئ فبيعا فيه ما عندى من المال حتى تقضياه فان عجز عنه مالى فسلا فى بنى عدى فان بلغ والا فسلا فى قريش ولا تعد وقريشا فباع عبد الله من معاوية دار عمر التى يقال لها دار القضاء بالمدينة وباع مالا كان له بالغابة فقضى دينه فلذلك قيل لتلك الدار دار القضاء وقد كان عمر رضى الله عنه كثير الانفاق على الفقراء والمحتاجين واذا لم يكن فى بيت المال شئ يستقرض للانفاق عليهم لاسيما فى عام الرمادة فانه كان منه رضى الله عنه العجب العجاب فى الاعتناء بالفقراء وأهل الحاجة وعن زيد بن أسلم عن أبيه أسلم قال لما كان عام الرمادة جاءت العرب من كل ناحية لشدة الجدب والقحط فقدموا المدينة وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر رجالا يقومون عليهم ويقسمون عليهم الطعام فكان كل رجل على ناحية من المدينة وكانوا اذا اجتمعوا عند أمير المؤمنين يخبرونه بكل ما كانوا فيه فسمعت أمير المؤمنين قال فى ليلة وقد تعشى الناس عنده أحصوا من يتعشى عندنا فأحصوا فوجدوهم نحو سبعة آلاف رجل فقال أحصوا العيلات الذين لا يأتون والمرضى والصبيان فأحصوا فوجدوهم أربعين ألفا ثم مكث ليالى فزاد الناس حتى صار من يتعشى عنده نحو عشرة آلاف رجل والآخرون خمسون ألفا وكانت تلك المجاعة التى أصابت الناس عام الرمادة مجاعة شديدة لم يعهد مثلها لشدة القحط والجدب وكانت الريح تسفى ترابا كالرماد فسمى عام الرمادة وكان ذلك كله فى سنة ثمان عشرة من الهجرة ومكث تسعة أشهر واشتد الجوع حتى جعلت الوحوش تأوى الى المواضع المأنوسة تطلب ماتأ كله وجعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها وأقسم عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن لا يذوق سمنا ولا لبنا ولا لحما حتى يحيا الناس فقدمت السوق عكة سمن ووطب من لبن فاشتراهما غلام لعمر رضى الله عنه بأربعين درهما وجاء بهما الى عمر وكان ذلك

عندابتداء انجلاء القحط والشدة وقال يا أمير المؤمنين قد حيي الناس وأبر الله
بيمينك وعظم أجرك قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن ابتعتهما بأربعين
درهما فقال عمر تصدق بهما فانى أكره أن آكل اسرافا وكيف يعنيني شأن
الرعية اذا لم يصبني ما أصابهم وفى مدة ذلك القحط كتب عمر الى أمراء الامصار
يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة
ابن الجراح بأربعة آلاف راحلة من طعام جاء بها من الشام فولاه قسمتها فيمن
حول المدينة فقسمها وانصرف الى عمله وتتابع الناس واستغنى أهل الحجاز
وأصلح عمرو بن العاص بحر القلزم وأرسل فيه الطعام الى المدينة حتى صار
الطعام بالمدينة كسعر مصر ولم ير أهل المدينة بعد الرمادة مثلها حتى حبس عنهم
البحر مع مقتل عثمان رضى الله عنه فذلوا وتقاصروا وكان الناس فى مدة الرمادة
وعمر كالمحصورين عن أهل الأمصار فقال أهل بيت من مزينة لصاحبهم وهو بلال
ابن الحارث رضى الله عنه قد هلكنا فاذبح لنا شاة قال ليس فيهن ما يصلح للذبح
فلم يزالوا به حتى ذبح فسلخ عن عظم أحمر فنادى يا محمداه فرأى فى المنام أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم أتاه فقال ابشر بالحياة ائت عمر فاقرأه منى السلام
وقل له انى عهدتك وأنت فى العهد شديد العقد فالكيس الكيس يا عمر فجاء
حتى أتى باب عمر فقال لغلامه استأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فاتى عمر فأخبره
ففزع وقال رأيت به مساءة فقال لا فأدخله وأخبره الخبر فخرج فنادى فى الناس
وصعد المنبر فقال نشدتكم الله الذى هداكم هل رأيتم شيأ تكرهونه قالوا اللهم
لا ولم ذلك فأخبرهم ففطنوا ولم يفطن عمر فقالوا انما استبطأك فى الاستسقاء
فاستسق بنا فنادى فى الناس وخرج للاستسقاء وخرج معه العباس ماشيا
فخطب وأوجز وصلى ثم جثى على ركبته وقال اللهم عجزت عنا أنصارنا وعجز عنا
حولنا وقوتنا وعجزت عنا أنفسنا ولا حول ولا قوة الا بك اللهم فاسقنا وأحى
العباد والبلاد وأخذ بيد العباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم
ورضى الله عنه وان دموع العباس لتتحادر على لحيته فقال اللهم انا نتقرب اليك

بعم نبيك صلى الله عليه وسلم وبقية آبائه وأكبر رجاله فانك تقول وقولك الحق
وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا
فحفظتهما بصلاح أبيهما فاحفظ اللهم نبيك صلى الله عليه وسلم فى عمه فقد دلونا به
اليك مستشفعين مستغفرين ثم أقبل على الناس فقال استغفروا ربكم انه كان
غفارا وقد كان العباس رضى الله عنه قد طال عمره وابيضت لحيته فوقف وعيناه
تذرفان ولحيته تجول على صدره وهو يقول اللهم انه لم ينزل بلاء من السماء الا
بذنب ولم يكشف الابتوبة وقد توجه بى القوم اليك لمكانى من نبيك صلى الله
عليه وسلم وهذه أيدينا اليك بالذنوب ونواصينا اليك بالتوبة اللهم أنت الراعى
فلا تهمل الضالة ولا تدع الكسير بدار مضيعة فقد صرخ الصغير ورق الكبير
وارتفعت الاصوات بالشكوى وأنت تعلم السر وأخفى اللهم فأغثهم بغياثك قبل
أن يقنطوا فيهلكوا فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون فنشأت
طريرة من سحاب فقال الناس ترون ترون ثم التأمت ومشت فيها ريح
ثم هدأت ودرت فوالله ماتروحوا حتى اعتنقوا الجدر وقلصوا المآزر فطفق
الناس بالعباس رضى الله عنه يمسحون أركانه ويقولون له هنيئا لك ساقى الحرمين
فقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب

بعمى سقى الله الحجاز وأهله * عشية يستسقى بشيبته عمر
توجه بالعباس فى الجدب راغبا * اليه فما ان رام حتى أتى المطر
ومنا رسول الله فينا تراثه * فهل فوق هذا للمفاخر مفخر

قال زيد بن أسلم عن أبيه كنا نقول لو لم يرفع الله عام الرمادة لظننا ان عمر يموت هما
بالمسلمين قال ابن شهاب ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يدعو عام الرمادة
ويقول اللهم اجعل أرزاقهم على رؤوس الجبال فاستجاب الله له وللمسلمين فكانت
تأتيهم أرزاقهم وقال حين نزل الغيث الحمد لله فوالله لو أن الله لم يفرجها ماتركت
بأهل بيت من المسلمين سعة الا أدخلت عليهم أعدادهم من الفقراء فلم يكن اثنان
يهلكان من الطعام على مايقيم واحدا وعن أنس رضى الله عنه قال كتب

عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عماله اكتبوا عن الزاهدين فى الدنيا فان الله عزوجل وكل بهم ملائكة وضعوا أيديهم على أفواههم لايتكلمون الا بما هيأه الله تعالى لهم وألقى الله فى قلوب العباد هيبة شديدة لعمر رضى الله عنه وعن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم قال بينما عمر رضى الله عنه يمشى وخلفه عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ بدا له فالتفت فلم يبق أحد الا سقط لركبتيه خائفا فأرسل عمر عينيه بالبكاء ثم قال اللهم انك تعلم أنى أشد خوفا منهم منى وقال عمر رضى الله عنه لولا مخافة الحساب لأمرت بحمل أى كبش يشوى لنا فى التنور وعن سفيان قال كان عمر يشتهى الشئ لعله يكون ثمنه بدرهم فيؤخره سنة وعن أنس رضى الله عنه قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوما وبينى وبينه حائط يقول مكلما نفسه أمير المؤمنين بخ بخ والله يا ابن الخطاب لتتقين الله أو ليعذبنك وزار عمر أبا الدرداء رضى الله عنهما فقال له أبو الدرداء أتذكر حديثا حدثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أى حديث قال ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب قال نعم قال فما فعلنا بعده يا عمر فما زالا يتجاوبان حتى أصبحا وعن نافع قال كان من دعاء عمر رضى الله عنه اللهم أوجب لى فى موالاتك وموالاة أوليائك ولايتك ومعونتك وأبرئنى بمعاداة عدوك من الآفات اللهم لاتكثر لى من الدنيا فأطغى ولا تقلل لى منها فأنسى فان ماقل وكفى خير مما كثر فألهى اللهم انى أعوذ بك أن تأخذنى على غرة أو تذرنى فى غفلة أو تجعلنى من الغافلين وعن قيس بن الحجاج قال لما فتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص رضى الله عنه حين دخل بؤنة من أشهر العجم فقالوا له أيها الامير ان لنيلنا هذا سنة لايجرى الا بها فقال لهم وماذاك قال اذا كان لثنتى عشر ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى النيل فقال لهم عمرو بن العاص هذا لا يكون فى الاسلام وان الاسلام يهدم ماقبله فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى والنيل لايجرى قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء منها فلما رأى ذلك عمرو بن العاص

رضى الله عنه كتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بذلك فكتب اليه عمر رضى الله عنه انك قد أصبت بالذى فعلت لان الاسلام يهدم ماقبله وكتب بطاقة فى داخل كتابه وكتب الى عمرو بن العاص رضى الله عنه انى قد بعثت اليك بطاقة فى داخل كتابى هذا فألقها فى النيل فلما قدم كتاب عمر الى عمرو رضى الله عنهما واذا فيها بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى نيل مصر أما بعد فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر وان كان الله تعالى الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله تعالى الواحد القهار أن يجريك فألقى البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج لانهم لاتقوم مصلحتهم الا بالنيل فلما ألقى البطاقة أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا فى ليلة واحدة فقطع الله تلك السنة السيئة عن أهل مصر فتلك كرامة من كرامات عمر رضى الله عنه التى أكرمه الله بها * ومن كراماته رضى الله عنه مارواه البيهقى وأبو نعيم وغيرهما عن نافع عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال وجه عمر رضى الله عنه جيشا ورأس عليهم رجلا يدعى سارية بن زنيم فبينما عمر يخطب يوم جمعة اذ جعل ينادى ياسارية الجبل ثلاثا من استرعى الذئب ظلم فالتفت الناس بعضهم لبعض فقال على بن أبى طالب رضى الله عنه ليخرجن مما قال خير فلما فرغ سألوه فقال وقع فى قلبى أن المشركين هزموا اخواننا وانهم يمرون بجبل ان عدلوا اليه قاتلوا من وجه واحد وان جاوزوه هلكوا فخرج منى ماتزعمون أنكم سمعتموه فجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا صوت عمر فى ذلك اليوم قال فعدنا الى الجبل ففتح الله علينا وفى رواية لابى نعيم عن عمرو بن الحارث رضى الله عنه قال بينما عمر رضى الله عنه يخطب يوم الجمعة اذ ترك الخطبة وقال ياسارية الجبل مرتين أو ثلاثا ثم أقبل على خطبته فقال بعض الحاضرين لقد جن فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه وكان يطمئن اليه فقال له انك لتجعل لهم على نفسك مقالا بينما أنت تخطب اذ أنت تصيح ياسارية الجبل أى شئ هذا قال انى والله ماملكت نفسى اذ رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين

أيديهم ومن خلفهم فلم أملك أن قلت ياسارية الجبل ليلحقوا بالجبل فلبثوا الى أن جاء رسول سارية بكتاب ان القوم لقونا يوم الجمعة فقاتلناهم حتى اذا حضرت الجمعة سمعنا منادياينادي ياسارية الجبل مرتين فلحقنا بالجبل فلم نزل قاهرين لعدونا حتى هزمهم الله تعالى وقتلهم وفى رواية ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر فقال ياأمير المؤمنين هزمنا فبينما نحن كذلك اذ سمعنا صوتاينادي ياسارية الجبل ثلاثا فأسندنا ظهورنا الى الجبل فهزمهم الله تعالى وكان ذلك الجبل بنهاوند من أرض العجم وأخرج الامام مالك فى الموطأ عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرجل ما اسمك قال جمرة قال ابن من قال ابن شهاب قال فمن قال من الحرقة قال أين مسكنك قال الحرة قال بأيها قال بذات لظى فقال عمر رضى الله عنه أدرك أهلك فقد احترقوا فرجع الرجل فوجد أهله قد احترقوا وأخرج ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال ان كان الرجل ليحدث عمر رضى الله عنه بالحديث فيكذبه الكذبة فيقول احبس هذه ثم يحدثه بالحديث فيقول احبس هذه فيقول له كل ماحدثتك حق الاما أمرتنى أن أحبسه وأخرج ابن عساكر أيضا عن الحسن البصرى ان كان أحد يعرف الكذب اذا حدث به أنه كذب فهو عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأخرج البيهقى فى الدلائل عن أبى هدبة الحمصى قال أخبر عمر رضى الله عنه ان أهل العراق قد حصروا أميرهم فخرج غضبان فصلى فسها فى صلاته فلما سلم قال اللهم قد لبسوا على فلبس عليهم وعجل لهم بالغلام الثقفى لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم يعنى الحجاج قال ابن لهيعة وماولد الحجاج يومئذ وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه ان الله ضرب الحق على لسان عمر رضى الله عنه حتى ظننا ان ملكا ينطق على لسانه وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه كان اسلام عمر فتحا وكانت هجرته نصرا وكانت امامته رحمة ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى عند البيت حتى أسلم عمر فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا وقال حذيفة رضى الله عنه لما أسلم عمر رضى الله عنه كان الاسلام كالرجل المقبل لا يزداد الا قربا فلما قتل كان

الاسلام كالرجل المدبر لا يزداد الا بعدا وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه وهو الفاروق فرق الله به بين الحق والباطل وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لما توفى عمر رضى الله عنه ذهب تسعة أعشار العلم ولو أن علمه وضع فى كفة ميزان ووضع علم أحياء الارض فى كفة لرجح على علمهم فقيل له أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة فقال لم أرد علم الفتيا والأحكام وانما أريد العلم بالله عز وجل قال الامام الغزالى فى إحياء علوم الدين كانت شهرة عمر رضى الله عنه بالسياسة وكان فضله بالعلم بالله الذى مات تسعة أعشاره بموته وبقصد التقرب الى الله عز وجل فى ولايته وعدله وشفقته على خلقه وذلك كله أمر باطن فى سره وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال ما علمت أحدا هاجر الا مختفيا الا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتقض فى يده أسهما وأتى الكعبة وأشراف قريش بفنائها فطاف سبعا ثم صلى ركعتين عند المقام ثم أتى حلقهم واحدة واحدة فقال شاهت الوجوه من أراد أن تثكله أمه ويؤتم ولده وترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى فما تبعه منهم أحد وقال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قد علمت بأى شئ فضلنا عمر رضى الله عنه كان أزهدنا فى الدنيا وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بينا أنا نائم رأيت الناس يعرضون على وعليهم قمص فمنها ما يبلغ الثدى ومنهم دون ذلك وعرض على عمر ابن الخطاب وعليه قميص يجره قالوا ما أولته يا رسول الله قال الدين وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه حتى انى لأرى الرى يخرج من أظفارى ثم أعطيت فضلى عمر بن الخطاب قالوا فما أولته يا رسول الله قال العلم وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا الا سلك فجا غير فجك وقال له النبى صلى الله عليه وسلم لما أراد عمر أن يعتمر لا تنسنا يا أخى من دعائك قال عمر رضى الله

عنه انها كلمة مايسرني أن لي بها الدنيا وروى مالك في الموطأ أن عمر رضي الله عنه كان يحمل في العام الواحد على أربعين ألف جمل يحمل الرجل الى الشام على بعير والرجلان الى العراق على بعير وكان عمر رضي الله عنه أول من جمع الناس لصلاة التراويح فكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه اذا مر على المساجد ورأى القناديل في رمضان يدعو لعمر ويقول نور الله على عمر قبره كما نور علينا مساجدنا وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال جاء جبريل عليه السلام الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اقرأ على عمر السلام وأخبره أن رضاه وغضبه حكم وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوا غضب عمر فان الله يغضب لغضبه ولما توفي عبد الله بن أبي رأس المنافقين سأله ابنه الحباب وسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله أن يصلي رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبيه رجاء أن الله يرحمه بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ابنه مؤمنا صادقا فأراد النبي صلى الله عليه وسلم تطييب قلب ابنه فتقدم ليصلي عليه فأراد عمر أن يمنع النبي صلى الله عليه وسلم من الصلاة عليه وقال يارسول الله انه فعل كذا وكذا وقال كذا وكذا فجذب النبي صلى الله عليه وسلم ثوبه من يد عمر وتقدم وصلى عليه فأنزل الله تعالى ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره فجاءت الآية على رأي عمر رضي الله عنه واختصم منافق ويهودي في شيء فقال اليهودي للمنافق نذهب الى أبي القاسم فنتحاكم على يديه وقال المنافق بل نذهب الى كعب بن الاشرف وكان من رؤساء اليهود يأخذ الرشوة في حكمه فامتنع اليهودي من الذهاب الى كعب بن الاشرف وذهبا الى النبي صلى الله عليه وسلم فحكم على المنافق لليهودي فلما خرجا قال المنافق نذهب الى كعب بن الأشرف فامتنع اليهودي وقال نذهب الى عمر بن الخطاب فرضي المنافق فلما دخلوا على عمر أخبره اليهودي بما كان له من الدعوى على المنافق ثم أخبره بقضاء النبي صلى الله عليه وسلم على المنافق وانه لم يرض بحكمه وقال نذهب الى كعب بن الأشرف فلم أوافقه ثم اتفقنا على التحاكم اليك فقال عمر للمنافق أحق ماقال هذا فقال

المنافق ثم قد دخل عمر بيته وأخرج سيفه وضرب عنق ذلك المنافق وقال هذا جزاء من لم يرض بحكم النبي صلى الله عليه وسلم ثم ان عشيرة ذلك المنافق شكوا الى النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وطلبوا القصاص منه واعتذروا بأن صاحبهم لم يكن منافقا وانما أراد بالمحاكمة الى عمر تأييد حكم النبي صلى الله عليه وسلم وألحوا على النبي صلى الله عليه وسلم فى تلك الدعوى وكاد يحصل من ذلك شر فأيد الله تعالى ما فعله عمر وأهدر دم ذلك المنافق وأنزل فى ذلك قوله تعالى (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت) الآيات وختمها بقوله (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا) فكان فى ذلك كله تأييد المافعل عمر رضى الله عنه ولما قال عبد الله بن أبى لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل وعنى بالاعز نفسه وبالاذل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأراد عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يذهب الى عبد الله بن أبى ويقتله فأبى النبي صلى الله عليه وسلم وقال لا يتحدث أن محمدا يقتل أصحابه وأنزل الله تعالى ترضية لعمر قوله تعالى (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون) ولما أشار على النبي صلى الله عليه وسلم بقتل أسرى بدر وعدم قبول الفداء منهم وأشار أبو بكر رضى الله عنه بقبول الفداء وقال يارسول الله هم قومك وذوو رحمك ونرجو أن الله يهديهم للاسلام فقبل النبي صلى الله عليه وسلم ما أشار به أبو بكر فى أخذ الفداء فأنزل الله تعالى (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) فكانت الآية مؤيدة لما أشار به عمر رضى الله عنه والنبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه يبكيان فقال عمر يارسول الله أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وان لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال النبي صلى الله عليه وسلم أبكى للذى عرض على من الفداء وفى رواية قال له النبي صلى الله عليه وسلم

كاد يصيبنا فى خلافك شر ثم أنزل الله امضاء أخذ الفداء بقوله (فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ان الله غفور رحيم) ولما طاف النبى صلى الله عليه وسلم بالبيت قال له عمر رضى الله عنه يارسول الله ألا نتخذ من مقام ابراهيم مصلى فأنزل الله واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى فكان ذلك من موافقات عمر رضى الله عنه وكان رضى الله عنه يقول للنبى صلى الله عليه وسلم أحجب نساءك فانه يدخل عليك البر والفاجر فأنزل الله تعالى واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ولما أكثر نساء النبى صلى الله عليه وسلم من التغاير بينهن دخل عليهن عمر رضى الله عنه وزجرهن وخوفهن بالطلاق وأن الله يبدل النبى صلى الله عليه وسلم خيرا منهن فأنزل الله تعالى عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن وكان رضى الله عنه يكره شرب الخمر ويسأل الله أن يحرمه فأنزل الله تعالى لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى فلم يكتف بذلك عمر رضى الله عنه وقال اللهم أرنا فى الخمر فأنزل الله تعالى انما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون فحرم الله الخمر فكان ذلك موافقا لما كان مرغوبا لعمر رضى الله عنه قال الشعبى لما سمع الناس قول عمر رضى الله عنه ورأوا عمله فكان يمشى فى الاسواق ويطوف فى الطرقات ويقضى بين الناس فى قبائلهم ويعلمهم فى أماكنهم ذكروا أبا بكر والنبى صلى الله عليه وسلم ثم قالوا كان النبى صلى الله عليه وسلم أعلم بأبى بكر رضى الله عنه وكان أبو بكر أعلم بعمر فجرى أبو بكر وعمر مجرى واحد وقد كانوا يخافون من لين هذا وشدة هذا فكان أبو بكر رضى الله عنه مع لينه أقواهم فيما لابد منه وألينهم فيما ينبغى وكان عمر ألينهم فيما ينبغى وأقواهم فيما لابد منه وقدم الاحنف بن قيس على عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى وفد من العراق قدموا عليه فى يوم صائف شديد الحر وهو معتجر بعباءة له فشرد بعير من إبل الصدقة فسعى خلفه وقال يا أحنف ضع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فانه من إبل الصدقة فيه حق لليتيم والمسكين والارملة فقال رجل يا أمير المؤمنين يغفر الله لك فهلا تأمر عبدا من عبيد الصدقة فيكفيك

هذا فقال عمر وأى عبد هو أعبد منى ومن الاحنف بن قيس ان من ولى أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب لهم عليه ما يجب على العبد من النصح وأداء الامانة وقال عمر رضى الله عنه من استعمل رجلا لمودة أو قرابة لا يحمله على استعماله الا ذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ومن استعمل فاجرا وهو يعلم أنه فاجر فهو مثله ولما افتتح المسلمون سواد العراق قالوا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه اقسمه بين الغانمين لأنهم افتتحوه عنوة قال فما لمن جاء بعدكم من المسلمين فانى أخاف أن تفاسدوا بينكم فى المياه وأخاف أن تقتتلوا فأمر أن يقروا أهل السواد فى أرضهم وضرب على رؤسهم الضرائب يعنى الجزية وعلى أرضهم الخراج ولم يقسمها بينهم لتكون للمسلمين الذين يأتون بعدهم ولما قدم عمر رضى الله عنه مكة أقبل أهل مكة يشكون أبا سفيان بانه حبس سيل الماء عليهم فأقبل عمر ومعه الدرة فاذا أبو سفيان نصب أحجارا فقال ارفع هذا وهذا فرفعهما ثم قال وهذا وهذا حتى رفع أحجارا خمسة أو تسعة ثم استقبل عمر الكعبة فقال الحمد لله الذى جعل عمرا يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه وعن الحسن البصرى قال حضر باب عمر بن الخطاب رضى الله عنه سهيل بن عمرو والحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب ونفر من قريش من تلك الرؤس وصهيب وبلال ونفر من أولئك الموالى الذين شهدوا بدرا فخرج اذن عمر للموالى وترك أولئك فقال أبو سفيان لم أر كاليوم قط يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت الينا فقال سهيل بن عمرو وكان رجلا عاقلا أيها القوم انى والله لقد أرى الذى فى وجوهكم ان كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم دعى القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم فكيف بكم اذا دعوا يوم القيامة وتركتم وفى رواية فاذا كان هذا فى دار عمر فكيف الجنة فجلسوا يبكون على تأخر دخولهم فى الاسلام حتى ارتفعت أصواتهم فسمعهم عمر فأمر بادخالهم وكان صدر المجلس فى زمن خلافته للسابقين فى الاسلام فاذا سبقهم غيرهم ثم جاء أحد من السابقين يتأخرون عن صدر المجلس ليجلس فيه السابقون للاسلام ولو كانوا من الموالى وربما أنهم لا يزالون يتأخرون حتى يكون غير السابقين فى آخر المجلس ولو كانوا

من أشراف قريش وعن الحسن البصري أن رجلا أتى أهل ماء فاستسقاهم فلم يسقوه حتى مات عطشا فأغرمهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ديته وعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذ جاء رجل من أهل مصر فقال يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك قال ما شأنك قال أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر فأقبلت على فرسي فلما حضر الناس قام محمد بن عمرو بن العاص يقول هذه فرسي ورب الكعبة فلما دنا مني قلت له هذه فرسي ورب الكعبة فقام يضربني بالسوط ويقول خذها وأنا ابن الأكرمين قال فوالله ما زاد عمر على أن قال اجلس ثم كتب الى عمرو بن العاص اذا جاءك كتابي هذا فاقبل واحضر معك ابنك محمدا قال فدعا عمرو ابنه محمدا فقال هل أحدثت حدثا أو جنيت جناية قال لا قال فما بال أمير المؤمنين عمر يكتب فيك فقدم عمرو وابنه على عمر قال أنس فوالله انا لعند عمر اذا نحن بعمرو وقد أقبل فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه محمدا فاذا هو خلف أبيه فقال عمر أين المصري فقال ها أنا ذا قال دونك الدرة اضرب ابن الأكرمين اضرب ابن الأكرمين اضرب ابن الأكرمين فضربه قال فضربه ثم اجعلها على صلعة أبيه عمرو فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه فقال عمرو يا أمير المؤمنين قد ضرب من ضربه فقال أما والله لو ضرب من ضربه لما أقدمناك يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحرارا ثم التفت الى المصري فقال انصرف راشدا فان رابك شيء فاكتب الي وكان عمر رضي الله عنه اذا استعمل عاملا كتب عليه كتابا وأشهد عليه رهطا من الانصار أن لا يركب برذونا ولا يأكل نقيا ولا يلبس دقيقا ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ثم يقول اللهم اشهد وعن الحسن البصري قال قال عمر رضي الله عنه لئن عشت ان شاء الله لأسيرن في الرعية حولا فاني أعلم أن للناس حوائج تقطع عني أماهم فلا يصلون الي وأما عمالهم فلا يرفعونها الي فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير الى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البصرة فأقيم بها

شهر بن وعن الزهري أن عمر رضى الله عنه جلد صبيغا القيمى لكثرة مسائلته
عن حروف القرآن حتى اضطربت الدماء فى ظهره وعن النعمان بن بشير رضى
الله عنه أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لقد رأيت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يلتوى مايجد مايملا بطنه من الدقل وعن هشام بن عروة قال قال عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه اذا رأيتم الرجل يضيع الصلاة فهو والله لغيرها من
حق الله تعالى أشد تضييعا وعن يحيى بن جعدة قال قال عمر رضى الله عنه لولا ثلاثة
لاحببت أن ألحق بالله عز وجل لولا أن أسير فى سبيل الله أو أضع وجهى لله تعالى
أو أجالس أقواما يلتقطون طيب الكلام كما يلتقط طيب التمر وروى عن على
رضى الله عنه أنه كان يبكى عند موت عمر رضى الله عنه فقيل له فى ذلك فقال
أبكى على موت عمر إن موت عمر ثلمة فى الاسلام لا ترتق الى يوم القيامة وقال
على رضى الله عنه كان أبو بكر أواها حليما وكان عمر مخلصا ناصحا لله فناصحه الله
وان كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن متوافرون لنرى أن السكينة
تنطق على لسان عمر وان كنا لنرى أن شيطانه ليهابه أن يأمره بالخطيئة وشهد
عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجل فقال ائتنى بمن يعرفك فأتاه برجل
فأثنى عليه خيرا فقال عمر رضى الله عنه أنت جاره الادنى تعرف مدخله ومخرجه
فقال لا فقال كنت رفيقه فى السفر الذى يسفر عن أخلاق الرجال ومكارم
الاخلاق فقال لا قال فعاملته بالدراهم والدنانير التى يتبين بها ورع الرجل فقال لا
قال أظنك رأيته فى المسجد يهمهم بالقرآن يرفع رأسه طورا و يخفضه طورا قال
نعم قال اذهب فلست تعرفه وقال للرجل اذهب فأتنى بمن يعرفك وقالت عائشة
رضى الله عنها من رأى ابن الخطاب علم أنه انما خلق غناء أى نفعا للاسلام وعن
لاحق بن حميد قال بعث عمر بن الخطاب عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود
وعثمان بن حنيف رضى الله عنهم الى الكوفة جعل عمار بن ياسر على الصلاة وعلى
الجيوش وعبد الله بن مسعود على القضاء و بيت المال وعثمان بن حنيف على
مساحة أرض الخراج وجعل بينهم كل يوم شاة شطرها وسواقطها لعمار بن ياسر

رضى الله عنه والنصف بين هذين قال الراوى ولا أحفظ الطعام ثم قال أنزلتكم وإياى من هذا المال بمنزلة والى اليتيم من كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأ كل بالمعروف وما أرى قرية يؤخذ منها كل يوم شاة الا كان سريعا فى خرابها ولما قدم عليه أول عير عام الرمادة دعا الزبير رضى الله عنه وقال أخرج فى أول هذه العير فاستقبل بها نجدا فاحمل الى أهل كل بيت ما قدرت أن تحملهم ومن لم يستطع حمله فمر لأهل بيت ببعير بما عليه فليكسوا كساءين من ذلك ولينحروا البعير فيجملوا شحمه وليقددوا لحمه ليأخذوا كبة من قديد وكبة من شحم وجفنة من دقيق فيطحنوا ويأ كلوا حتى يأتيهم الله برزق فاعتذر الزبير من الخروج ثم دعا طلحة رضى الله عنه فاعتذر فامر أبا عبيدة رضى الله عنه فخرج فلما رجع بعث له بألف دينار فقال أبو عبيدة انى لم أعمل لك يا ابن الخطاب انى عملت لله عز وجل ولست آخذ فى ذلك شيأ فقال عمر قد أعطانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أشياء بعثنا لها فكرهنا ذلك فأبى علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبلها أيها الرجل فاستعن بها على دينك ودنياك فقبلها أبو عبيدة رضى الله عنه وتصدق بها وقد قال صلى الله عليه وسلم ما جاءك من هذا المال وأنت غير مستشرف ولا سائل فخذه ومالا فلا تتبعه نفسك ولما جىء له بغنائم العراق كان فيها تاج كسرى وأساوره وكان النبى صلى الله عليه وسلم وعد بذلك سراقة بن مالك لما تعرض لان يمسكه لكفار قريش عام الهجرة فساخت به قوائم فرسه ثم سأل النبى صلى الله عليه وسلم الامان وعقد التوبة فخرجت قوائم فرسه فعرض عليه النبى صلى الله عليه وسلم الاسلام فأبى فقال له كيف بك يا سراقة اذا لبست تاج كسرى وأساوره ثم أسلم سراقة رضى الله عنه عام ثمان من الهجرة بالجعرانة فلما جاءت غنائم العراق وفيها تاج كسرى وأساوره قال عمر رضى الله عنه ائتونى بسراقة بن مالك لالبسه اياهما لتحقق بذلك معجزة النبى صلى الله عليه وسلم فى وعده سراقة بذلك فجيء له بسراقة فألبسه التاج والاساور وقال له قل الله أ كبر الحمد لله الذى سلبهما كسرى وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابيا من بنى مدلج وأركبه جملا

وطيف به فى المدينة لاظهار تلك المعجزة وقال عمر رضى الله عنه لما جيء له بغنائم العراق اللهم انى قد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب أن يصيب مالا فينفقه فى سبيلك وعلى عبادك فزويت ذلك عنه نظرا منك واختيارا اللهم انى قد علمت أن أبا بكر رضى الله عنه كان يحب أن يصيب مالا فينفقه فى سبيلك وعلى عبادك فزويت ذلك عنه نظرا منك واختيارا اللهم انى أعوذ بك أن يكون هذا مكرا بعمر واستدراجا ثم قال بل يحسبون ان ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قدمت من عند أبى موسى الاشعرى من العراق على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بثمانمائة ألف درهم فقال لى بماذا قدمت قلت قدمت بثمانمائة ألف درهم قال قدمت بثمانين ألف درهم قلت بل قدمت بثمانمائة ألف درهم قال ألم أقل لك انما قدمت بثمانين ألف درهم فكم ثمانين ألف درهم فعددت مائة ألف ومائة ألف حتى عددت ثمانمائة ألف درهم قال أطيب هو ويلك قلت نعم وانما سأله عن طيبه تعجبا من كثرته فاستبعد أن يكون طيبا حلالا قال فبات عمر ليلته أرقا حتى اذا نودى بصلاة الصبح قالت امرأته ما نمت يا أمير المؤمنين الليلة قال كيف ينام عمر بن الخطاب وقد جاء الناس مالم يكن يأتيهم مثله منذ كان الاسلام فما يأمن عمر لو هلك وذلك المال عنده فلم يضعه فى حقه فلما صلى الصبح اجتمع اليه نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم انه قد جاء الناس الليلة مالم يأتهم مثله منذ كان الاسلام وقد رأيت رأيا فاشيروا على رأيت أن أكيل للناس بالمكيال فقالوا لا تفعل يا أمير المؤمنين ان الناس يدخلون فى الاسلام ويكثر المال ولكن اعطهم على كتاب الله وكلما كثر الناس وكثر المال أعطيتهم عليه قال فاشيروا على بمن أبدأ منهم فقال له على وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما ابدأ بنفسك انك والى ذلك فقال لا بل أبدأ بالعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الاقرب فالاقرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان مجىء هذا المال سببا لفرض العطاء كل سنة وتدوين الدواوين للعطاء كل سنة فكتب الناس ودون الدواوين فهو أول من

فعل ذلك فرتب ذلك أولا باعتبار التقدم فى الذكر والتأخر ثم باعتبار المقدار الذى لكل انسان أما باعتبار التقدم والتأخر فى الذكر فى ذلك الديوان الذى رتبه فبدأ ببنى هاشم والمطلب بن عبد مناف فأعطاهم جميعا ثم أعطى بنى عبد شمس بن عبد مناف ثم بنى نوفل بن عبد مناف وانما قدم بنى عبد شمس على بنى نوفل لان عبد شمس كان أخا لهاشم من أبيه وأمه وأما نوفل فكان أخا لهاشم لابيه فقط ثم استوت له عبد العزى وعبد الدار ابنا قصى بن كلاب فقدم بنى أسد بن عبد العزى وهم قوم خديجة رضى الله عنها أصهار النبى صلى الله عليه وسلم فيهم ثم انفردت له بنو زهرة بن كلاب بن مرة فدعاها تتلو عبد الدار ثم استوت له بنو تيم بن مرة و بنو مخزوم بن يقظة بن مرة فقدم بنى تيم لانهم كانوا من أهل حلف الفضول والمطيبين وفيهما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولان أبا بكر رضى الله عنه من بنى تيم ثم دعا مخزوما تتلوهم ثم استوت له سهم وجمح ابنا هصيص بن كعب وعدى بن كعب وكان عمر رضى الله عنه من عدى فقالوا له ابدأ بعدى فقال بل أقر نفسى حيث كنت فان الاسلام دخل وأمرنا وأمر بنى سهم واحد انظروا بين سهم وجمح فقدم بنى جمح ثم بنى سهم فكان ديوان جمح وسهم كالدعوة الواحدة فلما خلصت اليه دعوته بعد بنى سهم وجمح كبر تكبيرة عالية ثم قال الحمد لله الذى أوصل الى حظى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيأتى ذكر ما فرض لنفسه لان الكلام الآن فى الترتيب فى التقدم والتأخر فقط لا فى ذكر المقدار المفروض ثم دعا بنى عامر بن لؤى بن فهر وكان أبو عبيدة بن الجراح من بنى فهر فتكون دعوته بعد بنى عامر فلما دعا بنى عامر بن لؤى قبل فهر قال أبو عبيدة رضى الله عنه أكل هؤلاء يدعون أمامى فقال يا أبا عبيدة اصبر كما صبرت أو كلم قومك فمن قدمك على نفسه لم أمنعه فأما أنا و بنو عدى فنقدمك ان أحببت على أنفسنا فقال أبو عبيدة اصبر كما صبرت أنت ولا حاجة الى ذكر ترتيب القبائل لانه يطول و بقى هذا الترتيب الذى رتبه عمر رضى الله عنه الى زمن خلافة بنى العباس فوقع تشاجر بين بنى سهم و بنى جمح فى خلافة المهدى

ابن المنصور فافترقوا فقدم المهدي عليهما بني عدي وأما بنو هاشم والمطلب فكانا على ترتيب عمر رضي الله عنه في مرتبة واحدة لقول النبي صلى الله عليه وسلم انما نحن و بنو المطلب كشيء واحد فاذا كان السن في الهاشمي قدمه على المطلبي واذا كان في المطلبي قدمه و بقي ذلك الى خلافة عبد الملك بن مروان فقدم بني هاشم على بني المطلب ثم ان عمر رضي الله عنه بعد ترتيب القبائل في الديوان الاقرب فالاقرب الى النبي صلى الله عليه وسلم فرض المقدار الذي يعطى لكل انسان وجعل التفاوت على السابقة للاسلام وأما أبو بكر رضي الله عنه فكان يسوى بين المسلمين في القسم ولا ينظر الى أسبقية الاسلام فراجعه عمر رضي الله عنه في ذلك فلم يقبل مراجعته في ذلك وقال انما فضلهم عند الله تعالى وانما الدنيا بلاغ فلما صارت الخلافة لعمر رضي الله عنه فاضل بينهم بالنسبة للاسبقية في الاسلام ولا ينكر على أحد منهما الان ذلك اجتهاد وجعل صفوان بن أمية والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو مع من أسلم عام الفتح وكان ذلك أقل من عطاء من أسلموا قبل ذلك فامتنعوا من أخذه وقالوا لا نعترف أن يكون أحد أكرم منا فقال انما أعطيتكم على السابقة في الاسلام لا على الاحساب قالوا فنعم اذا وأخذوا وخرج الحارث وسهيل باهلهما نحو الشام فلم يزالا مجاهدين وفرض لاهل بدر خمسة آلاف كل سنة ثم فرض لمن بعد بدر الى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف ثم فرض لمن بعد الحديبية الى تمام قتال أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثم فرض لاهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين وفرض لمن كان منهم مشهورا بالشجاعة ولاقى بلاء في تلك الوقائع ألفين وخمسمائة فقيل له لو جعلت أهل القادسية مثل هؤلاء بالفين وخمسمائة فقال لم أكن لالحقهم بدرجة من لم يدركوا وقيل له قد سويت من بعدت داره بمن قربت داره وقاتلهم عن فنائه فقال من قربت داره أحق بالزيادة لانهم كانوا رداء للحتوف وشجى للعدو فهلا قال المهاجرون مثل قولكم حين سوينا بين السابقين منهم والانصار فقد كانت نصرة الأنصار بفنائهم وهاجر اليهم المهاجرون من بعد وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفا ألفا ثم فرض

لمن بعدهم خمسمائة ثم المرادف بعدهم ثلاثمائة سوى فى كل طبقة بين قويهم وضعيفهم عربهم وعجمهم وفرض للمرادف بعدهم على مائتين وخمسين ولمن بعدهم على مائتين وفرض للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنى عشر ألفا والحق بأهل بدر أربعة من غير أهل بدر وهم الحسن والحسين وأبوذر وسلمان الفارسى رضى الله عنهم وفرض لزوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف عشرة آلاف الا من جرى عليها الملك كصفية ومارية وجويرة فقال نسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضلنا عليهن فى القسمة فسو بيننا ففعل وفضل عائشة رضى الله عنها بألفين لمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم اياها فلم تأخذ الا مثلهن وامتنعت من أخذ الزيادة وجعل نساء أهل بدر فى خمسمائة ونساء من بعدهم الى الحديبية فى أربعمائة ونساء من بعد ذلك الى تمام قتال أهل الردة فى ثلاثمائة ثلاثمائة ونساء أهل القادسية مائتين مائتين ثم سوى بين النساء بعد ذلك وجعل الصبيان سواء على مائة مائة ثم جمع ستين مسكينا وأطعمهم الخبز فأحصوا ما أكلوا فوجدوه يخرج من جريبتين ففرض لكل انسان منهم ولعياله جريبتين فى شهر والجريب مكيال قدر أربعة أقفزة والقفيز مكيال يسع ثمانية مكاكيك والمكوك مكيال يسع صاعا ونصفا فتكون الجريبتان ستا وتسعين صاعا ثمانية وأربعون له وثمانية وأربعون لعياله وأشار عليه بعض الصحابة أن يبقى فى بيت المال شيأ من المال عدة لكون ان كان فقال عمر رضى الله عنه هذه كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقانى الله شرها وهى فتنة لمن بعدى بل أعد لهم ما أعد الله و رسوله طاعة الله و رسوله هما عدتنا التى بها أفضينا الى ماترون فاذا كان المال ثمن دين أحدكم هلكتم وفى رواية قدم على عمر مال من العراق فقسمه فقام اليه رجل فقال يا أمير المؤمنين لو أبقيت من هذا المال لعدو ان حضر أو نازلة أو نائبة ان نزلت فقال عمر قاتلك الله نطق بها على لسانك الشيطان لقننى الله حجتها والله لا أعصى الله اليوم ولكن أعد لهم كما أعد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال عمر للمسلمين فى شأن نفسه انى كنت امرأ

تاجر ابغى الله عيالى بتجارتى وقد شغلتمونى بأمركم هذا فماترون أنه يحل لى فى هذا المال فأكثر القوم وعلى رضى الله عنه ساكت فقال ماتقول يا أبا الحسن فقال ماأصلحك وعيالك بالمعروف ليس لك غيره فقال القول ماقال على فأخذ بما قال على رضى الله عنه واشتدت مرة حاجة عمر فاجتمع نفر من الصحابة منهم عثمان وطلحة والزبير فقالوا لو قلنا لعمر فى زيادة نزيده اياها فى رزقه فقال عثمان هلموا فلنستبرئ ماعنده من وراء وراء فأتوا حفصة ابنته فأعلموها الحال واستكتموها أن لاتخبر بهم عمر فلقيت عمر فى ذلك فغضب وقال من هؤلاء لأسوءنهم قالت لاسبيل الى علمهم قال أنت بينى و بينهم ماأفضل ماقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتك من الملبس قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع قال فأى الطعام ناله عندك أرفع قالت حرفا من خبز شعير فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها قال وأى مبسط كان يبسط عندك كان أوطأ قالت كساء ثخين كنا نربعه فى الصيف فاذا كان الشتاء بسط نصفه وتدثر بنصفه قال ياحفصة فأبلغيهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فضل الفضول فوضعها مواضعها وتبلغ بالترجية فوالله لاضعن الفضول مواضعها ولأتبلغن بالترجية وانما مثلى ومثل صاحبى كثلاثة سلكوا طريقا فمضى الاول وقد تزود فبلغ المنزل ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى اليه ثم اتبعه الثالث فان لزم طريقهما و رضى بزادهما ألحق بهما وان سلك غير طريقهما لم يجامعهما وكان فرض العطاء وتدوين عمر الدواوين سنة خمس عشرة من الهجرة وخطب عمر رضى الله عنه بالجابية لما كان بالشام فقال ان الله جعلنى خازنا لهذا المال وقاسما له ثم قال بل الله يقسمه وأنا بادئ بأهل النبى صلى الله عليه وسلم ثم أشرافهم ففرض لازواج النبى صلى الله عليه وسلم الاجويرة وصفية وميمونة رضى الله عنهن ثم لما قالت عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل بيننا عدل عمر بينهن رضى الله عنهن ثم قال انى بادئ بالمهاجرين الاولين الذين أخرجوا من ديارهم ظلما وعدوانا ثم أشرافهم فمن أسرع فى الهجرة أسرع به العطاء ومن

أبطأ في الهجرة أبطأ به العطاء فلا يلومن رجل الا مناخ راحلته ولما قدم الشام استقبله الناس وهو على بعيره وقالوا يا أمير المؤمنين لو ركبت برذونا يلقاك عظماء الناس ووجوههم فقال عمر لا أراكم ههنا انما الامر ههنا وأشار بيده الى السماء خلوا سبيل جملي ودخل مرة على مزبلة فاحتبس عندها فكأن أصحابه تأذوا بها فقال هذه دنياكم التي تحرصون عليها وقال نظرت في هذا الامر اذا أردت الدنيا أضر بالآخرة واذا نظرت للآخرة أضر بالدنيا فاذا كان الامر هكذا فأضروا بالفانية وعن على بن أبي طالب رضي الله عنه ان الله عز وجل جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة الى يوم القيامة سبقا والله سبقا بعيدا وأتعبا من بعدهما تعبا شديدا وعن الامام مالك رضي الله عنه قال كان السلف يعلمون أولادهم حب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كما يعلمونهم السورة من القرآن وعن شعيب بن حرب قال قلت لمالك أوصني قال أوصيك بحب الشيخين أبي بكر وعمر فقلت ان الله عز وجل أعطاني من ذلك شيأ كثيرا قال والله اني لأرجولك على حبهما ما أرجولك على التوحيد وهذا الفرض الذي فرض عمر رضي الله عنه في العطاء غير الفرض الذي فرض أبو بكر رضي الله عنه فان أبا بكر سوى بين الناس في الفرض والعطاء نظرا لاستوائهم في الاسلام وأكثر مال جاء قسمه عشرين درهما عشرين درهما وفضلت فضلة فقسمها للخدم خمسة دراهم خمسة دراهم وقال ان لكم خدما يخدمونكم ويعالجون لكم فرضخنا لهم فلما فتحت الفتوحات في خلافة عمر رضي الله عنه وجاءته الاموال قال ان أبا بكر رضي الله عنه رأى في هذا المال رأيا ولي فيه رأي آخر وفاضل بين الناس في الفرض كما تقدم وقال لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه وفاضل بين أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر ففرض لأسامة أربعة آلاف ولعبد الله ابن عمر ثلاثة آلاف فقيل له لم زدت لأسامة ألفا وفضلته على ابنك عبد الله فقال ما كان لابي عبد الله ما كان لابي أسامة من الفضل وما كان لعبد الله ما كان لاسامة فان أبا أسامة كان أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبي عبد الله وكان

أسامة أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من عبد الله وفرض لابناء المهاجرين والانصار ألفين ألفين فمر به عمر بن أبي سلمة ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال زيدوه ألفا وقال اني فرضت له بأبيه أبي سلمة ألفين وزدته بأمه أم سلمة ألفا فان كانت أمه كأمه زدناه ألفا وجاءه طلحة بن عبيد الله بأخيه عثمان ففرض له ثمانمائة فمر به النضر بن أنس بن النضر فقال افرضوا له ألفين فقال له طلحة جئتك بمثله ففرضت له ثمانمائة وفرضت لهذا ألفين فقال ان أبا هذا وهو أنس بن النضر لقيني يوم أحد حين أضرب الناس وصرخ الشيطان ان محمدا قتل فقال لي ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ان الناس يقولون انه قد قتل فسل سيفه وكسر غمده وقال ان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل فان الله حي لا يموت فقاتل حتى قتل فان كان أبو أخيك عثمان مثل أبيه نفرض له مثل ما فرضناله وجعل الفرض لمن يفرض له من الصبيان من بعد الفطام من الرضاع ثم غير ذلك وجعل الفرض لمن يفرض له من الصبيان من حين الولادة وسبب ذلك أنها جاءت قافلة تحمل طعاما الى المدينة وغربت الشمس قبل دخول القافلة المدينة فباتت القافلة خارج المدينة فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فقال لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه اني أخشى على هذه القافلة من السراق اخرج بنا نحرسهم من بعد فخرج ومعه عبد الرحمن بن عوف يحرسان القافلة من بعد وقاما يتهجدان بالصلاة فسمع عمر رضي الله عنه بكاء صبي بالمدينة فقال لعبد الرحمن بن عوف احرس القافلة حتى أنظر سبب بكاء هذا الصبي فتوجه نحو الصبي وقال لامه اتقي الله واحسني الى صبيك ثم عاد الى مكانه فسمع بكاءه مرة ثانية فعاد الى أمه فقال لها مثل ما قال في المرة الاولى ثم عاد الى مكانه فلما كان آخر الليل سمع بكاءه فعاد الى أمه فقال ويحك اني لأراك أم سوء مالي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة فقالت وهي لا تعرف أنه عمر يا عبد الله اني أحاوله على الفطام فيأبى قال ولم قالت لان عمر لا يفرض للمولود الا بعد الفطام فأريد أن أفطمه قبل أوان فطامه ليفرض له عمر قال فكم له قالت كذا كذا شهرا فقال لا تعجليه ورجع الى

عبد الرحمن بن عوف وهو يبكي ويقول يا بؤسا لعمر كم قتل من أبناء المسلمين فلما صلى الفجر أمر منادياً ينادي أن لا تعجلوا على صبيانكم الفطام فانا نفرض لكل مولود في الاسلام من حين يولد وكتب بذلك الى الآفاق أن يفرضوا لكل مولود في الاسلام من حين يولد وكان رضي الله عنه شديد الخوف من الله تعالى قوي الرجاء حتى كاد خوفه ورجاؤه كجناحي طائر في الاعتدال فكان يقول لو نادى مناد من السماء لا يدخل النار الا رجل واحد لخفت أن أكون أنا ولو نادى مناد لا يدخل الجنة الا رجل واحد لرجوت أن أكون أنا وكان رضي الله عنه مدة خلافته لا ينام ليلا ولا نهارا الا خفقات يخفقها ويقول ان نمت ليلا أضعت نفسي وان نمت نهارا أضعت رعيتي وقرأ يوما اذا الشمس كورت حتى بلغ واذا الصحف نشرت خر مغشيا عليه أياما يعاد وأرسل مرة الى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يستسلفه أربعمائة درهم فقال عبد الرحمن تستسلفني وعندك بيت المال ألا تأخذ منه ثم ترده فقال عمر اني أتخوف أن يصيبني قدري يعني الموت فتقول أنت وأصحابك اتركوها لامير المؤمنين حتى تؤخذ مني يوم القيامة ولكن أستسلفها منك فاذا مت جئت واستوفيتها من ميراثي وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال والله لو أعلم أن كلبا يحب عمر لاحببته ووددت أني كنت خادما لعمر حتى أموت ولقد وجد فقده كل شيء حتى العضاه وان هجرته كانت نصرا وان سلطانه كان رحمة وقال ابن مسعود لابنه عبد الله وهو في حلقة في المسجد الحرام يا أبا عبد الرحمن ما الصراط المستقيم الا الذي كان عليه أبوك ثابتا حتى دخل الجنة ورأى ربه وحلف ثلاث أيمان على ذلك وقال معاوية لصعصعة بن صوحان صف لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال كان عالما برعيته عادلا في نفسه قليل الكبر قبولا للعذر سهل الحجاب مفتوح الباب متحريا للصواب بعيدا من الاساءة رفيقا بالضعيف غير صخاب كثير الصمت بعيدا من العبث وكتب عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص وهو على مصر رضي الله عنهما كن لرعيتك كما تحب لك أميرك وعن عبد الله بن

عباس رضي الله عنهما قال دخل عيينة بن حصن على عمر رضي الله عنه فقال هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر رضي الله عنه حتى هم أن يوقع به فقال الحر بن قيس يا أمير المؤمنين ان الله تعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وان هذا من الجاهلين فوالله ما تجاوزها عمر حين تلاها وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل وعن الحسن البصري قال يجيء الاسلام يوم القيامة فيتصفح وجوه الناس حتى يجيء الى عمر رضي الله عنه فيصعد فيقول أي رب كنت خفيا وأهان وهذا أظهرني وأنت أعلم قال فتجيء ملائكة فتأخذ بيده فتدخله الجنان والناس في الحساب وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال كان عمر اذا نهى الناس عن شيء دخل على أهله أو قال جمع أهله فقال اني قد نهيت الناس عن كذا وكذا وان الناس ينظرون اليكم كما ينظر الطير الى اللحم فان وقعتم وقعوا وان هبتم هابوا واني والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه الا أضعفت له العقوبة لمكانه مني فمن شاء منكم فليتقدم ومن شاء فليتأخر وعن ضبة بن محصن العنزي قال كان علينا أميرا بالبصرة أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فكان اذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وأنشأ يدعو لعمر رضي الله عنه قال فغاظني ذلك منه فقمت اليه حيث لا يذكر أبا بكر رضي الله عنه فقلت له أين أنت من صاحبه يعني أبا بكر رضي الله عنه تفضله عليه فصنع ذلك جمعا ثم كتب الى عمر يشكوني يقول ان ضبة بن محصن العنزي يتعرض لي في خطبتي فكتب اليه عمر أن أشخصه الي قال فاشخصني اليه وقدمت فضربت عليه الباب فخرج الي فقال من أنت فقلت أنا ضبة فقال لا مرحبا ولا أهلا قلت أما المرحب فمن الله وأما الأهل فلا أهل لي ولا مال فبما استحللت يا عمر اشخاصي من بلدي بلا ذنب أذنبته ولا شيء أتيته قال ما الذي شجر بينك وبين عاملي قال قلت الآن أخبرك انه كان اذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يدعو لك فغاظني ذلك

منه فقمت له فقلت له أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعا ثم كتب اليك يشكونى قال فاندفع عمر رضى الله عنه باكيا وهو يقول أنت والله أوفق منه وأرشد فهل أنت غافر لى ذنبى يغفر الله لك فقلت غفر الله لك يا أمير المؤمنين قال ثم اندفع باكيا وهو يقول والله ليلة من أبى بكر ويوم خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك بليلته ويومه قلت نعم قال أما الليلة فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين خرج ليلا ومعه أبو بكر رضى الله عنه فجعل يمشى مرة أمامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن يساره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذا يا أبا بكر ما أعرف هذا من أفعالك فقال يا رسول الله أذكر الرصد فأكون امامك وأذكر الطلب فأكون خلفك ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك قال فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلته على أطراف أصابعه أى حتى لا يظهر أثر قدميه فى الارض حتى حفيت فلما رأى أبو بكر رضى الله عنه أنها قد حفيت حمله على عاتقه وجعل يشتد به حتى أتى فم الغار فأنزله ثم قال والذى بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله فان كان فيه شئ نزل بى قبلك قال فدخل فلم ير فيه شيأ فحمله فأدخله وكان فى الغار خرق فيه حيات وأفاع فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شئ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه وجعلن يضربن أبا بكر فى قدمه وجعلت دموعه تنحدر على خديه من ألم ما يجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له يا أبا بكر لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه أى الطمأنينة لابى بكر فهذه ليلته وأما يومه فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب فقال بعضهم نصلى ولا نزكى فأتيته لا آلوه نصحا فقلت يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تألف الناس وارفق بهم فقال لى أجبار فى الجاهلية خوار فى الاسلام فبما ذا أتألفهم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتفع الوحى فوالله لئن منعونى عقالا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه قال فقاتلنا عليه فكان والله رشيد الأمر فهذا يومه ثم كتب الى أبى موسى يلومه . وقال الاوزاعى فى وعظ

وعظ به المنصور بلغني ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لخشيت أن أسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك وحدثني يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن عمر والانصاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلا من الانصار على الصدقة فرآه بعد أيام مقيما فقال له مامنعك من الخروج الى عملك أما علمت ان لك مثل أجر المجاهدين في سبيل الله قال لا قال وكيف ذلك قال انه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مامن وال يلي شيأ من أمور الناس الا أتي به يوم القيامة مغلولة يده الى عنقه لا يفكها الا عدله فيوقف على جسر من النار ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه ثم يعاد فيحاسب فان كان محسنا نجا باحسانه وان كان مسيئا انخرق به ذلك الجسر فيهوى به في النار سبعين خريفا فقال له عمر رضي الله عنه ممن سمعت هذا قال من أبي ذر وسلمان فارسل اليهما عمر فسألهما فقالا نعم سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر رضي الله عنه واعمراه من يتولاها بما فيها فقال أبو ذر رضي الله عنه من سلب الله أنفه وألصق خده من الارض فأخذ عمر رضي الله عنه المنديل فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكاني وقال عمر رضي الله عنه لا يقيم أمر الناس الا حصين العقل أريب الفقه لا يطلع منه على عورة ولا يخاف منه على حرة ولا تأخذه في الله لومة لائم وقال أيضا الأمراء أربعة فأمير قوي ظلف نفسه أي منعها وعماله فذلك كالمجاهد في سبيل الله يد الله باسطة عليه بالرحمة وأمير ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك الا أن يرحمه الله وأمير ظلف عماله وارتع نفسه فذلك الحطمة الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم شر الرعاة الحطمة فهو الهالك وحده وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعا وقال عمر أيضا رضي الله عنه اللهم ان كنت تعلم اني أبالي اذا قعد الخصمان بين يدي على من مال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين ٭ وكان الخليفة المنصور مهابا شديد الهيبة لا يتجرأ أحد أن يعظه بمثل ماوعظه الاوزاعي وانما تجرأ الاوزاعي على ذلك لانه طلبه وأحضره من الشام الى بغداد وسأله أن يعظه فقال الاوزاعي

أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به فصاح به الربيع وزير المنصور وأهوى بيده الى السيف فانتهره المنصور وقال هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة قال الأوزاعى فطابت نفسى وانبسطت فى الكلام ومن جملة ما قال له فى ذلك المجلس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أى عبد جاءته موعظة من الله فى دينه فانها نعمة من الله تعالى سيقت اليه فان قبلها بشكر والا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها اثما ويزداد الله بها سخطا عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما وال مات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة ومن كره الحق كره الله ان الله هو الحق المبين ان الله الذى لين قلوب رعيتكم لكم حين ولاكم أمورهم لقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان بهم رؤفا رحيما مواسيا لهم بنفسه فى ذات يده محمودا عند الله وعند الناس فحقيق بك أن تقوم فيهم بالحق وأن تكون بالقسط له قائما ولعوراتهم ساترا لا تغلق عليك دونهم الابواب ولا تقم دونهم الحجاب تبتهج بالنعمة عندهم وتبتئس بما أصابهم من سوء يا أمير المؤمنين قد كنت فى شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين تملكهم أحمرهم وأسودهم مسلمهم وكافرهم وكل له عليك نصيب من العدل فكيف بك اذا انبعث منهم فئام وراء فئام وليس منهم أحد الا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه أو ظلامة سقتها اليه يا أمير المؤمنين كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد ما هذه الجريدة التى كسرت بها قلوب أمتك وملأت قلوبهم رعبا فكيف بمن شقق أستارهم وسفك دماءهم وخرب ديارهم وأجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف منه يا أمير المؤمنين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا القصاص من نفسه فى خدش خدشه أعرابيا لم يتعمده فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد لم يبعثك جبارا ولا متكبرا فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الاعرابى فقال اقتص منى فقال الاعرابى قد أحللتك بأبى أنت وأمى وما كنت لافعل ذلك أبدا ولو أتيت على نفسى فدعا له بخير يا أمير المؤمنين رض نفسك لنفسك وخذ لها الامان من ربك وارغب فى جنة عرضها السموات والارض التى يقول فيها

رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيد قوس أحدكم من الجنة خير له من الدنيا وما فيها
يا أمير المؤمنين ان الملك لو بقى لمن قبلك لم يصل اليك وكذا لا يبقى لك ولم يبق لغيرك
يا أمير المؤمنين أتدرى ما جاء عن جدك فى تأويل هذه الآية مالهذا الكتاب
لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها قال الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك
فكيف بما عملته الايدى وحصدته الالسن يا أمير المؤمنين أتدرى ما جاء عن
جدك فى تأويل هذه الآية يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين
الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله قال الله تعالى فى الزبور يا داود
اذا قعد الخصمان بين يديك فكان لك فى أحدهما هوى فلا تتمنين فى نفسك أن
يكون الحق له فيفلح على صاحبه فأمحوك من نبوتى ثم لا تكون خليفتى ولا
كرامة يا داود انما جعلت رسلى الى عبادى رعاء كرعاء الابل لعلمهم بالرعاية
ورفقهم بالسياسة ليجبروا الكسير ويدلوا الهزيل على الكلا والماء يا أمير
المؤمنين انك قد بليت بأمر لو عرض على السموات والارض والجبال لأبين أن
يحملنه وأشفقن منه يا أمير المؤمنين قد سأل جدك العباس رسول الله صلى الله عليه
وسلم إمارة مكة أو الطائف أو اليمن فقال له النبى صلى الله عليه وسلم يا عباس يا عم
رسول الله نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها نصيحة منه لعمه وشفقة عليه وأخبره
أنه لا يغنى عنه من الله شيأ اذ أوحى الله اليه وأنذر عشيرتك الأقربين فقال يا عباس
عم رسول الله ويا صفية عمة رسول الله ويا فاطمة بنت محمد انى لست أغنى عنكم
من الله شيأ ان لى عملى ولكم عملكم وقد بلغنى يا أمير المؤمنين أن جبريل عليه
السلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أتيتك حين أمر الله بمنافخ النار
فوضعت على النار تسعر ليوم القيامة فقال له يا جبريل صف لى النار فقال إن
الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى
اصفرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة لا يضىء جمرها
ولا يطفأ لهبها والذى بعثك بالحق لو أن ثوبا من ثياب أهل النار أظهر لاهل
الارض لماتوا جميعا ولو أن ذنوبا من شرابها صب فى مياه الارض جميعا لقتل

من ذاقه ولو أن ذراعا من السلسلة التى ذكرها الله تعالى وضع على جبال الارض جميعا لذابت وما استقلت ولو أن رجلا أدخل النار ثم أخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه فبكى النبي صلى الله عليه وسلم وبكى جبريل عليه السلام لبكائه فقال أتبكى يا محمد وقد غفر لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر فقال أفلا أكون عبدا شكورا ولم بكيت أنت يا جبريل وأنت الروح الأمين أمين الله على وحيه قال أخاف أن أبتلى بما ابتلى به هاروت وماروت فهو الذى منعنى من اتكالى على منزلتى عند ربى فأكون قد أمنت مكره فلم يزالا يبكيان حتى نوديا من السماء ياجبريل ويا محمد ان الله أمنكما أن تعصيا فيعذبكما وفضلك على سائر الانبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة عليهم السلام يا أمير المؤمنين ان أشد الشدة القيام لله بحقه وان أكرم الكرم عند الله التقوى وانه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه وهذه نصيحتى اليك والسلام عليك ثم نهض الاوزاعى فقال له المنصور الى أين فقال الى الولد والوطن باذن أمير المؤمنين ان شاء الله تعالى قال قد أذنت لك وشكرت لك نصيحتك وقبلتها والله الموفق للخير والمعين عليه وبه أستعين وعليه أتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل فلا تخلنى من مطالعتك إياى بمثل هذا فانك المقبول القول غير المتهم فى النصيحة قلت افعل ان شاء الله تعالى ثم أمر المنصور للأوزاعى بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله وقال أنا فى غنى عنه وما كنت لابيع نصيحتى بعرض من الدنيا وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه فى ذلك وروى ابن المهاجر أن المنصور قدم مكة شرفها الله حاجا فكان يخرج من دار الندوة الى الطواف فى آخر الليل يطوف ويصلى ولا يعلم به أحد فاذا طلع الفجر رجع الى دار الندوة وجاءه المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فيصلى بالناس فخرج ذات ليلة حين أسحر فبينما هو يطوف اذ سمع رجلا عند الملتزم وهو يقول اللهم انى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الارض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع فأسرع المنصور فى مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله ثم

خرج فجلس ناحية من المسجد وأرسل اليه فدعاه فأتاه الرسول وقال له أجب أمير المؤمنين فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه فقال له المنصور وماهذا الذى سمعتك تقول من ظهور البغى والفساد فى الارض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم فوالله لقد حشوت مسامعى ما أمرضنى وأقلقنى فقال يا أمير المؤمنين ان أمنتنى على نفسى أنبأتك بالأمور من أصولها والا اقتصرت على نفسى ففيها لى شغل شاغل فقال له أنت آمن على نفسك فقال الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق واصلاح ماظهر من البغى والفساد فى الارض أنت فقال ويحك وكيف يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى يدى والحلو والحامض فى قبضتى قال وهل دخل أحدا من الطمع مادخلك يا أمير المؤمنين ان الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الحديد وحجبة معهم السلاح ثم سجنت نفسك فيها منهم وبعثت عمالك فى جمع الاموال وجبايتها واتخذت وزراء وأعوانا ظلمة ان نسيت لم يذكروك وان ذكرت لم يعينوك وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والكراع والسلاح وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم ولم تأمر بايصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العارى ولا الضعيف ولا الفقير ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحجبوا عنك تجبى الاموال ولا تقسمها قالوا هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه وقد سخر لنا فأتمروا أن لا يصل اليك من علم أخبار الناس شئ إلا ما أرادوا وأن لا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمرا إلا أقصوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والاموال ليتقووا بهم على ظلم رعيتك ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم من الرعية فامتلأت بلاد الله من الطمع بغيا وفسادا وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل فان جاء متظلم

حيل بينه وبين الدخول اليك وان أراد رفع صوته أو قصته اليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك وأوقفت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم فان جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته وكانت للمتظلم بها حرمة واجابة لم يمكنه مما يريد خوفا منهم فلا يزال المظلوم يختلف اليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه فاذا اجهد وأخرج وظهر وصرخ بين يديك فيضرب ضربا مبرحا ليكون نكالا لغيره وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير فما بقاء الاسلام وأهله على هذا ولقد كانت بنو أمية وكانت العرب لا ينتهى اليهم المظلوم الا رجعت ظلامته اليهم فينصف ولقد كان الرجل يأتى من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادى يا أهل الاسلام فيبتدرونه مالك مالك فيرفعون مظلمته الى سلطانهم فينتصف له ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر الى أرض الصين وبها ملك فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكى فقال له وزراؤه مالك تبكى لا بكت عيناك فقال أما انى لست أبكى على المصيبة التى نزلت بى ولكن أبكى لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته ثم قال أما ان كان قد ذهب سمعى فان بصرى لم يذهب نادوا فى الناس ألا لا يلبس ثوبا أحمر الا المظلوم فكان يركب الفيل ويطوف طرفى النهار هل يرى مظلوما فينصفه هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه فى ملكه وأنت مؤمن بالله وابن عم نبى الله لا تغلبك رأفتك بالمسلمين ورقتك على شح نفسك فانك لا تجمع الاموال الا لواحد من ثلاثة ان قلت أجمعها لولدى فقد أراك الله عبرا فى الطفل الصغير يسقط من بطن أمه وماله على الارض مال وما من مال الا ودونه يد شحيحة تحويه فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس اليه ولست تعطى بل الله يعطى من يشاء وان قلت أجمع المال لاشيد سلطانى فقد أراك عبرا فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم ما جمعوه من الذهب والفضة وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع وما ضرك وولد أبيك ما كنتم فيه من قلة الجدة والضعف حين أراد الله بكم ما أراد الله وان قلت أجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها فوالله ما

فوق ما أنت فيه الا منزلة لاتدركك الا بعمل صالح يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشد من القتل قال لا قال فكيف تصنع بالملك الذى خولك الله وما أنت عليه من ملك الدنيا وهو تعالى لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن يعاقب من عصاه بالخلود فى العذاب الاليم وهو الذى يرى منك ما عقد عليه قلبك وأضمرته جوارحك فماذا تقول اذا انتزع الملك الحق المبين ملك الدنيا من يدك ودعاك الى الحساب هل يغنى عنك عنده شئ مما كنت فيه مما شححت عليه من ملك الدنيا فبكى المنصور بكاء شديدا حتى نحب وارتفع صوته ثم قال ياليتنى لم أخلق ولم أك شيأ ثم قال كيف احتيالى فيما خولت فيه ولم أر من الناس الا خائنا قال يا أمير المؤمنين عليك بالائمة الاعلام المرشدين قال ومن هم قال العلماء قال قد فروا منى قال هربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقتك من قبل عمالك ولكن افتح الابواب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم من الظالم وامنع المظالم وخذ الشئ مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل وأنا ضامن لك على ان من هرب منك ان يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك فقال المنصور اللهم وفقنى أن أعمل بما قال هذا الرجل وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فخرج فصلى بهم ثم قال للحرسى عليك بالرجل ان لم تأتنى به لاضربن عنقك واغتاظ عليه غيظا شديدا فخرج الحرسى يطلب الرجل فبينما هو يطوف فى طلب الرجل ويفتش عليه فاذا هو بالرجل فى بعض الشعاب فقعد حتى صلى ثم قال ياذا الرجل أما تتقى الله قال بلى قال ما تعرفه قال بلى قال فانطلق معى الى الامير فقد آلى أن يقتلنى ان لم آته بك قال ليس لى الى ذلك من سبيل قال يقتلنى قال لا قال كيف قال تحسن تقرأ قال لا فأخرج من مزود كان معه رقا مكتوبا فيه شئ فقال خذه فاجعله فى جيبك فان فيه دعاء الفرج قال وما دعاء الفرج قال لا يرزقه الا الشهداء قلت يرحمك الله قد أحسنت الى فان رأيت أن تخبرنى ما هذا الدعاء وفضله قال من دعا به مساء وصباحا هدمت ذنوبه ودام سروره ومحيت خطاياه واستجيب دعاؤه وبسط له فى رزقه وأعطى أمله وأعين على عدوه وكتب عند الله صديقا

ولا يموت الاشهيد اتقول (اللهم كما لطفت فى عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر فى علمك وانقاد كل شئ لعظمتك وخضع كل ذى سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك اجعل لى من كل هم أمسيت فيه فرجا ومخرجا اللهم ان عفوك عن ذنوبى وتجاوزك عن خطيئتى وسترك على قبيح عملى أطمعنى أن أسألك ما لا أستوجبه مما قصرت فيه أدعوك آمنا وأسألك مستأنسا انك المحسن الى وأنا المسىء الى نفسى فيما بينى وبينك تتودد الى بنعمتك وأتبغض اليك بالمعاصى ولكن الثقة بك حملتنى على الجراءة عليك فعد بفضلك واحسانك على انك أنت التواب الرحيم) قال فأخذته فصيرته فى جيبى ثم لم يكن لى هم غير أمير المؤمنين فدخلت عليه فرفع رأسه فنظر الى وتبسم ثم قال ويلك أوتحسن السحر فقلت لا والله يا أمير المؤمنين ثم قصصت عليه أمرى مع الشيخ فقال هات الرق الذى أعطاك ثم جعل يبكى وقال قد نجوت وأمر بنسخه وأعطانى عشرة آلاف درهم ثم قال أتعرفه قلت لا قال ذاك الخضر عليه السلام وعن أبى عمران الجونى قال لما ولى هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهنوه بما صار اليه من أمور الخلافة ففتح بيوت الاموال وأقبل يجيزهم بالجوائز السنية وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد وكان يظهر التنسك والتقشف وكان مواخيا لسفيان بن سعيد الثورى قديما فهجره سفيان ولم يزره فاشتاق هارون الى زيارته ليخلو به ويحدثه فلم يزره ولم يعبأ بموضعه ولا بما صار اليه فاشتد ذلك على هارون فكتب اليه كتابا يقول فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين الى أخيه سفيان بن سعيد أما بعد يا أخى قد علمت ان الله تبارك وتعالى واخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله واعلم أنى قد واخيتك مواخاة لم أصرم بها حبلك ولم أقطع منها ودك وانى منطو لك على أفضل المحبة والارادة ولولا هذه القلادة التى قلدنيها الله لأتيتك ولو حبوا لما أجد لك فى قلبى من المحبة واعلم يا أبا عبد الله انه ما بقى من اخوانى واخوانك أحد

إلا وفد زارني وهنأني بما صرت اليه وقد فتحت بيوت الاموال وأعطيتهم من الجوائز السنية مافرحت به نفسي وقرت عيني واني استبطأتك فلم تأتني وقد كتبت اليك كتابا شوقا مني اليك شديدا وقد علمت يا أبا عبد الله ماجاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته فاذا ورد اليك كتابي فالعجل العجل فلما كتب الكتاب التفت الى من عنده فاذا كلهم يعرفون سفيان الثوري وخشونته فقال علي برجل من الباب فأدخل عليه رجل يقال له عباد الطالقاني فقال يا عباد خذ كتابي هذا فانطلق به الى الكوفة فاذا دخلتها فسل عن قبيلة بني ثور ثم اسأل عن سفيان الثوري فاذا رأيته فألق كتابي هذا وع بسمعك وقلبك جميع مايقول فأحص عليه دقيق أمره وجليله لتخبرني به فأخذ عباد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة فسأل عن القبيلة فأرشد اليها ثم سأل عن سفيان فقيل له هو في المسجد قال عباد فأقبلت الى المسجد فلما رآني قام قائما وقال أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق الا بخير قال عباد فوقعت الكلمة في قلبي فخرجت فلما رآني نزلت بباب المسجد قام يصلي ولم يكن وقت صلاة فربطت فرسي بباب المسجد ودخلت فاذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤسهم كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته فسلمت فارفع الى أحد رأسه وردوا السلام على رؤس الاصابع فبقيت واقفا فما منهم أحد يعرض على الجلوس وقد علاني من هيبتهم الرعدة ومددت عيني اليهم فقلت ان المصلي هو سفيان فرميت بالكتاب اليه فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في محرابه فركع وسجد وسلم وأدخل يده في كمه ولفها بعباءته وأخذه فقلبه في يده ثم رماه الى من كان خلفه وقال يأخذه بعضكم يقرؤه فاني أستغفر الله أن أمس شيأ مسه ظالم بيده قال عباد فأخذه بعضهم فحله كأنه خائف من حية تنهشه ثم فضه وقرأه وأقبل سفيان يتبسم تبسم المعجب فلما فرغ من قراءته قال اقلبوا واكتبوا الى الظالم في ظهر كتابه فقيل له يا أبا عبد الله انه خليفة فلو كتبت له في قرطاس نقي فقال اكتبوا الى الظالم في ظهر كتابه فان كان

ا كتسبه من حلال فسوف يجزى به وان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به ولا يبقى شئ مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا فقيل له ما نكتب فقال اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم من العبد المذنب سفيان بن سعيد الثورى الى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذى سلب حلاوة الايمان أما بعد فانى قد كتبت اليك أعرفك أنى قد صرمت حبلك وقطعت ودك وقليت موضعك فانك قد جعلتنى شاهدا عليك باقرارك على نفسك فى كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته فى غير حقه وأنفذته فى غير حكمه ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى حتى كتبت تشهدنى على نفسك أما انى قد شهدت عليك أنا واخوانى الذين شهدوا عليك قراءة كتابك وسنؤدى الشهادة عليك غدا بين يدى الله تعالى ياهارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها فى أرض الله تعالى والمجاهدون فى سبيل الله وابن السبيل أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام أم هل رضى بذلك خلق من رعيتك فشد ياهارون مئزرك وأعد للمسلمين جوابا وللبلاء جلبابا واعلم أنك ستقف بين يدى الحكم العدل فقد رزئت فى نفسك اذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الاخيار ورضيت لنفسك أن تكون ظالما وللظالمين إماما ياهارون قعدت على السرير ولبست الحرير وأسبلت سترا دون بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك يظلمون الناس ولا ينصفون ويشربون الخمر ويضربون من يشربها ويزنون ويحدون الزانى ويسرقون ويقطعون يد السارق أفلا كانت هذه الاحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس فكيف بك ياهارون غدا اذا نادى المنادى من قبل الله تعالى أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم أين الظلمة وأعوان الظلمة فقدمت بين يدى الله عز وجل ويداك مغلولتان الى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وانصافك والظالمون حولك وأنت لهم سائق وامام الى النار كانى بك ياهارون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق وأنت ترى حسناتك فى

ميزان غيرك وسيئات غيرك في ميزانك زيادة على سيئاتك بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها واعلم أني نصحتك وما أبقيت لك في النصح غاية فاتق الله يا هارون في رعيتك واحفظ محمدا صلى الله عليه وسلم في أمته وأحسن الخلافة عليهم واعلم أن هذا الامر لو بقي لغيرك لم يصل اليك وهو صائر الى غيرك وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحدا بعد واحد فنهم من تزود وزاد انفعه ومنهم من خسر دنياه وآخرته واني أحسبك يا هارون ممن خسر دنياه وآخرته فاياك إياك أن تكتب لي كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام قال عباد فألقى الي الكتاب منشورا غير مطوي ولا مختوم فأخذته وأقبلت الى سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة من قلبي فناديت يا أهل الكوفة فأجابوني فقلت لهم يا قوم من يشتري رجلا هرب من الله الى الله فأقبلوا الي بالدنانير والدراهم فقلت لا حاجة لي في المال ولكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية قال فأتيت بذلك ونزعت ما كان علي من اللباس الذي كنت ألبسه مع أمير المؤمنين وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذي كنت أحمله حتى أتيت باب أمير المؤمنين هارون حافيا راجلا فهزأ بي من كان على باب الخليفة ثم استؤذن لي فلما دخلت عليه وبصرني على تلك الحالة قام وقعد ثم قام قائما وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن ويقول انتفع الرسول وخاب المرسل مالي وللدنيا مالي وللملك يزول عني سريعا ثم ألقيت الكتاب اليه منشورا كما دفع إلي فأقبل هارون يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه ويقرأ ويشهق فقال بعض جلسائه يا أمير المؤمنين لقد اجترأ عليك سفيان فلو وجهت اليه فأثقلته بالحديد وضيقت عليه في السجن كنت تجعله عبرة لغيره فقال هارون اتركونا يا عبيد الدنيا المغرور من غررتموه والشقي من أهلكتموه وان سفيان أمة وحده فاتركوا سفيان وشأنه ثم لم يزل كتاب سفيان الى جنب هارون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله تعالى فرحم الله عبدا نظر لنفسه واتقى الله فيما يقدم عليه غدا من عمله فانه عليه يحاسب وبه يجازى والله ولي التوفيق فهذه كانت سيرة العلماء

وعادتهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين لكنهم اتكلوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة فلما أخلصوا لله النية أثر كلامهم فى القلوب القاسية فلينها وأزال قساوتها وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا وان تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ففساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر الحسبة على الاراذل فكيف على الملوك والاكابر والله الموفق ووصف النبى صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال قرن من حديد لا تأخذه فى الله لومة لائم وتركه قوله الحق ماله من صديق وشرب عمر رضى الله عنه مرة من لبن إبل الصدقة غلطا فأدخل أصبعه وتقيأ روى أن عمر رضى الله عنه وصله مسك من البحرين فقال وددت لو أن امرأة وزنت حتى أقسمه بين المسلمين فقالت امرأته عاتكة أنا أجيد الوزن فسكت عنها ثم أعاد القول فأعادت الجواب فقال لا أحببت أن تضعيه بكفة ثم تقولين فيها أثر الغبار فتمسحين بها عنقك فأصيب بذلك فضلا على المسلمين وكان لعمر رضى الله عنه لما ولى الخلافة زوجة كان يحبها فطلقها لما ولى الخلافة خيفة أن تشير عليه بشفاعة فى باطل فيطيعها أو يطلب رضاها ولو سمع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه عش الرجل فعشاه ثم سمعه ثانيا يسأل فقال ألم أقل لك عش الرجل قال قد عشيته فنظر عمر فاذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزا فقال لست سائلا ولكنك تاجر ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى إبل الصدقة وضربه بالدرة وقال لا تعد ولولا أن سؤاله كان حراما لما ضربه ولما أخذ مخلاته أما ضربه فتأديب وقد ورد الشرع بالتعزير وأما أخذ مخلاته فان ما فيها جمعه بلا حق لان الذى أعطاه اعتقد أنه محتاج فهو مال ضائع لا يعرف مالكه وأمره للامام يصرفه فى المصالح وأتى عمر رضى الله عنه مرة بشربة من ماء بارد وعسل فى يوم صائف فقال اعزلوا عنى حسابها وقد اقتدى فى ذلك بالنبى صلى الله عليه وسلم فانه لما أتى

قباء أتاه أهل قباء بشربة من لبن مشوبة بعسل فوضع القدح من يده وقال أما انى لست أحرمه ولكن أتركه تواضعا لله تعالى وقال على لعمر رضى الله عنهما ان أردت أن تلحق بصاحبيك فارفع القميص ونكس الازار واخصف النعل وكل دون الشبع وقال عمر رضى الله عنه اخشوشنوا وايا كم وزى العجم كسرى وقيصر ومن تزيا بزى قوم فهو منهم وقال عمر رضى الله عنه كان لى صاحبان سلكا طريقا فان سلكت غير طريقهما سلك بى غير طريقهما وانى والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلى أدرك معهما عيشهما الرغيد وقال رضى الله عنه الزهادة فى الدنيا راحة القلب والجسد قال بعض الصحابة رضى الله عنهم تابعنا الاعمال كلها فلم نر فى أمر الآخرة أبلغ من زهد فى الدنيا وكان عمر رضى الله عنه يحب على بن أبى طالب وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء عنه فى ذلك شئ كثير فمن ذلك أنه لما قال النبى صلى الله عليه وسلم من كنت مولاه فعلى مولاه قال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما أمسيت يا ابن أبى طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة وحكم على مرة على أعرابى بحكم فلم يرض بحكمه فتلببه عمر بن الخطاب وقال له ويلك انه مولاك ومولى كل مؤمن ومؤمنة وأخرج الطبرانى انه قيل لعمر انك تصنع بعلى أى من التعظيم شيأ لا تصنعه مع أحد من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقال انه مولاى والمراد من قوله صلى الله عليه وسلم من كنت مولاه فعلى مولاه الولاية فى المحبة والقرب والاتباع مثل قول الله تعالى (إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا) وأخرج ابن سعد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه على أقضانا وأخرج أيضا عن سعيد ابن المسيب قال قال عمر رضى الله عنه أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن يعنى عليا رضى الله عنه وأخرج أبو يعلى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لقد أعطى على ثلاث خصال لأن تكون لى خصلة منها أحب إلى من حمر النعم فسئل وما هى قال تزويجه ابنته صلى الله عليه وسلم وسكناه فى المسجد لا يحل لى فيه ما يحل له واعطاؤه الراية يوم خيبر وأخرج أبو يعلى

والطبراني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب من علي ابنته أم كلثوم رضي الله عنهما بنت فاطمة رضي الله عنها وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة ما خلا سببي ونسبي وكل بني أنثى عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فاني أبوهم وعصبتهم ثم قال عمر واني وان كانت لي صحبة للنبي صلى الله عليه وسلم فأحببت أن يكون لي معها سبب ونسب وقصة تزوج عمر بأم كلثوم بنت علي رضي الله عنهم رواها الأئمة من طرق كثيرة منهم الطبراني والبيهقي والدارقطني وأكثر طرق الحديث مروية عن أكابر أهل البيت النبوي منهم جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه زين العابدين رضي الله عنهم أن عليا رضي الله عنه عزل بناته لولد أخيه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فلقي عمر عليا رضي الله عنهما فقال يا أبا الحسن أنكحني ابنتك أم كلثوم بنت فاطمة رضي الله عنهما بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علي قد حبستهن لولد أخي جعفر فقال عمر والله ما على وجه الأرض يرصد من حسن صحبتها ما أرصد فأنكحني يا أبا الحسن فقال علي إنها صغيرة فقال عمر ماذاك بك ولكن أردت منعي فان كانت كما تقول فابعثها الي وفي رواية انه لما قال له انها صغيرة قال له ما بي حاجة الى الباءة ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة ما خلا سببي ونسبي وكل بني أنثى عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فأنا أبوهم وعصبتهم فأحببت أن يكون لي من رسول الله سبب ونسب وفي رواية وانه كان لي صحبة فأحببت أن يكون لي معها سبب فقال علي رضي الله عنه ان لي أمراء حتى أستأذنهم وفي رواية ان لي أسدين حتى أستأذنهما يعني الحسن والحسين رضي الله عنهما فاستأذن ولد فاطمة فأذنوا له وفي رواية انه لما استأذن الحسن والحسين رضي الله عنهما وقال اني كرهت أن أقضي أمرا دونكما فسكت الحسين لكون أخيه الحسن أكبر منه وتكلم الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا أبتاه من بعد عمر صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفي وهو عنه راض ثم ولي الخلافة فعدل فقال له أبوه صدقت ولكن كرهت أن أقطع أمرا دونكما ثم

قال لها على رضى الله عنه انطلقى الى أمير المؤمنين فقولى له ان أبى يقرئك السلام ويقول لك انا قد قضينا حاجتك وفى رواية فأعطاها حلة وقال لها قولى له هذا البرد الذى قال لك فقالت ذلك لعمر فقال قولى له قد رضيت رضى الله عنه حصان كريم ما أحسنها وأجملها ووضع يده على ساقها وفى رواية فضمها اليه فقالت تفعل هذا لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك ثم خرجت حتى أتت أباها فأخبرته الخبر وقالت بعثتنى الى شيخ سوء فقال يابنية انه زوجك ثم زوجه اياها فجاء عمر الى مجلسه بين الروضة والمنبر حيث يجلس المهاجرون والانصار وذكر لهم الخبر وفى رواية قال لهم رفونى أى قولوا لى بالرفاء والبنين فقالوا بمن يا أمير المؤمنين فقال تزوجت أم كلثوم بنت على رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر لهم الحديث السابق وجعل لها مهرا أربعين ألفا فولدت له زيدا ورقية ولم يعقبا ومات عمر عنها وتزوجها بعده ابن عمها عون بن جعفر بن أبى طالب فمات عنها وتزوجها بعده أخوه محمد بن جعفر فمات عنها وتزوجها بعده أخوه عبد الله بن جعفر فماتت عنده ولم تلد لأحد من الثلاثة شيأ واتفق الصحابة رضى الله عنهم على أن عمر رضى الله عنه كان متصفا بكمال الزهد والعلم والورع والعقل وكانوا يقولون هو أكرم من أن يخدع وأعقل من أن يخدع وعن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم يطلبون أنواع الطعام وألوان الثياب ويتشدقون فى الكلام ودخل عمر بن الخطاب رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط فجلس فرأى أثر الشريط فى جنبه صلى الله عليه وسلم فدمعت عينا عمر رضى الله عنه فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ما الذى أبكاك يا ابن الخطاب قال ذكرت كسرى وقيصر وماهما فيه من الملك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط فقال صلى الله عليه وسلم أما ترضى ياعمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة قال بلى يارسول الله قال فذلك كذلك ودخل رجل على أبى ذر رضى الله عنه فجعل يقلب بصره فى بيته فقال يا أباذر ما أرى فى بيتك

متاعا ولا غير ذلك من الأثاث فقال ان لنا بيتا نوجه اليه صالح متاعنا فقال انه لا بد لك من متاع مادمت هاهنا فقال ان صاحب المنزل لا يدعنا فيه وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل على فاطمة رضى الله عنها فرأى على باب منزلها سترا وفى يدها قلبين أى سوارين من فضة فرجع فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أبو رافع فقال من أجل الستر والسوارين فأرسلت بهما بلالا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى فقال اذهب فبعه وادفعه الى أهل الصفة فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها بأبى أنت وأمى قد أحسنت ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة رضى الله عنها سترا فهتكه وقال كلما رأيته ذكرت الدنيا ارسلى به الى آل فلان وفرشت له عائشة رضى الله عنها ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية فما زال يتقلب ليلته فلما أصبح قال لها أعيدى العباءة الخلقة ونحى هذا الفراش عنى قد أسهرنى الليلة وكذلك أتته صلى الله عليه وسلم دنانير خمسة أو ستة ليلا فبيتها فسهر ليلة حتى أخرجها آخر الليل قالت عائشة رضى الله عنها فنام حتى سمعت غطيطه ثم قال ماظن محمد بربه لو لقى الله وعنده هذه وقال الحسن البصرى رضى الله عنه أدركت سبعين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لأحدهم الا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الارض ثوبا قط كان اذا أراد النوم باشر الارض بجسمه وجعل ثوبه فوقه وقال الحسن ودخلنا على صفوان بن محيريز وهو فى بيت من قصب قد مال عليه فقيل له لو أصلحته فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله وقال النبى صلى الله عليه وسلم من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة وفى الخبر كل نفقة للعبد يؤجر عليها الا ما أنفقه فى الماء والطين وفى قوله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا قالوا انه الرئاسة والتطاول فى البنيان وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذى شكا اليه ضيق منزله اتسع فى السماء أى فى الجنة وقال

صلى الله عليه وسلم كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة الاما أكنه من حر أو برد
ونظر عمر رضى الله عنه فى طريق الشام الى صرح قد بنى بجص وآجر فكبر
وقال ما كنت أظن أن يكون فى هذه الامة من يبنى بنيان هامان لفرعون يعنى
قول فرعون فأوقد لى ياهامان على الطين يعنى به الآجر وأول من عمله هامان وان
فرعون أول من بنى له بالآجر والجص فسموا الجبابرة وهذا هو الزخرف ورأى
بعض السلف جامعا فى بعض الامصار فقال أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد
والسعف ثم رأيته مبنيا من الرهص أى الطين الذى يبنى به فيجعل بعضه على بعض
ثم رأيته الآن مبنيا باللبن فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرهص وكان
أصحاب الرهص خيرا من أصحاب اللبن وكان فى السلف من يبنى داره مرارا فى
مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده فى احكام البنيان وكان منهم من اذا حج
أوغزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه فاذا رجع أعاده وكانت بيوتهم من الحشيش
والجلود وهى عادة العرب الآن ببلاد اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة
قال الحسن البصرى كنت اذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم
ضربت بيدى الى السقف وقال ابن مسعود رضى الله عنه يأتى قوم يرفعون الطين
ويدعون الدين ويستعملون البراذين يصلون الى قبلتكم ويموتون على غير دينكم
قالت عائشة رضى الله عنها كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة من
أدم حشوها ليف وكان عمر رضى الله عنه يقول لا أبالى أصبحت غنيا أو فقيرا لا
أدرى أيهما خير لى وكان رضى الله عنه يقول ما ابتليت ببلاء الا كان لله تعالى على
فيه أربع نعم اذ لم يكن فى دينى واذ لم يكن فى أعظم منه واذ لم أحرم الرضا به واذ أرجو
الثواب عليه وسمع عمر رضى الله عنه بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم يبكى
ويقول بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد كان جذع تخطب الناس عليه فلما كثر
الناس اتخذت منبرا لتسمعهم فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن
فأمتك كانت أولى بالحنين اليك لما فارقتهم بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من
فضيلتك عند الله أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذم فقال تعالى

عفا الله عنك لم أذنت لهم بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الانبياء وذكرك فى أولهم فقال وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح الآية بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجرا تتفجر منه الانهار فاذا باعجب من أصابعك حين نبع الماء منها صلى الله عليك بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر فاذا باعجب من البراق حين سريت عليه الى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالابطح صلى الله عليك بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله احياء الموتى فاذا باعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك فقالت لك الذراع لاتأكلنى فانى مسمومة بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد دعا نوح على قومه فقال رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا ولو دعوت بمثلها علينا لهلكنا كلنا القد وطىء ظهرك وأدمى وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول الاخيرا فقلت اللهم اغفر لقومى فانهم لايعلمون بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد اتبعك فى قلة سنك وقصر عمرك مالم يتبع نوحا فى كثرة سنه وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه الا القليل بأبى أنت وأمى يارسول الله لولم تجالس الا كفوأ ما جالستنا ولولم تنكح الا كفوأ ما نكحت الينا ولولم تؤاكل الا كفوأ ماواكلتنا فلقد والله جالستنا ونكحت الينا وآكلتنا ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك ووضعت الطعام على الارض ولعقت أصابعك تواضعا منك وقال عمر رضى الله عنه ان الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة فاذا سمع العالم خاف واسترجع عن ذنوبه وانصرف الى منزله وليس عليه ذنب فلا تفارقوا مجالس العلماء وكان عمر رضى الله عنه يقول لابى موسى الأشعرى رضى الله عنه ذكرنا ربنا وكان أبو موسى حسن الصوت حسن القراءة فيقرأ أبو موسى حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط فيقال

يا أمير المؤمنين الصلاة الصلاة فيقول أولسنا في الصلاة اشارة الى قوله تعالى
ولذكر الله أكبر وكتب عمر الى أمراء الاجناد اخلولقوا واخشوشنوا أى
البسوا الخلق واستعملوا الخشن فى الاشياء وأهدى عمر نجيبه أى نوى أن يجعلها
هديا فطلبت منه بثلاثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها
ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل اهدها فافعل أى لان القليل الجيد خير
من الكثير الدون وقال عمر رضى الله عنه اذا أصاب أحدكم ودا من أخيه
فليستمسك به فقلما يصيب ذلك وعن عبد الرحمن بن عوف قال خرجت مع عمر
رضى الله عنهما ليلة فى المدينة فبينما نحن نمشى اذ ظهر لنا سراج فانطلقنا نؤمه فلما
دنونا منه اذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولغط فأخذ عمر بيدى وقال أتدرى
بيت من هذا قلت لا قال هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم على شرب فما ترى
قلت أرى انا أتينا ما نهانا الله عنه قال تعالى ولا تجسسوا فرجع عمر رضى الله عنه
وتركهم وهذا يدل على وجوب الستر وترك التتبع وقد قال صلى الله عليه وسلم
لمعاوية رضى الله عنه انك ان اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم
وقال صلى الله عليه وسلم يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه لا تغتابوا
المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فان من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته
حتى يفضحه ولو كان فى جوف بيته وكان عمر رضى الله عنه ليلة يعس بالمدينة
فسمع صوت رجل فى بيت يتغنى فتسور عليه فوجد عنده امرأة ودنا من خمر
فقال يا عدو الله ظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته فقال وأنت يا أمير
المؤمنين فلا تعجل فانى ان كنت عصيت الله واحدة فقد عصيت الله ثلاثا قال الله
تعالى ولا تجسسوا وقد تجسست وقال تعالى وليس البر بأن تأتوا البيوت من
ظهورها وقد تسورت على وقال تعالى لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى
تستأنسوا وتسلموا على أهلها وقد دخلت بيتى بغير اذن ولا سلام فقال عمر رضى الله
عنه هل عندك من خير ان عفوت عنك قال نعم والله يا أمير المؤمنين لئن عفوت
عنى لا أعود الى مثلها أبدا فعفا عنه وخرج وتركه وقال عمر رضى الله عنه من أقام

نفسه مقام التهم فلا يلومن من أساء الظن به ومر برجل يكلم امرأة على ظهر الطريق فعلاه بالدرة فقال يا أمير المؤمنين انها امرأتي فقال هلا كلمتها حيث لا يراك الناس وقال عمر رضي الله عنه لا يمنع من النكاح الا عجز أو فجور وكان رضي الله عنه يكثر النكاح ويقول اني لا أتزوج الا لاجل الولد وقال عمر رضي الله عنه ما أعطي العبد بعد الايمان بالله خيرا من امرأة صالحة وتزوج رجل على عهد عمر رضي الله عنه وكان قد خضب فنصل خضابه فاستعدى عليه أهل المرأة الى عمر وقالوا احسبناه شابا فأوجعه عمر ضربا وقال غررت القوم وكان عمر رضي الله عنه ينهى عن المغالاة في الصداق ويقول تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت وكان ذلك الاثاث رحى وجرة ووسادة من أدم حشوها ليف وأولم على بعض نسائه بمدين من شعير وعلى أخرى بمدين من تمر ومدين من سويق وخطب مرة ونهى عن المغالاة في الصداق وقال ما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له امرأة كيف تنهى وقد قال الله تعالى وآتيتم احداهن قنطارا فقال كل الناس أفقه منك يا عمر حتى النساء وفي رواية قال امرأة أصابت وأخطأ عمر وراجعت امرأة عمر رضي الله عنه في الكلام فقال لها أتراجعيني يالكعى فقالت ان أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه وهو خير منك فقال عمر خابت حفصة وخسرت ان راجعته ثم دخل على حفصة فقال لها لا تغتري بابنة أبي قحافة فانها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفها من المراجعة وروي ان امرأة من نساء النبي صلى الله عليه وسلم دفعت في صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فزبرتها أمها فقال صلى الله عليه وسلم دعيها فانهن يصنعن أكثر من ذلك وجرى مرة بينه وبين عائشة رضي الله عنها يوما كلام حتى أدخلا بينهما أبا بكر رضي الله عنه حكما فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلمي أو أتكلم فقالت بل تكلم أنت ولا تقل الا حقا فلطمها أبو بكر رضي الله عنه حتى دمي فوها وقال يا عدوة

نفسها أو يقول غير الحق فانتهرت برسول الله صلى الله عليه وسلم وقعدت خلف ظهره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ندعك لهذا ولا أردنا منك هذا وقالت له مرة فى كلام غضبت عنده انك الذى تزعم انك نبى الله فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتمل ذلك حلما وكرما وكان يقول لها انى لاعرف غضبك من رضاك قالت وكيف تعرفه قال اذا رضيت قلت لا واله محمد واذا غضبت قلت لا واله ابراهيم قال صدقت انما أهجر اسمك قالوا أول حب وقع فى الاسلام حب النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها وكان يقول لها كنت لك كأبى زرع لام زرع غير أنى لا أطلقك وكان يقول لنسائه لا تؤذونى فى عائشة فانه والله ما نزل على الوحى وأنا فى لحاف امرأة منكم غيرها وقال أنس رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان وكان يمزح مع نسائه وينزل الى درجات عقولهن مرة فى الاعمال والاخلاق حتى روى عنه انه كان يسابق عائشة رضى الله عنها فى العدو وسبقت يوما وسبقها فى بعض الايام فقال عليه الصلاة والسلام هذه بتلك وفى الخبر انه صلى الله عليه وسلم كان من أفكه الناس مع نسائه وقالت عائشة رضى الله عنها سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون فى يوم عيد فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتحبين أن ترى لعبهم قالت قلت نعم فأرسل اليهم فجاؤا وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البابين ومد يده ووضعت ذقنى على يده وجعلوا يلعبون وأنظر وجعل رسول صلى الله عليه وسلم يقول حسبك وأقول اسكت مرتين أو ثلاثا ثم قال يا عائشة حسبك فقالت نعم فأشار اليهم فانصرفوا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل المؤمنين أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله وقال صلى الله عليه وسلم خيركم خيركم لاهله وأنا خيركم لاهلى وفى رواية خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائى وقال عمر رضى الله عنه مع خشونته ينبغى للرجل أن يكون فى أهله مثل الصبى فاذا التمس ما عنده وجد رجلا وقال رضى الله عنه خالفوا النساء فان فى خلافهن بركة وقد قيل شاوروهن وخالفوهن وقد زجر عمر رضى

الله عنه امرأته بمراجعته وقال ما أنت إلا لعبة فى جانب البيت ان كانت لنا اليك حاجة والا جلست كما أنت وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت ليلة أسرى بى فى الجنة قصرا وبفنائه جارية فقلت لمن هذا القصر فقيل لعمر فأردت أن أنظر اليها فذكرت غيرتك يا عمر فبكى عمر رضى الله عنه وقال أعليك أغار يا رسول الله وقال عمر رضى الله عنه أعروا النساء يلزمن الحجال لا تلبسوهن زينة وانما قال ذلك لأنهن حينئذ لا يرغبن فى الخروج فى الهيئة الرثة وبعث عمر رضى الله عنه حكما الى زوجين فعادو لم يصلح أمرهما فعلاه بالدرة وقال ان الله تعالى يقول ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما فعاد الرجل وأحسن النية وتلطف بهما فأصلح بينهما وقال عمر رضى الله عنه لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وقال رضى الله عنه ما من موضع يأتينى الموت فيه أحب إلىّ من موطن أطلب فيه القوت لأهلى أبيع وأشترى وكان رضى الله عنه يطوف فى السوق ويضرب بعض التجار بالدرة ويقول لا يبيع فى سوقنا إلا من يفقه والا أكل الربا شاء أو أبى قال قتادة لما قدم عمر رضى الله عنه الشام صنع له طعام لم ير قبله مثله فقال هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير فقال خالد بن الوليد رضى الله عنه لهم الجنة فاغرورقت عينا عمر وقال لئن كان حظنا هذا الطعام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بعيدا ومر عمر رضى الله عنه يوما ببناء يبنى بحجارة وجص فقال لمن هذا فقالوا لعامل من عمالك بالبحرين فقاسمه ماله وكان رضى الله عنه يقول لى على كل خائن أمينان الماء والطين وكان رضى الله عنه اذا قدم عليه الوفد سألهم عن حالهم وأسعارهم وعمن يعرف من أهل البلاد التى قدموا منها وعن أميرهم هل يدخل عليه الضعيف وهل يعود المريض فان قالوا نعم حمد الله تعالى وان قالوا لا عزله وكتب له أن اقبل وكان يقول مثل السلطان اذا ولى العمال الظالمين مثل من يسترعى غنمه الذئاب ومثل من يربط الكلب العقور ببابه وقد تقدم أنه كان يشاطر العمال أموالهم فيأخذ نصف أموالهم فيجعلها فى بيت المال وانما

شاطرهم حين ظهرت لهم أموال بعد الولاية لم تكن تعرف لهم وولى أباهريرة رضى الله عنه عملا ثم رأى له مالا فقال له من أين لك هذا المال فقال أبو هريرة دواب تناتجت وتجارات تداولت وأسهم من الغنيمة فقال أد الشطر وكأنه رضى الله عنه رأى أن ما أصاب العامل من غير رشوة وان كان حلالا فانه لا يستحق ذلك لان له بالامارة قوة على أن ينال بالحلال ما لا يناله غيره وفعله هذا مأخوذ من فعل النبى صلى الله عليه وسلم ففى الصحيحين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن اللتبية عاملا على صدقات الازد فلما جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك بعض ما معه وقال هذا لكم وهذا لى أهدى الىّ فقال صلى الله عليه وسلم ألا جلست فى بيت أبيك و بيت أمك حتى تأتيك هديتك ان كنت صادقا ثم خطب فقال مالى أستعمل الرجل منكم فيقول هذا لكم وهذا لى هدية ألا جلس فى بيت أبيه و بيت أمه ليهدى له فوالذى نفسى بيده لا يأخذ منكم أحد شيأ بغير حقه الا أتى به يوم القيامه يحمله فليأتين أحدكم يوم القيامة ببعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه ثم قال اللهم قد بلغت وكان رضى الله عنه اذا قدم عليه العمال يأمرهم أن يدخلوا نهارا ولا يدخلوا ليلا كى لا يحجبوا شيأ من المال وقال عتاب بن أسيد رضى الله عنه لما ولاه النبى صلى الله عليه وسلم مكة والله ما أصبت فى عملى الذى ولانى النبى صلى الله عليه وسلم الا ثوبين معقدين كسوتهما مولاى كيسان وكان رضى الله عنه يقول رحم الله امرأ أهدى الى أخيه عيوبه وقال رضى الله عنه مرة لسلمان الفارسى رضى الله عنه ما الذى بلغك عنى مما تكره فاستعفاه فألح عليه فقال بلغنى عنك أن لك حلتين تلبس إحداهما بالنهار والاخرى بالليل وبلغنى عنك أنك تجمع بين ادامين على مائدة واحدة فقال عمر رضى الله عنه أما هذان فقد كفيتهما فهل بلغك غيرهما قال لا وانما قال عمر رضى الله عنه لسلمان فقد كفيتهما موافقة لسلمان فيما بلغه مع أن ذلك مكذوب على عمر رضى الله عنه لم يقع منه شئ من ذلك وسأل عمر رضى الله عنه بعض من قدم عليه من الشام عن أخ كان واخاه فى الله تعالى فخرج الى الشام فقال ما فعل أخى فلان قال

ذاك أخو الشيطان قال عمر مه قال انه قارف الكبائر حتى وقع فى الخمر فقال عمر اذا أردت الخروج فآذنى فكتب له عند خروجه بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله إلا هو اليه المصير ثم كتب له بعد ذلك كلاما يعاتبه فيه و يعذله فلما قرأ الكتاب بكى وقال صدق الله وقد نصح لى عمر فتاب مما كان قد وقع فيه وكان عمر رضى الله عنه يحب عبد الله بن العباس رضى الله عنهما و يقربه و يدنيه و يستشيره و يقدمه على الاشياخ فقال العباس لابنه عبد الله رضى الله عنهما انى أرى هذا الرجل يعنى عمر رضى الله عنه يقدمك على الاشياخ فاحفظ عنى خمسا لا تفشين له سرا ولا تغتابن عنده أحدا ولا تجربن عليه كذبا ولا تعصين له أمرا ولا يطلعن منك على خيانة قال الشعبي كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف وكان عمر رضى الله عنه يقول ثلاث يصفون لك ود أخيك أن تسلم عليه اذا لقيته أولا وأن توسع له فى المجلس وأن تدعوه بأحسن أسمائه اليه وكان عمر رضى الله عنه يوما جالسا مع النبى صلى الله عليه وسلم اذ ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت ثناياه فقال عمر يارسول الله بأبى أنت وأمى ما الذى أضحكك قال رجلان من أمتى جثيا بين يدى الله عز وجل فقال أحدهما يارب خذ لى مظلمتى من هذا فقال الله تعالى رد على أخيك مظلمته فقال يارب لم يبق لى من حسناتى شئ فقال الله تعالى للطالب كيف تصنع بأخيك ولم يبق له من حسناته شئ فقال يارب فليحمل عنى من أوزارى ثم فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء فقال ان ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس الى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال فيقول الله تبارك وتعالى للمتظلم ارفع بصرك فانظر فى الجنان فقال يارب أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا أو لأى صديق هذا أو لأى شهيد هذا فيقول الله تعالى لمن أعطى الثمن قال يارب ومن يملك ذلك قال أنت تملكه قال بماذا يارب قال بعفوك عن أخيك قال يارب قد عفوت عنه فيقول الله تعالى خذ بيد أخيك فأدخله الجنة ثم قال صلى الله عليه وسلم فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان الله يصلح بين

المؤمنين يوم القيامة وروى أن عمر رضى الله عنه كان يعس ذات ليلة بالمدينة فرأى رجلا وامرأة على فاحشة فلما أصبح قال للناس أرأيتم لو أن اماما رأى رجلا وامرأة على فاحشة فأقام عليهما الحد ما كنتم فاعلين قالوا انما أنت امام فقال على بن أبى طالب رضى الله عنه ليس ذلك لك إذن يقام عليك الحد ان الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهود ثم تركهم ماشاء الله أن يتركهم ثم سألهم فقال القوم مثل مقالتهم الاولى وقال على مثل مقالته الاولى فكان عمر رضى الله عنه مترددا فى ان الوالى هل له أن يقضى بعلمه فى حدود الله تعالى فلذلك راجعهم فى مقام التقرير لافى مقام الاخبار خيفة من أن لا يكون له ذلك فيكون قاذفا باخباره ومال على رضى الله عنه الى انه ليس له ذلك فأخذ عمر بقوله وهذا هو المختار عند الفقهاء فان من قال ان القاضى يقضى بعلمه استثنى من ذلك الحدود وروى النخعى ان عمر رضى الله عنه بعث مصدقين فأبطؤا عليه وبالناس حاجة شديدة فلما جاؤا بالصدقات قام عمر متزرا بعباءة يختلف فى أولها وآخرها يقسم تلك الصدقة ويقول هذه لآل فلان وهذه لآل فلان حتى انتصف النهار وجاع فدخل بيته فأكل من أكل بيته وقال فى مال الصدقة من أدخله بطنه أبعده الله قال العلامة الطرطوشى فى كتابه المسمى سراج الملوك كانت الخلفاء تعدل فى بيت المال فكانت الرعية هم الأجناد وهذه هى سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم وكان جوعه أكثر من شبعه وتوفى صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة فى آصع من شعير واذا لم يكن العدل فى بيت المال ضعف الملك وقويت الأعداء كان الهرمزان من ملوك الفرس فأسره المسلمون وأرسلوه الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلما وصل الى المدينة وجد عمر رضى الله عنه فى المسجد مستلقيا متوسدا كوما من الحصا ودرقته بين يديه فقال له عدلت فأمنت فنمت وعن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه على عاتقه قربة وهو يتخلل الناس فقلت مالك يا أمير المؤمنين فقال لى لا تتكلم وأقول لك فسرت معه حتى صبها فى بيت عجوز وعدنا الى منزله فقلت له فى ذلك

فقال انه حضرني رسول ملك الروم ورسول ملك الفرس فقالا لي لله درك يا عمر قد اجتمع الناس على عملك وفضلك وعدلك فلما خرجا من عندي تداخلني ما يتداخل البشر فقمت ففعلت بنفسي ما فعلت وحمل مرة أخرى قربة على عنقه فقيل له في ذلك فقال ان نفسي أعجبتني فأردت أن أذلها وقال له كعب الاحبار يوما انا نجدك في كتابنا انك تكون على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقعوا فيها فاذا مت لم يزالوا يقتحمون فيها الى يوم القيامة وكان كعب الاحبار حبرا من أحبار اليهود ثم هداه الله للاسلام في زمن خلافة عمر رضي الله عنه وكان عنده علم كثير من التوراة وكتب بني اسرائيل وكان فيها صفات النبي صلى الله عليه وسلم وصفات خلفائه وأصحابه وكثير من حوادث هذه الامة فكان يجلس مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ويخبرهم بها وقد رأوا كثيرا مما أخبرهم به من الحوادث التي تجري في المستقبل فرأوها كما أخبر وقال له عمر رضي الله عنه يوما خوفنا يا كعب فقال لعمر رضي الله عنه اعمل عمل رجل لو وافيت القيامة بعمل سبعين نبيا لازدريت عملهم مما ترى فنكس عمر وأطرق مليا ثم أفاق فقال زدنا يا كعب فقال يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلا دماغه حتى يسيل من حرها فنكس عمر ثم أفاق فقال يا كعب زدنا فقال يا أمير المؤمنين ان جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر على ركبتيه حتى يخر ابراهيم خليل الرحمن يقول يارب لا أسألك اليوم الا نفسي وقال معاوية رضي الله عنه لصعصعة بن صوحان صف لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال كان عالما برعيته عادلا في قضيته عاريا من الكبر قابلا للعذر سهل الحجاب مصون الباب متحريا للصواب رفيقا بالضعيف غير محاب للقوي وغير جاف للقريب وعن سليمان بن داود عليهما السلام الرحمة والعدل بحر زان الملك وروى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا التقى المسلمان وسلم كل منهما على صاحبه وتصافحا نزلت بينهما مائة رحمة للبادي تسعون وللمصافح عشر والتقى مرة عمر وأبو عبيدة رضي

الله عنهما فصافحه أبو عبيدة وقبل يده وتنحيا يبكيان وأخذ عمر رضى الله عنه مرة بغرز زيد بن ثابت رضى الله عنه تعظيما له لعلمه وقال هكذا فافعلوا بزيد وأمثاله وكتب عمر رضى الله عنه الى عماله مروا الاقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا وانما قال ذلك لأن التجاور يورث التزاحم على الحقوق وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم وكان عمر رضى الله عنه يذهب الى قباء والعوالى كل سبت ويتفقد عمل العبيد فاذا وجد عبدا فى عمل لا يطيقه وضع عنه منه وكان رضى الله عنه يقول خذوا بحظكم من العزلة والعزلة راحة من قرين السوء وعن الشافعى رضى الله عنه الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط وقال عمر رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر وقال صلى الله عليه وسلم لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم وقال صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس ان الله يقول لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم وقال أبو الدرداء رضى الله عنه لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعو خياركم فلا يستجاب لهم وتستغفرون فلا يغفر لكم وتستنصرون فلا تنصرون وقال صلى الله عليه وسلم ما أعمال البر عند الجهاد فى سبيل الله الا كنفثة فى بحر لجى وما جميع أعمال البر والجهاد فى سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الا كنفثة فى بحر لجى وقال صلى الله عليه وسلم ان الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يرى المنكر بين أظهرهم وهم قادرون على انكاره فلا ينكرونه وكان عمر رضى الله عنه يوما يعطى الناس عطاياهم اذ جاءه رجل معه ابن له فقال له عمر رضى الله عنه ما رأيت أحدا أشبه بأحد من هذا بك فقال له الرجل أحدثك عنه يا أمير المؤمنين بأمر انى أردت أن أخرج الى السفر وأمه حامل به فقالت تخرج وتدعنا على هذه الحالة فقلت

أستودع الله ما فى بطنك فخرجت ثم قدمت فاذا هى قدماتت فجلسنا نتحدث فاذا نار على قبرها فقلت للقوم ما هذه النار فقالوا هذه النار على قبر فلانة يعنون زوجته نراها كل ليلة فقلت والله ان كانت لصوامة قوامة فأخذت المعول حتى انتهينا الى القبر فحفرنا فاذا سراج واذا هذا الغلام يدب فقيل لى ان هذه وديعتك ولو كنت استودعت أمه لوجدتها فقال عمر رضى الله عنه لهو أشبه بك من الغراب بالغراب وكان عمر رضى الله عنه كبقية أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يبالغون فى تطهير قلوبهم وبواطنهم من الصفات الذميمة كالعجب والكبر ويتساهلون فى الطهارة الظاهرة حتى ان عمر رضى الله عنه توضأ من ماء فى جرة نصرانية وكان بعض المنافقين يؤم الناس ولا يقرأ الاسورة عبس لما فيها من العتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهم عمر رضى الله عنه أن يقتله ورأى ان فعله ذلك حرام وركب عمر رضى الله عنه مرة على فرس هملج ثم نزل عنه وقطع ذنبه لانه استشعر فى نفسه الخيلاء لحسن مشيته وسمع عمر رضى الله عنه مرة رجلا يقرأ ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع فصاح صيحة وخر مغشيا عليه فحمل الى بيته فلم يزل مريضا شهرا وكان عمر رضى الله عنه يقول اذا أعطيتم فاغنوا وكان يعطى أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فافوقها وأعطى مرة أعرابيا ناقة بولدها وقال اللهم اجعل الفضل عند خيارنا وكان رضى الله عنه يقول ان الاعمال تباهت فقالت الصلاة أنا أفضلكن وقال له رجل من أهل الكتاب فى قوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا لو نزلت هذه الآية علينا لجعلنا يوم نزولها يوم عيد فقال عمر رضى الله عنه أشهد لقد نزلت هذه الآية يوم عيدين اثنين يوم عرفة ويوم جمعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة وقد اتخذناه عيدا وكان رضى الله عنه يقول الحاج مغفور له ولمن يستغفر له فى ذى الحجة ومحرم وصفر وعشرين من ربيع الأول وحج رضى الله عنه فلما قبل الحجر الاسود قال انى لاعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك

ماقبلتك ثم بكى حتى علا نحيبه والتفت فرأى على بن أبى طالب رضى الله عنه وراه فقال يا أبا الحسن ههنا تسكب العبرات وتستجاب الدعوات فقال على رضى الله عنه يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع قال وكيف قال ان الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتابا ثم ألقمه هذا الحجر فهو يشهد للمؤمنين بالوفاء ويشهد على الكافرين بالجحود فقال عمر رضى الله عنه لا أبقانى الله فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن قال العلماء ولهذا المعنى الذى ذكره على رضى الله عنه استحب للطائف أن يقول عند استلام الحجر اللهم ايمانا بك ووفاء بعهدك يشيرون بذلك الى العهد الذى ألقمه الله الحجر وكان عمر رضى الله عنه يقول أخشى أن كثرة المقام بمكة تسقط هيبة البيت الحرام من القلوب فكان يقول للحجاج اذا حجوا يا أهل اليمن يمنكم ويا أهل الشام شامكم ويا أهل العراق عراقكم ولذلك هم بمنع الناس من كثرة الطواف وقال خشيت أن يأنس الناس بهذا البيت فتسقط هيبته من قلوبهم وقال رضى الله عنه لقد هممت أن أكتب الى الامصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع اليه سبيلا وقال عمر رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مد يديه للدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه وكان رضى الله عنه يقول يا أيها الناس عليكم بالعلم فان لله سبحانه وتعالى رداء يحبه فمن طلب بابا من العلم رداه الله عز وجل بردائه فاذا أذنب استعتبه ثلاث مرات لئلا يسلبه رداءه وقال رضى الله عنه موت ألف عابد صائم النهار قائم الليل أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه وقال رضى الله عنه من حدث حديثا فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل وقال رضى الله عنه ان أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم قالوا وكيف يكون منافقا عليما فقال عليم اللسان جاهل القلب والعمل وقال رضى الله عنه اذا زل العالم زل بزلته عالم من الخلق وقال رضى الله عنه ثلاث يهدمن الدين احداهن زلة العالم وكان عمر رضى الله عنه يسأل حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما عن نفسه هل فيه شئ من النفاق فبراه من ذلك وكان اذا دعى الى جنازة ليصلى عليها نظر فان حضر حذيفة للصلاة عليها

صلى عليها والا ترك وكان حذيفة رضى الله عنه صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنافقين والفتن وكان لا يحضر جنازة منافق وكان عمر رضى الله عنه يقول ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه الى هدى ويرده عن ردى وما تم ايمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله وقال رضى الله عنه تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه وليتواضع لكم من يتعلم منكم ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم وقال رضى الله عنه ان الرجل يشيب فى الاسلام وما أكمل لله صلاة فقيل له وكيف ذلك قال لا يتم خشوعها وتواضعها واقباله على الله عز وجل وقال رضى الله عنه ما كنا نعرف الاشنان زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رضى الله عنه لا تأخذه فى الله لومة لائم ولا يترك انكار المنكر ولا النصح للمسلمين فكان رضى الله عنه مرة يخطب للجمعة فدخل المسجد عثمان بن عفان رضى الله عنه فأنكر عليه تأخره الى ذلك الوقت وترك البكور الى المسجد فقال فى خطبته أهذه الساعة تجىء ياعثمان فقال عثمان ما زدت بعد أن سمعت الاذان على أن توضأت وخرجت فقال عمر والوضوء أيضا أى اقتصرت عليه وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالغسل وأخر عمر رضى الله عنه مرة صلاة المغرب حتى طلع نجم فأعتق رقبة وسئل رضى الله عنه عن جهد البلاء فقال كثرة العيال وقلة المال وخطب رضى الله عنه مرة فقال أيها الناس انه قد أتى على زمان وأنا أرى أن قراء القرآن يريدون به الله عز وجل وما عنده فخيل الى الآن ان قوما يقرؤنه يريدون به الناس والدنيا الا فأريدوا الله عز وجل بأعمالكم الا انما كنا نعرفكم اذ يتنزل الوحى واذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا من اخباركم فقد انقطع الوحى وذهب النبى فانما نعرفكم الآن بالقول فمن رأينا منه خيرا ظننا به خيرا واحببناه عليه ومن رأينا منه شرا ظننا به شرا وأبغضناه عليه سرائركم بينكم وبين ربكم ألا وانى انما أبعث عمالى ليعلموكم دينكم وسنتكم ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ويأخذوا أموالكم الا من ربا به شىء من ذلك فليرفعه الى فوالذى نفسى

بيده لاقصنكم منه فقام عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرأيت أن بعثت عاملا من عمالك فأدب رجلا من رعيتك فضربه أتقصه منه قال نعم والذى نفس عمر بيده لاقصنه منه فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه وخطب لما ولى الخلافة فقال يا أيها الناس انى داع فأمنوا اللهم انى غليظ فليني لاهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم اللهم انى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف قصدا من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدار الآخرة اللهم ارزقنى خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين اللهم انى كثير الغفلة والنسيان فالهمنى ذكرك على كل حال وذكرى الموت فى كل حين اللهم انى ضعيف عند العمل بطاعتك فارزقنى النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التى لا تكون الا بعزتك وتوفيقك اللهم ثبتنى باليقين والبر والتقوى وذكر المقام بين يديك والحياء منك وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى والمحاسبة لنفسى واصلاح الساعات والحذر من الشبهات اللهم ارزقنى التفكر والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك والفهم له والمعرفة بمعانيه والنظر فى عجائبه والعمل بذلك ما بقيت انك على كل شئ قدير وكان آخر كلام عمر الذى اذا تكلم به عرف انه فرغ من خطبته اللهم لا تدعنى فى غمرة ولا تأخذنى على غرة ولا تجعلنى من الغافلين وكان الذين يكتبون له زيد بن ثابت وعبد الله بن أرقم وعبد الله بن خلف الخزاعى الذى يقال له طلحة الطلحات كان على ديوان البصرة وكتب له على ديوان الكوفة أبو جبيرة بن الضحاك فلم يزل الى أن ولى عبد الله بن زياد فعزله وولى مكانه حبيب بن القيسى وروى أن عمر رضى الله عنه خطب امرأة من ثقيف وخطبها المغيرة بن شعبة فزوجوها المغيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا زوجتم عمر فانه خير قريش أولها وآخرها الا ما جعل الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وعن الحسن البصرى قال ما فضل عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه كان أطولهم صلاة وأكثرهم صياما

ولكنه كان أزهدهم فى الدنيا وأشدهم فى أمر الله عز وجل قال ابن عباس رضى الله عنهما خرجت يوما أريد عمر فى خلافته فألفيته راكبا على حمار قد أرسنه بحبل أسود وفى رجليه نعلان مخصوفتان وعليه ازار قصير وقميص قد انكشفت منه ساقاه فمشيت الى جنبه وجعلت أجذب الازار عليه فجعل يضحك ويقول انه لا يطيعك حتى أتى العالية فصنع له قوم طعاما من خبز ولحم فدعوه اليه وكان عمر صائما فجعل ينبذ الىّ الطعام ويقول كل لى ولك

﴿ ذكر مقتل عمر رضى الله عنه ﴾

قال الحسن كان للمغيرة بن شعبة غلام نصرانى وقيل مجوسى يقال له فيروز أبو لؤلؤة وكان نجارا جيدا نقاشا يصنع الرحى وحدادا وكان خراجه ثقيلا عليه فشكا الى عمر ثقل الخراج وسأله أن يكلم مولاه أن يخفف عنه من خراجه فقال وكم خراجك قال درهمان فى كل يوم قال وما صناعتك قال نجار نقاش حداد قال ما أرى هذا خراجا ثقيلا فى مثل صناعتك فقد بلغنى أنك تقول لو أردت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت قال نعم لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب ثم انصرف عنه فقال عمر لقد وعدنى العبد الآن فلما كان الغد جاءه كعب الاحبار فقال له يا أمير المؤمنين اعهد فانك ميت فى ثلاث ليال قال وما يدريك قال أجد ذلك فى كتاب عندى قال عمر أتجد عمر بن الخطاب قال اللهم لا ولكنى أجد حليتك وصفتك وانك قد فنى أجلك وعمر لا يحس وجعا فلما كان الغد جاءه كعب فقال بقى يومان فلما كان الغد جاءه كعب فقال مضى يومان وبقى يوم فلما أصبح خرج عمر الى الصلاة وكان يوكل بالصفوف رجالا فاذا استوت كبر فاستعمل أبو لؤلؤة خنجر الرأسين محدد الطرفين نصابه فى وسطه وكان عمر قد رأى فى المنام ديكا أحمر ينقره ثلاث نقرات فتأوله بأنه رجل من العجم يطعنه ثلاث طعنات وكان عمر رضى الله عنه يوكل بالصفوف رجالا يسوونها فاذا استوت أخبروه فكبر وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك فى الركعة الاولى حتى يجتمع الناس فلما كان ذلك اليوم الذى طعن فيه كمن له أبو لؤلؤة فى المسجد فى غمار

الناس وأمهله الى أن كبر ودخل فى صلاة الصبح فطعنه ثلاث طعنات وقيل ست طعنات احداهن تحت سرته هى التى قتلته فلما وجد عمر حد السلاح سقط وقال دونكم والكلب فانه جنى علىّ وفى رواية قتلنى أو أكلنى الكلب فماج الناس وأسرعوا اليه وصار العلج لا يمر على أحد يمينا أو شمالا الا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة حتى جاء رجل فاحتضنه من خلفه وقيل ألقى عليه برنسا فأدلى السكين الى حلقه فقتل نفسه وقال عمر عند ما سقط أفى الناس عبد الرحمن بن عوف قالوا انعم هو ذا فتناوله بيده وقال تقدم صل بالناس فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة وحمل عمر الى منزله ثم سأل عمن طعنه فقالوا انه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فقال الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الاسلام ثم أذن للناس فدخلوا عليه ودخل فى الناس كعب الاحبار فلما نظر اليه عمر أنشأ يقول

وواعدنى كعب ثلاثا أعدها * ولا شك أن القول ما قاله كعب
ومابى حذار الموت انى لميت * ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

ثم أوصى بجعل الخلافة شورى بين ستة وتقدم الكلام على ذلك مستوفى ثم قال لابنه عبد الله أنظر ما علىّ من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا فقال ان وفى له مال آل عمر فأده من أموالهم والا فسل بنى عدى بن كعب وان لم تف أموالهم فسل فى قريش ولا تعدهم الى غيرهم فأدعنى هذا المال ثم قال انطلق الى عائشة أم المؤمنين فقل يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فانى لست اليوم أميرا وقل يستأذن عمر أن يدفن مع صاحبيه فمضى وسلم واستأذن ثم دخل على عائشة رضى الله عنها فوجدها قاعدة تبكى فقال يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسى ولأوثرنه اليوم على نفسى فلما أقبل قيل هذا عبد الله قد جاء وهو متطلع اليه فقال ارفعونى فأسنده رجل اليه فقال ما لديك قال الذى تحب يا أمير المؤمنين أذنت فقال عمر الحمد لله ما كان شئ من الأمر أهم الىّ من ذلك فاذا أنا قضيت فاحملونى وقل يستأذن عمر بن الخطاب فان أذنت

لى فأدخلونى وان ردتنى فردونى وفى رواية والافاصرفنى الى مقابر المسلمين فلما توفى خرجوا به فصلى عليه صهيب بن سنان الرومى ثم حملوه واستأذنوا به على عائشة رضى الله عنها فأذنت فدفنوه فى بيتها عند النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه وطعن يوم الاربعاء لاربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ودفن يوم الاحد صبيحة هلال المحرم سنة أربع وعشرين وعمره ثلاث وستون سنة ومدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام وفى تاريخ ابن الوردى مر يوما عمر بن الخطاب رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام لا يزال بينكم وبين الفتنة باب شديد الغلق مادام هذا بين أظهركم فاذا فارقكم انفتح ذلك الباب فكان كما قال عليه الصلاة والسلام لان الفتنة كلها قد نجمت بعد مقتله واتصل بعضها ببعض ولا تزال الفتن كذلك الى يوم القيامة انتهى ذكر ما كان لعمر رضى الله عنه وذلك نزر يسير من سيرته رضى الله عنه

﴿ ذكر ما كان لسيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه من الاقتصاد فى الدنيا وحسن السيرة ﴾

كان عثمان رضى الله عنه زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة عادلا فى بيت المال لا يأخذ لنفسه منه شيأ لانه كان غنيا وغناه كان مشهورا من حياة النبى صلى الله عليه وسلم و بعد وفاته وكان كثير الانفاق فى نهاية الجود والسماحة والبذل فى القريب والبعيد وأنزل الله فيه الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقوله تعالى أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة و يرجو رحمة ربه وقوله تعالى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وكان يخطب الناس وعليه ازار غليظ عدنى ثمنه أربعة دراهم أو خمسة وكان يطعم الناس طعام الامارة و يدخل بيته يأكل الخل والزيت قال الحسن البصرى دخلت المسجد فاذا أنا بعثمان متكئا على ردائه فأتاه سقاآن يختصمان اليه فقضى بينهما وعن عبد الله بن شداد قال رأيت عثمان رضى الله عنه يوم الجمعة يخطب وهو يومئذ أمير المؤمنين وعليه

ثوب قيمته أربعة دراهم وسئل الحسن البصري ما كان رداء عثمان قال كان قطري قالوا كم ثمنه قال ثمانية دراهم وكان رضي الله عنه شديد التواضع قال الحسن البصري رأيت عثمان وهو أمير المؤمنين نائماً في المسجد ورداؤه تحت رأسه فيجيء الرجل فيجلس اليه ثم يجيء الرجل فيجلس اليه فيجلس هو كأنه أحدهم وروى خيثمة قال رأيت عثمان نائماً في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين وفي رواية أخرى لخيثمة أيضاً رأيت عثمان يقيل في المسجد ويقوم وأثر الحصا في جنبه فيقول الناس هذا أمير المؤمنين وكان يلي وضوءه في الليل بنفسه فقيل له لو أمرت بعض الخدم لكفوك فقال لا الليل لهم يستريحون فيه وكان رضي الله عنه يعتق في كل جمعة رقبة منذ أسلم الا أن لا يجد ذلك تلك الجمعة فيجمعها في الجمعة الاخرى قال العلامة ابن حجر في الصواعق ان جملة ما أعتقه عثمان رضي الله عنه ألفان وأربعمائة ومن تواضعه رضي الله عنه أنه كان يردف غلامه خلفه أيام خلافته ولا يعيب ذلك وكان رضي الله عنه يصوم النهار ويقوم الليل الا هجعة من أوله وكان يختم القرآن كل ليلة في صلاته وكان كثيراً ما يختمه في ركعة وكان اذا مر على المقبرة يبكي حتى تبتل لحيته وكان رضي الله عنه من العشرة المبشرين بالجنة ومن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم توفي وهو عنهم راض وكان من السابقين للاسلام فانه أسلم بعد أبي بكر وعلي وزيد بن حارثة وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة والزهد في الدنيا فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال رحمك الله يا عثمان ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك وكثرت الفتوحات في زمن خلافته رضي الله عنه فقد فتح في زمنها افريقية وسواحل الاردن وسواحل الروم واصطخر وفارس وطبرستان وسجستان وغير ذلك وكثرت أموال الصحابة في خلافته رضي الله عنهم حتى بيعت جارية بوزنها وفرس بمائة ألف ونخلة بألف وعن الحسن البصري قال كانت الارزاق في زمن عثمان وافرة وكان الخير كثيراً وأصاب الناس مجاعة في غزوة تبوك فاشترى طعاماً يصلح العسكر وأخرج أبو يعلى عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عثمان بن عفان ولي

فى الدنيا والآخرة وأخرج ابن عساكر عن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال عثمان فى الجنة وقال لكل نبى خليل فى الجنة وان خليلى عثمان بن عفان وفى رواية لكل نبى رفيق فى الجنة ورفيقى فيها عثمان بن عفان وقال صلى الله عليه وسلم ليدخلن بشفاعة عثمان سبعون ألفا كلهم قد استحقوا النار الجنة بغير حساب وأخرج أبو يعلى عن أنس رضى الله عنه أول من هاجر الى الحبشة بأهله عثمان بن عفان رضى الله عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صحبهما الله ان عثمان لأول من هاجر الى الله تعالى بأهله بعد لوط ولما زوج النبى صلى الله عليه وسلم بنته أم كلثوم لعثمان رضى الله عنهما قال لها ان بعلك لأشبه الناس بجدك ابراهيم وأبيك محمد صلى الله عليه وسلم وقال صلى الله عليه وسلم أشد أمتى حياء عثمان بن عفان وقال صلى الله عليه وسلم ان الله أوحى الى أن أزوج كريمتى يعنى رقية وأم كلثوم من عثمان وقال صلى الله عليه وسلم ان عثمان حيى تستحى منه الملائكة وقال صلى الله عليه وسلم انما نشبه عثمان بأبينا ابراهيم وقال صلى الله عليه وسلم ما زوجت عثمان بأم كلثوم الا بوحى من السماء وقال صلى الله عليه وسلم لعثمان يا عثمان هذا جبريل يخبرنى أن الله زوجك أم كلثوم بمثل صداق رقية وعلى مثل صحبتها وأخرج الترمذى عن عبد الرحمن بن خباب قال شهدت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يحث على جيش العسرة فقال عثمان بن عفان يا رسول الله على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله ثم حض على الجيش فقال عثمان يا رسول الله على مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله ثم حض على الجيش فقال عثمان يا رسول الله على ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول ما على عثمان ما فعل بعد اليوم وعن عبد الرحمن بن سمرة قال جاء عثمان الى النبى صلى الله عليه وسلم بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثره فى حجره فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلبها ويقول ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم وفى رواية عن حذيفة رضى الله عنه انها عشرة آلاف دينار فجعل النبى صلى الله عليه وسلم

يقلبها و يقول غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وماهو كائن الى يوم القيامة ما يبالى عثمان ما عمل بعدها وأخرج الواحدى ان الله أنزل بسبب ذلك فى حق عثمان رضى الله عنه الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال ارتقبت النبى صلى الله عليه وسلم ليلة من أول الليل الى أن طلع الفجر يدعو لعثمان بن عفان يقول اللهم عثمان بن عفان رضيت عنه فارض عنه فما زال رافعا يديه حتى طلع الفجر وأخرج البغوى عن جابر بن عطية رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا عثمان ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أخفيت وما أبديت وماهو كائن الى يوم القيامة وأخرج الامام أحمد عن أم عمرو بنت حسان وكانت امرأة صدق قالت سمعت أبى يقول ان عثمان جهز جيش العسرة مرتين ولما أمر صلى الله عليه وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان رسول النبى صلى الله عليه وسلم الى مكة فبايع الناس فقال النبى صلى الله عليه وسلم ان عثمان فى حاجة الله وحاجة رسوله فضرب باحدى يديه على الاخرى نيابة عنه فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم وأخرج الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة فقال يقتل فيها هذا مظلوما لعثمان رضى الله عنه وأخرج الترمذى وابن ماجه والحاكم وصححه عن مرة بن كعب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر فتنة يقربها فمر رجل مقنع فى ثوب فقال هذا يومئذ على الهدى فقمت اليه فاذا هو عثمان بن عفان فأقبلت اليه بوجهى فقلت هذا قال نعم وأخرج الترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعثمان ان الله مقمصك قميصا فان أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقانى فلما حصره المنافقون وأرادوا منه أن يخلع نفسه امتنع لهذا الحديث وقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد الى عهدا فأنا صابر عليه وروى الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال اشترى عثمان الجنة من النبى صلى الله عليه وسلم مرتين حين حفر بئر

رومة وحين جهز جيش العسرة ولما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة لم يكن بها ماء مستعذب غير بئر رومة فقال صلى الله عليه وسلم من يشتري بئر رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة فاشتراها عثمان رضى الله عنه بخمسة وثلاثين ألف درهم وجعلها للمسلمين وكانت بقعة الى جنب المسجد فقال النبي صلى الله عليه وسلم من يشتريها ويوسعها في المسجد فله مثلها في الجنة فاشتراها عثمان رضى الله عنه بعد ذلك فوسعها في المسجد وقال صلى الله عليه وسلم رحم الله عثمان تستحيه الملائكة وجهز جيش العسرة وزاد في مسجدنا حتى وسعنا وعن أبي الفرات قال كان لعثمان رضى الله عنه عبد فقال له يوما انى كنت عركت أذنك فاقتص مني وألزمه أن يفعل فأخذ بأذنه ثم قال قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة وصح عنه صلى الله عليه وسلم انه وزن إيمان عثمان بإيمان الامة فرجحهم وأخرج الطبراني عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال رأيت أني وضعت في كفة وأمتي في كفة فعدلتها ثم وضع أبو بكر في كفة وأمتي في كفة فعدلها ثم وضع عمر في كفة وأمتي في كفة فعدلها ثم وضع عثمان في كفة وأمتي في كفة فعدلها وأخرج ابن عساكر عن عائشة رضى الله عنها قالت والله ما قال أبو بكر شعرا قط في جاهلية ولا اسلام ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر في الجاهلية وأخرج أبو نعيم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعصمة بن مالك اذا أنا مت وأبو بكر وعمر وعثمان فان استطعت أن تموت فمت وروى ابن عساكر عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال القائم بعدي في الجنة والذي يقوم بعده في الجنة والثالث والرابع في الجنة وروى ابن عساكر أيضا عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أربعة لا يجتمع حبهم في قلب منافق ولا يحبهم الا مؤمن أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأتي صلى الله عليه وسلم مرة بجنازة رجل فلم يصل عليها فقيل له يا رسول الله ما رأيناك تركت الصلاة على أحد قبل هذا فقال انه كان يبغض عثمان فأبغضه الله عز وجل وروى الامام أحمد والبخاري وغيرهما عن أنس رضى الله عنه قال صعد النبي صلى الله عليه وسلم وأبو

بكر وعمر وعثمان أحدا فرجف بهم فضربه النبي صلى الله عليه وسلم برجله وقال أثبت أحد فانما عليك نبي وصديق وشهيدان وتكرر مثل ذلك وهو على حراء وعلى ثبير وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض حصيات فسبحن في يده حتى سمع لهن حنين كحنين النحل ثم ناولهن أبا بكر فسبحن في يده وكذا في يد عمر وعثمان ثم دفعهن الينا فلم يسبحن مع أحد منا وقال صلى الله عليه وسلم ان الله افترض عليكم حب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي كما افترض الصلاة والزكاة والصوم والحج فمن أنكر فضلهم فلا تقبل منه الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج وقال صلى الله عليه وسلم لابي موسى بشر عثمان بالجنة على بلوى تصيبه فلما أخبره قال الله المستعان وروى الشافعي بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كنت أنا وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي أنوارا على يمين العرش قبل أن يخلق آدم بألف عام وأصاب الناس مجاعة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه فجاءت عير من الشام لعثمان رضي الله عنه تحمل برا وزيتا وزبيبا وكانت ألف بعير فأعطاه التجار لكل درهم خمسة دراهم فقال ان الله أعطاني لكل درهم عشرة أشهدكم أني جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله تعالى قال الزهري كان عثمان رضي الله عنه أحب الى قريش من عمر بن الخطاب لان عمر كان شديدا عليهم فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم وكان عثمان رضي الله عنه حليما سخيا محببا الى قريش حتى كان يقال أحبك والرحمن حب قريش لعثمان وكان لعثمان رضي الله عنه على طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه خمسون ألفا فقال له يوما قد تهيأ مالك فاقبضه قال هو لك معونة على مروءتك وكان رضي الله عنه شديد الشفقة على رعيته قال سليمان بن موسى دعي عثمان الى قوم كانوا على أمر قبيح فخرج اليهم فوجدهم قد تفرقوا ورأى أمرا قبيحا فحمد الله اذ لم يصادفهم وأعتق رقبة كفارة لقيامه وخروجه وكان رضي الله عنه شديد الخوف من الله تعالى فكان اذا مر بقبر يبكي حتى تبتل لحيته وكان يقول ياليتني اذا مت لم أبعث وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عثمان انك ستبتلى بعدي فلا تقاتل وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم يموت عثمان يصلي

عليه ملائكة السماء ودخل عثمان على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت ركبته صلى الله عليه وسلم بادية فغطاها فقيل له دخل عليك أبو بكر وعمر وعلى فلم تغطها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى لأستحى ممن استحيت منه الملائكة وكان رضى الله عنه يقال له ذو النورين لانه تزوج بنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعلم أحد أرسل سترا على ابنتى نبى غيره زوجه ابنته رقية فلما ماتت زوجه أم كلثوم فلما ماتت قال لو كان عندى ثالثة لزوجتكها وعن على رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لو أن لى أربعين بنتا لزوجت عثمان واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى منهن واحدة وقال صلى الله عليه وسلم انما يشبه بأبينا ابراهيم عليه السلام وعن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مر بى عثمان وعندى ملك من الملائكة فقال شهيد يقتله قومه انا نستحى منه وفى رواية عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الملائكة لتستحى من عثمان كما تستحى من الله ورسوله وروى الامام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقتل هذا مظلوما وأشار الى عثمان رضى الله عنه وروى ابن عساكر عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان لله سيفا مغمودا فى غمده ما دام عثمان حيا فاذا قتل عثمان جرد ذلك السيف فلم يغمد ذلك السيف الى يوم القيامة وفى الشفاء للقاضى عياض أنه صلى الله عليه وسلم قال يقتل عثمان وهو يقرأ فى المصحف وان الله عسى أن يلبسه قميصا وانهم يريدون خلعه وانه يسيل دمه على قوله تعالى فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ولما حصر واستأذنه جماعة من الصحابة انهم يقاتلونهم فأبى وممن استأذنه ليقاتلهم على بن أبى طالب رضى الله عنه وعبد الله بن عمر وأبو هريرة رضى الله عنهم فامتنع أن يأذن لهم وكان على رضى الله عنه يلعن قتلة عثمان ويقول اللهم انى أبرأ اليك من دم عثمان ولقد طاش عقلى يوم قتل عثمان وكان على رضى الله عنه يقول أيضا والله الذى لا اله الا هو ما قتلت عثمان ولا مالأت ولقد نهيت فعصونى وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال كنت مع عثمان يوم الدار فقال اعزم على

كل من رأى أن لى عليه سمعا وطاعة أن يكف يده ويلق سلاحه فألقى القوم أسلحتهم وقال سمرة إن الاسلام كان فى حصن حصين وانهم ثلموا فى الاسلام ثلمة عظيمة بقتلهم عثمان لاتنسد الى يوم القيامة وأخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن ابن مهدى قال خصلتان لعثمان ليستا لأبى بكر ولا لعمر صبره على نفسه حتى قتل وجمعه الناس على المصحف وكان له عبيد عشرون حملوا السلاح ليقاتلوا عنه يوم حصره فنعهم وقال من ألقى السلاح فهو حر لوجه الله تعالى فامتنعوا من القتال وألقوا السلاح ولما قتل رضى الله عنه فتشوا خزائنه فوجدوا فيها صندوقا مقفلا ففتحوه فوجدوا فيه حقة فيها ورقة مكتوب فيها هذه وصية عثمان بن عفان يشهد أن لا إله الا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الله يبعث من فى القبور ليوم لاريب فيه ان الله لايخلف الميعاد عليها نحيا وعليها نموت وعليها نبعث ان شاء الله من الآمنين وأخرج الحاكم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال لما بويع عثمان رضى الله عنه بايعنا خير من بقى وعن يزيد بن أبى حبيب قال بلغنى أن عامة الركب الذين ساروا الى عثمان وحاصروه جنوا وعن حذيفة رضى الله عنه أن أول الفتن قتل عثمان وآخر الفتن خروج الدجال والذى نفسى بيده لا يموت رجل وفى قلبه مثقال حبة من حب قتلة عثمان إلا اتبع الدجال ان أدركه وان لم يدركه آمن به فى قبره وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بحجارة من السماء وقال ابن عباس أيضا لو أمطرت السماء دما لقتل عثمان لكان قليلا له وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول ليغلبن معاوية وأصحابه عليا وأصحابه لأن الله تعالى يقول ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا وكان آخر خطبة خطبها عثمان رضى الله عنه أيها الناس ان الله انما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة فلم يعطكموها لتركنوا اليها ان الدنيا تفنى والآخرة تبقى لاتبطرنكم الفانية ولاتشغلنكم عن الباقية فآثروا مايبقى على مايفنى فان الدنيا منقطعة وان المصير الى الله اتقوا الله فان تقواه جنة من بأسه

ووسيلة عنده واحذروا من الله الغيرة والزموا جماعتكم ولاتكونوا أخدانا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا قال عبد الله بن سلام أتيت أخي عثمان وهو محصور لأسلم عليه فدخلت عليه فقال مرحبا بأخي رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة في هذه الخوخة وهي خوخة في البيت فقال ياعثمان حصروك قلت نعم قال عطشوك قلت نعم فأدلى الي دلوا فيه ماء فشربت حتى رويت حتى اني لأجد برده بين ثديي و بين كتفي وقال لي ان شئت نصرت عليهم وان شئت أفطرت عندنا فاخترت أن أفطر عنده فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان في الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط قالوا سمعناه يقول اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا فقال ابن سلام والذي نفسي بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا الى يوم القيامة وعن ثمامة بن حزن القشيري قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان فقال أنشدكم بالله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشتري رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة فاشتريتها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعوني ان أشرب منها ومن ماء البحر قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي قالوا نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن المسجد كان قد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير منها في الجنة فاشتريتها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعوني ان أصلي فيها ركعتين قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال فركضه برجله وقال اسكن ثبير فما عليك الا نبي وصديق وشهيدان قالوا اللهم نعم قال الله وكم شهدوا لي ورب الكعبة اني شهيد وروى عن شيخ من ضبة أن عثمان رضي الله عنه حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول

لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين اللهم انى أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أمورى وأسألك الصبر على ما ابتليتنى قال المحب الطبرى فى الرياض النضرة ان الشيعة اختلقوا أشياء جعلوها طعنا فى عثمان رضى الله عنه وهو برىء منها فنها قالوا انه زوج ابنه بابنة الحارث بن الحكم وأعطاه مائة ألف من بيت المال فقد كذبوا فى ذلك فانه انما أعطى ذلك من ماله لا من بيت المال وهو مشهور بالغنى قبل أن يلى الخلافة وقالوا أيضا أنكح ابنته أم أبان من مروان وأعطاها مائة ألف من بيت المال وذلك أيضا كذب محض بل انما كان ذلك من ماله وقالوا أيضا انه أعطى الحارث بن الحكم عشور أسواق المدينة وذلك أيضا غير صحيح وانما الصحيح ان الحارث المذكور جعله عثمان رضى الله عنه محتسبا على السوق ليحافظ الاسواق كى لا يقع التطفيف والخيانة والجور فى المكاييل والموازين فقام بالامر يومين أو ثلاثة فاشتكى أهل المدينة منه وقالوا انه كان يشترى النوى ويمنع غيره من شرائه فلا يحصل من النوى شئ لابل المسلمين فعزله عثمان رضى الله عنه فورا ونحوه وأى عيب يعود على عثمان رضى الله عنه من ذلك بل هو عين الانصاف والعدل فان عزله له كان بمجرد سماع الشكاية مع أنه من قرابته وعابوا عليه أيضا انه ولى بعض أقاربه ولايات وذلك لا يعاب عليه فيه لانه كان باجتهاد منه وطلبا لاظهار العدل لانه رأى ان أقاربه يعينونه على اظهار العدل واقامة الحق وهكذا جميع الاشياء التى عابوه بها كلها كانت باجتهاد منه وله فيها أعذار ومخارج تدل على أنه انما أراد بذلك العدل واظهار الحق وكلها مبسوطة فى كتب أهل السنة ولما حصره المنافقون وقتلوه بايع الناس بعده على ابن أبى طالب رضى الله عنه وبايعه أيضا القوم الذين حصروا عثمان وقتلوه فوقعت الفتنة بين الصحابة رضى الله عنهم لذلك فقال الذين امتنعوا من بيعته لا نبايعك حتى تعطينا قتلة عثمان نقتص منهم فقال على رضى الله عنه بايعونى أولا ثم بعد ذلك نتتبع قتلة عثمان فمن ثبت عليه شرعا موجب القصاص نقتص منه وأما الاقتصاص منهم قبل دخولكم فى البيعة فانه عسر جدا لان لهم قبائل

وعشائر يتعصبون لهم فتنتشر الفتنة وتزداد هذا هو السبب في الاختلاف الذي وقع بينهم فنشأ عنه وقعة الجمل ووقعة صفين وتمسك كل من الفريقين بحجج وأدلة وتعارضت الادلة عند بعضهم فاعتزلوا الفريقين منهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ومحمد بن سلمة والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهم وبقي الامر مشتبها بين الناس الى زمن الائمة الأربعة فنظروا في الحجج والأدلة التي تمسك بها كل فريق فظهر لهم واتضح تصويب اجتهاد علي رضي الله عنه وتخطئة اجتهاد غيره لكن لما كان ذلك الخطأ ناشئا عن اجتهاد لم يأثموا به لقول النبي صلى الله عليه وسلم من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد فلا سبيل الى الحكم بتأثيم أحد منهم فلذلك كان مذهب أهل السنة السكوت عما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم وتأويله وحمله على أحسن المحامل تحسينا للظن بهم لان الله تعالى أثنى عليهم وشهد لهم بالصدق وأخبر بانهم رضي الله عنهم ورضوا عنه وكذلك جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة فالقدح فيهم يوجب تكذيب الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ويوجب أيضا الحكم عليهم بالفسق فيستلزم ذلك اسقاط ما جاء عنهم من السنة والتشريع الذي نقلوه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيستلزم ذلك ابطال الشريعة بخلاف ما اذا حمل ما وقع منهم على الاجتهاد الذي لا اثم فيه فمذهب أهل السنة هو المذهب الحق الذي من عدل عنه فقد زاغ وضل ومن تمسك به فقد نجا ومما يؤيد مذهب أهل السنة أن عليا رضي الله عنه سأله أبو سلامة الدالاني عن القوم الثائرين لطلب قتلته فقال أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم ان كانوا أرادوا الله بذلك قال نعم قال أفترى لك حجة بتأخير ذلك قال نعم ان الشئ اذا كان لا يدرك ان الحكم فيه أحوطه وأعمه نفعا قال فما حالنا وحالهم ان ابتلينا غدا قال اني لارجو أن لا يقتل منا ومنهم أحد نقي قلبه لله الا أدخله الله الجنة واستشهد سيدنا عثمان رضي الله عنه لثمان عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين يوم الجمعة وقيل كان قتله أيام التشريق وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة الا اثني عشر

يوما وكان عمره اثنتين وثمانين سنة وقيل ثمانية وثمانين وقيل تسعين وقصة حصاره وقتله طويلة مبسوطة فى التواريخ لا حاجة لنا بذكرها والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر ما كان لسيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه من الاقتصاد فى الدنيا وحسن السيرة ﴾

كان على رضى الله عنه شديد الزهد فى الدنيا بل قال عمر بن عبد العزيز ان على بن أبى طالب رضى الله عنه كان أزهد أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى الدنيا وكذا قال سفيان بن عيينة وكان رضى الله عنه عادلا فى بيت المال لا يأخذ منه الا بقدر حاجته وقد شهد له النبى صلى الله عليه وسلم بالزهد فى الدنيا وان الله زينه بذلك فقد روى عمار بن ياسر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى رضى الله عنه ان الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب منها هى زينة الابرار عند الله تعالى الزهد فى الدنيا فجعلك لا ترزأ من الدنيا ولا الدنيا ترزأ منك شيأ وحبب اليك المساكين فجعلك ترضى بهم أتباعا ويرضون بك اماما وأخرج الامام أحمد عن على بن أبى ربيعة أن عليا رضى الله عنه جاءه ابن التياح فقال يا أمير المؤمنين امتلأ بيت المال من صفراء و بيضاء فقال الله أكبر ثم قام متوكئا على ابن التياح حتى قام على المال فنودى فى الناس فأعطى جميع ما فى بيت المال وهو يقول يا صفراء يا بيضاء غرى غيرى هاوها حتى ما بقى منه دينار ولا درهم ثم أمر بنضحه وصلى فيه ركعتين وفى رواية رواها الامام أحمد أيضا أن عليا رضى الله عنه دخل بيت المال فرأى فيه شيأ فقال لا أرى هذا ههنا و بالناس اليه حاجة فأمر به فقسم وأمر بالبيت فكنس ثم نضح فصلى فيه رجاء أن يشهد له يوم القيامة وكان أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم خازنا لعلى رضى الله عنه على بيت المال قال فدخل على يوما وقد زينت ابنته فرأى عليها اللؤلؤة كان قد عرفها لبيت المال فقال من أين لها هذه لاقطعن يدها فلما رأى أبو رافع جده فى ذلك قال أنا والله يا أمير المؤمنين زينتها بها فقال على لقد تزوجت بفاطمة ومالى ولها فراش الا جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلف عليه ناضحنا بالنهار ومالى خادم غيرها وقال هارون

ابن عنترة عن أبيه قال دخلت على علي بالخورنق في فصل الشتاء وعليه خلق قطيفة فقلت يا أمير المؤمنين ان الله قد جعل لك ولاهلك في هذا المال نصيبا وأنت تفعل هذا بنفسك فقال والله ما أرزؤكم شيأ وماهي الا قطيفتي التي خرجت بها من المدينة وقال يحيي بن سلمة استعمل علي عمرو بن سلمة على أصبهان فقدم ومعه مال وزقاق فيها عسل وسمن فأرسلت أم كلثوم بنت علي رضي الله عنه الى عمرو تطلب منه سمنا وعسلا فأرسل اليها ظرف عسل وظرف سمن فلما كان الغد خرج علي وأحضر المال والعسل والسمن ليقسم فعد الزقاق فنقصت زقين فسأله عنهما فكتمه وقال نحن نحضرهما فعزم عليه الا ذكرهما له فأخبره فأرسل الى أم كلثوم فأخذ الزقين منها فرآهما قد نقصا فأمر التجار بتقويم ما نقص منهما فكان ثلاثة دراهم فأرسل اليها فأخذها منها ثم قسم الجميع وقال عاصم بن كليب عن أبيه قدم على علي مال من أصبهان فقسمه على سبعة أسهم فوجد فيه رغيفا فقسمه على سبعة ودعا أمراء الاسباع فأقرع بينهم لينظر أيهم يعطى أولا وقال سفيان ان عليا لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وان كان ليؤتى بحبوبه من المدينة في جراب من أرض كانت تزرع له وأخرج يوما سيفا له الى السوق فباعه وقال لو كان عندي أربعة دراهم ثمن ازار لم أبعه وعن أبي حيان التيمي عن أبيه قال سمعت علي بن أبي طالب ورأيته وهو يقول على المنبر من يشتري مني سيفي هذا فلو كان معي ثمن ازار ما بعته فقام اليه رجل فقال أسلفك ثمن ازار ولعل هذه مرة أخرى غير المرة التي باع فيها سيفه بالسوق وكان رضي الله عنه يقول انما أحفظ المال للمسلمين وكان لا يشتري ممن يعرفه واذا اشترى قميصا قدر كمه على طول يده وقطع الباقي ويقول الحمد لله الذي كساني هذا من فضله وعن عبد الله ابن أبي الهذيل قال رأيت عليا رضي الله عنه خرج وعليه قميص غليظ اذا مد كم قميصه بلغ الى الظفر واذا أرسله صار الى نصف الساعد وفي رواية رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج من مسجد الكوفة وعليه قطريان متزر بواحد ومرتد بالآخر وازاره الى نصف الساق وهو يطوف بالاسواق ومعه درة يأمرهم

بتقوى الله وصدق الحديث وحسن البيع و وفاء الكيل وعن أبى سعيد الأزدى قال رأيت على بن أبى طالب رضى الله عنه فى السوق وهو يقول من عنده قميص يباع بثلاثة دراهم فقال رجل عندى فجاء به فاعجبه ثم لبسه فاذا هو يفضل عن أطراف أصابعه فأمر به فقطع مايفضل من أطراف أصابعه وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال اشترى على بن أبى طالب قميصا بثلاثة دراهم وهو خليفة فقطع كميه من موضع الرسغين وعن أم سلمة رضى الله عنها وقد سئلت عن لباس على رضى الله عنه فقالت كان لباسه الكرابيس السيلانية والكرابيس ثياب غليظة من القطن وغيره وعن زيد بن وهب أن الجعد بن بعجة عاتب عليا رضى الله عنه فى ملبوسه فقال مالك وللملبوس هذا أبعد من الكبر وأجدر أن يقتدى به المسلم وقيل لعلى رضى الله عنه لم ترفع قميصك قال يخشع القلب ويقتدى به المؤمن وكان رضى الله عنه يختم على الجراب الذى فيه دقيق الشعير الذى يأكل منه ويقول لا أحب أن يدخل بطنى الا ما أعلم وقال الشعبى وجد على رضى الله عنه درعا له عند نصرانى فأقبل به الى قاضيه شريح وجلس الى جانبه وقال لو كان خصمى مسلما لساويته فى المجلس وقال هذه درعى فقال النصرانى ماهى الا درعى ولم يكذب أمير المؤمنين فقال شريح لعلى ألك بينة قال لا وهو يضحك وقيل انه استشهد بابنه الحسن ومولاه قنبر فلم يقبل شريح شهادتهما لكون الحسن ابنه وقنبر مولاه فأخذ النصرانى الدرع ومشى يسيرا ثم عاد وقال ان هذه أحكام الانبياء أمير المؤمنين قدمنى الى قاضيه وقاضيه يقضى عليه ثم أسلم واعترف أن الدرع سقطت من على عند مسيره الى صفين ففرح على باسلامه ووهب له الدرع وفرسا وشهد معه قتال الخوارج وروى على رضى الله عنه وهو يحمل فى ملحفته تمرا قد اشتراه بدرهم فقيل له يا أمير المؤمنين ألا نحمله عنك فقال أبو العيال أحق بحمله وفى رواية ماينقص الكامل من كماله ماجر من نفع الى عياله وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فكان يشترى الشئ فيحمله الى بيته بنفسه فيقول صاحبه اعطنى أحمله فيقول صاحب الشئ أحق بحمله وكان الحسن بن

على رضى الله عنهما يمر وهو راكب على بغلته بالسؤال و بين أيديهم كسر فيقولون هلم الى الغداء يا ابن رسول الله فكان ينزل و يجلس على الطريق ويأكل معهم ثم يركب بغلته ويقول ان الله لا يحب المستكبرين وقال الحسن بن صالح تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال عمر أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب رضى الله عنه وكان رضى الله عنه يقول لعمر بن الخطاب ان أردت أن تلحق بصاحبيك فاقصر الأمل وكل دون الشبع وارقع القميص والبس الازار واخصف النعل تلحق بهما ولما سئل فى خلافة عمر رضى الله عنه عما يستحقه الخليفة فى بيت المال فقال ما يشبعه وأهله غداء وعشاء وما يكسوه وأهله صيفا وشتاء من أوسط القوت والكسوة لا من أعلاها ولا من أدناها فعمل عمر رضى الله عنه بما قال على رضى الله عنه فلما صارت الخلافة لعلى رضى الله عنه عمل بذلك أيضا وأخرج الامام أحمد عن عبد الله بن زرير قال دخلت على على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو أمير المؤمنين يوم عيد الاضحى فقرب لنا خزيرة فقلت أصلحك الله لو قربت لنا من هذا البط يعنى الأوز فان الله قد كثر الخير فقال يا ابن زرير سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يحل لخليفة من مال الله الا قصعتان قصعة يأكلها هو وأهله وقصعة يضعها بين يدى الناس والخزيرة لحم يقطع صغارا على ماء كثير فاذا انضج ذر عليه الدقيق فان لم يكن فيه لحم فهو العصيد وعن زاذان قال رأيت عليا رضى الله عنه وهو أمير المؤمنين يمشى فى الاسواق فيمسك الشسوع بيده فيناول الرجل الشسع و يرشد الضال و يعين الحمال على الحمولة وهو يقرأ هذه الآية تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ثم يقول هذه الآية نزلت فى ذوى القدرة من الناس وعن أبى مطر البصرى أنه شهد عليا رضى الله عنه أتى صاحب تمر وجارية تبكى عند التمار فقال ما شأنك فقالت باعنى تمرا بدرهم فرده مولاى فابى أن يقبله فقال يا صاحب التمر خذ تمرك واعطها درهمها فانها جارية وليس لها أمر فدفع عليا فقال المسلمون أتدرى لمن تدفع قال لا قالوا أمير المؤمنين فصب تمرها وأعطاها

درهما وقال لعلي رضي الله عنه أحب أن ترضى عني فقال ما أرضاني عنك اذا دفعت للناس حقوقهم رواه الامام أحمد كالذي قبله وكان علي رضي الله عنه يقسم بيت المال في كل جمعة حتى لا يبقى منه شيأ ثم يرش له ويصلي فيه ثم يقيل فيه وكان اذا دخل بيت المال ونظر الى ما فيه من الذهب والفضة يقول يا بيضاء يا صفراء غري غيري قد طلقتك ثلاثا وأتى علي رضي الله عنه بفالوذج فوضع قدامه فقال انه لطيب الريح حسن اللون طيب الطعم ولكني أكره أن أعود نفسي مالم تعتدولم يأكل منه وقصة مفارقة أخيه عقيل له ولحوقه بمعاوية مشهورة رواها كثير من المحدثين بالفاظ متقاربة ففي رواية انه كان يعطيه من الشعير كل يوم ما يكفي عياله فاشتهى عليه أولاده مريسا فصار يوفر كل يوم شيأ قليلا حتى اجتمع عنده ما اشترى به سمنا وتمرا وصنع لهم فدعوا عليا اليه فلما جاء وقدم له ذلك سأل عنه فقصوا عليه ذلك فقال أو كان يكفيكم ذاك بعد الذي عزلتم منه قالوا نعم فنقص مما كان يعطيه مقدار ما كان يعزل كل يوم وقال لا يحل لي أن أزيدك من ذلك فغضب عقيل فحمى له حديدة وقربها من خده وهو غافل فتأوه فقال تجزع من هذه وتعرضني لنار جهنم فقال أذهب الى من يعطيني برا ويطعمني تمرا فلحق بمعاوية وقد قال معاوية يوما لولا علم بأني خير له من أخيه ما أقام عندنا وتركه فقال له عقيل أخي خير لي في ديني وأنت خير لي في دنياي وقد آثرت دنياي وأسأل الله خاتمة خير وأخرج ابن عساكر ان عقيلا سأل عليا فقال اني محتاج واني فقير فاعطني قال اصبر حتى يخرج عطاؤك مع المسلمين فاعطيك معهم فألح عليه فقال علي لرجل خذ بيده وانطلق به الى حوانيت أهل السوق فقال له دق على هذه الاقفال وخذ ما في هذه الحوانيت فقال عقيل تريد أن تتخذني سارقا فقال علي وأنت تريد أن تتخذني سارقا أن آخذ أموال المسلمين فاعطيكها دونهم قال لآتين معاوية قال أنت وذاك فأتى معاوية فسأله فأعطاه مائة ألف ثم قال اصعد المنبر فاذكر ما أولاك به علي وما أوليتك فصعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس اني أخبركم اني أردت معاوية على دينه فاختارني

على دينه وفى رواية ان عقيلا رضى الله عنه لزمه دين فقدم على على رضى الله عنه بالكوفة فأنزله وأمر ابنه الحسن فكساه فلما أمسى دعا بعشائه فاذا خبز وملح وبقل فقال عقيل لعلى رضى الله عنه ماهو الا ما أرى فقال على ماهو الا ماترى قال أتقضى دينى قال وكم دينك قال أربعون ألفا قال على ماهى عندى ولكن اصبر حتى يخرج عطائى فأدفعه اليك فقال له عقيل بيوت المال بيدك وأنت تسوفنى بخروج عطائك قال على أفتأمرنى أن أدفع اليك أموال المسلمين وقد ائتمنونى عليها قال فانى آتى معاوية فأذن له فأتى معاوية فأعطاه خمسين ألفا ثم خمسين ألفا حتى كملت مائة ألف وجلس أياما عند معاوية ثم رجع الى أخيه على رضى الله عنهم وحضر مع معاوية وقعة صفين ولم يقاتل ولم يترك نصح أخيه والتعصب له وكان سريع الجواب روى أن معاوية قال يوم صفين لانبالى وأبو يزيد معنا يعنى عقيلا فقال عقيل وقد كنت معكم يوم بدر فلم أغن من الله شيأ وله فى سرعة الجواب أخبار كثيرة وكان على رضى الله عنه بعد نهب الدار عند مقتل عثمان يتحرى فى مأكله غاية التحرى خوفا من أن يدخل فى بطنه حرام فكان لايأكل طعاما الا مختوما حذرا من الشبهة وكان على رضى الله عنه يقول أتدرون على من حرمت النار قالوا الله ورسوله أعلم فقال على الهين اللين السهل وكان يقول ومن موجبات الغفران بذل السلام وحسن الكلام ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على على رضى الله عنه وهو مريض فقال له قل اللهم انى أسألك تعجيل عافيتك أوصبرا على بليتك أوخراجا من الدنيا الى رحمتك فانك ستعطى احداهن ورأى على رضى الله عنه مرة رجلين يقتتلان ففرق بينهما ثم مضى فسمع صوتا ياغوثاه فقصد الصوت وهو يقول أتاك الغوث فاذا رجل يلازم رجلا فقال ياأمير المؤمنين بعت هذا ثوبا بسبعة دراهم وشرطت عليه أن لايعطينى مغموزا ولا مقطوعا وكان ذلك شرطهم يومئذ فأتانى بهذه الدراهم فأبيت ولزمته فلطمنى فقال للاطم ماتقول فقال صدق ياأمير المؤمنين قال أعطه شرطه فأعطاه وقال للملطوم اقتص قال أوعفو ياأمير المؤمنين قال ذاك اليك ثم قال يامعشر المسلمين خذوه فحمل على ظهر رجل كما

يحمل صبيان الكتاب ثم ضربه خمس عشرة درة وقال هذا نكال لما انتهكت من حرمته وكان رضي الله عنه يقول لا شيء أحب الى الله تعالى من عدل امام و رفقه ولا شيء أبغض اليه من جوره وخرقه وكان رضي الله عنه يقول أصب المعروف في أهله وفي غير أهله فان أصبت أهله فهو أهل وان لم تصب أهله فأنت من أهله وقال رضي الله عنه رأس العقل بعد الدين التودد الى الناس واصطناع المعروف الى كل بر وفاجر وقال على رضي الله عنه شبع يحيي بن زكريا عليهما السلام من خبز شعير فنام عن ورده حتى أصبح فأوحى الله اليه يا يحيي وجدت دارا خيرا لك من داري أو وجدت جوارا خيرا لك من جواري فوعزتي وجلالي يا يحيي لو اطلعت الى الفردوس اطلاعة لذاب شحمك ولزهقت نفسك اشتياقا ولو اطلعت الى جهنم اطلاعة لذاب شحمك ولبكيت الصديد بدل الدموع ولبست الجلد بدل المسوح وقال على رضي الله عنه ان الله أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقتدى بهم الغنى ولا يزري بهم الفقير ولما عوتب في خشونة لباسه قال هو أقرب الى التواضع وأجدر أن يقتدى به المسلم وقال ان لله تعالى عبادا ليسوا بالمتنعمين وروى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشعث حافيا فقيل له أنت الأمير وتفعل هذا فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الارفاه وأمرنا أن نحتفي أحيانا وقال على لعمر رضي الله عنهما ان أردت أن تلحق بصاحبيك فارقع القميص ونكس الازار واخصف النعل وكل دون الشبع وقال رضي الله عنه اخشوشنوا واياكم وزي العجم كسرى وقيصر وقال رضي الله عنه من تزيا بزي قوم فهو منهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشدقون في الكلام وكان على رضي الله عنه أصغر أولاد أبي طالب الاربعة في السن وأفضلهم قدرا وهم طالب وعقيل وجعفر كان طالب أسن من عقيل بعشر سنين وكان عقيل أسن من جعفر بعشر سنين وجعفر أسن من على بعشر سنين و بعضهم قدم جعفرا على عقيل فقال ان جعفرا أسن من عقيل بعشر سنين أما على وجعفر وعقيل

وأختاهم فاختة وجانة وقيل جمانة بالجيم وكلهم لام وأب أمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم وأبوهم أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم وفاختة اسمها هند وتكنى بأم هانىء أسلمت وهاجرت رضى الله عنها وكان زوجها أبو وهب هبيرة بن عمرو المخزومى مات مشركا وأما جانة فكان بعلها سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أسلمت وهاجرت رضى الله عنها وماتت بالمدينة زمن النبى صلى الله عليه وسلم فلا خفاء فى اسلامهم وصحبتهم النبى صلى الله عليه وسلم وأما طالب فلا يعلم له اسلام يقال ان الجن اختطفته فذهب وكان خرج مع كفار قريش يوم بدر فلم يعلم له خبر وكان على رضى الله عنه قد أعطاه الله علما كثيرا وكشفا غزيرا قال أبو الطفيل شهدت عليا رضى الله عنه يخطب وهو يقول سلونى من كتاب الله فوالله مامن آية الا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم فى سهل أم فى جبل ولو شئت أوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فيه أنا مدينة العلم وعلى بابها فمن أراد العلم فليأته من بابه وقال ابن العباس رضى الله عنهما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم من علم الله تبارك وتعالى وعلم على رضى الله عنه من علم النبى صلى الله عليه وسلم وعلمى من علم على رضى الله عنه وما علمى وعلم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى علم على رضى الله عنه الا كقطرة فى سبعة أبحر ويقال ان عبد الله ابن عباس أكثر البكاء على على رضى الله عنه حتى ذهب بصره وقال ابن عباس أيضا لقد أعطى على بن أبى طالب تسعة أعشار العلم وأيم الله لقد شارك الناس فى العشر العاشر وكان معاوية رضى الله عنه يسأله ويكتب له فيما ينزل به فلما توفى على رضى الله عنه قال معاوية لقد ذهب الفقه والعلم بموت على ابن أبى طالب رضى الله عنه وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن وسئل عطاء أكان فى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحد أعلم من على قال لا والله ما أعلمه وفضائله كثيرة قد جمعها الناس ودونوها وأجمعها النعته ماوصفه به ضرار الصدائى اذ قال له معاوية صف لى عليا فقال أعفنى ياأمير المؤمنين قال لتصفنه قال أما اذ لابد من وصفه فكان والله

بعيد المدى شديد القوى يقول فصلا و يحكم عدلا يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها و يأنس بالليل ووحشته وكان غزير العبرة طويل الفكرة يعجبه من اللباس ماقصر ومن الطعام ما خشن كان فينا كأحدنا يجيبنا اذا سألناه و ينبئنا اذا استنبأناه ونحن والله مع تقريبه ايانا وقربه منا لانكاد نكلمه هيبة له يعظم الدين و يقرب المساكين لايطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله أشهد بالله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله قابضا على لحيته يتململ تململ السليم و يبكى بكاء الحزين و يقول يادنيا غرى غيرى الى تعرضت أم الى تشوفت هيهات قد باينتك ثلاثا لارجعة فيها فعمرك قصير وخطرك قليل آه من قلة الزاد و بعد السفر ووحشة الطريق فبكى معاوية رضى الله عنه وقال رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه ياضرار قال حزنى حزن من ذبح ولدها فى حجرها وسئل الحسن البصرى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال كان على والله سهما صائبا من مرامى الله عز وجل ربانى هذه الأمة وذا فضلها وسابقتها وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن بالنومة عن أمر الله ولا باللومة فى دين الله ولا بالسرقة فى مال الله أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة ذلك على ابن أبى طالب رضى الله عنه وأعز من مدحه وأخزى من قدحه وكان رضى الله عنه لايستأثر من الفىء بشئ بل يقسم مافى بيت المال بين المسلمين ثم يأمر به فيكنس فيصلى فيه رجاء أن يشهد له يوم القيامة و يكفيه فضلا قول النبى صلى الله عليه وسلم من كنت مولاه فعلى مولاه وقوله صلى الله عليه وسلم لايحبك الامؤمن ولا يبغضك الامنافق وهو أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خديجة وهو ابن ثلاث عشرة سنة وقيل ابن عشر سنين وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه أقضانا على رضى الله عنه وقال ابن مسعود رضى الله عنه أعلم أهل المدينة بالفرائض على بن أبى طالب رضى الله عنه كم لعلى رضى الله عنه من تشقيق فى العلوم وترفيق و بصر بالحساب وتدقيق حتى كأنه ينظر الى الغيب

من ستر رقيق وكم من قضية قضاها لما بلغت الى النبي صلى الله عليه وسلم أمضاها ور بما تبسم صلى الله عليه وسلم اذ سمعها استصوابا ثم أنفذها اذ رآها صوابا وكم مسئلة بديعة دقيقة دقق فيها النظر فأتى بالعبر روى عن زر بن حبيش رضى الله عنه قال جلس رجلان يتغديان مع أحدهما خمسة أرغفة ومع الآخر ثلاثة أرغفة فلما وضعا الغداء بين أيديهما مر بهما رجل فسلم فقالا له اجلس للغداء فجلس وأكل معهما واستوفوا في أكلهم الأرغفة الثمانية فقام الرجل وطرح اليهما ثمانية دراهم وقال خذا هذا عوضا مما أكلت لكما ونلته من طعامكما فتنازعا فقال صاحب الخمسة الارغفة لي خمسة دراهم ولك ثلاثة فقال صاحب الارغفة الثلاثة لا أرضى إلا أن تكون الدراهم بيننا نصفين فترافعا الى أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه فقصا عليه قصتهما فقال لصاحب الثلاثة قد عرض عليك صاحبك ما عرض وخبزه أكثر من خبزك فارض بالثلاثة فقال والله لا رضيت منه إلا بمر الحق فقال على رضى الله عنه ليس لك في مر الحق الا درهم واحد وله سبعة فقال الرجل سبحان الله هو يعرض علىّ ثلاثة فلم أرض وأشرت علىّ بأخذها فلم أرض وتقول لى الآن انه لا يجب لى فى مر الحق إلا درهم واحد فعرفني بالوجه فى مر الحق حتى أقبله فقال على رضى الله عنه أليس الثمانية الارغفة أربعة وعشرين ثلثا أكلتموها وأنتم ثلاثة أنفس ولا يعلم الاكثر منكم أكلا ولا الاقل فتحملون فى أكلكم على السواء قال بلى قال فأكلت أنت ثمانية أثلاث وانما لك تسعة أثلاث وأكل صاحبك ثمانية أثلاث وله خمسة عشر ثلثا أكل منها ثمانية وتبقى سبعة وأكل لك واحدا من تسعة فلك واحد وله سبعة فقال الرجل رضيت الآن *

ومن كلام على رضى الله عنه أول ما يرى الحليم من بركة حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل * وأما شجاعة على رضى الله عنه فيكفى فى اثباتها مبارزته لعمرو بن ود الذى بلغ النهاية فى الشهرة بالشجاعة وقتله اياه ذكر ابن اسحاق أن عمرو بن ود خرج يوم الخندق فنادى هل من يبارزنى فقام على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو مقنع بالحديد فقال أناله يانبى الله فقال انه عمرو اجلس ونادى عمرو ألا رجل

يبارزني وهو يؤنبهم ويقول أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها أفلا تبرزون لي رجلا فقام علي رضي الله عنه فقال ألا أبرز يا رسول الله فقال اجلس انه عمرو ثم نادى الثالثة فقال

ولقد بححت من النـدا * ء بجمعكم هل من مبارز
ووقفت اذ جبن المشجـــع موقف القرن المناجز
وكذاك انى لم أزل * متسرعا قبل الهزاهز
إن الشجاعـة في الفتى * والجود من خير الغرائز

فقام علي رضي الله عنه فقال يا رسول الله أنا له فقال انه عمرو فقال وان كان عمرا فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فمشى اليه حتى أتاه وهو يقول

لا تعجلن فقد أتا * ك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نيـة وبصيرة * والصدق منجى كل فائز
انى لأرجو أن أقيـم عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبـــقى ذكرها عند الهزاهز

فقال له عمرو من أنت قال أنا علي قال ابن عبد مناف وهو اسم أبي طالب قال أنا علي بن أبي طالب قال غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن منك فاني أكره أن أهريق دمك فان أباك كان صديقا لي فقال له علي رضي الله عنه لكنني والله ما أكره أن أهريق دمك فغضب عمرو ونزل فسل سيفه كأنه شعلة نار ثم أقبل نحو علي مغضبا ويروى أنه ما نزل عن فرسه إلا بعد أن قال له علي رضي الله عنه كيف أقاتلك وأنت على فرسك ولكن انزل معي فنزل عن فرسه ثم أقبل نحوه فاستقبله علي رضي الله عنه بدرقته وضربه عمرو فيها فقدها وأثبت فيها السيف وأصاب رأس علي فشجه وضربه علي رضي الله عنه على حبل العاتق فسقط وثار العجاج وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير فعرف أن عليا قد قتله ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متهلل فقال عمر بن الخطاب هلا سلبته درعه فانه ليس في العرب درع خير منها فقال علي اني حين ضربته استقبلني

بسوءته فاستحييت أن أسلبه ثم خرجت خيله منهزمة حتى اقتحمت الخندق فمن هنا لم يأخذ على سلبه وقيل تنزه عن أخذها وقيل انهم كانوا فى الجاهلية اذا قتلوا القتيل لا يسلبونه ثيابه وكذا قصته عند فتح خيبر لما قال النبى صلى الله عليه وسلم لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرار فأعطاه الراية فكان كما قال النبى صلى الله عليه وسلم قال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجنا مع على بن أبى طالب حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برايته فلما دنا من الحصن خرج اليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده فتناول على بابا كان عند الحصن وكان ذلك الباب من حديد فترس به نفسه فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه وراء ظهره من يده حين فرغ فكان بعده عنه حين ألقاه ثمانين شبرا قال أبو رافع فلقد رأيتنى فى نفر معى سبعة أناس منهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فانقلبه وعن جابر أنه جرب بعد ذلك فلم يحمله أربعون وفى رواية البيهقى فاجتمع عليه بعده سبعون رجلا فكان جهدا أن أعادوا الباب الى مكانه وفى شرح المواقف قال على رضى الله عنه ما قلعت باب خيبر بقوة جسمانية ولكن بقوة الهية وكان على رضى الله عنه اذا استعلى الفارس قده واذا اعترضه قطه وكانت درعه صدرا بلا ظهر فقيل له فى ذلك فقال اذا وليت فلا وألت أى لا رجعت يعنى أنه كان لا يولى ظهره أبدا والموئل المرجع وفى حديث آخر كانت ضربات على أبكارا اذا استعلى قد واذا استعرض قط وقوله أبكارا يقال ضربة بكر أى لا تثنى ❊ ومن شجاعته رضى الله عنه أنه يوم خيبر قتل أخا مرحب ثم مرحبا وكل منهما كان شجاعا مشهورا وذلك أنه بارز أولا أخا مرحب فقتله فخرج اليه مرحب ولم يكن فى أهل خيبر أشجع منه ولم يقدر أحد من أهل الاسلام أن يقاومه فى الحرب وخرج وهو يقول

قد علمت خيبر أنى مرحب ❊ شاكى السلاح بطل مجرب
أضرب أحيانا وحينا اضرب ❊ اذا الحروب أقبلت تلهب
ان حامى للحمى لا يقرب

وكان قد لبس درعين وتقلد سيفين واعتم بعمامتين ولبس فوقهن مغفرا وحجرا قد ثقبه قدر البيضة على رأسه وله رمح سنانه ثلاثة أسنان فبرز على كرم الله وجهه وهو يقول

أنا الذى سمتنى أمى حيدره * ضرغام آجام وليث قسوره

وفى رواية بدل هذا المصراع

كليث غابات كريه المنظره * عبل الذراعين غليظ المقصره
أوفيهم بالصاع كيل السندره

وفى رواية أكيلكم بالصاع كيل السندره قوله عبل الذراعين أى ضخمهما والمقصرة أصل العنق والسندرة ضرب من الكيل كبير واسم امرأة كانت تبيع الحنطة وتوفى الكيل والنكتة فى ارتجاز على رضى الله عنه بهذا الرجز ان مرحبا كان قد رأى فى المنام ان أسدا يفترسه فلعل عليا رضى الله عنه أطلعه الله على رؤيا مرحب فأراد أن يذكر رؤياه فيقذف فى قلبه الرعب فلما اختلط أراد مرحب أن يضرب عليا فسبقه على بالسيف ذى الفقار فترس مرحب فوقع السيف على الترس فقده وقد الحجر والمغفر والعمامتين وفلق هامته حتى أخذ فى الاضراس فقتله ثم حمل المسلمون على الكفار وقتلوا ثمانية من رؤسائهم وفر الباقون الى الحصن وتبعهم المسلمون وكان ضرار بن حمزة الصدائى من أولياء على رضى الله عنه فكان لما تمت البيعة لمعاوية بنزول الحسن له عن الخلافة رضى الله عنه تباعد عنه معتزلا يعبد الله تعالى ثم ألجأته ضرورة فوفد على معاوية (١) فقال له معاوية صف لى عليا فقال اعفنى يا أمير المؤمنين قال أقسمت عليك لتصفنه فقال كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول فصلا ويحكم عدلا يتفجر العلم من جوانبه وينطق بالحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته وكان غزير العبرة طويل الفكرة يعجبه من اللباس ماقصر

---

(١) قد تقدم قريبا وصف سيدنا ضرار رضى الله عنه لسيدنا على رضى الله عنه بسؤال سيدنا معاوية رضى الله عنه مرة أخرى ولكن ببعض تغيير فلينظر اه

ومن الطعام ماخشن وكان فينا كاحدنا يجيبنا اذا سألناه و يأتينا اذا دعوناه ونحن والله مع تقريبه ايانا وقربنا منه لا نكاد نكلمه هيبة له يعظم أهل الدين و يقرب المساكين لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم أى اللديغ و يبكى بكاء الحزين و يقول يادنيا غرى غيرى الى تعرضت أم الى تشوفت هيهات هيهات قد طلقتك ثلاثا لا رجعة لى فيك فعمرك قصير وحظك قليل آه آه من قلة الزاد و بعد السفر و وحشة الطريق فبكى معاوية وقال رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه ياضرار فقال حزن من ذبح ولدها فى حجرها وسئل الحسن البصرى عن على رضى الله عنه فقال كان والله سهما صائبا من مرامى الله عز وجل على عدوه وربانى هذه الامة وذا فضلها وذا سابقتها وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن متراخيا عن أمر الله ولا بالملومة فى دين الله ولا بالسرقة لمال الله أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة ذلك على بن أبى طالب رضى الله عنه وقال صلى الله عليه وسلم على مع القرآن والقرآن مع على لا يفترقان حتى يردا على الحوض وقال صلى الله عليه وسلم النظر الى على عبادة وقال صلى الله عليه وسلم على امام البررة وقاتل الفجرة منصور من نصره مخذول من خذله وقال صلى الله عليه وسلم عنوان صحيفة المؤمن حب على بن أبى طالب وقال صلى الله عليه وسلم حب على يأكل الذنوب كما تأكل النار الحطب وقال صلى الله عليه وسلم ان السعيد كل السعيد حق السعيد من أحب عليا فى حياته و بعد مماته وقال صلى الله عليه وسلم من أحب عليا فقد أحبنى ومن أحبنى فقد أحب الله ومن أبغض عليا فقد أبغضنى ومن أبغضنى فقد أبغض الله وقال صلى الله عليه وسلم على يزهر فى الجنة ككوكب الصبح لاهل الدنيا قال ابن عباس رضى الله عنهما نزل فى على رضى الله عنه ثلاثمائة آية من آيات القرآن منها قوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) قال محمد بن الحنفية لا يبقى مؤمن الا

وفى قلبه ود لعلى وأهل بيتـه ولما نزل قوله تعالى (وتعيها أذن واعيـة) قال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم اجعلها اذن على قال على رضى الله عنه مانسيت بعـد ذلك شيأ وفضائل على رضى الله عنـه و بقية الخلفاء الراشدين كثيرة مفردة بالتأليف والقصد من ذلك كله بيان عدلهم فى بيت المال وانهـم انما فتحوا الفتوحات حتى اتسع الاسـلام بالعدل فى بيت المال وقصة استشهاد على رضى الله عنـه مشهورة لاحاجة لنا بذكرها وكان استشهاده سابع عشر رمضان سـنة أربعين من الهجرة وعمره ثلاث وستون سنة ومما ينبغى أن يلحق بالخلفاء الاربعة فى العدل فى بيت المال عمر بن عبـد العزيز رضى الله عنـه فان كثيرا من الائمة ألحقوه بالخلفاء الراشدين

﴿ ذكر ما كان لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنـه من الاقتصاد فى الدنيا وحسن السيرة ﴾

كان رضى الله عنه زاهدا عادلا فى بيت المال كانت نفقته التى يأخـذها من بيت المال كل يوم درهمين وقال رجاء بن حيوة قومت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو خليفة باثنى عشر درهما فقومت قميصه و رداؤه وقباؤه وسراويله وعمامته وقلنسوته وخفاه وكان يلبس القميص مرقعا كما كان يفـعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال سـعيد بن سويد صلى عمر بن عبـد العزيز بالناس الجمعـة وعليه قميص مرقوع بجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل يا أمير المؤمنين ان الله أعطاك فلو لبست فنكس مليا ثم رفع رأسه فقال ان أفضـل الزهد القصـد عنـد الجدة وأفضـل العفو عنـد القدرة وقال عون بن المعتمر دخـل عمر بن عبد العزيز يوما على امرأته فاطمة بنت عبد الملك فقال يافاطمة عندك درهم أشترى به عنبا قالت لا ثم قالت وأنت أمير المؤمنين لاتقـدر على درهم تشترى به عنبا قال هذا أهون علينا من معالجة الاغـلال غدا فى جهنم وقال أبو أمية الخصى غـلام عمر دخلت يوما على مولاى فغدتنى عدسا فقلت لها كل يوم عـدس فقالت يا بنى هذا طعام مولاك أمير المؤمنين ولما أفضت الخلافة اليـه وفرغ من دفن ابن عمه سليمان

ابن عبد الملك قربوا اليه من الخيل مراكب الخلافة يركب ماشاء منها وكانت مراكب كثيرة مزينة بانواع الزينة فأبى أن يركب شيأ منها وقال تكفيني بغلتي وباع تلك المراكب وما كان عليها من أنواع الزينة وجعل ذلك الثمن في بيت المال وكذا ما كان يصرف عليها من النفقات ومايصرف على خدمها القائمين عليها جعل ذلك كله في بيت مال المسلمين وأمر بالستور فهتكت والفرش التي كانت تبعا للخلفاء فحملت وأمر ببيعها وادخال ثمنها في بيت مال المسلمين قال مالك بن دينار الناس يقولون مالك زاهد انما الزاهد عمر بن عبد العزيز وقال عبد الله بن المبارك لما قيل له زاهد قال لست بزاهد انما الدنيا زهدتني وتركتني الزاهد عمر بن عبد العزيز جاءته الدنيا فزهد فيها وتركها وكان ابن سيرين اذا سئل عن الطلا قال نهى عنها الامام المهدي يعني عمر بن عبد العزيز وقال مسلمة بن عبد الملك دخلت على عمر ابن عبد العزيز أعوده في مرضه الذي توفي فيه فاذا عليه قيص وسخ فقلت لأختي فاطمة بنت عبد الملك ألا تغسلينه ثم رجعت مرة أخرى فوجدت القميص بحاله لم يغسل فقلت ألا تغسلين قيصه فقالت والله ماله غيره وقال قيس بن جبير مثل عمر عبد العزيز في بني أمية مثل مؤمن آل فرعون وقال ميمون بن مهران ان الله كان يتعهد الناس بنبي بعد نبي وان الله تعاهد الناس بعمر بن عبد العزيز وقال حسن القصاب رأيت الذئاب ترعى مع الغنم في البادية في خلافة عمر بن عبد العزيز فقلت سبحان الله ذئب في غنم لا يضرها فقال الراعي اذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس وقال مالك بن دينار لما ولي عمر بن عبد العزيز قالت رعاء الشاء من هذا الصالح الذي قام على الناس خليفة عدل تكف الذئاب عن شياهنا فقيل لهم وما علمكم بذلك فقالوا اذا قام على الناس خليفة عدل تكف الذئاب عن الشياه وكانت الشياه والذئاب ترعى في مكان واحد فبيناهم كذلك ذات ليلة اذ عرض الذئب لشاة فقالوا مانرى الرجل الصالح الا هلك وكان ذلك في زمان موته فلما بلغهم خبر موته بعد نحو شهر حسبوا ذلك فوجدوا موته في تلك الليلة وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز اليه ان مدينتنا قد خربت فان رأى أمير المؤمنين

أن يقطع لنا مالا نرمها به فكتب اليه عمر اذا قرأت كتابي هذا فحصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم فانه مرمها والسلام وكانت زوجته فاطمة بنت عمه عبد الملك بن مروان عندها حلي وجواهر لم ير مثلها أمر لها بها أبوها حين زوجها به فلما أفضت الخلافة اليه قال لها اختاري اما أن تردي حليك الى بيت المال لأنه أخذ بغير حق واما أن تأذني لي في فراقك فاني أكره أن أكون أنا وأنت وهذا الحلي في بيت واحد فقالت بل أختارك عليه وعلى أضعافه فأمر به فحمل حتى وضع في بيت المال فلما مات عمر واستخلف أخوها يزيد بن عبد الملك قال لأخته فاطمة ان شئت رددته عليك لان عمر أخذه منك بغير حق وأدخله بيت المال فأبت أن ترده وقالت لا أطيب به نفسا في حياته وأرجع فيه بعد موته فأخذه يزيد فقسمه بين أهله ولما ولي عمر الخلافة أخذ من بني عمه وقرابته أموالا كثيرة وضياعا وعقارات وأدخلها بيت المال وقال انهم أخذوها بغير حق وسمى ذلك مظالم ففزع بنو أمية الى عمته فاطمة بنت مروان وسألوها أنها تكلمه وتراجعه في ذلك فأتته فقالت له تكلمني أنت يا أمير المؤمنين فقال ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا الى الناس كافة ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهرا شربهم منه سواء ثم ولي أبو بكر فترك النهر على حاله ثم عمر فعمل عملهما ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان أبناء عبد الملك حتى أفضى الأمر الي وقد يبس النهر الأعظم فلم يرو أصحابه حتى يعود الى ما كان عليه فقالت حسبك قد أردت كلامك فأما اذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيأ أبدا فرجعت اليهم فأخبرتهم بكلامه وقيل انها قالت له ان بني أمية يقولون كذا وكذا فلما قال لها هذا الكلام قالت له انهم يحذرونك يوما من أيامهم تعني انهم يخرجون عليه ويقاتلونه فغضب وقال كل يوم أخافه غير يوم القيامة فلا أمنت شره فرجعت اليهم فأخبرتهم وقالت أنتم فعلتم هذا بأنفسكم تزوجتم بأولاد عمر فجاء يشبه جده فسكتوا أي لان أم عمر بن عبد العزيز هي أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب واسمها حفصة وكان رضي الله عنه بوجهه شجة ضربته فرس في جبينه وهو غلام فجعل

أبوه يمسح الدم عنه ويقول ان كنت أشج بني مروان لسعيد وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول من ولدي رجل بوجهه شجة يملأ الارض عدلا فكان هو عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وفي رواية كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول ليت شعري من ذو الشين من ولدي الذي يملؤها عدلا كما ملئت جورا وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول كنا نتحدث ان الدنيا لا تنقضي حتى يلي رجل من آل عمر يعمل بمثل عمر فكان بلال بن عبد الله بن عمر بوجهه شجة فكانوا يظنون أنه ذو الشين الذي ذكره عمر فلم يكن هو وما عرفوا ذا الشين حتى جاء الله بعمر بن عبد العزيز فولي الخلافة وسار بسيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن عبد الله بن مسلم عن أبيه قال دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده كاتب يكتب وشمعة تزهر وهو ينظر في أمور المسلمين فلما فرغ الكاتب وخرج أطفئت الشمعة وجيء بسراج الى عمر من ماله وكان سراجه على ثلاث قصبات فوقهن طين ولما ولي الخلافة أمر مناديا ينادي من كانت له مظلمة فليرفعها فقام اليه ذمي من أهل حمص أبيض الرأس واللحية فقال يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى قال وماذاك قال العباس بن الوليد بن عبد الملك غصبني أرضي والعباس جالس فقال ما تقول يا عباس قال أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وكتب لي بها سجلا فقال عمر ما تقول ياذمي فقال يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل فقال عمر كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد ابن عبد الملك قم فاردد اليه يا عباس ضيعته فردها عليه وجعل لا يدع شيأ مما كان في يده ويد أهل بيته من المظالم الا ردها مظلمة مظلمة ولما ولي عمر بن عبد العزيز كان عمر بن الوليد بن عبد الملك غائبا فسمع أن عمر بن عبد العزيز أخذ أموالا من بني عمه وعشيرته وردها الى بيت المال فكتب كتابا لعمر بن عبد العزيز يقول فيه انك قد أزريت على من قبلك من الخلفاء وعبت عليهم وسرت بغير سيرتهم بغضا لهم وشينا لمن بعدهم من أولادهم وقطعت ما أمر الله به أن يوصل اذ عمدت الى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جورا وعدوانا ولن تترك

على هذا أى فلابد أن يخرجوا عليك ويقاتلوك فلما قرأ كتابه كتب اليه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عمر بن الوليد السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين أما بعد فانه بلغنى كتابك وسأجيبك بنحو منه فأنا أول سائل فان كنت ابن الوليد كما زعم فأمك بنانة بنت السكن كانت تطوف فى سوق حمص وتدخل حوانيتها ثم الله عز وجل بها أعلم فاشتراها ذبيان من فىء المسلمين فأهداها لأبيك فحملت بك فبئس المحمول وبئس المولود ثم نشأت فكنت جبارا عنيدا تزعم أنى من الظالمين لما حرمتك وأهل بيتك فىء الله الذى فيه حق القرابة والمساكين والارامل وان أظلم منى وأترك لعهد الله سبحانه وتعالى من استعملك صبيا سفيها على جند المسلمين تحكم فيهم برأيك ولم يكن له فى ذلك نية الاحب الوالد ولده فويل لك وويل لابيك ما أكثر خصماءكما يوم القيامة وكيف ينجو والدك من خصمائه وان أظلم منى وأترك لعهد الله تعالى من استعمل قرة ابن شريك أعرابيا جافيا على مصر وأذن فى المعازف واللهو والشرب ومن جعل العالية البربرية سهما فى خمس العرب فرويدا ابن بنانة فلو التقت حلقتا البطان ورد الفىء الى أهله لتفرغت لك ولاهل بيتك فوضعتكم على المحجة البيضاء فطالما تركتم الحق ومن وراء هذا ما أرجو أن أكون رأيته من بيع رقبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والارامل فان لكل فيك حقا والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ولا ينال سلام الله الظالمين وكان عمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة على خير وعلم وصلاح وعبادة الا أنه كان متنعما فى مأكله ومشربه وملبسه فلما ولى الخلافة اخشوشن وترك ما كان عليه من التنعم وكان قبل أن يلى الخلافة لا يأكل الا أحسن الطعام ولا يلبس الا أحسن الثياب وكان يشترى له الحلة بألف دينار فاذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها وكان يؤتى له بالثوب الحسن الناعم فيلمسه بيده فيقول ما أحسنه لولا خشونة فيه فلما جاءته الخلافة واخشوشن فكان يؤتى له بالقميص الخشن الذى لا قيمة له فيلمسه بيده فيقول ما أحسنه لولا نعومة فيه فسئل عن ذلك فقال ان لى نفسا تواقة لا تنال شيأ

الا تاقت لما هو أرفع منه فلما نالت الخلافة اشتاقت الى الجنة وحدث الهيثم بن عدى قال كان لفاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر بن عبد العزيز جارية حسناء وكان عمر بن عبد العزيز يهوى تلك فجارية فطلبها من زوجته فاطمة لنفسه قبل أن يلى الخلافة فامتنعت من اعطائها اياه فلما ولى الخلافة أرادت فاطمة التقرب اليه والحظوة عنده فأمرت باصلاح الجارية وأدخلتها عليه وأعطته إياها فى أحسن صورة وقالت هى لك قد طبت بها نفسا فسر بقولها وظهر الفرح فى وجهه ثم لما خلا بالجارية لم يمسها بل سألها وقال لها لمن كنت ومن أين أتيت لفاطمة فقالت كان الحجاج أغرم عاملا كان له بالكوفة مالا وكنت فى رق ذلك العامل فأخذنى الحجاج فبعثنى الى عبد الملك بن مروان وأنا صبية فوهبنى عبد الملك لابنته فاطمة قال وما فعل ذلك العامل قالت هلك قال وترك ولدا قالت بلى قال فما حاله قالت سيء فكتب عمر الى عامله أن سرّح الى فلان بن فلان على البريد فلما قدم عليه قال له ارفع الىّ جميع ما أغرمه الحجاج أباك فما رفع اليه شيأ الا دفعه له ثم دفع اليه الجارية وقال له اياك واياها ولعل أباك قد وطئها فحرمت عليك فقال الغلام هى لك يا أمير المؤمنين وأراد اعطاءه اياها قال لا حاجة لى فيها فابتعها منى قال اذا لست ممن ينهى النفس عن الهوى فمضى بها الفتى فقالت الجارية لعمر فأين وجدك ومحبتك لى فقال على حاله ولقد ازددت قيل فما زالت فى نفس عمر حتى مات وكان مسلمة بن عبد الملك بن مروان متنعما ينفق كل يوم على مائدته ألف درهم فبعث اليه عمر بن عبد العزيز يوما أن يتغدى عنده فهيأ له طعاما وأمر أن يحبس الطعام وأن يقدم اليه قبل ذلك العدس لكن أخروا تقديمه حتى جاع مسلمة جوعا طويلا فقال عمر لخادمه ويحك ان أبا سعيد لا يصبر على الجوع فأتنا بما عندك فأتاه بالعدس فأكل مسلمة من ذلك أكلا عنيفا منكرا لشدة جوعه حتى شبع ثم جىء بالطعام الذى هيأه فقال عمر كل يا أبا سعيد فقال قد اكتفيت فقال عمر يا أبا سعيد تكفيك أكلة بدانقين وعلى مائدتك ألف درهم كل يوم فتاب وأعطى الله عهدا أن لا يعود لمثل ذلك ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن

عبد العزيز فى مرضه الذى توفى فيه فقال يا أمير المؤمنين ألا توصى قال وهل من مال أوصى فيه فقال مسلمة هذه مائة ألف أبعث بها اليك أوص فيها فقال له عمر أو غير ذلك يا مسلمة قال وما هو يا أمير المؤمنين قال تردها من حيث أخذتها فبكى مسلمة وقال رحمك الله يا أمير المؤمنين لقد ألنت منا قلوبا قاسية وزرعت فى قلوب الناس لنا مودة وأبقيت لنا فى الصالحين ذكرا ثم قال مسلمة فأوص الى بنيك فقال عمر أوصى بهم الى الله عز وجل وهو يتولى الصالحين وفى رواية ان بنى أحد رجلين اما رجل يتقى الله تعالى فسيجعل الله له مخرجا واما رجل مكب على المعاصى فانى لم أكن لأقويه على معاصى الله وفى رواية ان كانوا صالحين فالله يتولى الصالحين وان كانوا مجرمين فلن أكون ظهيرا للمجرمين ولما مات رضى الله عنه بلغت تركته سبعة عشر دينارا كفن منها بخمسة دنانير واشترى موضع قبره بدينارين وكان بنوه أحد عشر ابنا فأصاب كل واحد من بنيه تسعة عشر درهما ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابنا فأصاب كل واحد من تركته ألف ألف ثم رؤى واحد من ولد عمر بن عبد العزيز جهز فى يوم واحد مائة فارس ورؤى واحد من ولد هشام يسأل الناس و يتصدق عليه وكان سليمان بن عبد الملك يقتل الخوارج كثيرا فكان عمر بن عبد العزيز يشير عليه بحبسهم حتى يتوبوا و ينهاه عن قتلهم فجاء خارجى مرة لسليمان بن عبد الملك وقال له يا فاسق يا ابن الفاسق فقال سليمان علىّ بعمر بن عبد العزيز فلما جاء قال له سليمان اسمع مقالة هذا فأعاد الخارجى قوله يا فاسق يا ابن الفاسق فقال سليمان لعمر ماذا ترى فسكت عمر فقال له سليمان عزمت عليك لتخبرنى بما ترى فقال عمر أرى أن تشتمه كما شتمك فقال سليمان ليس الا هذا قال نعم ثم أمر سليمان بالخارجى فقتل بضرب عنقه فلما خرج عمر أدركه خالد بن الريان صاحب حرس سليمان فقال يا عمر كيف تقول لامير المؤمنين ما أرى عليه الا أن تشتمه كما شتمك والله لقد كنت متوقعا أن يأمرنى أمير المؤمنين بضرب عنقك قال ولو أمرك لفعلت قال أى والله فلما أفضت الخلافة الى عمر جاء خالد فقام مقام صاحب الحرس فقال له عمر يا خالد ضع هذا السيف

عنك ثم قال اللهم انى وضعت لك خالد بن الريان فلا ترفعه أبدا ثم نظر الى وجوه الحرس فدعا عمرو بن مهاجر الانصارى وقال يا عمرو والله ليعلم الله أن ما بينى و بينك قرابة الاقرابة الاسلام ولكن قد سمعتك تكثر تلاوة القرآن ورأيتك تصلى فى موضع تظن أنه لا يراك أحد الا الله ورأيتك تحسن الصلاة وأنت رجل من الانصار خذ هذا السيف فقد وليتك حرسى فوضع الله ذكر خالد بدعوة عمر ابن عبد العزيز حتى كان لا يذكر ولا يدرى أحى هو أم ميت قال يحيى بن يحيى فما رأيت شريفا خمل ذكره حتى لا يذكر مثل خالد بن الريان حتى ان كاد الناس يقولون ما فعل خالد أحى هو أو قد مات لخمول ذكره بدعوة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة قال لميمون بن مهران كيف لى بأعوان على هذا الامر أثق بهم فقال يا أمير المؤمنين لا تشغل قلبك بهذا فانك سوق وانما يحمل الى كل سوق ما ينفق فيه فاذا عرف الناس منك النصح لم يأتوك الا بالنصح فكان الأمر كذلك وكان رضى الله عنه يجمع الفقهاء عنده كل ليلة فيذكرون الموت والقيامة و يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة وكان رضى الله عنه يقول مالى فى الامور هوى سوى مواقع قضاء الله فيها وما كنت على حالة من حالات الدنيا فسرنى أنى على غيرها و بلغ عمر بن عبد العزيز ان ابنا له اشترى فصا بألف درهم وتختم به فأمره أن يبيع الفص و يتصدق بثمنه وأن يشترى فصا بدرهم و ينقش عليه رحم الله امرأ عرف نفسه وعن الاوزاعى قال قال عمر بن عبد العزيز لجلسائه من صحبنى منكم فليصحبنى بخمس خصال يدلنى من العدل على مالا أهتدى له ويكون لى على الخير عونا ويبلغنى حاجة من لا يستطيع بلاغها ولا يغتاب عندى أحدا و يؤدى الامانة التى حملها منى ومن الناس فاذا كان كذلك فحيهلا به والا فهو فى حرج من صحبتى والدخول على وعن الزهرى قال كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة وقال ميمون ابن مهران عمر بن عبد العزيز معلم العلماء أتينا عمر نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه ولما ظهر من عدله ما ظهر وضع له جماعة من بنى أمية من سقاه السم فقيل له

تدارك نفسك فقال والله لقد عرفت الساعة التي سقيت فيها ولو كان شفائي أن أمس شحمة أذني ما فعلت وسأل الذي سقاه السم فأقر فقال له كم أعطوك فقال ألف دينار فقال ائتني بها فأتاه بها فوضعها في بيت المال وقال له غيب وجهك عني ولم يعاقبه وجاء رجل الى هشام بن عبد الملك فقال يا أمير المؤمنين ان عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرها الوليد وسليمان حتى استخلف عمر رحمه الله نزعها مني فقال هشام أعد مقالك فقال يا أمير المؤمنين ان عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرها الوليد وسليمان حتى استخلف عمر رحمه الله نزعها مني فقال هشام والله ان فيك لعجبا انك تذكر من أقطع جدك القطيعة ومن أقرها فلا تترحم عليه وتذكر من انتزعها منك فتترحم عليه وانا قد أمضينا ما صنع عمر رحمه الله وقال سفيان الثوري والشافعي وكثير من الأئمة * الخلفاء خمسة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز ولما عهد اليه سليمان بن عبد الملك بالخلافة امتنع من القبول فأكرهوه على البيعة فلما فرغوا من البيعة صعد المنبر فقال يا أيها الناس قد ابتليت بهذا الامر من غير رأي مني ولا مشورة من المسلمين واني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم فصاح المسلمون صيحة واحدة قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك في أمرنا باليمن والبركة فلما رأى الاصوات قد هدأت ورضوا به جميعا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وقال أوصيكم بتقوى الله الى أن قال ان هذه الامة لم تختلف في ربها ولا في نبيها ولا في كتابها وانما اختلفوا في الدنانير والدراهم والله لا أعطي أحدا باطلا ولا أمنع أحدا حقا ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال أيها الناس من أطاع الله فقد وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له أطيعوني ان أطعت الله تعالى فاذا عصيت الله تعالى فلا طاعة لي عليكم ثم نزل فدخل داره وكانت فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم تكثر من الترحم على عمر بن عبد العزيز فقيل لها في ذلك فقالت دخلت عليه وهو أمير المؤمنين فأخرج عنه كل خصي حتى لم يبق في البيت غيري وغيره ثم قال والله ما على وجه الارض أهل بيت أحب إلي منكم ولأنتم أحب إلي

من أهل بيتى وماترك لى حاجة إلا قضاها وقال الامام محمد الباقر بن زين العابدين رضى الله عنه أن عمر بن عبد العزيز نجيب بنى أمية وانه يبعث يوم القيامة أمة وحده وعن حماد أن عمر بن عبد العزيز لما استخلف بكى فقال يافلان تخشى على قلت كيف حبك للدرهم قال لا أحبه قلت لاتخف فان الله سيعينك وقال فى بعض خطبه أيها الناس انه لا كتاب بعد القرآن ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم وانى لست بقاض ولكن منفذ ولست بمبتدع ولكنى متبع ولست بخير من أحدكم ولكنى أثقلكم حملا ان الرجل الهارب من الامام الظالم ليس بظالم لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وقال بعض علماء التابعين ان عمر بن عبد العزيز هو المهدى الذى أخبر عنه النبى صلى الله عليه وسلم انه يملأ الارض عدلا لكن الصحيح الذى عليه جمهور العلماء أنه مهدى من جملة المهديين وأما المهدى المنتظر فانه من ولد فاطمة رضى الله عنها ويجتمع بعيسى عليه السلام ويكون خروج الدجال فى أيامه وذلك من أعظم علاماته ومما استدل به القائلون بأن عمر بن عبد العزيز هو المهدى كثرة المال فى زمانه وزهد الناس فى الدنيا وذلك من علامات المهدى قال معمر بن أسيد والله مامات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول اجعلوا هذا حيث ترون فما يبرح حتى يرجع بماله كله وقد أغنى عمر الناس وقد علمت أنه مهدى من جملة المهديين وليس هو المهدى المنتظر وان وجد كثير من علامات المهدى المنتظر فى زمانه وكان عمر بن عبد العزيز كثير العبادة والزهد والخوف والبكاء قال عطاء بن أبى رباح حدثتنى فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز انها دخلت عليه وهو فى مصلاه تسيل دموعه على خديه فقالت يا أمير المؤمنين أشئ حدث قال يافاطمة انى تقلدت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم أسودها وأحمرها فتفكرت فى الفقير الجائع والمريض الضائع والعارى المجهود والمظلوم المقهور والغريب الاسير والشيخ الكبير وذى العيال الكثير والمال القليل وأشباههم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد فعلمت أن ربى سيسألنى عنهم يوم القيامة فخشيت أن لا تثبت لى حجتى فبكيت قال عطاء الخراسانى أمر

عمر بن عبد العزيز غلامه أن يسخن له ماء فانطلق فسخن قمقما فى مطبخ بيت المال فلما علم عمر أمر الغلام أن يشترى حطبا بدرهم و يجعله فى مطبخ بيت المال وأهدى اليه رجل من أهل بيته تفاحا طيب الطعم والريح فقال عمر ما أطيب ريحه وأحسنه ادفعه ياغلام للذى أتى به وقل له ان هديتك عندنا وقعت بحيث تحب وكان عنده عمرو بن مهاجر فقال يا أمير المؤمنين ابن عمك ورجل من أهل بيتك وقد بلغك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأكل الهدية فقال و يحك ان الهدية كانت للنبى صلى الله عليه وسلم هدية وهى اليوم لنا رشوة وقال مكحول لو حلفت لصدقت ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز وقال سعيد بن أبى عروبة كان عمر بن عبد العزيز اذا ذكر الموت اضطربت أوصاله واجتمع بنو مروان يوما وقالوا لعبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قل لأبيك ان من كان قبلك من الخلفاء يعطوننا و يعرفون لنا مواضع حقوقنا وان أباك قد أحرمنا ما فى يده فدخل على أبيه فأخبره فقال قل لهم انى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم وقال أرطاة بن المنذر قيل لعمر بن عبد العزيز لو اتخذت حرسا واحترست فى طعامك وشرابك فقال اللهم ان كنت تعلم أنى أخاف شيأ دون يوم القيامة فلا تؤمن خوفى وكتب اليه عامل خراسان ان أهل خراسان قوم ساءت رعيتهم ولا يصلحهم إلا السيف والسوط فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى ذلك فكتب اليه عمر أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر أن أهل خراسان قد ساءت رعيتهم وأنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط فقد كذبت بل يصلحهم العدل والحق فابسط ذلك فيهم والسلام وكان رضى الله عنه اذا أملى على كاتبه يقول اللهم انى أعوذ بك من شر لسانى وبكى رضى الله عنه مرة فبكت لبكائه فاطمة زوجته فبكى أهل الدار لبكائهما ولا يدرى أحد منهم ماسبب البكاء فلما تجلى عنهم قالت له فاطمة بأبى أنت يا أمير المؤمنين مم بكيت قال ذكرت منصرف القوم من بين يدى الله عز وجل فريق فى الجنة وفريق فى السعير ثم صرخ وغشى عليه ورفع رضى الله عنه مرة بيده كفا من تمر وقال لمسلمة بن عبد الملك ان الماء على التمر طيب أرأيت لو أن رجلا

أكل هذا ثم شرب عليه الماء أكان يجزيه الى الليل قال نعم قال فعلام تدخل النار قال مسلمة فما وقعت منى موعظة موقعها وجاء ابن سليمان بن عبد الملك الى مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز وحاجبه فقال ان لى حاجة الى أمير المؤمنين عمر فاستأذن له فأذن له فلما دخل قال له يا أمير المؤمنين ردّ علىّ قطيعتى التى أخذت منى فقال عمر معاذ الله أن أرد قطيعة أصبحت فى الاسلام فقال هذا كتابى وأخرج كتابا من كمه فقرأه عمر فقال لمن كانت هذه الارض قبلك قال للفاسق ابن الحجاج فقال عمر فهو أولى بدعواها قال فانها من بيت مال المسلمين قال فالمسلمون أولى بها قال يا أمير المؤمنين رد على كتابى قال لا أفعل لو لم تأتنى به لم أسألكه فاما اذ جئتنى به فلم ندعك تطلب باطلا فبكى ابن سليمان فقال مزاحم يا أمير المؤمنين ابن سليمان تصنع به هذا قال ويحك يا مزاحم انها نفسى أجادل عنها وانى لاجد له من الشفقة ما أجد لولدى وكتب سالم بن عبد الله بن عمر لعمر بن عبد العزيز بعضا من سيرة عمر بن الخطاب لما طلب منه ذلك عمر بن عبد العزيز ثم قال سالم ان عمر بن الخطاب عمل فى غير زمانك وكان له مساعد ومعين على ما يريده من الحق فان عملت فى زمانك بمثل ما عمل فى زمانه كنت أفضل منه وأرسل مرة عمر بن عبد العزيز غلاما له يشوى له لحما فعجل الغلام بها فقال له عمر أسرعت بها فقال شويتها فى نار مطبخ بيت مال المسلمين وكان للمسلمين مطبخ يغديهم ويعشيهم منه فقال عمر لغلامه اذهب فكلها يا بنى فانك رزقتها ولم أرزقها وكان لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه سفط فيه دراعة من شعر وغل وكان له بيت فى جوف بيت يصلى فيه لا يدخل عليه فيه أحد فاذا كان فى آخر الليل فتح ذلك السفط ولبس تلك الدراعة ووضع الغل فى عنقه فلا يزال يصلى ويناجى ربه ويبكى حتى يطلع الفجر ثم يعيده فى السفط وقال الامام الغزالى فى الاحياء دخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز على عمر رضى الله عنه فسلمت عليه ثم قامت الى المسجد فى بيته فصلت فيه ركعتين ثم غلبتها عيناها فرقدت واسترسلت فى منامها ثم استيقظت وقالت يا أمير المؤمنين انى والله رأيت عجبا

قال وماذاك قالت رأيت النار وهى تزفر على أهلها ثم جىء بالصراط فوضع على متنها فقال هيه فقالت فجىء بعبد الملك بن مروان فحمل عليه فما مضى الايسيرا حتى انكفأ به الصراط فهوى الى جهنم فقال هيه قالت ثم جىء بالوليد ابن عبد الملك فحمل عليه فما مضى الا يسيرا حتى انكفأ به الصراط فهوى فى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جىء بسليمان بن عبد الملك فما مضى عليه الا يسيرا حتى انكفأ به الصراط فهوى فى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جىء بك يا أمير المؤمنين فصاح عمر صيحة وخر مغشيا عليه فقامت اليه فجعلت تنادى فى أذنيه يا أمير المؤمنين انى والله رأيتك نجوت ثم حتى نجوت قال فازالت تنادى وهو يصيح ويفحص برجليه وكتب عمر بن عبد العزيز الى بعض عماله وهو عدى بن أرطاة وكان قد ولاه البصرة فلما أراد عزله كتب له بعزله وقال له فى كتابه أما بعد فانك غررتنى بعمامتك السوداء وارسالك طرفها من ورائك ومجالستك القراء وانك أظهرت لى الخير فاحسنت بك الظن وقد أظهرنى الله على ما كنت تكتم والسلام وذكر الفضيل بن عياض أن بعض عمال عمر بن عبد العزيز شكا اليه مشقة القيام بعمله فكتب اليه عمر يا أخى أذكر سهر أهل النار فى النار مع خلود الابد وايالك أن ينصرف بك من عند الله عز وجل فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء فلما قرأ العامل الكتاب ترك عمله وانصرف وطوى الارض حتى قدم على عمر فقال له ما أقدمك قال خلعت قلبى بكتابك لا أعود الى ولاية أبدا حتى ألقى الله عز وجل ولما استخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه دخل عليه سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن كعب وهو كئيب حزين فقال لاحدهما عظنى فقال يا أمير المؤمنين ان الله سبحانه وتعالى لم يجعل أحدا من خلقه فوقك فلا ترضى لنفسك أن يكون أحد من خلقه أطوع منك ولا ترضى أن يكون أحد أولى بالشكر منك فبكى عمر رحمه الله حتى غشى عليه ثم أفاق فقال هيه يا أبا خالد لم يرض أن يكون فوقى فوالله لا خافنه خوفا ولا حذرنه حذرا ولارجونه رجاء ولاحبنه محبة ولاشكرنه شكرا ولأحمدنه حمدا يكون ذلك كله

غاية طاقتي ولأجتهدن في العدل والنصفة والزهد في الدنيا والرغبة في باقي الآخرة ودوامها حتى ألقى الله عز وجل لعلي أنجو مع الناجين وأفوز مع الفائزين ثم بكى حتى غشي عليه وقال له الآخر اجعل الناس ثلاثة الكبير بمنزلة الاب والوسط بمنزلة الاخ والصغير بمنزلة الولد فبر أباك وصل أخاك واعطف على ولدك قال زياد مولى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يا أمير المؤمنين أخبرني عن رجل له خصم ألد ما حاله قال سيء الحال قال فان كانا خصمين ألدين قال ذاك حاله أسوأ قال فان كانوا ثلاثة قال ذاك حين لا يهنأه عيش قال فوالله يا أمير المؤمنين ما أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم الا وهو خصم لك قال فبكى عمر حتى تمنيت أن لا أكون قلت له وعن نعيم قال قلت لعمر بن عبد العزيز وقد رأيته قاعدا يا أمير المؤمنين ما يقعدك ههنا قال أنتظر ثيابي تغسل لاصعد بها المنبر قلت وما هي قال قميص وازار ورداء قيمتهن أربعة عشر درهما وقال اسماعيل بن عياش قلت لعمرو بن المهاجر ما كان يلبس عمر في بيته قال جبة سوداء مبطنة وكان رضي الله عنه يقول ما تركت شيأ من الدنيا الا أعقبني في قلبي ما هو أفضل منه يعني بالزهد وما أنعم الله علي في ديني أفضل وقال أحمد بن أبي الحواري سمعت أبا سليمان الداراني وأبا صفوان يتناظران في عمر بن عبد العزيز وأويس القرني فقال أبو سليمان لأبي صفوان كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس فقال له ولم قال لان عمر ملك الدنيا فزهد فيها فقال له أبو صفوان وأويس لو ملكها لزهد فيها مثل ما فعل عمر فقال أبو سليمان لا تجعل من جرب كمن لم يجرب ان من جرت الدنيا على يديه وليس لها في قلبه موقع أفضل ممن لم تجر على يديه وان لم يكن لها في قلبه موقع وكان في دار عمر بن عبد العزيز درجة فيها لبنة تتحرك فكان كلما نزل أو صعد ارتاع منها فعمد مولى له فشدها بطين فلما صعد عمر لم يرها فسأل عنها فقال له مولاه رأيتك ترتاع منها فشددتها فقال له عمر أعدها الى حالها فاني أعطيت الله عهدا ان وليت هذا الأمر أن لا أضع لبنة على لبنة ولا آجرة على آجرة وكان رضي الله عنه يقول ليس لي في الأمور هوى الا مواقع القضاء أي ما يقضيه الله علي وفي رواية ما كنت

على حالة من حالات الدنيا فسرنى أنى على غيرها * ومن دعائه رضى الله عنه اللهم انى أطيعك فى أحب الاشياء اليك وهو التوحيد ولم أعصك فى أبغض الاشياء اليك وهو الشرك فاغفر لى ما بينهما ومن كلامه رضى الله عنه ذكر الله عز وجل عظيم والفكر فى نعم الله عز وجل أفضل العبادة * ومن دعائه اللهم اصلح من كان فى صلاحه صلاح لامة محمد صلى الله عليه وسلم وأهلك من كان فى هلاكه صلاح لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ولما سقى السم قيل له تدارك نفسك فقال والله لقد عرفت الساعة التى سقيت فيها ولو كان شفائى أن أمس شحمة أذنى ما فعلت وكان رضى الله عنه يبغض الحجاج على ظلمه بغضا كثيرا وكان يقول ما حسدت الحجاج على شئ الا على حبه القرآن واعطائه أهله وقوله حين حضرته الوفاة اللهم اغفر لى فان عبادك يزعمون أنك لا تفعل ولما حضرت الوفاة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قال أجلسونى فأجلسوه فقال أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت ولكن لا اله الا الله ثم رفع رأسه وأحد النظر فقيل له انك لتنظر نظرا شديدا قال انى لارى أناسا ما هم بانس ولا جن ثم قال تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ثم قال لا اله الا الله لمثل هذا فليعمل العاملون وقال يوسف بن ماهك بينما نحن نسوى التراب على قبر عمر بن عبد العزيز اذ سقط علينا رق من السماء فيه بسم الله الرحمن الرحيم أمان من الله تعالى لعمر بن عبد العزيز ووفاء واستشهد رجل بالشام فكان يأتى الى أبيه كل ليلة جمعة فى المنام فيحدثه ويأنس به فغاب عنه جمعة ثم جاء فى الجمعة الأخرى فقال يا بنى لقد تأخرت عنى وشق على تخلفك فقال انما شغلنى عنك ان الشهداء أمروا ان يتلقوا عمر بن عبد العزيز فتلقيناه وكان ذلك عند موت عمر بن عبد العزيز وكانت وفاته رضى الله عنه سنة احدى ومائة وعمره تسع وثلاثون سنة وأشهر ومدة خلافته سنتان وخمسة أشهر ومناقبه كثيرة أفردت بالتأليف رضى الله عنه وقد تقدم فى مناقب السلطان صلاح الدين الايوبى انه كان زاهدا مقتصدا فى الدنيا وانه لما مات لم يخلف سوى سبعة وأربعين درهما ودينارا واحدا وقد خلف سبعة عشر ولدا

ذكراوأنثى وتقدم أيضا في مناقب السلطان نور الدين محمود بن زنكي أنه كان يقول في أموال بيت المال انما هي أموال المسلمين واني خازن لهم فلا أخونهم فيها وان زوجته قلت النفقة عنها فلم يعطها من بيت المال وأعطاها ثلاثة دكاكين بحمص كانت له اشتراها من ماله الذي خصه من الغنيمة وقد علم من ذلك كله ان الزهد في الدنيا والاقتصاد فيها هو ملاك الامر كله وان الخلفاء الراشدين والسلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين انما فتح كل منهم مافتح من البلاد ومكن الله لهم في الارض بين العباد بالزهد في الدنيا والاقتصاد فيها والعدل في بيت المال قال العلامة القطبي في تاريخه لما أراد الله بأهل الارض احسانا وافضالا وقدر ظهور العدل والفضل فيهم اكراما لهم واجلالا وقضى باطفاء نيران الظلم والفتن ورفع مواد الفساد والمحن وتأييد دين الاسلام وتقوية أهل السنة السنية المتمسكين بسنن سنن سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام واقامة الشرع الشريف على رغم الملحدة اللئام أطلع في أفق الخلافة العظمى شموس الايالة العثمانية وأسطع من أوج سماء السلطنة الكبرى كمال المعدلة الخاقانية وأجلسهم على سرير الملك وملكهم أعظم ممالك الاسلام وفتح على أيديهم الممالك العظام ونشر بهم جناح الأمن والأمان لازالت دولتهم باقية الى آخر الزمان اه ثم ذكر في تراجمهم مايبهر العقول من محاسن الصفات ومن الزهد والعدل والجهاد وفعل الخيرات وقد تقدم في هذا الكتاب كثير من ذلك ومن تأمل في سيرة الملوك والسلاطين الذين كانوا بعد الخلفاء الراشدين يحصل له كمال اليقين بأن الدولة العثمانية أحسن الدول الاسلامية بين العالمين بعد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين لأنهم اتصفوا بصفات لم يتصف بها كثير من دول الاسلام وجمعوا فضائل لم تكن لغيرهم على ممر الليالي والأيام فمنها أن لهم كثيرا من الفتوحات الواسعة والغزوات الشهيرة في الأقطار الشاسعة حتى اتسع بفتوحاتهم الاسلام وانتشر العلم والأمن والأمان بين الأنام ومنها أن عقائدهم صحيحة مطابقة لعقيدة أهل السنة والجماعة ليس فيهم مبتدع ولا خارج عن الطاعة ومنها أنهم ناصرون لمذهب أهل السنة وقائمون بشعائر الدين في كافة مدن الاسلام لاسيما في الحرمين الشريفين اللذين هما منبع

الدين وأساسه ومطلع نوره ونبراسه فانهم موظفون لأهل الحرمين الوظائف التي بها قوام الدين ومظهرون شعار الائمة الأربعة الذين انحصر فيهم مذهب أهل السنة والجماعة ومرتبون للقائمين بوظائف الدين أعظم المرتبات ومنعمون عليهم بأنواع كثيرة من أصناف البر الذي به تكثر الحسنات ومرتبون أيضا للاشراف والسادات والعلماء والصلحاء الابرار مايقوم بكفايتهم في المعيشة التي عليها المدار فأعانوا الجميع على القيام بالعبادة والاشتغال بالعلم النافع فقاموا بأداء الشكر لله تعالى وبذل الدعوات الخيرية للدولة العلية العثمانية في كل مسجد وجامع ومن محاسنهم الجليلة ومناقبهم الاثيلة أنهم دافعون كيد الكفرة الفجار والمبتدعة الاشرار بعساكرهم وخزائنهم في سائر الاقطار ومؤمنون الطرقات للحجاج والزوار والتجار والمسافرين باذلون غاية جهدهم في نصرة الاسلام وصيانة الدين فيجب على كافة المسلمين السعي في تشييد دولتهم وتثبيت قواعد سلطنتهم والدعاء لهم بدوام التوفيق والنصر الذي يكون به تأييد مملكتهم اللهم وفقهم لكل خير وادفع عنهم كل مكروه وضير ووفق سائر الوزراء والامراء والقضاة والعلماء والعمال للعدل ونصرة الدين وقد من الله على أهل هذا العصر الجيد بسلطنة واسطة عقد الدولة العثمانية الفريد من تشرفت بذكره في الحرمين الشريفين المنابر والمنابر وعمر مساجدهما فصدق عليه قوله تعالى انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر السلطان الاعظم والخاقان الاكرم الافخم خير خلف خلفاء الرحمن أشرف سلف آل عثمان السلطان ابن السلطان ابن السلطان الملك المنصور المظفر المعان مولانا ✻ السلطان الغازي عبد الحميد خان ✻ ابن المرحوم مولانا السلطان الغازي عبد المجيد خان متع الله المسلمين بوجوده وأفاض عليهم سحائب فضله وجوده وأدام له النصر والتمكين وأيده بروح القدس الامين فكان له من حين ولايته الى هذا الزمان من محاسن الصفات وفعل الخير مايعجز عن بيانه اللسان فمن ذلك أنه عمر عمارة فائقة في الكعبة المعظمة وفرش باطنها بالرخام على أعجب الاوصاف المنظمة وبذل على ذلك كثيرا من الاموال وأنعم على مباشر بها بما لا يخطر بالبال وكان ذلك في سنة تسع وتسعين بعد

المائتين والالف من هجرة من له العز والشرف صلى الله عليه وسلم * ومن مآثره وخيراته الجليلة صدور رأمره الكريم بوضع مطبعة فى مكة المشرفة يطبع فيها كتب العلوم ليكثر انتشار العلم فى موضع مهبط الوحى الذى هو مرجع الخصوص والعموم فيحصل له بذلك ثواب نشر العلم وتأييد قواعد الدين اللذين هما من أقوى أسباب التأييد والتمكين فكان وضع المطبعة المذكورة سنة ثلاثمائة بعد الالف من هجرة من له العز والشرف صلى الله عليه وسلم فامتثل أمره وقام بوضعها واجتهد غاية الاجتهاد وبذل وسعه حتى كملت واشتهرت بين العباد الوزير المعظم والمشير المفخم دولتلو السيد عثمان نورى باشا والى ولاية الحجاز وشيخ الحرم المحترم لازال فعله مبرورا وسعيه مشكورا وأقام فى المطبعة المذكورة مديرا شويكى زاده السيد عبد الغنى أفندى الدمشقى فصارت الناس تهرع اليها من جميع المواضع لطبع كتب العلوم فيها ويطبع فيها باللسان العربى والتركى والجاوى ففاقت بذلك جميع المطابع فنسأل الله تعالى أن يديم هذه السلطنة السنية ويوفقها لكل خصلة مرضية ويزيدها توفيقا على ممر الزمان حتى تكون أهل هذه الملة بهذه الدولة فى أعلى مقامات الاستقامة والاحسان ويتحقق بها ما تقدم عن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه من قوله لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولها ونسأل الله للجميع التوفيق والاعانة والاخلاص والقبول وحسن الختام بجاه سيدنا محمد صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الكرام وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وكان التمام للفتوحات الاسلامية يوم الثلاثاء الثامن عشر من شهر محرم الحرام سنة ثلاث بعد الثلاثمائة والالف من هجرة من له العز والشرف صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم آمين

بحمد رب البريه تم طبع الفتوحات الاسلامية بمطبعة السعادة الزاهرة البهية فى أواخر آخر الربيعين من عام ١٣٣٠ من هجرة سيد العالمين صلى الله وسلم عليه وآله وكل منتم اليه

﴿ فهرست الجزء الثانى من الفتوحات الاسلامية ﴾

صحيفة

صحيفة

﴿ تمت ﴾